

الإصناع والهوانسة

تأليف
أبي حيان التوحيدي



المكتبة العصرية
مكتبة - بيروت

كِتَابُ الْمُتَنَاعِ وَالْمُؤَانِسَةِ

تَأَلِيفُ
أَبِي حَيَّانَ التَّوْحِيدِي

وَهُوَ مَجْمُوعُ مَسَامِرَاتٍ فِي دِفْعَتَيْنِ شَتَّى
حَاضِرَ بِهَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضُ فِي عِدَّةٍ لَيَالٍ

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَهُ
هَيْثَمُ خَلِيفَةُ الطَّعِيمِي

الْجُزْءُ الْأَوَّلُ

مَلِكْتَبَةُ الْعِصْرَةِ
مَكِيدَا - بَكْرِيُون



شركة أبناء شريف الانصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية •

الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١

بيروت - لبنان

• الدار النورية •

الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥

تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١

بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية •

بوليثار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١

تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٢٦١ ٧ ٠٠٩٦١

صيدا - لبنان

٢٠١١ م - ١٤٣٢ هـ

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نسخ أو تسجيل أو استعمال أي جزء من
هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية
أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail

alassrya@terra.net.lb

alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت

www.almaktaba-alassrya.com

ISBN 9953-34-112-5

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وبعد:
فإن أبا حيان التوحيدي، من المفكرين المسلمين المبدعين، ضرب بسهم في كل
علم من علوم عصره، مثقف متمرد على مواضع عصره، الحالم بالانتقال إلى عالم
واعد.

تجمع كتبه إلى عمق الفكرة أناقة العبارة ورشاقة الأسلوب. من أجل ذلك فإن
بعض المؤرخين يلقبونه بالجاحظ الثاني، وإن كتابه «الإمتاع والمؤانسة» الذي بين
أيدينا من أمتع كتبه وأنسها، ومن أهم آثاره. حيث أبدى برأيه في الكثير من القضايا
النقدية والمسائل الخلافية وعالج فيه الكثير من الموضوعات من أخبار أدبية وشعر ونثر
ولغة وفلسفة ومنطق وسياسة وحيوان وطعام وشراب ومجون وغناء وتاريخ وتحليل
لشخصيات العصر من ساسة وعلماء وفلاسفة وأدباء. مما جعله مرآة لزمانه وجعلنا
نعرف ما هي الصراعات الفكرية والثقافية في عصره.

وإننا في المكتبة العصرية، لما التزمنا نشر الكتاب الهادف فإنه يسرنا أن نقدم
للقرء الكرام هذا الكتاب «الإمتاع والمؤانسة» في طبعته الجديدة اعتماداً على طبعته
الأولى التي أصدرها أحمد أمين وأحمد الزين، وقد قدمنا نبذة عن المؤلف وسيرته
وإنتاجه وعلاقته بالحكام، وخزجنا بعض أحاديث الكتاب واخترنا بعضاً من هوامش
الأستاذ أحمد أمين وأحمد الزين.

وأخيراً نرجو من الله تعالى أن يوفقنا في عملنا وأن يجعله في ميزان حسناتنا إنه
قريب مجيب.

ترجمة المؤلف

اسمه :

أبو حيان علي بن محمد بن العباس التّوحّيدي المعروف بأبي حيان التّوحّيدي، كان بارعاً في جميع العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه وعلم الكلام على رأي المعتزلة، معجباً بالجاحظ وسلك في تصانيفه مسلكه. نعته ياقوت الحموي بـ«شيخ الصوفية وفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة ومحقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء...».

ورغم مكانة أبي حيان هذه وإسهاماته في العديد من العلوم والفنون، فلم يفرد واحد من مؤلفي كتب التراجم والطبقات بترجمة قبل ياقوت الحموي (٥٧٥ - ٦٢٦هـ) الذي يعد أول من نظر إليه نظرة متأنية اتضحت له معها شخصيته وعلمه وأدبه، وتعجب من إهمال المؤرخين له مع ما له من المنزلة الرفيعة التي أطلعه عليها تقصّيه لأحواله وقراءاته المنظمة لكتبه، حتى قال الصّفدي: «وقد طَوّل ياقوت في ترجمته زائداً إلى الغاية».

أصله^(١):

من الصعب أن يقطع برأي في الأصل الذي انحدر منه أبو حيان التوحّيدي، فإن البعض يزعم أنه فارسي من أصل شيرازي أو نيسابوري أو واسطي، بينما يزعم آخرون أنه عربيّ نشأ في بغداد، ثم وفد بعد ذلك على شيراز. وعلى الرغم من أن ياقوت الحموي يعترف في ترجمته لأبي حيان جهل أصله ونشأته، خصوصاً وأن «أحداً لم يذكره في كتاب، ولا دمجّه في خطاب»، إلا أنه يميل إلى الظن بأن أبا حيان كان فارسي الأصل، قدم بغداد وأقام بها مدة، ثم مضى بعد ذلك إلى مدينة الرّي. ويُستنتج من تضاعيف أحاديث أبي حيان أنه كان يجهل اللغة الفارسية، إلا أن هذا الجهل لا يكفي لإثبات أصله العربي، إذ من الجائز أن يكون قد انحدر عن أصل فارسي، ثم استوطن بغداد مع قومه النازحين إليها، فأتقن العربية، وتعصب للمعرب، وتكفل بالردّ على الشعوبية. ويميل بعض الباحثين إلى القول بأن التوحّيدي كان «من أولئك الموالى الذين اختلطت فيهم الدماء والعناصر، فكونت مزيجاً غريباً. على أنه كان يشعر بواشجة قربى مع الغرباء

(١) أبو حيان التوحّيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، بقلم د. زكريا إبراهيم، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة، ص ١٢ - ١٦.

والأفاقين، حتى كان لا يخالط إلا الغرباء والمجتدين الأذنياء الأردياء، وما هذا إلا لشعوره بأنه واحد منهم، إذ كان يرتد إليهم، مهما زجره عن ذلك زاجر من كبار القوم»^(١). وأصحاب هذا الرأي يستنتجون أنه من المرجح أن يكون أبو حيان فارسي الأصل، مع احتمال دخول أجناس أخرى في تكوينه العنصري.

وأما القائلون بعربيته، فإنهم يؤكدون أنه ليس في مؤلفاته ما يشير إلى فارسيته، فضلاً عن أنه لو كان يمت إلى فارس بصلة النسب، لباهى بذلك في عصر كانت الدولة فيه للفرس، وكانت صلته بأمرائهم وحكامهم في القرن الرابع أملاً وهدفه. على أنه يلاحظ أن أبا حيان قد زار بلاد الفرس، وكتب رسالة «في العلوم» وجّه فيها الحديث إلى الفارسيين فقال: «أطال الله بقاءكم... وجعل حظ الغريب السلامة بينكم، إذا فاتته الغنيمة منكم... وبعد فإنني لم أرد ببلادكم من العراق مباهاياً لكم، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكم، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم... الخ». وواضح من هذه العبارات أن أبا حيان كان يعتبر نفسه غريباً في بلاد الفرس، ولو أنه كان فارسي الأصل، لانتهاز هذه الفرصة للتقرب من الفارسيين أو التودّد إليهم. وعندما وجه الوزير ابن العارض الشيرازي إلى أبي حيان السؤال التالي: «أفضل العرب على العجم، أم العجم على العرب؟»، فيروي التوحيدي للوزير حديثاً مسهباً لابن المقفع - وكان فارسياً أصيلاً - يقول فيه إن العرب «أعقل الأمم، لصحة الفطرة، واعتدال البنية، وصواب الفكر، وذكاء الفهم»! وعلى الرغم من أن الوزير يعلّق على هذه الرواية بقوله: «ما أحسن ما قال ابن المقفع! وما أحسن ما قصصت وما أتيت به!» إلا أننا نرى أبا حيان يستطرد فيقول: «إن لكل أمة فضائل ودرائل، ولكل قوم محاسن ومساوئ، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلّها وعقدها كمال وتقصير». والتوحيدي يريد بهذه العبارة أن يطمئن الوزير إلى قلة احتفاله بالفوارق العنصرية والخلافات الجنسية، فلا فرق بين فارسيّ وعربيّ، ولا موضع لتفضيل إنسان على آخر لأصله أو نشأته أو وراثته! والتوحيدي يضيف إلى هذا أن الفضائل الماثورة، التي تنسب في العادة إلى كل أمة من الأمم المشهورة «ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها، ومن جملتها من هو عار من جميعها، وموسوم بأضدادها... (بدليل أن) الفرس لا تخلو من جاهل بالسياسة، خال من الأدب، داخل في الرعاع والهمج، كما أن العرب لا تخلو من جبان جاهل طياش بخيل عبي...».

مولده:

تبعاً لما ذكره عن نفسه، فإن مولده يجب أن يكون بين سنتي ٣١٠/ ٩٢٢ م و ٣٢٠/ ٩٣٢ م في شيراز أو نيسابور أو واسط، وانتقل في تاريخ مجهول لنا إلى بغداد.

(١) عبد الرحمن بدوي، مقدمته على كتاب «الإشارات الإلهية» لأبي حيان التوحيدي.

أما نسبته «التَّوْحِيدِي» فيقول ابن خلكان: «لم أر أحداً ممن وضع كتب الأنساب تعرّض إلى هذه النسبة لا السُّمعاني ولا غيره، لكن يقال إن أباه كان يبيع التوحيد ببغداد وهو نوع من التمر». ونَقَلَ السيوطي عن شيخه ابن حجر قوله: يحتمل أن تكون إلى التوحيد الذي هو الدين فإن المعتزلة يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد. ويذهب الدَّهَبِي إلى أنه هو الذي نسب نفسه إلى التوحيد، مثلما سُمي ابن تومرت أتباعه بالموحدين، وكما يسمي صوفية الفلاسفة نفوسهم بأهل الوحدة وبالاتحادية.

كان أبوه فيما يقال تاجراً متنقلاً يبيع نوعاً من التمر المعروف باسم «التوحيد». ولا يوجد في كتب أبي حيان أية إشارة إلى أسرته، ولا أية قرينة يستدل منها على لقبه. وهذا ما حدا بعض الباحثين إلى القول بأن الرجل كان يعلم أنه نشأ من أسرة دقيقة الحال، عديمة النسب والحسب، فلم يكن يجد داعياً للحديث عن نشأته، أو الإشارة إلى أسرته. ويمضي أحد الباحثين إلى حدّ أبعد من ذلك فيقول: «لا تسألني متى ولد، ولا أين ولد، فذلك رجل نشأ في بيئة خاملة لم تكن تطمع في مجد، حتى تقيد تاريخ ميلاده».

بيد أن بعضاً من الباحثين استنتجوا تاريخ مولده من إشارتين: الأولى منهما وردت في «المقابسات»، وفيها يعترف التوحيدى بأنه قد جاوز العقد الخامس من عمره، وينصّ في الوقت نفسه على أنه ألّف هذا الكتاب سنة ٣٦٠ هجرية، والثانية منهما وردت في الرسالة التي كتبها إلى القاضي أبي سهل بن محمد سنة ٤٠٠هـ، وفيها يقول إنه قد بلغ «عشر التسعين». وعلى ذلك يكون أبو حيان قد ولد - كما قال معظم مؤرخي سيرته - في العشرة الثانية بعد الثلاثمائة، أي حوالي سنة ٣١٠ أو ٣١١ هجرية (على وجه التقريب).

عاش التوحيدى طفولة معذبة «منعه الحياء من الخوض فيها، فاكتفى بالصمت الذي هو أبلغ من كل كلام». وكان هذا الحرمان سبباً في التجائه إلى الدرس والتحصيل، عله يجد فيه تعويضاً عن بعض ما فاتته من نعم الحياة. ويخيل أن أبا حيان كان يتحدث عن نفسه حينما راح يقول: [وهكذا] اشتد في طلب العلم تشميره، واتصل في اقتباس الحكمة رواحه وبكوره، وكانت الكلمة الحسناء أشرف عنده من الجارية العذراء، والمعنى المقوم أحب إليه من المال المكوم...». ويتأيد هذا الظن إذا عرفنا أن اهتمام أبي حيان بالعلم والدراسة قد صرفه عن التفكير في الزواج وإنجاب النسل، فلم يعرف عنه أنه تزوج أو رزق أولاداً بدليل قوله هو نفسه: إنه ظل طول عمره لا يجد حوله «ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً». ويظهر أن ميله إلى التنقل، وولعه بالأسفار، قد حالاً بينه وبين الاستقرار، فلم يكن في وسعه أن يفكر في تكوين أسرة، أو أن يقنع من العيش بتربية بعض الأبناء! صرف التوحيدى القسم الأكبر من حياته في بغداد، وكان يتنقل بين بغداد، والري،

ونيسابور، وشيراز، وغيرها. . وأغلب الظن أن معظم هذه الأسفار كان إما طلباً للعلم، أو بحثاً عن الرزق، مما حدا ببعض إلى القول بأن أبا حيان كان دائماً «قلق الركاب، لا يكاد يستقر في مكان إلا ويزعجه أمر إلى ارتياد سواه».

شيوخه:

الأساتذة الذين درس عليهم كل واحد منهم إما أن يكون متخصصاً بفرع من فروع المعرفة أو بفروع عدة. فقد درس في حياته الفلسفة والمنطق على أكبر عالمين فيهما في القرن الرابع، وهما يحيى بن عدي المتوفى سنة ٣٦٤هـ، وأبو سليمان المنطقي المتوفى سنة ٣٩١هـ. ويحيى بن عدي فيلسوف نصراني قيل إنه انتهت إليه رئاسة أهل المنطق في زمانه، وقد ترجم كتب أرسطو إلى العربية ولخص مؤلفات أستاذه الفارابي وشرح فلسفته. ولعل أثره في التوحيدي يظهر بصورة خاصة في كتاب (المقابسات)، وكان أبو سليمان المنطقي من أعظم علماء المنطق، وقد اعتزل الرؤساء لعورة إصابته بالبرص، فلزم منزله، ووفد عليه العلماء والطلاب حتى غدا منزله مقيلاً لأهل العلوم القديمة، وكان يجمع إلى العلم بالمنطق إماماً بالأدب والشعر. وعلاقته بالتوحيدي كانت وثيقة كما تدل على ذلك عبارة الوزير ابن سعدان للتوحيدي «... فقد بلغني أنك جاره ومعاشره ولصيقه ومجاوره، وقافي خطوه وأثره، وحافظ غاية خبره»، بل إن قفطي تصور أن التوحيدي كان يغشى منازل الرؤساء لينقل أخبارها إلى النطق.

ودرس التوحيدي الفقه الشافعي والتفسير على القاضي أبي حامد المروزي المتوفى سنة ٣٦٢هـ، وقد نقل عنه الكثير وروى عنه، حتى إن ابن أبي الحديد يقول: «إن التوحيدي كان يسند إلى المروزي ويقول: وإنما أولع بذكر ما يقوله هذا الرجل، لأنه أنبل من شاهدته في عمري، وكان بحراً يتدفق حفظاً للسير، وقياماً بالأخبار، واستنباطاً للمعاني، وثباتاً على الجدل، وصبراً على الخصام». وفي مادة فقه الشافعي، درس التوحيدي على أبي بكر محمد بن علي القفال بن إسماعيل الشاشي المتوفى سنة ٣٦٥هـ، الذي قيل فيه إنه كان فقيهاً محدثاً أصولياً لغوياً شاعراً.

ودرس أيضاً على القاضي أبي الفرج النهرواني المتوفى سنة ٣٩٠هـ، وكان فقيهاً أديباً شاعراً وصفه ابن خلكان بأن له «أنسة بسائر العلوم»، وكان أهل زمانه يقولون عنه: «إذا حضر القاضي أبو الفرج، فقد حضرت العلوم كلها». ووصفه صاحب (الفهرست) بأنه كان «في نهاية الذكاء وحسن الحفظ وسرعة الخاطر في الجوابات».

ودرس التوحيدي على علي بن عيسى الزماني المتوفى سنة ٣٨٤هـ، وكان إماماً في اللغة والأدب وذا معرفة بعلم الكلام كما تدل على ذلك عبارة ابن خلكان: «جمع علم الكلام والعربية». وعده ياقوت في طبقة أبي علي الفارسي والسيرافي. وقال فيه ابن خلكان: «لم ير قط مثله علماً بالنحو وغزارة في الكلام، وبصراً بالمقالات

وإيضاحاً للمشكل، مع تأله وتنزه ودين ويقين، وفصاحة وفقاهة وعفافة ونظافة». وقد كان للرماني باع طويل كذلك في التفسير على طريقة المعتزلة؛ إذ وضع تفسيراً للقرآن، بلغ من قيمته أن قال الصاحب بن عباد رداً على من اقترح عليه أن يصنف تفسيراً: «وهل ترك علي بن عيسى الرماني شيئاً؟».

وقرأ التوحيدي على أبي محمد جعفر الخلدي المتصوف الزاهد، وأبي الحسين ابن سمعون المتوفى سنة ٣٨٧هـ الذي وصف بأنه وحيد عصره في الكلام على الخواطر وحسن الوعظ وحلاوة الإشارة ولطف العبارة، وهو الذي وصفه ابن الجوزي بـ«الناطق بالحكمة»، بالإضافة إلى العامري الفيلسوف، والنوشجاني، وأبي الخير اليهودي، وجماعة من مشايخ النصارى الذين كانوا متحرين بالفلسفة ومحبين لأهلها، وأبي الوفاء المهندس المتوفى سنة ٣٧٦هـ.

مهنته وثقافته ومؤلفاته :

لجأ أبو حيان منذ مطلع شبابه إلى مهنة الوراقة، حيث كان ينصرف إلى نسخ الكتب لقاء أجر زهيد، وظل صيته مغموراً لا يبارح دكاكين الوراقين، فلم يحفل به أحد، ولم ينتشر أمره بين مثقفي وأدباء عصره، إذ كان يصل الليل بالنهار في مهنته دون أن يعلم أحد شيئاً عن ظروف حياته العائلية والاجتماعية والإنسانية، حتى صمم أخيراً سنة ٣٥٠هـ وهو على أبواب الأربعين، على وجه التقريب، على الخروج من عالمه والنظر إلى ما حوله في عصر زهت فيه معظم العلوم والمعارف.

والحقيقة تُقال أنه كان لمهنة الوراقة أثر بارز وأساسي على ثقافة أبي حيان، فقد أفسحت له في المجال أمام قراءة شتى أنواع الكتب وأشكالها فقويت حافظته وتوقد ذهنه واتسعت مداركه وتنوعت ثقافته، مما جعله يشعر بنهم كبير إلى العلم، فطفق يغزو مجالس العلماء والأدباء والمفكرين ويحضر حلقات التدريس عندهم.

إن نظرة سريعة على أساتذة أبي حيان ترينا أسباب نبوغه، وتنوع معلوماته، وهو إلى جانب ذلك كان شغوفاً بكل علم متتبعاً كل ثقافة، حتى غدا موسوعياً واسع الأفق خصب الخيال فيلسوفاً مع الفلاسفة، متكلماً مع المتكلمين، لغوياً مع اللغويين ومتصوفاً مع المتصوفين، ثم إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، محقق الكلام ومتكلم المحققين وإمام البلغاء، فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاء وفطنة وفصاحة، كثير التحصيل للعلوم واسع الدراية والرواية. لذلك كان من الطبيعي أن تكثر مؤلفاته وتنوع موضوعاتها،.

علاقته مع الحكام^(١) :

ننتقل من «عهد الطلب» إلى «عهد التنقل»، قام أبو حيان بمحاولات عديدة.

(١) أبو حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، للدكتور زكريا إبراهيم، ص ٤٢ - ٦٢.

بقصد الخروج من ضائقته المالية، ونيل الحظوة لدى الوزراء والكبراء. فاتصل أبو حيان التوحيدي بالوزير أبي محمد الحسن بن محمد المهلبى - وزير معز الدولة - الذي كان محباً لأهل العلم والأدب، عطوفاً على الكتاب والأدباء، والظاهر أن التوحيدي قد جاهر أمام الوزير ببعض الآراء الحرة التي لم يرض عنها المهلبى، خصوصاً وأن الشائع عنه أنه كان بعيداً كل البعد عن روح التسامح مع أصحاب العقائد والبدع، فنفاه من بغداد. وهذا ما رواه ابن فارس في «الفريدة والخريدة» حين قال إن الوزير المهلبى وقف على جميع دخلته، وسوء عقيدته، وما يبطنه من الإلحاد، وما يرومه في الإسلام من الفساد، وما يلصقه بأعلام الصحابة من القبائح، وما يضيفه إلى السلف الصالح من الفضائح، فطلبه (أي الوزير المهلبى)، وسمع بذلك أبو حيان «فاستتر منه، ومات في الاستتار، وأراح الله منه، ولم يؤثر عنه إلا مثلبة أو مخزية» والسبب في اتهام أبي حيان بسوء العقيدة والزندقة والانحلال إنما هو ذلك الكتاب الذي قيل إنه ألفه باسم «الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي»، وهو الكتاب الوحيد الذي يظهر أنه أعرب فيه عن بعض الآراء الصوفية التي تتنافى - في الظاهر - مع قواعد الإسلام.

وقد عدَّ ابن الجوزي زنادقة الإسلام ثلاثة: ابن الرأوندي وأبو حيان التوحيدي وأبو العلاء المعري. واعتبر أبا حيان أشهرهم على الإسلام لأنهما صرَّحا بزندقتهما وهو مَجْمَع ولم يُصَرَّح، كذلك فقد رماه الذَّهَبِي بسوء الاعتقاد ووصفه بالضال الملحد، كما وصفه ابن فارس بالكذب وقلة الدين والورع وبالقدح في الشريعة والقول بالتعطيل، وقال ابن حجر: كان صاحب زندقة وانحلال.

أما محب الدين ابن النجَّار، مؤرخ العراق، فقد دافع عنه وقال: إنه «كان صحيح الاعتقاد»، وذهب إلى ذلك أيضاً تاج الدين السُّبُكِي قائلاً:

«ولم يثبت عندي إلى الآن من حال أبي حيان ما يوجب الوقعة فيه، ووقعت على كثير من كلامه فلم أجِدْ منه إلا ما يدل على أنه كان قوي النفس مزدرياً بأهل عصره».

وقد اعتبر عبد الرحمن بدوي أبا حيان أديباً وجودياً في القرن الرابع الهجري، ويضيف أن المستقصي لمراميه البعيدة لا يعدم أن يجد سنداً لاتهامه بأنه كان في القليل رقيق الدين أو أنه كان يلونه بلون خاص به لا ينظر إليه أصحاب السنة نظرة الرضا، ويعتقد أن تكفير ابن الجوزي له إنما هو من نوع تكفيره الصوفية عامة. ومع ذلك، فلا نملك الوثائق الكافية للحكم في هذه المسألة حكماً صحيحاً؛ لأن الرسالة التي يمكن أن تكون الفيصل في هذا الأمر وهي: (كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي) لم تصل إلينا، وعنوانها يدعو بالفعل إلى الكثير من التساؤل.

وأياً ما كان الأمر، - إلى أن يأتي دليل مضاد - فإن التوحيدي كان على الأقل

يؤمن بسلطة عليا فوق الكون، كما كان يؤمن بهذا أيضاً أستاذه أبو سليمان المنطقي السجستاني.

ونتيجة لسوء اعتقاده، في زعم خصومه، نفاه من بغداد الوزير المهلبى، كما طلبه صاحب الكفاة ليقترله بعد أن اطلع على ما قيل إنه كان يخفيه من القدرح في الدين، فالتجأ إلى أعدائه وظل مستتراً إلى أن مات في الاستار.

غادر أبو حيان بغداد - راضياً أم كارهاً - بقصد الرحيل إلى الريّ للاتصال بأبي الفضل بن العميد. وكان لابن العميد - في ذلك الوقت - قدر مهيب، فقد كان الشعراء يقصدون بابه لكرمه وسخائه، كما كان الناقدون يثنون عليه لفصاحته وبلاغته. ومن بين الذين مدحوا ابن العميد من الشعراء - كما هو معروف - أبو الطيّب المتنبّي، كما أثنى عليه من بين الفلاسفة مسكويه الذي عهد إليه ابن العميد بمنصب «خازن كتبه». وكان أبو حيان ينتظر من ابن العميد، أن ينقذه من براثن الفقر، وأن يسبغ عليه الكثير من العطايا، ولكن الظاهر أنه لم يظفر منه بما كان يطمح فيه.

ومهما يكن من شيء، فقد غادر أبو حيان بغداد حوالي سنة ٣٦٧ هجرية قاصداً مدينة الري مرة أخرى للاتصال بالوزير صاحب بن عباد. وقد كانت خيبة أمله في ابن العميد الوالد وابن العميد الابن (أي في أبي الفضل وأبي الفتح) سبباً في إقباله على باب صاحب، آملاً أن يجد عنده ما لم يظفر به عند ابن العميد. وكان التوحيدي قد سمع عن كرم صاحب، فقصده «بأمل فسيح، وصدر رحيب»، ولكنه لم يستطع أن ينال حظوته، لرفضه أن يكون كاتب الإنشاء. وقد روى التوحيدي قصة وقوفه بباب صاحب فقال إنه لما وصل مدينة الري، قال له صاحب: «الزم دارنا، وانسخ لنا هذا الكتاب، فقلت: أنا سامع مطيع، ثم قلت لبعض الناس في الدار مسترسلاً: إنما توجهت من العراق إلى هذا الباب، وزاحمت منتجعي هذا الربيع، لأتخلص من حرفة الشؤم، فإن الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة؛ فتمنى إليه هذا أو بعضه أو على غير وجهه، فزاده تنكراً. وكان الرجل خفيف الدماغ لا يعرف الحلم إلا بالاسم»^(١). وواضح من هذه القصة أن أبا حيان لم يكن ينتظر من صاحب بن عباد أن يعهد إليه بعمل من أعمال الوراقة التي كان قد سئما وتمنى التخلص منها! ويعترف التوحيدي نفسه بأن صاحب طلب إليه يوماً أن يقرأ عليه الرسالة التي كان قد توسل بها إلى أبي الفتح بن العميد - وكان الوزيران خصمين لدودين - فقرأها التوحيدي عليه، مما أهاج حفيظة صاحب ضده، خصوصاً وأن التوحيدي قد وصف فيها ابن العميد بأنه «سيد الناس»، وأنه «الشمس المضيئة بالكرم، والقمر المنير بالجمال، والنجم الثاقب

(١) مثالب الوزيرين، لأبي حيان التوحيدي ص ٢٠٣.

بالعلم، والكوكب الوقاد بالجود، والبحر الفياض بالمواهب... الخ»^(١).

ولا شك أن التوحيد لم يكن موفقاً كل التوفيق حينما تلا تلك الرسالة على مسامع الصاحب بن عباد، حتى وإن كان هو الذي أمره بذلك وألخ عليه فيه، مما جعل المقربين إلى الصاحب يقولون لأبي حيان: «جنيت على نفسك، حين ذكرت عدوّه عنده بخير، وبينت عنه وجعلته سيد الناس...!».

ويروي أبو حيان في موضع آخر أن الصاحب بعث يوماً بخادمه إلى أبي حيان، طالباً منه نسخ ثلاثين مجلدة من رسائله، بدعوى أنها مطلوبة في الحال لمدينة خراسان، فما كان من التوحيد سوى أن أجابه - بعد ارتياح -: «هذا طويل، ولكن لو أذن لي، لخرجت منه فقراً كالغرر. لو رقي بها مجنون لأفاق، ولو نفث على ذي عاهة لبرأ، لا تمل، ولا تستغث، ولا تعاب، ولا تسترث...». والظاهر أن هذا الكلام قد رفع إلى الصاحب على وجه مكروه، دون أن يعلم أبو حيان من أمره شيئاً، فقال ابن عباس: «طعن في رسائله وعابها، ورغب عن نسخها، وأزرى بها؛ واللّه لينكرنّ مني ما عرف، وليعرفنّ حظه إذا انصرف!» ويبدو أن الصاحب قد وجد في مسلك أبي حيان تطاولاً منه على رئيسه ووليّ نعمته، فإن التوحيد قد ادّعى لنفسه القدرة على تمييز الغث من السمين في رسائل الصاحب نفسه، وكأنه كان أعلم منه بالردىء والجيد من الكلام! ومع ذلك فإنّ أبا حيان يدهش لما قاله الصاحب: لأنه حين عاب رسائل ابن عباد، فإنه لم يطعن في القرآن، ولم يرم الكعبة بخرق الحيز، ولم يسلح في زمزم...!

«... وما ذنبي يا قوم إذا لم أستطع أن أنسخ ثلاثين مجلدة؟ ومن هذا الذي يستحسن هذا التكليف حتى أعذره في لومي على الامتناع؟ أي إنسان ينسخ هذا القدر، وهو يرجو بعده أن يمتعه الله ببصره أو ينفعه بيده؟ ثم ما ذنبي إذا قال لي: من أين لك هذا الكلام المفوّف المشوّف الذي تكتب إليّ به في الوقت بعد الوقت؟ فقلت: وكيف لا يكون كما يوصف، وأنا أقطف من ثمار رسائله، وأستقي من قليب علمه، وأشيم بارقة أدبه، وأرد ساحل بحره، وأستوكف قطر مزنه! فيقول: كذبت وفجرت لا أم لك! ومن أين في كلامي الكدية (أي التوسل) والشحذ والضرع والاسترحام؟! كلامي في السماء، وكلامك في السّماء...!»^(٢).

وقد حاول التوحيد أن يبرّر موقفه من الصاحب فقال: «ولكنني ابتليت به، وكذلك هو ابتلي بي، ورماني عن قوسه مُغرِقاً، فأفرغت ما كان عندي على رأسه

(١) مثالب الوزيرين، نفسه، ص ٣٣٢.

(٢) نفسه، ص ٣٢٦.

مغيظاً، وحرمني فازدريته، وحقرني فأخزيتته، وخصّني بالخيبة التي نالت مني، فخصصته بالغيبة التي أحرقتة، والبادي أظلم، والمتصف أعذر...».

ومهما يكن من شيء فقد انتهت العلاقة بين الرجلين بالقطيعة، إذ فارق التوحيدي فناء الصاحب بن عباد سنة ٣٧٠هـ، بعد صلة دامت حوالي ثلاث سنوات، رجع على أثرها إلى مدينة السلام صفر اليمين! والتوحيدي يقرر أن الصاحب لم يعطه طوال هذه المدة درهماً واحداً، أو ما قيمته درهم واحد، على الرغم من كل ما نسخه له! وهو يقول أيضاً إنه إذا كان قد هجا الصاحب فما ذلك إلا لما جرّعه إياه من مرارة الخيبة بعد الأمل؛ وما حمله عليه من الإخفاق بعد الطمع؛ «مع الخدمة الطويلة، والوعد المتصل، والظن الحسن، حتى كأني خصصت بخساسته وحدي، أو وجب أن أعامل بها دون غيري». وأما ياقوت الرومي فإنه يقول إن أبا حيان كان قد قصد ابن عباد بالري، فلما لم يرزق منه، رجع عنه ذاماً له، وكان أبو حيان مجبولاً على الغرام بثلب الكرام، فاجتهد في الغض من ابن عباد، ولكن فضائل ابن عباد كانت تأبى إلا أن تسوقه إلى المدح وإيضاح مكارمه، فانقلب ذمّه له مدحاً^(١)! وهناك رواية أخرى يرويها الخوانساري مؤداها أن التوحيدي كان سيئ العقيدة، قليل الورع، فلما وقف ابن عباس على حقيقة أمره، طلبه ليقتله، فهرب والتجأ إلى أعدائه، ونفق عليهم بزخرفته وكذبه. ويميل البعض إلى استبعاد هذه الرواية الأخيرة لعدم وجود قرائن تشهد بفساد عقيدة أبي حيان، اللهم إلا أن يكون اتهامه بالزندقة مجرد وسيلة اتخذ منها الصاحب ذريعة للثأر من خصمه (أبي حيان) والتشهير به وتجريح سمعته!

ولكن إذا كان أبو حيان لم يوفق في صلاته بأبي الفضل ابن العميد وابنه أبي الفتح بن العميد، وإذا كان الحظ لم يحالفه أيضاً في علاقته بالصاحب بن عباد، فإن الظاهر أنه كان أكثر توفيقاً مع الوزير ابن العارض أبي عبد الله الحسن بن سعدان (المتوفى سنة ٣٧٥هـ) وزير صمصام الدولة البويهية. وقد كانت حلقة الاتصال بين أبي حيان وابن سعدان شخصية عالمة فاضلة التقى بها التوحيدي في فارس، فسرعان ما توثقت بينهما أواصر المودة، وتلك هي شخصية أبي الوفاء المهندس البوزجاني الذي أهدى إليه أبو حيان من بعد كتابه «الإمتاع والمؤانسة» تقديراً له واعترافاً بفضله. وقد توطدت العلاقة بين أبي حيان والوزير وابن سعدان، فنسخ له كتاب الحيوان للجاحظ، وألف له رسالة في «الصدقة والصديق» وسامره بكل تلك الأقايصص والأحاديث التي رواها في «الإمتاع والمؤانسة» الكتاب الذي بين أيدينا. وقد كان لابن سعدان ناحية علمية أدبية صورها أبو حيان في كتبه «فهو واسع الاطلاع، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على

ذلك حواراه الذي يحكيه أبو حيان . . فهو يسأل أسئلة عميقة، وينقد الإجابة عنها نقداً قيماً. ولم يكن لدى التوحيدي من اللباقة والكياسة ما يستطيع معه مجالسة الوزراء ومسامرة الكبراء، بدليل ما وصفه به صديقه أبو الوفاء حين قال إنه: «غر لا هيئة له في لقاء الكبراء، ومحاورة الوزراء»؛ ومع ذلك فقد وصله أبو الوفاء بابن سعدان، وهياً له الفرصة للاختلاء بالوزير، والإلقاء إليه بما شاء واختار! وكان أول ما طلبه أبو حيان من الوزير أن يأذن له بتوجيه الخطاب إليه بالكاف والتاء، ليتكلم من غير تكلف أو كناية أو حرج أو تعريض! ولم يلبث أبو حيان أن اطمأن إلى مجالس الوزير، فكان يتكلم في حضرته بصراحة، ولم يكن يتحرج في رواية أقذع النوادر والملح، بل كان يبدي رأيه في حاشية الوزير نفسه دون خوف أو خشية! ويبدو أن أبا حيان قد وجد لدى ابن سعدان صدراً رحباً، وأذناً صاغية، ويداً ممدودة، فإننا نراه يكتب إلى الوزير قائلاً: «قد شاهدت ناساً في السفر والحضر، صغاراً وكباراً وأوساطاً، فما شاهدت من يدين بالمجد، ويتحلى بالجود ويرتدي بالعفو، ويتأزر بالحلم ويعطي بالجفاف، ويفرح بالأضياف، ويصل الإسعاف بالإسعاف، والاتحاف بالاتحاف، غيرك. واللّه إنك لتهب الدرهم والدينار وكأنك غضبان عليهما، وتطعم الصادر والوارد كأن اللّه قد استخلفك على رزقهما؛ ثم تتجاوز الذهب والفضة إلى الثياب العزيزة، والخلع النفيسة والخيل العتاق، والمراكب الثقال، والغلمان والجواري، حتى الكتب والدفاتر وما يضمن به كل جواد؛ وما هذا من سجايا البشر، إلا أن يكون فاعل هذا نبياً صادقاً، وولياً لله مجتنباً».

وعلى الرغم من أن أبا حيان لم يكن يتردد في مفاتحة الوزير ابن سعدان برأيه في بعض جلسائه، فلم يسلم من تعريضه أناس كابن شاهويه وبهرام بن سعيد وأبي عيسى عليّ بن زرعة النصراني وابن عبيد الكاتب وغيرهم من ندماء ابن سعدان، إلا أن الصلة لم تنقطع تماماً بينهما، حتى في الفترة التي اشتدت فيها أعباء الوزارة على ابن سعدان. وإن كان يشكو أحياناً إلى صديقه أبي الوفاء المهندس تغافل الوزير عنه، ويلح في تذكير أبي الوفاء بوعود الوزير، ولكن ليس ما يبرّر القول بانقطاع الصلة بين أبي حيان وابن سعدان، بدليل أن أبا حيان ظل يذكره بالخير حتى بعد وفاته. ولكن يشاء سوء الطالع أن يلاحق التوحيدي إلى النهاية، فقد بقي ابن سعدان في الوزارة مدة قصيرة، إذ ظهر له عام ٣٧٥ (هجريّة) خصم لدود هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف الذي ظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به، حتى قبض عليه هو وأصحابه وأودعوا السجن. واستوزر صمصام الدولة أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، فوشى بابن سعدان لديه وأدخل في روعه أن ابن سعدان يؤلّب الثوار عليه، فأمر صمصام الدولة بقتله، والتنكيل بأعوانه، وكان ذلك في نهاية عام ٣٧٥ هـ.

ويبدو أن أبا حيان قد خشي أن يلاحقه أعوان الوزير الجديد، لأنه كان من

رجالاً الوزير المقتول، فأثر الاختفاء عن أعين رجال ابن يوسف، وهرب إلى شيراز حيث راح يتردد على المتصوفة ويعيش معهم. وأخباره خلال تلك الفترة التي ظل فيها متخفياً قليلة، ولكن الظاهر أنه كان يعيش في فقر مدقع، بدليل قوله: «لقد غدا شبابي هرمًا من الفقر، والقبر عندي خير من الفقر» أو قوله: «لقد قال أمسييت غريب الحال، غريب اللفظ، غريب النحلة، غريب الخلق، مستأنساً بالوحشة، قانعاً بالوحدة، معتاداً للصمت، ملازماً، للحيرة، محتملاً للأذى، يائساً من جميع من ترى، متوقعاً لما لا بدّ من حلوله، فشمس العمر على شفا، وماء الحياة إلى نضوب، ونجم العيش إلى أفول، وظل التلبث إلى قلوب». .

وزاد من حقد التوحيدي على الناس وتشاؤمه من الحياة، ما لاحظته من انصراف الناس عنه، وقسوة الحياة عليه، فلم يلبث أن أحرق ما لديه من مصنفات، ضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته، وأبو حيان يتعلل أيضاً بمرضه وشيخوخته خصوصاً بعد كل ما قاساه من شظف المعيشة وآلام الحياة، فيقول: «لقد كلّ البصر، وانعقد اللسان، وجمد الخاطر، وذهب البيان، وملك الوسواس، وغلب اليأس، من جميع الناس. . . ولو علمت في أي حال غلب عليّ ما فعلته، وعند أي مرض، وعلى أية عسرة وفاقة، لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته». . . وواضح من هذه الكلمات أن أبا حيان يشير إلى حالته النفسية السيئة، فإنه يرى فيها من العذر ما يكفي لتبرير فعلته، فالرجل يشعر بأن هذه الكتب لم تعد تعبّر عن حالته النفسية الراهنة ثم هو يدرك أنها تعبّر عن إخفاقه في الظفر بما كان يأمل من مجد أدبيّ، وهو لهذا وذاك لا يرى داعياً للتمسك بها أو الحرص عليها^(١). هذا إلى أن الشعور بقرب الرحيل قد وُلد في نفس التوحيدي ثورة كبرى على أعزّ ما كان يملك، فلم يتردد في التمرد حتى على كتبه العزيزة التي طالما شاركتها حلوى الحياة ومرّها! «وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المنهوم بها إلا كالحرير الجشع عليهما؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكائرها؟ هيهات! الرحيل واللّه قريب، والثواء قليل، والمضجع مقص، والمقام ممض، والطريق مخوف، والمعين ضعيف، والاعتزاز غالب، واللّه من وراء هذا كله طالب. . .»^(٢).

ولا يُعرف ماذا كان من أمر التوحيدي بعد إحراقه لكتبه عام ٤٠٠هـ. وليس بين أيدينا من المراجع ما يقطع بنوع الحياة أو أسلوب المعيشة الذي عاشه أبو حيان في سنواته الأخيرة. ولئن كان بعض الباحثين قد ظن أنه توفي في مطلع القرن الخامس الهجري، إلا أن الظاهر أن الأجل قد امتد به إلى العام الرابع عشر من القرن الخامس،

(١) عبد الرحمن بدوي، مرجع سابق، المقدمة.

(٢) معجم الأدباء لياقوت الحموي ٥/ ٢٤. نقلاً عن زكريا إبراهيم، ص ٦٢.

بدليل أن أبا إسحاق إبراهيم بن يوسف الشيرازي قد روى أنه استمع إلى التوحيدي في شيراز سنة ٤١٠هـ ثم عاد إلى بغداد سنة ٤١٤هـ بعد وفاة أبي حيان. ولا بد من أن يكون أبو حيان قد أمضى هذه الفترة الطويلة من الشيخوخة في التعبد والتنسك والاستغفار، بصحبة بعض إخوانه ومريديه من الصوفيين، إلى أن قضى بشيراز ودفن فيها على ما جاء في كتاب «وفيات الأعيان». وبذلك يكون التوحيدي قد عمّر طويلاً، إذ مات عن مائة وأربعة أعوام! وقد روى فارس بن بكران الشيرازي - وكان من أصحاب التوحيدي - الساعات الأخيرة من حياة صاحبه فقال: «لما احتضر أبو حيان كان بين يديه جماعة فقالوا: اذكر الله، فإن هذا مقام خوف، وكل يسعى لهذه الساعة، وجعلوا يذكرونه ويعظونه، فرفع رأسه إليهم وقال: كأني أقدم على جندي أو شرطي، إنما أقدم على رب غفور، وقضى!».

إنتاجه:

ليس غريباً على إنسان اتخذ من القلم حرفته، أن يجيء إنتاجه الفكري خصباً وافراً، خصوصاً وأنه قد عاش أكثر من قرن بأكمله! ولكن الظاهر أن حادثة إحراق التوحيدي لكتبه في أواخر أيام حياته قد حالت دون وصول الكثير من مصنفاته إلينا، فضلاً عن أن بعض هذه الكتب لم يكن من المرغوب فيه، فلم يكن من المستحسن اقتناؤها أو الاحتفاظ بها!

ومن المعروف عن أبي حيان أنه كان غزير الإنتاج، حريصاً على النقل والرواية، محباً للبحث والجدل. ولئن كان موضوع هذه الكتب لم يقف عند الفلسفة والأدب، بل قد امتد أيضاً إلى الكلام والفقه والشريعة والتصوف والنحو واللغة، إلا أن أبا حيان قد التزم في معظمها أسلوباً واحداً، ألا وهو أسلوب المحاوراة والمسامرة، فجاءت كتبه «سهلة المأخذ، بعيدة عن التكلف والتعسف، بريئة من اللبس والغموض».

ونتيجة للإهمال الذي عاش فيه أبو حيان طوال العشرين عاماً الأخيرة من حياته مستتراً متخفياً، أحرق كتبه لقلّة جدواها وضناً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته.

يقول السيوطي قائلاً: لعل النسخ الموجودة الآن من تصانيفه كُتبت عنه في حياته وخرّجت عنه قبل حرقها، وربما كان لاشتغاله بالنسخ وتأليفه كتبه وتقديمها إلى بعض رؤساء عصره أملاً في مجازاته عليها سبباً في بقاء العديد منها ونجاته من الحرق.

وعندما أقدم أبو حيان على ذلك نحو عام ٤٠٠هـ - ١٠٠٩م كتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يَغْدُلُه على صنيعه ويُعرِّفه قُبْح ما اعتمد من الفعل وشنيعه.

فكتب إليه أبو حيان معترداً عن ذلك بكتاب مؤرخ في شهر رمضان سنة أربعمائة. ونظراً لأهمية هذا الكتاب الذي يوضح فيه أبو حيان الأسباب التي دعت إلى

ذلك وكيف سبقه إلى هذا الفعل علماء كبار، وتراجعه فيه عن بعض ما اعتقده من أمور جعلت المتأخرين يتهمونه بالإلحاد والزندقة، حيث يقول: «أسأل الله رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما اقترفته . إنه قريب مجيب» فيما يلي نص هذا الكتاب المهم:

قال يقوت الحموي في كتابه: معجم الأدباء (٢٩٤ - ٢٩٩).

وكان أبو حيّان قد أحرق كتبه في آخر عمره لقلّة جدواها، وضئاً بها على من لا يعرف قدرها بعد موته .

وكتب إليه القاضي أبو سهل عليّ بن محمّد يعذّله على صنيعه، ويعرفه قبح ما اعتمد من الفعل وشنيعه . فكتب إليه أبو حيّان يعتذر من ذلك: حرسك الله أيّها الشيخ من سوء ظنيّ بمودّتك وطول جفائك، وأعاذني من مكافأتك على ذلك، وأجارنا جميعاً ممّا يسود وجه عهد إن رعيناه كنّا مستأنسين به، وإن أهملناه كنّا مستوحشين من أجله، وأدام الله نعمته عندك، وجعلني على الحالات كلّها فداك .

وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقّع على ظمإٍ برّح بي إليه، وشكرت الله تعالى على التّعنة به عليّ، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إليّ، والصّباية نحوي، ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمي إليك فيما كان منّي من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تقرأ قوله جلّ وعزّ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ . وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وكأنك لم تعلم أنّه لا ثبات لشيء من الدّنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر، ما دام مقلّباً بيد الليل والنّهار، معروضاً على أحداث الدّهر وتعاود الأيّام . ثمّ إنّي أقول: إن كان - أيّدك الله - قد نقب خفّك ما سمعت، فقد أدمى أظفلي^(١) ما فعلت، فليهن عليك ذلك، فما انبريث له، ولا اجترأت عليه حتّى استخرت الله عزّ وجلّ فيه أيّاماً وليالي، وحتّى أوحى إليّ في المنام بما بعث راقداً العزم، وأجدّ فاتر النّية، وأحيا ميت الرّأي، وحثّ على تنفيذ ما وقع في الرّوع وتريع في الخاطر، وأنا أجود عليك الان بالحجّة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان منّي، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي: إنّ العلم - حاطك الله - يراد للعمل، كما أنّ العمل يراد للنّجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم، كان العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً - وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار - ثمّ اعلم علّمك الله الخير أنّ هذه الكتب حوت من أصناف العلم سرّه وعلايته، فأما ما كان

(١) أي باطن الأصابع .

سرّاً فلم أجد له من يتحلّى بحقيقته راغباً، وأمّا ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً، على أنّي جمعت أكثرها للنّاس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرّئاسة بينهم ولمدّ الجاه عندهم فحزمت ذلك كلّه، - ولا شكّ في حُسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي، وربطه بأمرّي - وكرّهت مع هذا وغيره أن تكون حجّة عليّ لا لي، وممّا شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أنّي فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً، فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنّسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفّحوها، ويتراءون نقضي وعيبي من أجلها فإنّ قلت: ولم تسمّهم بسوء الظن، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنةً فما صح لي من أحدهم وداد، ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ؟ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، وي طرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدة تبعلك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيت به بما قدّمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته، إما هرباً من التطويل، وإما خوفاً من القال والقليل. وبعد؛ فقد أصبحت هامة اليوم أو غد فإنني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيزة، أو رجاء لحال جديدة؟ ألسنت من زمرة من قال القائل فيهم:

[الطويل]

نروح ونغدو كل يوم وليلة وعما قليل لا نروح ولا نغدو
وكما قال الآخر:

[الطويل]

تفوَّقتُ درّات الصبا في ظلاله إلى أن أتاني بالفطام مشيب
وهذا البيت للورد الجعدي وتماهه يضيق عنه هذا المكان، والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخذان في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفي، فكيف بمن كانت العين تقرّ بهم، والنفس تستنير بقرّبهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري، وما والى هذه المواضع، وتواتر إليّ نعيهم، واشتدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من عنصرهم؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب.
وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم،

ويعشى إلى نارهم، منهم: أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر.

وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادةً، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال ينجيها: نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول.

وهذا يوسف بن أسباط: حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: دلّنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه.

وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار، ثم قال: والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك.

وهذا سفيان الثوري: مزق ألف جزء وطيرها في الريح وقال: ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً.

وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد: قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيته تخونك فاجعلها طعمة للنار.

وماذا أقول وسامعي يصدق أن زماناً أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزمانٌ تدمع له العين حزناً وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوى وضنى وشجى، وما يصنع بما كان وحدث وبان، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى شافٍ كافٍ، وإن احتجت إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرباس بعد القرباس، إلى أن تفي الأنفاس بعد الأنفاس، «ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون». فلم تُعنى عيني - أيدك الله - بعد هذا بالحبر والورق والجلد والقراءة والمقابلة والتصحيح وبالسواد والبياض، وهل أدرك السلف الصالح في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزبرج، وهوى بصاحبه إلى الهبوط؟ وهل وصل الحكماء القدماء إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي، وإلا بالرضا بالميسور، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم؟ فأين يذهب بنا وعلى أي باب نحط رحالنا؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب؟ وهل المنهوم بها إلا كالحريرص الجشع عليهما؟ وهل المغرم بحبها إلا كمكائثرهما؟ هيهات، الرحيل والله قريب، والثواء قليل، والمضجع مقص، والمقام ممض، والطريق مخوف والمعين ضعيف، والاغترار غالب، والله من وراء هذا كله طالب، نسأل الله تعالى رحمةً يظللنا جناحها، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته بعد أن حصل تحت قدره. فهذا هذا.

ثم إني - أيدك الله - ما أردت أن أجيبك عن كتابك لطول جفائك، وشدة التوائك عمن لم يزل على رأيك مجتهداً في محبتك على قربك ونأيك، مع ما أجده من انكسار النشاط وانطواء الانبساط لتعاود العلل علي وتخاذل الأعضاء مني، فقد كلَّ البصر وانعقد اللسان وجمد الخاطر وذهب البيان، وملك الوسواس وغلب اليأس من جميع الناس، ولكنني حرصت منك ما أضعته مني، ووفيت لك بما لم تف به لي، ويعزُّ علي أن يكون لي الفضل عليك، أو أحرز المزية دونك، وما حداني على مكاتبك إلا ما أتمثله من تشوقك إلي وتحرقك علي، وأن الحديث الذي بلغك قد بدد فكرك، وأعظم تعجبك، وحشد عليك جزعك، والأول يقول:

وقد يجزُع المرءَ الجليدُ ويبتلي عزيمةَ رأي المرءِ نائبةُ الدهرِ
تُعاوِذهُ الأيامُ فيما ينوبه فيقوى على أمرٍ ويضعفُ عن أمرٍ
على أنني لو علمت في أي حال غلب علي ما فعلته، وعند أي مرض وعلى أية عسرة وفاقه لعرفت من عذري أضعاف ما أبديته، واحتججت لي بأكثر مما نشرته وطويته، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن لله جلَّ وعزَّ في خلقه أحكاماً لا يعاثرُ عليها ولا يغالب فيها، لأنه لا يبلغ كنهها ولا يُنال غيبها، ولا يعرف قابها ولا يقرع بابها، وهو تعالى أملك لنواصينا، وأطلع على أدايننا وأقاصينا، له الخلق والأمر، وبيده الكسر والجبر، وعلينا الصمت والصبر إلى أن يوارينا اللحد والقبر، والسلام. **إِنَّ سَرَكَ - جعلني الله فداك - أن تواصلني بخبرك، وتعرفني مقر خطابي هذا من نفسك فافعل، فإني لا أدع جوابك إلى أن يقضي الله تعالى تلاقياً يسر النفس، ويذكر حديثنا بالأمس، أو بفراقٍ نصير به إلى الرمس، ونفقد معه رؤية هذه الشمس، والسلام عليك خاصاً بحق الصفاء الذي بيني وبينك، وعلى جميع إخوانك عاماً بحق الوفاء الذي يجب عليّ وعليك، والسلام.**

وكتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة أربعمائة^(١). [اهـ]

مؤلفاته:

ورغم حرقه لكتبه فقد ترك أبو حيان للمكتبة العربية من مؤلفاته الكثيرة والمتنوعة ما يضعه في مصاف الطبقة الأولى من المثقفين، فهذا ياقوت الحموي يذكر له في معجمه عدة كتب أهمها:

١ - كتاب رسالة الصديق.

٢ - كتاب الرد على ابن جني في شعر المتنبي.

٣ - كتاب الإمتاع والمؤانسة [وهو الذي بين أيدينا].

(١) ياقوت الحموي، معجم الأدياء ص (٢٩٤ - ٢٩٩).

- ٤ - كتاب الإشارات الإلهية .
- ٥ - كتاب الزلفة ، أو الزلفى .
- ٦ - المقابسة ، (المقابسات) .
- ٧ - كتاب تقرّظ الجاحظ .
- ٨ - كتاب ذم الوزيرين .
- ٩ - كتاب الحج العقلي إذا ضاق الفضاء عن الحج الشرعي .
- ١٠ - كتاب الرسالة في صلات الفقهاء في المناظرة .
- ١١ - كتاب الرسالة البغدادية .
- ١٢ - كتاب الرسالة في أخبار الصوفية .
- ١٣ - كتاب الرسالة في الحنين إلى الأوطان .
- ١٤ - كتاب البصائر وهو عشرة مجلدات .
- ١٥ - كتاب المحاضرات والمناظرات .

وهناك كتب أخرى سوى هذه التي ذكرها ياقوت هي :

كتاب الحوامل والشوامل ، ورسائل عدة مثل حكاية أبي القاسم البغدادي ،
ورسالة الحياة ، ورسالة السقيفة ، ورسالة في علم الكتابة ، ورسالة في العلوم ، ومناظرة
بين أبي بشر متى بن يونس وأبي سعيد السيرافي .

وأما كتبه المطبوعة والمنشورة فهي :

- ١ - رسالة الصديق والصدّاقة .
- ٢ - الإمتاع والمؤانسة .
- ٣ - الإشارات الإلهية .
- ٤ - ثلاث رسائل (العلوم ، السقيفة ، علم الكتابة) .
- ٥ - البصائر والذخائر .
- ٦ - حكاية أبي القاسم البغدادي .
- ٧ - مما نشره أحمد فارس الشدياق ، صاحب « الجوائب » بالأستانة : رسالتان للعلامة
الشهير أبي حيان التوحّيدي ، رسالة الصداقة والصديق ، ورسالة العلوم سنة ١٨٨٤ .
- ٨ - المقابسات .
- ٩ - مناظرة بين أبي بشر متى بن يونس القبائي وأبي سعيد السيرافي في المنطق اليوناني
والنحو العربي .

- ١٠ - الحوامل والشوامل .
- ١١ - ذم الوزيرين .
- ١٢ - رسالة القاضي أبي سهل .
- ١٣ - رسالة الحياة .
- ١٤ - رسالة السقيفة .
- ١٥ - رسالة في علم الكتابة .
- أما كتبه المفقودة فيرجح أنها :
 - ١ - رسالة في : الرد على ابن جني في شعر المتنبي .
 - ٢ - رسالة في : الحنين إلى الأوطان .
 - ٣ - رسالة في : صلات الفقهاء في المناظرة .
 - ٤ - رسالة في : الصوفية .
 - ٥ - رسالة في : أخبار الصوفية .
 - ٦ - رسالة في : البغدادية .

نبذة عن كتاب الإمتاع والمؤانسة

كتاب «الإمتاع والمؤانسة» الذي اضطلع بتحقيقه الأستاذان أحمد أمين وأحمد الزين (والذي تقدمه للقارئ الكريم، اعتماداً على طبعتهما) ظهر على ثلاثة أجزاء صدرت في السنوات ١٩٣٩، و١٩٤٢، و١٩٤٤ على التوالي. وربما كان هذا المؤلف الضخم من أقوم كتب التوحيد، وأنفعها، وأمتعها، خصوصاً وأن الأستاذين المحققين قد عنيا بتصحيح الكتاب ومراجعته، فجاء التصحيح والتحريف فيه على أضييق نطاق. وقد كتب المرحوم أحمد أمين مقدمة قيّمة، روى فيها قصة تأليف التوحيد لهذا الكتاب نذكرها هنا لأهميتها فقال: ولتأليف أبي حيان لهذا الكتاب قصة ممتعة، ذلك أن أبا الوفاء المهندس كان صديقاً لأبي حيان وللوزير أبي عبد الله العارض، فقرب أبو الوفاء أبا حيان من الوزير، ووصله به، ومدحه عنده، حتى جعل الوزير أبا حيان من سُمّاره؛ فسامره سبعا وثلاثين ليلة كان يحادثه فيها، ويطرح الوزير عليه أسئلة في مسائل مختلفة فيجيب عنها أبو حيان.

ثم طلب أبو الوفاء من أبي حيان أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث، وذكره بنعمته عليه في وصله بالوزير، مع أنه «أي أبا حيان» ليس أهلاً لمصاحبة الوزراء لقبح هيئته وسوء عادته وقلة مرانته وحقارة لبسته، وهدده إن هو لم يفعل أن يغض عنه، ويستوحش منه، ويوقع به عقوبته، وينزل الأذى به.

فأجاب أبو حيان طلب أبي الوفاء، ونزل على حكمه، وفضل أن يدون ذلك في كتاب يشتمل على كل ما دار بينه وبين الوزير من دقيق وجليل وحلو ومر، فوافق أبو الوفاء على ذلك، ونصحه أن يتوخى الحق في تضاعيفه وأثنائيه، والصدق في إيراده، وأن يطنب فيما يستوجب الإطناب، ويصرح في موضع التصريح.

«فكان من ذلك كتاب الإمتاع والمؤانسة»

من هو الوزير أبو عبد الله العارض الذي سامره أبو حيان؟ لقد بحثت عنه في مظانه فلم أوفق إلى العثور عليه، وقبل ذلك عني المرحوم أحمد زكي باشا بالبحث والسؤال عنه من بعض علماء الشرق والغرب فكان حظه حظي.

وأخيراً رجحت أنه هو الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان وزير صمصام الدولة البويهية، وقد ورد اسمه هكذا في كل ما راجعت من كتب التاريخ أمثال: (تجارب الأمم) وذيله (وابن الأثير)، ولم يلقبه أحد منهم (بالعارض)؛ وكلمة (العارض) كما في كتاب (الأنساب للسمعاني) معناها: «من يعرف العسكر ويحفظ أرزاقهم، ويوصلها إليهم ويعرضهم على الملك إذا احتيج إلى ذلك» فالظاهر أن الوزير أبا عبد الله لُقّب هذا اللقب إما لأنه تولى هذا العمل قبل أن يتولى الوزارة، أو كان هذا لقباً لأسرته؛ ودليلي على ذلك أمور:

١ - أنه ورد في صدر هذا الكتاب أن أبا الوفاء ذكر لأبي حيان: أنك لما انكفأت من الرّي إلى بغداد في آخر سنة ٣٧٠ مغيظاً من ابن عباد، وعدتكَ صلاح حالك، وأن أوصلك إلى الأستاذ أبي عبد الله العارض، ثم جاء وصف أبي عبد الله هذا بالوزير.

ونحن إذا رجعنا إلى من استوزر فيما بين سنة ٣٧٠ وسنة ٣٧٥ لم نجد وزيراً يكنى بأبي عبد الله إلا الوزير أبا عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان، فقد استوزره صمصام الدولة سنة ٣٧٣ وقلته سنة ٣٧٥.

٢ - جاء في أثناء كتاب «الإمتاع والمؤانسة» أن أبا حيان قص على الوزير أنه سمع رجلاً على جسر بغداد يقول وقد رأى ابن بقية الوزير المشهور مصلوباً بعد أن مات عضد الدولة: «سبحان الله! عضد الدولة تحت الأرض وابن بقية فوق الأرض»، فلما سمع الوزير ذلك قال: استأذنت الملك في دفن ابن بقية فدفن.

وقد ذكر المؤرخون أن ابن بقية دفن في عهد صمصام الدولة؛ ولم يكن لصمصام الدولة وزير يكنى بأبي عبد الله غير ابن سعدان

٣ - ومما يستأنس به أن أبا حيان كان متصلاً بالوزير ابن سعدان وألف له كتاب «الصدقة والصديق» وقد ذكر في أوائله «أن السبب كان في إنشاء هذه الرسالة أنني ذكرت شيئاً منها لزيد بن رفاعه أبي الخير، فنامه إلى ابن سعدان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة قبل تحمله أعباء الدولة وتديره أمر الوزارة حين كانت الأشغال خفيفة، والأحوال على أذلالها جارية، فقال لي ابن سعدان: قد قال لي زيد عنك كذا وكذا. قلت: قد كان ذلك. قال: فدوّن هذا الكلام وصله بصلاته... فجمعت ما في هذه الرسالة. فاتصال أبي حيان بابن سعدان وتأليفه له كتاب «الصدقة والصديق» يرجح الظن بأنه هو أبو عبد الله العارض.

نعم كان من رجال صمصام الدولة من اسمه أبو الحسن بن عمارة العارض استخدمه صمصام الدولة في السفارة بينه وبين أعدائه أحياناً، ولكن يبعد أن يكون هو الذي ألف له كتاب الإمتاع والمؤانسة - لأن كنيته أبو الحسن والذي ألف له الكتاب أبو عبد الله - ولأن أبا الحسن لم يكن وزيراً لصمصام الدولة. وفي الكتاب النص في مواضع متعددة على أنه ألفه لوزير.

٤ - ذكر في كتاب «الإمتاع والمؤانسة» أصدقاء أبي عبد الله العارض وعدد منهم ابن زرعة وأبا الوفاء المهندس ومسكويه والأهوازي وبهرام وابن شاهويه، وأنهم كانوا يلازمونه وأنهم أهل مجلسه، وعدد في كتاب الصداقة والصديق أصدقاء ابن سعدان فإذا هم هم؛ فاتحاد الأصدقاء وتوافقهم واجتماعهم في مجلس وزير يرجح الظن جداً بأن ابن العارض هو ابن سعدان.

٥ - جاء في «كتاب الإمتاع والمؤانسة» أن الوزير سأل أبا حيان عما يقول الناس فيه. فقال له: «سمعت بباب الطاق قوماً يقولون: اجتمع الناس اليوم على الشط، فلما نزل الوزير ليركب الزبزب صاحوا وضجوا وذكروا غلاء القوت وعوز الطعام وتعذر الكسب وغلبة الفقر، وأنه أجابهم بجواب مَرَّ مع قطوب الوجه وإظهار التبرم». وهذه الأوصاف كلها تنطبق على ما ذكره أبو شجاع في كتابه: «ذيل تجارب الأمم» عن حادثة جرت لابن سعدان.

وابن سعدان هذا استوزره صمصام الدولة البويهية سنة ٣٧٣ لما تقلد الأمور بعد وفاة أبيه عضد الدولة. جاء في كتاب «ذيل تجارب الأمم لأبي شجاع»: «وفيها [أي في سنة ٣٧٣] خُلع على أبي عبد الله الحسين بن أحمد بن سعدان خلع الوزارة - وكان رجلاً باذلاً لعطائه، مانعاً للقاءه، فلا يراه أكثر من يقصده إلا ما بين نزوله من درجة داره إلى زبزه؛ ومع ذلك فلا يخيب طالب إحسان منه في أكثر مطلبه... فبسط يده في الإطلاقات والصلات... وأحدث من الرسوم استيفاء العشر من جميع ما تسبب به الأولياء والكتّاب والحواشي من أموالهم... وانضاف إلى ضيق خلقه ما اتفق في وقت نظره من غلاء سعر، فتطيرت العامة ورجموا زبزه، وشغبوا الديلم عليه، وهجموا على نهب داره، وانتهت الحال إلى ركوب صمصام الدولة إلى مجتمعهم حتى تلافاهم وردّهم».

وقد ظل ابن سعدان في الوزارة إلى سنة ٣٧٥ حتى ظهر له خصم هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف، فظل يكيد له وينصب الشباك للإيقاع به.

وحدث أن ابن سعدان أراد أن يعين أباه كاتباً لوالده صمصام الدولة لما مات كاتبها، فقال أبو القاسم لصمصام الدولة: «إن ابن سعدان قد استولى على أمورك، وملك عليك خزائنك وأموالك، فإذا تم له حصول والده مع السيدة حصلنا تحت الحجر معه». وتمت المكيدة ولم يعين أبوه. ثم قبض على ابن سعدان وأصحابه وأودعوا السجن، واستوزر صمصام الدولة هذا الواشي أبا القاسم عبد العزيز بن يوسف، ولم يكتف أبو القاسم بمجلس ابن سعدان فانتهاز فرصة خروج ثائر على صمصام الدولة اسمه «أسفار بن كردويه» يريد خلعه، فدس أبو القاسم إلى صمصام الدولة أن ابن سعدان متصل بهذا الثائر وأن الذي جرى كان من فعله وتدبيره، وأنه لا

يؤمن ما يتجدد منه في محبسه، فأمر صمصام الدولة بقتله، فقتل سنة ٣٧٥.

وكان لابن سعدان ناحية أخرى علمية أدبية يصورها أبو حيان في كتبه، فهو واسع الاطلاع، له مشاركة جيدة في كثير من فروع العلم من أدب وفلسفة وطبيعة وإلهيات وأخلاق، يدل على ذلك حواراه الذي يحكيه أبو حيان في كتابه الإمتاع والمؤانسة والمقابسات، فهو يسأل أسئلة عميقة، وينقد الإجابة عنها نقداً قيماً.

وفوق ذلك كان له في وزارته منتدى يجمع كثيراً من جلة العلماء والأدباء منهم ابن زرعة الفيلسوف النصراني، وابن مسكويه صاحب (تهذيب الأخلاق) (وتجارب الأمم)، وأبو الوفاء المهندس الذي ستتحدث عنه، وأبو سعد بهرام بن أردشير، ومن الشعراء ابن حجاج الشاعر الماجن المشهور، ومن الكتاب أبو عبيد الخطيب الكاتب، وأبو حيان صاحبنا.

وكان له مجلس شراب يجلس إليه بعض هؤلاء فيتفاكهون ويتنادرون ويذهبون في فنون الحديث كل مذهب، ومجلس جد يتحاورون فيه ويتناقشون في الفلسفة والأخلاق والأدب.

وكان يباهي بمجلسه ويفخر به على مجالس الأمراء المعاصرين له، مثل المهلبى وابن العميد والصاحب بن عباد. فيقول في أصحابه هؤلاء: «ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير،... وأن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد من هؤلاء، وأن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم، وأن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون». فلا عجب - إذن - أن يكون من نتاج ابن سعدان الوزير العالم هذا الكتاب الذي نحن بصدد؛ كتاب «الإمتاع والمؤانسة».

وأما أبو الوفاء الذي وصل أبا حيان بابن سعدان والذي ألف أبو حيان له «الإمتاع والمؤانسة» ودون له فيه كل ما دار بينه وبين الوزير في سبع وثلاثين ليلة، فهو محمد بن محمد بن يحيى البوزجاني. ترجم له ابن النديم في (الفهرست) وابن خلكان في (وفيات الأعيان)؛ وقال فيه هذا الأخير: «إنه أحد الأئمة المشاهير في علم الهندسة، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها، وكان شيخنا العلامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس - وهو القيم بهذا الفن - يبالغ في وصف كتبه، ويعتمد عليها في أكثر مطالعاته ويحتج بما يقوله وكان عنده من تأليفه عدة كتب... وكانت ولادته سنة ٣٢٨ بمدينة بوزجان، وقدم العراق سنة ٣٤٨، وتوفي سنة ٣٧٦». وقد ذكر ابن خلكان أنه نقل تاريخ الوفاة هذا من شيخه ابن الأثير. ولكن الذي في ابن الأثير أنه عدّ وفاته في حوادث سنة ٣٨٧، فإما أن ابن خلكان أخطأ في النقل أو أن الناسخ أخطأ في الكتابة.

وكان أبو الوفاء هذا من ندماء ابن سعدان كما تقدم، وقد وصفه ابن سعدان في

جملة ما وصف من أصحابه. فقال: «وأما أبو الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطبية والمساعدة المطربة والمفاكهة اللذيذة والمواتاة الشهية، إلا أن لفظه خراساني، وإشارته ناقصة، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد، والبغدادى إذا تخرسن كان أعلى وأظرف من الخراساني إذا تبغدد».

إلى هنا رأينا أن الكتاب ألف لأبي الوفاء المهندس، نقل فيه أبو حيان ما دار بينه وبين ابن سعدان. ولكن القفطي في كتابه «أخبار الحكماء» عند ترجمته لأبي سليمان المنطقي أورد كلاماً يناقض ما نقول، سواء في ذلك من ألف له الكتاب، ومن دار الحديث بينه وبين أبي حيان.

فقد ذكر: «أن أبا سليمان كان أعور، وكان به وَضَح، وكان ذلك سبب انقطاعه عن الناس ولزومه منزله، فلا يأتيه إلا مستفيد وطالب علم، وكان يشتهي الإطلاع على أخبار الدولة وعلم ما يحدث فيها... وكان أبو حيان التوحيدي من بعض أصحابه المعتمدين به، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار، ومهما عَلمه من ذلك نقله إليه وحاضره به، ولأجله صنف كتاب «الإمتاع والمؤانسة» نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي عندما تولى وزارة صمصام الدولة بن عضد الدولة». وأنا أرجح خطأ القفطي في الوجهين معاً.

فأما في الأول: فإن النسخة التي بيدي تذكر أنه ألفه لأبي الوفاء المهندس لأبي سليمان المنطقي. ويقول في صدر الكتاب: إنه ألفه ردأً لجميل أبي الوفاء إذ كان هو الذي أوصله لأبي عبد الله. وعندما يأتي ذكر أبي الوفاء في ثنايا الكتاب، ويسأل أبو عبد الله أبا حيان عن رأيه فيه يمدحه ويشني عليه، ويقول: كيف أذمه وهو الذي أوصلني بك، وقد سبق أن أثبتنا أن أبا الوفاء كان من ندماء أبي عبد الله.

ودليل آخر، وهو أن أبا حيان في بعض كلامه في الكتاب يستجدي من ألف له الكتاب، وقد كان أبو الوفاء المهندس في منزلة تسمح له بذلك، فإنه رجل جليل القدر يلقبه الوزير بشيخنا. أما أبو سليمان فكان فقيراً كما ذكر ذلك أبو حيان في هذا الكتاب، وكانت صلة أبي حيان به صلة علمية لا صلة مالية، فمن البعيد جداً أن يستجديه أبو حيان.

ودليل ثالث: وهو أن الوزير أبا عبد الله سأل أبا حيان في الكتاب عن أبي سليمان هذا، فذكر له أوصافه، وفيها ما عو عيب لأبي سليمان كقوله: إنه يجتمع مع قوم للشراب، ويذكر بعضهم الوزير بالسوء، فلو كان أبو حيان ألفه لأبي سليمان لكان بعيداً كل البعد أن يذكر هذا الحديث.

ودليل رابع: وهو أن أبا حيان ينقل في كتابه هذا عن أبي سليمان، ويذكر آراءه،

وينقل بعض رسائله إلى الوزير، ولو كان يؤلف الكتاب لأبي سليمان لاستغنى عن ذكر ما يعرفه أبو سليمان عن نفسه من أقواله ورسائله، ولكان أبو حيان في ذلك كمن ينقل إلى البئر ماء، وإلى الكنز ذهبه، وهذا غير مألوف ولا مستساغ.

لهذا كله نرجح خطأ القفطي فيما ذهب إليه من أنه ألفه لأبي سليمان المنطقي. كما نرجح خطأه في الشق الثاني، وهو أن أبا حيان دوّن فيه ما كان يدور بينه وبين أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي وزير صمصام الدولة.

ذلك لأن النسخة التي بين أيدينا يذكر فيها أبو حيان أنه دوّن فيه ما دار بينه وبين أبي عبد الله العارض لا أبي الفضل عبد الله بن العارض. وقد راجعنا كتب التاريخ التي بين أيدينا وأحصينا فيها من تولى الوزارة لصمصام الدولة، فلم نجد من بينهم أبا الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي الذي ذكره القفطي وكما تقول دائرة المعارف الإسلامية في مادة أبي حيان تبعاً له.

نعم رأينا من يسمى أبا الفضل الشيرازي، وكان يعيش في هذا العصر ولكن اسمه أبو الفضل محمد بن عبد الله بن المرزبان الشيرازي لا أبو الفضل عبد الله الشيرازي كما يقول القفطي. وكان هذا كاتباً لا وزيراً، وكان صديقاً لأبي على المحسن التنوخي، ونقل عنه كثيراً في كتابه «نشوار المحاضرة» ولقبه الكاتب لا الوزير. والذي ألف له الإمتاع والمؤانسة وزير لا كاتب.

يضاف إلى ذلك ما ذكرنا قبل من البراهين.

فالكتاب - في رأينا - كتب لأبي الوفاء المهندس لا أبي سليمان المنطقي ودون فيه ما دار في مجلس ابن سعدان لا أبي الفضل الشيرازي.

وصف الكتاب: قال القفطي في وصفه: «وهو كتاب ممتع على الحقيقة لمن له مشاركة في فنون العلم، فإنه خاض كل بحر، وغاص كل لجة، وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو: ابتداء أبو حيان كتابه صوفياً وتوسطه محدثاً، وختمه سائلاً ملحقاً»^(١).

قسم أبو حيان كتابه إلى ليال، فكان يدون في كل ليلة ما دار فيها بينه وبين الوزير على طريقة قال لي وسألني وقلت له وأجبتة. وكان الذي يقترح الموضوع دائماً هو الوزير. وأبو حيان يجيب عما اقترح، وكان الوزير يقترح أولاً موضوعاً حسبما اتفق ويتنظر الإجابة؛ فإذا أجاب أبو حيان أثارت إجابته أفكاراً ومسائل عند الوزير فيستطرد إليها ويسأله عنها، فقد يسأل سؤالاً يأتي في أثناء الإجابة عنه ذكر لابن عباد أو ابن العميد أو

(١) أخبار الحكماء للقفطي، ص ٢٨٣.

أبي سليمان المنطقي، فيسأله الوزير عنهم وعن رأيه فيهم، وهكذا، يستطرد من باب لباب، حتى إذا انتهى المجلس كان الوزير يسأله غالباً أن يأتيه بطرفة من الطرائف يسميها غالباً: «ملحة الوداع» فيقول الوزير - مثلاً -: إن الليل قد دنا من فجره، هات ملحّة الوداع. وهذه الملحّة تكون - عادة - نادرة لطيفة أو أبياتاً رقيقة، وأحياناً يقترح الوزير أن تكون ملحّة الوداع شعراً بدوياً يشم منه رائحة الشيخ والقيصوم وهكذا.

وأحياناً يكلفه الوزير أن يتم له المسألة المعروضة في رسالة؛ فقد سأله مرة عن المصادر التي تجيء على وزن تفعّال، فأجابه أبو حيان عن بعضها، ثم طلب منه الوزير أن يجمع له ما جاء في اللغة منها.

وأحياناً يتخذ الكلام شكل حوار. فأبو حيان - مثلاً - يروي عن ديوجانيس أنه سئل: متى تطيب الدنيا؟ فقال: «إذا تفلسف ملوكها، وملك فلاسفتها»؛ فلم يرض الوزير عن هذا، وقال: إن الفلسفة لا تصح إلا لمن رفض الدنيا وفرغ نفسه للدار الآخرة؛ فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها، وهو محتاج إلى سياسة أهلها، والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفسادها! - وأطال في ذلك - وفي كثير من الأحيان يعلق الوزير على إجابة أبي حيان بالاستحسان أو الاستهجان مع ذكر أسباب ذلك.

وأحياناً يطلب إليه الوزير أن يحضّر له رسالة في موضوع، ثم يتلوها عليه في جلسة مقبلة كما فعل مرة، إذ كلفه أن يكتب له في المجون والملح، ففعل أبو حيان وقرأها عليه في مجلس. قال أبو حيان: «فلما قرأتها على الوزير قال: ما علمت أن مثل هذا الحجم يحوي هذه الوصايا والملح». وآونة يشير الوزير مسائل أشكلت عليه في اللغة والفلسفة والاجتماع يعرضها على أبي حيان ويطلب منه الجواب فيفعل.

ويحدث أحياناً أن الوزير يدفع لأبي حيان برقعة فيها أسئلة يطلب إليه أن يفكر في الإجابة عنها، ويتصل بغيره من العلماء ليأخذ رأيهم فيها؛ كما حدث مرة أنه دفع إليه رقعة بخطه فيها مطالب، وقال: باحث عنها أبا سليمان وأبا الخير، ومن تعلم أن في محاورته فائدة. وكان في الرقعة أسئلة منها عن الروح وصفته ومنفعته، وما المانع أن تكون النفس جسماً أو عرضاً أو هباءً؛ وهل تبقى؟ وإن كانت تبقى فهل هي تعلم ما كان الإنسان فيه ههنا... الخ. ويقول الوزير في آخر هذه الرقعة: «إن هذا وما أشبهه شاغل لقلبي وجاثم في صدري، ومعترض بين نفسي وفكري، وما أحب أن أبوح به لكل أحد»؛ ويأمره بأن يكتّم خطه فإن أراد أن يعرض هذه المسائل مكتوبة على أبي سليمان فلينسخها بخطه هو. ثم سأل أبو حيان أبا سليمان وذكر إجابته عنها ونقلها إلى الوزير، وعلى هذا النمط يجري تأليف الكتاب.

وموضوعات الكتاب متنوعة تنوعاً ظريفاً لا تخضع لترتيب ولا تبويب، إنما

تخضع لخطرات العقل وطيران الخيال وشجون الحديث . حتى لنجد في الكتاب مسائل من كل علم وفن؛ فآداب وفلسفة وحيوان ومجون وأخلاق وطبيعة وبلاغة وتفسير وحديث وغناء ولغة وسياسة وتحليل شخصيات لفلاسفة العصر وأدبائه وعلمائه وتصوير للعادات وأحاديث المجالس، وغير ذلك مما يطول شرحه .

فلما أراد أبو حيان أن يدوّن لأبي الوفاء ما دار بينه وبين الوزير زاد فيه ونمق الحديث . وكان يدوّن جزءاً ويرسله إلى أبي الوفاء ويتبعه بجزء آخر وهكذا . . .

وحدث هو نفسه عن ذلك كله في أول الجزء الثاني فقال: «قد فرغت من الجزء الأول على ما رسمت لي القيام به، وشرفتني بالخوض فيه، وسردت في حواشيه أعيان الأحاديث التي خدمت بها مجلس الوزير، ولم آل جهداً في روايتها وتقويمها، ولم أجنح إلى تعمية شيء منها، بل زبرجت كثيراً بناصع اللفظ مع شرح الغامض، وصلة المحذوف، وإتمام المنقوص، وحملته إليك على يد «فائق» الغلام، وأنا حريص على أن أتبعه بالجزء الثاني، وهو يصل إليك في الأسبوع إن شاء الله .

وقد خاف أبو حيان من بعض ما ورد في الكتاب؛ فإنه في حديثه مع الوزير عاب أشخاصاً من رجال الدولة الذين يستطيعون إيذاءه، فرجا أبو الوفاء أن يحفظ هذا الكتاب سراً، فقال: «وأنا أسألك ثانية على طريق التوكيد كما سألتك على طريق الاقتراح أن تكون هذه الرسالة مصونة عن عيون الحاسدين العيابين، بعيدة عن تناول أيدي المفسدين المنافسين، فليس كل قائل يسلم، ولا كل سامع ينصف» .

وقد أنجز أبو حيان وعده، وأرسل إليه الجزء الثاني على يد غلامه فائق أيضاً . ثم أرسل إليه الجزء الثالث وهو الأخير، وقال في أوله:

«قد أرسلت إليك الجزئين الأول والثاني . وهذا الجزء - وهو الثالث قد والله ألقيت فيه كل ما في نفسي من جد هزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وأدب، واحتجاج واعتذار . . . ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام في خاص أمري» .

وعلى هذا الوضع ينتهي الكتاب .

ولست أستبعد أن يكون أبو حيان قد تزيد فيه، واخترع أشياء لم تجر في مجلس الوزير، فقد عرف عنه أمثلة من هذا القبيل، فقد اتهمه العلماء من قبل ومنهم ابن أبي الحديد بأنه وضع الرسالة المشهورة المعزوة إلى أبي عبيدة على لسان أبي بكر وعمر في حق علي بن أبي طالب، ولعل هذا التزيد كان من ضمن الأسباب التي دعت به أن يرجو أبا الوفاء في أن يكون الكتاب سراً، فإنه أَلَفَ الكتاب في حياة الوزير، وخشي أن الوزير يطلع عليه فيعلم مقدار ما تزيد .

أما أنه ألفه في حياة الوزير، فالدليل عليه ما جاء في نسخه ميلانو: «أنشئت هذه الرسالة في رجب سنة ٣٧٤» والوزير ابن سعدان ظل وزيراً من سنة ٣٧٣ إلى سنة ٣٧٥ كما تقدم^(١).

- (١) انتهى النقل عن الأستاذ أحمد أمين من مقدمته لكتاب الإمتاع والمؤانسة.
- (*) اعتمدنا في ترجمة المؤلف على كتاب: أبو حيان التوحيدي، للدكتور زكريا إبراهيم، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة.
- ولمزيد الاطلاع، تراجع مصادر ترجمة أبي حيان.
- ياقوت الحَمَوِي: «معجم الأدباء»، ١ - ٢٠، تحقيق: أحمد فريد رفاعي، القاهرة ١٩٣٦، ١٥ : ٥ - ٥٢.
- ابن خَلِّكان: «وفيات الأعيان»، ١ - ٨، تحقيق: إحسان عباس، بيروت - دار صادر ١٩٦٧ - ١٩٧٣، ١١٢ : ٥ - ١١٣.
- النَّوَوِي: «تهذيب الأسماء واللغات»، ١ - ٤، القاهرة ٢ : ٢٢٣.
- الدَّهْبِي: «سير أعلام النبلاء»، ١ - ٢٥، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرين، بيروت - مؤسسة الرسالة ١٧ : ١١٩ - ١٢٣.
- «ميزان الاعتدال»، ١ - ٤، تحقيق: علي محمد البجاوي، القاهرة ١٩٦٣ - ١٩٦٤، ٤ : ٥١٨.
- السُّبْكِي: «طبقات الشافعية الكبرى»، ١ - ١٠، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة - هجر للطباعة والنشر ١٩٩٣، ٥ : ٢٨٦ - ٢٨٩.
- الصَّفَّدي: «الوافي بالوفيات»، ١ - ١٨، ٢١ - ٢٤، تحقيق: مجموعة من العلماء، بيروت - النشرات الإسلامية - ٦، ١٩٤٩ - ١٩٩٢، ٢٢ : ٣٩ - ٤١.
- الإسنوي: «طبقات الشافعية»، ١ - ٢، تحقيق: عبد الله الجبوري، بغداد - وزارة الأوقاف ١٣٩٠هـ، ١ : ٣٠١ - ٣٠٣.
- ابن حجر العسقلاني: «لسان الميزان»، ١ - ٦، الهند - حيدر آباد الدكن، ٦ : ٣٦٩ - ٣٧٢.
- السُّيُوطي: «بغية الوعاة»، القاهرة ١٣٢٦هـ، ٣٤٨ - ٣٤٩.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال أبو حَيَّانَ التَّوْحِيدِيّ: نجا من آفات الدنيا من كان من العارفين ووصلَ إلى خيرات الآخرة من كان من الزاهدين، وظفر بالفوز والنعيم مَنْ قَطَعَ طَمَعَهُ مِنَ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبيّه وعلى آله الطاهرين.

أما بعد؛ فَإِنِّي أَقُولُ مِنْبَهًا لِنَفْسِي، ولَمَنْ كَانَ مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِي: مَنْ لَمْ يُطِغْ ناصحَه بقبول ما يسمع منه، وَلَمْ يُمَلِّكْ صديقَه كُلَّه فِيمَا يُمَثِّلُه كُلُّه، وَلَمْ يَنْقُدْ لِيَتَانِه فِيمَا يُرِيغُه^(١) إِلَيْهِ وَيُطْلِعُه عَلَيْهِ؛ وَلَمْ يَرَ أَنَّ عَقْلَ الْعَالِمِ الرَّشِيدِ، فَوْقَ عَقْلِ الْمُتَعَلِّمِ الْبَلِيدِ؛ وَأَنَّ رَأْيَ الْمَجْرُبِ الْبَصِيرِ، مُقَدَّمٌ عَلَى رَأْيِ الْعُمَرِ^(٢) الْغَرِيرِ فَقَدْ خَسِرَ حَظُّهُ فِي الْعَاجِلِ، وَلَعَلَّه أَيْضًا يَخْسِرُ حَظُّهُ فِي الْآجِلِ؛ فَإِنَّ مَصَالِحَ الدُّنْيَا مَعْقُودَةٌ بِمَرَاشِدِ الْآخِرَةِ، وَكَلَيَاتِ الْحَسِّ فِي هَذَا الْعَالَمِ، فِي مَقَابِلَةِ مَوْجُودَاتِ الْعَقْلِ فِي ذَلِكَ الْعَالَمِ؛ وَظَاهِرُ مَا يُرَى بِالْعِيَانِ مُفْضٍ إِلَى بَاطِنٍ مَا يَصْدُقُ عَنْهُ الْخَبَرُ؛ وَبِالْجَمْلَةِ، الدَّارَانِ مُتَّفَقَتَانِ فِي الْخَيْرِ الْمَغْتَبَّ بِه، وَالشَّرِّ الْمَنْدُومِ عَلَيْهِ؛ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفَانِ بِالْعَمَلِ الْمُتَقَدِّمِ فِي إِحْدَاهُمَا، وَالْجِزَاءِ الْمُتَأَخِّرِ فِي الْأُخْرَى؛ وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ الْمَلِكِ الْحَقِّ الْجَبَّارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ الْمَاجِدِ أَنْ أَجْهَلَ حَظِّي، وَأَعْمَى عَنْ رُشْدِي، وَأَلْقِي بِيَدِي إِلَى التَّهْلُكَةِ، وَأَتَجَانَّفَ إِلَى مَا يَسُوءُنِي أَوَّلًا وَلَا يَسُرُّنِي آخِرًا؛ هَذَا وَأَنَا فِي ذَيْلِ الْكُهُولَةِ وَبَادِئَةِ الشَّيْخُوخَةِ، وَفِي حَالٍ مَنْ إِنْ لَمْ تَهْدِهِ التَّجَارِبُ فِيمَا سَلَفَ مِنْ أَيَّامِهِ، فِي حَالِي سَفَرِهِ وَمُقَامِهِ؛ وَفَقْرِهِ وَغِنَائِهِ، وَشِدَّتِهِ وَرَخَائِهِ، وَسَرَائِهِ وَضُرَائِهِ، وَخِيفَتِهِ وَرَجَائِهِ؛ فَقَدْ انْقَطَعَ الطَّمَعُ مِنْ فَلَاحِهِ وَوَقَعَ الْيَأْسُ مِنْ تَدَارُكِهِ وَاسْتَصْلَاحِهِ؛ فَإِلَى اللَّهِ أَفْرَغُ مِنْ كُلِّ رَيْثٍ وَعَجَلٍ، وَعَلَيْهِ أَتَوَكَّلُ فِي كُلِّ سُؤْلٍ وَأَمَلٍ، وَإِيَّاهُ أَسْتَعِينُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ.

قَدْ فَهِمْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ^(٣) - حَفِظَ اللَّهُ رُوحَكَ، وَوَكَّلَ السَّلَامَةَ بِكَ، وَأَفْرَغَ الْكَرَامَةَ عَلَيْكَ، وَعَصَبَ كُلَّ خَيْرٍ بِحَالِكَ، وَحَشَدَ كُلَّ نِعْمَةٍ فِي رِحَابِكَ وَرَجَمَ هَذِهِ الْجَمَاعَةَ الْهَائِلَةَ - مِنْ أَبْنَاءِ الرِّجَاءِ وَالْأَمَلِ - بِعَنَائِتِكَ، وَلَا قَطْعَكَ مِنْ عَادَةِ الْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَلَا

(١) يريد به ويطلبه.

(٢) مَنْ لَمْ يَجْرِبِ الْأُمُورَ وَالْجَاهِلِ الْأَبْلَه.

(٣) يريد به أبا الوفا المهندس.

ثَنَى طَرْفَكَ عَنِ الرَّقَّةِ لَهُمْ، وَلَا زَهْدَكَ فِي اصْطِنَاعِ حَالِيهِمْ وَعَاطِلِيهِمْ، وَلَا رَغْبَ بكَ عَنْ قَبُولِ حَقِّهِمْ لِبَعْضِ بَاطِلِهِمْ، وَلَا ثَقْلَ عَلَيْكَ إِدْنَاءَ قَرِيبِهِمْ وَبَعِيدِهِمْ، وَإِنَّا لَمَسْتَحَقُّهُمْ وَغَيْرِ مَسْتَحَقُّهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا فِي نَفُوسِهِمْ وَأَقْصَى مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ مَوَاسَاتِهِمْ، مِنْ بَشْرِ تَبْدِيهِ، وَجَاهِ تَبْدُلِهِ، وَوَعْدِ تَقْدُمِهِ، وَضَمَانِ تَوْكُّدِهِ، وَهَشَاشَةِ تَمْزُجِهَا بِبَشَاشَةِ، وَتَبَسُّمِ تَخْلُطُهُ بِفُكَاكِهِ فَإِنَّ هَذِهِ كُلُّهَا زَكَاةُ الْمَرْوَةِ، وَرِبَاطُ النِّعَمَةِ، وَشَهَادَةُ بِالْمَحْتَدِ الزَّكِيِّ وَالْعَرِيقِ الطَّيِّبِ وَالْمَنْشَأِ الْمَحْمُودِ، وَالْعَادَةِ الْمَرْضِيَّةِ؛ وَهِيَ مُؤَذِّنَةٌ بِأَنَّ الْمُنْحَةَ رَاهِنَةٌ^(١)، وَالْمَوْهِبَةُ قَاطِنَةٌ، وَالشُّكْرُ مَكْسُوبٌ، وَالْأَجْرُ مَذْخُورٌ، وَرِضْوَانُ اللَّهِ وَاقِعٌ؛ وَأَسْأَلُ اللَّهَ بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ أَلَّا يُسْهِمَ^(٢) وَجْهِي عِنْدَكَ، وَلَا يُزِلَّ قَدَمِي فِي خِدْمَتِكَ، وَلَا يُزَيِّعَنِي^(٣) إِلَى مَا يَقْطَعُ مَادَّةَ إِحْسَانِكَ وَعَائِدَةَ رَأْيِكَ وَنَافِعَ نَيْتِكَ وَجَمِيلَ مَعْتَقِدِكَ، بِمَنِّهِ وَلَطْفِهِ.

فَهَمْتُ جَمِيعَ مَا قَلْتَهُ لِي بِالْأَمْسِ فَهَمًّا بَلِيغًا، وَوَعَيْتُهُ وَغَيًّا تَامًا؛ وَبَانَ لِي الرُّشْدُ فِي جَمْلَتِهِ وَتَفْصِيلِهِ، وَالصَّلَاحُ فِي طَرَفِيهِ وَوَسْطِهِ، وَالنِّعْمَةُ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ، وَالشَّفَقَةُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ. وَأَنَا أَعِيدُهُ هَهُنَا بِالْقَلَمِ، وَأَرْسُمُهُ بِالْخَطِّ وَأَقِيدُهُ بِاللِّفْظِ، حَتَّى يَكُونَ اعْتِرَافِي بِهِ أَرْسَى وَأَثْبَتَ، وَشَهَادَتِي عَلَى نَفْسِي أَقْوَى وَأَوْكَدَ، وَنُكُولِي عَنْهُ أَبْعَدَ وَأَصْعَبَ، وَحُكْمُكَ بِهِ لِي وَعَلَيَّ أَمْضَى وَأَنْفَذَ.

قُلْتُ لِي - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى تَوْفِيقَكَ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ، وَفِي كُلِّ رَأْيٍ وَنَظَرٍ -: إِنَّكَ تَعْلَمُ يَا أَبَا حَيَّانَ أَنَّكَ انْكَفَأْتَ مِنَ الرَّيِّ إِلَى بَغْدَادَ فِي آخِرِ سَنَةِ سَبْعِينَ بَعْدَ فُوتِ مَأْمُولِكَ مِنْ ذِي الْكِفَايَتَيْنِ^(٤) - نَضَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ - عَاتِبًا عَلَى ابْنِ عَبَّادٍ^(٥) مَغِيظًا مِنْهُ، مَقْرُوحَ الْكِبْدِ، لَمَّا نَالَكَ بِهِ مِنَ الْجِرْمَانِ الْمَرِّ، وَالصَّدِّ الْقَبِيحِ، وَاللِّقَاءِ الْكَرِيهِ، وَالْجَفَاءِ الْفَاحِشِ، وَالْقَدْعِ^(٦) الْمُؤْلَمِ وَالْمَعَامَلَةِ السَّيِّئَةِ، وَالتَّغَالُفِ عَنِ الثَّوَابِ عَلَى الْخِدْمَةِ، وَحَبْسِ الْأَجْرَةِ عَلَى التَّنْخِصِ وَالْوَرَاةِ، وَالتَّجَهُمِ الْمُتَوَالِيِ عِنْدَ كُلِّ لَحْظَةٍ وَلَفْظَةٍ.

وَذَكَرْتُ فِي الْجُمْلَةِ شِقَاءَ اتِّصَالِ بكَ فِي سَفَرِكَ ذَلِكَ، وَعِنَاءَ نَالِ مَنْكَ فِي عُرْضِ^(٧) أَحْوَالِكَ؛ وَلَعَمْرِي إِنَّ السَّفَرَ فَعُولٌ لِهَذَا كُلِّهِ وَلَا أَكْثَرَ مِنْهُ؛ فَأَرَعَيْتَكَ بِصُرِي، وَأَعَرْتُكَ سَمْعِي، وَسَاهَمْتُكَ فِي جَمِيعِ مَا وَقَرْتَهُ فِي أَدْنَى بِالْجَزَعِ وَالتَّوَجُّعِ وَالِاسْتِفْظَاعِ

(١) أي دائمة.

(٢) أي تغيّر الحال، والسهوم تغيّر الوجه وعبوسه من الهم.

(٣) يعيلني.

(٤) ذو الكفّايّتين: لقب لأبي الفتح علي بن أبي الفضل محمد المعروف بابن العميد.

(٥) وابن عبّاد: هو الصّاحب أبو القاسم إسماعيل بن أبي الحسن عبّاس ولد سنة ٣٢٦هـ. وتوفي سنة ٣٨٥هـ.

(٦) المنع والزجر.

(٧) أي أكثر أحوالك.

والتفجّع؛ وَضَمِنْتُ لَكَ تَلَاْفِي ذَلِك كُلَّهُ بِحَاقٍ^(١) الشَّفَقَةَ وَخَالِصِ الضَّمِيرِ، وَوَعَدْتُكَ صِلَاحَ الْحَالِ عَنْ ثَبَاتِ النِّيَّةِ، وَصَحَّةِ الْعَقِيدَةِ، وَقُلْتُ: أَنَا أَرَعَى حَقَّكَ الْقَدِيمَ حِينَ التَّقِينَا (بَارْجَان)، وَأَنَا عَلَى بَابِ (ابْنِ شَاهَوَيْهِ) الْفَقِيهِ، وَعَهْدُكَ الْحَدِيثَ حِينَ اجْتَمَعْنَا بِمَدِينَةِ السَّلَامِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ؛ وَأَوْصَلْتُكَ إِلَى الْأَسْتَاذِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضِ - أَدَامَ اللَّهُ تَأْيِيدَهُ - وَأَخْطَبْتُكَ قَبُولًا مِنْهُ، وَتَخْفِيفَ الْإِذْنِ عَلَيْكَ، وَامْتِلَاءَ الطَّرْفِ بِكَ، وَنَيْلَ الْحِظْوَةِ بِخِدْمَتِكَ وَمِلَازِمَتِكَ؛ وَفَعَلْتُ ذَلِك كُلَّهُ حَتَّى اسْتَكْتَبَكَ (كِتَابُ الْحَيَوَانِ) لِأَبِي عَثْمَانَ الْجَاخِظِ، لِعَنَايَتِكَ بِهِ، وَتَوْفُّرِكَ عَلَى تَصْحِيحِهِ، ثُمَّ خَضَعْتُ^(٢) لَكَ هَذِهِ الْحَالَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا؛ وَهُوَ الْوَزِيرُ الْعَظِيمُ الَّذِي افْتَقَرَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى نَظَرِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَإِلَى أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُبْرِمُ وَالنَّاقِضُ، وَالرَّافِعُ وَالْوَاضِعُ، وَالْكَافِي وَالْوَافِي، وَالْمَقْرَبُ لَخِدْمَتِهَا وَنِصَائِحَتِهَا، وَالْمُزَحْزَحُ لِحَسَدَتِهَا وَأَعْدَائِهَا؛ وَالرَّاعِي لِرَعِيَّتِهَا وَدَهْمَانِهَا، وَالنَّاهِضُ بِأَثْقَالِهَا وَأَعْبَائِهَا، أَعَانَهُ اللَّهُ عَلَى مَا تَوَلَّاهُ، وَكَفَاهُ الْمَهْمُ فِي ذِيَاهُ وَأَخْرَاهُ، بِمَنْهَ وَقَدْرَتِهِ.

نَعَمْ، وَرَتَّبْتُ ذَلِك كُلَّهُ، وَلَمْ أَقْطَعْ عَنْكَ عَادَتِي مَعَكَ فِي الْاسْتِرْسَالِ وَالْإِنْبَسَاطِ، وَالْبَرِّ وَالْمُؤَانَسَةِ، وَالْمُسَاعَدَةِ وَالْمَوَاتَاةِ، وَالتَّعَصُّبِ وَالْمَحَامَاةِ.

أَفْكَانَ مِنْ حَقِّي عَلَيْكَ فِي هَذِهِ الْأَسْبَابِ الَّتِي ذَكَرْتُهَا، وَفِي أَخَوَاتِهَا الَّتِي تَرَكْتُهَا كِرَاهَةً الْإِطَالَةَ بِهَا؛ أَتُكُّ تَخْلُو بِالْوَزِيرِ - أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ - لِيَالِيَّ مُتَابَعَةً وَمُخْتَلَفَةً، فَتَحْدُثُهُ بِمَا تَحَبُّ وَتُرِيدُ، وَتُلْقِي إِلَيْهِ مَا تَشَاءُ وَتَخْتَارُ، وَتَكْتُبُ إِلَيْهِ الرُّقْعَةَ بَعْدَ الرُّقْعَةِ؛ وَلَعَلَّكَ فِي غُرُضِ ذَلِكَ تَعْدُو طَوْرَكَ بِالتَّشْدُّقِ وَتَجُوزُ حَدَّكَ بِالِاسْتِحْقَارِ، وَتَتَطَاوَلُ إِلَى مَا لَيْسَ لَكَ، وَتَغْلُظُ فِي نَفْسِكَ، وَتَنْسَى زَلَّةَ الْعَالِمِ، وَسَقَطَةَ الْمُتَحَرِّرِ، وَخَجَلَةَ الْوَائِقِ؛ هَذَا وَأَنْتَ غَيْرُ لَا هَيْئَةَ لَكَ فِي لِقَاءِ الْكِبَرَاءِ، وَمُحَاوَرَةِ الْوُزَرَاءِ؛ وَهَذِهِ حَالٌ تَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى عَادَةٍ غَيْرِ عَادَتِكَ، وَإِلَى مِرَانٍ سِوَى مِرَانِكَ، وَلَيْسَةَ لَا تَشْبِهُ لِبَسَتِكَ؛ وَقَلَّ مَنْ قُرَّبَ مِنْ وَزِيرٍ خَدَمَ فَأَجَادَ، وَتَكَلَّمَ فَأَفَادَ، وَبُسِطَ فَرَادَ؛ إِلَّا سَكِرَ، وَقَلَّ مَنْ سَكِرَ إِلَّا عَثَرَ وَقَلَّ مَنْ عَثَرَ فَانْتَعَشَ، وَمَا زَهَدَ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَثِيرٌ مِنَ الْحُكَمَاءِ الْأَوَّلِينَ وَالْعُبَادِ الرَّبَّانِيِّينَ؛ إِلَّا لِيُغْلِظَهَا وَصُعُوبَتِهَا، وَمَكْرُوهَ عَاقِبَتِهَا، وَشِدَّةَ الصَّبْرِ عَلَى عَوَارِضِهَا وَرَوَاتِبِهَا، وَتَفْسُخِ^(٣) الْمُتَنِّ^(٤) بَيْنَ حَوَادِثِهَا وَنَوَائِبِهَا.

وَالْعَجَبُ أَنَّكَ مَعَ هَذِهِ الْخِلَّةِ تَظُنُّ أَنَّهَا مَطْوِيَّةٌ عَنِّي وَخَافِيَةٌ دُونِي، وَأَنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ الْغَايَةَ وَادَعَى الْقَلْبَ، وَمَلَكَتِ الْمَكَانَةَ ثَانِي الْعِانِ؛ وَقَدْ انْقَطَعَتْ حَاجَتُكَ عَنِّي وَعَمِنَ هُوَ

(١) أَيُّ صَادِقِ الشَّفَقَةِ وَكَامِلِهَا.

(٢) أَيُّ كَفَلْتَهَا لَكَ وَحَفَظْتَهَا عَلَيْكَ.

(٣) أَيُّ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنِ النَّهْوِضِ.

(٤) أَيُّ الظَّهْرِ.

دونني، ووقع الغنى عن جاهي وكلامي ولطفي وتوصيلي؛ وجهلت أن من قَدَر على وُصُولك، يقدر على فصولك^(١)، وأن من صَعِد بك حين أراد، ينزل بك إذا شاء، وأن من يُحسِن فلا يُشكر، يجتهد في الاقتصاد حتى يُعذر.

وبعد، فما أطيل، ولعلَّ لهبَ المَوْجِدَة يزدد، ولسانَ الغيظ يغلو، وطباع الإنسان تحتد، والندم على ما أسلفت من الجميل يتضاعف؛ ولست أنت أول من برَّ فعق، ولا أنا أول من جُفِيَ فتق. وهذا فراقُ بيني وبينك وآخرُ كلامي معك، وفاتحةُ يَأْسِي منك؛ قد غسلت يدي من عهدك بالأشنان البارقي، وسلوت عن قربك بقلب معرض وعزم حي؛ إلا أن تُطْلِعني طلعَ جميع ما تحاورتما وتجادبتما هُذَّب الحديث عليه، وتصرفتما في هزله وجده، وخيره وشره، وطيبه وخبيثه، وباديه ومكتومه؛ حتى كأني كنتُ شاهداً معكما ورقياً عليكما، أو متوسطاً بينكما، ومتى لم تفعل هذا، فانتظر عُقْبَى استيحاشي منك، وتوقَّع قَلَّةَ عُفُولِي عنك، وكأني بك وقد أصبحت حَرَّان حيران يا أبا حيان، تأكل أصبعك أسفاً، وتَرْدَرْدُ ريقك لهفاً، على ما فاتك من الحَوَطة لنفسك، والنظر في يومك لغدك، والأخذ بالوثيقة في أمرك، أتظنن بغراتك وغمارتك، وذهابك في فُسُولتكَ^(٢) التي اكتسبتها بمخالطة الصوفية والغرباء والمجتدين الأدنياء الأردباء؛ أنك تقدر على مثل هذه الحال، وأنا منك على حسن الظن بك، والثقة بصدرك ووردك، وأطمئن إلى حَكِّك وجَرْدِك وأتعامى عن حرِّك وبردك؛ هيهات؛ رَقَدَت فَحَلَمْتُ، فخيلاً رأيت وخيراً يكون.

على هذا الحد كان مَقْطَع كلامك في مَوْجِدَتِكَ، وإلى ههنا بلغ فَيَضُ عَتَبِكَ ولائمتك؛ وفي دون ذلك تنبيه للنائم، وإيقاظ للساهي، وتقويم لمن يقبل التقويم؛ وقد قال الأول:

ألا إنما يكفي الفتى عند رَيْغِهِ من الأود البادي ثِقافُ المقوم

فقلت لك: أنا سامع مطيع، وخادم شكور، لا أشتري سخطك بكل صفراء وبيضاء^(٣) في الدنيا؛ ولا أنفر من التزام الذنب والاعتراف بالتقصير؛ ومثلي يهفو ويَجْمَح، ومثلك يهفو ويصفح؛ وأنت مولئ وأنا عبد، وأنت آمر وأنا مؤتمر، وأنت متمثل وأنا ممثّل، وأنت مصطنع وأنا صنيعة، وأنت منشئ وأنا مُنشَأ، وأنت أول وأنا آخر، وأنت مأمول وأنا آمِل، ومتى لم تغفر لي الذنب البكر، والجنابة العذراء، والبادرة النادرة؛ فقد أعنتني على ما كان مني، ودَلَلْتُ على مَلِكْ لي؛ وأنت كنت مترصداً لهذه الهفوة ومعتقداً في مقابلتها هذه الجفوة؛ وكرمك يأبى عليك هذا، ومثولي بين يديك خدمة لك يحظره عليك.

(١) أي خروجك من عند الوزير.

(٢) الغرارة: الغفلة، والغمارة: الجهل والبلاهة، والفسولة: الضعف والخسة وقلة المروءة.

(٣) أي الذهب والفضة.

هذا وأنا أفعل ما طالبتني به مِنْ سَرْدٍ جميع ذلك، إِلَّا أَنَّ الخوض فيه على البديهة في هذه الساعة يَشْقُ وَيَصْغُبُ بعقب ما جرى من التفاوض، فَإِنْ أَذِنَتْ جمعته كُلُّهُ في رسالة تشتمل على الدقيق والجليل، والحلو والمُرّ، والطري والعاسي، والمحبوب والمكروه.

فكان مِنْ جوابك لي: افْعَلْ. ونعم ما قلتَ وهو أَحَبُّ إِلَيَّ وأقربُ إلى إرادتي، وَأَخْصَرُ لما أَرِغُ^(١) منه، وأدْخُلُ في الحجة عليك ولك؛ وَأَغْسِلُ للوسخ الذي بيني وبينك، وَأَزْهَرُ للسراج الذي طَفَى عَنِّي وعَنكَ، وَأَجْذِبُ لِعَنانِ الحجةِ إِنْ كانتَ لك، وَأَنْطِقُ عن العذر إِنْ اتَّضَحَ بقولك؛ وَإِذَا عَزَمْتَ فتوكل على الله؛ وليكن الحديثُ على تباعد أطرافه، واختلافِ فنونه مشروحاً، والإسنادَ عالياً متصلاً، والامتِنُ تاماً بيتاً، واللفظُ خفيفاً لطيفاً، والتصريحُ غالباً متصدراً، والتعريضُ قليلاً يسيراً وتَوَخَّ الحقَّ في تضاعيفه وأثنائه، والصدقُ في إيضاحه وإثباته؛ واثقُ الحذفِ المُخِلِّ بالمعنى، والإلحاقَ المتصلَ بالهَذَرِ، واحذرْ تزيينه بما يَشِينُهُ، وتكثيره بما يقلِّله، وتقليله عما لا يُسْتَعْنَى عنه؛ واعمِدْ إلى الحَسَنِ فزد في حُسْنِهِ، وإلى القبيحِ فانقُصْ من قبحه؛ واقصد إمتاعي بجمعة نظمِه ونثره، وإفادتي من أوله إلى آخره؛ فلعلَّ هذه المثاقفة^(٢) تَبْقَى وتُرَوَّى، ويكون في ذلك حُسْنُ الذكري؛ ولا تُومِئْ إلى ما يكون الإفصاحُ عنه أحلى في السمع، وأعذبُ في النفس، وأعلَقُ بالأدب؛ ولا تُفْصِحْ عما تكون الكنايةُ عنه أَسْتَرَ للعيبِ، وأنْفَى للريبِ؛ فَإِنَّ الكلامَ صَلِفٌ تَيَّاه لا يستجيب لكلِّ إنسان، ولا يَصْحَبُ كُلَّ لسان؛ وخطَرُه كثير، ومتعاطيه مغرور، وله أَرَنْ^(٣) كَأَرَنِ المَهْرِ وإِبَاءَ كِبَاءِ الحُرُونِ، وزهو كزهو المَلِكِ، وَخَفَقَ كَخَفَقِ البرق؛ وهو يَتَسَهَّلُ مرّةً ويتعسّرُ مراراً، وَيَذِلُّ طوراً وَيَعَزُّ أطواراً؛ ومادته من العقل والعقلُ سريعُ الحُؤُولِ خفيُّ الخداع؛ وطريقُه على الوهم، والوهم شديد السَّيْلان ومجراه على اللسان، واللسان كثير الطغيان؛ وهو مركَّب من اللَّفْظِ اللَّغَوِيِّ والصَّوْغِ الطَّبَاعِيِّ، والتأليفِ الصَّنَاعِيِّ، والاستعمالِ الاصطلاحِيِّ، ومُستَمْلَاه من الحجا، ودَرْيُهُ بالتمييز، ونَسْجُهُ بالترقة، والحجا في غاية النشاط وبهذا البَوْنِ يقع التباين ويتسّع التأويل، ويجول الذهن، وتَمَطَّى الدعوى، ويُفْرَغُ إلى البرهان، ويُبْرَأُ من الشبهة، ويُعْتَرُّ بما أشبه الحجة وليس بحجة؛ فاحذر هذا النَّعْتِ وروادفَه، واثق هذا الحُكْمَ وقوائِفُه^(٤)؛ ولا تعسّق اللفظ دون المعنى ولا تهو المعنى دون اللفظ؛ وكن من أصحاب البلاغة والإنشاء في

(١) أي أطلب وأريد.

(٢) أي المطارحة في العلم والأدب ومذاكرتهما.

(٣) أي النشاط.

(٤) أي توابعه.

جانب، فإن صناعتهم يُفْتَقِر فيها أشياء يؤاخذ بها غيرهم، ولست منهم، فلا تشبه بهم، ولا تجر على مثالهم، ولا تنسج على منوالهم، ولا تدخل في غمارهم، ولا تكثر ببياضك سوادهم، ولا تُقابل بفهاهتك براعتهم، ولا تجذب بيدك رشاءهم، ولا تحاول بباعك مطاولتهم، واعرف قدرك تسلّم، والزم حدك تأمن؛ فليس الكؤُذُن^(١) من العتيق في شيء، ولا الفقير من الغني على شيء؛ أما سمعت قول الناس: ليس الشامي للعراقي بصاحب، ولا الكردي من الجندي بساخر، فإن طال^(٢) فلا تُبل، وإن تشعب فلا تكثر، فإن الإشباع في الرواية أشقى للغليل، والشرح للحال أبلغ إلى الغاية، وأظفر بالمراد، وأجرى على العادة.

فكتبت: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)، أقول أيها الشيخ - عطف الله قلبك عليّ، وألهمك الإحسان إليّ - في جواب جميع ما قلته واجداً عليّ وعاتباً، وقابضاً، وباسطاً، ومرشداً، وناصحاً؛ ما يُعرف الحق فيه، ويستبين الصواب منه، غير خائن لك، ولا جانح إلى مخالفتك، ولا مُريغ^(٣) للباطل معك، ولا جاحد لأيديك القديمة والحديثة، ولا منكِر لنعمتك الكافية الشافية، ولا غاطٍ على فواضلك المجتمعة والمتفرقة، ولا تاركٍ لشيء هو عليّ من أجل شيء هو لي، ولا معرض عن شيء هو لي بسبب شيء هو عليّ؛ بل أجهّز دقّه وجلّه إليك حتى تراه بسدّه وغباره، وأجلوه عليك حتى تلحظه بردائه وإزاره. كاني لم أسمع قول الأوّل^(٤):

والكفر مَخْبَثَةٌ لنفس المنعم والشكر مَبْعَثَةٌ لنفس المفضل

أنا أدعك واجداً عليّ، وأرقد وأنت ماقِت لي، وأجد حسّ نعمة أنت وهبتها إليّ، وألذّ عيشاً أنت أدقّنتني حلاوته. أنسى أيديك وهي طوق رقبتني، وتُجاه عيني، وحشوّ نفسي، وراحة جِلمي، وزاد حياتي، ومادّة روحي؟ هيهات، هذا بعيد من القياس، وغير معهود بين أحرار الناس؛ الذين لهم اهتمام بصون أغراضهم، وحرص على إكرام أنفسهم؛ قد عبّقوا بفوائح الفتوة، وعَلِقُوا بحبائل المروءة، وشدّوا^(٥) من الحكمة أشرف الأبواب؛ واعتزّوا من الأدب إلى أعز حرم؛ وحازوا شرفاً بعد شرف، وانحازوا عن نطف بعد نطف^(٦) ونظروا إلى الدنيا بعين بصيرة، وعزّفوا أنفسهم عن زهرتها بتجربة صادقة.

(١) الفرس الهجين.

(٤) قاله عترة العبيسي.

(٢) أي الكلام.

(٥) أي أخذوا.

(٣) أي مريد.

(٦) أي العيب والفساد.

فأول ما أبدأك به أُنْتِي ظننتُ ظناً لا كيقين أن شيئاً ممّا كنتُ فيه مع الوزير - أدام الله أيامه، وقَصَمَ أعداءه - ليس مما يهَمُّكَ، ولا هو مما يَقْرَعُ سَمْعَكَ سَمَاعُكَ له؛ وحسبتُ أيضاً أُنْتِي إن بدأتُ بشيءٍ منه رَدَّلْتَنِي عليه وتنقّصتني به، ورَزَيْتَ عَلَيَّ فيه؛ وأنتَ ربّما قلتُ: لم بدأتُ بما لم أسألك عنه ولم أرخص لك فيه، هَلَا كظمتُ على جِرتِكَ، وطويتُ ما بين جنبيك وما عليّ ممّا يدور بين الصاحب وخادمه والرؤساء، والناظرين في أمور الدهماء^(١) والمتصفحّين لأحوال العامّة والخاصّة، ولهم أسرار وغيوبٌ لا يقف عليها أقرب الناس إليهم، وأعزُّ الناس عليهم، وأنتَ أيضاً فلم تسألني عنه، فكان في تقديري أنكَ قد عرفتَ وصولي في وقت دون وقت، وأنكَ قد حملتَ أمري على الخدمة التي ليس للعلم بها فائدة، ولا في الإعراض عنها فائدة.

وإذ جرى الأمر على غير ما كان في حسابي وتلبّسَ بظني، فإنّي أهدي ذلك كلّه بغثائه وسمانته، وحلاوته ومرارته، ورقّته وخثارته في هذا المكان؛ ثم أنت أبصرُ بعد ذلك في كتمانهِ وإفشائه، وحفظهِ وإضاعته وسترهِ وإشاعته؛ ووالله ما أَرَى هذا أمراً صعباً إذا وصل إلى مرادِكَ ولا كُلفَةً شاقّةً إذا أكسبني مَرْضاتِكَ؛ وإن كان ذلك يمرّ بأشياء كثيرة ومختلفة، متعصية غريبة، منها ما يَشِيْطُ به الدم المحقون، ويُنزَعُ من أجلهِ الرُّوح العزيز، ويُستصغَرُ معه الصُّلْب، ولا يُقنَعُ فيه بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر؛ وإن كان فيها أيضاً غيرُ ذلك ممّا يُضحِكُ السِّنَّ، ويُفكِّهُ النفس، ويدعو إلى الرشاد، ويدلُّ على النُّصح، ويؤكدُ الحُرْمَةَ، ويعقِدُ الدُّمام، وَيَنْشُرُ الحكمة، ويشرفُ الهمة، وَيَلْقَحُ العقل، ويزيد في الفهم والأدب ويفتح بابَ اليُمْن والبركة، وَيُنْفِقُ بضاعةَ أهل العلم في السوق الكاسدة، ويوقظ العيون الناعسة، وَيُبَلِّ الشَّنَّ المتغصّف، وَيُنْدِي الطِّينَ المترشّف؛ ويكون سبباً قوياً على حُسن الحال وطيبِ العيش، فإن هذه العاجلة محبوبة، والرّفاهة مطلوبة، والمكانة عند الوزراء بكلِّ حولٍ وقوّةٍ مخطوبة، والدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ وَعَذْبَةٌ نُضِرَةٌ، ومن شَفَّ^(٢) أمله شَقَّ عمله؛ ومن اشتدَّ إلحاحه، توالى غدوّهُ ورَواحهُ، ومن أسرّه رجاؤهُ، طال عناؤهُ، وعَظُمَ بلاؤهُ؛ ومن التهب طمعه وحرصه، ظهر عجزه ونقصه.

وفي الجملة:

من لم يكن لله متّهماً لم يُمسِ محتاجاً إلى أحدٍ ولا بدّ من فتى يعينُ على الدهر، ويُغني عن كرام الناس فضلاً عن لئامهم، ويدلّل قعود الصبر، ويُجِمّ راحلة الأمل، ويحلّي مرّ اليأس؛ والغزلة محمودّةٌ إلّا أنّها

(١) أي جماعة الناس.

(٢) أي زاد، أو أسقمه.

محتاجة إلى الكفاية، والقناعة مَزَّةٌ فِكْهَةٌ ولكنّها فقيرةٌ إلى البلغة، وصيانةُ النفس حسنةٌ إلّا أنّها كُلْفَةٌ مُحرجةٌ إن لم تكن لها أداةٌ تُجِدُّها وفاشيةٌ^(١) تَمُدُّها، وتركُ خدمةِ السلطان غيرُ الممكن ولا يستطاع إلّا بِدِينٍ متين، ورغبةٍ في الآخرةِ شديدة، وفِطَامٍ عن دار الدنيا صعب، ولسانٍ بالحلو والحامض يَلْغ.

قال ابن السَّمَاك: لولا ثلاثٌ لم يقع حَيْفٌ، ولم يُسَلَّ سيفٌ: لقمةٌ أُسَوِّغَ من لقمة، ووجهٌ أَصْبَحَ من وجه، وَسِلْكٌ «أَنْعَمَ من سِلْكٍ»، وليس كلُّ أحدٍ له هذه القوة، ولا فيه هذه المُنَّةُ^(٢) والإنسان بَشَرٌ، وَبِنَيْتِهِ متهافئةٌ وطِينَتُهُ منتثرة، وله عادةٌ طالبة، وحاجةٌ هاتكة، ونفسٌ جَمُوحٌ، وَعَيْنٌ طَمُوحٌ؛ وعقلٌ طفيف، ورأيٌ ضعيف، يهفو لأوّل ريح، ويستخيلُ لأوّل بارق؛ هذا إذا تَخَلَّصَ من قُرْئاءِ السوء، وسلم من سوارقِ العقل، وكان له سلطان على نفسه، وَقَهْرٌ لشهوته، وَقَمْعٌ لهوائجه وقبول من ناصحه، وتهَيُّؤٌ في سعيه، وتَبَوُّؤٌ في مَعَانِ حَظِّهِ، واثتمامٌ بسعادته، واستبصارٌ في طلب ما عند ربّه، واستنصافٌ من هواءِ المُضِلِّ لعقله المرشِد، هذا قليلٌ وصعبٌ ولو قلتُ معدومٌ أو مُحال في هذا الزمن العسير والدهر الفاسد، لما خفتُ عائقاً يعوقني، ولا حسوداً يردّ قولِي.

قال ابن السَّمَاك: اللَّهُ المستعان على السُّنِّ تَصِفُ وقلوبٌ تَعْتَرِفُ، وأعمالٌ تَخْتَلِفُ. وقال معاوية لأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث - ورأه لا يَلِيّ له عملاً، ولم يقبل منه نائلاً -: يا ابن أخي، هي الدنيا، فإِذَا أَنْ تَرْضَعَ معنا؛ وإِذَا أَنْ تَرْتَدِعَ عَنَّا.

وربّما قال بعض المتكلفين: قد قال بعض السلف ليس خيركم مَنْ تَرَكَ الدنيا للآخرة، ولا مَنْ تَرَكَ الآخرةَ للدنيا ولكنَّ خيركم من أخذ من هذه وهذه. وهذا كلام مقبول الظاهر موقوفُ الباطن. وربما قال آخَرُ من المتقدمين: (اعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً). وهذا أيضاً كلامٌ مَنْمَقٌ، لا يَرْجِعُ إلى معنىٍ محقّق؛ أين هو من قول المسيح - عليه السلام - حين قال: الدنيا والآخرة كالْمَشْرِقِ والمغرب متى بَعْدَ أحدهم من أحدهما قُرْبٌ من الآخر؛ ومتى قُرْبٌ من أحدهما بَعْدَ من الآخر. وأين هو من قول الآخر: الدنيا والآخرة ضَرَّتَانِ، متى أَرْضِيَتْ إحداهما أَسْخَطَتْ الأخرى، ومتى أَسْخَطَتْ إحداهما أَرْضِيَتْ الأخرى.

وهذا لأنَّ الإنسان صغيرُ الحجم، ضعيفُ الحَوْل، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذِ حظوظِ بدنه وإدراكِ إرادته، وبين السعي في طلبِ المنزلة عند ربّه بأداء فرائضه، والقيام بوظائفه، والثبات على حدود أمره ونهيه.

(١) تجدها أي تجدها، والفاشية: ما انتشر من المال.

(٢) أي القوة.

فإن صَفَّق وجهه وقال: نَعْمَل تارة لهذه الدار وتارة لتلك الدار، فهذا المذنب الذي لا هو من هذه ولا من هذه؛ ومن تَخَنَّت وتَلَيَّث لم يكن رجلاً ولا امرأة، ولا يكون أباً ولا أما؛ وهذا كما نرى.

ونرجع فنقول: ونعوذ بالله من الفقر خاصة إذا لم يكن لصاحبه عياد من التقوى، ولا عِمَاد من الصبر، ولا دِعَامَة من الأنفة، ولا اصطبار على المرارة.

وقد بُلِّينا بهذا الدهر الخالي من الرَبَانِيِّين الذين يُصْلِحُونَ أنفسهم ويصْلِحُونَ غيرهم بفضل صلاحهم، الخاوي من الكرام الذين كانوا يتسعون في أحوالهم، ويوسعون على غيرهم من سَعَتِهِمْ، وكانوا يهتمون بذخائر الشكر المعجل في الدنيا، ويَحْرِصُونَ على ودائع الأجر المؤجل في الآخرة؛ ويتلذذون بالثناء، ويهتزون للدعاء؛ وتَمْلِكُهُم الأريحية عند مسألة المحتاج، وتعترهم الهزة معها والابتهاج وذلك لعشقهم الثناء الباقي؛ والصنيع الواقي؛ ويرون الغنيمة في الغرامة، والربح في البذل، والخط في الإيثار، والزيادة في النقص؛ أعني بالزيادة: الخلف المنتظر من الله؛ وبالنقص: العطاء؛ ورأيْتُ الناس يعيبون ابن العميد حين قال: أنا أعجب من جهل الشاعر الذي قال:

أنت للمال إذا أمسكته فإذا أنفقتَه فالمال لك

قال: ولو كان هذا صحيحاً كان لا ينبغي أن يُكْتَسَبَ المال، لأنه ليس في ترك كسبه أكثر من إخراجه بالإنفاق. هذا لقولهم بحكمته وعقله وتحصيله، وصواب الجاهل لا يُستحسن كما يُستَبَح خطأ العاقل.

نعم، وكانوا إذا وَلَّوْا عَدَلُوا، وإذا مَلَكُوا أَفْضَلُوا، وإذا أعطوا أَجَزَلُوا، وإذا سُئِلُوا أَجَابُوا وإذا جادوا أَطَابُوا، وإذا عالوا صَبَرُوا، وإذا نالوا شَكَرُوا؛ وإذا أنفقوا وَاسَّوْا، وإذا امْتَحِنُوا تَأَسَّوْا؛ وكانوا يرجعون إلى نقائب ميمونة، وإلى ضرائب^(١) مأمونة؛ وإلى ديانات قوية، وأمانات ثخينة؛ وكان لهم مع الله أسرار طاهرة، وعلانية مقبولة؛ ومع عباد الله معاملته جميلة، ورحمة واسعة ومعدلة فاشية؛ وكانت تجارتهم في العلم والحكمة، وعادتهم جارية على الضيافة والتكرمة؛ وكانت شيمتهم الصفا والمغفرة وربحهم من هذه الأحوال النجاة والكرامة في الأولى والعاقبة؛ وكانوا إذا تَلَاقَوْا تَوَاصَوْا بالخير، وتناهَوْا عن الشر؛ وتَنَافَسُوا في اتِّخَاذِ الصَّنَائِعِ، وأدْخَرَ البُضَائِعِ (أعني صنائع الشكر، وبضائع الأجر).

فذهب هذا كله، وتاه أهله؛ وأصبح الدين وقد أُخْلِقَ لَبُوسُهُ، وأُوحِشَ مَأْنُوسُهُ،

(١) أي الطبائع والسجايا.

واقْتُلِعْ مغْرُوسُهُ؛ وصار المنكّر معروفاً، والمعروف منكرًا، وعاد كلُّ شيء إلى كدِّره وخائِثِه، وفاسدِه وضائِرِه؛ وحَصَلَ الأمرُ على أن يقال: فلانٌ خفيفُ الرُّوح، وفلانٌ حَسَنُ الوجه، وفلانٌ ظريفُ الجملة، حلُوُ الشَّمالِ، ظاهرُ الكَيْسِ، قويُّ الدَّسْتِ^(١) في الشُّطْرُنَجِ، حَسَنُ اللَّعْبِ في التَّرْدِ، جَيِّدٌ في الاستخراج، مدبِّرٌ للأموال، بَدُولٌ للجَهْدِ، معروفٌ بالاستقصاء لا يُغْضِي عن دائق، ولا يتغافل عن قيراط؛ إلى غير ذلك مما يَأْتِيُ العالِمُ من تكثرِه، والكاتبُ من تسطيرِه.

وهذه كُلُّها كُنَايَاتٌ عن الظلم والتجديف، والخساسة والجهل وقلة الدين وحبُّ الفساد، وليس فيها شيءٌ ممَّا قَدَّمنا وصفَه عن القوم الذين اجتهدوا أن يكونوا خلفاء الله على عباد الله بالرفقة والرقة والرحمة والاصطناع والعدل والمعروف.

وأرجعُ عن هذه الشُّكْيَةِ الطويلة اللَّاذِعة والبليَّة العامَّة الشاملة؛ إلى عينِ ما رَسَمْتُ لي ذِكْرَه، وكَلَّفْتَنِي إِعادَتَه؛ عائِذاً بالله في صَرَفِ الأذى عَنِّي وسَوْقِ الخيرِ إِلَيَّ؛ ولائِذاً بِكرمِكَ الَّذِي رَشَّتَنِي به إلى الساعة، وكَفَيْتَنِي به مَوْنَةَ الخِدمة لغيرِكَ من هذه الجماعة؛ والأعمالُ بِخواتيمِها، والصُّدُورُ بِأعجازِها؛ وأنتَ أُولَى الناسِ بالصَّفْحِ والتجاوُزِ عَنِّي إذا عَرَفْتَ براءَتِي في كلِّ ما يَتَعَلَّقُ بي من ذمامِكَ؛ ويجب عليَّ من الحقِّ في مودَّتِكَ، والاعتصامِ بِحبْلِكَ والانتجاعِ^(٢) من عُشْبِكَ، والارتقاء من لَبَنِكَ.

(١) أي الحيلة.

(٢) الانتجاع أي طلب المعروف.

الليلة الأولى

وصلتُ أيُّها الشيخ - أطال الله حياتك - أوّل ليلة إلى مجلس الوزير - أعزّ الله نصره، وشدّ بالعصمة والتوفيق أزره - فأمرني بالجلوس، وبسط لي وجهه الذي ما اعتراه منذ خلق العُبوس؛ ولطف كلامه الذي ما تبدّل منذ كان لا في الهزل ولا في الجدّ، ولا في الغضب ولا في الرضا.

ثم قال بلسانه الذّليق، ولفظه الأنيق: قد سألتُ عنك مرّاتٍ شيخنا أبا الوفاء، فذكر أنّك مراعى لأمر البيمارستان من جهته، وأنا أربأ بك عن ذلك، ولعليّ أعرضك لشيء أثبّه من هذا وأجدى، ولذلك فقد تآقت نفسي إلى حضورك للمحادثة والتّائيس، ولأتعرف منك أشياء كثيرة مختلفة تردّد في نفسي على مرّ الزمان، لا أحصيها لك في هذا الوقت، لكنني أنثرها في المجلس بعد المجلس على قدر ما يسّنع ويعرض، فأجبنني عن ذلك كلّ باسترسال وسكونٍ بال؛ بملء فيك، وجمّ خاطرك، وحاضر عِلْمِك؛ ودع عنك تفنّن البغداديين...^(١) مع عفوّ لفظك، وزائد رأيك، وربّح ذهنك؛ ولا تجبن جبن الضّعفاء، ولا تتأطرّ تأطرّ الأغبياء^(٢)؛ واجزم إذا قلت، وبالغ إذا وصفت؛ واصل إذا أسندت، وافصل إذا حكمت، إلّا إذا عرّض لك ما يوجب توقُّفاً أو تهادياً؛ وما أحسن ما قال الأوّل:

لا تَفْدَحُ الظَّنَّةُ فِي حُكْمِهِ شِيمَتُهُ عَدْلٌ وَإِنْصَافُ
يَمْضِي إِذَا لَمْ تَلْقَهُ شَبْهَةً وَفِي اعْتِرَاضِ الشَّكِّ وَقَافُ
وقد قال الأوّل:

أُبَالِي الْبَلَاءَ وَإِنِّي أَمْرُؤُ إِذَا مَا تَبَيَّنْتُ لَمْ أَرْتَبِ
وكن على بصيرة أنّي سأستدلّ ممّا أسمع منكَ في جوابك عمّا أسألك عنه على صدقك وخلافه، وعلى تحريفك وقرافه.

فقلتُ: قبلُ كلِّ شيء أريد أن أجاب إليه يكون ناصري على ما يرام منّي فإنّي إن مُنِعْتُهُ نَكَلْتُ، وإن نَكَلْتُ قَلَّ إفصاحي عمّا أطالب به وخِفْتُ الكَسَادَ،

(١) كلمة مطموسة، وتفنّن البغداديين: استطرداهم في الكلام وخروجهم فيه من فن إلى فن.

(٢) التأطرّ: التّحجس والتّثني، شبه به وقوف الغبي وتردده في جواب ما يسأل عنه.

وقد طَمِعْتُ بِالنِّفَاقِ^(١) وانقلبْتُ بالخِيبة، وقد عقدْتُ خِنْصِرِي على المسألة .

فقال - حَرَسَ اللَّهُ رُوحَهُ -: قل - عافاك الله - ما بدا لك، فأنت مجاب إليه ما دمتَ ضامناً لبلوغ إرادتنا منك، وإصابة غرضنا بك .

قلت: يُؤَدِّن لي في كاف المخاطبة، وتاء المواجهة، حتَّى أتخلَّص من مزاحمة الكناية ومضايقة التعريض، وأركبُ جَدَدَ القول مِن غير تَقْيَّة ولا تَحَاش ولا مُحَاوِشَة ولا انجِياش .

قال: لك ذلك، وأنت المأذون فيه، وكذلك غيرك، وما في كاف المخاطبة وتاء المواجهة؟ إن الله تعالى - على علو شأنه، وبَسْطَةِ مُلْكِهِ، وقدرته على جميع خلقه - يواجه بالتاء والكاف، ولو كان في الكناية بالهاء رفعةً وجلالةً وقَدْرَ ورتبةً وتقديس وتمجيد لكان الله أحقَّ بذلك ومقدِّماً فيه، وكذلك رسوله ﷺ والأنبياء قبله - عليهم السلام - وأصحابه - رضي الله عنهم - والتابعون لهم بإحسان - رحمة الله عليهم - وهكذا الخلفاء، فقد كان يقال للخليفة: يا أمير المؤمنين أعزَّكَ اللهُ، ويا عُمَرُ أصلحك الله؛ وما عاب هذا أحد، وما أُنِفَ منه حسيب ولا نسيب، ولا أباه كبيرٌ ولا شريف؛ وإني لأعجب من قوم يرغبون عن هذا وشبهه، ويحسبون أن في ذلك ضعةً أو نقيسةً أو خطأً أو زرايةً، وأظن أن ذلك لعجزهم وفُسُولَتِهِمْ^(٢)، وانخزالهم وقلَّتْهم وضُؤولتهم، وما يجدونه من الغضاضة في أنفسهم، وأن هذا التكلف والتجبر يحوان عنهم ذلك النقص، وذلك النقص يَنْتَفِي بهذا الصِّلَف؛ هيهات، لا تكون الرياسة حتَّى تصفو من شوائب الخِيلاء، ومن مقابح الزُّهو والكبرياء .

فقلتُ: أيها الوزير، قد خالطْتُ العلماء، وخدمت الكبراء وتصفَّحتُ أحوال الناس في أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم، فما سمعتُ هذا المعنى من أحد على هذه السِّيَاقَةِ الحسنة والحجَّةِ الشافية والبلاغ المبين؛ وقد قال بعض السلف الصالح: «ما تعاضمَ أحد على مَنْ دونه إلَّا بقدر ما تصاغَرَ لِمَنْ فوقه». والتصاغر دواء النفس، وسجِّية أهل البصيرة في الدنيا والدين؛ ولذلك قال ابن السَّمَاكِ للرَّشيد - وقد عَجِبَ من رَقَّتْه وحُسِنَ إصاخته لموعظته وبلغ قبوله لقوله وسرعة دمعته على وجنته -: «يا أمير المؤمنين، لتواضعُك في شرفك أشرفُ من شرفك، وإني أظن أن دمعَتَكَ هذه قد أطفأت أوديةً من النار وجعلتها برداً وسلاماً» .

قال: هذا باب مُفْتَرَقٌ فيه، وَرَجَعْنَا إلى الحديث فإنه شهِيّ، سيِّماً إذا كان من خطرات العقل، قد خُذِمَ بالصواب في نَعْمَةٍ ناعِمة، وحروف متقاومة؛ ولَفِظَ عَذْبُ،

(١) النفاق ضد الكساد.

(٢) الخسة والضعف.

وَمَا أَخَذَ سَهْلٌ؛ ومعرفة بالوصل والقطع، ووفاء بالنثر والسَّجْع؛ وتباعُد من التكلف الجافي، وتقارب في التلطف الخافي، قاتل الله ذا الرُمة حيث يقول:

لَهَا بَشَرٌ مِثْلُ الْحَرِيرِ وَمَنْطِقٌ رَخِيمٌ الْحَوَاشِي لَا هُرَاءَ وَلَا نَزْرُ
وَكُنْتُ أَنْشِدُ أَيَّامَ الصَّبَا هَذَا بِالذَّالِ، وكان ذلك من سوء تلقين المعلم؛ وبالعراق رُدَّ عليّ وقيل: هو بالزاي؛ وقد أجاد القَطاميّ أيضاً وتغزل في قوله:

فَهَنْ يَنْبِذَنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِيبُنْ بِهِ مَوَاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذِي الْغَلَّةِ الصَّادِي
قُلْتُ: ولهذا قال خالد بن صفوان حين قيل له: أَتَمَلَّ الحديث؟ قال: إِنَّمَا يُمَلِّ الْعَتِيقُ، والحديث معشوق الحسّ، بمعونة العقل، ولهذا يُولَعُ به الصبيان والنساء.

فقال: وأيّ معونة لهؤلاء من العقل ولا عقل لهم؟

قُلْتُ: ههنا عقل بالقوّة وعقل بالفعل، ولهم أحدهما وهو العقل بالقوّة، وههنا عقل متوسّط بين القوّة والفعل مُزْمِع، فإذا برز فهو بالفعل، ثم إذا استمرّ العقل بلغ الأَفْق؛ ولفرط الحاجة إلى الحديث ما وضع فيه الباطل، وخُلِطَ بِالْمُحَالِ ووُصِلَ بِمَا يُعْجِب وَيُضْحِكُ وَلَا يَزُولُ إلى تحصيل وتحقيق، مثل (هزار أفسان)^(١) وكلّ ما دخل في جنسه من ضروب الخرافات، والحسّ شديد اللّهج بالحادث والمُحَدَّث والحديث، لأنّه قريب العهد بالكون، وله نصيب من الطرافة. ولهذا قال بعض السلف: «حادثوا هذه النفوس فإنّها سريعة الدُّثور»، كأنّه أراد اضقلوها واجلّوا الصّدأ عنها، وأعيدوها قابلةً لودائع الخير، فإنّها إذا دَثِرَتْ - أي صَدِدتْ، أي تَغَطَّتْ؛ ومنه الدُّثَارُ الَّذِي فوق الشُّعَار - لم يُنْتَفِعَ بها؛ والتعجب كلّهُ مَنْوُطٌ بِالْحَادِثِ؛ وأما التعظيم والإجلال فهما لكلّ ما قَدُمَ: إمّا بالزمان، وإمّا بالدهر؛ ومثال ما يقدّم بالزمان الذهب والياقوت وما شابههما من الجواهر الّتي بَعْدَ الْعَهْدِ بمبادئها، وسيمتدّ العهد جداً إلى نهاياتها؛ وأمّا ما قَدُمَ بالدهر، فكالعقل والنفس والطبيعة؛ فأما الفلّك وأجرامه المزدهرة في المعانقة العجيبة، وَمَنَاطِقِهِ الْخَفِيَّةُ، فقد أخذت من الدهر صورةً إلهيّة، وأحدثت فيما سلف منها صورةً زمنيّة.

فقال: بقي أن يتصل به نعت العتيق والخلق.

فكان من الجواب أنّ العتيق يقال على وجهين: فأحدهما يشار به إلى الكرم والحُسْن والعظمة، وهذا موجودٌ في قول العرب: «البيت العتيق»؛ والآخر يشار به إلى قَدَم من الزمان مجهول. فأما قولهم: «عبد عتيق»، فهو داخل في المعنى الأوّل، لأنّه أكرم بالعتق، وارتفع عن العبوديّة، فهو كريم. وكذلك «وجه عتيق» لأنّه أعتقته الطبيعة من الدّمامة والقبح. وكذلك «فرس عتيق».

(١) كتاب في الخرافات نقل ابن النديم معنى هذا الاسم ألف خرافة.

وأما قولهم: «هذا شيء خَلَقَ»، فهو مضمَّن معنيين: أحدهما يشار به إلى أنَّ مادَّته بالية؛ والآخر أنَّ نهايةَ زمانه قريبة. وكان ابنُ عَبَاد قال لكَاتبه مرَّة - أعني ابنَ حسولة - في شيء جرى... «نعم، العالمُ عتيق ولكن ليس بقديم» أي لو كان قديماً لكان لا أول له، ولَمَّا كان عتيقاً كان له أول، ومن أجل هذا الاعتقاد وصفوا الله تعالى بأنَّه قديم، واستحسنوا هذا الإطلاق. وقد سألتُ العلماء البُصراء عن هذا الإطلاق، فقالوا: ما وجدنا هذا في كتاب الله - عزَّ وجلَّ - ولا كلام نبِيَّه - ﷺ - ولا في حديث الصحابة والتابعين. وسألتُ أبا سعيد السِّيرافي الإمامَ: هل تعرف العرب أنَّ معنى القديم ما لا أول له؟ فقال: هذا ما صح عندنا عنهم ولا سبق إلى وهمنا هذا منهم، إلَّا أنهم يقولون: «هذا شيء قديم» و«بيان قديم» ويسرِّحون وهمهم في زمانٍ مجهولٍ المبدأ.

فقال: قد مرَّ في كلامك شيء يجب البحث عنه، ما الفرق بين الحادث والمُخَدَّث والحديث؟

فكان من الجواب أنَّ الحادث ما يُلحَظ نفسه والمُخَدَّث ما يُلحَظ مع تعلُّق بالذي كان عنه محدثاً. والحديث كالمُتوسِّط بينهما مع تعلُّق بالزمان ومن كان منه. وههنا شيء آخر، وهو الحَدَّثان والجَدَّثان؛ فأما الأول فكأنه لما هو^(١) مضارعٌ للحادث، وأما الجَدَّثان فكأنه اسم للزمان فقط، لأنه يقال: «كان كذا وكذا في جَدَّثان ما ولي الأمير»، أي في أول زمانه، وعلى هذا يدور أمرُ الحدث والأحداث والحادث والحوادث. «وفلان جَدَّث مُلوكٍ» كله من ديوان واحد وواد واحد وسَبَك واحد.

قال: «ما الفرق بين حَدَّث وحَدَّث؟»

قلت: لا فرق بينهما إلَّا من وجهة أنَّ حَدَّث تابع لِقَدُم، لأنه يقال: أَخَذَه ما قَدُم وما حَدَّث؛ فإذا قيل لإنسان: حَدَّث يا هذا. فكأنه قيل له: صِلْ شيئاً بالزمان يكون به في الحال، لا تقدِّم له من قبل.

ثم رجعتُ فقلت: ولفوائد الحديث ما صَنَّف (أبو زيد) رسالة لطيفة الحجم في المَنْظَر، شريفة الفوائد في المَخْبَر، تَجْمع أصناف ما يُقْتَبَس من العلم والحكمة والتجربة في الأخبار والأحاديث، وقد أحصاها واستقصاها وأفاد بها. وهي حاضرة.

فقال: احملها واكتبها، ولا تَمِلْ إلى البخل بها على عادة أصحابنا الغثا. قلت: السمع والطاعة.

ثم رَوَيْتُ أنَّ عبد الملك بن مروان قال لبعض جلسائه: قد قضيتُ الوطر من كل شيء إلَّا من محادثة الإخوان في الليالي الزُّهر، على التَّلال العُفر.

وأحسن من هذا ما قال عمر بن عبد العزيز قال: واللَّهِ إِنِّي لأشتري ليلة من

(١) أي موضوع لما هو.

ليالي عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود بألف دينار من بيت مال المسلمين .
فَقِيلَ : يا أمير المؤمنين ، أتقول هذا مع تحرّيك وشدة تحفظك وتنزّهك؟ فقال : أين
يذهب بكم؟ والله إني لأعود برأيه ونصحه وهدايته على بيت مال المسلمين بألوف
وألوف دنائير، إنّ في المحادثة تلقيحاً للعقول، وترويحاً للقلب، وتسريحاً للهمم،
وتنقيحاً للأدب .

قال : صدق هذا الإمام في هذا الوصف ، إنّ فيه هذا كلّهُ .

قلتُ : وسمعتُ أبا سعيد السيرافيّ يقول : سمعتُ ابن السّراج يقول : دخلنا على
ابن الروميّ في مرضه الذي قضى فيه ، فأشدّنا قوله :

ولقد سئمتُ مآربي فكأنّ أطيّبَها خبيثُ
إلا الحديثَ فإنّه مثلُ اسمه أبداً حديثُ

وقال سليمان بن عبد الملك : «قد ركبنا الفأرة، وتبطّنا الحَسَناء، ولبسنا اللّين،
وأكلنا الطيّب حتى أجمناه»^(١)، وما أنا اليوم إلى شيءٍ أحوجُ مني إلى جليس يضع عني
مؤونة التحفّظ ويحدّثني بما لا يَمَجّه السمع، ويَطْرَب إليه القلب». وهذا أيضاً حقٌّ
وصواب، لأنّ النفس تَمَلُّ، كما أنّ البدن يَكِلُّ؛ وكما أنّ البدن إذا كلّ طلب الراحة،
كذلك النفس إذا مَلَّتْ طلبت الرّوح وكما لا بد للبدن أن يستمدّ ويستفيد بالجَمَامِ الذاهب
بالحركة الجالبة للنّصب والضجر، كذلك لا بدّ للنفس من أن تطلب الرّوح عند تكاثُف
المَلَلِ الداعي إلى الحرج فإن البدن كثيفُ النفس، ولهذا يُرَى بالعين، كما أنّ النفس
لطيفة البدن، ولهذا لا توجد إلاّ بالعقل؛ والنفس صفاء البدن، والبدن كدُرُ النفس .

فقال : أحسنتَ في هذه الروايات على هذه التوشّيات وأعجبني ترخُّمُك على
شيخك أبي سعيد، فما كلّ أحد يَسمح بهذا في مثل هذا المقام، وما كلّ أحد يأبه لهذا
الفاعل؛ هات مُلحة الوداع حتى نفترق عنها، ثم نأخذ ليلة أخرى في شجون الحديث .

قلت : حدّثنا ابن سيف الكاتب الراوية، قال : رأيت جَحْظَةً قد دعا بَنَاءً ليني له
حائطاً، فحضر، فلمّا أمسى اقتضى البَنَاءُ الأجرة، فتَمَاكَسَا^(٢) وذلك أنّ الرجل طلب
عشرين درهماً؛ فقال جَحْظَةٌ : إنما عملتَ يا هذا نصفَ يوم وتطلب عشرين درهماً؟
قال : أنت لا تدري، إنّي قد بنيت لك حائطاً يَبْقَى مائة سنة؛ فبيئتما هما كذلك وَجَبَ
الحائطُ وسقط؛ فقال جَحْظَةٌ : هذا عملك الحَسَن؟ قال : فأردتَ أن يَبْقَى ألف سنة؟
قال : لا، ولكن كان يَبْقَى إلى أن تستوفي أجرتك . فضحك - أضحك الله سنّه - .

(١) أي كرهناه ومللناه .

(٢) أي تشاحا في الأجرة .

الليلة الثانية

ثم حضرتُ ليلةً أخرى، فقال: أول ما أسألك عنه حديثُ أبي سليمان المنطقيّ كيف كان كلامُه فينا، وكيف كان رضاه عنّا ورجاؤه بنا، فقد بلغني أنّك جازّه ومعاشره، ولصيقه وملازمه وقافي خطوه وأثره، وحافظُ غاية خبره.

فقلتُ: واللّه أيّها الوزير، ما أعرف اليوم ببغداد - وهي الرّقعة الفسيحة الجامعة، والعُرصة^(١) العريضة الغاصة - إنساناً أشكّر لك، وأحسنّ ثناءً عليك، وأذهبَ في طريق العبوديّة معك، منه؛ ولقد سَكَرَ الآذان وملاً البقاع بالدعاء الصالح، رَفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ، والثناء الطيّب أشاعه اللّهُ؛ وقد عمل رسالةً في وصفك ذكر فيها ما أتاك اللّهُ وفَضَّلَكَ به من شرفٍ أعراقك، وكرم أخلاقك وعلوِّ همّتك، وصدقِ حَدْسِكَ وصوابِ رأيك، وبركة نظرك، وظهورِ غنائك، وخِصْبِ فِئائك، ومحبة أوليائك، وكمد أعدائك، وصباحة وجهك، وفصاحة لسانك، ونُبْلِ حَسَبِكَ، وطهارة غَيْبِكَ، ويُمْنِ نَقِيبَتِكَ، ومحمود شيمتك، ودقيق ما أودع اللّهُ فيك وجليل ما نشر اللّهُ عنك، وغريب ما يُرى منك، وبديع ما يُنتظر لك من المراتب العليّة، والخيرات الواسعة والدولة الوادعة، وهي تصل إلى مجلسكم في غد أو بعده - إن شاء اللّهُ - وكان هذا منه قياماً بالواجب، فإنك نَعَشْتَ روحه وكان خَفَتْ، وبَصَرَتَهُ وكان عَشِيّ؛ وأنبتَ جناحه وكان قد حُصَّ، وبالرسم الذي وصل إليه لأنه كان قَنِطَ منه وهو قَنوطٌ، وسمعتُه يقول مراراً: من يذكرني وقد مضى المَلِك - رضوان اللّهُ عليه - ومن يخلّفه في مصلحتي، ويجري على عادته معي؟ ومن يسأل عني، ويهتم بحالي؟ هيهات، فُقد واللّهُ بالأمس من يطول تَلَفُّتُنَا إليه ويدوم تلهُّفُنَا عليه، إنّ الزمان بِمِثْلِهِ لَبَخِيل، كان واللّهُ شمس المعالي وغرة الزمن وحامل الأثقال، وملتَمَى الفُقّال، ومحقّق الأقوال والأفعال، ومجري لُجُم الأحوال على غاية الكمال؛ كان واللّهُ فوق المتمنّى، وأعلى من أن يلحق به نظير، أو يوجد له مماثل؛ لَدَتْهُ لَمَحٌ في تهذيب الأمور، وهواه وقفٌ على صلاح مَنْ في إصلاحه صلاح ونفي من في نفيه تطهير؛ ولولا أن عمر الفتى الأزيجيّ قصير، لكنّا لا نبتلي بفقدِهِ، ولا نتحرّق على قُوْت ما كان لنا بحياته؛ الدنيا ظُلوم، والإنسان فيها مظلوم.

(١) أي الساحة الواسعة.

فلَمَّا وصل إليه ذلك الرّسم - وهو مائة دينار - وحاجته ماسّة إلى رغيّف، وحَوَّلَهُ وقوُّته قد عجزا عن أجرة مسكنه، وعن وجه غداّته وعشائه عاش.

وممّا زاد في حديث الرّسم أنّه وصل إليه مع العذر الجميل، والوعد العريض الطويل؛ ولو رأيته وهو يترقّل ويتحنّك لعجبت.

فقال: سررتني لسروره بما كان منّي، وإن عشتُ كففتُ الزمان عن ضيّمه، وقَلَلْتُ عنه حدّ نابه، ولولا الضّمانة^(١) مانعة عن نفسه، ومُتمنّع معها بنفسه؛ لَعَشِيَّ هذا المجلس فيكم فاستأنس وأنس، ولكنه على حال لا محتمل له عليها، ولا صبر عليه معها؛ أتَحفظ ما قال البديهيّ فيه؟ قلت: نعم، قال: أنشدنيه، فرويْتُ:

أبو سليمانَ عالِمٍ قَطنَ ما هو في عِلْمِهِ بِمَنْتَقَصٍ
لكن تطيّرتُ عند رؤيتِهِ من عَوَرٍ مُوحِشٍ ومن بَرَصٍ
وبابنِهِ مِثْلُ ما بوالده وهذه قِصّة من القصصِ

فقال: قاتله الله، فلقد أوجع وبالغ، ولم يحفظ ذمام العِلْم، ولم يقض حق الفتوة. حدّثني عن درجته في العلم والحكمة، وعَرَفني محلّه فيهما من محلّ أصحابنا ابن زرة وابن الخمار وابن السمع والقومسي ومسكويه ونظيف ويحيى بن عدي وعيسى بن عليّ.

فقلتُ: وصف هؤلاء أمر متعذّر، وبابٌ من الكلفة شاق؛ وليس مثلي من جَسَر عليه، وبلغ الصواب منه؛ وإنما يصفهم من نال درجة كلّ واحد منهم، وأشرف بعد ذلك عليهم؛ فعرف حاصلهم وغائبهم، وموجودهم ومفقودهم.

فقال: هذا تحايلٌ لا أرضاه لك، ولا أَسلمه في يدك، ولا أحتمله منك؛ ولم أطلب إليك أن تعرّفهم بما هو معلوم الله منهم، وموهبه لهم، ومسوّقه إليهم، ومخلوغة عليهم، على الحدّ الذي لا مزيد فيه ولا نقص؛ إنما أردتُ أن تذكر من كلّ واحد ما لاح منه لعينيك، وتجلّى لبصيرتك، وصار له به صورة في نفسك؛ فأكثر وصف الواصفين للأشياء على هذا يجري، وإلى هذا القدر ينتهي.

فقلتُ: إذا قنع مني بهذا، فإنّي أخدّم بما عندي، وأبلغ فيه أقصى جهدي. أما شيخنا أبو سليمان فإنه أدقهم نظراً، وأفعرهم غوصاً، وأصفاهم فكراً، وأظفرهم بالدرر، وأوقفهم على الغرر؛ مع تقطع في العبارة، ولُكنة ناشئة من العُجمة وقلة نظر في الكتب، وفرط استبداد بالخاطر، وحسن استنباط للعويص، وجراءة على تفسير الرمز، وبخل بما عنده من هذا الكنز.

(١) أي العاهة في الجسد.

وأما ابن زرعة فهو حَسَنُ الترجمة، صحيحُ النقل، كثيرُ الرجوع إلى الكتب، محمودُ النقل إلى العربية، جيدُ الوفاء بكلِّ ما جلَّ من الفلسفة؛ ليس له في دقيقتها منفذ، ولا له من لغزها مأخذ، ولولا توزُّع فكره في التجارة، ومحَبَّتُه في الربح، وحرصُه على الجَمْع؛ وشِدَّتُه على المنع؛ لكانت قريحته تستجيب له، وغائمته تُدرُّ عليه؛ ولكنَّه مبدِّدٌ مندَّد، وحبُّ الدنيا يُعمي ويُصم.

وأما ابن الخمار ففصيح، سَبَطُ الكلام، مديدُ النَّفس، طويلُ العنان مَرَضِيُّ النقل، كثيرُ التدقيق، لكنه يخلط الدُّرَّةَ بالبعرة ويُفسد السمين بالعث، ويَرَقِّع الجديد بالرت؛ ويشين جميع ذلك بالزُّهو والصلَفَ ويزيد في الرقم والسَّوم، فما يجديه من الفضل يرتجعه بالنقص؛ وما يعطيه باللطف يسترده بالعنف؛ وما يصفيه بالصواب، يكدِّره بالإعجاب. ومع هذا يُصرِّع في كل شهر مرَّةً أو مرَّتَين.

وأما ابن السمح، فلا ينزل بفنائهم، ولا يسقى من إنائهم؛ لأنه دونهم في الحفظ والنقل والنظر والجَدَل، وهو بالمتَّبِع أشبه، وإلى طريقة الدَّعي أقرب، والذي يحطُّه عن مراتبهم شيئان: أحدهما بلادةُ فهمه، والآخر حرصُه على كسبه؛ فهو مستفرغٌ مُحٌّ^(١) البال مأسور العقل، يأخذ الدائق والقيراط والحبَّة والطُّسُوج والفلس بالصروف والوزن والتطفيف؛ والقلب متى لم يُنقَّ من دنس الدنيا لم يَعَبَّ بفوائح الحكمة، ولم يتصرَّج برذع الفلسفة، ولم يقبل شعاع الأخلاق الطاهرة المُفضية إلى سعادة الآخرة.

وأما القُومَسِي أبو بكر، فهو رجل حسنُ البلاغة، حلُو الكناية، كثيرُ الفقر العجيبة، جماعةٌ للكتب الغريبة؛ محمودُ العناية في التصحيح والإصلاح والقراءة، كثيرُ التردُّد في الدراسة؛ إلَّا أنَّه غيرُ نصيح في الحكمة؛ لأنَّ قريحته ترابية، وفكرته سحابية؛ فهو كالمقلِّد بين المحققين، والتابع للمتقدمين؛ مع حبِّه للدنيا شديد، وحسد لأهل الفضل عتيد.

وأما مسكويه، ففقيه بين أغنياء، وعَيِّي بين أبيناء، لأنَّه شادٍ، وأنا أعطيتُه في هذه الأيام (صفو الشرح لإيساغوجي) وقاطيغورياس، من تصنيف صديقنا بالرِّي. قال: ومن هو؟ قلت: أبو القاسم الكاتب غلامُ أبي الحسن العامري، وصحَّحه معي؛ وهو الآن لائذ بابن الخمار، وربما شاهد أبا سليمان وليس له فراغ، ولكنه محسنٌ في هذا الوقت للحسرة التي لحقته فيما فاتته من قبل.

فقال: يا عجباً لرجل صحب ابن العميد أبا الفضل ورأى من كان عنده وهذا حظُّه! قلتُ: قد كان هذا، ولكنه كان مشغولاً بطلب الكيمياء مع أبي الطيب الكيمائي الرازي، مملوك الهمة في طلبه والحرص على إصابته مفتوناً بكتب أبي زكرياء،

وجابر بن حيان؛ ومع هذا كان إليه خدمةٌ صاحبه في خزانة كُتبه؛ هذا مع تقطيع الوقت في حاجاته الضرورية والشهوية؛ والعمر قصير، والساعات طائرة، والحركات دائمة والفُرصُ بُروق تأتلق، والأوطار في غرضها تجتمع وتفترق، والنفوسُ على فواتها تذوب وتحترق؛ ولقد قَطَنَ العامريُّ الرِّيَّ خمس سنين جُمعة، ودرس وأملَى وصنَّفَ ورَوَى فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة، ولا وعى مسألة، حتى كأنه بينه وبينه سدٌّ؛ ولقد تجرَّع على هذا التواني الصابَ والعَلَقَمَ، ومضغ بفمه حنظل الندامة في نفسه، وسمع بأذنه قوارع الملامة من أصدقائه حين لم ينفع ذلك كله. وبعدُ فهو ذكيٌّ حَسَنَ الشَّعْرِ نقيُّ اللفظ، وإن بقي فعساه يتوسط هذا الحديث، وما أرى ذلك مع كلفه بالكيمياء، وإنفاق زمانه وكَدِّ بدنه وقلبه في خدمة السلطان، واحتراقه في البخل بالدائع والقيراط والكسرة والخرقة؛ نعوذ بالله من مدح الجود باللسان، وإيثار الشَّخِّ بالفعل، وتمجيد الكرم بالقول ومفارقة العمل؛ وهذا هو الشقاء المصبوب على هامة من بُلِّيَ به، والبلاء المعصوبُ بناصية من غلب عليه.

وأما عيسى بن علي، فله الذُّرْعُ الواسع والصَّدْرُ الرحيب في العبارة، حجة في النقل والترجمة، والتصرُّف في فنون اللغات، وضروب المعاني والعبارات؛ وقد تصفَّح ما لم يتصفَّح كثير من هذه الجماعة، وقلَّب بخزائن الكبراء والسادات، وأعين بالعمر الطويل والفراغ المديد؛ ولكنه مع هذا الفضل الكثير بخيل بكلمة واحدة، ونصيح على ورقة فارغة، لسودائه الغالبة عليه، ومزاجه المتشيط بها.

وأما نظيف، فإنه متوسط، لا يسفل عن أقلهم حظاً ولا يعلو على أكثرهم نصيباً؛ ويده في الطب أطول، ولسانه في المجالس أجول؛ ومعه رفق وحذق في الجدَل.

وأما يحيى بن عدي، فإنه كان شيخاً لَيْنَ العريكة فروقة^(١)، مشوّه الترجمة، رديء العبارة، لكنه كان متأثياً^(٢) في تخريج المختلفة وقد برع في مجلسه أكثر هذه الجماعة، ولم يكن يلوذ بالإلهيات، كان ينهر فيها ويضلل في بساطها، ويستعجم عليه ما جلَّ، فضلاً عما دَقَّ منها؛ وكان مبارك المجلس.

فقال: ما قصرت في وصف هذه الطائفة، وتقريب البغية التي كانت داخلية في نفسي منهم.

حدثني عن مذاهبهم في النفس وما يقولون فيها؛ وإلى أين ينتهون من يقينهم بشأنها، وكيف ثقتهم ببقائها بعد فناء أبدانها؟

فقلت: علمت أنني لا أجد ما أريد من حديث النفس عند أصحابنا الباقين، أعني أبا الوفاء علي بن يحيى السامري والصَّيْمَري والقُوهي والصوفي وغلَامَ زحل

(٢) أي مترقفاً متلطفاً.

(١) أي الشديد الفزع.

والصاغانِيّ، وكذلك غيرهم أعني ابن عبدان وابن يعقوب وابن لالا وابن بَكْش وابن قوسين والحرّانيّ، لأن هؤلاء ليسوا يحرثون هذه الأرض، ولا يَرْقُمون هذا البَزّ ولا يجهزون هذا المتاع ولا يتعاملون به؛ هذا ينظر في المرض والصحة والداء والدواء، وهذا يعتبر الشمس والقمر، وليس فيهم من يذكر كلمة في النفس والعقل والإله، حتى كأنّه محظور عليهم، أو قبيح عندهم.

وقلتُ: إنّ هؤلاء القوم - أعني الطائفة الأولى - متفقون في الاعتراف بأنها جوهر باقٍ خالد؛ فأما اليقين فما الحكم به لهم، لأنهم لو كانوا على ذلك - أعني واجدين لليقين ذاثنين لحلاوته - لما كدحوا للدنيا التي تزول عنهم ويزولون عنها مضطرين؛ فلو أنهم كانوا على ثلج من النفس، ويقلّظة من العقل، واستبصار من القلب، وسكون من البرهان، لما تعجلوا هذه اللذات المنقوصة، والأوطار الفاضحة، والشهوات الخسيسة، مع التبعات الكثيرة والأوزار الثقيلة؛ ولا عجب فإنه إذا كانت الرّكّابة العائقة تمنع الإنسان من العَدُوّ والسّفَر، ومن سرعة الخطو، لأن الحركة قد بطلت بالرّكّابة الداخلة عليه في أعضائه وآلاته، فأئّي عجب من أن تكون النفس التي استعبدها الشهوات الغالبة، والعقيدة الرديئة، والأفعال القبيحة مَعُوقة ممنوعة من الصعود إلى مَعانق الفَلَك ومخارف النجوم وعَالَمِ الرُّوح ومَقعد الصدق ومقام الأمن ومحلّ الكرامة ومَرادِ الخُلد وبلد الأبد ومَعانِ السّرمَد.

قال: هذا كلام تام؛ وسأسألك بعد هذا عن النفس وما تحفظ عنهم فيها لكن تَمّم لي ما كنّا فيه، كيف عِلْمُ أبي سليمان بالنجوم وأحكامها؟ قلتُ: لا يتجاوز التقويم. ثم قال: فما تقول في الأحكام؟ قلتُ: أنشدت منذ أيّام:

علم النجوم على العقول وبإل وطلاب حق لا يُنال محال

وقلتُ أيضاً: علم الأحكام لا يجوز في الحكمة أن يكون مدركاً مكشوفاً مخاطباً به معروفاً؛ ولا يجوز أن يكون مقنوطاً منه مطّرحاً مجهولاً؛ بل الحكمة توجب أن يتوسّط هذا الفنّ بين الإصابة والخطأ حتّى لا يُستغنى عن اللّيّاذ بالله أبداً، ولا يقع اليأس من قبّله أبداً؛ وعلى هذا سخر الله الإنسان وقِيضه وخيّر بين الأمور وفوضه؛ ومَنع من الثقة والطمأنينة إلا في معرفته وتوحيده وتقديسه وتمجيده، والرجوع إليه؛ انظر إلى حديث الطب فإنّ هذه الصناعة توسّطت الصواب والخطأ، لتكون الحكمة سارية فيها، واللفظ معهوداً بها؛ لأن الطب كما يبرأ به العليل، قد يهلك معه العليل؛ فليس بسبب أن بعض المدبّرين بالطب هلك لا ينبغي أن يُنظر في الطب؛ وليس بسبب أن بعض المرضى برأ بالطب وجب أن يعوّل عليه؛ انظر إلى هذا التوسط في هذه الحال ليكون التدبير الإلهي والأمر الربوبي نافذين في هذه الخلائق بوساطة ما

بينه وبينها؛ ولتكون المصلحة بالغة غايتها؛ وهذه سياسة دار الفناء، الجامعة لسكانها على البأساء والنعماء؛ وهكذا، فانظر إلى حديث البحر وركوب البأس المتيقن فيه، وجوب الطول والعرض وإصابة الريح، وطلب العلم، كيف تَوَسَّطَ بين السلامة والعطب، والنجاة والهلكة، فلو استمرت السلامة حتى لا يوجد من يَغْرَقُ وَيَهْلِكُ، لكان في ذلك مَفْسَدَةٌ عَامَّةٌ؛ ولو استمرت الهلكة حتى لا يوجد من يَسْلَمُ وينجو، لكان في ذلك مفسدة عامة، فالحكمة إذاً ما تَوَسَّطَ هذا الأمر حتى يشكر الله من ينجو وَيُسَلِّمَ نفسه لله من يهلك. قلت: وبعد هذا فهذا العلم عويص غامض عميق، وقد فُقد العلماء به، الملهَمون فيه؛ ومعول أهلِه على الحَدْسِ والظَّنِّ، وعلى بعض التجارب القديمة التي تَكْذِبُ مرَّةً وَتَصْدُقُ مرَّةً؛ وبالصدق يَغْتَبِرُ الإنسان، وبالكذب يعرَى من فوائده؛ فالتنقص قد دخله، والخلل قد شَمِلَه؛ وليس يجب أن يوهَّب له زمانٌ عزيز، فوراءه ما هو أهمُّ منه وأجدرُّ وأرشدُّ وأهدى.

قال: هذا حسن، حدَّثني بالذي أفدَّت اليوم.

قلت: قال أبو سليمان: العلم صورة المعلوم في نفس العالم، وأنفس العلماء عالمة بالفعل، وأنفس المتعلِّمين عالمة بالقوة. والتعليم هو إبراز ما بالقوة إلى الفعل. والتعلُّم هو بروز ما هو بالقوة إلى الفعل. والنفس الكلية عالمة بالفعل، والنفس الجزئية عالمة بالقوة؛ وكل نفس جزئية تكون أكثر معلوماً وأحكم مصنوعاً فهي أقرب إلى النفس الكلية تشبهاً بها، وتصيراً لها.

قال: هذا في الحُسن نهاية، وقد اكتهل الليل، وهذا يحتاج إلى بدء زمان، وتَفْرِغ قلب، وإصغاءٍ جديد. هات خاتمة المجلس.

قلت له: قرأنا يوم الجمعة على أبي عبيد الله المرزباني لعبد الله بن مُضْعَب:

إذا استمتعتُ منك بلحظ طرفي	حَيِّي نصفِي ومات عليك نصفِي
تلذَّذُ مقلتي ويدوب جسمي	وعيشي منك مقرون بحتفي
فلو أبصرتني والليل داج	وخدِّي قد تَوَسَّطَ بطن كفي
ودمعي يستهل من المآقي	إذا لرأيت ما بي فوق وِصفِي

وانصرفتُ.

الليلة الثالثة

قال لي ليلة أخرى: حدّثني أبو الوفاء عنك حديثَ الخُراسانيّ، فأريد أن أسمعه منك . قلت: كنت قائماً عشيّة على زُنْبُرية^(١) الجسر في الجانب الشرقي والحاجّ يدخلون، وجمالهم قد سدت عرض الجسر - أنتظر جوازها وخفّة الطريق منها، فرأيت شيخاً من أهل خُراسان ذكّر لي أنّه من أهل سَنجَان واقفاً خلفَ الجمال يسوقها، ويحفظ الرحال التي عليها، حتى نظر إلى الجانب الغربي فرأى الجذع عليه ابنُ بَقِيّة - وكان وزيراً صلبه الملكُ لذنوب كانت له - فقال: لا إله إلا الله، ما أعجب أمور الدنيا وما أقلّ المفكّر في عبّرها وغيّرها، عضد الدولة تحت الأرض وعدوّه فوق الأرض!

قال: هكذا حدّثني أبو الوفاء، ولذلك استأذنتُ في دفنه، وكان كلام الشيخ سبباً في ذلك .

قال: بلغني أن أبا سليمان يزور في أيام الجمعة رسلَ سجستان لَمّا^(٢) ويظلّ عندهم طاعماً ناعماً، ويأنس بأنك معه، فمن يحضر ذلك المكان؟

فقلت: جماعة؛ وآخر من كان في هذا الأسبوع الماضي ابن جَبَلَة الكاتب، وابن برمويه، وابن الناظر أبو منصور وأخوه، وأبو سليمان وبندار المغنّي وغزال الراقص، وعَلَم وراء الستارة .

فقال: ما الذي حفظت من حديث عنهم، وما يجوز أن يُلقَى إلينا منهم؟ فقلت: سمعت أشياء، ولست أحبّ أن أسيم نفسي بنقل الحديث وإعادة الأحوال فأكون غامزاً وساعياً ومفسداً. قال: معاذ الله من هذا، إنّما تدلّ على رشد وخير، وتُضِلّ عن غيِّ وسوء، وهذا يلزم كلّ من أثر الصلاح الخاصّ والعامّ لنفسه وللناس، واعتقد الشفقة، وحثّ على قبول النصيحة؛ والنبّي ﷺ قد سمع مثل هذا وسأل عنه، وكذلك الخلفاء بعده، وكلّ أحد محتاج إلى معرفة الأحوال إذا رجع إلى مرتبة عالية أو محظوظة .

فقلت: وجدتُ ابن برمويه: يذكر أشياء هي متعلّقة بجانبك، ويرى أنها لو لم تكن

(١) السفينة التي في الجسر في الجانب الشرقي من بغداد يعبر عليها السالكون .

(٢) جمعاً، أي يزورهم مجتمعين .

لكان مجلسك أشرف، ودولتك أعز، وأيامك أذوم، ووليّك أحمد، وعدوك أكمد. قال: ما هذا الاسترسالُ كُلُّه إلى ابن شاهويه؟ وما هذا الكَلَفُ ببهرام؟ وما هذا التعصّب لابن مكبخا؟ وما هذا السكون إلى ابن طاهر؟ وما هذا التعويل على ابن عبدان؟ وما من هؤلاء أحد إلا يَريشُ عدوّه ويُبْريه ويُضِلُّ صاحبه ويُغويه. أما ابن شاهويه فشيخُ إزرء^(١) وصاحب مخرقة^(٢) وكذب ظاهر، كثير الإيهام، شديد التمويه، لا يرجع إلى وُدّ صادق، ولا إلى عقد صحيح وعهد محفوظ؛ وإنّما كان الماضي يقرّبه لغرض كان له فيه من جهة هؤلاء المخربين القرامطة، وكان أيضاً مذموم الهيئة، فكان لا يَنبَسُ إلا بما يقويه ويحرُسُ حاله، واليوم هو رَخِيّ اللَّبِّ^(٣)، جاذب لكل سبب؛ وليس هناك كفاية ولا صيانة ولا ديانة ولا مروءة؛ وبعد، فهو مشؤوم نكّذ، ثَقِيلُ الرُّوح، شديد البُهْتِ قوله الإفساد وعادته تأجيل المَهْنُا والشماتة بالعائر والتشفي من المنكوب.

وأما بهرام فرجل مجوسيّ معجّب ذميم، لا يعرف الوفاء ولا يرجع إلى حفاظ، غرضه أن يتبجح في الدنيا بجاهه، ولا يبالي أين صار بعاقبته؛ وهو يَحُضُّ^(٤) مع ذلك عليه في كل ما هو مديره ومدبره.

وأما ابن مكبخا، فرجل نصرانيّ أرعنُ خسيس، ما جاء يوماً بخير قطّ لا في رأي ولا في عمل ولا في توسّط؛ وأصحابنا يلقّبونه بقفّا وهو منهمك بين اللذائذ، همّه أن يتحسّى دَنَ الشراب في نَفْسٍ أو نَفْسَيْن، ثم يسقط كالجذع اليابس لا لسان ولا إنسان.

وأما ابن طاهر فرجل يدّعي للناس أنّه لولا مكانته وكفايته وحسبه ورأيه ومشورته لكانت هذه الوزارة سراً، وهذه المملكة خراباً؛ هذا مع الشر الذي في طبعه وعادته؛ فإن جرى خيرٌ انتحلّه، وزعم أنه من نتائج رأيه؛ وإن وقع شرٌّ عصبه برأس صاحبه، وادّعى أنه استبدّ به؛ ومع هذا فهو يعيب هذه المُرءاة.

وما أدري كيف استكفَى هذه الجماعة حوله؟ وكيف يُظَاهِر^(٥) هو بها ويسكن إليها؟ وما فيهم إلا من وكّذه الرجس والإفساد والأخذ بالمصانعة وإغراء الأولياء بما يعود بالوبال على البريء والسقيم وعلى الزكيّ والطّين؛ هؤلاء سباع ضارية، وكلاب عاوية؛ وعقاربُ لساعة، وأفَاعُ نهاشة، وقى الله هذا الإنسان الحرّ المبارك الكريم

(١) أي الغش والتلبس.

(٢) أي الحق والكذب.

(٣) أي متسع الحال.

(٤) أي يغري الناس بالوزير ويفسد قلوبهم عليه.

(٥) أي يعاون.

الرحيم، فإنه شريف النفس طاهر الطَّوَيَّة، لَيِّنُ العريكة، كثيرُ الديانة، وهذه أخلاق لا تصلح اليوم مع الناس، قال الشاعر^(١):

ومن لا يَدُذُّ عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
وقال:

ومن لا يَدُذُّ عن حوضه الناس أو يكن له جانب يشتد إن لان جانب
يَطَأُ حوضه المستوردون وتَغْشَى شوائب لا تَبْقَى عليها النقائب
وما ضاع قولهم: لا تكن حلوا فتؤكل، ولا مرأ فتعاف. ليس الحذر يقي فكيف
التهور، أهنا لحي تَسَحَّبُ كل يوم، وطوارق تُتَوَقَّعُ كل ليلة! والتوكل والاستسلام
يليقان بأهل الدين في طلب الآخرة؛ فأما أصحاب الدنيا وأرباب المراتب، فيجب أن
يدعوا الهوينا جانباً، ويشمروا للنفع والضّر؛ والخير والشر ويكون ضرهم أكثر،
وشرهم أغلب؛ ورهبوت خير من رَحْموت.

ولهذا قال الأعرابي:

أنا الغلام الأعسّرُ السخيرُ في والشر
والشر في أكشّر

وهذا معنى بديع، ولم يُرد أن البداءة بالشر خير من الخير، وإنما أراد أنني أتقي
بالشر، وإذا أقبل الشر قلت له: مرحباً، وأدفع الشر ولو بالشر، والحديد بالحديد
يُفْلَحُ^(٢). وقد قال الآخر:

وفي الشر نجاة حي — من لا ينجيك إحسان
وقال ابن دارة:

إذا كنت يوماً طالب القوم فاطرخ مقالتهم واذهب بهم كل مذهب
وقارب بذي حلم وباعد بجاهل جلوب عليك الشر من كل مجلب
فإن حذبوا فاقعس وإن هم تقاعسوا ليستمسكوا مما يريدون فاحذب
وإن حلبوا خلفين فاحلب ثلاثة وإن ركبوا يوماً لك الشر فاركب

وقال الحجاج بن يوسف أبو محمد - وهو من رجالات العرب وقد قهر العجم
بالدهاء والزكانة - «لو أخذت من الناس مائة ألف، كان أرضى عني من أن أفرق فيهم
مائة ألف». كان الناس بالأمس مزمومين مخطومين، يقوم كل واحد بنفسه على نفسه،

(١) هو زهير بن أبي سلمى.

(٢) أي يشق.

وَيَتَّهَمُ غَدَهُ لَمَّا جَنَاهُ فِي أَمْسِهِ؛ لِأَنَّ الْمَلِكَ السَّعِيدَ سَاسَهُمْ، وَقَوْمَ زَيْغِهِمْ، وَقَلَّمَ أَظْفَارَهُمْ؛ وَشَغَلَهُمْ بِالْحَاجَةِ عَنِ الْبَطَرِ وَالْأَشْرِ، وَبِالْكَفَايَةِ عَنِ الْقَلْقِ وَالضَّجَرِ؛ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ بِتَرْكِ الْخَوْضِ فِيمَا لَا مَرْجُوعَ لَهُ بِخَيْرٍ؛ وَكَانُوا لَا يَشْكُرُونَ اللَّهَ عَلَى نِعْمَتِهِ عَلَيْهِمْ بِهِ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ بِمَكَانِهِ، فَسُلِبُوهُ فَتَتَقَنَّسَ خَنَاقُهُمْ، وَاتَّسَعَ نِطَاقُهُمْ، فَامْتَطَى كُلُّ وَاحِدٍ هَوَاهُ، وَيُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِي مَهْوَاهُ.

قال: وههنا أشياء أخرى غير هذه، ولكن من يسمع ويَقْبَل؟ ومع هذا فالأمور صائرة إلى مصايرها، كما أنَّها صادرة عن مصادرها.

فقال له ابن جبلة: ما عندي إلا أن الوزير - أبقاه الله - عارفٌ بهم ومستبطنٌ لأمرهم؛ مع العشرة القديمة، والملايسة المتصلة، والخبرة الواقعة؛ ولكن لا بدَّ لمن كان في محلِّه ورفعته من جماعةٍ يقرَّبهم، ويرجع إليهم ويسمع منهم، وينظر بأعينهم، ويُصْغِي بِأَذَانِهِمْ، ويتناول بأيديهم.

فقال له مجاباً: إن كان عارفاً بهم، ومستبطناً لأمرهم، وخبيراً بشأنهم؛ فَلِمَ سَلَّطَهُمْ وَبَسَّطَهُمْ، وَحَدَّدَ أُنْيَابَهُمْ، وَقَوَّى أَسْنَانَهُمْ، وَفَتَحَ أَشْدَاقَهُمْ، وَطَوَّلَ أَعْنَاقَهُمْ وَقَطَعَ أَرْبَاقَهُمْ؛ وَأَبْطَرَهُمْ فَاسْكَرَهُمْ، حَتَّى صَارُوا يَجْهَلُونَ أَقْدَارَهُمْ، وَيَنْسُونَ مَا كَانُوا فِيهِ مِنَ الْقَلَّةِ وَالذَّلَّةِ؟ هَلَّا رَتَّبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِيمَا تَظْهَرُ بِهِ كَفَايَتُهُ وَلَا يَرْفَعُهُ إِلَى مَا يَظُنُّ مَعَهُ الظَّنَّ الْفَاسِدَ، وَلِمَ يَضْحَكُ فِي وَجْهِهِمْ، وَيَغْضِي عَلَى جَنَائِتِهِمْ؟ أَمَا بَلَغَهُ أَنَّ ابْنَ يَوْسُفَ قَالَ: تَشَبَّهْتُ بِابْنِ شَاهُوِيهِ لِأَنَّهُ قَدْ أَعَدَّه لِلْهَرَبِ إِلَى الْقَرَامِطَةِ إِنْ دَهَمَهُ أَمْرٌ؟ وَأَنَّهُ بِبِهْرَامٍ إِنَّمَا هُوَ لَا سَتِمَادَ الْفَسَادِ مِنْهُ، وَتَقْدِيمُهُ لِابْنِ طَاهِرٍ لِلسَّرْقَةِ عَلَى يَدِهِ، وَفَرْحُهُ بِابْنِ مَكِيخَا لِلسَّخْرِيةِ بِهِ، وَتَقْرِيبُهُ لِابْنِ الْحِجَّاجِ لِلسَّخْفِ، وَلَهْجُهُ بِابْنِ هَارُونَ لِلهُزْءِ وَاللَّعِبِ.

قال له ابن جبلة: من أراد أن يحسن القبيح عند رضاه، ويقبِّح الحسن عند سُخْطِهِ فَعَلَّ، وَلَا يَخْلُو أَحَدٌ تَهَبَّ رِيحُهُ، وَيَعْلُو شَأْنُهُ، وَيَنْفُذُ أَمْرُهُ وَنَهْيُهُ مِنْ حَاسِدٍ وَقَارِفٍ، وَمُدْخِلٍ^(١) وَمُرْجِفٍ، عَلَى هَذِهِ الْأُمُورِ بُنِيَتْ الدَّارُ، وَعَلَيْهَا جَرَتْ الْأَقْدَارُ، إِنْ كُنْتَ تَنْكُرُ هَذَا الرَّهْطَ، فَاعْرِفْ لَهُ الرَّهْطَ الْآخَرَ؛ فَإِنَّكَ تَعْرِفُ بِذَلِكَ حُسْنَ اخْتِيَارِهِ وَجَمِيلَ انْتِقَائِهِ وَمَحْمُودَ رَأْيِهِ.

قال: من هم؟

قال: أبو الوفاء المهندس، وابن زرعة المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، ومسكويه، والأهوازي والعسجدي. فأين هؤلاء الغامضة؟^(٢) قَوْمٌ هُمُّهُمْ أَنْ يَأْكُلُوا رَغِيْفًا وَيَشْرَبُوا قَدْحًا، لَا هُمْ مِمَّنْ يُقْتَبَسُ مِنْ عِلْمِهِمْ وَلَا هُمْ يَتَكَلَّفُونَ لَهُ نَصْحًا، وَهَيْبَتُهُ

(١) القارف: الكاذب الظالم، والمدخل: العائب.

(٢) إشارة إلى الجماعة السابقة.

تعوقهم عن ذكر شيء في الدولة من تلقائهم إلا أن يكون شيء يتعلق بهم على معنى خاص؛ فهو ينود^(١) هكذا وهكذا حتى يبلغ منهم ما قدر عليه .

فلما سمع الوزير هذا كله قال : سألقي إليك في جواب هذه المسألة ما تخدمني به إن لاقيتهم في مجلس آخر على وجه يخفي أنك له ملقن مُحَمَّل كأنك ساء عنه غير حافل به؛ وقد تقطع الليل، ويحتاج في هذا الحديث إلى استئناف زمان، بعد استيفاء جِمام .
ثم أنشدت قول الشاعر:

إني لأصفح عن قومي وألبسهم على الضغائن حتى تبرأ الميثرُ
ثم قال : ما الميثر؟ قلت : هي الضغائن التي ذكرها في حشو البيت، واحداها ميثرٌ، كأنه أراد وألبسهم على الضغائن [حتى تبرأ الضغائن] فرجع من لفظ إلى لفظ ضرورة القافية لما كان معناه واحداً؛ قال : لمن هذا البيت؟ قلتُ : لا أحفظ اسمَ شاعره، ولكن أحفظ معه أبياتاً . قال : هاتها؛ فأنشدت أول ذلك :

يأئها الرجل المُزجي أذيته هل أنت عن قولك العوراء مزدجرُ
إني إذا عُدَّ مِبْطَاءً إلى أمد لا يستطيع حضاري المقرف البطرُ
لاقى قناتي مِضْراً عَشْوَرَةً^(٢) لا قادح قد تبغأها ولا خورُ
إني لأصفح عن قومي وألبسهم على الضغائن حتى تبرأ الميثرُ
قال : اكتبها . قلت : أفعلُ، وانصرفُ، فما أعاد عليّ بعد ذلك شيئاً مما كان .

(١) أي يتحرك ويتميل .

(٢) الصلبة الشديدة .

الليلة الرابعة

قال لي بعد ذلك في ليلة أخرى: كيف رضاك عن أبي الوفاء؟ قلت: أَرْضَى رِضاً بَاتَمَّ شُكْرٍ وَأَحْمَدِ ثَنَاءٍ؛ أَخَذَ بِيَدِي، وَنَظَرَ فِي مَعَاشِي، وَنَشْطَنِي وَبَشْرَنِي، وَرَعَى عَهْدِي، ثُمَّ خَتَمَ هَذَا كُلَّهُ بِالنِّعْمَةِ الْكُبْرَى، وَقَلَّدَنِي بِهَا الْقِلَادَةَ الْحَسَنَى، وَشَمَلَنِي بِهَذِهِ الْخِدْمَةِ، وَأَذَاقَنِي حَلَاوَةَ هَذِهِ الْمِزْيَةِ، وَأَوْجَهَنِي عِنْدَ نَظَرَائِي.

قال: هَاتِ شَيْئاً مِنَ الْغَزَلِ. فَأَنشَدْتُهُ:

كَلَانَا سِوَاءٍ فِي الْهَوَى غَيْرِ أَتْهَا تَجَلَّدُ أَحْيَاناً وَمَا بِي تَجَلَّدُ
تَخَافُ وَعِيدَ الْكَاشِحِينَ وَإِنَّمَا جَنُونِي عَلَيْهَا حِينَ أَنْهَى وَأُبْعَدُ

ثُمَّ قَالَ: غَالِبَ ظَنِّي أَنْ نَصِراً غَلَامَ خَوَاشَاذِهِ مَا هَرَبَ مِنْ فَنَائِي إِلَّا بَرَأِيكَ وَتَجَسَّيْرَكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ عَبْدٌ، وَلَا جَرَأَةَ لَهُ عَلَى مِثْلِ هَذَا التُّدُودِ وَالشَّدُودِ، فَقَدْ قَالَ لِي الْقَائِلُ: إِنَّكَ مِنْ خُلُصَانِهِ.

فَقُلْتُ: وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَا يَقْتَضِي هَذَا الْأَنْسَ وَهَذَا الْاِسْتِرْسَالُ، إِنَّمَا كُنَّا نَلْتَقِي عَلَى زَنْبَرِيَّةٍ^(١) بَابَ الْجِسْرِ بِالْعِشَايَا وَعِنْدَ الْبِيْمَارِسْتَانِ وَعَلَى بَابِ أَبِي الْوَفَاءِ؛ وَإِنَّمَا رَكَنْتُ إِلَيْهِ لِمَرْقَعَتِهِ وَتَاسُومَتِهِ عِنْدَ مَا كُنْتُ رَأَيْتُهُ عِنْدَ صَاحِبِهِ بِالرَّيِّ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَهُوَ مُتَوَجِّهٌ إِلَى قَابُوسَ بَجْرَجَانَ، فِي الْمَذَلَّةِ الدَّائِمَةِ وَالْحَالِ الْمَرْبُوطَةِ؛ وَلَوْ نَبَسَ لِي بِحَرْفٍ مِنْ هَذَا، أَوْ كُنْتُ أَشْعُرُ بِأَقْلَ شَيْءٍ مِنْهُ، لَكُنْتُ أَقُولُهُ لِأَبِي الْوَفَاءِ قَضَاءً لِحَقِّهِ، وَوَفَاءً بِمَا لَهُ فِي عِنْقِي مِنْ مَنِّهِ وَخَوْفاً مِنْ هَذَا الظَّنِّ بِي، وَقُصُوراً عَنِ اللَّائِمَةِ لِي.

قال: أَفَمَا تَعْرِفُ أَحَداً تَسْأَلُهُ عَنْهُ مِمَّنْ كَانَ يَخَالِطُهُ وَيَبَاسِطُهُ؟

قلت: مَا رَأَيْتُهُ إِلَّا وَحْدَهُ؛ وَكَمْ كَانَ زَمَانَ التَّلَاقِي؟ كَانَ أَقَلَّ مِنْ شَهْرٍ، أَفِي هَذَا الْقَدْرِ يَتَوَكَّدُ الْأَنْسُ وَتَرْتَفِعُ الْحَشْمَةُ وَتَسْتَحْكَمُ الثَّقَةُ وَيَقَعُ الْاِسْتِرْسَالُ وَالتَّشَاوُرُ؟ هَذَا بَعِيدٌ.

قال: هَذَا الْمُتَخَلِّفُ كُنْتُ قَدْ قَرَّبْتُهُ وَرَتَّبْتُهُ، وَوَعَدْتُهُ وَمَنِّتُهُ؛ وَتَقَدَّمْتُ إِلَى أَبِي الْوَفَاءِ بِالْإِقْبَالِ عَلَيْهِ، وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ، وَإِذْكَارِي بِأَمْرِهِ فِي الْوَقْتِ بَعْدَ الْوَقْتِ، حَتَّى أَزِيدَهُ نَبَاهَةً وَتَقْدِيماً، فَتَرَكْتُ هَذَا كُلَّهُ وَطَوَيْتُ الْأَرْضَ كَأَنَّهُ هَارِبٌ مِنْ حَبْسٍ، أَوْ خَائِفٌ

(١) السفينة التي في الجسر يعبر عليها السالكون.

من عذاب . ويقال في الأثر: إن بعض الصّفيحيين^(١) قال: لله قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل، ما أكثر من يفرّ من هذه الكرامة، ويقوى - على ترفّ جَم - على الهوان، ويصبر على البلاء، ويقلّ في العافية! إنّ السجيا لمختلفة، وإنّ الطباع لمتعادية؛ فلمّا يُرى شخصان يتشاكلان في الظاهر إلّا يتباينان في الباطن .
قلت: كذلك هو .

قال: حدّثني لمّ امتنعت من النفوذ مع ابن موسى إلى الجبل فيما رَسَمْنَا له أن يتوجّه فيه؟ ولقد أطلت التعجّب من هذا وكرّرت على أبي الوفاء .

فقلت: منعني من ذلك ثلاثة أشياء: أحدها أن ابن موسى لم يكن من شكلي ولا أشدّ للصدّ هوناً من مصاحبة الصدّ، لأنّه سوداويّ وجعد . والآخر أنّه قيل: ينبغي أن تكون عيناً عليه، وأنا لو قررت لك الحديث لما رأيته لائقاً بحالي، فكيف إذا قرنتُ برجل باطلٍ لو مرّ بوجهه أمري لذهذهني من أعلى جبل في الطريق . والآخر أنّي كنت أفد مع هذا كله على ابن عبّاد - وهو رجل أساء إليّ وأوحشني، وحاول على لسان صاحبه ابن شاهويه أن أقلب إليه ثانياً؛ وكنت أكره ذلك، وما كنت آمن ما يكون منه ومتي، والمجنون المطاع، مهروب منه بالطباع .

وبعد، فليس لي حاجة في مثل هذه الخدمة، لأن صدر العمر خلا متي عارياً من هذه الأحوال، وكان وسطه أضعف حملاً، وأبعد من القيام به والقيام عليه .
فقال: ما كان عندي هذا كله .

قال: إنّني أريد أن أسألك عن ابن عبّاد فقد انتجعته وخبرته وحضرت مجلسه، وعن أخلاقه ومذهبه وعادته، وعن علمه وبلاغته، وغالب ما هو عليه، ومغلوب ما لديه؛ فما أظنّ أنّي أجد مثلك في الخبر عنه، والوصف له، على أنّي قد شاهدته بهمذان لَمّا وافى، ولكنني لم أعجمه، لأن اللبث كان قليلاً، والشغل كان عظيماً، والعائق كان واقعاً .

فقلت: إنّني رجل مظلوم من جهته، وعاتب عليه في معاملتي، وشديد الغيظ لحرمانني، وإن وصفته أزيئت منتصفاً، وانتصفت منه مسرفاً، فلو كنت معتدل الحال بين الرضا والغضب، أو عارياً منهما جملة، كان الوصف أصدق، والصدق به أخلق، على أنّي عملت رسالة في أخلاقه وأخلاق ابن العميد أودعتها نفسي الغزير، ولفظي الطويل والقصير، وهي في المسودة ولا جسارة لي على تحريرها، فإنّ جانبه مهيب، ولمكره ديب، وقد قال الشاعر:

إلى أن يغيب المرء يُرجى ويُتقى ولا يعلم الإنسان ما في المغيب

(١) نسبة إلى الصفيح وهو من أسماء السماء، يريد المتعبدون المتعلقة قلوبهم بالعالم العلوي .

قال: دع هذا كله، وانسخ لي الرسالة من المسوَّدة، ولا يَمْنَعُكَ ذاك فإنَّ العين لا ترمقُها والأذن لا تسمعها واليد لا تنسخها.

وبعد، فما سألتك إلا وصفه بما جُبِلَ عليه، أو بما كسب هو بيديه من خير وشر؛ وهذا غير منكر ولا مكروه، لأمر الله تعالى، فإنه مع علمه الواسع، وكرمه السابغ، يصف المحسن والمسيء، ويثني على هذا ويُنْثُو^(١) على ذاك؛ فاذا كر لي من أمره ما خفَّ اللفظ به وسبق الخاطر إليه وحضر السبب له.

قلت: إنَّ الرجل كثيرُ المحفوظ حاضرُ الجواب فصيحُ اللسان؛ قد نَتَفَّ من كل أدب خفيفِ أشياء، وأخذ من كل فن أطرافاً؛ والغالب عليه كلام المتكلمين المعتزلة، وكتابته مهجَّنة بطرائقهم، ومناظرته مشوبة بعبارة الكتاب؛ وهو شديد التعصب على أهل الحكمة والناظرين في أجزائها كالهندسة والطب والتنجيم والموسيقى والمنطق والعدد؛ وليس عنده بالجزء الإلهي خبر، ولا له فيه عين ولا أثر؛ وهو حسن القيام بالعروض والقوافي؛ ويقول الشعر، وليس بذاك، وفي بديهته غزارة. وأما رويته فخوارة؛ وطالعه الجوزاء، والشعرى قريبة منه؛ ويتشيع لمذهب أبي حنيفة ومقالة الزيدية، ولا يرجع إلى الرقة والرأفة والرحمة، والناس كلُّهم محجمون عنه، لجراته وسلطته واقتداره وبسطته؛ شديد العقاب طفيف الثواب، طويل العتاب؛ بذىء اللسان؛ يُعْطِي كثيراً قليلاً (أعني يعطي الكثير القليل)، مغلوبٌ بحرارة الرأس، سريعُ الغضب، بعيد الفئنة قريبُ الطيرة، حسودٌ حقودٌ حديد، وحسده وقفٌ على أهل الفضل، وحفَّده سارٍ إلى أهل الكفاية؛ أما الكتاب والمتصرفون فيخافون سطوته، وأما المنتجعون فيخافون جفوته؛ وقد قتل خلقاً، وأهلك ناساً، ونَفَى أمة، نخوة وتعنُّتاً وتجبراً وزهواً؛ وهو مع هذا يخدعه الصبي، ويخْلِبُه الغبي؛ لأنَّ المدخل عليه واسع، والمأتمن إليه سهل؛ وذلك بأن يقال: مولانا يتقدم بأن أعار شيئاً من كلامه، ورسائل منشوره ومنظومه؛ فما جُبْتُ الأرض إليه من فرغانة ومصر وتفليس إلا لأستفيد كلامه وأفصح به، وأتعلَّم البلاغة منه؛ لكأتمنا رسائل مولانا سور قرآن، وفقره فيها آيات فرقان؛ واحتجَّاهُ من ابتدائها إلى انتهائها برهان فوق برهان؛ فسبحان من جمَعَ العالم في واحد، وأبرز جميع قدرته في شخص. فيلين عند ذلك ويدوب، ويلهى عن كل مهم له، وينسى كل فريضة عليه ويتقدم إلى الخازن بأن يخرج إليه رسائله مع الورق والورق ويسهل له الإذن عليه، والوصول إليه، والتمكّن من مجلسه؛ فهذا هذا.

ثم يعمل في أوقات كالعيد والفضل شعراً، ويدفعه إلى أبي عيسى بن المنجم، ويقول: قد نحلَّتْ هذه القصيدة، امدحني بها في جملة الشعراء، وكن الثالث من

(١) أي يخبر عنه بذنوبه.

الهَمَجِ المُنْشِدِينَ . فيفعل أبو عيسى - وهو بغداديّ محكّك^(١) - قد شاخ على الخدائع وتَحَنّك - ويُنشد، فيقول له عند سماعه شِعْرَه في نفسه ووصفه بلسانه، ومدّحه من تحبيره: أَعِدْ يا أبا عيسى، فَإِنَّكَ - واللّه - مُجِيد زَهْ يا أبا عيسى واللّه، قد صفا ذِهْنُكَ، وزادت قريحَتُكَ، وتَنَقَّحت قوافيك؛ ليس هذا من الطَّرَاز الأول حين أنشدتَنا في العيد الماضي، مجالسُنا تُخْرِجُ الناس وتَهَب لهم الذكاء، وتزيد لهم الفطنة، وتحوّل الكَوْدَنَ^(٢) عَتِيقاً، والمحمَّر جَوَاداً؛ ثم لا يصرفه عن مجلسه إلا بجائزة سنّية؛ وعطيّة هنيئة؛ ويغيط الجماعة من الشعراء وغيرهم، لأنّهم يعلمون أن أبا عيسى لا يقرض مضراعاً ولا يَزِنُ بيتاً ولا يذوق عَرُوضاً.

قال يوماً: من في الدار؟ ف قيل له: أبو القاسم الكاتب وابن ثابت؛ فعَمِل في الحال بيتين، وقال لإنسان بين يديه: إذا أذنتُ لهذين فادخُلْ بعدهما بساعة وقل: «قد قلتُ بيتين، فإن رسمتَ لي إنشادهما أنشدتُ» وازعم أنك بُدِئتَ بهما، ولا تجزع من تأفّفي بك، ولا تفزع من نُكْري عليك، ودفعَ البيتَين إليه، وأمره بالخروج إلى الصحن؛ وأذن للرجلين حتى وَصَلا؛ فلما جلسا وأنسا دخل الآخر على تَفِيئتهما، ووقف للخدمة، وأخذ يتلمّظ يُرِي أَنَّهُ يَقْرِض شِعْراً؛ ثم قال: يا مولانا، قد حضرني بيتان، فإن أنت أذنتَ لي أنشدتُ. قال: أنت إنسان أخرقٌ سخيّف، لا تقول شيئاً فيه خير، اكفني أمرَكَ وشِعْرَكَ. قال: يا مولانا، هي بديهتي، فإن نَكِرْتَنِي ظَلَمْتَنِي؛ وعلى كلّ حال فاسمع، فإن كانا بارعين وإلا فعاِمِلْنِي بما تحبُّ. قال: أنت لجوج، هات. فأنشد:

يَأْتِهَا الصَّاحِبُ تَاجَ الْعِلَّا لَا تَجْعَلْنِي نُهْرَةَ الشَّامِ
بِمُلْحِدٍ يُكْنَى أَبَا قَاسِمٍ وَمُجْبِرٍ يُعْزَى إِلَى ثَابِتٍ

قال: قاتلك الله، لقد أحسنت وأنت مسيء. قال لي أبو القاسم: فكذتُ أتفقاً غيظاً، لأنّي علمت أنها من فَعَلَاتِه المعروفة؛ وكان ذلك الجاهل لا يَقْرِض بيتاً. ثم حدّثني الخادمُ الحديثَ بنصّه.

والذي غَلَطَه في نفسه وَحَمَلَه على الإعجاب بفضله والاستبداد برأيه، أَنَّهُ لَمْ يُجْبِه قَطُّ بِتَخْطِئَةٍ، وَلَا قَبِيلَ بِتَسْوِئَةٍ؛ وَلَا قِيلَ لَهُ: أَخْطَأْتَ أَوْ قَصَّرْتَ أَوْ لَحَنْتَ أَوْ غَلِطْتَ أَوْ أَخْلَلْتَ، لَأَنَّهُ نَشَأَ عَلَى أَنْ يَقَالَ لَهُ: أَصَابَ سَيِّدُنَا، وَصَدَّقَ مَوْلَانَا، وَلِلَّهِ دَرُّهُ، وَلِلَّهِ بِلَاؤُهُ، مَا رَأَيْنَا مِثْلَهُ، وَلَا سَمِعْنَا مَنْ يَقَارِبُهُ، مَنْ (ابنُ عبدِكَان) مضافاً إليه؟ وَمَنْ (ابنُ ثَوَابَةٍ) مَقْيساً عَلَيْهِ؟ وَمَنْ (إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ) الصُّوْلِيُّ [إِذَا جُمِعَ بَيْنَهُمَا؟] مَنْ (صَرِيعُ الْغَوَانِي) مَنْ (أَشْجَعُ السُّلَمِيِّ) إِذَا سَلَكَ طَرِيقَهُمَا، وَمَتَّحَ بِرِشَائِهِمَا، وَقَدَحَ بِزَنْدِهِمَا؟ قَدْ اسْتَدْرَكَ مَوْلَانَا عَلَى (الْخَلِيلِ) فِي الْعَرُوضِ، وَعَلَى (أَبِي عَمْرٍو بْنِ

العلاء) في اللغة وعلى (أبي يوسف) في القضاء، وعلى (الإسكافي) في الموازنة، وعلى (ابن نوبخت) في الآراء والديانات، وعلى (ابن مُجاهد) في القراءات؛ وعلى (ابن جرير) في التفسير، وعلى (أرسطوطاليس) في المنطق، وعلى (الكِندي) في الجزء^(١)، وعلى (ابن سيرين) في العبارة، وعلى (أبي العِناء) في البديهة، وعلى (ابن أبي خالد) في الخط، وعلى (الجاحظ) في الحيوان، وعلى (سهل بن هارون) في الفقر، وعلى (يوحنا) في الطب؛ وعلى (ابن رَبن) في الفردوس، وعلى (عيسى بن دأب) في الرواية، وعلى (الواقدي) في الحفظ، وعلى (التجار) في البَدَل، وعلى (ابن ثوابه) في التفقه، وعلى (السَّري السَّقَطي) في الخطرات والوساوس، وعلى (مُزبد) في النوادر، وعلى (أبي الحسن العروضي) في استخراج المعنى، وعلى (بني بَرَمَك) في الجود، وعلى (ذي الرياستين) في التدبير، وعلى (سَطِيح) في الكهانة، وعلى (ابن المحيّا خالد بن سنان العبسي) في دعواه؛ هو والله أولى بقول (أبي شريح أوس بن حَجَر التميمي) في (فضالة بن كلدة):

الألمعي الذي يظن بك الظنَّ كأنَّ قد رأى وقد سمعا

قد يسبق المدح إلى من لا يستحقه، ويصير المال إلى من لا يليق به أن يكون ميلاً^(٢) حتى إذا وجد من كان لذلك مستحقاً منحه ووُفِّر عليه.

فتراه عند هذا الهذر وأشباهه يتلوّى ويتبسّم، ويطير فرحاً ويتقسّم ويقول: ولا كذا؛ ثمرة السُّبق لهم، وقصّرنا أن نلحقهم، أو نفقو أثرهم ونشق غبارهم أو نردّ غمارهم. وهو في كل ذلك يتشاكى ويتحایل، ويلوي شدقه، وibtلع ريقه، ويردّ كالآخذ، وبأخذ كالمتنّع، ويغضب في عَرْض الرضا، ويرضى في لبّوس الغضب، ويتهالك ويتمالك، ويتقابل ويتمایل؛ ويحاكي المومسات، ويخرج في أصحاب السماجات؛ ومع هذا كله يظن أن هذا خاف على نُقاد الأخلاق وجهازة الأحوال، والذين قد فرغهم الله لتتبّع الأمور، واستخراج ما في الصدور، واعتبار الأسباب؛ وذلك أنه ليس بجيد العقل، ولا خالص الحمق؛ وكل كدر بالتركيب فقلما يصفو، وكل مركّب على الكدر فقلما يعتدل؛ إلا أن الانحراف متى كان إلى جانب العقل كان أصلح من أن يكون إلى طرف الحمق؛ والكامل عزيز، والبريء من الآفات معدوم؛ إلا أن العليل إذا قيض الله له طبيباً حاذقاً رفيقاً ناصحاً كان إلى العافية أقرب، وللشفاء أرجى، ومن العطب أبعد، وبالاحتياط أعلق، أعني أن العاقل إذا عَرَف من نفسه عيوباً معدودة، وأخلاقاً مدخولة، استطب لها عقله، وتطبّب فيها بعقله، وتولّى تدبيرها برأيه ورأي خُلصانه، فتقّى ما أمكن نفيه، وأصلح ما قبل إصلاحه، وقلّل ما استطاع تقليه؛

(١) أي الجزء الذي لا يتجزأ، المسمى: الجوهر الفرد.

(٢) أي ذو مال.

فقد يجد الإنسان الرَّمَصَ في عينه فينحّيه، ويبتلى بالبرَص في بدنه فيخفيه.
وقد أفسده أيضاً ثقّة صاحبه به، وتعوّله عليه، وقلّة سماعه من الناصح فيه؛
فغذّر بازدهاء المال والعلم والاقتدار والأمر والكفاية وطاعة الرجال وتصديق الجلّساء
والعادة الغالبة؛ وهو في الأصل محدود^(١) لا جرّم ليس يُقلّله مكانٌ دلالاً وترَفاً، وعُجْباً
وتيهها وصُلَفاً؛ وانديراء^(٢) على الناس، وازدراء للصغار والكبار، وجَبْهاً للمصادر
والوارد؛ وفي الجملة، صِغارُ آفاتِهِ كبيرة، وذنوبُهُ جَمّة.

ولكن الغنى ربّ غفور

قال: ما صَدُرَ هذا البيت؟ فأنشدته الأبيات، وهي لعروة بن الورد في الجاهلية،
وكان يقال له عروة الصعاليك، لأنّه كان يؤويهم ويحسن إليهم كثيراً:

دَرِينِي لِلْغِنَى أَسْعَى فَإِنِّي	رَأَيْتُ النَّاسَ شَرُّهُمْ الْفَقِيرُ
وَأَبْعَدُهُمْ وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِمْ	وَأَن أُمْسَى لَهُ حَسَبٌ وَخَيْرُ
وَيُقْصِيهِ النَّدِيُّ وَتَزْدَرِيهِ	حَلِيلَتُهُ وَينْهَرُهُ الصَّغِيرُ
وَتَلْقَى ذَا الْغِنَى وَلَهُ جَلَالٌ	يَكَادُ فَوَادُ صَاحِبِهِ يَطِيرُ
قَلِيلٌ ذَنْبُهُ وَالذَّنْبُ جَمٌّ	وَلَكِنَّ الْغِنَى رَبُّ غَفُورُ

فقال: لا شك أنّ المُسَوِّدة جامعة لهذا كله. قلت: تلك تُجَزَّع في دَسْتٍ كَاعِدٍ
فرعوني. فقال: أجدّ تحريرها، وعليّ بها، ولك الضمّان ألا يراها إنسان، ولا يدور
بذكرها لسان. قلت: السمع والطاعة.

قال: قد تركنا من حديثه ما هو أولى مما مرّ بنا؛ كيف بلاغته من بلاغة ابن
العميد؟ وأين طريقته من طريقة ابن يوسف والصابي؟

قلت: قد سألت جماعة عن هذا، فأجابني كل واحد بجواب إذا حكيته عنه كان
ما يقال فيه ألصق، وكنت من الحكم عليه وله أبعد.

قال: صف هذا.

قلت: سألت ابن عبيد الكاتب عن ابن عباد في كتابته فقال: يرتفع عن
المتعلّمين فيها بدرجة أو بدرجتين. وقال عليّ بن القاسم: هو مجنون الكلام، تارة
تبدو لك منه بلاغة فُسرّ، وتارة يلقاك بعِيّ باقل؛ تحريف كثير في المعاني، وإحالة في
الوضع، وغلط في السجع، وشُرود عن الطبع.

وقال ابن المرزبان: هو كثير السرقة، سيئ الإنفاق، رديء القلب والعكس، فُرُوقَة^(٣)

(١) أي محظوظ.

(٢) أي اندفاع وتهجم.

(٣) أي الفزع.

في إيراده، هزيمته قبل هُجومه. وإحجامه أظهر من إقدامه. وقال الصابي: هو مجتهد غير موفق، وفاضل غير منطوق ولو خطا كان أسرع له، كما أنه لما عدا كان أبطأ عليه؛ وطباع الجبلي مخالف لطباع العراقي، يشب مقارباً فيقع بعيداً، ويتناول صاعداً فيتقاعسُ قعيداً.

وقال علي بن جعفر: مم كانت الطباع! هو يكذب نفسه بحسن الظن في البلاغة، وطباعه تصدق عنه بالتخلف، فهو يشين اللفظ ويحيل المعنى، فأما شينه اللفظ فبالجفوة والغلظة والإخلال والفجاجة؛ وأما إحالته فبالإبعاد عن حومة القصد والإرادة؛ والعجب أنه يحفظ الطم والرم^(١) من النثر والنظم؛ ثم إذا ادعاهما يقع دونهما سقوطاً، أو يتجاوزهما فُروطاً؛ هذا مع الكبر الممقوت والتشيع الظاهر، والدعوى العارية من البيّنة العادلة.

وأما أحسن ما كتب به أحمد بن إسماعيل بن الخطيب إلى آخر: الكبر - أعزك الله - معرض يستوي فيه الثبيّه ذكراً، والخامل قذراً، ليس أمامه حاجب يمنعه، ولا دونه حاجز يحظره؛ والناس أشدّ تحفظاً على الرئيس المحفوظ، وأكثر اجتلاء لأفعاله، وتتبعاً لمعانيه، وتصفحاً لأخلاقه، وتنقيراً عن خصاله منهم عن خامل لا يُعبأ به، وساقط لا يُكترث له؛ فيسير عيب الجليل يقدح فيه، وصغير الذنب يكبر منه، وقليل الذم يسرع إليه؛ ولا بن هندو في هذا المعنى:

العيب في الرجل المذكور مذكور والعيب في الخامل المستور مستور
كفوفة الظفر تخفى من مهانتها ومثلها في سواد العين مشهور

وقال الزهيري: قد نجم بأصبهان ابن لعباد في غاية الرقاعة والوقاحة والخلاعة وإن كان له يوم، فسيشقى به قوم. سمعته يقول هذا سنة اثنتين وخمسين في مجلس من الفقهاء.

وقال ابن حبيب: قال بعض الحكماء: إن للنفس أمراضاً كأمراض البدن إلا أن فضل أمراض النفس على أمراض البدن في الشر والضرر كفضل النفس على البدن في الخير؛ وصاحبنا - يعني ابن عباد - مريض عندنا، صحيح عند نفسه، زئف بنقذنا، جيد بنقده؛ ولو قامت السوق على ساقها، وتناصف المتعاملون فيها، ولم يقع إكراه في أخذ ولا إعطاء، عُرف البهرج^(٢) الذي ضرب خارج الدار والجيد الذي ضرب داخل الدار.

وقال أحمد بن محمد: إذا أنصفنا التزامنا مزية العراقيين علينا بالطبع اللطيف والمأخذ القريب، والسجع الملاثم، واللفظ المونق، والتأليف الحلو، والسبوبة

الغالبية، والموالاة المقبولة في السَّمْع، الخالبة للقلب العابثة بالروح، الزائدة في العقل، المشعلة للقريحة، الموقوفة على فضل الأدب، الدالة على غزارة المغترَف، النائية عن عادة كثير من السلف والخلف؛ وابن عبّاد بُليّ في هذه الصناعة بأشياء كلّها عليه لا له، وخاذلته لا ناصرته، ومُسْلِمته لا مُنْقِذته؛ فأول ما بُليّ به أنّه فقد الطبع، وهُوَ العمود؛ والثاني العادة وهي المؤاتية؛ والثالث الشغف بالجاسي^(١) من اللفظ وهو الاختيار الرديء؛ والرابع تتبّع الوحشيّ، وهو الضلال المبين؛ والخامس الذّهاب مع اللفظ دون المعنى؛ والسادس استكراه المقصود من المعنى، واللفظ على الثبوت؛ والسابع التعاضل المجهول بالاعتراض؛ والثامن إلف الرسوم الفاسدة من غير تصفّح ولا فحص؛ والتاسع قلة الاتعاظ بما كان - للثقة الواقعة في النفس - من الفائت، والعاشر تنفيق المتاع بالاقتدار في سوق العِزّ، وهذه كلّها سبل الضلالة، وطرق الجهالة. قال: وليس شيء أنفع للمنشئ من سوء الظنّ بنفسه، والرجوع إلى غيره وإن كان دونه في الدرجة وليس في الدنيا محسوب إلا وهو محتاج إلى تثقيف، والمستعين أحزَم من المستبدّ، ومن تفرد لم يكمل، ومن شاور لم ينقص، وقد يستعجم المعنى كما يستعجم اللفظ، ويَشْرُدُ اللفظ كما يَنْدُ المعنى، وينثر النظم كما ينتظم النثر وينحل المعقّد كما يعقّد المنحلّ.

والمدار على اجتلاب الحلاوة المذوقة بالطبع، واجتناب الثبوت المموجة بالسمع؛ والقريحة الصافية قد تكدّر، والقريحة الكدرة قد تصفو، وشرّ آفات البلاغة الاستكراه، وأنصح نصائحها الرضا بالعمو. وقال: كان ابن المقفّع يقيّف قلمه كثيراً؛ فقليل له في ذلك، فقال: إنّ الكلام يزدحم في صدري فيقيّف قلمي لأتخيره.

والكتاب يُتصفّح أكثر من تصفّح الخطاب، لأن الكاتب مختار والمخاطب مضطر؛ ومن يَرِدُ عليه كتابك فليس يعلم أسرع فيه أم أبطأ وإنّما ينظر أصبّت فيه أم أخطأت، وأحسنّت أم أسأت؛ فإبطاؤك غير إصابتك كما أنّ إسرارك غير مُعَفّ على غلطك.

قال: هذا كله مفيد فأين هو من غيره من أصحابنا؟

قلت: في الجملة هو أبلغ من ابن يوسف، وأغزر وأحفط وأزوى وأجم ركيّة، وأعذب مؤرداً، وأبعد من التفاوت؛ وليس ابن يوسف من ابن عبّاد في شيء.

فأما ابن العميد فإني سمعت ابن الجمل يقول: سمعت ابن ثوبة يقول: أول من أفسد الكلام أبو الفضل، لأنه تخيل مذهب الجاحظ وظنّ أنّه إن تبعه لحقه، وإن تلاه أدركه، فوقع بعيداً من الجاحظ، قريباً من نفسه؛ ألا يعلم أبو الفضل أنّ مذهب

(١) أي الجاف الصلب.

الجاحظ مدبرٌ بأشياء لا تلتقي عند كلِّ إنسان ولا تجتمع في صدر كلِّ أحد: بالطبع والمنشأ والعلم والأصول والعادة والعمر والفراغ والعشق والمنافسة والبلوغ؛ وهذه مفاتيحُ قلما يملكها واحد، وسواها مغالِقُ قلما ينفك منها واحد.

وأما ابنُه ذو الكفائتين، فلو عاش كان أبلغ من أبيه، كما كان أشعرَ منه؛ ولقد تشبَّه بالجاحظ فافتضح في مكاتبتِه لإخوانه، ومجائتِه في كلامه ومسائله لمعلِّمه التي دلَّتْنا على سرقة وغارته وسوء تأتُّيه، في تسثِّره وتغطِّيه؛ ومن شاءَ حمَّقَ نفسه؛ وكان مع هذا أشدَّ الناس ادِّعاء لكلِّ غريبة، وأبعدَ الناس من كلِّ قريبة؛ وهو نَزَر المعاني، شديدُ الكلف باللفظ؛ وكان أحسدَ الناس لمن خَطَّ بالقلم، أو بُلِّغ باللسان، أو فُلِّج في المناظرة، أو فِكِه بالنادرة، أو أغرَبَ في جواب، أو اتسع في خطاب؛ ولقد لقيَ الناسُ منه الدواهيَ لهذه الأخلاق الخبيثة، وقد ذكرتُ ذلك في الرسالة، وإذا بُيِّضَتْ وقفتَ عليها من أولِّها إلى آخرها إن شاء الله؛ وانصرفتُ.

الليلة الخامسة

قال لي ليلة أخرى: ألا تتمم ما كنا به بدأنا. قلت: بلى.

فأما أبو إسحاق فإنه أَحَبَّ الناس للطريقة المستقيمة، وأمضاهم على المَحَجَّة الوسطى، وإنما يُنْقَم عليه قِلَّة نصيبه من النحو؛ وليس ابن عباد في النحو بذلك؛ ولا كان أيضاً ابن العميد إلاّ ضعيفاً؛ وكان يذهب عنه الشيء اليسير. وأبو إسحاق معانيه فلسفية، وطبأعه عراقية، وعادته محمودة؛ لا يَثْب ولا يَرْسُب، ولا يَكِل ولا يَكْهَم^(١)، ولا يلتفت وهو متوجّه، ولا يتوجّه وهو ملتفت. وقال لنا: إمامي ابن عبدكان، وهو قد أوفى عليه، وإن كان احتدى على مثاله؛ وفنوته أكثر، ومأخذه أخفى، وخاطره أوقد، وناظره أنقد، ورؤضه أنصر، وسراجُه أزهَر، ويزيد على كلّ من تقدّم بالكتاب «التاجي»، فإنه أبان عن أمور وكُنَى في مواضع، وشنَّ الغارة في الصبح المنير مع الرّعيل الأول، ودلَّ على التفلسف، وعلى الاطلاع على حقائق السياسة ولو لم يكن له غيره لكان به أعرق الناس في الخطابة، وأعرق الكتاب في الكتابة، هذا ونظمه منشوره، ومنشوره منظومه؛ إنما هو دَهَبٌ يُرِيْزُ كيفما سُبِكَ فهو واحد، وإنما يختلف بما يُصاغ منه ويشكّل عليه؛ هذا مع الظرف الناصع والتواضع الحسن، واللّهجة اللطيفة، والخلق الدّمث، والمعرفة بالزمان، والخبرة بأصناف الناس؛ وله فنون من الكلام ما سبقه إليها أحد، وما ماثله فيها إنسان. وإني لأَرْحَم مَنْ لا يسلم له هذا الوصف، لأنّه إمّا أن يكون جاهلاً، وإمّا عالماً؛ فإن كان جاهلاً فهو معذور، وإن كان عالماً فهو ملوم، لأنه يدل من نفسه - بدفع ما يعلمه - على حسده، والحاسد مهين.

قال: هل كان في زمان هؤلاء من يلحق بهم، ويدخل في زمريتهم؟
قلت: نعم، **أبو طالب الجراحى** من آل علي بن عيسى كتّب للمَرْزُبَانِ مِلِكِ الدَّيْلَمِ بعد ما انتجع فناء ابن العميد أبي الفضل، فحسده وطرده، وعَضَّ بعد ذلك على ناجذه ندماً على سوء فعله، ولقي منه أبو طالب الأمرين؛ ورسائله مبثوثة.

وأبو الحسن الفلكي، وكان من أهل البصرة، ووقع إلى المراغة ونواحيها وهو حسن الديباجة، رقيق حواشي اللفظ؛ وهو أحدُهم غريباً، وأغزرُهم سكباً، وأبعدُهم مناحاً وأعذبُهم نقاحاً^(٢)، وأعطفُهم للأوّل على الآخر وأنشرُهم للباطن من الظاهر. وقرأتُ له:

(٢) أي الماء البارد العذب.

(١) أي يضعف.

«فإن رأى أن ينظر نظراً راحماً متعطفاً، إلى نادماً متلّهِفٍ؛ ويجهل العفو عن قُرْطَبِهِ وكُفْرَانِهِ، صدقةً عن بسطتِهِ وسلطانِهِ؛ فأجدرُّ الناس بالاعتذار أقدرُّهم على الانتصار؛ فَعَلَّ - إن شاء الله تعالى -».

وله مكاتبات واسعة بينه وبين رجل من أهل المراغة يقال له: محمد بن إبراهيم، من أهل (سُرَّ مَنْ رَأَى) وفي الجملة، الفضل في الناس مَبْثُوثٌ، وهم منه على جدود^(١)؛ والمردول هو العاري من لُبُوسِهِ، المتردد بين تخلّفه ونقصه.

قال: فكيف يتم له ما هو فيه مع هذه الصفات التي تذكرها؟
قلت: واللّه لو أنّ عجوزاً بلهاء، أو أمةً وزهاء^(٢) أقيمت مُقامه، لكانت الأمور على هذا السياق.

قال: وكيف ذاك؟

قلت: قد أُمِنَ أن يقال له: لِمَ فعلتَ، ولمَ لَمْ تفعل؟ وهذا باب لا يتفق لأحدٍ من خَدَمِ الملوك إلّا بجَدِّ سعيد، ولقد نُصِّحَ صاحِبُهُ الهَرَوِيُّ في أموالِ تَاوِيَةِ^(٣)، وأمورٍ من النظر عارية؛ فَقَذَفَ بالرقعة إليه حتى عَرَفَ ما فيها، ثم قتل الرافع خنقاً. هذا وهو يدين بالوعيد، وله نظائر، ولنظائره نظائر، ولكن ليس له ناظر، ولا فيه مُناظر. وقال لي الثقة من أصحابه: ربّما شَرَعَ في أمرٍ يُحْكَمُ فيه بالخطأ فيقلِّبُهُ جَدُّهُ صواباً، حتى كأنّه عن وحي؛ وأسرار الله في خلقه عند الارتفاع والانحطاط خَفِيَّةٌ في أَسْتَارِ الغيب، لا يهتدي إليها ملكٌ مقرب، ولا نبيٌّ مرسل، ولا وليٌّ مهذب؛ ولو جرت الأمور على موضوع الرأي وقضيّة العقل، لكان معلماً في مصطبة على شارع، أو في دار لَتَانٍ^(٤)؛ فإنّه يخرج الإنسان بتفهيّقه وتشادّقه، واستحقاره واستكباره، وإعادته وإبدائه، وهذه أشكال تُعْجِبُ الصبيان ولا تنفّرهم من المعلمين، ويكون فرحهم بها سبباً للملازمة والحرص على التعلّم والحفظ والرواية والدراسة.

قال: هذا قدرٌ كافٍ إلى أن تبيّض الرسالة؛ هات مُلَحَّةَ الوداع.

قلت: قال أبو العيناء: قال أبو دعلج: قال المهديّ: بايع؛ قلت: أبايعكم [علام؟ قال]: على ما بويع رسول الله ﷺ يوم صِفِّين. قال كردين أبو سيّار المسمعيّ: إن رسول الله ﷺ لم يدرك صِفِّين، إنما كانت صِفِّين بين عليٍّ ومعاوية. فقال درست بن رباط الفُقَيْمِيّ أبو شعيب: قد علم الأميرُ هذا، ولكن أحبّ التسهيل على الناس، وانصرفْتُ.

(١) أي الحظوظ.

(٢) أي الحمقاء.

(٣) أي هالكة.

(٤) الثاني: الدهقان، أو زعيم الإقليم.

الليلة السادسة

ثم حضرته ليلة أخرى فأول ما فاتح به المجلس أن قال: أتفضل العرب على العجم أم العجم على العرب؟

قلت: الأمم عند العلماء أربع: الروم، والعرب، وفارس، والهند؛ وثلاث من هؤلاء عجم، وصعب أن يقال: العرب وحدها أفضل من هؤلاء الثلاثة، مع جوامع ما لها، وتفاريق ما عندها.

قال: إنما أريد بهذا الفُرس.

فقلت: قبل أن أحكم بشيء من تلقاء نفسي، أروي كلاماً لابن المقفع، وهو أصيل في الفُرس عريق في العجم، مفضل بين أهل الفضل؛ وهو صاحب (التيمة) القائل: تركت أصحاب الرسائل بعد هذا الكتاب في ضحضاح من الكلام.

قال: هات على بركة الله وعونه.

قلت: قال شبيب بن شبة: إنا لوقوف في عرصة المزد - وهو موقف الأشراف ومجتمع الناس وقد حضر أعيان مصر - إذ طلع ابن المقفع، فما فينا أحد إلا هش له، وارتاح إلى مُسأله، وسررنا بطلعته؛ فقال: ما يَقْفُكم على مُتون دوابكم في هذا الموضع؟ فوالله لو بعث الخليفة إلى أهل الأرض يبتغي مثلكم ما أصاب أحداً سواكم، فهل لكم في دار ابن برثن في ظل ممدود، وواقية من الشمس، واستقبال من الشمال، وترويح للدواب والغلمان، ونتمهد الأرض فإنها خير بساط وأوطؤ، ويسمع بعضنا من بعض فهو أمد للمجلس، وأدّر للحديث. فسارعنا إلى ذلك، ونزلنا عن دوابنا في دار ابن برثن نتسم الشمال، إذ أقبل علينا ابن المقفع، فقال: أي الأمم أعقل؟ فظننا أنه يريد الفُرس، فقلنا: فارس أعقل الأمم، نقصد مقاربه، ونتوخي مصانعه. فقال: كلا، ليس ذلك لها ولا فيها، هم قوم عُلِّموا فتعلّموا، ومُثِّل لهم فامتثلوا واقتدوا وبُدِّئوا بأمر فصاروا إلى اتباعه، ليس لهم استنباط ولا استخراج. فقلنا له: الروم. فقال: ليس ذلك عندها، بل لهم أبدان وثيقة وهم أصحاب بناء وهندسة، لا يعرفون سواهما، ولا يحسنون غيرهما. قلنا: الفصين. قال: أصحاب أثاث وصنعة، لا فكر لها ولا روية. قلنا: الفلترك. قال: سباع للهراش. قلنا: الفلند. قال: أصحاب وهم ومخرقة وشغبذة وحيلة. قلنا: فالزنج. قال: بهائم هاملة. فرددنا الأمر إليه. قال: العرب. فتلاحظنا

وَهَمَسَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، فَغَاظَهُ ذَلِكَ مَنَّا، وَامْتَقِعَ لَوْنُهُ، ثُمَّ قَالَ: كَأَنَّكُمْ تَنْظُنُونَ فِيَّ مَقَارِبَتَكُمْ، فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنَّ الْأَمْرَ لَيْسَ لَكُمْ وَلَا فِيكُمْ وَلَكِنْ كَرِهْتُ أَنْ فَاتَنِي الْأَمْرُ أَنْ يَفُوتَنِي الصَّوَابُ، وَلَكِنْ لَا أَدْعُكُمْ حَتَّى أَبَيِّنَ لَكُمْ لِمَ قُلْتُ ذَلِكَ، لِأَخْرِجَ مِنْ ظِلَّةِ الْمُدَارَاةِ، وَتَوْثُمِ الْمَصَانَعَةِ؛ إِنَّ الْعَرَبَ لَيْسَ لَهَا أَوَّلُ تَوْثُمَةٍ وَلَا كِتَابٌ يَدُلُّهَا، أَهْلُ بَلَدٍ قَفَرٍ، وَوَحْشَةٍ مِنَ الْإِنْسِ، أَحْتَاجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي وَحْدَتِهِ إِلَى فِكْرِهِ وَنَظَرِهِ وَعَقْلِهِ؛ وَعَلِمُوا أَنَّ مَعَاشَهُمْ مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ قَوَّسَمُوا كُلَّ شَيْءٍ بِسَمَتِهِ، وَنَسَبُوهُ إِلَى جَنْسِهِ وَعَرَفُوا مَصْلَحَةَ ذَلِكَ فِي رَطْبِهِ وَيَابِسِهِ، وَأَوْقَاتِهِ وَأَزْمَتِهِ، وَمَا يَصْلُحُ مِنْهُ فِي الشَّاةِ وَالْبَعِيرِ؛ ثُمَّ نَظَرُوا إِلَى الزَّمَانِ وَاخْتِلَافِهِ فَجَعَلُوهُ رِبْعِيًّا وَصَيْفِيًّا، وَقَيْظِيًّا وَشَتَوِيًّا؛ ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ شَرِبَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ، فَوَضَعُوا لِذَلِكَ الْأَنْوَاءَ؛ وَعَرَفُوا تَغْيِيرَ الزَّمَانِ فَجَعَلُوا لَهُ مَنَازِلَهُ مِنَ السَّنَةِ؛ وَاحْتَاجُوا إِلَى الْإِنْتِشَارِ فِي الْأَرْضِ، فَجَعَلُوا نَجُومَ السَّمَاءِ أَدَلَّةً عَلَى أَطْرَافِ الْأَرْضِ وَأَقْطَارِهَا، فَسَلَكُوا بِهَا الْبِلَادَ؛ وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ شَيْئًا يَنْتَهُونَ بِهِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَرْغَبُهُمْ فِي الْجَمِيلِ، وَيَتَجَنَّبُونَ بِهِ الدَّنَاءَ وَيَحْضَهُمْ عَلَى الْمَكَارِمِ؛ حَتَّى إِنْ الرَّجُلُ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي فَجٍّ مِنَ الْأَرْضِ يَصِفُ الْمَكَارِمَ فَمَا يُبْقِي مِنْ نَعْتِهَا شَيْئًا، وَيُسْرِفُ فِي ذَمِّ الْمَسَاوِي فَلَا يَقْصُرُ؛ لَيْسَ لَهُمْ كَلَامٌ إِلَّا وَهُمْ يَتَحَاضُّونَ بِهِ عَلَى اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ثُمَّ حَفِظَ الْجَارُ وَبَذَلَ الْمَالُ وَابْتَنَاءَ الْمَحَامِدُ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ يَصِيبُ ذَلِكَ بِعَقْلِهِ، وَيَسْتَخْرِجُهُ بِفَطْنَتِهِ وَفِكْرَتِهِ فَلَا يَتَعَلَّمُونَ وَلَا يَتَأَدَّبُونَ، بَلْ نَحَازُّ^(١) مُؤَدَّبَةً، وَعَقُولٌ عَارِفَةٌ، فَلِذَلِكَ قُلْتُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ أَعْقَلُ الْأُمَمِ، لَصَحَّةِ الْفُطْرَةِ وَاعْتِدَالِ الْبَنِيَّةِ وَصَوَابِ الْفِكْرِ وَذِكَاةِ الْفَهْمِ. هَذَا آخِرُ الْحَدِيثِ،

قال: ما أحسن ما قال ابن المقفّع! وما أحسن ما قصصته وما أتيت به! هات الآن ما عندك من مسموع ومستنبط.

فقلت: إن كان ما قال هذا الرجل البارِعُ في أدبه المقَدَّمُ بعقله كافياً فالزيادة عليه فضلٌ مستغنى عنه، وإِعْقَابُهُ بما هو مثله لا فائدة فيه.

فقال: حدِّ الوصف في التزيين والتقبيح مختلف الدلائل على ما يُعْتَقَدُ صَوَابُهُ وَخَطْؤُهُ، مُتَبَايِنٌ؛ وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ - أَعْنِي تَفْضِيلَ أُمَّةٍ عَلَى أُمَّةٍ - مِنْ أَمْهَاتِ مَا تَدَارَأُ النَّاسُ عَلَيْهِ وَتَدَافَعُوا فِيهِ؛ وَلَمْ يَرْجِعُوا مِنْذُ تَنَاقَلُوا الْكَلَامَ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَى صَلَاحِ مَتْنٍ وَاتِّفَاقِ ظَاهِرٍ.

فقلت: بالواجب ما وقع هذا، فَإِنَّ الْفَارْسِيَّ لَيْسَ فِي فِطْرَتِهِ وَلَا عَادَتِهِ وَلَا مَنْشِئِهِ أَنْ يَعْتَرِفَ بِفَضْلِ الْعَرَبِيِّ، وَلَا فِي جَبَلَةِ الْعَرَبِيِّ وَدِيدَنِهِ أَنْ يَقَرَّ بِفَضْلِ الْفَارْسِيِّ. وَكَذَلِكَ الْهِنْدِيُّ وَالرُّومِيُّ وَالْتُرْكِيُّ وَالْدِيلِمِيُّ؛ وَبَعْدَ، فَاعْتَبَارِ الْفَضْلِ وَالشَّرَفِ مَوْقُوفٍ عَلَى شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَا خَصَّ بِهِ قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ فِي أَيَّامِ النِّشْأَةِ بِالِاخْتِيَارِ لِلجَيِّدِ وَالرَّدِيِّ، وَالرَّأْيِ الصَّائِبِ وَالْفَائِلِ، وَالنَّظَرِ فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ. وَإِذَا وَقَفَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَلِكُلِّ

أمة فضائل ورذائل ولكل قوم محاسن ومساو، ولكل طائفة من الناس في صناعتها وحلها وعقدها كمال وتقصير؛ وهذا يقضي بأن الخيرات والفضائل والشرور والنقائص مفاضة على جميع الخلق، مفضوضة بين كلهم.

فللفُرس السياسة والآداب والحدود والرسوم؛ وللروم العلم والحكمة؛ وللهند الفكر والروية والخفة والسخر والأناة؛ وللتُرك الشجاعة والإقدام؛ وللزنج الصبر والكذب والفرح؛ وللعرب النجدة والقرى والوفاء والبلاء والجود والذمام والخطابة والبيان.

ثم إن هذه الفضائل المذكورة، في هذه الأمم المشهورة، ليست لكل واحد من أفرادها، بل هي الشائعة بينها؛ ثم في جملتها من هو عارٍ من جميعها، وموسوم بأضدادها، يعني أنه لا تخلو الفُرس من جاهل بالسياسة، خالٍ من الأدب، داخل في الرعاع والهَمَج؛ وكذلك العرب لا تخلو من جبانٍ جاهلٍ طيَّاشٍ بخيلٍ عبيٍّ وكذلك الهند والروم وغيرهم؛ فعلى هذا إذا قوبل أهل الفضل والكمال من الروم بأهل الفضل والكمال من الفُرس، تلاقوا على صراطٍ مستقيم، ولم يكن بينهم تفاوتٌ إلا في مقادير الفضل وحدود الكمال، وتلك لا تخص بل تلم. وكذلك إذا قوبل أهل النقص والرذيلة من أمة بأهل النقص والخساسة من أمة أخرى، تلاقوا على نهج واحد، ولم يقع بينهم تفاوتٌ إلا في الأقدار والحدود؛ وتلك لا يلتفت إليها، ولا يعار^(١) عليها؛ فقد بان بهذا الكشف أن الأمم كلها تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة، واختيار الفكرة. ولم يكن بعد ذلك إلا ما يتنازعه الناس بينهم بالنسبة الترابية، والعادة المنشئية والهوى الغالب من النفس الغضبية، والتراع الهائج من القوة الشهوية.

وها هنا شيء آخر، وهو أصل كبير لا يجوز أن يخلو كلامنا من الدلالة عليه والإيماء إليه، وهو أن كل أمة لها زمان على ضدها، وهذا بين مكشوف إذا أرسلت وهمك في دولة يونان والإسكندر، لمَّا غلبَ وساس وملك ورأس وفتح ورتق ورسم ودبر وأمر، وحث وزجر، ومحا وسطر، وفعل وأخبر؛ وكذلك إذا عطفك إلى حديث كسرى أنوشروان وجدت هذه الأحوال بأعيانها، وإن كانت في غُلفٍ غير غُلف الأول، ومعارض غير معارض المتقدم؛ ولهذا قال أبو مسلم صاحب الدولة حين قيل له: أي الناس وجدتهم أشجع؟ فقال: كل قوم في إقبال دولتهم شجعان. وقد صدق؛ وعلى هذا كل أمة في مبدأ سعادتها أفضل وأنجد وأشجع وأمجد وأسخى وأجود وأخطب وأنطق وأزأى وأصدق؛ وهذا الاعتبار ينساق من شيء عام لجميع الأمم، إلى شيء شامل لأمة أمة إلى شيء حاوٍ لطائفة طائفة، إلى شيء غالبٍ على قبيلة قبيلة،

إلى شيءٍ معتادٍ في بيتٍ بيت، إلى شيءٍ خاصٍّ بشخصٍ شخص وإنسانٍ إنسان؛ وهذا التحول من أمةٍ إلى أمةٍ، يشير إلى فيض جود الله تعالى على جميع بريته وخليقته بحسب استجابتهم لقبوله، واستعدادهم على تطاول الدهر في نيل ذلك من فضله ومن رقيٍّ إلى هذه الرتبة بعين لا قَدَى بها، أبصر الحقَّ عياناً بلا مِزْيَةٍ، وأخبر عنه بلا فرية؛ ومتى صدق نظرك في مبادئ الأحوال وأوائل الأمور وضح لك هذا كله كالنهار إذا مَتَعَ^(١)، واستنار كالقمر إذا طلع؛ ولم يبق حينئذٍ ريب في عرفان الحقِّ وحصول الصواب، إلّا ما يَلْتَأَت بالهوى، وَيَسْمُج بالتعصب، وَيَجْلِب اللُّجَاج، ويخرج إلى المَخَكِّ^(٢)؛ فهناك يطيح المعنى ويضلُّ المراد.

فإذا آثرت أن تعرف صحة هذا الحكم وصواب هذا الرأي، فاسمع ما أرويه، قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: انصرف العباس بن مزداش السلمي من مكة فقال: «يا بني سليم، إني رأيت أمراً، وسيكون خيراً، رأيتُ بني عبد المطلب كأنَّ قُدودهم الرِّماح الرُّدْنِيَّة، وكأنَّ وجوههم بدورُ الدُّجَّة وكان عمائمهم فوق الرجال ألوية، وكأنَّ منطلقهم مطرُ الوَبَل على المَحَل؛ وإنَّ الله إذا أراد ثمرأ غرس له غرساً، وإنَّ أولئك غرسُ الله؛ فترقبوا ثمرته وتوَكَّفوا غيثه، وتغيثوا ظلاله، واستبشروا بنعمة الله عليكم به». ولقد قرَّع العباس بهذا الكلام باب الغيب، وشعرَ بالمستور، وأحسَّ بالخافي، وأطلع عقله على المستتر، واهتدى بلطف هاجسه إلى الأمر المُزْمَع، والحادثِ المتوقع؛ وهذا شيء فاش في العرب، لطول وخذتها، وصفاء فكرتها، وجودة بُنيَّتها واعتدالِ هيئتها، وصحَّة فِطْرَتها، وخلاءِ ذَرْعِها، واتِّقادِ طَبْعِها، وسَعَةِ لغتها وتصاريفِ كلامها في أسمائها وأفعالها وحروفها، وجَوْلانِها في اشتقاقاتها، ومآخذها البديعة في استعاراتها، وغرائبِ تصرفها في اختصاراتها، ولطفِ كُنَيَّاتها في مقابلةِ تصرُّحاتها، وفنونِ تبخُّبِها في أكنافِ مقاصدها، وعجيبِ مقاربتها في حركات لفظها؛ وهذا وأضعافه مسلَّم لهم، وموقَّر عليهم، ومعروفٌ فيهم ومنسوبٌ إليهم، مع الشجاعة والنَّجدة والذُّمام والضيافة والفطنة والخُطابة والحِميَّة والأَنَفَة والحِفاظ والوفاء، والبذل والسَّخاء، والتَّهالُك في حبِّ الشَّاء والتَّكَلُّ الشديد عن الذمِّ والهجاء؛ إلى غير ذلك ممَّا خُصَّت به في جاهليَّتها قبل الإسلام، ممَّا لا سبيلَ إلى دفعه وجحوده، والبُهْت فيه، والمكابرة عليه؛ وقد سمعنا لغاتٍ كثيرة - وإن لم نستوعبها - من جميع الأمم، كلغة أصحابنا العجم والروم والهند والترك وخوارزم وصقلاّب وأندلس والزنج، فما وجدنا لشيء من هذه اللغات نصوغَ العربيَّة، أعني الفُرَج التي في كلماتها، والفضاء الذي نجده بين حروفها، والمسافة التي بين مخارجها، والمعادلة التي ندوقها في

(١) أي ارتفع وبلغ غاية ارتفاعه قبل الزوال.

(٢) أي المنازعة والتماذي في اللجاج.

أمثلتها، والمساواة التي لا تُجحد في أبينتها؛ وإذا شئت أن تعرف حقيقة هذا القول، وصحة هذا الحكم، فالحظ عرض اللغات الذي هو بين أشدها تلابساً وتداخلًا، وترادفًا وتعاضلاً وتعسراً وتعوضاً، وإلى ما بعدها ممّا هو أسلس حروفاً، وأرقّ لفظاً، وأخفّ اسماً؛ وألطف أوزاناً، وأحضر عياناً؛ وأحلى مخرجاً وأجلى منهجاً وأعلى مدرجاً؛ وأعدل عدلاً، وأوضح فضلاً، وأصحّ وصلاً إلى أن تنزل إلى لغة بعد لغة، ثم تنتهي إلى العربية، فإنّك تحكم بأن المبدأ الذي أشرنا إليه في العوائص والأغماض، سرى قليلاً قليلاً حتى وقف على العربية في الإفصاح والإيماض.

وهذا شيء يجده كلّ من كان صحيح البنية، بريئاً من الآفة، متنزهاً عن الهوى والعصبية، محباً للإنصاف في الخصومة، متحرّياً للحق في الحكومة، غير مسترق بالتقليد، ولا مخدوع بالإلف، ولا مسخر بالعادة.

وإنّي لأعجب كثيراً ممّن يرجع إلى فضل واسع، وعلم جامع؛ وعقل سديد، وأدب كثير، إذا أبى هذا الذي وصفته، وأنكر ما ذكرته؛ وأعجب أيضاً فضل عجب من الجيّهاني في كتابه وهو يسبّ العرب، ويتناول أعراضها ويحطّ من أقدارها، ويقول: يأكلون اليرابيع والضباب والجُرذان والحيات ويتغاورون ويتساورون، ويتهاجون ويتفاحشون، وكأنّهم قد سلخوا من فضائل البشر، ولبسوا أهب الخنازير. قال: ولهذا كان كسرى يسمّي ملك العرب: «سكان شاه»، أي ملك الكلاب. قال: وهذا لشدة شبههم بالكلاب وجرائها، والذئاب وأطلائها^(١)، وكلاماً كثيراً من هذا الصّوب أرفع قدره عن مثله، وإن كان يضع من نفسه بفضل قوله. أترأه لا يعلم لو نزل ذلك القفر وتلك الجزيرة وذلك المكان الخاوي وتلك القيافي والموامي، كلّ كسرى كان في الفرس، وكلّ قيصر كان في الروم، وكلّ بلهور كان بالهند، وكلّ بغفور كان بخراسان، وكلّ خاقان كان بالترك وكلّ أخشاد كان بفرغانة وكلّ صبهبذ كان من أسكنان وأزدوان، ما كانوا يحدّون هذه الأحوال، لأنّ من جاع أكل ما وجد، وطعم ما لحق، وشرب ما قدر عليه، حباً للحياة، وطلباً للبقاء، وجزعاً من الموت، وهرباً من الفناء. أترى أنوشروان إذا وقع إلى فيافي بني أسد وبرّ (وبار) وسفوح طيبة، وزمل يبرين وساحة هببر، وجاع وعطش وعري، أما كان يأكل اليربوع والجُرذان؟ وما كان يشرب بول الجمل وماء البئر، وما أسرّ في تلك الوهدات؟ أو ما كان يلبس البرجذ والخميصة والسمل من الثياب وما هو دونه وأخشن؟ بلى واللّه، ويأكل حشرات الأرض ونبات الجبال، وكلّ ما حمض ومَرّ، وخُبث وضَرّ، هذا جهل من قائله، وخيف من منتحله؛ على أن العرب - رحمك الله - أحسن الناس حالاً

وعيشاً إذا جادتهم السماء، وصدقَّتْهم الأثواء^(١)؛ وازدانت الأرض، فهُدَّتْ الثمار، واطردت الأودية، وكثر اللبن والأقط والجبن واللحم والرطب والتمر والقمح، وقامت لهم الأسواق، وطابت المرباع وفشا الخضب، وتوالى الشئاع، واتصلت الميرة، وصدق المصاب وأرْفَعُ^(٢) المنتجع، وتلاقت القبائل على المحاضر، وتَقَاوَلُوا وتضايفوا، وتعاهدوا وتعاهدوا، وتزاوروا وتناشدوا؛ وعقدوا الذمم، ونطقوا بالحكم؛ وقرؤا الطُّرَاق، ووَصَلُوا العُفَاة، وزَوَّدُوا السابِلة، وأرشدوا الضُّلال، وقاموا بالحِمالات^(٣) وفُكُّوا الأسرى، وتداعوا الجَفَلَى^(٤)، وتعافوا النَّقَرَى^(٥)، وتنافسوا في أفعال المعروف؛ هذا وهم في مسايط رؤوسهم، بين جبالهم ورمالهم، ومناشئ آبائهم وأجدادهم، وموالد أهلهم وأولادهم، على جاهليتهم الأولى والثانية، وقد رأيت حين هبت ريحهم وأشرقَتْ دولتهم بالدعوة، وانتشرت دعوتهم بالملة، وعزّت ملتهم بالنبوة، وغلبت نبوتهم بالشريعة، ورسخت شريعتهم بالخلافة، ونُضِرَتْ خلافتهم بالسياسة الدينيّة والدينيّة، كيف تحوّلَتْ جميع محاسن الأمم إليهم وكيف وقَعَتْ فضائل الأجيال عليهم من غير أن طلبوها وكَدَحُوا في حيازتها أو تعبوا في نيلها، بل جاءتهم هذه المناقب والمفاخر، وهذه النوادر من المآثر عفواً، وقطنَتْ بين أطناب بيوتهم سهواً رهواً؛ وهكذا يكون كلُّ شيء تولاه الله بتوفيقه، وساقه إلى أهله بتأييده، وحلّى مستحقّه باختياره؛ ولا غالب لأمر الله، ولا مبدّل لحكم الله، ولذلك قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلُوكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ولله في خلقه أسرار، تتصرّف بها دوائر الليل والنهار، وتذلّلها مجاري الأقدار، حتى يُنتَهَى بمحبوبها ومكروهها إلى القرار.

عزّ إلهاً معبوداً، وجلّ ربّاً محموداً مقصوداً. وبعد، فالذي لا شك فيه من وصف العرب، ولا جاحد له من حالها، أنه ليس على وجه الأرض جيلٌ من الناس ينزلون الفقر، وينتجعون السحاب والقطر؛ ويعالجون الإبل والخيل والغنم وغيرها، ويستبدون في مصالحهم بكلّ ما عزّ وهان، وبكلّ ما قلّ وكثُر، وبكل ما سهل وعسر؛ ويرجون الخير من السماء في صوبها، ومن الأرض في نباتها؛ مع مراعاة الأوان بعد الأوان، وثقةً بالحال بعد الحال وتبصرةً فيما يُفَعَل ويُجْتَنَب؛ ما للعرب فيما قدّمنا وصفه، وكثرنا شرحه من علمهم بالخضب والجذب، واللّين والقسوة، والحرّ والبَرْد،

(١) أي الأمطار.

(٢) المصاب: المقصد. وأرْفَعُ: وسع.

(٣) أي الديات.

(٤) أي دعا بعضهم بعضاً إلى الطعام دعوة عامة لا تخصيص لها.

(٥) الدعوة الخاصة.

والرياح المختلفة والسحاب الكاذبة، والمخايل الصادقة، والأنواء المحمودّة والمذمومة، والأسباب الغريبة العجيبة.

وهذا لأنهم مع توحّشهم مستأنسون، وفي بواديهم حاضرون، فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة أحسن العادات، ومن أخلاق البادية أظهر الأخلاق.

وهذا المعنى على هذا النظم قد عدمه أصحاب المّدن وأرباب الحضر، لأن الدناءة والرّقة والكَيْس والهَيْن والخَلابة والخداع والحيلة والمكر والخب تغلب على هؤلاء وتملّكهم، لأن مدارّ أمرهم على المعاملات السيّئة، والكذب في الحس، والخلف في الوعد.

والعرب قد قدّسها الله عن هذا الباب بأسره، وجبّلها على أشرف الأخلاق بقدرته؛ ولهذا تجد أحدهم وهو في بَتٍّ^(١) حافياً حاسراً يذكر الكرم، ويفتخر بالمحمدة، ويتحلّ التجدة، ويحتمل الكلّ^(٢)، ويضحك في وجه الضيف ويستقبله بالبشر، ويقول: أحدثه إن الحديث من القرى. ثم لا يقنع ببِتّ العرف وفعل الخير والصبر على النوائب حتى يحضّ الصغير والكبير على ذلك ويدعو إليه، ويستنهضه نحوه، ويكلّفه مجهوده وعفوه.

وقد قيل لرجل منهم في يوم شاتٍ وهو يمشي في سَمِلٍ^(٣): أما تجد البزد يا أخا العرب؟ فقال: أمشي الخيزلي ويدفتني حَسبي. والفارسي لا يُحسن هذا الثَّمط، ولا يذوق هذا المعنى ولا يحلّم بهذه اللّطيفة؛ وكذلك الرومي والهندي وغيرهما من جميع العجم.

ومما يدلّ على تحضّرهم في باديتهم، وتبذيرهم في تحضرهم، وتحليلهم بأشرف أحوال الأمرين، أسواقهم التي لهم في الجاهليّة، مثل دومة الجندل بقرى كلب وهي النصف بين العراق والشّام، كان ينزلها الناس أوّل يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يعشّروهم أكيدر دومة، وربما غلبت على السوق كلب فيعشّروهم^(٤) بعض رؤساء كلب؛ فيقوم سوقهم إلى آخر الشهر، ثم ينتقلون إلى سوق هجر، وهو المشقّر في شهر ربيع الآخر، فتقوم أسواقهم؛ وكان يعشّروهم المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دّارم، ثم يرتحلون نحو عُمان، فتقوم سوقهم بديار دبا، ثم بصحار، ثم يرتحلون فينزلون إرم، وقرى الشحر فتقوم أسواقهم أيّاماً، ثم يرتحلون فينزلون عدن أبين، ومن سوق عدن تُشترى اللطائم وأنواع الطيب،

(١) كساء غليظ من صوف أو وبر.

(٢) الكل أي الضعيف.

(٣) أي الخلق البالي من الثياب.

(٤) أي يأخذ منهم العشر.

ولم يكن في الأرض أكثر طيباً، ولا أحذق صنّاعاً للطّيب من عدَن؛ ثم يرتحلون فينزّلون الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها ويردّ صنعاء، فتقوم أسواقهم بها، ومنها كانت تُجلب آلة الخزّز والأدمّ والبُرود، وكانت تُجلب إليها من معافر، وهي معدّين البُرود والجبر ثم يرتحلون إلى عُكاظ وذي المجاز في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم بها، فيتناشدون ويتحاجّون ويتحدّون، ومن له أسير يسعى في فدائه، ومن له حكومة ارتفع إلى الذي يقوم بأمر الحكومة من بني تميم، وكان آخرهم الأقرع بن حابس؛ ثم يقفون بعرفة، ويقضون ما عليهم من مناسكهم؛ ثم يتوجهون إلى أوطانهم.

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قُرب من العَرَب ومن بُعد. هذا حديثهم، وهم همّل لا عزّ لهم إلا بالسودد، ولا معقل لهم إلا السيّف، ولا حصون إلا الخيل، ولا فخر إلا بالبلاغة.

ثم لما ملكوا الدّور والقصور والجنان والأودية والأنهار والمعادن والقلاع والمُدُن والبلدان والسهل والجبل والبرّ والبحر، لم يقعدوا عن شأو من تقدّم بآلاف سنين، ولم يعجزوا عن شيء كان لهم؛ بل أبّروا عليهم وزادوا، وأغربوا وأفادوا، وهذا الحكم ظاهر معروف، وحاضر مكشوف؛ ليس إلى مرّدة سبيل ولا لجاحده ومنكره دليل.

فليستخي الجيهاني بعد هذا البيان والكشف والإيضاح، بالإنصاف من القَدَح والسَّفَه اللّذين حشّا بهما كتابه، وليرفع نفسه عما يَشِين العقل، ولا تقبله حُكّام العدل؛ وصاحب العلم الرصين، والأدب المكين؛ لا يسلّط خصمه على عرضه بلسانه، ولا يستدعي مُرّ الجواب بتعرضه ويرضى بالميسور في غالب أمره؛ فإنّ العصيّة في الحق ربّما خذلت صاحبها وأسلمته؛ وأبدت عورته، واجتلبت مساءته؛ فكيف إذا كانت في الباطل ونعوذ بالله أن نكون لفضل أمة من الأمم جاحدين، كما نعوذ به أن نكون بنقص أمة من الأمم جاهلين. فإنّ جاحد الحقّ يدلّ من نفسه على مهانة، وجاهل النقص يدلّ من نفسه على قصور؛ فهذا هذا؛ وفي الجملة المسلّمة، والدعوة المرسلة، أنّ أهل البرّ وأصحاب الصّحارى الذين وطّأهم الأرض، وغطّأهم السماء، هم في العدد أكثر وعلى بَسِيط الأرض أجول، ومن الترفّه والرفاهية أبعد، وبالحول والقوة أعلّق وإلى الفكرة والفطنة أفزّع، وعلى المصالح والمنافع أوقّع، ومن المَخَازي آتّف وللقبائح أغيف؛ وهذا للدّواعي الظاهرة، والحاجات الضروريّة، والعلائق الحاضرة على الألفة والمودة، والشدائد المؤدبة، والعوارض اللازبة^(١)؛ ولهذا يقال: عيبُ الغنى أنّه يورث البلادة، وفضيلة الفقر أنّه يبعث الحيلة؛ وهذا معنى كريم، لا يُقرُّ به إلا كلّ نقّاب عليم.

(١) أي الثابتة الشديدة.

وقال الجيهاني أيضاً: ممّا يدل على شرفنا وتقدّمنا وعزّنا وعلوّ مكاننا، أنّ الله أفاض علينا النعم، ووسّع لدينا القسَم وبوّأنا الجنان والأرياف، ونعمّنا وأترّفنا. ولم يفعل هذا بالعرب، بل أشقاهم وعذبهم، وضيق عليهم وحرّمهم، وجمّعهم في جزيرة حرّجة، ورُقعة صغيرة، وسقاهم بأرثق ضاح؛ وبهذا يُعلّم أنّ المخصوص بالنعمة والمقصود بالكرامة فوق المقصود بالإهانة.

فأطال هذا الباب بما ظنّ أنّه قد ظفّر بشيء لا جواب عنه، ولا مقابل له؛ ولو كان الأمر كما قال لما خفي على غيره وتجلّى له، بل قد خصت العرب بعد هذا بأشياء تطول حسرة من فاتته عليها، ولا يفيد التفاتة بالغيب إليها؛ وقد دلّ كلامه على أنّه جاهل بالنعمة، غافل عمّا هو سرّ الحكمة.

وعنده أنّ الجاهل إذا لبس الثوب الناعم، وأكل الخبز الحواري وركب الجواد، وتقلّب على الحشية، وشرب الرحيق، وباشّر الحسناء، هو أشرف من العالم إذا لبس الأطمار، وطعم العشب، وشرب الماء القراح، وتوسّد الأرض، وقنع باليسير من رخی العيش، وسلا عن الفضول؛ هذا خطأ من الرأي، ومردود من الحكم، عند الله تعالى أولاً، ثم عند جميع أهل الفضل والحجاء، وأصحاب التقى والنهي؛ وعلى طريقته أيضاً أن البصير أشرف من الأعمى، والغنيّ أفضل من الفقير.

ألا يعلم أنّ المدار على العقل الذي من حرّمه فهو أنقص من كلّ فقير، وعلى الدّين الذي من عريّ منه فهو أسوأ حالاً من كلّ موسر؛ ونعمة الله على ضربين: أحد الضربين عمّ به عباده، وغمر بفضله خليقته، بدءاً بلا استحقاق وذلك أنّه خلق ورزق وكفل وحفظ ونعش وكلاً وحرس وأمهل وأفضل ورهب وأجزل؛ وهذا هو العدل المخلوط بالإحسان، والتسوية المعمومة بالتفضل والقدرة المشتملة على الحكمة؛ والضرب الثاني هو الذي يُستحقّ بالعمل والاجتهاد والسعي والارتداد، والاختيار والاعتقاد؛ ليكون جزاء وثواباً، ولهذا حرّم العاصي المخالف، وأنال الطائع الموافق؛ فقد بان الآن أنّ المدار ليس بالجنان والترّفه، ولا بالذهب والفضة، ولا الوبر والمدر.

وقد مرّ هذا الكلام كلّهُ فليستكن من الجيهاني جأشه، وليفارق طيشه؛ وليعلم أنّ من أنصف أعطى بيده، وسلّم الفضل لأهله؛ فإنّ التواضع للحقّ رفعة، والترفع بالباطل ضعة.

وهنا بقية ينبغي أن يتبصّر فيها؛ من عرف النقص البحت، والنقص المشوب بالزيادة؛ والفضل الصّرف، والفضل الممزوج بالنقيصة لم يجحد بالهوى المغوي فضلاً، ولم يدّع للعصية المُرّدية شرفاً، ولم ينكر بالحسد مزية؛ والخلق كلّهم في نعم الله تعالى مشتركون، وفي أياديهم مغموسون وبمواهبه متفاضلون، وعلى قدرته متصرفون؛ وإلى مشيئته صائرون، وعن حكمته مخبرون، ولآلائه ذاكرون، ولنعمائه

شاكرون، ولأَياديهِ ناشرون، وعلى اختلاف قضائه صابرون، ولثوابه بالحسنات مستحقون، ولعقابه بالسيئات مستوجبون، ولعفوه برحمته منتظرون، واللَّهُ خبيرٌ بما يعملون، وبصير بما يُسرّون وما يُعلنون، وأبو سليمان يقول من الجماعة: العَرَبُ أَذْهَبُ مع صفو العقل؛ ولذلك هم بذكر المحاسن أَبَدَه، وعن أصدادها أَنزَه. ولو كانت رَوَيْتُهُمْ في وزنٍ بديهتهم، كان الكمال؛ ولكن لَمَّا عَزَّ الكمالُ فيهم، عَزَّ أيضاً في غيرهم من الأمم، فالأُمم كُلُّها شَرَعٌ واحد في عدم الكمال إلا أَنَّهُمْ متفاضلون بعد هذا فيما نالوه بالخلقة الأولى، وبالاختيار الثاني؛ واختلَفَتْ أَبصارهم في هذا الموضع، فأما ما مُنِعَ الإنسانُ في الأوَّل فلا عَثَبٌ عليه فيه، لأنَّه لا يقال للأعمى: لِمَ لا تكون بصيراً، ولا يقال للطويل: لِمَ لا تكون قصيراً وقد يقال للقصير: سَدِّ طَرَفَكَ، واكْحُلْ عَيْنَكَ، ومُدِّ ناظِرَكَ؛ كما يقال للطويل؛ تَطَامَن، في هذا الزُّقاق حتى تَدْخُل، وتَقَاصِرَ حتى تصل؛ وأما ما لم يُمنَّعهُ الإنسانُ في الأوَّل، بل أُعْطِيَهِ وَهُبَ له، فهو فيه مُطَلَّبٌ بما عليه وله كما أَنَّهُ مُطالَبٌ بما له وعليه.

وقال الجيّهانيُّ أيضاً: ليس للعرب كتاب إقليدس ولا المجسطي ولا الموسيقي ولا كتاب الفلاحة، ولا الطَّب ولا العلاج، ولا ما يجري في مصالح الأبدان، ويدخل في خواصِّ الأنفس.

فليَعْلَمَ الجيّهانيُّ أَنَّ هذا كُلُّه لهم بنوع إلهي لا بنوع بشري، كما أَنَّ هذا كُلُّه لغيرهم بنوع بشري لا بنوع إلهي، وأعني بالإلهي والبشري الطباعي والصناعي؛ على أَنَّ إلهيَّ هؤلاء قد مازجه بشريَّ هؤلاء، وبشريَّ هؤلاء قد شابهُ إلهيَّ هؤلاء؛ ولو علم هذا الزاري لَعَلِمَ أَنَّ المجسطي وما ذكره ليس للفُرس أيضاً، وما عندي أَنَّهُ مُكابِرٌ فِدْعِي هذا لهم. فإن قال: هو لليونان، ويونانُ من العَجَم، والفُرسُ من العَجَم، فأنا أَخْرِجُ هذه الفضيلة من العَجَم إلى العَجَم فهذا منه حَيْفٌ على نفسه، وشهادةٌ على نفسه؛ لأنَّه لو فَاخِرَ يونانٌ لم يستطع أن يدْعِي هذا للفُرس، ولا يمكنه أن يقول: نحن أيضاً عَجَم، وفضيلتكم في هذه الكتب والصناعة متصلة بنا، وراجعةٌ إلينا. ومتى قال جُبَّةً بالمكروه وقوبل بالقُدْع^(١)، وقيل له: صه، كما يقال للجاهل - إن لم تقل له: «احسأ» كما يقال - في كل الأحاديث، وإن أغفلته ظلمت نفسِي؛ ومن حابى خصمه غلب.

قال القاضي أبو حامد المَرْوَزِي: لو كانت الفضائل كُلُّها بعقدها وسنطها، ونظمتها ونشرها، مجموعةٌ للفُرس، ومصبوبةٌ على أُرؤُسهم، ومعلَّقةٌ بأذانهم، وطالعةٌ من جباههم؛ لكان لا ينبغي أن يذكروا شأنها، وأن يخرسوا عن دِقِّها وجِلِّها، مع نيكهم الأمهات والأخوات والبنات فإن هذا شيء كريةٌ بالطباع، وضعيفٌ بالسَّماع،

ومردود عند كل ذي فطرة سليمة، ومستبشع في نفس كل من له جبلة معتدلة. قال: ومن تمام طغيانهم، وشدة بهتانهم، أنهم زعموا أن هذا بإذن من الله تعالى، وبشريعة أتت من عند الله، والله تعالى حرم الخبائث من المطاعم فكيف حلل الخبائث من المنكوحات؟ قال: وكذب القوم، لم يكن زرادشت نبياً، ولو كان نبياً لذكره الله تعالى في عرض الأنبياء الذين نوّه بأسمائهم وردّد ذكرهم في كتابه، ولذلك قال النبي ﷺ: «سُئِلَ عَنْهُمْ سُنَّةُ أَهْلِ الْكِتَابِ» لأنه لا كتاب لهم من عند الله منزل على مُبْلَغ عنه. وإنما هو خرافة خدعهم بها زرادشت بقوة المَلِك الذي قَبْل ذلك منه وَحَمَلَ النَّاسَ عَلَيْهِ طَوْعاً وَكَرْهاً، وَتَرْغِيباً وَتَرْهِيباً؛ وكيف يبعث الله نبياً يدعو إلى إلهين اثنين؟ وهذا مستحيل بالعقل، وما خلق الله العقل إلا ليشهد بالحق للمُحِقِّ والباطل للمُبْطِل؛ ولو كان شرعاً لكان ذلك شائعاً عند أهل الكتابين، أعني اليهود والنصارى؛ وكذلك عند الصابئين، وهم كانوا أكثر الناس عناية بالأديان والبحث عنها، والتوصل إلى معرفة حقائقها، ليكونوا من دينهم على ثقة؛ فكيف صارت النصارى تعرف عيسى، واليهود تعرف موسى؛ ومحمد ﷺ - يذكرهما ويذكر غيرهما، كداود وسليمان ويحيى وزكريا، وغير هؤلاء، ولا يذكر زرادشت بالنبوة وأنه جاء من عند الله تعالى بالصدق والحق كما جاء موسى وعيسى...^(١) لَكُنِّي بُعِثْتُ نَاسِخاً لِكُلِّ شَرِيعَةٍ، وَمَجْدُداً لَشَرِيعَةِ اللَّهِ بِهَا مِنْ بَيْنِ الْعَرَبِ.

قال: وهذا بيانٌ نافع في كذبهم؛ وإنما جاءوا إلى وَهْيٍ فَرَقَعُوهُ، وإلى حرامٍ بالعقل فأباحوه، وإلى حَبِثٍ بالطبع فارتكبوه وإلى قَبِيحٍ في العادة فاستحسنوه.

وقد وجدنا في البهائم ما إذا أُتْرِزِيَ الفحلُ منها على أمه لم يطاوع، وإذا أُكْرِهَ وَخُدِعَ وَعَرِفَ غَضَبَ عَلَى أَهْلِهِ وَنَدَّ عَنْهُمْ، وَشَرَّرَ عَلَيْهِمْ؛ فما تقول في خُلِقَ لا تَرْضَاهُ الْبَهِيمَةُ، وَلَا تَطَاوَعُهُ فِيهِ الطَّبِيعَةُ، بَلْ يَأْبَاهُ حُسُّهُ مَعَ كُلِّوْلِهِ وَتَبْرُدُ شَهْوَتُهُ مَعَ اشْتِعَالِهَا، وَيَرْضَاهُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ مَعَ عُجْبِهِمْ بِعُقُولِهِمْ، وَكِبَرِهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ.

ولو كان زرادشت أقام لهم على هذه الخصلة اللثيمة والفعلة الذميمة كل آية وكل برهان، ونثر عليهم نجوم السماء، وأطلع لهم الشمس من المغرب، وفَتَّتْ لَهُمُ الْجِبَالَ، وَغَيَّضَ لَهُمُ الْبَحَارَ، وَأَرَاهُمْ الثَّرِيَّ تَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ تَخْتَرِقُ السَّكَّكَ وَتَشْهَدُ لَهُ بِالصِّدْقِ، لَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ بِالْعَقْلِ وَالْغَيْرَةِ وَالْحَمِيَّةِ وَالْأَنْفَةِ وَبِالتَّقَرُّزِ وَبِالتَّعَزُّزِ أَلَّا يَجِيبُوهُ إِلَى ذَلِكَ، وَيَشْكُوْا فِي كُلِّ آيَةٍ يَرَوْنَ مِنْهُ، وَيَقْتُلُوهُ، وَيَنْكُلُوْا بِهِ.

ولكن بمثل هذا العقل قبلوا من مَزْدَكَّ ما قبلوه مرة، ولو عاملوا زرادشت بما عاملوا به مزدك ما كان الأمر إلا واحداً، ولا كان الحق إلا منصوراً، ولا كان الباطل

(١) كلام سقط من الأصل.

إلا مقهوراً، ولكن اتَّفَقَ على مزدكٍ ملكٍ عاقلٍ فَوَضَعَ باطله، واتفق لزرادشت ملك ركيك فَرَفَعَ باطله؛ وما نَزَعَ اللَّهُ عنهم المُلْك إلا بالحق، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ثم قال: وبعدُ، فكلَّ شيءٍ خارجٍ من الحكمة الإلهية والعقلية والطبيعية فهو ساقطٌ بَهْرَج، ومردودٌ مردول، إذا فعله جاهلٌ عُذِر بالجهل، وإذا أتاه عالمٌ عُذِل للعلم.

قال: وكانت العرب بهذا الخلق الذميم، وهذا الفعل اللثيم، لو فعلته أَعَذَرَ، لأنهم أشدُّ غُلْمَةً من غيرهم وأكثرُ تهيجاً، وأقوى على البِضَاع، وأوثبٌ على النساءِ يَدْلِكُ على هذا غَزْلُهُمْ وعَشْقُهُمْ ونظْمُهُمْ ونثرهم وفراعْهُمْ وشهوْهُمْ، وتراهم مع هذه الدواعي والبواعث لم يستحسنوا هذا ولم يفعلوه، ولو أكرههم على هذا مكره ودعاهم إليه داع لما أطاعوه، ولذلك لم يَنْجُم منهم ناجم بالحيلة فدعا إلى هذا؛ ولو كان لكان أولَ مَنْ دُقَ رأسُه بالعمد، وُبِعِجَ بطنُه بالخِنْجَر؛ وما منعهم من هذا إلا الأنفس الكريمة، والطباع المعتدلة، والشكائم الشديدة، والأرواح العيِّفة، والعادات الرضيّة، والضرائب الطيبة؛ وكان وأدُ البنات عندهم أنقى للمعايير، وأطردَ للقبائح من هذا الذي استحسنته زرادشت وقبل منه الفُرس، وهم يدعون الحُكم والعلم والحزم والعزم، ولفرط جهلهم وغلبة شهوتهم غَفَلُوا عما يجوز أن يكون الله سبحانه مبيحاً له أو حاضراً، أو مطلقاً أو مانعاً، أو محللاً أو محرماً؛ هيهات ما كَلَّفَ الله أهلَ العقل القيامَ بالذِّين والتَّصَفِّحَ للحق من الباطل إلا لما شَرَفَهُم به في العاجل، وعَرَضَهُم له في الآجل؛ والعاقبة للمتقين.

قال أبو الحسن الأنصاري - وكان حاضراً -: الهند أوضح عذراً في هذا الحديث لأنهم جعلوه من باب القربة في بيوت الأصنام، وبلغوا مرادهم بهذه الخديعة، ولم ينسبوا إلى الله شيئاً منه، ولا استجازوا الكذب عليه، ولا علَّقوه أيضاً على نبي من عند الله، بل رأوه صواباً بالوضع ثم طابت أنفسهم من هذا الفعل بالمران والعادة. وبعد؛ فعقولهم مدخولة، والبارع منهم قليل، وهم إلى الإلفك والوهم والسَّحَر أميل، وفي أبوابها أدخل.

ثم قال أبو الحسن: انظر إلى جهل زرادشت في هذا الحُكم وإلى ضعف عقول الفُرس في قبولهم منه هذا الفعل، وخَيَّرَ بينها وبين عقول العرب، فإنهم قالوا: «اغترَبُوا لَا تَضُورُوا»^(١). واستفاض هذا منهم حتى سُمِعَ من صَاحِبِ الشريعة ﷺ، وذلك أَنَّ الضَّوْى مَكْرُوه؛ والعرب قالت هذا بالإلهام، لقرائحهم الصافية، وأذهانهم

(١) أي تزوجوا في بعاد الأنساب لا في الأقارب، لا تضوى أولادكم أي تضعف.

الواقدة، وطينتهم الحرّة، وأعراقهم الكريمة، وعاداتهم السليمة: وإنّما شعروا بهذا لأن الضوَى الواصلَ إلى الأبدان هو سارٍ في العقول، ولكن الفُرس عن هذا السرّ غافلون، ولا يفطن لهذا وأمثاله إلا الألمعيون الأحوذيون؛ ثم قال: أنشد الأصمعيّ عن العرب قولَ قائلهم في مدح صاحب له:

فتى لم تلده بنتٌ عمّ قريبةً فيَضوَى وقد يَضوَى رَديدُ الأقاربِ
قال: وقالت العرب: «أضواه حقّه»: إذا نَقَصَه. قال: وقال آخرٌ لولده: واللّه
لقد كفيّتك الضُّؤولة، واخترتُ لك الخؤولة.

وقال أيضاً: العرب تقول: «ليس أضوى من القرائب، ولا أنجب من الغرائب»
وقال الشاعر:

أنذرتُ من كان بعيدَ الهَمِّ تزويجَ أولادِ بناتِ العمِّ
ليس بناجٍ من ضوَى أو سُقمٍ وأنت إن أطعمته لا يَنمي
وقال الأسدّي يفتخر:

ولستُ بضائويٍّ تموج عظامُه ولادته في خالد بعد خالد
تردّد حتى عمّه خال أمه إلى نسب أدنى من السر واحد

ثم قال: والعرب لم تُرد بهذا إلا نقص الذهن والعقل، لأنّها لو أرادت نقصان الجسم لكانت مخطئة، لأنّهم يريدون سمانة الجسم مع السلامة والصلابة. ثم قال: وعلى هذا طباع الأرض، ولذلك يقال: إذا كثرت المؤتفكات زكت الأرض، لأنّ الرياح إذا اختلفت حولت تراب أرض إلى أرض، وإذا كان الاغتراب يؤثّر من التراب إلى التراب، فبالحريّ أن يؤثّر الإنسان في الإنسان بالاغتراب، لأن الإنسان أيضاً من التراب.

قال أبو حامد: فما ظنّك بقوم يجهلون آثار الطبيعة، وأسرار الشريعة؟ ما أذلّهم الله باطلاً، ولا سلبهم ملكهم ظالماً، ولا ضربهم بالخزي والمهانة إلّا جزاءً على سيرتهم القبيحة، وكذبهم على الله بالجرأة والمكابرة، وما الله بظلام للعبيد.

فلما بلغ القول مداه قال: لله درُّ هذا النَفْس الطويل والنَّفث الغزير! لقد كنتُ قَرِماً إلى هذا النوع من الكلام، ففرغَ نفسك لرسمه في جزء لأنظر فيه، وأشربَ النفس حلاوته، وأستنتجَ العقيم منه؛ فإنّ الكلام إذا مرّ بالسمع حلق، وإذا شارفَه البصر بالقراءة من كتاب أسفّ؛ والمحلق بعيد المَنال، والمُسِفّ حاضر العين، والمسموع إذا لم يملكه الحفظ تذكّر منه الشيء بعد الشيء بالوهم الذي لا انعقاد له، والخيال الذي لا معرّج عليه. فقلتُ: أفعل سامعاً مطيعاً - إن شاء الله -.

الليلة السابعة

ولما عدتُ إليه في مجلس آخر، قال: سمعتُ صياحك اليوم في الدار مع ابن عبيد، ففيم كنتما؟

قلتُ: كان يذكر أن كتابة الحساب أنفع وأفضل وأعلق بالملك، والسلطان إليه أحوج، وهو بها أغنى من كتابة البلاغة والإنشاء والتحرير، فإذا الكتابة الأولى جد، والأخرى هزل؛ ألا ترى أن التشاؤق والتفيهق والكذب والخداع فيها أكثر؛ وليس كذلك الحساب والتحصيل والاستدراك والتفصيل. قال: وبعد هذا فتلك صناعة معروفة بالمبدأ، موصولة بالغاية، حاضرة الجدوى، سريعة المنفعة؛ والبلاغة زخرفة وحيلة، وهي شبيهة بالسراب، كما أن الأخرى شبيهة بالماء. قال: ومن خساسة البلاغة أن أصحابها يُسترقعون ويُستحَمَقون؛ وكان الكتاب قديماً في دور الخلفاء ومجالس الوزراء يقولون: اللهم إنا نعوذ بك من رَقاعة المنشئين، وحمافة المعلمين، وركاكة النحويين، والمنشئ والمعلم والنحوي إخوة وإن كانوا لَعَلَات؛ والآفة تشملهم والعادة تجمعهم، والنقص يغمرهم، وإن اختلفت منازلهم، وتباينت أحوالهم. قال: ولو لم يكن من صناعة الإنشاء إلا أن المملكة العريضة الواسعة يُكتفى فيها بمنشئ واحد، ولا يُكتفى فيها بمائة كاتب حساب... وإذا كانت الحاجة إلى هذه أمس، كانت الأخرى في نفسها أخس؛ وبعد، فمصالح أحوال العامة والخاصة معلّقة بالحساب؛ على هذه الجديلة والوتيرة يجري الصغار والكبار والعليّة والسفلة، وما زال أهل الحزم والتجارب يحثّون أولادهم ومن لهم به عناية على تعلّم الحساب، ويقولون لهم: هو سلة الخبز. وهذا كلام مستفيض؛ ومن عبر عما في نفسه بلفظ ملحون أو محرّف أو موضوع غير موضعه وأفهم غيره، وبلغ به إرادته، وأبلغ غيره، فقد كفى؛ والزائد على الكفاية فضل والفضل يُستغنى عنه كثيراً، والأصل يُفتقر إليه شديداً، قال: ومن آفات هذه الكتابة أن أصحابها يُقرَفون بالريبة، ويُرْمون بالآفة، كآل الحسن بن وهب وآل ابن ثَوَابَة.

قال: هذه ملحمة منكرة؛ فما كان من الجواب؟

قلتُ: ما قام من مجلسه إلا بعد الذلّ والقَمَاءَة، وهكذا يكون حال من عاب القمر بالكلف، والشمس بالكسوف، وانتحل الباطل ونصر المبطل، وأبطل الحق

وزرى على المحقّ. قلت: أيها الرجل، قولك هذا كان يسلم لو كان الإنشاء والتحرير والبلاغة بائنة من صناعة الحساب والتحصيل والاستدراك وعمل الجماعة وعقد المؤامرة^(١). فأما وهي متصلة بها وداخله في جملتها ومشملة عليها وحاوية لها، فكيف يطرد حُكْمُك وتسلم دعواك؟ ألا تعلم أن أعمال الدواوين التي ينفرد أصحابها فيها بعمل الحساب فقيرة إلى إنشاء الكتب في فنون ما يصفونه ويتعاطونه؛ بل لا سبيل لهم إلى العمل إلا بعد تقدمة هذه الكتب التي مدارها على الإفهام البليغ والبيان المكشوف والاحتجاج الواضح، وذلك يوجد من الكاتب المنشئ الذي عبته وعرضته، وهذه الدواوين معروفة، والأعمال فيها موصوفة؛ وأنا أحصيتها لك كي تعلم أنك غالط وعن الصواب فيها منحرف:

فمنها ديوان الجيش، وديوان بيت المال، وديوان التوقيع والدار، وديوان الخاتم، وديوان الفَص، وديوان التقد والعيار ودور الضرب، وديوان المظالم وديوان الشرطة والأحداث؛ هذا إلى توابع هذه الدواوين مثل باب العين والمؤامرات، وباب النوادر والتواريخ، وإدارة الكتب ومجالس الديوان وقبل وبعد، كما يلزم كاتب الحساب أن يعرف وجوه الأموال حتى إذا جباها وحصلها عمل الحساب أعماله فيها، فلا يمكنه أن يجبي إلا بالكتب البليغة والحجج اللازمة واللطائف المستعملة، ومن تلك الوجوه الفَيء، وهو أرض العنوة وأرض الصلح وإحياء الأرض والقطائع والصفايا والمقاسمة والوضائع وجزية رؤوس أهل الذمة وصدقات الإبل والبقر والغنم وأخماس الغنائم والمعادن والركاز والمال المدفون، وما يخرج من البحر وما يؤخذ من التجار إذا مروا بالعاشر واللقة والضالة وميراث من لا وارث له ومال الصدقة؛ إلى غير ذلك من الأمور المحتاجة إلى المكاتبات البالغة على الرسوم المعتادة والعادات الجارية، كعهد يُنشأ في إصلاح البريد وتقسيط الشرب، وكتاب في العمارة وإعادة ما نقص منها، وفي حَزْرِ العلة والدياس، وفي الدوالي والدواليب والغرفات، وفي القلب والقسمة، وفي تقدير الخضر المبكرة وفي المساحة وفي الطراز، وفي الجوالي، وفي قبض فرائض الصدقات، وفي افتتاح الخراجات، إلى غير ذلك من كُتُب المحاسبين.

فإن قلت: «هذا كله مستغنى عنه» كابرته وبهتت، لأن مدار المال ودوره، وزيادته ووفوره على هذه الدواوين التي إما أن يكون حظ البلاغة فيها أكثر، وإما أن يكون أثر الحساب فيها أظهر، وإما أن يتكافأ؛ فعلى جميع الأحوال لا يكون الكاتب كاملاً، ولا لاسمه مستحقاً، إلا بعد أن ينهض بهذه الأثقال، ويجمع إليها أصولاً من الفقه مخلوطة بفروعها، وآيات من القرآن مضمومة إلى سعته فيها، وأخباراً كثيرة

(١) المؤامرة عمل تجمع فيه الأوامر الخارجة في مدة أيام الطمع ويوقع السلطان في آخره بإجازة ذلك.

مختلفة في فنون شتى لتكون عُدة عند الحاجة إليها، مع الأمثال السائرة والأبيات النادرة؛ والفقر البديعة؛ والتجارب المعهودة، والمجالس المشهودة، مع خطّ كبير مسبوك، ولفظ كوشي مُحوك؛ ولهذا عزّ الكامل في هذه الصناعة، حتى قال أصحابنا: ما نظرتُ أنّه اجتمع هذا كله إلّا لجعفر بن يحيى فإن كتابته كانت سواديّة، وبلاغته سحباتيّة، وسياسته يونانيّة، وآدابه عربيّة، وشماله عراقيّة؛ أفلا ترى كيف غرق الحساب في غمار هذه الأبواب؟

ثم اعلم أن البليغ مُستَمِل بلاغته من العقل، ومأخذه فيها من التمييز الصحيح، وليس كذلك الحساب في متناوله فلو ظنّ ظانّ بأن مدار المُلك على الحساب - فهو صحيح - ولكن بعد بلاغة المنشئ، لأن السلطان يأمر وينهى ويلاطف ويخاطب ويحتج ويعنف ويوعد ويعد ويضمن ويمني ويعلق الأمل ويؤكد الرجاء ويحسم المأذّة الضارة ويذيق الرعيّة حلاوة العدل ويحبّتهم مرارة الجور، ثم يجبي، فإذا جبي احتاج إلى الحساب حتى يكون بالحاصل عالماً، ثم يتقدّم بتوزيع ذلك على الحساب حتى يكون من الغلط آمناً، فانظر إلى المنزلتين كيف اختلفتا؟ وكيف حصلت المزيّة لإحادهما؛ ولو أنصفتَ لعلمتَ أنّ الصناعة جامعة بين الأمرين، أعني الحساب والبلاغة؛ والإنسان لا يأتي إلى صناعة فيشققها نصفين ويشرف أحد النصفين على الآخر.

وأما قولك: «إحدى الصناعتين هزلٌ والأخرى جدّ» فيسما سوّلّت لك نفسك على البلاغة، هي الجدّ، وهي الجامعة لثمرات العقل، لأنّها تُحقّق الحقّ وتُبطل الباطل على ما يجب أن يكون الأمر عليه؛ ثم تحقيق الباطل وإبطال الحقّ لأغراض تختلف، وأغراض تأتلف، وأمور لا تخلو أحوال هذه الدنيا منها من خير وشرّ، وإباء وإذعان، وطاعة وعصيان، وعدل وعدول^(١)، وكفر وإيمان، والحاجة تدعو إلى صانع البلاغة وواضع الحكمة وصاحب البيان والخطابة؛ وهذا هو حدّ العقل والآخر حدّ العمل.

وأما قولك: «الإنشاء صناعة مجهولة المبدأ، والحساب معروف المبدأ» فقد خرّقت، لأنّ مبدأها من العقل، وممرّها على اللفظ، وقرارها في الخطّ؛ وأنت إذا قلتَ هذا دللتَ من نفسك على أنّه ليس لك ما تبصر به هذا المبدأ الشريف وهذا الأوّل اللطيف.

وأما قولك: «والبلاغة زخرفة وهي شبيهة بالسراب» فقد أوضحنا لك فيه ما كفى، فإن لم يكف فأنت محتاج إلى بيّنة أخرى.

وأما قولك: «إن أصحابها يُسترقعون» فهذا شنع من القول، ولو عرفتَ الصدق فيه لم تنس به ولم تنطق بحرف منه، فإن فيه زراية على السلف الصالح والصدر

الأول، ولو وجب أن يُستترَق البليغ إذا كان عاقلاً، لوجب أن يُستعقل العيُّ إذا كان أحمق؛ وهذا خُلف.

وأما قولك: «المنشئ والمعلّم والنحويّ إخوة في الركافة» فما يتعلّم الناس إلّا من المعلّم والعالم والنحويّ وإن ندر منهم واحد قليل البضاعة من الحقّ.

وأما قولك: «إن المملّكة تكتفي بمنشئ واحد» فقد صدقت، وذلك أن هذا الواحد في قوّته يفي بأحاد كثيرة، وهؤلاء الآحاد ليس في جميعهم وفاء بهذا الواحد، وهذا عليك لا لك. لكن بقي أن تفهم أنك محتاج إلى الأساكفة أكثر مما تحتاج إلى العطّارين، ولا يدلّ هذا على أن الإسكاف أشرف من العطّار، والعطّار دون الإسكاف؛ والأطباء أقلّ من الخيّاطين، ونحن إليهم أحوج، ولا يدلّ على أن الطبيب دون الخيّاط.

وأما قولك: «ما زال الناس يحثّون أولادهم على تعلّم الحساب ويقولون: هو سلة الخبز» فهو كما قلت، لأنّ الحاجة إليه عامّة للكبار والصغار؛ وأشرف الصناعات يحتاج إليها أشرف الناس، وأشرف الناس الملّك، فهو محتاج إلى البليغ والمنشئ والمحرّر، لأنّه لسانه الذي به ينطق، وعينه التي بها يبصر، وعيّنهُ التي منها يستخرج الرأي ويستبصر في الأمر، ولأنّه بهذه الخاصّة لا يجوز أن يكون له شريك، لأنّه حامل الأسرار، والمحدّث بالمكنونات، والمفضّي إليه ببنات الصدور.

وأما قولك: «من عبّر عما في نفسه بلفظ ملحون أو محرّف وأفهم غيره فقد كفى» فكيف يصحّ هذا الحكم ويُقبل هذا الرأي؟ والكلام يتغيّر المراد فيه باختلاف الإعراب، كما يتغيّر الحكم فيه باختلاف الأسماء، وكما يتغيّر المفهوم باختلاف الأفعال؛ وكما ينقلب المعنى باختلاف الحروف؛ ولقد قال رجل بالرّئيّ كان نبيلاً في حاله جليلاً في مرتبته عظيماً عند نفسه: «اقعد حتّى تتغذى بنا» وهو يريد: «حتّى تتغذى معنا»؛ فانظر إلى هذا المُحال الذي ركه بلفظه وإلى المراد الذي جانبّه بجهله؛ ولهذا نظائر غير خافية عليك ولا ساقطة دونك وكفى بالبلاغة شرفاً أنك لم تستطع تهجينها إلّا بالبلاغة، ولم تهتد إلى الكلام عليها إلّا بقوّتها؛ فانظر كيف وجدت في استقلالها بنفسها ما يُقلّها ويُقلّ غيرها؛ وهذا أمر بديع وشأن عجيب.

وأما قولك: «ومن آفاتنا أنّ أصحابها يُقرّفون بالربة ويُنالون بالعيب» فهذا ما لا يستحقّ الجواب، وما يضّرّ الشمس نباح الكلاب؛ وصيانة اللسان عن هذا النوع أحسن؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]؛ وقال عمر بن الخطّاب - رضي الله عنه -: لو كان المرء أقوم من قذح لوجد له غامز. وآل ابن وهب وابن ثوبة كانوا أنبل وأفضل وأعقل من أن يُظنّ بهم ما لا يُظنّ بخساس

العبيد وسفهاء الناس ودافعة^(١) الرعيّة وسِفْلَة العامّة؛ على أنا ما سمعنا هذا إلّا في مجلس ابن عبّاد، منه وممّن كان يَخِيطُ في هواه، ويتحرّى بمثل هذه الأحاديث رضاه؛ وحسده لهم في صناعتهم يبعثه على هذه الأكاذيب عليهم؛ فالعجيب أنه يظن أن كذبه على غيره ينفي الصدق عن نفسه؛ ولو نزه لسانه ومجلسه ومذهبه وأبوتّه لكان أولى به وأزین له، ولكن النعمة والقدرة إذا عَدِمَتَا عقلاً سائساً وحزماً حارساً وديناً متيناً وطريقاً قوياً أوزدتا ولم تُصدرا وحَذَلتا ولم تَنْصُرا؛ ونعوذ بالله من نعمة تُحوِرُ بلاءً، ومرحباً ببلاءٍ يورث يقظة ويكون تمحيصاً لما نقص من التقصير؛ ولكن من هذا الذي يَشْرَبُ فلا يَسْكُرُ ولا يَمَلُّ؟ ومن هذا الذي إذا سَكِرَ عَقَلَ؟ ومن هذا الذي إذا صحا لا يعتقب من شرايه خُماراً يصدّع الرأس ويمكن الوسواس؟

فقال: هذه جملة قامعة لمن ادّعى دعواه أو نحا منحاها؛ وأتى لك هذا؟ لِمَ لا تُدَاخِلُ صاحبَ ديوانٍ ولمَ تَرْضَى لنفسك بهذا اللبوس؟

فقلت: «أنا رجلٌ حبُّ السلامة غَالِبٌ عليّ، والقناعة بالطفيف محبوبة عندي».

فقال: كُنيتَ عن الكسل بحبِّ السلامة، وعن الفُسولة بالرضا باليسير.

قلت: إذا كنتَ لا أَصِلُ إلى السلامة إلّا بالفُسولة، ولا أَتَطعمُ الراحة إلّا بالكسل، فمرحباً بهما.

فقال: لكلّ إنسان رأيٌ واختيارٌ وعادةٌ ومنشأٌ ومألوفٌ وقُرْناءٌ متى زُحِزِحَ عنها قَلْبٌ، ومتى أُرِيغَ على سواها فَرِقٌ؛ أَظُنُّ أَنَّهُ قد نَصَفَ اللَّيْلَ. قلتُ: لعلّه. قال: في الدّعة؛ قد خبأتُ لك مسألة، وسألقِيها عليك بعدها - إن شاء الله تعالى - وانصرفْتُ.

الليلة الثامنة

وقال لي مرة أخرى: أوصل وهب بن يعيش الرقيّ اليهوديّ رسالة يقول في عرضها بعد التقريظ الطويل العريض: إن هنا طريقاً في إدراك الفلسفة مذلّلةً مسلوكةً مختصرةً فسيحةً، ليس على سالكها كدٌ ولا شقٌّ في بلوغ ما يريد من الحكمة ونيل ما يطلب من السعادة وتحصيل الفوز في العاقبة؛ وإن أصحابنا طوّلوا وهوّلوا وطرحوا الشوك في الطريق، ومنّعوا من الجواز عليه غشاً منهم وبخلاً ولؤمٌ طباع وقلة نصح وإتباعاً للطالب وحسداً للراغب، وذلك أنّهم اتخذوا المنطق والهندسة وما دخل فيهما معيشةً ومكسبةً، ومأكلةً ومشربةً، فصار ذلك كسور من حديد لطلاب الحكمة والمحبين للحقيقة والمتصفّحين لأثناء العالم، وكلاماً هذا معناه، وإلى هذا يرجع مغزاه.

فكان من الجواب: قد عرفتُ مذهب ابن يعيش في هذا الباب، وهو جاري، وكتب هذه الرسالة على هذا الطراز بالأمس إلى المليك السعيد سنة سبعين، وتقرب بها، ونفعته بالمسألة والتفقد له، فإنّه شديد الفقر، ظاهر الخصاصة، لاصق بالدقّعاء؛ وللذي قاله وادّعه، وقصده وانتحاه، وجه واضح وحجة ظاهرة؛ وللذي قاله أصحابنا - أعني مخالفه - وجه أيضاً وتأويل وللقولين أنصار وحُماة، وحفظة ورعاة.

قال: هات - على بركة الله - فإنّي أحب أن أسمع في هذا الخطب كل ما فيه وأكثر ما يتصل به؛ فكان من الجواب أن ابن يعيش يريد بهذه الخطبة أن عمر الإنسان قصير، وعلم العالم كثير، وسره مغمور؛ وكيف لا يكون كذلك وهو ذو صفائح مرگبة بالوضع المحكم، وذو نضائد مزينة بالتأليف المعجب المتقن؛ والإنسان الباحث عنه وعمّا يحتويه ذو قوى متقاصرة، وموانع معترضة، ودواع ضعيفة، وإنه مع هذه الأحوال منتبه بالحس، حالم بالعقل، عاشق للشاهد، ذاهل عن الغائب، مستأنس بالوطن الذي ألفه ونشأ فيه، مستوحش من بلد لم يسافر إليه ولم يلم به وإن كان صدر عنه، فليس له بذلك معرفة باقية ولا ثقة تامة؛ وإن الأولى بهذا الإنسان المنعوت بهذا الضعف والعجز أن يلتمس مسلكاً إلى سعادته ونجاته قريباً ويعتصم بأسهل الأسباب على قدر جهده وطوقه؛ وإن أقرب الطرق وأسهل الأسباب هو في معرفة الطبيعة والنفس والعقل والإله تعالى، فإنه متى عرف هذه الجملة بالتفصيل، واطّلع على هذا التفصيل بالجملة، فقد فاز الفوز الأكبر ونال الملك الأعظم، وكفي مؤونة عظيمة في

قراءة الكتب الكبار ذوات الورق الكثير، مع العناية المتّصلة في الدرس والتصحيح والنّصّب في المسألة والجواب، والتنقيح عن الحق والصواب.

وهذا الذي قاله ابن يعيش ليس بحيف ولا خارج عن حومة الحق، وإن كان الأمر فيه أيضاً صعباً وشاقاً وهائلاً وعاملاً، ولكن ليس لكلّ أحد هذه القوة الفائضة، وهذه الخصوصية الناهضة؛ وهذا الاستبصار الحسّن، وهذا الطبع الوقاد، والذهن المنقّاد، والقريحة الصافية والاستبانة والتأمل، لأن هذه القوة الإلهية، فإن لم تكن إلهية فهي ملكية؛ وإن لم تكن ملكية فهي في أفق البشرية، وليس يوجد صاحب هذا النعت إلّا في الشاذّ النادر، وفي دهر مديد بين أمة جمّة العدّد؛ والفائق من كلّ شيء والبائن من كلّ صنف عزيز في هذا العالم الوحشي، كما أن الرديء والفاقد معدوم في هذا العالم الإلهي، ويمكن أن يقال بالمثل الأدنى: إن من يتكلّم بالإعراب والصحة ولا يلحن ولا يخطئ ويجري على السليقة الحميدة والضريبة السليمة، قليل أو عزيز، وإنّ الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية وهذا المنشأ إلى أن يتعلّم النحو ويقف على أحكامه، ويجري على منهاجه، ويفي بشروطه في أسماء العرب وأفعالها وحروفها وموضوعاتها ومستعملاتها ومهملاتها؛ ومتى اتفق إنسان بهذه الحلية وعلى هذا النّجار، فلعمري إنّ غنيّ عن تطويل النحويّين كما يستغني قارضُ الشّعْر بالطبع عن علم العروض، وهكذا يستغني صاحب تلك القوة التي أشار إليها ابن يعيش عن ذلك، ولكن أين ذاك الفرد والشاذّ والنادر؟ فإن حضر فما تفعل معه إلّا أن تقلّده وتأخذ عنه وتتبعه.

وإنّما المدار على أن تكون أنت بهذا الكمال حائزاً لهذه الغاية، ولا سبيل لك إليها من تلقاء نفسك، وإنما هو شيء يأتي من تلقاء غيرك، فإذن بالضرورة وبالواجب ينبغي أن تخطو على آثار المنطقيّين والطبيعيّين والمهندسين بالزحف والعناء والتكلف والدّءوب حتى تصير متشبّهاً بذلك الرجل الفاضل والواحد الكامل والبدیع النادر؛ فقد بان من هذا القدر صواب ما أشار إليه ابن يعيش وانكشف أيضاً وجه ما حثّ عليه مخالفوه؛ ولا عيب على المنقوص أن يطلب الزيادة ببذل المجهود، وإن الكامل مربوط بما مُنح من العطية من غير طلب.

وأما قوله في صدر كلامه: «إن القوم صدّوا عن الطريق وطرحوا الشوك فيه، واتخذوا نشر الحكمة فخاً للمثالة العاجلة»، فما أبعد، بل قارب الحقّ فإن «متى» كان يُملي ورقة بدرهم مقتدرٍ وهو سكران لا يعقل، ويتهمّكم، وعنده أنّه في ربح، وهو من الأخسرين أعمالاً، الأسفلين أحوالاً.

ثم إنّي أيّها الشيخ - أحيّاك الله لأهل العلم وأحيى بك طالبيه - ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى واختصرتها.

فقال لي: اكتب هذه المناظرة على التمام فإنّ شيئاً يجري في ذلك المجلس النبیه بین هذین الشیخین بحضرة أولئك الأعلام ينبغي أن يُغتَمَّ سماعه، وتوَعَى فوائده، ولا يُتَهاوَنَ بشيء منه.

فكتبتُ: حدّثني أبو سعيد بلُمع من هذه القصّة. فأما علي بن عيسى الشيخ الصالح فإنّه رواها مشروحة.

لما انعقد المجلس سنة ستّ وعشرين وثلاثمائة، قال الوزير ابن الفرات للجماعة - وفيهم الخالدي وابن الأخشاد والكتبي وابن أبي بشر وابن رباح بن كعب وأبو عمرو قدامة بن جعفر والزهرّي وعلي بن عيسى الجراح وابن فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحيى العلوي ورسول ابن طغج من مصر والمرزبانيّ صاحب آل سامان -: ألا يتندب منكم إنسان لمناظرة متى في حديث المنطق، فإنّه يقول: لا سبيل إلى معرفة الحقّ من الباطل والصدق من الكذب والخير من الشرّ والحجّة من الشبهة والشكّ من اليقين إلا بما حوينا من المنطق وملكاناه من القيام به، واستفدنا من واضعه على مراتبه وحدوده، فاطلعنا عليه من جهة اسمه على حقائقه. فأحجم القوم وأطرقوا. قال ابن الفرات: واللّه إن فيكم لَمَن يفي بكلامه ومناظرته وكسر ما يذهب إليه وإنّي لأعذّكم في العلم بحاراً، وللذين وأهله أنصاراً، وللحقّ وطّالابه مناراً؛ فما هذا الترامز والتغامز اللذان تجلّون عنهما؟ فرفع أبو سعيد السيرافيّ رأسه فقال: اعذر أيّها الوزير، فإن العلم المصون في الصدر غير العلم المعروض في هذا المجلس على الأسماع المُصَيّخة والعيون المحدّقة والعقول الحاذة والألّباب الناقدة؛ لأنّ هذا يستصحب الهيبة، والهيبة مكسرة، ويجتلب الحياء، والحياء مغلبة؛ وليس البراز في معركة خاصّة كالْمِصْباح في بقعة عامّة.

فقال ابن الفرات: أنت لها أبا سعيد، فاعتذارك عن غيرك يوجب عليك الانتصار لنفسك، والانتصار في نفسك راجع إلى الجماعة بفضلِكَ. فقال أبو سعيد: مخالفة الوزير فيما رسمه هُجْنَة، والاحتجاجُ عن رأيه إخلالٌ إلى التقصير؛ ونعوذ باللّه من زلّة القَدَم، وإياه نسأل حُسْنَ المعونة في الحرب والسّلم.

ثمّ واجه متى فقال: حدّثني عن المنطق ما تعني به؟ فإنّا إذا فهمنا مرادك فيه كان كلامنا معك في قبول صوابه وردّ خطئه على سننٍ مرصّي وطريقة معروفة.

قال متى: أعني به أنّه آلة من آلات الكلام يُعرَف بها صحيح الكلام من سقيمه، وفاسدُ المعنى من صالحه، كالميزان، فإنّي أعرف به الرُّجحان من النقصان، والشائل من الجانح.

فقال أبو سعيد: أخطأت، لأنّ صحيح الكلام من سقيمه يُعرَف بالنظم المألوف والإعراب المعروف إذا كنّا نتكلّم بالعربيّة؛ وفاسد المعنى من صالحه يُعرَف بالعقل إذا كنّا نبحث بالعقل؛ وهَبْكَ عرفتَ الراجح من الناقص من طريق الوزن، فمن لكّ

بمعرفة الموزون أيما هو حديد أو ذهب أو شبه^(١) أو رصاص؟ فأراك بعد معرفة الوزن فقيراً إلى معرفة جوهر الموزون وإلى معرفة قيمته وسائر صفاته التي يطول عدّها؛ فعلى هذا لم ينفعك الوزن الذي كان عليه اعتمادك، وفي تحقيقه كان اجتهدك، إلّا نفعاً يسيراً من وجه واحد، وبقيت عليك وجوه، فأنت كما قال الأول:

حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وبعد، فقد ذهب عليك شيء هاهنا، ليس كل ما في الدنيا يوزن، بل فيها ما يوزن، وفيها ما يُكال، وفيها ما يُذرع، وفيها ما يُمسح وفيها ما يُحزّر وهذا وإن كان هكذا في الأجسام المريئة، فإنه على ذلك أيضاً في المعقولات المقررة؛ والإحساسات ظلال العقول تحكيها بالتقريب والتباعد، مع الشبه المحفوظة والمماثلة الظاهرة.

ودع هذا؛ إذا كان المنطق وَضَعَهُ رجل من يونان على لغة أهلها واصطلاحهم عليها وما يتعارفونه بها من رسومها وصفاتها، فمن أين يلزم التزك والهند والفرس والعرب أن ينظروا فيه ويتخذوه قاضياً وحكماً لهم وعليهم، ما شهد لهم به قبلوه، وما أنكره رفضوه؟

قال متى: إنما لزم ذلك لأن المنطق بحث عن الأغراض المعقولة والمعاني المدركة، وتصفّح للخواطر السانحة والسوانح الهاجسة؛ والناس في المعقولات سواء ألا ترى أن أربعة وأربعة ثمانية سواء عند جميع الأمم، وكذلك ما أشبهه.

قال أبو سعيد: لو كانت المطلوبات بالعقل والمذكورات باللفظ ترجع مع شعبها المختلفة وطرائقها المتباينة إلى هذه المرتبة البينة في أربعة وأربعة وأتتهما ثمانية، زال الاختلاف وحضر الاتفاق، ولكن ليس الأمر هكذا، ولقد موّعت بهذا المثال، ولكم عادة بمثل هذا التمويه.

ولكن مع هذا أيضاً إذا كانت الأغراض المعقولة والمعاني المدركة لا يوصل إليها إلا باللغة الجامعة للأسماء والأفعال والحروف، أفليس قد لزمّت الحاجة إلى معرفة اللغة؟ قال: نعم. قال: أخطأت، قل في هذا الموضع: بلى. قال: بلى، أنا أقلدك في مثل هذا. قال: أنت إذا لست تدعونا إلى علم المنطق، إنما تدعو إلى تعلم اللغة اليونانية وأنت لا تعرف لغة يونان، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها؟ وقد عَفَتْ منذ زمان طويل، وباد أهلها، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها، ويتفاهمون أغراضهم بتصاريقها؛ على أنك تنقل من السريانية، فما تقول في معان متحوّلة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية، ثم من هذه إلى أخرى عربية؟

قال متى: يونان وإن بادت مع لغتها، فإن الترجمة حفظت الأغراض وأدّت المعاني، وأخلصت الحقائق.

قال أبو سعيد: إذا سلّمت لك أنّ الترجمة صدقت وما كذبت، وقوّمت وما حرّفت، ووَزنت وما جَزفت، وأنها ما التاثت ولا حافت، ولا نقصت ولا زادت، ولا قدّمت ولا أخّرت، ولا أخلت بمعنى الخاصّ والعامّ ولا بأخصّ الخاصّ ولا بأعمّ العامّ - وإن كان هذا لا يكون، وليس هو في طبائع اللغات ولا في مقادير المعاني - فكأنك تقول: لا حجة إلا عقول يونان، ولا برهان إلا ما وضعوه، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه.

قال متى: لا، ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه، وعن كلّ ما يتصل به وينفصل عنه، وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر وانتشر ما انتشر وفشا ما فشا ونشأ ما نشأ من أنواع العلم وأصناف الصنائع؛ ولم نجد هذا لغيرهم.

قال أبو سعيد: أخطأت وتعصّبت ومِلت مع الهوى، فإنّ علّم العالم مبثوث في العالم بين جميع من في العالم، ولهذا قال القائل:

العلم في العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جدّ الأرض؛ ولهذا غلب علّم في مكان دون علم، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة؛ وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة؛ ومع هذا فإنما كان يصحّ قولك وتسلم دعواك لو كانت يونان معروفة من بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة، والفطنة الظاهرة، والبنية المخالفة، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا لما قدّروا، ولو قصّدوا أن يكذبوا ما استطاعوا وأن السكينة نزلت عليهم، والحقّ تكفل بهم، والخطأ تبرأ منهم؛ والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم، والردائل بعدت من جواهرهم وعروقهم؛ وهذا جهل ممّن يظنّه بهم، وعناد ممّن يدّعيه لهم؛ بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ويخطئون في أشياء، ويعلمون أشياء ويجهلون أشياء، ويصدقون في أمور ويكذبون في أمور، ويحسنون في أحوال ويسئون في أحوال؛ وليس واضح المنطق يونان بأسرها، إنما هو رجل منهم، وقد أخذ عمّن قبله كما أخذ عنه من بعده؛ وليس هو حجة على هذا الخلق الكثير والجّم الغفير، وله مخالفون منهم ومن غيرهم؛ ومع هذا فالاختلاف في الرأي والنظر والبحث والمسألة والجواب سنخ^(١) وطبيعة، فكيف يجوز أن يأتي رجل بشيء يرفع به هذا الخلاف أو يحلّله أو يؤثّر فيه؟ هيهات هذا محال، ولقد بقي العالم بعد منطقته على ما كان عليه قبل منطقته؛ فامسح وجهك بالسלוّة عن شيء لا استطاع لأنّه منعقد بالفطرة والطباع؛ وأنت لو فرغت بالك وصرفت عنايتك إلى معرفة هذه اللّغة التي تحاورنا بها، وتجارينا فيها، وتدارس أصحابنا بمفهوم أهلها وتشرح كتب يونان بعبارة أصحابها، لعلمت أنّك غني عن معاني يونان كما أنّك غني عن لغة يونان.

وها هنا مسألة، تقول: إن الناس عقولهم مختلفة، وأنصباؤهم منها متفاوتة. قال: نعم. قال: وهذا الاختلاف والتفاوت بالطبيعة أو بالاكتساب؟ قال: بالطبيعة. قال: فكيف يجوز أن يكون هاهنا شيء يرتفع به هذا الاختلاف الطبيعي والتفاوت الأصلي؟ قال متى: هذا قد مر في جملة كلامك آنفاً. قال أبو سعيد: فهل وصلته بجواب قاطع وبيان ناصع؟ ودع هذا؛ أسألك عن حرف واحد، وهو دائر في كلام العرب، ومعانيه متميزة عند أهل العقل؛ فاستخرج أنت معانيه من ناحية منطق أرسطاطاليس الذي تدل به وتباهي بتفخيمه، وهو (الواو) ما أحكامه؟ وكيف مواقعه؟ وهل هو على وجه أو وجوه؟

فبهت متى وقال: هذا نحو، والنحو لم أنظر فيه، لأنه لا حاجة بالمنطقي إليه، وبالنحوي حاجة شديدة إلى المنطق، لأن المنطق يبحث عن المعنى، والنحو يبحث عن اللفظ، فإن مر المنطقي باللفظ فبالعرض، وإن عثر النحوي بالمعنى فبالعرض والمعنى أشرف من اللفظ، واللفظ أوضع من المعنى.

فقال أبو سعيد: أخطأت، لأن الكلام والنطق واللغة واللفظ والإفصاح والإعراب والإبانة والحديث والإخبار والاستخبار والعرض والتمني والنهي والحض والدعاء والنداء والطلب كلها من واد واحد بالمشاكلة والمماثلة، ألا ترى أن رجلاً لو قال: «نطق زيد بالحق ولكن ما تكلم بالحق، وتكلم بالفحش ولكن ما قال الفحش، وأعرب عن نفسه ولكن ما أفصح، وأبان المراد ولكن ما أوضح، أو فاه بحاجته ولكن ما لفظ، أو أخبر ولكن ما أنبا»، لكان في جميع هذا محرفاً ومناقضاً وواضعاً للكلام في غير حقه، ومستعمل اللفظ على غير شهادة من عقله وعقل غيره؛ والنحو منطق ولكنه مسلوخ من العربية، والمنطق نحو، ولكنه مفهوم باللغة، وإنما الخلاف بين اللفظ والمعنى أن اللفظ طبيعي والمعنى عقلي؛ ولهذا كان اللفظ بائداً على الزمان، لأن الزمان يقفو أثر الطبيعة بأثر آخر من الطبيعة ولهذا كان المعنى ثابتاً على الزمان، لأن مستملي المعنى عقل والعقل إلهي، ومادة اللفظ طينية، وكل طيني متهايت؛ وقد بقيت أنت بلا اسم لصناعتك التي تتحلها، وأتلك التي تزهي بها، إلا أن تستعير من العربية لها اسماً فتعار، ويسلم لك ذلك بمقدار؛ وإذا لم يكن لك بد من قليل هذه اللغة من أجل الترجمة فلا بد لك أيضاً من كثيرها من أجل تحقيق الترجمة واجتلاب الثقة والتوقي من الخلّة اللاحقة.

فقال متى: يكفيني من لغتكم هذه الاسم والفعل والحرف، فإني أتبلغ بهذا القدر إلى أغراض قد هدبثها لي يونان.

قال أبو سعيد: أخطأت، لأنك في هذا الاسم والفعل والحرف فقير إلى وصفها وبنائها على الترتيب الواقع في غرائز أهلها؛ وكذلك أنت محتاج بعد هذا إلى حركات هذه الأسماء والأفعال والحروف، فإن الخطأ والتحريف في الحركات كالخطأ والفساد

في المتحرّكات، وهذا باب أنت وأصحابك ورهطك عنه في غفلة؛ على أنّ هاهنا سرّاً ما علق بك، ولا أسفر لعقلك؛ وهو أن تعلم أن لغة من اللغات لا تُطابق لغةً أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها، في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمتها وتأخيرها، واستعارتها وتحقيقها، وتشديدتها وتخفيفها، وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها، ووزنها وميلها، وغير ذلك ممّا يطول ذكره؛ وما أظنّ أحداً يدفع هذا الحكم أو يشكّ في صوابه ممن يرجع إلى مُسكّة من عقل أو نصيب من إنصاف، فمن أين يجب أن تثق بشيء تُرجم لك على هذا الوصف؟ بل أنت إلى تعرّف اللغة العربيّة أحوجّ منك إلى تعرّف المعاني اليونانية؛ على أنّ المعاني لا تكون يونانية ولا هندية، كما أنّ اللغات تكون فارسيّة وعربيّة وتركيّة؛ ومع هذا فإنّك تزعم أن المعاني حاصلة بالعقل والفحص والفكر، فلم يبق إلّا أحكام اللّغة، فلم تُزري على العربيّة وأنت تشرح كتب أرسطوطاليس بها، مع جهلك بحقيقتها؟

وحذّني عن قائل قال لك: حالي في معرفة الحقائق والتصفح لها والبحث عنها حال قوم كانوا قبل واضع المنطق، أنظر كما نظروا، وأتدبّر كما تدبّروا، لأنّ اللغة قد عرفتها بالمنشأ والوراثه، والمعاني نقرت عنها بالنظر والرأي والاعتقاب والاجتهاد. ما تقول له؟ أتقول: إنّه لا يصحّ له هذا الحكم ولا يستتبّ هذا الأمر، لأنّه لا يعرف هذه الموجودات من الطريق التي عرفتها أنت؟ ولعلّك تفرح بتقليده لك - وإن كان على باطل - أكثر ممّا تفرح باستبداده وإن كان على حق؛ وهذا هو الجهل المبين، والحكم المّشين.

ومع هذا، فحذّني عن الواو ما حكمه؟ فإني أريد أن أبين أنّ تفخيمك للمنطق لا يغني عنك شيئاً، وأنت تجهل حرفاً واحداً في اللغة التي تدعو بها إلى حكمة يونان، ومنّ جهل حرفاً أمكن أن يجهل حروفاً، ومن جهل حروفاً جاز أن يجهل اللغة بكمالها، فإن كان لا يجهلها كلّها ولكن يجهل بعضها، فلعلّه يجهل ما يحتاج إليه، ولا ينفعه فيه علم ما لا يحتاج إليه. وهذه رتبة العامّة أو رتبة من هو فوق العامّة بقدر يسير؛ فلم يتأبى على هذا ويتكبّر، ويتوهّم أنه من الخاصّة وخاصّة الخاصّة، وأنه يعرف سرّ الكلام وغامض الحكمة وخفيّ القياس وصحيح البرهان؟

وإنما سألتك عن معاني حرف واحد، فكيف لو نثرت عليك الحروف كلّها، وطالبك بمعانيها ومواضعها التي لها بالحق، والتي لها بالتجوّز؛ سمعتم تقولون: إن «في» لا يعرف النحويون مواقعها، وإنما يقولون: هي «للوعاء» كما يقولون: «إن الباء للإلصاق»؛ وإن «في» تقال على وجوه: يقال: «الشيء في الإناء» «والإناء في المكان» «والسائس في السياسة» «والسياسة في السائس».

أترى أن هذا التشقيق هو من عقول يونان ومن ناحية لغتها؟ ولا يجوز أن يُعقل هذا بعقول الهند والترك والعرب؟ فهذا جهل من كلّ من يدّعيه، وخطل من القول الذي أفاض

فيه ؛ النحوِيُّ إذا قال « في » للوعاء فقد أفصح في الجملة عن المعنى الصحيح ، وكُنِيَ مع ذلك عن الوجوه التي تظهر بالتفصيل ؛ ومثل هذا كثير ، وهو كافٍ في موضع التَّكْنِيَةِ .

فقال ابن الفرات : أيتها الشيخ الموقِّق ، أجبه بالبيان عن مواقع « الواو » حتى تكون أشدَّ في إفحامه ، وحقِّق عند الجماعة ما هو عاجز عنه ، ومع هذا فهو مشنَّع به .

فقال أبو سعيد : للواو وجوه ومواقع : منها معنى العطف في قولك : « أكرمت زيدا وعمراً » ومنها القسم في قولك : « والله لقد كان كذا وكذا » ومنها الاستئناف في قولك : « خرجتُ وزيد قائم » لأن الكلام بعده ابتداء وخبر ، ومنها معنى رُبَّ التي هي للتقليل نحو قولهم ^(١) :

وقاتِمِ الأعماقِ خاوي المختَرَقِ

ومنها أن تكون أصلية في الاسم ، كقولك : واصلْ وابدأْ وافدْ ، وفي الفعل كذلك ، كقولك : وِجِلْ يُوَجِّلْ ؛ ومنها أن تكون مقحمة نحو قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمُوا وَلَكُمُ اللَّيْلُ وَلِلْجَنِّ نَدِيَّتُهُ ﴾ [الصفات : ١٠٣ ، ١٠٤] ، أي ناديناها ؛ ومثله قول الشاعر ^(٢) :

فلما أجزنا ساحةَ الحيِّ وانتَحَى

المعنى : انتحى بنا ؛ ومنها معنى الحال في قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي آلِهِمْ وَكَلَهْلًا ﴾ [آل عمران : ٤٦] أي يكلم الناس في حال كهولته ؛ ومنها أن تكون بمعنى حرف الجرّ ، كقولك : استوى الماء والخشبة أي مع الخشبة .

فقال ابن الفرات لمتى : يا أبا بشر : أكان هذا في نحوك .

ثم قال أبو سعيد : دع هذا ، ها هنا مسألة علاقتها بالمعنى العقلي أكثر من علاقتها بالشكل اللفظي ، ما تقول في قول القائل : « زيد أفضل الإخوة » ؟ قال : صحيح . قال : فما تقول إن قال : « زيد أفضل إخوته » ؟ قال : صحيح ، قال : فما الفرق بينهما مع الصَّحَّة ؟

فبَلَحَ ^(٣) وجَنَحَ وغصَّ بريقه .

فقال أبو سعيد : أفتيت على غير بصيرة ولا استبانة ؛ المسألة الأولى جوابك عنها صحيح وإن كنت غافلاً عن وجه صحتها ؛ والمسألة الثانية جوابك عنها غير صحيح وإن كنت أيضاً ذاهلاً عن وجه بطلانها .

قال متى : بين لي ما هذا التهجين ؟

(١) شطر من بيت شعر لرؤبة بن العجاج .

(٢) شطر من بيت شعر لامرئ القيس .

(٣) أي أعى وعجز .

قال أبو سعيد: إذا حضرت الحَلَقَة استفدت، ليس هذا مكان التدريس هو مجلس إزالة التلبس، مع من عادته التمويه والتشبيه؛ والجماعة تعلم أنك أخطأت، فلم تدعي أن النحوي إنما ينظر في اللفظ دون المعنى، والمنطقي ينظر في المعنى لا في اللفظ؟ هذا كان يصح لو أن المنطقي كان يسكت ويحيل فكره في المعاني، ويرتب ما يريد بالوهم السانح والخاطر العارض والحَدَس الطارئ؛ فأما وهو يرغب أن يبرز ما صح له بالاعتبار والتصفح إلى المتعلم والمُناظر، فلا بد له من اللفظ الذي يشتمل على مراده، ويكون طباقاً لغرضه، وموافقاً لقصده.

قال ابن الفرات لأبي سعيد: تَمَّمْ لنا كلامك في شرح المسألة حتى تكون الفائدة ظاهرة لأهل المجلس، والتبكيث عاملاً في نفس أبي بشر.

فقال: ما أكره من إيضاح الجواب عن هذه المسألة إلا مَلَلَ الوزير؛ فإن الكلام إذا طال مُلٌّ.

فقال ابن الفرات: ما رغبت في سماع كلامك وبين المَلَلِ علاقة؛ فأما الجماعة فحرضها على ذلك ظاهر.

فقال أبو سعيد: إذا قلت: «زيد أفضل إخوته» لم يجز، وإذا قلت: «زيد أفضل الإخوة» جاز؛ والفصل بينهما أن إخوة زيد هم غيرُ زيد، وزيدٌ خارج عن جملتهم. والدليل على ذلك أنه لو سأل سائل فقال: «من إخوة زيد» لم يجز أن تقول: زيد وعمرو وبكر وخالد وإنما تقول: بكر وعمرو وخالد، ولا يدخل زيد في جملتهم، فإذا كان زيد خارجاً عن إخوته صار غيرهم، فلم يجز أن تقول: أفضل إخوته، كما لم يجز أن تقول: «إن حمارك أفره البغال» لأن الحمير غير البغال، كما أن زيدا غير إخوته، فإذا قلت: «زيد خير الإخوة» جاز، لأنه أحد الإخوة، والاسم يقع عليه وعلى غيره، فهو بعض الإخوة، ألا ترى أنه لو قيل: «مَن الإخوة»؟ عدته فيهم، فقلت: «زيد وعمرو وبكر وخالد» فيكون بمنزلة قولك: «حمارك أفره الحمير» لأنه داخل تحت الاسم الواقع على الحمير. فلما كان على ما وصفنا جاز أن يضاف إلى واحد منكور يدل على الجنس، فتقول: «زيد أفضل رجل» و«حمارك أفره حمار» فيدل «رجل» على الجنس كما دلَّ الرجال؛ وكما في «عشرين درهماً ومائة درهم».

فقال ابن الفرات: ما بعد هذا البيان مزيد، ولقد جلَّ علم النحو عندي بهذا الاعتبار وهذا الإسفار.

فقال أبو سعيد: معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك، وإن زاغ شيء عن هذا النعت فإنه لا يخلو من أن يكون سائغاً بالاستعمال النادر والتأويل البعيد، أو مردوداً لخروجه عن عادة القوم الجارية على

فطرتهم. فأما ما يتعلّق باختلاف لغات القبائل فذلك شيء مسلّم لهم ومأخوذ عنهم، وكلّ ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطّرد على الأصل المعروف من غير تحريف، وإنما دخل العُجب على المنطقيّين لظنهم أن المعاني لا تُعرّف ولا تُستوضح إلا بطريقهم ونظرهم وتكلّفهم، فترجموا لغةً هم فيها ضعفاء ناقصون. وجعلوا تلك الترجمة صناعة، وادّعوا على النحويين أنهم مع اللفظ لا مع المعنى.

ثم أقبل أبو سعيد على متى فقال: أما تعرف يا أبا بشر أن الكلام اسم واقع على أشياء قد ائتلفت بمراتب، وتقول بالمثل: هذا ثوب والثوب اسم يقع على أشياء بها صار ثوباً، لأنّه نُسجَ بعد أن غزل، فسدّاته لا تكفي دونه لُحْمَتِه ولُحْمَتُه لا تكفي دون سدّاته، ثم تأليفه كنسجه، وبلاغته كقصاصته ورقّة سلّكه كرقّة لفظه، وغلظ غزله ككثافة حروفه، ومجموع هذا كلّ ثوب، ولكن بعد تقدمة كلّ ما يُحتاج إليه فيه.

قال ابن الفرات: سله يا أبا سعيد عن مسألة أخرى، فإن هذا كلّما توالى عليه بان انقطاعه، وانخفض ارتفاعه، في المنطق الذي ينصره، والحقّ الذي لا يُبصره.

قال أبو سعيد: ما تقول في رجل يقول: «لهذا عليّ درهم غير قيراط؛ ولهذا الآخر عليّ درهم غير قيراط».

قال: مالي علم بهذا النّمط.

قال: لست نازعاً عنك حتى يصحّ عند الحاضرين أنّك صاحب مخرقة ورزق^(١)، هاهنا ما هو أخفّ من هذا، قال رجل لصاحبه: «بكم الثوبان المصبوغان»، وقال آخر: «بكم ثوبان مصبوغان» وقال آخر: «بكم ثوبان مصبوغين» بين هذه المعاني التي تضمّنها لفظ لفظ.

قال متى: لو نثرُ أنا أيضاً عليك من مسائل المنطق أشياء لكان حالك كحالي.

قال أبو سعيد: أخطأت، لأنك إذا سألتني عن شيء أنظر فيه، فإن كان له علاقة بالمعنى وصحّ لفظه على العادة الجارية أجبت، ثم لا أبالي أن يكون موافقاً أو مخالفاً، وإن كان غير متعلّق بالمعنى رددته عليك، وإن كان متّصلاً باللفظ ولكن على وَضْع لكم في الفساد على ما حشوتكم به كتبكم رددته أيضاً لأنه لا سبيل إلى إحداث لغة في لغة مقرّرة بين أهلها.

ما وجدنا لكم إلّا ما استعرتكم من لغة العرب كالسبب والآلة والسلب والإيجاب والموضوع والمحمول والكون والفساد والمهمّل والمحصور، وأمثلة لا تنفع ولا تُجدي، وهي إلى العيِّ أقرب، وفي الفهاهة أذهب.

ثم أنتم هؤلاء في منطقكم على نقص ظاهر، لأنكم لا تفون بالكتب ولا هي

(١) ورد في اللسان ومستدرك التاج: رجل زرق: أي خداع.

مشروحة، فتدعون الشُّعر ولا تعرفونه وتذكرون الخطابة وأنتم عنها في منقطع التراب؛ وقد سمعتُ قائلكم يقول: الحاجة ماسة إلى كتاب البرهان. فإن كان كما قال فلمْ قُطِع الزمانُ بما قبله من الكتب، وإن كانت الحاجة قد مسّت إلى ما قبل البرهان، فهي أيضاً ماسةٌ إلى ما بعد البرهان، وإلا فلمْ صُنِّف ما لا يُحتاج إليه ويُسْتَغنى عنه. هذا كله تخليط وذرَق وتهويل ورعد وبرق.

وإنما بودّكم أن تشعلوا جاهلاً، وتستذلّوا عزيزاً؟ وغايتكم أن تهوّلوا بالجنس والنوع والخاصّة والفصل والعرض والشخص، وتقولوا: الهَلِيّة والأينيّة والماهية والكيفيّة والكميّة والذاتيّة والعرضيّة والجوهريّة والهوليّة والصورية والأنيّة والليسيّة والنفسيّة؟ ثم تتناولون فتقولون: «جننا بالسُّخر» في قولنا: «لا»^(١) في شيء من «ب» و«ج» في بعض «ب»، ف، «لا» في بعض «ج» و«لا» في كل «ب» و«ج» في كل «ب» فإذاً «لا» في كل «ج»؛ هذا بطريق الخُلف، وهذا بطريق الاختصاص.

وهذه كلّها خرافات وتُرّهات، ومغالق وشبكات؛ ومن جاد عقله وحسن تمييزه ولطف نظره وثقّب رأيه وأنارت نفسه استغنى عن هذا كلّ - بعون الله وفضله - وجودة العقل وحسن التمييز ولطف النظر وثقوب الرأي وإنارة النفس من منائح الله الهنيّة، ومواهبه السنيّة، يختص بها من يشاء من عباده وما أعرف لاستطالتكم بالمنطق وجهاً، وهذا الناشئ أبو العباس قد نقض عليكم وتبّع طريقكم، وبين خطاكم، وأبرز ضعفكم، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردّوا عليه كلمة واحدة مما قال، وما زدت على قولكم: لم يعرف غرضنا ولا وقف على مرادنا، وإنما تكلم على وهم. وهذا منكم تحاجز ونكول ورضى بالعجز وكُلول، وكلّ ما ذكرتم في الموجودات فعليكم فيه اعتراض هذا قولكم في «يفعل وينفعل» لم تستوضحوا فيهما مراتبهما ومواقعهما، ولم تقفوا على مقاسمهما، لأنكم قنعتم فيهما بوقوع الفعل من «يفعل» وقبول الفعل من «ينفعل»، ومن وراء ذلك غايات خفيت عليكم، ومعارف ذهبّت عنكم وهذا حالكم في الإضافة.

فأما البدل ووجوهه، والمعرفة وأقسامها، والنكرة ومراتبها، وغير ذلك مما يطول ذكره، فليس لكم فيه مقال ولا مجال.

وأنت إذا قلتَ لإنسان: «كن منطقياً»، فإنما تريد: كن عقلياً أو عاقلاً أو اعقل ما تقول لأن أصحابك يزعمون أن النطق هو العقل؛ وهذا قولٌ مدخول، لأن النطق على وجوه أتم عنها في سهو.

وإذا قال لك آخر: «كن نحوياً لغوياً فصيحاً» فإنما يريد: افهم عن نفسك ما تقول، ثم رُم أن يفهم عنك غيرك.

(١) كذا، ولعله: لا «أ» في شيء من «ب» و«ج» في بعض «ب» ف«أ» إذن لا في «ج» و«أ» لا في كل «ب» و«ج» في بعض «ب» ف«أ» إذن ليس في «ج».

وقدّر اللفظ على المعنى فلا يَفْضَلُ عنه، وقدّر المعنى على اللفظ فلا ينقص منه؛ هذا إذا كنت في تحقيق شيء على ما هو به. فأما إذا حاولت قرّش المعنى وبَسَطَ المراد فاجلُ اللفظ بالروادف الموضّحة والأشباه المقرّبة، والاستعارات الممتعة، وبين المعانيّ بالبلاغة، أعني لوخ منها لشيء حتى لا تصاب إلا بالبحث عنها والشوق إليها، لأن المطلوب إذا ظفّر به على هذا الوجه عزّ وجلا، وكُرّم وعلا، واشرح منها شيئا حتّى لا يمكن أن يمتري فيه أو يتعب في فهمه أو يعرّج عنه لاغتماضه؛ فهذا المذهب يكون جامعاً لحقائق الأشباه ولأشباه الحقائق؛ وهذا باب إن استقصيته خرج عن نمط ما نحن عليه في هذا المجلس؛ على أنني لا أدري أيؤثر فيك ما أقول أو لا؟

ثم قال: حدّثنا هل فصلتم قطّ بالمنطق بين مختلفين، أو رفعتم الخلاف بين اثنين؛ أترك بقوة المنطق وبرهانه اعتقدت أن الله ثالث ثلاثة، وأن الواحد أكثر من واحد، وأن الذي هو أكثر من واحد هو واحد، وأن الشرع ما تذهب إليه، والحق ما تقول؟ هيهات، هاهنا أمور ترتفع عن دعوى أصحابك وهذيانهم، وتديق عن عقولهم وأذهانهم.

ودع هذا، هاهنا مسألة قد أوقعت خلافاً، فارفع ذلك الخلاف بمنطقتك:

قال قائل: «لفلان من الحائط إلى الحائط» ما الحكم فيه؟ وما قدّر المشهود به لفلان؟ فقد قال ناس: له الحائطان معاً وما بينهما. وقال آخرون: له النصف من كل منهما. وقال آخرون: له أحدهما. هات الآن آيتك الباهرة، ومعجزتك القاهرة، وأني لك بهما، وهذا قد بان بغير نظرك ونظر أصحابك.

ودع هذا أيضاً؛ قال قائل: «من الكلام ما هو مستقيم حسن، ومنه ما هو مستقيم محال، ومنه ما هو مستقيم قبيح، ومنه ما هو محال كذب، ومنه ما هو خطأ». فسر هذه الجملة. واعترض عليه عالم آخر، فاحكم أنت بين هذا القائل والمعترض وأرنا قوة صناعتك التي تميّز بها بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل؟ فإن قلت: كيف أحكم بين اثنين أحدهما قد سمعت مقالته، والآخر لم أحصل اعتراضه؟ قيل لك: استخرج بنظرك الاعتراض إن كان ما قاله محتملاً له، ثم أوضح الحق منهما، لأن الأصل مسموع لك، حاصل عندك وما يصحّ به أو يردّ عليه يجب أن يظهر منك، فلا تتعاسر علينا، فإن هذا لا يخفى على أحد من الجماعة.

فقد بان الآن أن مركّب اللفظ لا يحوز مبسوط العقل؛ والمعاني معقولة ولها اتصال شديد وبساطة تامّة؛ وليس في قوة اللفظ من أي لغة كان أن يملك ذلك المبسوط ويحيط به، وينصبّ عليه سوراً، ولا يدع شيئا من داخله أن يخرج، ولا شيئا من خارجه أن يدخل، خوفاً من الاختلاط الجالب للفساد، أعني أن ذلك يخلط الحق بالباطل، ويشبه الباطل بالحق؛ وهذا الذي وقع الصحيح منه في الأول قبل وضع المنطق، وقد عاد ذلك الصحيح في الثاني بعد المنطق؛ وأنت لو عرفت تصرف

العلماء والفقهاء في مسائلهم، ووقفت على غورهم في نظرهم وغوصهم في استنباطهم، وحسن تأويلهم لما يرد عليهم، وسعة تشقيقهم للوجوه المحتملة والكنيات المفيدة والجهات القريبة والبعيدة، لحققت نفسك، وازدريت أصحابك، ولكان ما ذهبوا إليه وتابعوه عليه أقل في عينك من الشها عند القمر، ومن الحصى عند الجبل. أليس الكندي وهو علم في أصحابك يقول في جواب مسألة «هذا من باب عد». فعند الوجوه بحسب الاستطاعة على طريق الإمكان من ناحية الوهم بلا ترتيب، حتى وضعوا له مسائل من هذا الشكل وغالطوه بها وأرؤه أنها من الفلسفة الداخلة، فذهب عليه ذلك الوضع، فاعتقد فيه أنه صحيح وهو مريض العقل فاسد المزاج حائل الغريزة مشوش اللب.

قالوا له: أخبرنا عن اضطكاك الأجرام، وتضاعف الأركان؟ هل يدخل في باب وجوب الإمكان؟ أو يخرج من باب فقدان إلى ما يخفى عن الأذهان؟ وقالوا له أيضاً: ما نسبة الحركات الطبيعية إلى الصور الهيلولانية؟ وهل هي ملابسة للكيان في حدود النظر والبيان، أو مزيلة له مزيلة على غاية الأحكام؟

وقالوا له: ما تأثير فقدان الوجدان في عدم الإمكان عند امتناع الواجب من وجوبه في ظاهر ما لا وجوب له لاستحالته في إمكان أصله؟ وعلى هذا فقد حفظ جوابه عن جميع هذا على غاية الركاكة والضعف والفساد والفسالة والسُخف. ولولا التوقي من التطويل لسردت ذلك كله، ولقد مرّ بي في خطّه: التفاوت في تلاشي الأشياء غير مُحاط به، لأنه يلاقي الاختلاف في الأصول والاتفاق في الفروع؛ وكل ما يكون على هذا النهج فالتكيرة تُراجم عليه المعرفة، والمعرفة تُناقض التكيرة، على أن التكيرة والمعرفة من باب الألبسة العارية من ملابس الأسرار الإلهية، لا من باب الإلهية العارضة في أحوال البشرية.

ولقد حدثنا أصحابنا الصابئون عنه بما يُضحك الشكلى ويُشمت العدو ويُغزّ الصديق، وما ورث هذا كله إلا من بركات يونان وفوائد الفلسفة والمنطق ونسأل الله عصمة وتوفيقاً نهتدي بهما إلى القول الراجع إلى التحصيل، والفعل الجاري على التعديل، إنه سميع مجيب.

هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الرّماني الشيخ الصالح بإملائه. وكان أبو سعيد قد روى لَمَعاً من هذه القصّة.

وكان يقول: لم أحفظ عن نفسي كل ما قلت، ولكن كتب ذلك أقوام حَضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضاً؛ وقد اختل علي كثير منه.

قال علي بن عيسى: وتقوَّض المجلس وأهله يتعجبون من جأش أبي سعيد الثابت ولسانه المتصرف ووجهه المتهلّل وفوائده المتتابعة.

وقال الوزير ابن الفرات: عين الله عليك أيها الشيخ، فقد نذيت أكباداً وأقررت عيوناً، وبيضت وجوهاً، وحكت طرازاً لا يلبيه الزمان، ولا يتطرق إليه الحدثان.

قلت لعلّي بن عيسى: وكم كانت سنُّ أبي سعيد في ذلك الوقت؟

قال: مولده سنة ثمانين ومائتين، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة، وقد عبث الشَّيب بلهازمه^(١) مع السَّمْت والوَقَار والذِّين والجَدّ، وهذا شعار أهل الفضل والتقدّم، وقلّ من تظاهر به أو تحلّى بحليته إلا جَلّ في العيون وعظم في النفوس، وأحبته القلوب، وجرت بمدحه الألسنة.

وقلت لعلّي بن عيسى: أما كان أبو عليّ الفَسَوِيُّ النحويّ حاضرَ المجلس؟ قال: لا، كان غائباً، وحُدث بما كان، فكان يكتُم الحَسَد لأبي سعيد على ما فاز به من هذا الخَبَر المشهور، والثناء المذكور.

فقال لي الوزير عند منقطع هذا الحديث: ذكّرني شيئاً قد دار في نفسي مراراً، وأحببت أن أقف على واضححه؛ أين أبو سعيد من أبي عليّ، وأين عليّ بن عيسى منهما، وأين ابنُ المِراغيّ أيضاً من الجماعة؟ وكذلك المَرْزُبانيّ وابن شاذان وابن الوَرّاق وابن حيّويه؟

فكان من الجواب: أبو سعيد أجمَعُ لشمَل العلم، وأنظَمُ لمذاهب العرب وأدخَلَ في كلّ باب، وأخرَجُ من كلّ طريق، وألَزَمُ للجادّة الوسطى في الدِّين والخُلُق، وأروى في الحديث، وأقضى في الأحكام، وأفقه في الفتوى، وأحضَرُ بركة على المختلفة، وأظهِرُ أثراً في المقتبسة. ولقد كتب إليه نوح بن نصر - وكان من أدباء ملوك آل سامان - سنة أربعين كتاباً خاطبه فيه بالإمام وسأله عن مسائل تزيد على أربعمئة مسألة، الغالب عليها الحروف، وباقي ذلك أمثال مصنوعة على العرب شكّ فيها فسأل عنها؛ وكان هذا الكتاب مقروناً بكتاب الوزير البَلْعَميّ خاطبه فيه بإمام المسلمين، ضمّته مسائل في القرآن وأمثالاً للعرب مشكّلة.

وكتب إليه المَرْزُبَان بن محمد ملك الدَّيْلَم من أذربيجان كتاباً خاطبه فيه بشيخ الإسلام، سأله عن مائة وعشرين مسألة، أكثرها في القرآن، وباقي ذلك في الروايات عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضوان الله عليهم.

وكتب إليه ابن جنزابة من مصر كتاباً خاطبه فيه بالشيخ الجليل، وسأله فيه عن ثلاثمئة كلمة من فنون الحديث المروي عن النبي ﷺ وعن السلف.

(١) اللهازم: جمع لهزمة بكسر اللام، وهي مجتمع اللحم بين الماضغ والأذن. أو هي العظم الناتئ في اللحية تحت الأذن، وهما لهزمتان، ويريد هنا الشعر النابت عليهما.

وقال لي الدارقطني سنة سبعين: أنا جمعت ذلك لابن حنّابة على طريق المعونة.
وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان على يد شيخنا أبي سليمان كتاباً يخاطبه فيه
بالشيخ الفرد، سألته عن سبعين مسألة في القرآن، ومائة كلمة في العربية وثلاثمائة بيت
من الشعر، هكذا حدّثني به أبو سليمان؛ وأربعين مسألة في الأحكام وثلاثين مسألة في
الأصول على طريق المتكلمين.

قال لي الوزير: وهذه المسائل والجواب عنها عندك؟ قلت: نعم. قال: في كم
تقع؟ قلت: لعلها تقع في ألف وخمسمائة ورقة، لأن أكثرها في الظهور. قال: ما
أحوّجنا إلى النظر فيها والاستمتاع بها والاستفادة منها! وأين الفراغ وأين السكون؟
ونحن كلّ يوم ندفع إلى طامة تُسي ما سلف، وتوعد بالدهية، اللهم هذه ناصيتي
بيدك، فتولني بالعصمة، واخصمني بالسلامة، واجعل عقباي إلى الحسنی.

ثم قال: صل حديثك.

قلت: وأما أبو علي فأشدّ تفرّداً بالكتاب^(١) وأشدّ إكباباً عليه، وأبعد من كلّ
ما عداه ممّا هو علم الكوفيّين، وما تجاوز في اللغة كُتب أبي زيد، وأطرافاً ممّا
لغيره؛ وهو متّقد بالغیظ على أبي سعيد، وبالحسد له، كيف تمّ له تفسير كتاب
سيبويه من أوّله إلى آخره بغريبه وأمثاله وشواهد وأبياته ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾
[المائدة: ٥٤]، لأنّ هذا شيء ما تمّ للمبرد ولا للزجاج ولا لابن السراج ولا لابن
درستويه مع سعة علمهم، وفيض كلامهم.

ولأبي علي أطراف من الكلام في مسائل أجاد فيها ولم يأتل، ولكنه قعد على
الكتاب على النّظم المعروف.

وحَدّثني أصحابنا أن أبا علي اشترى شرح أبي سعيد في الأهواز في توجّهه إلى
بغداد سنة ثمان وستين - لاحقاً بالخدمة المرسومة به، والثدّامة الموقوفة عليه - بألفي
درهم؛ وهذا حديث مشهور، وإن كان أصحابه يأبون الإقرار به إلّا من زعم أنّه أراد
النقض عليه، وإظهار الخطأ فيه.

وقد كان الملك السعيد - رضي الله عنه - هم بالجمع بينهما فلم يُقَضَ له ذلك،
لأنّ أبا سعيد مات في رجب سنة ثمان وستين وثلاثمائة.

وأبو علي يشرب ويتخالّع ويفارق هذّي أهل العلم وطريقة الربانيّين وعادة
المتنسّكين.

(١) أي كتاب سيبويه.

وأبو سعيد يصوم الدهر، ولا يصلي إلا في الجماعة، ويقيم على مذهب أبي حنيفة، ويلى القضاء سنين، ويتأله ويتحرج، وغيره بمعزل عن هذا؛ ولولا الإبقاء على حُرمة العلم، لكان القلم يجري بما هو خاف ويخبر بما هو مُحْتَمَم ولكن الأخذ بحكم المروءة أولى، والإعراض عما يجلب اللائمة أحرى.

وكان أبو سعيد حسن الخط، ولقد أَرَادَه الصَّيْمَرِيُّ أبو جعفر على الإنشاء والتحرير فاستغنى وقال: هذا أمر يُحتاج فيه إلى دُرْبة وأنا عارٍ منها، وإلى سياسة وأنا غريب فيها:

وَمِنَ الْعَنَاءِ رِيَاضَةُ الْهَرَمِ

وحدثنا النَّضْرِيُّ أبو عبد الله - وكان يكتب النوبة للمهلبى - بحديث مَقْدَدَ لأبي سعيد هذا موضعه، قال: كُنْتُ أَخْطُ بَيْنَ يَدَيِ الصَّيْمَرِيِّ أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، فَالْتَمَسَنِي يَوْمًا لَأَن أَجِيبَ ابْنَ الْعَمِيدِ أَبَا الْفَضْلِ عَنْ كِتَابٍ فَلَمْ يَجِدْنِي، وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ السَّيْرَافِيُّ بِحَضْرَتِهِ؛ فَظَنَّ أَنَّهُ بِفَضْلِ عِلْمِهِ أَقْوَمُ بِالْجَوَابِ مِنْ غَيْرِهِ، فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ أَن يَكْتُبَ وَيَجِيبَ، فَأُطَالَ فِي عَمَلِ نَسْخَةٍ كَثُرَ فِيهَا الضَّرْبُ وَالْإِصْلَاحُ، ثُمَّ أَخَذَ يَحْرُرُ، وَالصَّيْمَرِيُّ يَقْرَأُ مَا يَكْتُبُهُ، فَوَجَدَهُ مُخَالَفًا لِجَارِي الْعَادَةِ لَفْظًا، مَبِينًا لِمَا يَرِيدُهُ تَرْتِيبًا.

قال: ودخلت في تلك الحال، فَتَمَثَّلَ الصَّيْمَرِيُّ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

يَا بَارِي الْقَوْسِ بَرِيًّا لَيْسَ يُصْلِحُهُ لَا تَظْلِمُ الْقَوْسَ، أَعْطِ الْقَوْسَ بَارِيهَا

ثم قال لأبي سعيد: خَفَّفُ عَلَيْكَ أَيُّهَا الشَّيْخُ وَادْفَعْ الْكِتَابَ إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ تَلْمِيزَكَ لِجِيبِ عَنْهُ، فَخَجَلَ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ، فَلَمَّا ابْتَدَأْتُ الْجَوَابَ مِنْ غَيْرِ نَسْخَةٍ تَحْيَرُ مِنِّي أَبُو سَعِيدٍ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّهَا الْأُسْتَاذُ، لَيْسَ بِمُسْتَكْرٍ مَا كَانَ مِنِّي، وَلَا بِمُسْتَكْرٍ مَا كَانَ مِنْكَ، إِنَّ مَالَ الْفَيِّءِ لَا يَصْخُ فِي بَيْتِ الْمَالِ إِلَّا بَيْنَ مُسْتَخْرِجٍ^(١) وَجَهْبَذٍ، وَالْكِتَابُ جَهَابُذَةُ الْكَلَامِ، وَالْعُلَمَاءُ مُسْتَخْرِجُوهُ. فَتَبَسَّمَ الصَّيْمَرِيُّ وَأَعْجَبَهُ مَا سَمِعَ، وَقَالَ: عَلَى كُلِّ حَالٍ مَا أَخْلَيْتَنَا مِنْ فَائِدَةٍ.

وكان أبو سعيد بعيد القرنين، لأنه كان يُقرأ عليه القرآن والفقه والشروط والفرائض والنحو واللغة والعروض والقوافي والحساب والهندسة والحديث والأخبار وهو في كل هذا إمامًا في الغاية وإمامًا في الوسط.

وأما علي بن عيسى فعالي الرتبة في النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق، وعيب به، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق، بل أفرد صناعة، وأظهر براعة، وقد عمل في القرآن كتاباً نفيساً، هذا مع الدين الثخين، والعقل الرزين.

(١) مستخرج الأموال: أي جابها ومحصلها: والجهبذ الناقد العارف بالجميل والرديء.

وأما ابن المِراغِي فلا يَلْحَقُ بهؤلاء، مع براعة اللفظ، وسعة الحفظ، وعزّة النفس، وبلبل الريق^(١)، وغزارة الثَّفَث، وكثرة الرواية؛ ومن نظر في كتاب البهجة له عرف ما أقول، واعتقد فوق ما أصف، ونَحَل أكثر ممّا أبذل.

وأما المرزُباني وابن شاذان وابن القِزمِسيّ وابن حَيَوْنِه فهم رواة وحملة ليس لهم في ذلك نَقْطٌ ولا إعجام، ولا إسراج ولا إلجام.

فقال: فصل حديثك عن هؤلاء بحديث أصحابنا الشعراء، صف لي جماعتهم، واذكر لي بضاعتهم، وما خَصَّ كل واحد منهم.

قلت: لست من الشعر والشعراء في شيء، وأكره أن أخطو على دَخْض^(٢)، وأحتسّي غير محض.

قال: دع هذا القول، فما حُضْنَا في شيء إلى هذا الوقت إلّا على غاية ما كان في النفس، ونهاية ما أفاد من الأُنس.

فكان من الوصف:

أما السّلاميّ فهو حلو الكلام، متّسق النظام، كأنّما يَبْسِم عن ثغر الغمام خفيّ السرقة، لطيفُ الأخذ، واسع المذهب، لطيف المَغارِس، جميلُ الملباس؛ لكلامه لَيْطَةٌ بالقلب^(٣)، وعبثٌ بالروح، وبرْدٌ على الكبد.

وأما الحاتميّ فغليظ اللفظ، كثير العُقَد، يحبُّ أن يكون بدويّاً قُحّاً، وهو لم يَتِمَّ حَضَرِيّاً؛ غزيرُ المحفوظ، جامعٌ بين النظم والنثر، على تشابهٍ بينهما في الجفوة وقلة السّلامة، والبعد من المَسْلوك، بادي العورة فيما يقول، لكنّما يُبرِز ما يُخفي، ويكدر ما يُصفي، له سَكْرَةٌ في القول إذا أفاق منها خُمِر وإذا خُمِر سَدِر^(٤)؛ يتناول شاخصاً، فيتضاءل متقاعساً؛ إذا صدق فهو مَهِين، وإذا كَذَب فهو مَشِين.

وأما ابن جَلَبات فمجنون الشعر، متفاوت اللفظ، قليل البديع، واسع الحيلة، كثير الزَّوْق، قصير الرُّشاء، كثير العُثاء؛ غَرَّة نفاقه^(٥) ونَفَقَه نفاقه.

وأما الخالغ فأديب الشعر، صحيحُ النَّحت، كثيرُ البديع، مستوي الطريقة،

(١) كناية عن الاتساع في الكلام.

(٢) أي على مزلة ومزلة للأقدام.

(٣) أي التصاقه به وتعلق.

(٤) خمر أي أصيب بالخمار وهو ألم في الرأس وصداع يعقبان السكر. وسدر: تحير أو لم يبال ما صنع ولم يهتم.

(٥) أي الرواج ونفقته: روجه.

متشابهة الصناعات، بعيدٌ من طُفْرة المتحير، قريبٌ من فرصة المتخير؛ كان ذو الكفائتين يقدمه بالرّي، ويقبله على التّشر والطّي.

وأما مسكويه فلطيف اللفظ، رطب الأطراف، رقيق الحواشي، سهل المأخذ، قليل السّكب، بطيء السّبك؛ مشهور المعاني، كثير التواني؛ شديد التّوقي، ضعيف التّرقّي؛ يرد أكثر ممّا يصدر، ويتطاوّل جهده ثم يقصّر؛ يطير بعيداً ويقع قريباً، ويسقي من قبل أن يغرس، ويمتخ من قبل أن يُميه؛ وله بعد ذلك مأخذ كشذو^(١) من الفلسفة، وتأث^(٢) في الخدمة، وقيام برسوم النّدامة^(٣)؛ وسنة في البخل، وغرائب من الكذب؛ وهو حائل^(٤) العقل لشغفه بالكيمايا.

وأما ابن نباتة فشاعر الوقت، لا يدفع ما أقول إلّا حاسد أو جاهل أو معاند، قد لحق عصابة (سيف الدولة) وعدا معهم ووراءهم، حسن الحذو على مثال سكان البادية، لطيف الائتمام بهم، خفي المغاص في واديهم، ظاهر الإطلال على ناديهم؛ هذا مع شعبة من الجنون وطائف من الوسواس.

وأما ابن حجاج فليس من هذه الزمرة بشيء، لأنّه سخيّف الطريقة بعيد من الجذ، قريع في الهزل؛ ليس للعقل من شعره منال، ولا له في قرضه مثال؛ على أنّه قويم اللفظ، سهل الكلام، وشماله نائية بالوقار عن عادته الجارية في الخسار؛ وهو شريك ابن سكرة في هذه الغرامة^(٥)؛ وإذا جدّ أفعى، وإذا هزل حكى الأفعى.

وله مع ذي الكفائتين مناظرة طيبة. قال: ما هي؟ قلت: لما ورد ذو الكفائتين سنة أربع وستين وهزم الأتراك مع أفتكين، وكان من الحديث ما هو مشهور، سأل عن ابن حجاج - وكان متشوقاً له لِمَا كان يُقرأ عليه من قوافيه، فأحبّ أن يلقاه، لأنّه ليس الخبر كالمعاينة، والمسموع والمبصر كالأنثى والذكر؛ ينزع كل واحد منهما إلى تمامه؛ فلما حضره أبو عبد الله احتبس للطعام، وسمع كلامه، وشاهد سمته، واستحلّ شمائله، فقام من مجلسه؛ فلما خلا به قال: يا أبا عبد الله، لقد والله تُهت عجباً منك، فأما عجبني بك فقد تقدّم؛ لقد كنت أظنّ ديوانك، فأتمنّى لقاءك، وأقول: من صاحب هذا الكلام، أطيّش طائش، وأخفّ خفيف، وأغرّم غارم؛ وكيف يجالس من يكون في هذا الإهاب؟ وكيف يقارب من ينسلخ من ملابس الكتاب

(١) شدا شدوا: أخذ طرفاً من العلم والأدب.

(٢) أي التلطف.

(٣) أي حرفة المنادمة على الشراب.

(٤) أي متغير متحول من الاستواء إلى العوج.

(٥) أي الخسران.

وأصحاب الآداب؛ حتى شاهدتُك الآن، فتهاكتُ على وقارك وسكون أطرافك، وسكون لفظك، وتناسبتُ حركاتك، وفربتُ حياتك وناصر ماء وجهك، وتعاذلتُ كُلك وبعضك؛ وإنك لمن عجائب خلق الله وطُرف عباده؛ والله ما يصدق واحد أنك صاحب ديوانك، وأن ذلك الديوان لك، مع هذا التنافي الذي بين شعرك وبينك في جدك. فقال أبو عبد الله: أيها الأستاذ، وكان عجبني منك دون عجبك مني، لو تقارنا على هذا لفلجت عليك بالتعجب منك. قال: لأنني قلت إذا ورد الأستاذ فسألني منه خُلُقاً جافياً وفظاً غليظاً وصاحب رواسير وآكل كوامخ وجبلياً ذيلاً متكاثراً متعاضماً، حتى رأيتك الآن وأنت الطف من الهواء، وأرق من الماء، وأغرل من جميل بن معمر، وأعذب من الحياة، وأرزق من الطود، وأغرر من البحر، وأبهى من القمر، وأندى من الغيث، وأشجع من الليث، وأنطق من سخبان، وأندى من الغمام، وأنفذ من السهام، وأكبر من جميع الأنعام.

فقال أبو الفتح وتبسم: هذا أيضاً من ودائع فضلك^(١)، وباعث تفضلك. ووصله وصرفه.

قال: لم يكن هذا الحديث عندي.

وأما بشر بن هارون فليس من هذه الطبقة في شيء، لكنه يقرص فيحز ويشتم فيهز، ويجرح فيجهز؛ والمدهؤون^(٢) منه كثير؛ وأصحابنا يستحسنون قول ابن الحجاج في الوزير حين يقول:

لله دُر الحسين من قمر ردت إليه وزارة الشمس

فقال: إن قبلتُ هذا منهم خفتُ أن يقال: ماح نفسه يقرئك السلام؛ وما أصنع بهذا البيت وهو مضموم إلى كل بيت سخيف في القصيدة.

ثم قال: وجب أن نصف قبل هذا عصابة العلماء، فلم تركنا ذكرهم ونحن لا نخلو في حديثهم من غرة لائحة، وفائدة نافعة، وصواب زائد في العقل وفضيلة على الأدب، وحلم يزدان به في وقت الحاجة، وحكمة يستعان بها في داهية؛ ورأي يكون مقيلاً للتمييز عند تهجيرنا به.

قلت: أما أبو عبد الله الجعل فقد شاهدته. قال: صدقت، ولكن لم أقف على مذهبه ودخلته وسيرته في اعتقاده.

قلت: كان الرجل ملتهب الخاطر، واسع أطراف الكلام، مع غثاثة اللفظ، وكان يرجع إلى قوة عجيبة في التدريس، وطول نفس في الإماء، مع ضيق صدر عند لقاء

(١) أي من فضلك الذي تودعه لدينا فنحفظه لك ونؤديه إليك.

(٢) أي المبتلون بالدواهي منه.

الخصم ومُعَارَكَةِ الْقِرْن، بعيد العهد بالمِصَاع والدِفَاع والوَقَاع؛ وكان سببُ هذا الجبن والخَوَر قِلَّةُ الصُّرَاوَةِ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَال؛ وَلَقَدْ خَزِيَ فِي مَشَاهِدٍ عَظِيمَةٍ.

وَأَمَّا يَقِينُهُ فَكَانَ ضَعِيفاً؛ وَأَمَّا سِيرَتُهُ فَكَانَتْ وَاقِفَةً عَلَى حُبِّ الرِّيَاسَةِ وَبِذَلِّ الْمَالِ وَالْجَاهِ إِذَا حَضَرَ، مَعَ تَعْصَبٍ شَدِيدٍ لِمَنْ قَدَّمَهُ وَأَحَبَّهُ، وَإِنْجَاءٍ مَفْرُطٍ عَلَى مَنْ عَادَاهُ، وَكَانَ حَوْضُهُ فِي الدُّوَلِ وَالْوَلَايَاتِ - وَلِهَذَا رَغِبَ عَنْهُ الْوَاسِطِيُّ وَكَانَ أَخَا وَرَعٍ وَدِينٍ وَقَالَ: هَذَا مَنْقَرٌ عَنِ الدِّينِ وَالْمَذْهَبِ، وَدَافِعٌ لِلنَّاسِ عَنِ الْقَوْلِ بِالْحَقِّ، وَطَارِحٌ لِلشَّبْهَةِ فِي الْقُلُوبِ -.

وَكَانَ يَجْهَرُ بِهَذَا وَأَشْبَاهِهِ، وَلَكِنْ كَانَ جَاهُ الرَّجُلِ لَا يُنْتَقَصُ بِهَذَا الْقَدَرِ وَرُكْنُهُ لَا يَتَخَلَّلُ عَلَى هَذَا الْهَدَى، لِأَسْبَابٍ انْعَقَدَتْ لَهُ، وَأَصْحَابُ ذُبُوتِهِ عَنْهُ.

وَأَمَّا ابْنُ الْمَلَّاحِ فَشَيْخٌ حَسَنُ الْمَعْرِفَةِ بِالْمَذْهَبِ، شَدِيدُ التَّوْقِي، مَحْمُودُ الْقَنَاعَةِ ظَاهِرُ الرِّضَا؛ تَذُلُّ سِيرَتُهُ الْجَمِيلَةُ عَلَى أَنَّهُ حَسَنُ الْعَقِيدَةِ.

وَأَمَّا ابْنُ الْمَعْلَمِ فَحَسَنُ اللَّسَانِ وَالْجَدَلِ، صَبُورٌ عَلَى الْخِصْمِ، كَثِيرُ الْحِيلَةِ ظَنِينٌ^(١) السَّرِّ، جَمِيلُ الْعَلَانِيَةِ.

وَأَمَّا أَبُو إِسْحَاقِ النَّصِيبِيِّ فَدَقِيقُ الْكَلَامِ، يَشْكُ فِي النُّبُوتِ كُلِّهَا، وَقَدْ سَمِعْتُ مِنْهُ فِيهَا شُبْهًا، وَلُغَتُهُ مَعْقَدَةٌ، وَلَهُ أَدَبٌ وَاسِعٌ؛ وَلَقَدْ أَضَلَّ بِهِمَذَانُ كَاتِبَ فَخْرِ الدَّوْلَةِ ابْنَ الْمَرْزَبَانَ. وَحَمَلَهُ عَلَى قِلَّةِ الْإِكْتِرَاطِ بِظُلْمِ الرِّعْيَةِ، وَأَرَاهُ أَنَّهُ لَا حَرَجَ عَلَيْهِ فِي غَبْنِهِمْ لِأَنَّهُمْ بِهَاتِمٍ، وَمَا خَرَجَ مِنَ الْجَبَلِ حَتَّى افْتَضَحَ.

وَأَمَّا ابْنُ خَيْرَانَ فَشَيْخٌ لَا يَعْدُو الْفَقْهَ، وَفِيهِ سَلَامَةٌ.

وَأَمَّا الدَّارَكِيُّ فَقَدْ اتَّخَذَ الشَّهَادَةَ مَكْسَبَةً، وَهُوَ يَأْكُلُ الدُّنْيَا بِالْدِّينِ، وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ اللَّوَاطُ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَى ثِقَةٍ وَأَمَانَةٍ؛ وَلَقَدْ تَهْتَكُ بَنِيْسَابُورَ قَدِيمًا، وَبِبَغْدَادٍ حَدِيثًا؛ هَذَا مَعَ الْفَدَامَةِ وَالْوَحَامَةِ؛ وَلَقَدْ نَذَّ بِجُعَلٍ غَلَامٍ، وَهُوَ الْيَوْمَ قَاضِي الرِّي. وَابْنُ عِبَادٍ يَكْنُفُهُ وَيَقْرَبُهُ لِيَكُونَ دَاعِيَةً لَهُ وَنَائِبًا عَنْهُ، وَلَيْسَ لَهُ أَصْلٌ وَهُوَ مِنْ سَوَادِ هَمَذَانَ، وَأَبُوهُ كَانَ فَلَاحًا، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ، إِلَّا أَنَّهُ تَأْتَى لِابْنِ عِبَادٍ فِي سَمْتِهِ وَلِزُومِ نَامُوسِهِ حَتَّى خَفَّ عَلَيْهِ، وَهُوَ الْيَوْمَ قَارُونَ؛ وَقَدْ عُلْتُ رَتْبَتَهُ فِي الْكَلَامِ حَتَّى لَا مَزِيدَ عَلَيْهَا، إِلَّا أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ نَغِلٌ^(٢) الْبَاطِنِ، خَبِيثُ الْخَبَاءِ، قَلِيلُ الْيَقِينِ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الطَّرِيقَةَ الَّتِي قَدْ لَزَمَهَا وَسَلَكَهَا لَا تَفْضِي بِهِمْ إِلَّا إِلَى الشُّكِّ وَالْإِرْتِيَابِ، لِأَنَّ الدِّينَ لَمْ يَأْتِ بِكَمْ وَكَيْفٍ فِي كُلِّ بَابٍ، وَلِهَذَا كَانَ لِأَصْحَابِ الْحَدِيثِ أَنْصَارٌ الْأَثَرِ، مَزِيَّةٌ عَلَى أَصْحَابِ الْكَلَامِ وَأَهْلِ النَّظَرِ؛ وَالْقَلْبُ الْخَالِي مِنَ الشَّبْهَةِ أَسْلَمَ مِنَ الصَّدْرِ الْمَحْشُوءِ بِالشُّكِّ وَالرِّيْبَةِ، وَلَمْ يَأْتِ

(١) أَي مَتَّهِمٍ.

(٢) النَّغْلُ: الْفَاسِدُ السَّيِّئُ.

الجدال بخير قط . وقد قيل : من طلب الدين بالكلام ألحد ، ومن تتبّع غرائب الحديث كُذِب ، ومن طلب المال بالكيماة افتقر . وما شاعت هذه الوصية جزافاً ، بل بعد تجربة كررها الزمان ، وتطاوت عليها الأيام ؛ يتكلم أحدهم في مائة مسألة ويورد مائة حجة لا ترى عنده خشوعاً ولا رقة ، ولا تقوى ولا دَمعة ؛ وإن كثيراً من الذين لا يكتبون ولا يقرءون ولا يحتجّون ولا يناظرون ولا يُكرّمون ولا يفضلون خيراً من هذه الطائفة وألین جانباً ، وأخشع قلباً ، وأتقى لله عزّ وجلّ ، وأذكرُ للمعاد ، وأيقن بالثواب والعقاب ، وأقلق من الهفوة ، وألوذُ بالله من صغير الذنب ، وأرجع إلى الله بالتوبة ؛ ولم أر متكلماً في مدة عمره بكى خشية ، أو دمعت عينه خوفاً ، أو أفلح عن كبيرة رهبة ؛ يتناظرون مستهزئين ويتحاسدون متعصّبين ، ويتلاقون متخادعين ، ويصنّفون متحاملين ؛ جذّ الله عروقهم ، واستأصل شأفتهم ، وأراح العباد والبلاد منهم ؛ فقد عظمت البلوى بهم ، وعظمت آفتهم على صغار الناس وكبارهم ؛ ودبّ دأؤهم ، وعسر دواؤهم ؛ وأرجو ألا أخرج من الدنيا حتى أرى بنيانهم متضعّضاً ، وساكنه متجعّجاً^(١) .

قال : فما تقول في ابن الباقلاني ؟ قلت :

فما شرّ الثلاثة أمّ عمرو بصاحبك الذي لا تصبّحينا^(٢)

يزعم أنه ينصر السنة ويُفجّم المعتزلة وينشر الرواية ؛ وهو في أضعاف ذلك على مذهب الخُرُميّة ، وطرائق الملجدة .

قال : والله إن هذا لمن المصائب الكبار والمحن الغلاظ ، والأمراض التي ليس لها علاج .

ثم قال : إنّ الليل قد ولّى ، والنعاس قد طرق العين عابثاً ؛ والرأي أن نستجمّ لننشط ، ونستريح لنتعب ؛ وإذا حضرت في الليلة القابلة أخذنا في حديث الخلق والخلق - إن شاء الله - وأنا أزودك هذا الإعلام ليكون باعثاً لك على أخذ العتاد بعد اختماره في صدرك ، وتجيل الحال به عند خوضك وفيضك ولا تجبن جبن الضعفاء ، ولكن قلّ واتسع مجاهراً بما عندك ، منفقاً ممّا معك . وانصرفْتُ .

(١) أي ضارباً بنفسه الأرض من وجع .

(٢) البيت للشاعر عمرو بن كلثوم .

الليلة التاسعة

وعدتُ ليلة أخرى فقال: فاتحةُ الحديث معك، فهاتِ ما عندك.

فكان من الجواب: أن أخلاق أصناف الحيوان الكثيرة مؤتلفة في نوع الإنسان، وذلك أن الإنسان صفوُ الجنس الذي هو الحيوان، والحيوان كَدَرُ النوع الذي هو الإنسان والإنسان صفوُ الشخص الذي هو واحد من النوع، وما كان صفواً ومُصاصاً^(١) بهذا النظر انتظم فيه من كلِّ ضرب من الحيوان خُلُقٌ وخُلُقَانٌ وأكثر، وظهر ذلك عليه وبطن أيضاً بالأقل والأكثر والأغلب والأضعف، كالكُمُون الذي في طباع السبع والفأرة، والثبات الذي في طباع الذئب، والتحرز الذي في طباع الجاموس من بنات الليل، والحذر الذي في طباع الخنزير، والتقدم الذي في طباع الفيل أمام قطيعه تمثلاً بصاحب المقدمة.

وكذلك ضد ذلك في الخنزير تمثلاً بصاحب الساقة، وكالحراسة التي في طباع الكلب، وكأوب الطير إلى أوكارها التي تراها كالمعاقل وغيرها بالدَّغْل والأشْبِ والغياض.

ولهذا قال بعض الحكماء: خذ من الخنزير بُكورَه في الحوائج، ومن الكلب نُصحَه لأهله، ومن الهرة لطفَ نفسها عند المسألة.

وقالت الترك: ينبغي للقائد العظيم أن يكون فيه عشر خصال من ضروب الحيوان: سخاء الديك، وتحتن الدجاجة، ونجدة الأسد، وحملة الخنزير وروغانُ الشعلب، وصبرُ الكلب، وحراسة الكركي، وحذر الغراب، وغارة الذئب، وسمن بعروا، وهي دابة بخراسان تسمن على التعب والشقاء.

ولما وهب الإنسان الفطرة، وأعين بالفكرة؛ ورُفِد بالعقل، جمع هذه الخصال وما هو أكثر منها لنفسه وفي نفسه، ويسبب هذه المزية الظاهرة فَضْل جميع الحيوان حتى صار يبلغ منها مراده بالتسخير والإعمال واستخراج المنافع منها وإدراك الحاجات بها؛ وهذه المزية التي له مستفادة بالعقل، لأن العقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصناعات، والفكر بينهما مستملٍ منهما ومؤدٌ بعضها إلى بعض بالفيض الإمكاناني

والتوزيع الإنساني؛ فصوابُ بديهةِ الفكرة من سلامة العقل، وصوابُ رويةِ الفكرة من صحّة الطباع، وصحّة الطباع من موافقة المزاج، وموافقة المزاج بالمَدَد الاتفاقي والاتفاق الغيبي؛ أعني بهذا أن وجه الحادث المجهول عندنا اتفاق، ووجه الحادث المعلوم عند الله عزّ وجلّ غيب؛ فلو ظهر هذا الغيب لبطل الاتفاق، ولو بطل الاتفاق لارتفع الغيب.

فانقسمت الأحداث بين ما هو على جَدِيلة واحدة معروفة، وبين نادر لا يدوم العهد به، فدلّ ما ظهر واستمرّ على ما جاد به وَوَهَب، ودلّ ما غاب واستتر على ما تفرّد به وَعَلَب.

ولما كان الحيوان كلّهُ يعمل صنائعهُ بالإلهام على وتيرة قائمة، وكان الإنسان يتصرّف فيها بالاختيار، صحّ له من الإلهام نصيب حتى يكون رِفْداً له في اختياره، وكذلك يكون النحل أيضاً، صحّ له من الاختيار قسط في إلهامه حتى يكون ذلك مُعيناً في اضطرابه، إلّا أن نصيب الإنسان من الإلهام أقلّ كما أن قسط سائر الحيوان من الاختيار أنزَر؛ وثمرة اختيار الإنسان إذا كان مُعاناً بالإلهام أشرف وأدومّ وأجْدَى وأُنفع وأبقى وأرفع من ثمرة غيره من الحيوان إذا كان مرفوداً بالاختيار، لأن قوّة الاختيار في الحيوان كالحلم كما أن قوة الإلهام في الإنسان كالظّل.

ومراتب الإنسان في العلم ثلاث تظهر في ثلاث أنفس، فأحدهم مُلهم فيتعلّم ويعمل، ويصير مبدأً للمقتبسين منه، المقتدين به، الآخذين عنه، الحاذين على مثاله، المارّين على غراره، القافين على آثاره؛ وواحد يتعلّم ولا يُلهم فهو يماثل الأوّل في الدرجة الثانية، أعني التعلّم؛ وواحد يتعلّم ويُلهم، فتجتمع له هاتان الخلتان، فيصير بقليل ما يتعلّم كثيراً للعمل والعلم بقوة ما يُلهم ويعود بكثرة ما يلهم مصقياً لكل ما يتعلّم ويعمل.

والكلام في هذه المواضع ربّما جَمَح فلم يمكن كفّه، فينبغي أن يضح العذر إذا عرض تفاوتٌ في الترتيب، ودخل الخلل من ناحية التقريب.

وقال أبو سليمان لنا في هذه الأيام: الإنسان بين طبيعته وهي عليه وبين نفسه وهي له، كالمنتهب المتورّع، فإن استمد من العقل نوره وشعاعه قوياً ما هو له من النفس، وضعف ما هو عليه من الطبيعة وإلا فقد قوياً ما هو عليه من الطبيعة وضعف ما هو له من النفس.

وحكى لنا فقال: كان للحكماء الأولين مثلّ يضربونه ويكتبونه في هياكلهم ومتعبّاتهم وهو: «المَلِك الموكّل بالدنيا يقول: إنّ ههنا خيراً وههنا شراً، وههنا ما ليس بخير ولا شر، فمن عرف هذه الثلاثة حقّ معرفتها تخلّص منّي، ونجا سليماً، وبقي كريماً، وملك نعيماً عظيماً.

ومن لم يعرفها قتلته شرّ قتلته، وذلك أني لا أقتله قتلاً وحيّاً^(١) يستريح به متي، ولكن أقتله أولاً فأولاً في زمان طويل، بحسرات على قوت مأمول بعد مأمول، وبلايا يكون بها كالمغلول المكبول.

قال: هذا كلام شريف في أعلى ذروة الحكمة، لكنك خلّيت يدك من طرف الحديث في الخلق.

قلت: إذا طاب الحديث باسترسال السجية ووقوع الطمأنينة لها الإنسان عن مبادئه، وسال مع الخاطر الذي يستهويه، ولتحفظ الإنسان في قوله وعمله من الخطل والزلل حدّ إذا بلغه كل الخاطر واختل.

ثم نعود فنقول: أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاث: أعني النفس الناطقة، والنفس الغضبية، والنفس الشهوانية، وسمات هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع.

ويمكن أن يقال في نعتها على مذهب التقريب: إنها بين المحمودة وبين المذمومة، وبين المشوبة بالحمد والذم، وبين الخارجة منهما. فمن أخلاق النفس الناطقة - إذا صفت - البحث عن الإنسان ثم عن العالم، لأنه إذا عرف الإنسان فقد عرف العالم الصغير، وإذا عرف العالم فقد عرف الإنسان الكبير، وإذا عرف العالمين عرف الإله الذي بجوده وجد ما وجد، وبقدرته ثبت ما ثبت، وبحكمته ترتب ما ترتب؛ وبمجموع هذا كله دام ما دام.

بهذا البحث يتبين له ما تشتمل عليه القوة الغضبية والقوة الشهوية فإن توابع هاتين القوتين أكثر، لأنهما بالتركيب أظهر، وفي الكثرة أدخل وعن الوحدة أخرج؛ فإذا ساستهما الناطقة حذفت زوائدهما، ونفت فواضلهما ووقت نواقصهما، وذيلت قوالصهما أعني إذا رأت غلّمة في الشهوية أخدمت نارها، وإذا وجدت السرف في الغضبية قصرت عنانها؛ فحينئذ يقومان على الصراط المستقيم، فيعود السّفه جِلْماً أو تحالماً، والحسد غِبْطَةً أو تغابطاً والغضب كظماً أو تكاظماً، والغِيّ رُشْداً أو تراشداً، والطيش أناة أو تانياً وصرفت هذه الكوامن في المكامن - إذا سارت سورتها، وثارَت ثورتها - على مناهج الصواب، تارة بالعظة واللطف، وتارة بالرّجر والعنف وتارة بالأنفة وكبر النفس، وتارة بإشعار الحذر، وتارة بعلو الهمة؛ وهناك يصير العفو عند القادر الدّ من الانتقام، والعفاف عند الهائج الدّ من قضاء الوطر، والقناعة عند المحتاج أشرف من الإسفاف، والصداقة عند الموتور أثر من العداوة، والمدارة عند المُحَفَظ أطيب من المماراة.

وفي الجملة، الخلق الحسّن مشتق من الخلق، فكما لا سبيل إلى تبديل الخلق كذلك لا قدرة على تحويل الخلق، لكنّ الحضّ على إصلاح الخلق وتهذيب النفس لم

يقع من الحكماء بالعَبَث والتجزييف، بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة.

ومثاله أن الحبشي يتدلّك بالماء والغسُول لا يستفيد بياضاً، ولكن ليستفيد نقاءً شبيهاً بالبياض. ويقال للمِهْذَار: «أَكْفُفْ» لا ليكف عن النطق، ولكن ليؤثّر الصمت. ويقال للموتور: «لا تحقد» لا ليزول عنه ما حنق عليه، ولكن ليتكفّف الصبر ويتناسى الجزاء على هذا أبداً.

وقد تقرّر بالحكمة الباحثة عن الإنسان وطرائق ما به وفيه أن أحواله مختلفة، أعني أن كل ما يدور عليه ويحور إليه مقابل بالضدّ أو شبيه بالضدّ كالحيّة والموت، والنوم واليقظة، والحسن والقبيح، والصواب والخطأ، والخير والشر، والرجاء والخوف، والعدل والجور، والشجاعة والجبن، والسخاء والبخل، والحلم والسّفه، والطّيش والوقار، والعلم والجهل، والمعرفة والنكرة والعقل والحمق، والصحة والمرض، والاعتدال والانحراف، والعفة والفجور والتنبّه والغفلة، والذكر والنسيان، والذكاء والبلاهة، والغبطة والحسادة والدمائة والكزازة، والحق والباطل، والغنى والرُّشد، والبيان والحصر والثقة والارتياب، والطّمأنينة والثّمة، والحركة والسكون، والشكّ واليقين والخلاعة والوقار، والتوقّي والتهوّر، والإلف والمَلَل، والصدق والكذب والإخلاص والنفاق، والإحسان والإساءة، والنصح والغش، والمدح والذم وعلى هذا الجَزّ والسَّخْب؛ ولعل هذه الصفات بلا آخر ولا انقطاع.

فما ينبغي أن يُعنى الإنسان المحبُّ للتبصرة، المؤثّر للتذكرة، الجامع للنافع له، النافي للضارّ به في هذه الأحوال التي وصفناها بأسمائها معرّفة - ما استطاع - باجتلاب محمودها واجتناب مذمومها، وتمييزه مما يكمن فيه أو تقليله، أو إطفاء جمرته، أو اجتناء ثمرته، والطريق إلى هذا التمييز واضح قريب، كأن تنظر إلى الحياة والموت فتعلم أنّ هذين ليسا من الأخلاق ولا ممّا يعالج بالاجتهاد، وإلى النوم واليقظة فتعلم أنّهما ضروريّان للبدن من وجه، وغير ضروريّين من وجه، فتتّفى منهما ما خرج عن حدّ الضرورة وتُسَلِّم البدن ما دخل في حدّ الضرورة؛ ولا يكثرن الإنسان نومّه ولا سهره، ولكن يطلب العدل بينهما بقدر جهده.

فأمّا الحسن والقبيح فلا بدّ له من البحث اللطيف عنهما حتى لا يجور فيرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً، فيأتي القبيح على أنه حسن، ويرفض الحسن على أنه قبيح؛ ومناشئ الحسن والقبيح كثيرة: منها طبيعي، ومنها بالعادة، ومنها بالشرع، ومنها بالعقل، ومنها بالشهوة، فإذا اعتبر هذه المناشئ صدق الصادق منها وكذب الكاذب، وكان استحسانه على قدر ذلك، ومثال ذلك الكبر فإنه مَعِيب بالنظر الأول، لكنّه حسنٌ في موضعه بالعلّة الداعية إليه، والحال الموجبة له.

وأما الصواب والخطأ فأمران عارضان للأقوال والأفعال والآراء، وليساً بخُلُقَيْن مَخْضِيَيْن، ولكنهما موكولان إلى نور العقل، فما أشرقَ عليه العقل بنوره فهو صواب، وما أفلَ عنه العقل بنوره فهو خطأ.

وأما الخير والشر فهما في العموم والشُمول ليسا بدون الصواب والخطأ لهما مناط بكل شيء، وَيَغْلِيَان على الأفعال، وإن كان أحدهما عَدَمًا لِلآخَر.

وأما الرجاء والخوف فهما عَرَضَان للقلب بأسباب بادية وخافية، ولا يدخلان في باب الخُلُق من كل وجه ولا يخرجان أيضاً بكل وجه وهما كالعِمَادَيْن للإنسان قد استُصْلِح لهما، ورُبِط قِوَامُهُم بغلبتهما وُضِعَ فِهُمَا.

وأما العدل والجور فقد يكونان خُلُقَيْن بِالْفِطْرَةِ، ويكونان فِعْلَيْن بالفكرة وجانباهما بالفِعْل أَلْصَق، وإلى الاكتساب أقرب.

وأما الشجاعة والجبن فهما خُلُقَان متصلان بالخُلُق، ولهذا يعزّ على الشجاع أن يتحوّل جبّاناً، ويتعذّر على الجبان أن يصير شجاعاً، وكذلك طرفاهما داخلان في الخُلُق أعني التهورَ والتوقي.

وأما السخاء والبخل فهما خُلُقَان محضان أو قريبان من المَخْض، ولهذا تعلّق الحمد والذم بهما وبأصحابيهما، والمدح والهجو سريا إليهما واتصلا بهما؛ وقد يندم السخي على بذله كثيراً خوفاً من الإملاق، فلا يستطيع ذلك إذا أخذته الأريحية، وحرّكته اللؤدعية، وقد يلوم البخيل نفسه كثيراً إذا سلّقه الألسنة الحداد، وجبه بالتوبيخ، وشمخ عند رؤيته الأنف، وُغْضَنَ الجبين وأولِمَ بالعدل وقوبل؛ ومع ذلك فلا يَرُشَح إلا على بطاء وكُلْفَةٍ وتَضَجُّر؛ والكلام في هذين الخُلُقَيْن طويل، لأنهما أدخل في تلاقي الناس وتعاطيهم في عِشْرَتِهِمْ ومعاملتهم.

وأما الحِلْم والسّفه فهما أيضاً خُلُقَان، والأخلاق تابعة للمزاج في الأصل، ولذلك قلنا: إن الخُلُق ابنُ الخُلُق، والولد شبيهٌ بوالده؛ وفي الجملة، كل ما يمكن أن يقال فيه للإنسان «لا تفعل هذا»، «وأقلل من هذا وكف عنه» فإنه في باب الأفعال أدخل، وكل ما لم يَجُزْ أن يقال ذلك فيه فهو في باب الأخلاق أدخل، ثم لبعض هذا نسبة إلى الخُلُق أو الخُلُق، إما ظاهرة غالبية وإما خفية ضعيفة.

وأما الطَّيِّش والوَقَار فهما يختلطان بالحلم والسّفه ويجريان معهما؛ فليس ينبغي أن يُنْشَر الكلامُ ويطول الشرح.

وأما الجهل والعلم فليسا من الأخلاق ولا من الخُلُق وإنما يُبرِزان من صاحب الأخلاق والخُلُق للمزاج أثرين قويتين واحدهما عَدَم والآخر وجدان، والعلم لا يكون أَعْدَم من عدم، والوجدان يكون أبين من وجدان.

وأما المعرفة والنكرة فهما في جوار العلم وضده، ولكنهما أعلق بالحسّ وألصق بالنفسين، أي الشهوية والغضبية.

وأما العقل والحمق فليسا من الخلق، والكلام في تفسير العقل مشهور، وعدمه الحمق.

وأما الصحة والمرض فليسا أيضاً من الأخلاق، ولكنهما يوجدان في الإنسان بواسطة النفس، إما في البدن، وإما في العقل، ولذلك يقال: أمراض البدن، وأمراض النفس، وصحة البدن وصحة النفس.

وأما الاعتدال والانحراف فهما يدخلان في الخلق بوجه، ويخلصان منه بوجه، ويعتدنان أعراض البدن وأعراض النفس، ويوصف بهما الإنسان، على أن الانحراف المطلق لا يوجد، والاعتدال المطلق لا يوجد، ولكن كلاهما بالإضافة.

وأما العفة والفجور فخلقان لهما جَمرة وهُمود، والحاجة تمسّ إلى العدل في استعمال العفة ونفي الفجور، وإذا قويت العفة حالت عصمة، وإذا غلب الفجور صار عدواناً.

وأما التنبّه والغفلة فقريبان من الخلق ويغلبان على الإنسان، إلا أن فرط التنبّه موصول بالوحي، وفرط الغفلة موصول بالبهيمية.

وأما الذكر والنسيان فليسا بخلقين محضين، ومنشؤهما بالمزاج، وأحدهما من علائق النفس العالمة، والآخر من علائق النفس البهيمية.

وأما الذكاء والبلادة فهما خلقان، ونعتهما كنعت الذكر والنسيان، إلا أن هذين يعرضان في الحين بعد الحين، والأخريان كالراسخين في الطينة.

وأما الغبطة والحسد فخلقان رُسم الأول منهما بأن تتمنى لنفسك ما أُوتيه صاحبك ورُسم الثاني بأن تتمنى زوال ما أُوتيه صاحبك وإن لم يصل إليك. ورسوم هذه الأخلاق أسهل من تحديدها، لكننا تركنا ذلك، لأن الكلام الذي كان يجري هو على مذهب الخدمة.

على أن مراتب هذه الأخلاق مختلفة، فيبعد أن يعمّها حد واحد، وإنما اختلفت منازلها لأنها تارة تصفو بقوة النفس الناطقة، وتارة تكدر بالقوتين الأخرين؛ ولبعضها جِدّة بالزيادة، ولبعضها كَلّة بالنقص، فلم يكن التحديد يُفصل كلّ ذاك، فلم نخرج على شيء عجّزنا عنه قبل أخذنا فيه.

ونتمّ بقية ما علق بهذه الجملة، فنقول:

وأما الدمائية والكزازة فخلقان محضان تابعان للمزاج، ثم المران يزيدهما قوّة

وَضَعْفًا؛ وهما للنعت أقرب، كالسهولة والعسر؛ ولذلك يقال: «ما أذَمْتُ هذه الأرض»، أي ما أُرَخَّاهَا وأَلَيَّهَا؛ وفي المثل:

«دَمْتُ لَجَنِيكَ قبل النوم مضطجعاً»^(١)

وأما الحق والباطل فليسا من الخُلُق ولا الخَلْق في شيء، وهما من نتائج المعرفة والنكرة، لأنك تعرف الحق وتنكر الباطل، وذلك لأغراض تتبعهما، ولواحق تلتبس بهما.

وأما الغَيِّ والرُّشد فليسا من الخُلُق، لكنهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة؛ وللرأي والعقل فيهما مدخل قوي وحظ تام.

وأما البيان والحَصْر فليس بينهما وبين الخُلُق علاقة، وإنما يتبعان المزاج ويزيد فيهما وينقصُ الجهد والتواني والطلب والقصور.

وأما الثقة والارتياح فخلقان يغلبان ينفعان ويضران ويُحمدان ويُذمان، ألا ترى أنه يقال: لا تثق بكلِّ أحد، «ولا تَرْتَبْ بكلِّ إنسان» وهكذا الطُّمأنينة والثَّهْمَةُ، لأنهما في طيهما.

وأما الحركة والسكون فليسا من حديث الخُلُق في شيء لأنهما عامان لجميع الأحوال سواء كان العمل مباشراً أم كان معتقداً.

وفي الحركة والسكون كلامٌ واسع، وذلك أن ههنا حركةً إلهيةً، وحركةً عقليةً، وحركةً نفسيةً، وحركةً طبيعيةً، وحركةً بدنيةً، وحركةً فلكيةً، وحركةً كوكبيةً، وحركةً كأنها سكون. فأما السكون فهو ضرب واحد، لأنه في مقابل كلِّ حركة ذكرناها. فإذا اعتبرت هذه المقابلة في كلِّ مقابل لحظ الانقسام في السكون، كما وُجد الانقسام في الحركة. والحركة أوضح برهان على كلِّ موجود حسيٍّ، والسكون أقوى دليل على كلِّ موجودٍ عقليٍّ؛ وهذا القدر كافٍ في هذا الموضع.

وأما الشُّكُّ واليقين، فمن علائق النفس الناطقة، ولهذا لا يقال في الحيوان الذي لا ينطق: له يقين وشك.

وأما الخلاعة والوقار، فقد تقدّم البحث عنهما.

وأما التوقّي والتهور، فهما خُلُقَان في جميع الحيوان، ويغلبان على نوع الإنسان، لأنَّ العقل يُبطل أحدهما، والحسَّ يغلب الآخر.

وأما الإلف والمَلَل فخلقان محضان، يُذَمَّان ويُحَمَدَان على قدر المألوف والمملول، وإن كان جَرِيَان العادة قد وُفِّرَ الحمد على الإلف، والذم على المَلَل.

(١) بيت شعر، عجزه: لا تسلكن طريقاً غير مأمون.

وقد مُدِح زيد فقيل : هو ألوف . وذُم عمرو فقيل : هو ملول .

وأما الصدق والكذب ؛ فمن علائق النفس الناقصة والكاملة ؛ وقد يكونان راسخين فيلحقان بالخلق ، إلا أن الصدق ممدوح ، والكذب مذموم ، هذا في النظر الأول ، وقد يعرض ما يوجب المصير إلى الكذب لينجى به ؛ فهما إذن بعد الحقيقة الأولى وقف على الإضافة ؛ وقد وجدنا من كذب ليتفع ، ولم نجد من صدق ليكتسب الضرر .

وأما الإخلاص والنفاق ، فهما يلحقان بالخلق ، ولكنهما يصدران عن عقيدة القلب وضمير النفس .

وأما الإحسان والإساءة ، فهما يعلمان الأفعال والأقوال ، فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقيين .

وأما النصح والغش ، فهما خلقتان ، وطرفاهما يتعلقان بالخلق .

وكذلك الطمع واليأس ، والحب ، والبغض ، واللهج والسُّلُو ، وما شاكل هذا الباب .

ولم يجز هذا كله في المذاكرة بالحضرة ، ولكن رأيت من تمام الرسالة أن أضمت هذا كله إلى حوْمَتِهِ ، وأبلغ الممكن من مقتضاه في تتمته .

وقال لي : هاتِ الوداع ، فإنَّ الليل قد همَّ بالإقلاع .

قلت : قال أبو سعيد الذهبي الطيب : لو علم الذي يحمل الباذنجان أنَّ على ظهره باذنجاناً لصال على الثيران .

فضحك - أضحك الله سيئه ، وحقق في كل خير ظنه - وقال : إن كنت تحفظ في غرائب أخلاق الحيوان شيئاً فاذكره إذا حضرت ، فقد مرَّ في أخلاق الإنسان ما يكفي مجلس الإمتاع والمؤانسة ، فإذا ضمت هذا إلى ذاك كان للإنسان فيه تبصر كافٍ ، وتذكُّر شافٍ . وصدق - صدق الله قوله - لأن الإنسان أشرف الحيوان ، وإنما كان هكذا لأنه حاز جميع قوى الحيوان ثم زاد عليه بما ليس لشيء منه ، فصار رباً له سائساً ، ومصرفاً له حارساً ، ونظر إلى ما سُخر له منه فاعتبر ، وقاد نفسه إلى حسن ما رأى ، وعزفها عن قبيح ما وجد ، ولم يجز في الحكمة أن يحرم الإنسان هذا مع ما فيه من المواهب السنية ؛ والمناخ الهنية ، فإن قال قائل : فالملائكة إذن قد حُرمت هذه الفضيلة ؟ فليعلم هذا القائل أن الملك لما خلق كاملاً لم يكلف أن يكمل ويتكامل ويستكمل ، فصار كل شيء يطلبه ويتوخاه سبباً إلى كماله المُعدَّ له وغايته المقصودة . فإن زاد فقال : فهلا خلق كاملاً ؟ فليعلم أن كلامه على طريق الجدال ، لا على طريق البحث عن العلل ، لأنه قد جهل أنه بالحكمة وجب أن يكون الأمر مقسوماً بين ما يحوز الكمال بالجيلة ، وبين ما يكسب الكمال بالقصد .

ولمَّا وَجَبَ هذا بالحكمة سَرَتْ إليه القدرة، وساح به الجود، واشتملت عليه المشيئة، وأحاطت به الحكمة، وشاعت فيه الربوبية.

وههنا زيادةٌ في شرح الخُلُق يتم بها الكلام؛ فليس من الرأي أن يقع الإخلال بذكرها، لأنَّها مكشوفة ظاهرة، وهي أنَّ الإنسان إذا غلبت الحرارة عليه في مزاج القلب يكون شجاعاً نزلاً، ملتهباً، سريع الحركة والغضب قليل الحقد، زكي الخاطر، حسن الإدراك.

وإذا غلبت عليه البرودة يكون بليداً، غليظ الطباع، ثقیل الروح.

وإذا غلبت عليه الرطوبة يكون لين الجانب، سمح النفس، سهل التقبل كثير النسيان.

وإذا غلبت عليه اليبوسة يكون صابراً، ثابت الرأي، صعب القبول يضبط ويحتد، ويمسك ويبخل؛ وهذا النعت على هذا التنزيل - وإن كان مفهوماً - فأسرار الإنسان في أخلاقه كثيرة وخفية، وفيها بدائع لا تكاد تنتهي، وعجائب لا تنقضي؛ وقد قال الأول:

كُلُّ امرئٍ راجعٌ يوماً لشيئته وإن تَخَلَّقَ أخلاقاً إلى حينٍ
وقال آخر:

إِزْجِعْ إلي خِيَمَكَ المعروفِ دَيْدَنُهُ إِنَّ التَّخَلَّقَ يَأْتِي دُونَهُ الخُلُقُ
ولولا أن النزوع عن الخلق شاق لما قالوا: تَخَلَّقْ فلان.

وقد قيل أيضاً: «وخالق الناس بخلق حسن»، وعلى هذا يجري أمر الضريبة والطبيعة والنَّحِيَّة والغريزة والنَّجِيزَة والسَّجِيَّة والشَّيْمَة، وربما قيل: الطبيعة أيضاً، ثم العادة تالية لهذه كلها، أو زائدة فيما نقص فيها، وموقدة لما حَمَدَ منها.

الليلة العاشرة

ولما عُدْتُ في الليلة الأخرى ونَعِمْتُ بهذه الفضيلة، تفضّل وقال: ما في العلم شيءٌ إلّا إذا بُدئ بالكلام فيه اتّصل وتسلسل حتّى لا يوجد له مَقْطَع ولا منفذ. ثم قرأتُ عليه نوادرَ الحيوان، وغرائبَ ما كنْتُ سمعتهُ ووجدتهُ، فزاد عجباً وأنا أرويه في هذا المكان حتّى يكون تذكّرةً وفائدةً - إن شاء الله تعالى.

يقال: إن أسنان الرجل اثنتان وثلاثون سنّاً.

وأَسنان المرأة ثلاثون سنّاً.

وأَسنان الخَصِيّ ثمانٌ وعشرون سنّاً.

وأَسنان البقر أربعٌ وعشرون سنّاً.

وأَسنان الشاة إحدى وعشرون سنّاً.

وأَسنان الثَّيْس ثلاثٌ وعشرون.

وأَسنان العنز تسع عشرة سنّاً.

الذي ذكر من أصناف الحيوان أنه يكتسب معاشه ليلاً: البومة والوطواط.

ومن الحيوان الوحشيّ ما يستأنس سريعاً: الفيل.

ويحكى أن الحيوان الذي أسنانه قليلة عمره قصير، والذي أسنانه كثيرة

عمره طويل.

الفيلُ إذا وُلد نبتت أسنانه في الحال، فأما أسنانه الكبار وأنيابه الكبار فتظهر إذا

شَبَّ وكَبُر.

قلب جميع الحيوان موضوعٌ في الوسط من الصدر ما خلا الإنسان، فإن قلبه

مائل إلى الجانب الأيسر.

الأفعى تبيض في رحمها، ثم يصير هناك حيواناً.

الشعر المولود مع الإنسان شعرُ الرأس والأشعار والحاجبين.

وأول ما ينبت بعد ذلك شعر العانة وشعر الإبطين وشعر اللحية:

(إن خُصي الإنسان قبل احتلامه لم ينبت في جسده الشعر الذي يتأخّر نباته،

وإن خُصي بعد احتلامه فإن ذلك الشعر يزول، ما خلا شعر العانة فإنه يَبْقَى).

المرأة إذا احتبس طمئتها ربما خرج لها شعرٌ يسيرٌ في موضع اللحية .
 شعر الحاجبين ربما طال عند الكبير .
 وشعر الأشفار لا يطول .
 للآرانب في داخل أشداقها شعر ، وكذلك تحت أرجلها .
 القنفذ في فيه خمس أسنان في عمقه .
 والبرية منها تسفد قائمة وظهر الأنثى لاصق بظهر الذكر .
 الرجال يشاققون إلى الجماع في الشتاء ، والنساء في الصيف .
 الخنزير إذا تمت له من ولادته ثمانية أشهر ينزو على الأنثى .
 الكلبة تحمل وتبقى ستين يوماً ويوماً ، وهذا أطول ما يكون ، ولا تضع قبل أن
 يتم حملها ستين يوماً ، فإن وضعت قبل ذلك فإنها لا تربى ولا يبقى لها ولد .
 الفيل الذكر ينزو إذا تمت له خمس سنين ، وزمان هياجه ونزوه أيام الربيع
 والأنثى تحمل سنتين ، ولا تضع إلا واحداً .
 إذا باض الطائر وما كان من أصنافه يخرج من البيضة الطرف العريض ثم يرق
 بعد ذلك .
 كل ما كان من البيض مستطيلاً محدّد الطرف فهو يفرخ الإناث وما كان مستديراً
 عريض الأطراف يفرخ الذكور .
 وجُرب من إناث الطير أنها إذا لم تجلس على البيض تمرض .
 القُبج إذا هاج ووقفت الأنثى قبالة الذكر ، وهبت الريح من ناحية الذكر مقبلة
 إلى ناحيتها حملت من ساعتها .
 الحمامة إذا نُتفت ريشة من ريشها احتبس بيضها أكثر مما لها بالطبع .
 مبدأ خلق الفرخ من بياض البيضة ، وغداؤه من الصفرة ، فإذا خرج فرخان كان
 أحدهما أكبر جثةً من الآخر ، والذكر منهما من البيضة الأولى ومن الثانية الأنثى .
 الفاخِنة تعيش أربعين عاماً .
 والحَجَل يعيش عشرين عاماً .
 الرخمة تُفرخ على صخور مشرفة عالية لا ينالها أحد ، ولا توجد رخمة وفراخها
 إلا في القرط^(١) .
 العقاب يجلس على البيض ثلاثين يوماً ، وكذلك كل طائر عظيم الجثة مثل الإوز وما
 أشبهه ، والمتوسط الجثة يجلس على البيض عشرين يوماً ، كالجدأة والبزاة وما أشبه ذلك .

(١) الجبل الصغير أو رأس الأكمة .

إناث الغُربان تجلس على البيض جلوساً دائماً، والذكر يأتيها بالطعم حينئذٍ.
الحَجَلُ تَعْمَلُ عُشَّينِ يجلس الذكر على واحد، والأنثى على واحد.

الطاوس يعيش خمساً وعشرين سنة، وفي هذه المدة تنتهي ألوان ريشه.
ويحضن بيضه ثلاثين يوماً. قيل: وربما أكثر قليلاً، ويبيض في كل سنة مرة واحدة،
وعدد بيضه اثنتي عشرة بيضة، ويلقي ريشه في زمن الخريف وبعده قليلاً، وذلك حين
يلقي الشجر ورقه، فإذا بدا أول الشجر وظهرت فروعها، ونبت ورقه بدأ ريشه ينبت.

الدُّلَيفُ له لبن، ويُرضع، ويحمل عشرة أشهر، وتلد في الصيف ولا تلد في
زمان آخر البتة، وربما غاب تحت الموج في الماء ثلاثين يوماً لا يظهر؛ وهو محب
لخبرته يأكله.

الجمل الذكور يكره قرب الفرس ويقاقله إذا تمكن منه.

الشاة إن مطرت بعد نزوها انتفض حملها.

الغنم إذا أنزيت والريخ جنوب تضع أولادها إناثاً؛ وإن كانت العروق التي تحت
السُن الكباش الفحول بيضاً فإن إناث الغنم تضع حملاناً بيضاً، وإن كانت العروق
سوداً فإنها تضع حملاناً سوداً. وإن كانت لونين تكون مختلفة؛ وإن كانت شقراً
خرجت شقراً.

الغنم إذا هاجت المُسِنَّة منها أولاً فالسنة ذات خضب، وإن هاجت الفتية أولاً
فالسنة رديئة على الغنم.

الكلب السلوقي ينزو إذا تم له ثمانية أشهر، والأنثى منها تحمل ستين يوماً،
وربما زادت يوماً أو يومين، وجراؤها عمي اثنين وعشرين يوماً. ومنها ما تحمل ثلاثة
أشهر وتكون جراؤها عمياً سبعة عشر يوماً.

إناث الكلاب تطمت في كل سبعة أيام وتبول جالسة، ومنها ما ترفع رجلها
عند البول.

ذكور الكلاب ترفع أرجلها للبول إذا تمت لها من ولادتها ثمانية أشهر وبعضها
في ستة أشهر.

ذكور الكلاب السلوقية تعيش عشر سنين، وإناثها اثنتي عشرة سنة، ومن
أجناسها ما تعيش عشرين سنة، وإناثها كلها أطول أعماراً من الذكور.

قال أوميروس الشاعر: إن كلب أديسوس هلك وهو ابن عشرين سنة.

وليس تلقى الكلاب شيئاً من أسنانها سوى النابيين، فإذا تم للكلب أربعة
أشهر أبقاها.

البقر تُلقِي أسنانها لستتين، وإذا كثر نزوُ الذكور منها وحملُ الإناث يكون ذلك علامةً شتاء وجُودِ أمطار وخصب، وإناثها تَطْمَت.

إناث الخيل تضع أولادها في أحد عشر شهراً، أو في الثاني عشر.

الحيات رَغْبَةٌ نَهْمَةٌ، قليلة شرب الماء، لأنها لا تضبط أنفسها، وإذا شمت الشراب فإنها تشتاق إليه جداً.

الأسد إذا بال رفع رجله كما يرفع الكلب.

البقر تشتهي شرب الماء الصافي النقي، والخيل على المضد فإنها تشرب مثل الجمال الماء الكدير الغليظ.

الغنم في الخريف تشرب الماء الذي تصيبه ريح الشمال، وذلك الوقت أوفق لها. الدُرَّاج إذا هبَّت الريح شمالاً تتزاورج وتُخَصِّب، وإن كانت جنوباً ساءت حالها ومرضت.

السّمك الذي يأوي إلى الشطوط من ناحية البرّ ألدّ من الذي يأوي اللّجج وما كان منها مستطيل الجثة فهو يُخَصَّب في الصّيف وهبوب الشمال؛ والعريض الجثة على ضد ذلك، وأكثر ما يصاد السمك قبل طلوع الشمس لكّبه على الرعي، وطلب الطّعم.

والسمك الجاسي الجلد يخصب في السنة المطيرة، لأن ماء البحر يحلو فيها. الكلب له ثلاثة أمراض: الكَلْب، والدُّبْحَةُ - وهو القاتل لها - والثُّقْرَس. والداء الذي يقال له الكَلْب يعرض للجمال أيضاً، فإذا كَلِبَ الجمل بَخِرَ ولم يؤكل لحمه.

الخيّل إذا أَلَقَتْ حوافرها وقت تَنْصُل نبت لها حافر آخر عاجلاً، لأن نباته يطلع مع نصول الحافر. وعلامة ذلك اختلاج الخصية اليمنى.

ويعرض للخيّل داء شبيه بالكَلْب، وعلامته استرخاء آذانها إلى ناحية أعرافها، وامتناعها من العَلْف، وليس لهذا الداء علاج إلا التسكين.

لا يكون في بلد الهند خنزير. لا أنيس ولا بري، وفي أرض تُعرف بكذا يجرّ البقر كما يجرّ الغنم، وفي أرض الثوبة تولّد الكباش نابتة القرون.

وإناث الكلاب السّلوقية أسرع إلى الأدب من الذكور.

جميع أجناس الحيوان إناثها أقل جرأة وأجزع، ما خلا الذئبة، فإنها أصعب خُلُقاً وأجراً من الذكور.

العُقاب والثَّيْن يتقاتلان، والعُقاب تأكل الحيات حيثما وجدتّها.

الْغُدَاف يَخْطِفُ بَيْضَ الْبُومَةِ نِصْفَ النَّهَارِ فَيَأْكُلُهُ، لِأَنَّ الْبُومَةَ لَا تَبْصُرُ بَصَرًا حَادًّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ. فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ شَدَّتْ الْبُومَةُ عَلَى بَيْضِ الْغُدَافِ فَأَكَلَتْهُ.

بَيْنَ الْعَنْكَبُوتِ وَبَيْنَ الْجِرَذُونِ شَرٌّ، لِأَنَّ الْحَرَذُونَ يَأْكُلُ الْعَنْكَبُوتَ.

عَصْفُورُ الشُّوْكِ يَقَاتِلُ الْحِمَارَ، لِأَنَّ الْحِمَارَ إِذَا مَرَّ بِالشُّوْكِ أَفْسَدَ عَشَهُ، فَإِذَا نَهَقَ بِالْقَرَبِ مِنْهُ وَقَعَ بَيْضُهُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ فَرَاخٌ خَرَجَتْ مِنْهُ، فَلِهَذَا الْعِلَّةُ يَطِيرُ هَذَا الْعَصْفُورُ حَوْلَ الْحِمَارِ وَيَنْقُرُهُ.

وَالْغُرَابُ يَعَادِي الثَّورَ وَالْحِمَارَ وَيَنْقُرُهُمَا.

وَالْحَيَّةُ تَعَادِي الْخَنْزِيرَ وَابْنَ عَرَسٍ، لِأَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ الْحَيَّةَ حَيْثُ وَجَدَاهَا.

الْغُدَافُ مَصَادِقُ لِلثَّعْلَبِ، وَالثَّعْلَبُ مَصَادِقُ لِلْحَيَّةِ، «وَالسَّبَبُ فِي عِدَاوَةِ الْعَصْفُورِ لِلْحِمَارِ أَنَّ مَعَاشَ الْعَصْفُورِ مِنْ بَزْرِ الشُّوْكِ وَفِيهِ بَيْضٌ، وَهُوَ وَكْرُهُ، وَالْحِمَارُ يَرْعَى ذَلِكَ الشُّوْكَ إِذَا كَانَ رَطْبًا».

الْبَقَرُ يَكُونُ فِي الْجِبَالِ إِذَا ضَلَّتْ بِقَرَةٍ تَبْعَثُهَا الْآخَرَى، وَلِذَلِكَ الرِّعَاءُ إِذَا لَمْ يَجِدُوا بِقَرَةً وَاحِدَةً وَعَدَمُوهَا طَلَبُوا سَائِرَ الْبَقَرِ وَفَقَدُوهَا مِنْ سَاعَتِهِمْ.

الْخَيْلُ إِذَا ضَلَّتِ الْأُنْثَى مِنْهَا أَوْ هَلَكَتْ وَلَهَا وَلَدٌ فَإِنَّ إناثَ الْخَيْلِ تَرْضَعُهُ وَتُرِييُهُ، وَذَلِكَ أَنَّ جِنْسَ الْخَيْلِ فِي طَبَاعِهَا حُبُّ أَوْلَادِهَا.

الْأَيَّالُ تُلْقِي قُرُونَهَا فِي أَمَاكِنَ عَسِيرَةٍ صَعْبَةٍ، لَا تُرْتَقَى لئَلَّا تَوْخِذَ؛ وَلِذَلِكَ قِيلَ فِي الْمَثَلِ: حَيْثُ تُلْقِي الْأَيَّالُ قُرُونَهَا، فَإِذَا أَلْقَتْهَا تَوَقَّتْ أَنْ تَظْهَرَ إِلَى أَنْ تَنْبِتَ، كَأَنَّهَا قَدْ أَلْقَتْ سِلَاحَهَا. وَقِيلَ: إِنَّهُ لَمْ يَعَايِنِ أَحَدُ الْقُرْنِ الْأَيْسَرِ مِنْ قُرْنِهَا، لِأَنَّ فِيهِ مَنْفَعَةً عَظِيمَةً.

وَإِذَا وَضَعَتْ أَوْلَادَهَا أَكَلَتْ مَشَائِمَهَا مِنْ سَاعَتِهَا، وَلَا يُمْكِنُ أَخْذُهَا لِأَنَّهَا تَأْكُلُ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ.

وَالْأَيْلَةُ تَصَادُ بِالصَّفِيرِ وَالْغَنَاءِ، وَيَفْعَلُ ذَلِكَ رَجُلَانِ أَحَدُهُمَا يَغْنِي وَيَصْفُرُ، وَالْآخَرُ يَرِشِقُهَا بِالسَّهَامِ، فَلِإِصْغَائِهَا إِلَى الصَّفِيرِ وَالْغَنَاءِ لَا تَحْذَرُ السَّهَامَ.

وَيَقَالُ إِنْ الْأَيْلَ إِذَا كَانَتْ أَذْنَاهُ قَائِمَتَيْنِ فَهُوَ يَسْمَعُ كُلَّ شَيْءٍ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا يَرَادُ بِهِ، وَإِنْ كَانَتَا مُسْتَرْخِيَتَيْنِ خَفِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِ.

الْفَهْدُ إِذَا أَكَلَ الْعَشْبَةَ الَّتِي تَسْمَى خَانَقَةَ الْفُهُودِ يَطْلُبُ زَيْلَ الْإِنْسَانِ فَيَأْكُلُهُ وَيَتَعَالَجُ بِهِ.

ابْنُ عَرَسٍ إِذَا قَاتَلَ الْحَيَّةَ أَكَلَ السَّذَابَ مُخَالَفَةً لِلْحَيَّةِ.

الْلِقَالِقُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قِتَالِ بَعْضِهَا بَعْضًا تَضَعُ عَلَى الْجَرْحِ صَعْتَرًا بَرِيًّا.

يَقَالُ إِنْ ذَكَورَ الْعَصَافِيرِ تَبْقَى سَنَةً فَقَطْ، وَالْدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ - أَنَّهَا مِنْ قَبْلِ أَطْوَاقِهَا

التي في أعناقها - لا تظهر في الربيع، بل بعد ذلك بأيام، لأنها لا تُبقي شيئاً من الذكور التي كانت من العام الماضي، فأما إناثها فهي أطول أعماراً.

إذا دنا الصياد من عش القَبَج تخرج الأنثى من بين يديه وتطمعه في صيدها حتى تهرب فراخها، ثم تطير وتدعو فراخها إليها.

وإناث القَبَج تبيض خمس عشرة بيضة، والذكر منها يطلب موضع بيض أنثاه فيدحرجه - مخافة أن تقعد عليه وتشتغل عنه - فيفسده، وهي تحتال أبداً في الهرب منه وتُخفي موضع عُشها، فتبيض في أماكن خفية، ومتى قصدها قامت عنه وأطمعت في نفسها حتى تبعد عن أماكن بيضها، فإذا بعد طارت ثم احتالت في الرجوع إليه.

الهدهد يعمل عشه من زبل الإنسان، فلذلك رائحته كريهة. العقاب تصيد منذ حين الغداة إلى وقت الرواح، فأما من أوان الرّواح إلى أن يترحل النهار فهي قاعدة في مكانها لا تتحرك.

ومنقار العقاب الأعلى ينشأ ويعظم ويتعقّف حتى يكون ذلك سبب هلاكها لأنّها لا تنال به الطعم، فإذا فضلت للعقاب فضلة من طعمه وضعها في عُشّه لحاجة فراخه إليها. أصناف الطير المعقّفة المخالب لا تجلس على الصخر إلا في الفَرَط، لأنّ خشونة الصخر مخالفة لتعقّف مخالبها.

النحل تعمل عُشّها في زمانين: في الربيع والخريف. والعسل الذي تعمله في الربيع أشدّ بياضاً وأجود من الذي تعمله في الخريف. وأضعف العسل يكون أبداً في أعلى الإناء، والنقيّ الطيّب في أسفله. الأسد عظامه جاسية جداً، وإنّ ذلكت بعض عظامه ببعض خرجت منها نار كما تخرج من الحجارة.

الحيوان الذي له شعر في أشفار عينيه ليس في أشفار عينيه شعر إلا الشعر الأعلى. والنعام لها أشفار في الجفنين الأعلى والأسفل. القنفذ تبيض خمس بيضات، وليس هو ببيضاً بالحقيقة، بل هو على صورة البَيْض، يُشبه الشحم.

قلب كلّ حيوان طَرَفه حادّ، وهو أصلب من سائر جسده، وهو موضوع في وسط الصدر سوى الإنسان، فإنه مائل فيه إلى الناحية اليسرى، لأنه يكون بإزاء الجانب الأيسر فيعادل الناحية اليمنى، فإن اليسرى من الإنسان أكثر برداً.

وليس في قلوب جميع الحيوان عظم إلا في الخيل، وفي جنس من البقر، فإن في قلب هذين عظماً دون غيرهما من الحيوان.

وكل حيوان له قلبٌ كبيرٌ يكون جزوعاً.
الكلاب الهندية تتولد من كلب وسيع شبيه بالكلب.
والحمار حيوان بارد، ولذلك لا يكون الوحشي منها إلا في المكان البارد.
ذكور البغال لا تشم أبوال إنائها كسائر ذوات الحافر.
بيض الطير فيه لونان: بياض وُصفرة.
وبيض السمك فيه لون واحد.
إذا كانت الريح جنوباً كان المولود أنثى، لأن الجنوب إذا هبت رطبت وإذا
أشملت كان المولود ذكراً.
عيون جميع الصبيان ساعة ولادتهم شُهل^(١)، ثم تنتقل إلى الطباع الغالبة عليها.
وعيون جميع الحيوان لون واحد، كالبقر فإن عيونها سود. وعيون البشر ألوان كثيرة.
صاحب العين الناتئة لا يُبصر ما بعد عنه بصرأ جيداً، والغائرة تُبصر ما بُعد
عنها، لأن حركتها لا تتفرق ولا تبدد.
الفهد ربما نكح الدب فيتولد بينهما سُبُع مختلف المنظر، لا يتناول الناس
ويصيد الكلاب ويأكلها ويستخفي في الشجر، فإذا مرَّ به أُيِّل مفاجأة وثب عليه وأنشب
مخالبه في أكتافه ومضّ دمه حتى يضعف الأيِّل ويسقط فيجتمع عليه هذا الصنف من
السباع فيأكله، فإن اجتاز بها أسد نهضت عنه وتركت الفريسة له تقريباً إليه.
بأرض يونان معزى جعدة الصوف، يقال لها: المعزى البرية، فإذا أصابت
قرونها شيئاً من قُضبان الكرم لم يَنْبث ورقه ولا ثمره، بل يجفّ مكانه ويسقط ما عليه
من الورق والثمر.
السُلخفاة تخرج من البحر إلى الرمل فتبيض فيه، حتى إذا بلغ أوانه وخرج أولادها،
فما كان ناظراً إلى ناحية البحر كان بحرياً، وما كان وجهه إلى ناحية البر كان برياً.
والسلاحف تمتنع من الذُكران، فيأتيها بعود يحمله في فمه، ويدنو منها، فإذا
رأت ذلك العود سكنت له.
وما كان من السلاحف بحرياً فخرج إلى البر وأصابه حرّ الشمس لم يستطع
الرجوع إلى البحر وبقي حتى هلك. وما كان برياً فوقع إلى ناحية البحر تَلَف ولم
يستطع الرجوع إلى البر وهلك.
الثعلب يهيئ عُشّه ووكره ذا سبعة أحجرة، فإذا طرقت الكلاب وغيرها مما
يتخوف في جحر خرج من غيره.

(١) هو أن يشرب سواد العين زرقه. وقيل أن تشوب الحدقة حمرة.

وإذا قارب الزرع أن يُسَنِّيلَ دخل الثعلب فيه وتمعك فرحاً به، فيفسد ذلك الزرع، ولذلك سمى احتراق الشعر: داء الثعلب، لأنه يُسَقِطُه كما يُذهب ورق السنبل والشوكة.

القنفذ يعمد إلى الكرمه فيحركها فيقع منها العنب، فيتمرغ فيه حتى يملأ شوكة ويعود إلى عُشِّه، فإذا بصرت به جرائه أطافت به تلتقط ذلك الحب من شوكة وتأكله.

الذئب إذا هُيئَ من معاه وتَرَّ وهَيئَ مِنْ مَعَى الشاة وتَرَّ، ثم عُلِّقا بآلات الملاهي، ثم ضرب بهما، صوت المعمول من الذئب، وخرس الوتر المعمول من الشاة.

وكل شاة يتناول الذئب من لحمها يكون لحمها لذيقاً، وكل جزة صوف تُهيأ من الشاة التي قد تناول الذئب منها قِيل الثوب المعمول منها مِنْ قِيل سَم أسنانه.

الكلب إذا مَرَضَ أَكَلَ حَلْفَاءَ رَطْبَةٍ.

والأَيْلُ إذا مَرَضَ أَكَلَ حَيَّةَ.

والضَّبُعُ إذا مَرَضَ أَكَلَ كَلْباً.

الأسد إذا أَكَلَ كَلْباً فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ ضَرَسَ فَيَزُولُ ذَلِكَ.

الرخمة إذا ضعف بصرها بقرت مرارة إنسان.

الأعز البرية تألف حيتاناً بحرية، وتدع الجبال وتسلك طريقاً بعيداً حتى تأتي البحر لمكان تلك الحيتان، فلما عرف ذلك الملاحون سلخوا جلود تلك الأعز، ودنوا بها من شاطئ البحر على ظهورهم، فإذا نظرت تلك الحيتان إليها فيصيدها الملاحون.

ليس من السباع شيء ضلِّبُه عَظْمٌ واحدٌ بِلَا خَرَزٍ إِلَّا الْأَسَدُ والضبع.

من ربط على بدنه سِئاً من أسنان الذئب ولبسه لم يَخَفِ الذئاب.

والفرس الذي يُعَلِّقُ عليه شيء من أسنان الذئب يكون سريع الجري.

المعزى البرية تكون ضلبة القرون، تأوي أطراف الجبال وما كان مُشْرِفاً من الصخور على أودية، فإن بصرت بالصيد ألقت أنفسها من تلك الصخور لتقيها بقرونها، فإن سقطت على غيرها هلكت، وفي قرونها خرزات مستديرات على قدر ما يكون عدد سننها.

والعجب أنها تحفظ إنائها عند الكبر وتتعهدها بالمطعم والمشرب تحمله على أفواهاها.

المعزى البرية إذا صيد شيء من سخالها تبعته ورصيت بالعبودية مع ولدها وفي أطراف قرونها جِحْرَةٌ تَنْتَفِسُ منها، فإن سُدَّتْ هلكت مكانها.

الوَرَّشَانُ يَحْتَرِزُ بَأَن يَضَعَ وَرَقَ الْغَارِ فِي عُشِّهِ.

والجدأة تضع في عُشها ورق العُلَيْق تتحرّز به .
الخطّاف يضع في عشه قضيبَ كَرْفُس .
التدْرُج يضع في عُشه سَرطَاناً نهريّاً .
جميع السباع والدوابّ عند المشي تقدّم اليد اليمنى والرجل اليسرى .
لا تكون الزرافة إلا في أرض قليلة الماء .
إذا همّ أصحاب الخيل أن يُنْزَوْ حماراً على فرس جَزَوْا عُرفها فتقرّ حينئذٍ وتدلّ
لكَدم الحمار لها .
بيونانَ ثيران لها أربعة قرون لا تَرْضَى بمجامعة البقر، بل تجامع إناث الخيل،
ويتولد بينهما خيول عجيبة المنظر .
الجاموس لا ينام أصلاً وإن أَرخى عينيه إرخاء يسيراً، لكنّه ساهرٌ الليل والنهار .
الجمال إذا وَقَعَ على الناقة وَقَعَ الضراب سُتِرَ عن الرجال، فإن نظر إليه
رجل غَضِبَ .
قالت الروم: إن السُّنُور يتولد من مجامعة الفهد لبعض السباع .
لا ينام البوم إلا إغفاءة .
ومن العجب أن السُّنُور يكون صافي العين كثير البريق عند امتلاء الهلال وينقص
ذلك الصفاء والبريق عند نقصان الهلال .
الأفعى إذا جامعها الذكر واسمُه الأفعُوان تحوّلَت إليه، فإن ظفرت به أكلت
رأسه من شدة عَشَقها له .
ذكر العقرب اسمه عُقْرُبَان، أسود صغير، سريع المشي، جادّ الذهاب، الجُرْذُون
تفسيره بالعربية الذي يخرج من الزعفران .
التمساح لا يكون إلا في النيل ونهر بَارض الهند يقال له: الرّيسيس وبييض
كبيض الإوز، وربما يُولد منه حَرَاذِينُ صغار، ثم يكبر حتى يبلغ طوله عشر أذرع،
ويزداد طولاً كلما ازدادت سنو حياته .
وسنّه اليسرى نافعة لحمى النافض .
وذكر أنّه يجامع ستين مرّة في حركة واحدة ومحلّ واحد .
الحمار الوحشيّ يتولد بين الفرس والفيل، وله قرن يَنْبَت من أنفه كأنّه سيف،
وإن ضرب شجرة قطعها وبه يقاتل الفيل ويبعج بطنه بقرنه، ولم يُعَايَن من هذا الجنس
أثنى قط .
في البحر حوت يقال له: البوس، يتولد من الصاعقة إذا كانت في البحر وإن

وُضع ذلك الحوت بين اثنين فأكلا منه تحاباً ولا يحقد أحد على صاحبه، ويتآخيان أحسن الإخاء.

كلب الماء أبداً ذنبه على ظهره واقع مع انطباق والتواء، يرعى نبات الأرض، وهو شديد الجزع من النار، فإذا كان الليل خرج الصيادون بأيديهم شعل النار، فيأتون مَجْتَمَها، وتلك لا تتحرك لجزعها من النار حتى تؤخذ، وإن كان منها ذكر لم يجمع أنثى قط، وإذا أرادت المجامعة فإنها تجتمع وتجلد فتفترخ.

وإن أخذ منها صياد بشبكة واحداً وثبت كلُّها حتى تدخل الشبكة آبية فراق بعضها بعضاً.

ومن لبس جورباً من جلودها وبه نقرس انتفع به جداً. وإذا ابتلي إنسان برُعاف ثم أخذ قطعة من جلدها، ثم انقعه في لبن واشتمه انقطع ذلك الرُعاف.

اليرابيع إذا اجتمعت في موضع ارتفع رئيس لها حتى يكون في موضع مشرف أو على صخرة أو تل ينظر منه إلى الطريق من كل ناحية، فإن رأى أحداً مقبلاً أو سبعاً صرَّ بأسنانه وصوت، فإنه سمعته انصرفت عن الموضع إلى جحرتها فإذا أغفل ذلك وعانت البقية سبعاً أو راجلاً قبل أن يراه ذلك الرئيس انصرفت إليه وقتلته لتضييعه أو غفلته. وإذا كان حسن الرُّصد مضت اليرابيع فقطعت أطراً ما يكون من الخضرة وأطيب العشب فحملته بأفواهها حتى تأتية تحية وتكرمة.

وإذا كانت في جحرتها خرج الرئيس أولاً فيبصر الطريق، فإن لم ير أحداً صرَّ بأسنانه وصوت لها لتخرج فترعى.

في البحر حوت يقال له: موفى، ضعيف الجسد، قليل القوة، إذا جاع خرج إلى الشاطئ فاستلقى على الرمل فأقام شوكة في رأسه، فإذا نظر إليه حوت آخر جاء مسرعاً ليأكله يظن أنه ميت، فيدخل بطنه تلك الشوكة فيقتله بها ويأكله.

وإذا ألقى الملاح صنارته ولقيت ذلك الحوت رمى مكانه بتلك الشوكة الحادة يد الملاح فتخدر ويطرح أداة صيده.

فإذا رأى الحوت أن الصنارة داخلته أضلاعه غلبت الظلمة على بصره ومات من ساعته.

وفي جلد هذا الحوت عجب، وهو أن الصاعقة لا تدنو من جلده، والملاحون يغطون سُفْنَهُم به عندما يتبينون الصواعق ووقوع المطر، ويدنو هذا الحوت إلى طرف مقدم السفينة فيمسك بطرفه اللطيف، فلو اجتمعت الرياح كلها بأشد هبوبها لم تستطع تحريك تلك السفينة، فمن أخذ من جلدها وسَمَّر به شراع السفينة لم يخف على سفينته غرقاً.

السريع الخُضر أربعة: الثَّور والحَرِيش وعنز الجبل وكباشها .
عدوُّ الحيات أربعة: القنفذ والفيل والأَيْل والعَقَّعُ .
الجبان اثنان: الأرنب والأَيْلُ .
ذو الزهو ثلاثة: الفرس والديك والطاوس .
ذو حدة السمع ثلاثة: الذئب والحمار والخُلْد .
القادر في التزاوج ثلاثة: العصفور والحمام والعَقَّعُ .
ذو الشهوة ثلاثة: العصفور والثور والباشقُ .
المتحارس بالليل اثنان: الكركيَّ والبط .
نافي فراخه ثلاثة: النعام والغُداف والعُقَاب .
محب الظلمة ثلاثة: البوم والخفّاش والخُلْد .
ذو حدة البصر ثلاثة: العقاب والظبي والباشق .
من أخذ لسان ضبع ومر به بين الكلاب لم تكلب عليه .
من مر بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلاً من أصول عنب الحيّة هربت منه .
وعنّب الحيّة هو الحنظل .
وذكر الحُبّارى يقال له: الحَرْب .
إذا أراد إنسان أن يتزوج امرأة فليُنظر إلى أبيها وأخيها فإنها بعيانه وبين
يديه أحدهما .
من الحيوان ما لا يشبه الولدُ الوالدَ كالذبّية والنحل والدَّبَر .
أما الذبّية فتضع أولادها توائم لا صور لها حين تولد، غير أن أمّها تهبيئ
صُورها، وتسويها بلحسها إياها بألستها . . .
وأما الدَّبَر فإنها تلد دوداً يتصوّر بعد ذلك .
الضفادع والغيالم والسرطانان لا ضرر عليها في ماء ولا يابس، لكنهما عندها
سيّان لا تهلك في برّ ولا تُخنق في بحر .
كلُّ ما أكل اللحم فهو ذو أسنان قواطع صلاب، وأعناقٍ قصارٍ شداد، ومخالبٍ
وأظفارٍ حداد، ومناقيرٍ معقّفةٍ جذابة .
للأسد ثلاث طبائع: الأولى منها أنه إذا مشى فشمّ ريح الصيادين عَفَى على آثاره
بدنّه لكيلا يتبعه الصيادون ويقفوا عليه في عرينه فيتصيدوه .
والثانية أن اللبؤة تلد شبلها ميتاً، فلا تزال تحرسه حتى يأتي أبوه في اليوم الثالث
فينفخ في منخره فيبعثه .
والثالثة أنه يفتح عينيه إذا نام وهما يقظتان .

ومن تمسح بشحم كلى الأسد ومشى بين السباع لم يخفها ولم تقربه؛ وإن افترس الأسد الفريسة ولم يأكلها ميز أن ريحها متينة جداً.

وأصناف الحيوان التي تلغ الدم بالسنتها: الكلاب والسنانير.

الأسد: تضع أولادها غير منفتحة العيون، وإنما تفتح بعد ذلك.

وأما الأسد خاصة فليس له من جنسه قرين، ولا يرى شيئاً من السباع كفواً له فيصحبه، ولا يقرب شيئاً من بقايا فريسته بالأمس ولو جهده الجوع ويهرئ زئيره كثيراً من الحيوان الذي هو أعظم منه جسماً وقوة.

وإنما تلد اللبؤة واحداً ويخرق بطن أمه بأظفاره ويخرج منه.

الثعلب إذا جاع فلم يقدر على صيد عمداً إلى أرض شديدة الحر وإلى موضع الطير إذا حمي، فاستلقى على ظهره ونظر إلى فوق، ثم اختلس نفسه وأخذ به داخلاً حتى ينتفخ انتفاخاً شديداً فيحسبه الطير قد مات، فيقع عليه ليأكل منه كما يأكل الجيفة، فإذا اجتمع الطير انتفض سريعاً وقبض على ما وجد فأكله، لأنه ذو خب ومكر، كذلك طبيعته إن أصابه ضرر فأثر فيه أثراً وكلم فيه كلوماً أخذ من صمغ شجرة تدعى قنطورياً فأبرأها به.

القرد أهيأ الحيوان لقبول التعليم، وهو لعب غضوب سريع الجس، لا يكون في بلد كثير السباع، عدو لجميع الحيوان، مليح الإهاب، نهوش خطوف، إلا أنه إذا شبع نام في غاره ثلاثة أيام، فإذا خرج صاح بصوت عالٍ تخرج منه رائحة طيبة، فيجتمع إليه الحيوان لحسن صوته.

ومن أراد خثله فليتمسح بشحم الضبع ويدخل عليه في غاره، فإنه لا يمتنع؛ خفيف الجرم، حديد الشد يقظان.

دابة يقال لها بالفارسية (بادستر) إذا طلبه القانص استلقى لظهره وأراه أنه لا خضية له، كأنه قد علم ما يطلب منه.

خلق الجبان من الحيوان الخائف سريع الحضر سريع الحركة، وجعل الصنف الجريء العادي بطيء الحضر مبلداً.

الضبع مخالفة لجميع أجناس الحيوان، وذلك أنها تصير مرة ضبعاً ذكراً ومرة أنثى، تلغ أحياناً كالذكر، وتقبل اللقاح أحياناً كالأنثى.

وطبيعتها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مغمرة مشت على الآثار ووطئت ظله فوق.

«ومن قتل ضبعاً وأخذ لسانه ومر بين الكلاب لم تكلب عليه، ولم تعرض له.

ومن مر بمكان كثير الضباع فأخذ بيده أصلاً من حنظل، أسكتها عنه وهربت منه».

القنفذ عدو الحيات، إذا قبض على حية تركها تضطرب على شوكة حتى تموت، فإذا ماتت قطعها قطعاً.

الدب يقتل الثور، والغالب عليه الانجحار في مغارته.

الفيل ليس له شهوة السّفاد، فإذا أراد الولد أتى رياضاً وجناناً فيها اللّقاح هو وإنائه فهيج له اللّقاح برائحته وقوة حرارته شهوته فتسافدت، فإذا ولدت ولدت قائمة، لأن أوصالها ليست مواتية كأوصال التي تلد باركة وراضة غير أنها تلد في الماء حذراً على دغفليها أن يموت إذا وقع على الأرض، فلذلك تدخل ساحل البحر حتى يبلغ الماء بطنها فتضع ولدها على الماء كالفراس الوثير والذكر في ذلك يحرسها وولدها من الحية.

ما أشدّ عداوة الفيل للحية؛ حيثما أصاب الفيل الحية وطئها وقتلها.

وإن هو سقط على جنبه لم يستطع القيام، إنما نومه إذا اتكأ على شجرة.

ومن هناك - لما عرّف أهل تلك البلاد كيف نومه - يأتون الشجرة فينشرونها بالمنشار، فإذا أتاها الفيل واتكأ عليها وقعا على الأرض معاً، وحينئذ يشتد صياحه بصوت رفيع، ويجتمع إليه لذلك فيلة كثيرة تحاول معاونته على النهوض والانبعاث، فلا تقدر على ذلك، فتصيح جماعتها بصوت واحد جزعاً من ضعف حيلتها وعجزها حتى يأتي الفيل الذي هو في الجسم أصغر، وفي الحيلة أكبر منها، فيدخل مشفره تحت الفيل الساقط، وتفعل كفعله جميعاً في إدخال مشافيرها تحته حتى تدعّمه فينبعث، وإنما كوّن رأس الفيل في عنق قصير، وكوّن له بدل العنق الطويل المشفر الطويل ليكتفي به من الضيق؛ وبه يتناول طعامه وشرابه.

وخُلقت قوائمه غير منفصلة، لكنّها كالأساطين المصمتة والسوّاري الوثيقة لتحمل الكثير الثقيل؛ وربطت بعراقيب صغار غير منحنية ولا منثنية على الأوصال، لكنّ عظامه مفرغة إفراغاً.

تطول أعمارها إلى ثلاثمائة سنة؛ غير أنّ القردان والبقر تعلق بالفيلة فتؤذيها.

السّمندل: دابة لا تخاف النار، لأنها لا تحرقها، وإن دخلت أخذوداً متأججاً مضطرباً بالنار لم تحبل بذلك، وصارت النار التي تبديد الأجسام مبعثاً لهذه الدابة المهيئة الحقيرة، تستلذّ التقلب فيها استلذاذ القلب بالهواء البسيط وهبوب أرواحه الطيبة؛ ونضارة جلدها وتنقيته بالنار، فيزداد بالنار حسن لون.

الأرنب من طباعها الجبن والخوف، وهي كثيرة الولادة.

الكلب ذو فحص واقفاء للأثر، وبشمه يسترشد ويهتدي ويستدل إذا شمّ المولى عرفه إن كان له أو لغيره.

ومن طباعه الترضي والبصبة والهشاشة لمن عرفه .

ليس في الحيوان أشدّ حباً لصاحبه منه ، فإن أشار له على صيد وثب ناصباً رأسه رافعاً ذنبه مستعداً كالفارس البطل والشجاع التجد ، مع نشاطه في الطلب وهو يعلم أن الصيد ليس بحاضر ، لكن ذلك منه حسن طاعة .

فأما حب بعض جراء الكلاب لبعض إذا كان أخاه لأم ولأب فمما قد عهد وشوهد ، وذلك أنه حيث كان يُطرح لها الطعام في الوسط ، فلا يخطف واحد منها ذلك ، لكنها تتعاطاه بينها بسكون وتمكين بعضها لبعض ، غير مستأثرة به ولا محاربة عليه .

الفرس من طباعه الزهو والحرارة وشهوة الإنان للسفاد . وإن وطئ الفرس أثر وطء الذئب ارتعد وخرج الدخان من جسده كله .

الذئب إذا رأى الإنسان مبطناً خطوه وهو ساكن سكت عنه ، فإن رآه خاف وجبن اجترأ وحمل عليه وكبسه .

وليس كل ذئب يعدو ، ولكن هو الذي يكون ضارياً ؛ وفيه خلتان : إحداهما أن يكون منفرداً يمشي وحده ، والأخرى حدة سمعه ، إن خفي عليه مكان الغنم أتى مكاناً وعوى صوتين أو ثلاثة ، ثم سكت منصتاً لأصوات الكلاب التي مع الغنم ونباحها حين سمعت عواءه ، فإذا سمع نباح الكلاب شدّ مسرعاً نحوها ، قاصداً إليها ؛ فإذا قرب من الغنم مال إلى ناحية أخرى خالية من حرس الكلاب فاخطف ما أمكنه خطفه من الغنم .

حمار الوحش إذا ولدت الأنثى الأولاد الذكور جاء الفحل فانتزع خُصي تلك الذكور وقطعها بأسنانه لكيلا تُصَاد أو تُشاركه في طروقة ، إلا أن الأنثى ربّما وضعت ولدها في مكان غامض حتى يشتدّ جسمه وتصلّب حوافره ، ويقوى بالشّد على النجاة من الفحل ، ولهذا السبب يقلّ منها الفحول .

الحريش دابة صغيرة في جرم الجدي ساكنة جداً ، غير أن لها من قوة الجسم وسرعة الحُضر ما يُعجز القناص عنها ، ثم لها في وسط رأسها قرن واحد منتصب مستقيم ، به تُناطح جميع الحيوان فلا يغلبها شيء .

احتل لصيدها بأن تعرض لها فتاة عذراء وضيئة ، فإذا رأتها وثبت إلى جحرها كأنها تريد الرضاع ، وهذه محبة فيها طبيعية ثابتة ، فإذا هي صارت في جحر الفتاة أرضعتها من ثديها على غير حضور اللبن فيها حتى تصير كالنُشوان من الخمر والوسنان من النوم ، فيأتيها القناص على تلك الحال فيشدّ من وثاقها على سكون منها بهذه الحيلة .

الأيّل عدو الحيات إن قربت منه حية فانجحرث في صدع صفا ملاء الأيّل فاه من الغدير أو من حيث وجد فدفعه في ذلك الصدع ، ثم اجتذب الحية إليه بالقوة حتى

يقتلها، وإن كانت فوق أنزلها، وكذلك إن كانت أسفل، فإن كان جائعاً أكل ما أصاب منها، وإن لم يكن به جوع قتلها وتركها فصارت الحيات ذوات السم الزعاف المُميت لكل من أصابه أو خالط بدنه غذاء هذه الأيائل، ويكون ملائماً لها للذيذا عندها.

وإن دَخَنَ البيت الذي فيه الحيات بدخان حريق قرن الأيئل قَرَّت منه كُلُّها خوفاً.

على أن الأيئل نفسه جبانٌ شديد الرعب، إذا أكل الحية بدأ بذنبها حتى ينتهي إلى رأسها، ثم يقطعه بأسنانه، وأكبرُ من ذلك أنه يتعلّق برؤوسها وتبقى في الهواء. وتكثرُ فيه المِرّة ويعطّش عطشاً شديداً فيعوج إلى غدير الماء.

الغزال، يقال: ليس في الحيوان أبصر من الظباء؛ ويقال لها باليونانية النظارة والمُبصرة.

الشور دابةٌ عمولٌ كدودٌ مقدّرٌ جسمه بقدر قوّته. من طبيعته كثرةُ المنى وتوقّد شهوة السّفاد، إن لم يُخص لم يذلل للعمل ولم يسكن ولم يصحّ جسمه لأنّ الغلّمة تحلّ جسمه وتنحله، والخصاء يقطع ذلك كله. وبينه وبين الذبّ عداوةٌ شديدة.

أعنزُ الجبل وكباشه وهي الأزواء والتيايل هذا جنس متمرّد في الجبال سريع الحُضر في الشواقي والتوقّل^(١) فيها وطبيعتها أن تلد توائم.

قد يوجد من البهائم ما لا يحمل، فأما أنثى الخيل إذا كانت حاملاً فوطئت أثر الذبّ بحافرها أجهضت حملها.

الحمارُ في طبيعته معرفة صوت الإنسان الذي اعتاد استماعه وإيناسه، لا يضلّ عن طريق سلّكه مرّة ولا يخطئه، إذا ضلّ راكمه الطريق هداه وحمله على المحجّة.

وأما حِدّة السمع، فليس في البهائم فيما يُذكر أحدٌ سمعاً منه.

اليأمورة دابةٌ وحشية نافرة، لها قرنان طويلان، كأنهما منشاران تنشر بهما الشجر؛ إذا عطّشت وردت الفرات وعليه غياطل^(٢) وغياض ملتفة أشجارها تفرّعت من أغصانها غصونٌ طوال دقاق مشبكة، فإذا شربت ريّها وأرادت الصّدْر اشتهد الاستتار والعدوّ بين تلك الأشجار «ولجّت هناك» فعلق قرّناها بتلك الغصون اللدنة المتينة، وكلّما عالجتها لتفّلت ازدادت ارتباطاً فإذا ضجرت مما وقعت فيه عجّت جزعاً، وسمع الفئاص صوتها فأوتوها فقتلوا.

الجمل: حقود، يرتصد من ضاربه الفرصة والخلوّة لينتقم منه؛ فإذا أصاب ذلك لم يستبق صاحبه، فأما ظهره فذو سنام مقبّب يكون لكثرة الحمل واحتمال الثقل،

(١) الصعود.

(٢) الكثير الملتف من الشجر والنبات.

وأوصال ركبته وعراقيبه كبار صلاب، وأوتارها وعروقه متينة شديدة، وعصبه وثيق لم يشتد بضغط التحام مفاصله واتصالها ولم يسترخ مطوياً، لكنها هيئت على الاعتدال ليهون عليه بذلك البروك والنهوض بحمله، مع تسهيل الارتقاء عليه في ذلك.

البغال: نوع هجين قد أنبأنا أنه لا يلد، إلا أنه أهدى للطريق للناس وأثبت حفظاً. الشيران وكل ذي قرن لا يأخذه الفواق.

وأما سباع الطير وآكلات اللحم منها فصِلاب الأظفار، حُجْنُ^(١) المناقير ذات حدة وقوة، قوّة الأجنحة.

والنواهض^(٢) التي فيها القوادم أكثر طيراً.

الديك صَليْف في طبيعته، غير أن له مع ذلك إيقاظاً للنائم بصياحه في آناء الليل، والتبشير بإقبال الصبح وطلوع الشمس، يؤنس السيارات في السَّفر بصياحه في الليل، ويحرضهم على السير، مع إيقاظه الفلاحين لعملهم، والصَّنَاعَ لصناعتهم، وإذا سمع المرضى صوته داخلهم من ذلك رَوْحٌ وخفة من مرضهم.

الطاوس يحب الزينة، غير عفيف الطبيعة، يدعوه زهوه وحرصه على التزيّن إلى نشر ذنبه وعقده كالطاق لتراه الأنثى بحسن زينته.

الكرائيّ تتحارس بالليل؛ ويجعل الحارس منها يتردد في المحلة ويهتف بصوت يسمع محدّراً، فإذا قضى نوبته استراح وأعقبه الذي كان مستريحاً نائباً عنه حتى تقضي كلّها ما يلزمها من الحراسة، فإذا طارت لم تطر متقطعة، لكنها تطير نسقاً غير مشتتة، يقدّمها واحد منها كالرأس والهادي لها حتى تتلوه كلّها لازمة صفّها، ثم يعقبه بعده آخر متقدّم حتى يصير المتقدم الأوّل متأخراً في آخرها، وتقتسم كرامة المتقدم كلّها بالسوية؛ وفيها ما يبعد سفره وينتقل عن مصيفه إذا هجم الشتاء.

البط له يقظة حارسة تدل على حدة حسّه.

الجراد معروف الحال.

العقاب تطلب عين الماء، فإذا أصابتها تحلق طائراً إلى حر الشمس وهو موضوع دورانها فيحترق ريشها وما كان من جناح، ثم تغوص في تلك العين فإذا هي قد عادت شابة «وتذهب ظلمة عينيها».

وأما الطريخ فيقيض الله له طائراً يقال له: قاس، فيضمّه إليه ولا يدعه يهلك، ولكنه يقوّيه ويربّيه مع أفراده.

(١) أي معوجة.

(٢) فراخ العقاب التي وفرت أجنحتها وقويت على الطيران.

وأجنحة العقبان مفصلة شبيه ريشها .

وبصرها قويٌ بعيد تحت الشعاع المستنير .

ويقال : إنها أبصر الطير .

الحَجَل يأتي أعشاش نظرائه فيسرق بيضها ثم يحضنها ، فإذا تحرّكت الفراخ وطارت لحقت بأمهاتها .

البُوم مأواه ومحلّه الخراب ، يوافقه الليل ، لأنه بالليل بصير وبالنهار كليل ، مع حبه التوحد والخلوة بنفسه ، وبينه وبين الغربان عداوة ما تنقضي .

النَّسْر يتخذ وَكْرَه في المكان العالي المرتفع ، وعليه يقع وفيه ينام كالراصد ، إما في ذروة الجبل أو في وسطه من شظاياه وثناياه وموضع المنعة .

وإذا حملت زوجته مضى إلى الهند فأخذ من هناك حجراً كهيئة الجوزة إذا حرك سُمع به صوتٌ حَجَرٍ آخَرَ - يتحرك في وسطه - كصوت الجرس ، فإن عسرت على زوجته الولادة جعلت ذلك الحجر تحتها وعلت عليه فيذهب عنها العُسر .

قال : ورأيت مرةً أنثى من جنس الطير مات زوجها فامتنعت من الطعام والنوم ليالي كثيرة صارت فيها كالنائحة الباكية على زوجها بتنفس الصعداء وزفّرات الحزن لا تَلْقُط أياماً متتابعة شيئاً .

البُزاة من طبيعتها أن تداوي أنفسها وفراخها فلا تموت ، لأنها تستعمل في بعض المرض والداء نبتةً تعرفها وتعرف طبّها . . . « ومنه ما ينقص ويزيد » ؟ .

النعام : لا يقول أفراخه إلا أياماً يسيرة ، ثم يدحضها ويطردها من عنده إنكار لها .

الغُذاف لا يبيض ولا يفرخ من سفاد ، فإذا أفرخت أنشاه فراخاً لم يزقّها ولم يطعمها ، إلا أن البقّ والبعوض يقع عليها لزهومتها وتنن لحمها ، فتفتح أفواهها وتبلغ ما دخل فيها من ذلك البقّ ، فهو يمسكها ويقويها .

أنحاء طيران الطير مختلفةٌ كاختلاف الطير ، بعضها يطير قريباً من الأرض كالبط وما أشبهه ، وبعضها يرتفع ، غير أنه لا يُبعد ، كالحمام والغربان ، وبعضها يحلّق تحليقاً ، كالعقاب والصقور والأجادل والبُزاة .

وما كان من الطير بدنه أعظم من جناحه فهو قريب الطيران من الأرض ، لسرعة إعياه أجنحته واضطراره إلى الوقوع على الأرض .

البيضانِي والأُبْعَث : هذا طائر يحب ولده ، فإذا تحرّكت فراخه ودرجت ضربت وجهه بأجنحتها فيدعوه المَحْك والغضب المطبوعان فيه إلى قتلها ، فإذا ماتت اكتأب عليها الأبوان وأقاما عليها شبه المأتم ثلاثة أيام ، ثم إن الأم في اليوم الثالث تشقّ جنبها حتى يقطر دُمها على تلك الفراخ ، فيصير ذلك نشوراً لها بعد موتها .

مالك الحزين يَنْشُلُ الحيتانَ من الماء فيأكلها وهي طعامه؛ لا يُحسِن السباحة، فإن أخطأه انتشالٌ فجاع طرح نفسه على شاطئ النهر في بعض ضحضاحه، فإذا اجتمعت إليه السمك الصغار لتأكله أسرع لأكل ما يؤكل منه.

من الطير ما يَلْقَح من هبوب الريح، لا يحتاج إلى تراوُج ولا إلى سِفاد. والخفّاش له خصيتان كَخَصَى الحيوان، وله أربع قوائم وأسنان حداد كأسنان ذوات الأربع، يُرَضِع ولده من اللبن إرضاعاً، وجلده أملس.

العَفَق لا يأوي تحت سقف ولا يستظلّ به، ولكنه يهَيئ وَكْرَه في المواضع المشرفة العالية والعراء الكاشف وجه الهواء الفسيح؛ وطبيعته الزنا وخيانة الزوج، فإذا باضت الأنثى بيضها حصنته بورق الدُّلب وغطته كيلا يقربه الخفّاش، فإن مسّه مرق البيض من ساعته وفسد.

النحل يلد من غير لقاح الذكور.

الحية إذا هَرِمَتْ وكلّ بصرها واسترخى جلدها دخلت في صدع صفاة ضيق أو جُحْر ضاغط يعسر عليها النفوذ فيه حتى ينسلخ عنها جلدها فتأتي عين الماء فتتغمس فيها حتى يقوى لحمها وينعصب، فإذا هي فعلت ذلك عادت شابة كما كانت. فإذا أرادت أن تضيء عينها أكلت الرازيانج الرطب فاشتفت عينها واحتد بصرها، وإن ضربت ضربة بقصبة استرخت فلم تستطع الفرار، فإن ثبته وتبث وسعت هاربة.

إن أنقِع الحَسَك^(١) في الماء ثم نُضَح ذلك الماء بين يدي جُحْر الحية فرت من هناك.

وإن وُضِع في جُحْرها أصل جِمَصٍ رَطْب فَرَّت أيضاً.

وإن رأت الحية إنساناً غريباناً استحيت منه ولم تقرّبه.

وإن رآته كاسياً حملت عليه بجرأة شديدة؛ وما أشد طلبها لأثرها؛ وإن شدخ رأسها ماتت من ساعتها.

السَّمْسِمَة، وهي حية حمراء بَرّاقة، إذا كبرت وأصابها وجع العين وكبدت^(٢) التمسّت حائطاً مُقابل المشرق، فإذا تبدّت الشمس أهدت إليها بصرها قدر ساعة فإذا دخل شعاع الشمس عينها كشط عنها العَمى والإظلام، ولا تزال تفعل ذلك سبعة أيام حتى يتجدد بصرها تاماً.

(١) نبات له ثمرة شائكة مدحرجة تعلق بأصواف الغنم.

(٢) أي ذهب صفاؤها.

الأفعى تزاوج دابةً بحرية، تأتي الأفعى شفير البحر فتصوت، وصوتها مهيج لتلك الدابة البحرية.

من أحرق عقرباً طردَ برائحة حريقها عقارب ذلك البيت.

فأما حُمة العقرب فهي جوفاء كهيئة المِزمار معقّفة الرأس مكوّنة للدغ، فإذا ضربت شيئاً تحركت فخرج سمها وجرى في حُميتها وسرى في المَلْدُوغ.

الإناث من بنات عرسٍ إنما تَلَقَّح من أفواها وتلد من آذانها.

من عادة هذا الجنس أن يسرق ما وجد من حليّ الذهب والفضة، ويخبّؤه في جحرته، فإن وجد أيضاً في البيت حُبوباً خلط بعضها ببعض، كأنّ عمله عملُ الطباخين في خلط التوابل.

الفار الفارسيّ أطيّب ريحاً من كلّ طيب.

وإن أخذ إنسان جرذاً فربطه في بيت فرّت منه الجرذان كلها.

وإن وُضع في جحر الجرذ البري ورقُ الدُّفلى ماتت الجرذان.

الدودة الهندية هي دودة القز، لها في رأسها قرنان، ثم تتحوّل بيضة ثم تتصوّر في هيئة أخرى، ذات جناحين عريضين منتصبين، وصناعتها دِمَقْس الحرير.

النمل عمول مواظب، فإذا جَمَعَ الحبّ قطعهُ كيلاً يَنْبِت إذا أصابه النّدى والبَلّة، ويخرجه ويبسطه عند فم الجُحر، فإذا يَبَس أدخله.

ومن جَرَب طبائع النمل أدرك عِلْمَ أزمان المطر والصّحو.

ومن أراد أن يقتل النمل فليدقّ الكبريت والحبّ ويدزهما في جحرته. ولا يولد من تزاوج، ولكنه يخرج منه شيء قليل صغير فيقع في الأرض فيصير بيضاً، ثم يتصوّر من البيض بالهيئة التي تُرى، وإذا شَمَت الورد مُوتت وأجنتها مُدمجةً لاصقة بها.

البقّ والبعوض لا يتاج لهما، وإنما تُتَجَل^(١) من عَفْن الماء ووسخه ونُتْنِه.

ومن وضع عُصَن العنب في موضع تحت سريره لم يقربه بق ولا بعوض.

ومن أراد ألا يتأذى بالبراغيث فليحفّر في وسط البيت حُفرة ويملأها دم تيس فإن البراغيث تجتمع هناك.

وإن وُضع في الحفرة ورقُ دِفلى ماتت البراغيث.

الخُلْد غيرُ ذي عَيْنَيْن، دائم الحَفَر في غير نفع؛ وطعامه من أصول النبت وعروقه الذاهبة في الأرض، فهو يصيب ذلك في خلال حَفَرِه.

(١) أي تولد.

يقال: إنَّ في بلد كذا نهراً ماؤه في البحر منحدراً إليه على حال طبيعته ستَّ ساعات، وفي الستَّ الثاني يَحْتَبِسُ ماؤه في يَنْبُوعه ويُرَى جوفُهُ ناضباً قد يَبْسُ.

ونهر آخرَ يجري في كلِّ سبع سنين نهر كبريت، ولا يكون فيه سمك، لأنَّ ماءه يتغير في كلِّ يوم ثلاثَ مرَّات، وَيَنْبُعُ منه شِبْه ثور ليس له رأس.

وأهل الشَّام إذا أرادوا أَخْذَهُ أَلْقَوْهُ في سفينة، ولا يستطيعون قطعَه بفأس ولا كسره بحجر، إنما يُوْتَى بالماء المُتَنِّ ودم الحيض فيُخْلَطَانِ جميعاً ثم يُنْضَحَانِ عليه، فإذا وقعا عليه تحلَّل وتكثَّل كُتْلاً صِغاراً، وتُسْتَعْمَلُ في أشياء يُتَنَفَّعُ بها.

عين النار تنبع منها نارٌ تضيء بالليل للسيارات فلا تَطْفَأُ ولا تَحْتَاجُ إلى شيء يمسكها، لكنَّها محفوظة بالحجارة؛ إن حَمَلَ إنسانٌ منها شُعْلَةً قَبَسَ إلى موضع لم تُوقَد.

البحر المَيِّت يقال له ذلك لأنه يموت فيه كلُّ حيٍّ.

السُّرْطَان ينسلخ جلده في السنة سبعَ مرَّات، ويتَّخِذُ بِجُحْرِهِ بابين: أحدهما شارِعٌ إلى الماء، والآخرُ إلى اليُبْس؛ وإذا سُلِّخَ جلده سَدَّ عليه الشارِعُ إلى الماء لكيلا يَدْخُلَ السمكُ فيأكله؛ إلا أنه يدع الذي إلى اليبس مفتوحاً فتصيبه الريح وما يَنْفَعُ لَحْمَهُ وَيَعْصِمُهُ، فإذا اشتدَّ لحمه وعاد إلى حاله فَتَحَ ذلك المسدود وسَلَّكَ في الماء وطلب طعمه وما يقيم حياته.

الزامور حوت صغير الجسم إلفٌ لأصوات الناس، مستأنِسٌ باستماعها ولذلك يصحب السفن متلذذاً بأصوات الناس، فإذا رأى الحوت الأعظم يريد الاحتكاكُ بها وكسرها، وَتَبَّ الزامور ودخل أذنه، فلا يزال زامراً فيها حتى يفرَّ الحوت إلى الساحل يطلب خَرْفاً أو صخرة، فإذا أصاب ذلك لا يزال يَضْرِبُ به رأسه حتى يموت.

وركَّاب السفينة يحبُّونه ويُطعمونه ويتفقَّدونه، ليدوم إلفُهُ لهم وصحبته لسفيتتهم، وَيَسْلَمُوا به من ضرر السمك العادي.

وإذا أَلْقُوا شَبَكَةً ليصطادوا السمك فوقع فيها الزامور خلَّوه حياً وأخذوه وأعتقوا لكرامته أصناف السمك الواقع في الشبكة أحياء.

وإني قرأت هذا الفصل على الوزير - كبت الله كلَّ شأنى له - في ليلتين، فتعجَّب وقال: ما أوسع رحمة الله؛ وما أكثرُ جُنْدَ الله؛ وما أغرَبَ صنْعُ الله. قلتُ: نعم؛ وما أغفل الإنسان عن حقِّ الله الذي له هذا المُلْكُ المبسوط، وهذا الفَلَكُ المربوط؛ وهذه العجائب التي تصعد فوق العقول التامة بالاعتبار والاختبار بعد الاختبار؛ وإنما بثَّ الله تعالى هذا الخَلْقَ في عالمه على هذه الأخلاق المختلفة والخَلْقَ المتباينة، ليكون للإنسان المشرَّف بالعقل طريقٌ إلى تعرُّفِ خالقها، وبيان

لصحة توحيده له بما يشهد من أعاجيبها، ونيل لرضوانه بما يتزود من عبره التي يجد فيها، وليكون له موقظ منها وداع حاد إلى طاعة من أبدأها وأبرزها، وخلطها وأفردأها.

فقال: قد كنت قلت: إنه يجري كلام في النفس منذ ليل، فهل لك في ذلك؟ قلت: أشد الميل وأوحاه، لكن بشرط أن أحكي ما عندي، وأروي ما حصلت من هذه العصابة بسماعي وسؤالي. فقال: نستأنف الخوض في ذلك - إن شاء الله - فإن الثغسة قد جذبت العين، فأنا كما قال:

قد جعل الثعاس يغرنديني^(١) أدفعه عني ويسرنديني^(٢)
أنشدني أبياتاً ودعني بها، ولتكن من سراة نجد، ليشتم منها ريح الشيح والقيصوم.

فأنشدته لأعرابي قديم:

مطرنا فلما أن رويناه تهادرت	شقاشق منها رائب وحليب
ورامت رجالاً من رجال ظلامه	وعادت دحول بيننا وذنوب
ونصت ركاباً للصبا فتروحت	لهن كما هاج الحبيب حبيب
وطئن فناء الحي حتى كأنه	رجا منهل من كرهه نخيب
بني عمنا لا تعجلوا ينضب الثرى	غليلاً ويشفي المشرفين طبيب
فلو قد تولى النبت وامتيرت القرى	وحثت ركاب الحي حين تؤوب
وصار عيوف الخود وهي كريمة	على أهلها - ذو جدتين قشيب
وصار الذي في أنفه خنزوانة	ينادي إلى داعي الردى فيجيب
أولئك أيام تبين ما الفتى	أكاب سكينت أم أشم نجيب

فعجب وقال: هذا جنى غرس قد جذأ أصله، ونزيع قليب قد غار مدؤه وجزره، وانصرفت.

(١) يريد أن الثعاس يغلبه ويعلوه.

الليلة الثالثة عشرة

فلما حضرت ليلةً أخرى قال: هات.

قلتُ: إن الكلام في النفس صعب، والباحثون عن غيبها وشهادتها وأثرها وتأثيرها في أطراف متناوذة^(١) وللنظر فيهم مجال، وللوهم عليهم سلطان، وكلُّ قد قال ما عنده بقدر قوّته ولحظّه، وأنا آتي بما أحفظه وأرويه، والرأي بعد ذلك إلى العقل الناصح والبرهان الواضح.

قال بعض الفلاسفة: إذا تصفّحنا أمرَ النفس لحظناها تفعل بذاتها من غير حاجة إلى البدن، لأن الإنسان إذا تصوّر بالعقل شيئاً فإنه لا يتصوّره بألّة كما يتصور الألوان بالعين والروائح بالأنف، فإن الجزء الذي فيه النّفس من البدن لا يسخن ولا يبرد ولا يستحيل من جهة إلى أخرى عند تصوّره بالعقل، فيظنّ الظانّ منّا أنّ النفس لا تفعل بالبدن، لأنّ هذه الأمور ليست بجسم ولا أعراض جسميّة.

وقد تعرف النفس أيضاً الآن من الزمان والوحدّة واليقظة، وليس لأحد أن يقول: إن النفس تعرف هذه الأشياء بحسّ من الإحساس، ففعل النفس إذن يفارق البدن، وتأليف البرهان أن يكون على أن يقال: للنفس أفعال تخصّها خلوّ من البدن، مثل التصور بالعقل، وكلُّ ما له فعل يخصّه دون البدن فإنه لا يفسد بفساد البدن عند المفارقة.

وقال أيضاً: وجدنا الناس متّفقين على أن النفس لا تموت، وذلك أنّهم يتصدّقون عن موتاهم، فلولا أنّهم يتصورون أن النفس لا تموت، ولكنّها تنتقل من حال إلى أخرى إما إلى خير وإما إلى شر؛ ما كانوا يستغفرون لهم، وما كانوا يتصدّقون على موتاهم ويزورون قبورهم.

وقال أيضاً: النفس لا تموت، لأنها أشبه بالأمر الإلهي من البدن، إذ كان يدبر البدن ويرأسه.

والله جلّ وعزّ المدبّر لجميع الأشياء، والرئيس لها. والبدن أشبه شيء بالشيء الميّت من النفس إذ كان البدن إنما يحيا بالنفس.

وقال أيضاً: النفس قابلة للأضداد، فهي جوهر، فالفائدة أن النفس جوهر.

وقال: النفس ليست بهيولى، فلو كانت هيولى لكانت قابلة للعظم، فليست النفس إذاً بهيولى.

وقال: ليست النفس بجسم، لأن النفس نافذة في جميع أجزاء الجسم الذي له نفس، والجسم لا ينفذ في جميع أجزاء الجسم؛ ولا هيولى، لأن النفس لو كانت هيولى لكانت قابلة للمقادير والعظم، وفائدة هذا أن النفس جوهر على طريق الضرورة.

وقال آخر: حركة كل متحرك تنقسم قسمين: أحدهما من داخل، وهو قسمان: قسم كالطبيعة التي لا تسكن البتة، كحركة النار ما دامت ناراً، وقسم هو كحركة النفس تهيج أحياناً وتسكن أحياناً، وكحركة جسد الإنسان التي تسكن إذا خرجت نفسه وصار جيفة.

والقسم الآخر من خارج، وهو قسمان: أحدهما يدفع دفعاً كما يدفع السهم ويطلق عن القوس، والآخر يجزّ جزاً كما تجزّ العجلة والجيفة.

وقال: فنقول: ليس يخفى أن جسدنا ليس مدفوعاً دفعاً ولا مجروراً جزاً ولما كان كل مدفوع أو مجرور متحرك من خارج متحركاً لا محالة من داخل، فالجسد إذن متحرك من داخل اضطراراً.

وقال: إن كان جسدنا متحركاً من داخل، وكان كل متحرك من داخل إما متحركاً حركة طبيعية لا تسكن، وإما نفسية تسكن.

فليس يخفى أن حركة جسد الإنسان ليست بدائمة لا تسكن، بل ساكنة لا تدوم، وكانت حركة كل ما سكنت حركته فلم تدم ليست حركة طبيعية لا تسكن، بل نفسية من قبيل نفس تحركه وتحثه.

وقال: إن كانت النفس هي التي تحيي الإنسان وتحركه، وكان كل محرك يحرك غيره حياً قائماً موجوداً، فالنفس إذاً حية قائمة موجودة.

وقال أيضاً: النفس جوهر لا عرض، وحدّ الجوهر أنه قابل للأضداد من غير تغير، وهذا لازم للنفس، لأنها تقبل العلم والجهل، والبزّ والفجور والشجاعة والجبين، والعفة وضدها، وهذه أشياء أضداد، من غير أن تتغير في ذاتها، فإذا كانت النفس قابلة لحدّ الجوهر، وكان كل قابل لحدّ الجوهر جوهرًا فالنفس إذاً جوهر.

وقال: قد استبان أن النفس هي المحيية المحركة للجسد الذي هو الجوهر ولما كان كل مخي محرك للجوهر جوهرًا فالنفس إذاً جوهر.

وقال: لا سبيل أن يكون المخيا المحرك جوهرًا ويكون المحيي المحرك غير جوهر، فإذا كانت هي المحيية المحركة للجسد، وكان لا يمكن أن يكون المحيي المحرك للموجود غير موجود، فالنفس إذاً لا يمكن أن تكون غير موجود.

وقال: إن كانت النفس بها قُوى وحياءُ الجسد، فيمتنع أن يكون قوامها بالجسد، بل بذاتها التي قامت بها حياة الجسد.

وقال: إن كانت النفس قائمة بذاتها التي قامت بها حياة الجسد، فما كان قائماً بذاته فهو جوهر، فالنفس إذا جوهر.

وقد أملى علينا أبو سليمان كلاماً في حديث النفس هذا موضعه، ولا عذر في الإمساك عن ذكره ليكون مضموماً إلى غيره، وإن كان كل هذا لم يجز على وجهه بحضرة الوزير - أبقاه الله ومد في عمره - لكن الخوض في الشيء بالقلم مخالفٌ للإضافة باللسان، لأن القلم أطولُ عناناً من اللسان، وإفضاء اللسان أحرَجُ من إفضاء القلم، والغرض كله الإفادة، فليس يكسر الطويل.

قال: ينبغي أن نعرف باليقظة التامة أن فينا شيئاً ليس بجسم له مدّات ثلاث: أعني الطول والعرض والسّمك، ولا يجزأ من جسم ولا عَرَض من الأعراض، ولا حاجة به إلى قوّة جسميّة، لكنّه جوهر مبسوط غير مُدرَك بجسّ من الإحساس. ولما وجدنا فينا شيئاً غيرَ الجسم وضدّ أجزائه بحدّته وخاصّته، ورأينا له أحوالاً تُباين أحوال الجسم حتّى لا تُشارك في شيء منها وكذلك وجدنا مباينته للأعراض، ثم رأينا منه هذه المباينة للأجسام والأعراض إنّما هي من حيث كانت الأجسام أجساماً والأعراض أعراضاً؛ قضينا أنّ هاهنا شيئاً ليس بجسم ولا جزء من الجسم، ولا هو عَرَض، ولذلك لا يقبل التغيّر ولا الحيلولة، ووجدنا هذا الشيء أيضاً يطلّع على جميع الأشياء بالسواء ولا يناله فتور ولا ملال، ويتضح هذا بشيء أقوله: كلّ جسم له صورة فإنّه لا يقبل صورة أخرى من جنس صورته الأولى البتة إلّا بعد مفارقتها الصورة الأولى، مثل ذلك أنّ الجسم إذا قبل صورة أو شكلاً كالتلثيث، فليس يقبل شكلاً آخر من التربيع والتدوير إلّا بعد مفارقة الشكل الأول. وكذلك إذا قبل نقشاً أو مثلاً فهذا حاله، وإن بقي فيه من رسم الصُورة الأولى شيء لا يقبل الصورة الأخرى على النظم الصحيح، بل تُنقش فيه الصورتان، ولا تتم واحدة منهما، وهذا يطرد في السَّمع وفي الفضة وغيرها إذا قبل صورة نُقش في الخاتم؛ ونحن نجد النفس تقبل الصوَر كلّها على التمام والنظام من غير نقص ولا عجز، وهذه الخاصّة ضدّ لخاصّة الجسم، ولهذا يزداد الإنسان بصيرة كلّما نظر وبحث وارتأى وكشّف.

ويتضح أيضاً عن كُتب أن النفس ليست بعَرَض، لأنّ العَرَض لا يوجد إلّا في غيره، فهو محمول لا حامل وليس هو قواماً، وهذا الجوهر الموصوف بهذه الصفات هو الحامل لما لها أن تحمّل، وليس له شبه من الجسم ولا من العَرَض.

وكان يقول: إذا صدق النظر، وكان الناظر عارياً من الهوى، وصحّ طلبه للحق

بالعشق الغالب، فإنه لا يخفى عليه الفرق بين النفس المحركة للبدن، وبين البدن المتحرك بالنفس.

قال: ولما عرضت الشبهة لقوم قصر نظرهم، ولم يكن لهم لحظ ولا اطلاع فظنوا أن الرباط الذي بين النفس والبدن إذا انحل فقد بطلا جميعاً.

وهذا ظنٌ فيه عسف، لأنهما لم يكونا في حال الارتباط على شكل واحد وصورة واحدة، أعني أنهما تباينا في تصاحبهما وتصاحباً في تباينهما. ألا ترى أن البدن كان قوامه ونظامه وتماؤه بالنفس؟ هذا ظاهر.

وليس هذا حكم النفس في شأنها مع البدن، لأنها واصلته في الأول عند مسقط النطفة، فما زالت تربيته وتغذيته وتخليه وتسويته حتى بلغ البدن إلى ما ترى، ووجد الإنسان بها، لأن النفس وحدها ليست بإنسان، والبدن وحده ليس بإنسان، بل الإنسان بهما إنسان، فإذا الإنسان نصيبه من النفس أكثر من نصيبه من البدن.

وهذه الكثرة توجد في الأول من ناحية شرف النفس في جوهرها، وتوجد في الثاني من جهة صاحب النفس الذي هو الإنسان بما يستفيدة من المعارف الصحيحة، يضمه إلى الأفعال الواجبة الصالحة، فأمر المعارف الصحيحة معرفة الله الواحد الحق باليقين الخالص، وأمر الأفعال الواجبة الصالحة العبادته له والرضوان عنه.

وغاية المعرفة الاتصال بالمعروف، وغاية الأفعال الواجبة الفوز بالنعيم والخلود في جوار الله، وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إلى الجواز عليه كل من رجع إلى بصيرة وأوى إلى حُسن سيرة.

فأما من هو عن هذا كله عم، وعمّا يجب عليه ساء، فهو في قطع النعم، وإن كان متقلّباً في أصناف النعم.

وكان يقول كثيراً: الناس أصناف في عقولهم: فصنّف عقولهم مغمورة بشهواتهم، فهم لا يبصرون بها إلا حظوظهم المعجلة، فلذلك يكذّبون في طلبها ويستهينون بكلّ وسع وطاقة على الظفر.

وصنّف عقولهم منتبهة، لكنها مخلوطة بسبات الجهل، فهم يحرضون على الخير واكتسابه، ويخطئون كثيراً، وذلك أنهم لم يكملوا في جبلتهم الأولى وهذا نعت موجود في العباد الجهلة والعلماء الفجرة، كما أن النعت الأول موجود في طالبي الدنيا بكل حيلة ومحالة.

وصنّف عقولهم ذكية ملتبهة، لكنها عمية عن الآجلة، فهي تدأب في نيل الحظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللطيفة والسُّنعة الربانية، وهذا نعت موجود في العلماء الذين لم تتلج صدورهم بالعلم، ولا حقّ عندهم الحقّ اليقين؛ وقصّروا عن

حال أبناء الدنيا الذين يَشْهَرُونَ في طلبها السيوف الحداد، ويطيّلون إلى نيلها السواعد الشّداد فهم بالكيد والحيلة يَسْعَوْنَ في طلب اللذة وفي طلب الراحة.

وصنف عقولهم مضيئة بما فاءَ عليها من عند الله تعالى باللطف الخفي، والاصطفاء السني، والاجتباء الزكي، فهم يحلمون بالدنيا ويستيقظون بالآخرة؛ فتراهم حضوراً وهم غَيَّب، وأشياءاً وهم متباينون.

وكل صنف من هؤلاء مراتبهم مختلفة، وإن كان الوصف قد جمعهم باللفظ. وهذا كما تقول: «الملوك ساسة، ولكل واحد منهم خاصة»؛ وكما يقولون: «هؤلاء شعراء ولكل واحد منهم بحر»؛ «وهؤلاء بلغاء ولكل واحد منهم أسلوب» وكما تقول: «علماء ولكل واحد منهم مذهب».

وعلى هذا أبو سليمان - حفظه الله - إذا أخذ في هذا الطريق أطرب، لسعة صدره بالحكمة، وفيض صوبه من المعرفة، وصحة طبيعته بالفطرة.

وقال: إننا بعد هذا المجلس تركنا صنفاً لم نرسمه بالذكر، ولم نعرض له بالاستيفاء، وهم الهمج الرّاع الذين إن قلت: «لا عقول لهم» كنت صادقاً، وإن قلت: «لهم أشياء شبيهة بالعقول» كنت صادقاً؛ إلا أنهم في العدد، من جهة النسبة العنصرية والجبلّة الطينية والفطرة الإنسية، وفي كونهم في هذه الدار عمارة لها ومصالح لأهلها؛ ولذلك قال بعض الحكماء: «لا تسبوا الغوغاء فإنهم يُخرجون الغريق ويُطفئون الحريق ويُؤنسون الطريق وَيَشْهَدُونَ السُّوق».

فضحك - أضحك الله ثغره، وأطال عمره، وأصلح شأنه وأمره - فقال: قد جرى في حديث النفس أكثر مما كان في النفس، وفيه بلاغ إلى وقت، وأظن الليل قد تمطى بصلبه، وناء بكلّكله^(١). وانصرفت.

(١) يشير إلى قول امرئ القيس يخاطب الليل:

فقلت له لما تمطى بصلبه
كنى بذلك عن طول الليل.

الليلة الرابعة عشرة

ومرَّ بعد ذلك في عرض السَّمر: ما تقلدَ امرؤُ قِلادةً أفضلَ من سَكينة. فقال: ذكَّرتني شيئاً كنتُ مهتمّاً به قديماً، والآن قرعتَ إليَّ بابه؛ ما السَكينة؟ فإنِّي أرى أصحابنا يردّدون هذا الاسم ولا يسطون القول فيه. فكان من الجواب:

سألت أبا سليمان عن السَكينة ما هي؟ فقال: السكائن كثيرة: طبيعىة، ونفسية وعقلية، وإلهية. ومجموعة من هذه بأنصبا مختلفة، ومقادير متفاوتة ومتباعدة. والسكينة الطبيعية اعتدال المزاج بتصالح الأُسْطُقْسَات، تحدث به لصاحبه شارة تسمّى الوقار، ويكون للعقل فيها أثر باد، وهو زينة الرّواء المقبول. والسكينة النفسية مماثلة الرّوية للبديهة، ومواطأة البديهة للرّوية، وقصد الغاية بالهيئة المتناسبة، يحدث بها لصاحبها سمّت ظاهر ورثو دائم وإطراق لا وُجومَ معه، وغيبة لا غفلة معها، وشهامة لا طيش فيها.

والسكينة العقلية حُسن قبول الاستفاضة بنسبة تامة إلى الإفاضة؛ ومعنى هذا أن القابل مستغرق بقوة المقبول منه، وبهذه الحال يحدث لصاحبها هدى يشتمل على وزن الفكر في طلب الحق مع سكون الأطراف في أنواع الحركات.

والسكينة الإلهية لا عبارة عنها على التحديد، لأنها كالحلم في الانتباه وكالإشارة في الحلم، وليست حلمًا ولا انتباهًا في الحقيقة، لأن هذين نعتان محمودان في عالم السيلان والتبدل، جاريان على التخیل والتجوز بزوائد لا ثبات لها ونواقص لا مبالاة بها، رُوحانية في رُوحانية، كما يقال: «هذا صفو هذا»؛ و«هذا صفو الصفو» ومن لحظ هذه الكيفية وبُوشِر صدره بهذه الحقيقة استغنى عن رسوم محدودة بألف ولام، وحقائق مكنونة في عرض الكلام؛ وإذا جهلنا أشياء هي لأهل الأئس بلغات قد فُطروا عليها، وعبارات أُسوا بها، كيف نجد السبيل إلى الإفصاح والإشارة إليها.

فهذا باب واضح، والطمع في نيله نازح؛ وإذا كان المَنال صعباً في الموضوع الذي عمدنا إليه، فكيف يكون حالنا في البحث عما في حيز الالوهية وبحبوحه الرّبوبية، ولا كون هناك ولا ما نسبته للكون؛ وأقوى ما في أيدينا أن نتعلل بالوجود،

فالموجود والوجدان والجود، وهذه كلها غليظة بالإضافة إلينا وفوق الدقيقة بالإضافة إلى أعيانها.

فَعَلَى هذا: الصمتُ أوجدُ للمراد من التُّطق، والتسليمُ أَظْفَرُ بالبِغية من البحث.
قال البخاري: فشيء كهذا بدقيقه وإشكاله، وغموضه وخفائه، كيف يظهر على جِبلة بشرية وبنية طينية وكمية مادية وكيفية عنصرية؟

فقال: يا هذا، إنما يشع من هذه السكينة على قدر ما استودع صاحبها من نور العقل، وقبس النفس، وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار واعتدال الأفعال، وصلاح العادة، وصحة الفكرة، وصواب القول، وطهارة السر ومساواته للعلائية، وغلبته بالتوحد، وانتظام كل صادر منه ووارد عليه.

وها هنا تَمَحَّى الجِبلة البَشَريَّة، وتَبَدَّدَ الجِبلة الطِّينيَّة، وتَبِيدَ الكَمِّيَّة المادِّيَّة وتعفو الكيفيَّة العنصريَّة، ويكون السلطان والولاية والتصرف والسياسة كلها لتلك السكينة التي قَدَمْنَا وصفنا لها، واشتدَّ وجدُّنا بها، وطال شوقنا إليها ودام تحديقنا نحوها، واتصل رُتُونَا إليها، وتناهت نَجْوَانَا بِذِكْرِهَا.

وهذا هو الخَلع الَّذي سمعتُ بذكره، واللِّباس الَّذي سألت عنه، أعني خَلع ما أنت منه إنسان، وليس ما أنت به مَلَك. اللَّهُ المستغاث منكم، ما أشدَّ بلوأي بكم، لِمَ [لا] تتحرَّكون إلا إلى ما لا سكون لكم فيه؟ ولم تسألون عما لا اطلاع لكم عليه؟ سلوا ربكم أعياناً بصيرة، وآذاناً واعية، وصدوراً طاهرة، وقوة متتابعة، فإنكم إذا مُنَحِّمُوها هُديتم لها، وإذا حُرِّمْتُمُوهَا قُطِعْتُم دونها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال البخاري: وقد تركنا يا سيِّدنا حديث السكينة المجموعة من هذه الجملة بأنصاء مختلفة.

فقال: لا عجب أن يُنشأ العالمُ بكلِّ ما فيه في هذه الحومة التي لُذْنَا بها وحاولْنَا الوصولَ إليها؛ وأَيُّ شيء أعجَبَ في هذا المقام، رسم أو قوام، أو ثبات أو دوام، إلا له نصيب من عناية الله تعالى الكريم.

نعم، والسكينة المجموعة من كلِّ ما سلف القول فيه تَقاسَمَهَا نوع الإنسان بالزيادة والنقصان، والغموض والبيان، والقلة والكثرة، والضعف والقوة، وهذا يتبين بأن تَقَسِّم الطيشَ والحدة والعجلة والخفة على أصحابها، فتجدُ التفاوتَ ظاهراً.

وكذلك إذا قسمت الهدوء والقرار والسكون والوقار على أهلها، فإنك تجد التباينَ مكشوفاً والاختلافَ ظاهراً.

ثم قال: أما السكينة التي هي في أعلى المراتب فهي لأشخاص هم فوق البشر،

وليس لهم نسبة من الخلق إلا الخلقة الحسيّة والعشرة البشريّة، وإلا فهم في ذروة عالية، ومحلّة إلهيّة.

قال: وأما السكينة التي تلي هذه فهي للأنبياء على اختلاف حظوظهم منها لأنّها مرتبات تنقسم بين المنام واليقظة انقساماً متفاوتاً بالعرض الحامل للصدق وللشبه بالصدق، وللحقّ وللقرب من الحق، وللصحيح والتالي للصحيح، ثم يختلف بيانهم عن ذلك بالتعريض والإيضاح، والكناية والإفصاح، والتشبيه والاستعارة.

قال: فأما السكينة التي تتلو هذه فهي التي تظهر على طائفة تخلف الأنبياء، وذلك أنّ بقايا قواهم يرثها الذين صحبوهم، واستضاءوا بنورهم، وفهموا عنهم، ولقنوا منهم، ودخلوا في زمّرتهم، وحاكوهم في السّمائل والأخلاق، وسلكوا منهاجهم في القياد والسياق، وصلّحوا سفراء بين الأبعدين، كما كانوا سُجّراء^(١) للأقربين، وهم الذين يفسرون الغامض، ويوضحون المشكل، ويبسطون المطويّ، ويشرحون المكني، ويبرزون المراد والمعنى، ويوطّدون الأساس، ويرفعون الالتباس، وينفون الوحشة ويحدثون الإيناس.

وأما السكينة الباقية فهي مفضوذة على أتباع هؤلاء بالسّهام العلوية، والمقادير العدليّة، والمناسيب العقلية، من غير جور ولا خيف، ولا انحراف ولا ميل.

فقال البخاري: أهي - أعني السكينة - في معنى فاعلة أو مفعولة؟

فقال: الفضاء أعرض مما تظن، وإن كان في غاية العرض؛ والذروة أعلى من أن ترام وإن كان الإنسان يطلبها بالبسط والقبض.

هي بوجه في معنى فاعلة إذا شعرت بتأثيرها، وبوجه آخر في معنى مفعولة إذا شعرت بتأثيرها. وبوجه آخر، ليست من هذين القبيلين في شيء إذا لحظتها في معانيها قبل تأثيرها وتأثيرها، وأنت تعتبر حد الفاعل والمفعول من شكل اللفظ ووزن الترتيب، بشائع العادة وقائم العرف، والسكينة وراء هذا كلّها بالحق والواجب والصحة والتمام فإنها صراط الله للمخصوصين بالاستقامة عليه، فإذا شهدت المخصوص بها كانت عبارتك عن الملحوظ منها مشاكلةً لعبارتك عن أخلاق رضىة وأحوال مرضية، وإذا شهدت ذلك المعنى من معاني الحق كانت عبارتك متجلجلة لا نظام لها ولا تعادل ولا اتساق على العادة الجارية والحال الطارئة؛ فأحق ما ينبغي لطالب الحكمة واللائذ بهذه الحومة أن يبحث وينظر، ويكشف وينقّر، ويستقصي ويسبر ويسأل ويستبصر؛ حتى إذا بلغ هذه الآفاق، وشهد هذه الأعلام، ووجد الصواب الذي لا شوب فيه، وصادف اليقين الذي لا ريب معه، وعرف الاستبانة التي تغني عن البيان، وذاق

المعنى الذي هو فوق العيان، أمسك وانتهى، ووقف واستغنى لا لِعَرَضِ ظلام غَشِيهِ، ولكن لسلطان شعاع مَلَكِهِ؛ لأن ذلك النور محيط بكل شيء دونه، ومستَوِل على كل شيء تحته.

وكان يقول في هذا الفن إذا جدَّ به الكلام وبدا منه المكتوم وشرد عنه الخاطر؛ ما لا يُوعَى بحفظ، ولا يُروى بلفظ.

وإنما كان أصحابنا ينتظرون منشوره بهذه الحروف لفظاً لينظموا منه شذراً وعقداً، وكانوا إذا تلاقوا اشتركوا في تقويم ذلك كله، وتعاونوا على تحبيره، وتصادقوا على مفهومهم منه، وتجنبوا المنازعة والشغب عليه، وأخذوا بالعفو والممكن منه، لئلا يفوتهم المعنى، ولا يتحيرون في المنتهى.

وسأله الأندلسي في هذا المجلس عن الأمم وأحوالها، ونقصها وكمالها.

فقال: اشتركت الأمم في جميع الخيرات والشرور، وفي جميع المعاني والأمور، اشتراكاً أتى على أول التفاوت ووسطه وآخره، ثم استبدت كل أمة بقوالب ليست لأختها، واشتركتهم فيها كالأصول واستبدادهم كالفروع، وفيما اشتركوا فيه المحمود والمذموم.

ولم يَجُزْ في الحكمة الإلهية غير هذه القسمة، لأن الاشتراك لو سبق بلا تفاوت لم يكن اشتراكاً، والتقاسم لو عَرِيَ من الاتفاق لم يكن تقاسماً، فصار ما من أجله يفترون، به يجتمعون، وما من أجله ينتظمون، به ينتشرون.

فعلى هذا اشتركوا في الأخلاق واللغات، والعقائد والصناعات، وجرّ المنافع ودفع المضار، مع اختلافهم فيها بنوع ونوع.

ألا ترى أن لغة الهند غير لغة الروم، وكذلك الصناعة والعقيدة وما يجري مجراهما، إلا أنهم مع هذه الأصول والقواعد تقاسموا أشياء بين الفطرة والتنبيه، وبين الاختيار والتقدمة، فصار الاستنباط والغوص والتنقيب والبحث والاستكشاف والاستقصاء والفكر ليونان. والوهم والحُذْس والظن والحيلة والتحيل والشعبة للهند. والحصافة واللفظ والاستعارة والإيجاز والاتساع والتصريف والسحر باللسان للعرب؛ والروية والأدب والسياسة والأمن والترتيب والرسوم والعبودية والرُبُوبِيَّة للفرس.

فأما الترك فلها الشجاعة. والعرب تشاركها إما بالزيادة وإما بالمساواة؛ وليس للترك بعد هذا حظ ولا دراية إلا بقسط من الظل من الشخص.

والعرب مع منطقها البارع لها المزية المعروفة على الترك بُعد في السياسة وإن كانت قاصرة؛ وأما الزنج والسودان فغلبت عليها الفُسولة وشاكلت البهائم الضعيفة، كما شاكلت الترك السباع القوية.

قيل له: إن أبا زيد قد عمل كتاباً في أخلاق الأمم. قال: قد رأيته وقرأته وقد أفاد، وكلّ من تكلم على طريقة الحكماء الذين يتوخّون من الأمور لُبَّابِها، ويصرفون عنها قشورها، فله السابقة والتقدّم على من يخطئ كفلان وفلان.

ومن جحد بلاغة العرب في الخطابة وجولانها كلّ مجال وتميّزها باللسان فقد كابر. ومن أنكر تقدّم يونان في إثارة المعاني من أماكنها وإقامة الصناعات بأسرها، وبحيثها عن العالم الأعلى والأوسط والأسفل فقد بهت.

ومن دفع مزية الفرس في سياستها وتدابيراتها وترتيب الخاصّة والعامة بحق ما لها وعليها فقد عاند.

وهكذا من دفع ما للهند.

فليس من شخص وإن كان زريعاً قميئاً إلا وفيه سرٌّ كامنٌ لا يشركه فيه أحد، وإذا كان هذا في شخص على ما قلنا، فكيف إذا نظرت إلى ما يحويه النوع. وهكذا إذا ارتقيت إلى الجنس، وهذا لأنّ عرض الجنس أوسع من عرض النوع، كما أن عرض النوع أوسع من عرض الشخص، وليس دون الشخص تحت، كما أنه ليس فوق الجنس فوق. وأما انقسام هذه الثلاثة على هذا فليكون فضاء العالم غاصّاً بالطرف والوسط والأفق وليكون سحّاً بالغاً من المصدر إلى المورد.

وعلى هذا لولا الجنس لم يوجد نوعٌ، ولولا النوع لم يوجد شخص. وكذلك العكس.

قال أبو سعيد الطيب: ألعالم العلويّ أجناس وأنواع وأشخاص؟

قال: كيف يخلو العالم العلويّ من هذا التقسيم، وإنما هذا الذي لحقنا في العالم السفلي حكاية ذلك العالم العلويّ حدّو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة.

فقال له مستزيداً: فهل في البسائط الإلهية أجناس وأنواع وأشخاص؟

فقال: لا، إلا أنّ يتخذ شيء من هنالك قراره في معارض العالم السفليّ بقوة العالم العلويّ، وذلك كالبرق إذا خطّف، والنسيم إذا لطف.

قال: فهل ينال البسائط نقصٌ بالإخبار بالأجزاء المركبة عنها كما ينال المركبات كمالاً بالأجزاء البسيطة عنها؟

فقال: لا، لأنّ ما علا يؤثر ولا يقبل التأثير؛ وما سفّل يتأثر. ألا ترى أنّ ما علا من الكواكب لا يتصل بشيء دونه، وما سفّل منها يتصل بما علا عنه.

وقال له أيضاً: إذا قلنا: الرّوحانيّات، فماذا ينبغي أن يلحظ منها؟

فقال: الرّوحانيّات على أقسام؛ فقسم منها متبدّد في المركبات من الحيوان والجّماد، وقسم منها مكتنف للحيوان والجّماد، وبحسب هذا الاكتناف هو أبسط وألطف من القسم الأوّل المتبدّد؛ وقسم منها فوق القسم المكتنف، وهو الذي منه

مادة المحيط؛ وقسم آخر فوق هذا الممتد، ثم فوق هذا ما لا يملكه وهم، ولا يُدرکه فهم؛ وذلك أنه في جناب القدس وحيث لا مرام لشيء من قوى الجن والإنس.

وسألت أبا سليمان فقلت: إن علي بن عيسى الرماني ذكر أن التمكين من القبيح قبيح، لأن التمكين من الحسن حسن. فلو كان التمكين من القبيح قبيحاً مع كونه من الحسن حسناً كان حسناً قبيحاً؛ وهذا تناقض؛ كيف صحة هذا الذي أومأ إليه؟

فقال: أخطأت، لأن التمكين وحده اسم مجرد لشيء محدد، والأسماء المحددة دلالتها على الأعيان لا على صفات الأعيان أو ما يكون من الأعيان أو ما يكون في الأعيان.

والتمكين معتبر بما يضاف إليه ويناط به، فإن كان من القبيح فهو قبيح لأنه علة القبيح، وإن كان من الحسن فهو حسن لأنه سبب الحسن.

وهذا كما تقول: هذا الدرهم نافع أو ضار؟ فيقال: إن صرفته فيما ينبغي فهو نافع، وإن أنفقته فيما لا ينبغي فهو ضار، وكذلك السيف في الآلات، وكذلك اللفظ في الكلمات، والإضافة قوة إلهية سرت في الأشياء سرياناً غريزياً قاهراً متمكناً قاسراً، فلا جرم لا ترى حسياً أو عقلياً أو وهمياً أو ظنياً أو علمياً أو عرفياً أو عملياً أو حلمياً أو يقظياً إلا والتصاريف سارية فيها، والإضافة حاکمة عليها.

وهذا لأن الأشياء بأسرها مصيرها إلى الله الحق، لأن مصدرها من الله الحق، فالإضافة لازمة، والنسبة قائمة، والمشابهة موجودة. ولولا إضافة بعضنا إلى بعض ما اجتمعنا ولا افترقنا، ولولا الإضافة بيننا الغالبة علينا ما تفاهمنا ولا تعاوننا.

قال: إذا كنا بالتضاييف نتوالى، فبأي شيء بعده نتعادي؟

قال: هذا أيضاً بالإضافة، لأن الإضافة ظل، والشخص بالظل يأتلف، وبالظل يختلف.

وقال: ويزيدك بياناً أن العدم والوجود شاملان لنا، سائران فينا فبالوجود نتصادق، وبالعدم نتفارق.

وسأل^(١) مرة عن الطرب على الغناء والضرب وما أشبههما.

فكان من الجواب: قيل لسقراط فيما ترجمه أبو عثمان الدمشقي: لم طرب الإنسان على الغناء والضرب؟ فقال: لأن نفسه مشغولة بتدبير الزمان من داخل ومن خارج، وبهذا الشغل هي محجوبة عن خاص ما لها.

فإذا سمعت الغناء انكشفت عنها بعض ذلك الحجاب، فحنت إلى خاص ما لها من

المثالات الشريفة والسعادات الروحانية من بعد ذلك العالم، لأن ذلك وطنها بالحق.

فأما هذا العالم فإنها غريبة فيه، والإنسان تابع لنفسه، وليست النفس تابعة للإنسان، لأن الإنسان بالنفس إنسان، وليست النفس نفساً بالإنسان، فإذا طربت النفس - أعني حنت ولحظت الروح الذي لها - تحرّكت وخفت فارتاحت واهتزّت.

ولهذا يطرح الإنسان ثوبه عنه، وربما مزقه كأنه يريد أن ينسلّ من إهابه الذي لصق به، أو يقلّ من حصاره الذي حبس فيه، ويهرول إلى حبيبه الذي قد تجلّى له وبرز إليه.

إلا أن هذا المعنى على هذا التنضيد إنما هو للفلاسفة الذين لهم عناية بالنفس والإنسان وأحوالهما.

وأما غيرهم فطربهم شبيه بما يعتري الطير وغيرها، وانصرفوا.

الليلة الخامسة عشرة

وجرى مرّة كلام في الممكن، فحكيتُ عن ابن يعيش الرقيّ فصلاً سمعته يقوله، لا بأس برسمه في هذا الموضوع، فإنّ التشاور في هذا الحرف دائم متّصل وينبغي لنا أن نبحث عنه بكلّ زحف وحبو، وبكلّ كد وعفو.

قال: الممكن شبيه بالرؤيا لا بدن له يستقلّ به، ولا طبيعة يتحيّز فيها.

ألا ترى أنّ الرؤيا تنقسم على الأكثر والأقلّ والتساوي، وكما أنّ الرؤيا ظلّ من ظلال اليقظة، والظلّ ينقص ويزيد إذا قيس إلى الشخص؛ كذلك الممكن ظلّ من ظلال الواجب، فطوراً يزيد تشابهاً للواجب، وطوراً ينقص تشاكها للممتنع، وطوراً يتساوى بالوسط.

قال: والواجب لا عرض له، لأنّه حدّ واحد، وله نصيب من الوحدة بدليل أنّه لا تغير له ولا حيلولة لا بالزمان ولا بالمكان ولا بالحدثان ولا بالطبيعة ولا بالوهم ولا بالعقل، بل العقل ينقاد له، والطبيعة تُسلم إليه، والوهم يفرّق منه وصورة الواجب لا يحدّسها الظنّ، ولا يتحكّم فيها تجويز، ولا يتسلط عليها دماغ ولا ناسخ، وهذا الحكم يطرد على الممتنع، لأنّه في مقابله على الضدّ، أعني أنّه لا بدن له، فيكون له عرض، والعرض كلّهُ للممكن بالنعته الذي سلف من الكثرة والقلة والمساواة.

ولهذا تعلّقت التكاليف به في ظاهر الحال وبادئ الأمر وعارض الشان، واستولى الوجودُ عليه بباطن الحال وخفيض الأمر وراتب الشان، لكنّ هذا الفصل الذي اشتمل على الظاهر والباطن ليس ينكشف للحسّ كما ينكشف للعقل.

ولمّا كنّا بالحسّ أكثر - وإن كنّا لا نخلو في هذه الكثرة من آثار العقل - لزمنا الاعترافُ بعوائد الممكن وعلائقه، والعمل عليها، والرجوع إليه إذا أمرنا أو نهينا أو ائتمرنا أو انتهينا.

ولمّا ظهر لنا بإزاء هذا الذي كنّا به أكثر أنّ لنا شبحاً آخر نحن به أقلّ وهو العقل يشهد لنا بأنّ صورة الوجوب استولت من مبدأ الأمر إلى منقطعه الذي هو في عرض الواجب إلى آخر الممتنع.

وكما لزمنا الاعتراف الأوّل لنكون به عاملين ومستعملين، ورافعين وواضعين، ولأئمين ومَلومين، ونادمين ومُنْدمين؛ كذلك لزمنا الاعترافُ بسلطان الواجب الذي لا

سبيل إلى عزله، ولا محيصَ عن الإقرار به، ولا فكاك من أطراجه بغير دافع أو مانع.
واتصل كلامُ ابن يعيش على تقطُّع في عبارته التي ما كانت أدائه تُواتيه فيها، مع تدفُّق خواطره عليها؛ فقال: الرؤيا ظلُّ اليَقْظَة، وهي واسطةٌ بين اليَقْظَة والنوم، أعني بين ظهور الجِسِّ بالحركة، وبين خفائه بالسكون.

قال: والنوم واسطة بين الحياة والموت، والموت واسطة بين البقاء الذي يتصل بالشهود وبين البقاء الذي يتصل بالخلود.

قال: وهذا نعتٌ على تسهيل اللفظ وتقريب المراد والتصور؛ ودون الثَقَّة شوك القَتَاد، وازدراؤ العَلَقَم والصاب، للحواجز القائمة والموانع المعترضة من الإلف والمنشأ وغير ذلك مما يطول تعديده ويشق استقصاؤه.

فقال: هذا كلامٌ ظريف، وما خلْتُ أنَّ ابنَ يعيش مع فدامته، ووَحَامَتِهِ يسحب ذَيْلَهُ في هذا المكان، ويُجري جِوَادَهُ بهذا العِنان.

قلتُ له: إنَّ له مع هذه الحالِ مَرَامِيَّ بعيدة، ومَقاصِدَ عالية، وأطرافاً من المعاني إذا اعتلَّقها دَلٌّ عليها، إما بالبيان الشافي، وإما بما يكون طريقاً إلى الوهم الصافي.

وقلتُ: لقد مرَّ له اليومَ شيءٌ جرى بينه وبين أبي الخير اليهودي استفيد منه.

قال: وما ذاك؟ انثر علينا دُرَر هذه الطائفة التي نميل إليها بالاعتقاد وإن كنا نقع دونها بالاجتهاد؛ ونسأل الله أن يرحم ضَعْفَنَا الذي منه بُدُّنَا ويبدِّلنا قوَّةً بها نجد قُرْبَنَا في آخرنا.

قلت: ذكر أنَّ العقل لا غناء له في الأشياء التي تغلب عليها الحيلولة والسَّيْلَان والتطوُّل، كما أنَّ الجِسَّ لا ينفذُ في الأمور التي لا تطوُّر لها بالحيلولة والتطوُّل، ولذلك عُرِفَت الحِكْمَةُ في الكائنات الفاشيات، وخفيت العِلْلُ والأسباب في بُدُوها وخُفْيَتِهَا وتبدُّدها وتألُّفِها، لكنَّ هذا الفرق والخفاء مسلَّمان للقدرة المستعلية والمشيتة النافذة.

قال: ولهذا الترتيب سرٌّ به حَسُنَ هذا النعت، وإليه انتهَى هذا البحث وذلك أنَّ خَفَاءَ ما خَفِيَ بِحَقِّ الأوَّل الحَقِّ، وبدوُّ ما بدا من نصيبِ أُطْلُقٍ لِلَّذِي لا يحتمل غير هذا الثقل، ولو خُفِّفَ عنه هذا لِلْحَقِّ الإنسانُ البهائم، ولو ثَقُلَ عليه هذا لِلْحَقِّ الملائكة، فكان حينئذٍ لا يكون إنساناً، وقد وجب في الأصل أن يكون إنساناً كاملاً بالنَّصَب والدَّأب، ويمتعض من أن تكون صورة الإنسان عنده مُعَارَة، لأنَّه في الحقيقة حيوان غيرُ ناطق، بل يجتهد بسعيه وكدحه أن يصير إنساناً فاضلاً، ويكون في فضله وكماله ملكاً، أعني بالمشاكهة الإرادية لا بالمشاكهة النوعية.

قال: وغاية الحكمة منها للمباشرين لها أنَّ المعرفة تَقِفُ على حَيَلُولَتِهَا ولسيْلانِها فقط، لا على تصفُّح أجزائها، لأنَّ الترتيب فيها يستحيل مع الزمان.

ألا ترى أنَّ الرقم على الماء لا صورة له، لأن صفحة الماء لا ثبات لها، وكذلك الخطُّ في الهواء، وكذلك الكائنات البائدات لا صورة لها، لأنَّها لا ثبات لها، وأنت إذا وجدت شيئاً لا ثبات له لم تضمَّ إليه شيئاً آخر لا ثبات له طمعاً في وقوع الثبات بينهما، هذا ما لا يدين به وهم، ولا ينقاد له ظنُّ؛ ولو ساغ هذا لساغ أن يُجمع بين ما له ثبات، وبين ما له أيضاً ثبات، فيحدث هناك سيلاً واستحالة.

وقال: وَصَفُ العقل بشهادة الحسِّ، كما يكون وصف الحسِّ بشهادة العقل إلا أن شهادة الحسِّ للعقل شهادة العبد للمولى، وشهادة العقل للحسِّ شهادة المولى للعبد؛ على أن هاتين الشهادتين لا تطردان ولا تستمرَّان، لأن لكل واحد من الحسِّ والعقل تفرّداً بخاصِّ ماله، ولذلك ما وُجد حيوانٌ لا عقل له البتة، ووُجد في مقابلته حيٌّ لا حسَّ له.

ثم قال: بل العقل يحكم في الأشياء الروحانية البسيطة الشريفة من جهة الصُّور الرفيعة، والعلائقُ التي بين المعقولات والمحسوسات ما نعت العقل، والعاقل من خلَّص الباقيات الخالدات الدائمات القائمة الثابتات من حومة الكائنات الفاسدات البائتات الذاهبات الحائلات الزائلات المائلات البائدات.

ودخل في هذا التلخيص ضربٌ من الشكِّ والتماري والخصومة والتعادي والتعنُّت إلى اختلاف عظيم، ووقفتُ عن الحكم بعد اليقين.

وقال - أدام الله سعادته - ما السَّجِّية؟

قلت: سمعتُ الأندلسيَّ يقول: فلان يَمْشي على سَجِّيته، أي طبعه.

قال: هل يقال: ظفِرْتُ عليه؟

قلتُ: قد قال شاعرهم:

وكانت قريش لو ظفِرنا عليهم شفاء لما في الصدر والنقص ظاهرُ

قال: هذا حسن.

قلتُ: الحروف التي تتعدَّى إلى الأفعال، والأفعال التي تتعدَّى بالحروف؛

يراعى فيها السَّماعُ فقط لا القياس. هذا كان مذهب إمامنا أبي سعيد؛ وقد جاء أيضاً «ظفِر به»؛ وجاء «سَخِرْتُ به ومنه».

ومن لا اتَّسع له في مذهب العرب يظنُّ أن «سَخِرْتُ به» لا يجوز وهو صحيح.

حكاه أبو زيد.

قال: كيف يقال في جَمَل به غُدَّة؟ فكان من الجواب: جَمَلٌ مُغْدٍ. قال: فكيف

يُجمع؟ فكان الجواب بأنَّه في القياس ظاهر، ولكن السَّماع قد كفى. قال الشاعر - وهو خراش بن زُهَيْر:

فَقَدْتُكُمْو وَلَخَطَكُمُوإِلَيْنَا بِبَطْنٍ عُكَاظَ كَالإِبِلِ الْغِدَادِ

ضَرَبْنَاهُمْ بِبَطْنِ عُكَاظَ حَتَّى تَوَلَّوْا طَالِعِينَ مِنَ النَّجَادِ
 وقال - حرس الله نفسه - : مربعة الخُرْسِيِّ إلى أي شيء يُنسَب؟ فكان من الجواب :
 يقال : رجل خُرَاسَانِيّ وخُرَاسِيّ وخُرَاسِيّ، فنُسبت إلى رجل نزلها فاشتهرت به .
 فقال : القَذال كيف يجمع؟ فكان من الجواب ؛ أن فَعَالاً وفَعَالاً وفَعَالاً وفَعِيلًا
 وفُعُولاً أخوات تُجمع في الأقل على أَفْعَلَةٍ ، يقال : حِمَارٌ وأخْمِرَةٌ ، وغُرَابٌ وأَغْرِبَةٌ ،
 وقَذالٌ وأَقْدِلَةٌ ، وعَمُودٌ وأَعْمَدَةٌ .

قال : نسيت أسألك عن المسألة الأولى - أعني الخُرْسِيَّ - من أين لك تلك الفُتْيَا؟
 فكان من الجواب : قرأته على أبي سعيد الإمام في شرحه كتاب سيبويه .
 قال : برَدْتُ عَلِيلِي ، فَإِنَّ الْحِجَّةَ فِي مِثْلِ هَذَا مَتَى لَمْ تَكُنْ بِأَهْلِهَا كَانَتْ
 متجلجلة .

قال : أَنشِدْنِي شَيْئاً نَخْتِمُ بِهِ الْمَجْلِسَ ، فَقَدْ مَرَّتْ طَرَائِفُ .

فَأَنشَدْتُهُ لِعُمَارَةَ بْنِ عَقِيلٍ فِي بِنْتٍ لَهُ :

حُبُّكَ يَا ذَاتَ الْأَنْثِفِ الْأَكْشَمِ	حُبٌّ تَسَاقَاهُ مُشَاشٌ أَغْظَمِي
وَدَبٌ بَيْنَ كَبِيدِي وَمَخْزَمِي	وَسَاطُهُ اللَّهُ بِلُحْمِي وَدَمِي
فَلَيْسَ بِالْمَذْقِ وَلَا الْمَكْتَمِ	وَلَا الَّذِي إِنْ يَتَّقَادَمْ يُسَامِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْ فَوَادِي - فاعلمي -	مَنْزَلَةَ الشَّيْءِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

وانصرفت .

الليلة السادسة عشرة

ثم عُذْتُ وقتاً آخر فقال: كُنْتُ حَكِيتُ لِي أَنَّ العَامِرِيَّ صَنَّفَ كِتَاباً عَنْوَتُهُ (بِإِنْقَاذِ الْبَشَرِ مِنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ)، فَكَيْفَ هَذَا الْكِتَابُ؟

فَقُلْتُ: هَذَا الْكِتَابُ رَأَيْتُهُ بِخَطِّهِ عِنْدَ صَدِيقِنَا وَتَلْمِيزِهِ أَبِي الْقَاسِمِ الْكَاتِبِ وَلَمْ أَقْرَأْهُ عَلَى الْعَامِرِيِّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ أَبَا حَاتِمٍ الرَّازِيَّ يَقْرُؤُهُ عَلَيْهِ، وَهُوَ كِتَابُ نَفِيسٍ، وَطَرِيقَةُ الرَّجُلِ قَوِيْمَةٌ، وَلَكِنَّهُ مَا أَنْقَذَ الْبَشَرَ مِنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ، لِأَنَّ الْجَبَرَ وَالْقَدَرَ اقْتَسَمَا جَمِيعَ الْبَاحِثِينَ عَنْهُمَا وَالنَّاطِرِينَ فِيهِمَا.

قال: لم قيل الجبر والقدر ولم يقل الإجمار.

فكان الجواب: أن الإجمار لغة قوم، والجبر لغة تميم، يقال: جبر الله الخلق وأجبر الخلق، وجبر بمعنى جبل؛ واللام تعاقب الراء كثيراً.

قال: فتكلم في هذا الباب بشيء يكون غير ما قاله العامري، وانقد له إن كان الحق فيما ذهب إليه ودل عليه.

فكان من الجواب: أن من لحظ الحوادث والكوائن والصوادر والأوتاني من معدن الألهيّات أقرّ بالجبر وعزّى نفسه من العقل والاختيار والتصرّف والتصرف، لأن هذه وإن كانت ناشئة من ناحية البشر، فإن منشأها الأوّل إنّما هو من الدواعي والبواعث والصوارف والموانع التي تنسب إلى الله الحق؛ فهذا هذا.

فأمّا من نظر إلى هذه الأحداث والكائنات والاختيارات والإرادات من ناحية المباشرين الكاسيين الفاعلين المحدثين اللائمين الملوّمين المكلفين، فإنّه يعلّقها بهم ويُلصّقها برقابهم، ويرى أنّ أحداً ما أتى إلّا من قبل نفسه وبسوء اختياره وبشدّة تقصيره وإيثار شقائه.

والملاحظان صحيحان واللاحظان مصيبان، لكن الاختلاف لا يرتفع بهذا القول والوصف، لأنّه ليس لكل أحد الوصول إلى هذه الغاية، ولا لكل إنسان اطلاع إلى هذه النهاية.

فلما وقعت البيّنونة بين الناظرين بالطبع والنسبة لم يرتفع القول والقيله من ناحية القول والصفة، فهذا هذا.

قال - أطال الله بقاءه: - فما الفرق بين القضاء والقدر؟

فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال: إن القضاء مصدره من العلم السابق، والقَدَر مَوْرَدُه بالأجزاء الحادثة.

فقال: لم وَرَدَ في الأثر: «لا تخوضوا في القدر فإنه سرُّ الله الأكبر».

فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال لنا في هذه الأيام: إن الناموس ينطق بما هو استصلاح عام، ليكون النفع به شائعاً في سكون النفس وطيب القلب وروح الصدر.

فإن كان هذا هكذا فقد وَضَحَ أَنَّ حكمة هذا السرِّ طيِّهه، لأنَّ عجز الناظرين يُفْضِي بِهِمْ إلى الحَيْرَةِ، والحَيْرَةِ مَضَلَّةٌ، والمَضَلَّةُ هَلَكَةٌ. وإذا كانت الراحة في الجهل بالشيء، كان التعب في العلم بالشيء، وكم علم لو بدا لنا لكان فيه شقاء عشنا، وكم جهل لو ارتفع منا لكان فيه هلاكنا؛ والعلم والجهل مقسومان بيننا ومفوضان علينا على قدر احتمال كلِّ واحد منا للذي سبق إليه وَعَلِقَ به، ألا ترى أَنَّ علمنا لو أحاط بموتنا متى يكون؟ وعلى أيِّ حال تحدث العلة أو المحنة أو البلاء؟ لكان ذلك مفسدةً لنا، ومحنةً شديدةً علينا.

فانظر كيف رَوَى الله الحكيمُ هذا العلمَ عنا، وجعل الخيرة فيه لنا.

ألا ترى أيضاً أَنَّ جهلنا لو غلب علينا في جميع أمورنا لكان فسادُ ذلك في عظم الفساد الأول، والبلاء منه في معرض البلاء المُتَقَدِّم، فَمَنْ هذا الذي أَشْرَفَ على هذا الغيب المكنون والسرِّ المخزون فيغفل عن الشكر الخالص، والاستسلام الحسن، والبراءة من كلِّ حَوْلٍ وقوَّة.

فالاستمداد ممن له الخلق والأمر، أعني الإبداء والتكليف، والإظهار والتشريف، والتقدير والتصريف.

قال: هذا فنُّ حَسَن، وأظنك لو تصديتَ للقصص والكلام على الجميع^(١) لكان لك حظٌّ وافر من السامعين العاملين، والخاضعين والمحافظين.

فكان من الجواب: أن التصدي للعامَّة خُلُوقة^(٢)، وطلب الرِّفعة بينهم ضعة، والتشبه بهم نقیصة، وما تعرَّضَ لهم أحدٌ إلَّا أعطاهم من نفسه وعلمه وعقله ولَوْتِهِ ونفاقه وريائه أكثر ممَّا يأخذ منهم من إجلالهم وقبولهم وعطائهم وبذلهم.

وليس يقف على القاصِّ إلَّا أحد ثلاثة:

إمَّا رجل أبله، فهو لا يدري ما يخرج من أمِّ دماغه.

وإمَّا رجل عاقلٌ فهو يزدریه لتعرَّضه لجهل الجهال.

(١) يريد العامة.

(٢) يريد بالخلوقة هنا معنى التبذل والامتهان. يقال: خلق الثوب بثلاث اللام خلوة خلاقة: إذا بلي.

وإما له نسبة إلى الخاصة من وجه، وإلى العامة من وجه، فهو يتذبذب عليه من الإنكار الجانب للهجر، والاعتراف الجالب للوصل، فالقاصّ حينئذٍ ينظر إلى تفرّغ الزمان لمدارة هذه الطوائف، وحينئذٍ ينسلخ من مهمّاته النفسية، ولذاته العقلية، وينقطع عن الازدياد من الحكمة بمجالسة أهل الحكمة، إمّا مقتسباً منهم، وإمّا قابساً لهم؛ وعلى ذلك فما رأيت من انتصب للناس قد ملك إلّا درهماً وإلّا ديناراً أو ثوباً؛ ومناصبه شديدة لمماثليه وعُداته.

قال: إن الليل قد دنا من فجره، هاتِ مُلَحَّةَ الوداع.

قلتُ: قال يعقوب صاحب (إصلاح المنطق):

دخل أعرابي الحمام فزلق فانشج، فأنشأ يقول:

وقالوا تطهّز إنّه يومُ جُمُعَةٍ فرُحْتُ من الحمام غيرَ مُطَهَّرٍ
تَرَدَّيْتُ منه شارباً شَجَّ مَفْرِقِي بفُلَسَّيْنِ إِنِّي بئسَ ما كان مَتَجَرِّي
وما يُحَسِّنُ الأعرابُ في السُّوقِ مِشْيَةً فكيف بَبَيْتٍ من رَحَامٍ وَمَزْمَرٍ
يقول لي الأنباطُ إذ أنا نازل «به لا بظُنْبِي بالصَّرِيمةِ أَعْفَرٍ»^(١)

وقال - حرس الله نفسه -: كنتُ أزوي قافية هذا البيت «أعفرا»، وهذه فائدة كنتُ عنها في ناحية؛ وانصرفت.

قد رأيتُ أيّها الشيخ - حاطك الله - عند بلوغي هذا الفصل أن أختَمَ الجزء الأوّل بما أنتهى إليه، وأشفعه بالجزء الثاني على سياج ما سلف نظمه ونثره، غيرَ عائج على ترتيبٍ يحفظ صُورَةَ التصنيف على العادة الجارية لأهله، وعذري في هذا واضح لمن طلبه، لأنّ الحديث كان يجري على عَواهِنه بحسب السانح والدّاعي.

وهذا الفنّ لا ينتظم أبداً، لأنّ الإنسان لا يملك ما هو به وفيه، وإنما يملك ما هو له وإليه.

وهذا فصل يحتاج إلى نَفْسٍ مَدِيدٍ، ورأي يَصْدُرُ عن تأييد وتسديد: والسلام، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين، وسلّم تسليمًا كثيراً إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين.

(١) مثل يضرب في الشماتة بالرجل، يريدون أن المكروه ينزل به ولا ينزل بظني أعفر، كأنه من الخسة والهوان بحيث يفضل عليه الظبي الأعفر.

كِتَابُ الْمُتَنَاعِ وَالْمَوَانِسَةِ

تَأَلِيفُ
أَبِي حَيَّانَ التَّوْحِيدِيِّ

وَهُوَ مَجْمُوعُ مُسَامِرَاتٍ وَدَفْنُونٍ شَتَّى
حَاضِرَ بِهَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضُ فِي عِدَّةٍ لِيَاك

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَهُ
هَيْثَمُ خَلِيفَةُ الطَّعِيمِيِّ

الْجُزْءُ الثَّانِي

الْمَكْتَبَةُ الْعَصْرِيَّةُ
سُتْدَا - سَبُون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الشيخ - أطالَ اللهُ يَدَكَ في الخيرات، وزاد في هِمَّتِكَ رَغْبَةً في اصطناع المَكْرُمات، وأجزاك على أحسن العادات في تقديم طُلابِ العِلْمِ وأهلِ البُيُوتات - قد فرغتُ في الجزء الأول على ما رَسَمْتَ في القيام به، وشَرَفْتَنِي بالخَوْضِ فيه، وسَرَدْتُ في حواشيه أعيانَ الأحاديث التي خَدَمْتُ بها مجلسَ الوزير، ولم آلْ جُهْداً في روايتها وتقويمها ولم أحتجْ إلى تَغْمِيَةٍ شيءٍ منها، بل زَبَرَجْتُ كثيراً منها بناصِعَ اللفظ، مع شَرْحِ الغامض وِصْلَةِ المَحْذُوف وإِتِمَامِ المَنْقُوص، وَحَمَلْتُهُ إِلَيْكَ عَلَيَّ يَدَ (فائقٍ) الغلام، وأنا حريصٌ على أَنْ أَتْبِعَهُ بِالْجُزْءِ الثاني، وهو يَصِلُ إِلَيْكَ في الأسبوع إن شاء اللهُ تعالى.

وأنا أسألك ثانيةً على طريق التوكيد، كما سألتك أولاً على طريق الاقتراح، أن تكون هذه الرسالة مَصُونَةً عن عُيُونِ الحاسدين العَيَّابِينَ، بعبدةٍ عن تناوُلِ أيدي المفسدين المتنافسين؛ فليس كلُّ قائلٍ يَسْلَمُ، ولا كلُّ سامعٍ يُنْصَفُ، ولا كلُّ مُتَوَسِّطٍ يُصْلَحُ، ولا كلُّ قادمٍ يُفْسَحُ له في المجلس عند القُدوم.

والبَلِيَّةُ مضاعفةٌ من جهة النُظراء في الصناعة، وللحسد ثَوْرانٌ في نفوسِ هذه الجماعة؛ وَقَلٌّ من يَجْهَدُ جُهْدَهُ في التقرب إلى رئيسٍ أو وزير، إلا جَدَّ في إبعاده من مَرَامِهِ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ؛ وهذا لأنَّ الزمانَ قد استحالَ عن المعهود، وجفا عن القيام بوظائف الديانات وعاداتِ أهلِ المروءات؛ لأمورٍ شَرَحُهَا يَطُولُ؛ وقد كان الناس يتقلبون في بسيطِ الشمس؛ (أَغْنِي الدِّينَ) ففَرُبْتُ عَنْهُمْ، فعاشوا بنور القمر، (أَغْنِي المروءة) فأفلَ دُونَهُمْ، فَبَقُوا في ظُلُمَاتِ البرِّ والبحرِ، (أَغْنِي الجهلَ وَقَلَّةَ الحياءِ) فلا جَزَمَ أَغْضَلَ الدَّاءَ، وَأَشْكَلَ الدَّوَاءَ، وَغَلَبَتِ الحيرةُ، وَفُقِدَ المُرْشِدُ، وَقَلَّ المُسْتَرَشِدُ؛ وَاللَّهُ المُسْتَعَانُ.

وأزجِعُ إلى ما هو الغرضُ مِنْ نسخ ما تَقَدَّمَ في الجزء الأول.

الليلة السابعة عشرة

فلما عُذْتُ إلى المجلس قال: ما تَحْفَظُ في تَفْعَالٍ وَتِفْعَالٍ، فقد اسْتَبْهَأ؟ وَفَزَعْتُ إلى ابنِ عُبَيْدِ الكاتب فلم يكن عنده مَقْنَعٌ، وَأَلْقَيْتُ على مِسْكَوْنِهِ فلم يكن له فيها مَطْلَعٌ؛ وهذا دليلٌ على دُثُورِ الأدبِ وَبَوَارِ الْعِلْمِ والإِعْرَاضِ عن الكَذْحِ في طلبه. فقلتُ:

قال شيخنا أبو سعيد السَّيرافي الإمام - نَصَرَ اللَّهُ وَجْهَهُ -: المَصَادِرُ كُلُّهَا على تَفْعَالٍ بفتح التاء، وإنما تَجِيءُ تَفْعَالٍ في الأَسْمَاءِ، وليس بالكثير. قال: وذكر بعضُ أهلِ اللُّغَةِ منها ستة عشر اسماً لا يوجَدُ غيرُها. قال: ها تَها.

قلتُ: منها التَّيْبَانِ والتَّلْقَاءُ، ومَرَّ تِهَوَاءٌ مِنَ اللَّيْلِ؛ وَتَيْرَاكُ، وَتَغْشَارُ وَتَرْبَاعُ، وهي مواضع؛ وَتَمْسَاحُ لِلدَّابَّةِ المعروفة؛ وَالتَّمْسَاحُ الرَّجُلُ الكَذَّابُ أيضاً. وَتَجْفَافٌ وَتِمثالٌ وَتَمْرَادُ بَيْتِ الحَمَامِ، وَتِلْفَاقُ، وهو ثوبان يُلْفَقَانِ. وَتِلْقَامُ: سَرِيعُ اللَّقْمِ. ويقال: أَتَتِ النَّاقَةُ على تَضْرَابِها، أي على الوقت الذي ضَرَبَها الفَحْلُ فيه، وَتَضْرَابُ كَثِيرُ الضَّرْبِ، وَتَقْصَارُ، وهي المِخْنَقَةُ؛ وَتَنْبَالُ، وهو القصير.

قال: هذا حَسَنٌ، فما تقولُ في تَذْكَارٍ؟ فَإِنَّ الخَوْضَ في هذا المِثَالِ إنما كان من أَجْلِ هذا الحَرْفِ، فَإِنَّ أَصْحَابَنَا كانوا في مجلسِ الشَّرَابِ، فَاخْتَلَفُوا فيه؟ فقلتُ: هذا مَصْدَرٌ، وهو مفتوح.

ثم قال: اجْمَعْ لي حُرُوفاً نظائرَ لهذا من اللغة، واشْرَحْ ما نَدَرَ منها، وَعَرَضِ الشُّكَّ لكثيرٍ من الناس فيها.

فقلتُ: السَّمْعُ والطَّاعَةُ مع الشَّرَفِ بالخِذْمَةِ.

وقال أيضاً: حَدَّثَنِي عن شيءٍ هو أَهْمٌ من هذا لي وَأَخْطَرُ على بالي، إني لا أَزالُ أَسْمَعُ من زَيْدِ بْنِ رِفَاعَةَ قولاً ومذهباً لا عهد لي به وَكُنَايَةً عما لا أَحِقُّهُ، وإِشَارَةً إلى ما لا يتوضَّحُ شيءٌ منه، يَذْكُرُ الحُرُوفَ وَيَذْكُرُ النُّقْطَ، وَيَزْعُمُ أَنَّ البَاءَ لَمْ تُنْقَطْ من تحتِ واحدةٍ إِلَّا بسببِ، والتَّاءُ لَمْ تُنْقَطْ من فوقِ اثنتين إِلَّا لعلَّة، والألفُ لَمْ تُعَرَّ إِلَّا لِعَرَضٍ. وَأَشْبَاهُ هذا؛ وَأَشْهَدُ منه في عَرَضِ ذلك دَعْوَى يتعاضدُ بها ويتَفَجَّعُ^(١) بِذِكْرِها؛

(١) يفتخر بما ليس فيه.

فما حديثه؟ وما شأنه؟ وما دخلته؟ وما خبره؟ فقد بلغني أنك تغشاه وتجلس إليه، وتكثير عنده، وتورق له، ولك معه نوادر مضحكة، وبوادر معجبة. ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته به، وانكشف أمره له، وأمكن اطلاعه على مستكن رأيه وخافي مذهبه وعويص طريقته.

فقلت: أيها الوزير، هو الذي تعرفه قبلي قديماً وحديثاً بالتربية والاختبار والاستخدام، وله منك الأخوة القديمة والنسبة المعروفة.

قال: دغ هذا وصفه لي.

قلت: هناك ذكاء غالب، وذهن وقاد، ويقظة حاضرة، وسوانح متناصرة، ومتسع في فنون النظم والنثر، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة، وحفظ أيام الناس، وسماع للمقالات، وتبصر في الآراء والديانات، وتصرف في كل فن: إما بالشدو^(١) المؤهم، وإما بالتبصر المفهم، وإما بالتناهي المفهم.

فقال: فعلى هذا ما مذهبه؟

قلت: لا ينسب إلى شيء، ولا يعرف برهط، لجيشانه بكل شيء، وعلانيه في كل باب. ولا اختلاف ما يبدو من بسطة تبيان، وسطوته بلسانه، وقد أقام بالبصرة زماناً طويلاً، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة؛ منهم أبو سليمان محمد بن معشر البيسطي، ويعرف بالمقدسي، وأبو الحسن علي بن هارون الزنجاني، وأبو أحمد المهرجاني والعوقي وغيرهم، فصحبهم وخدمهم؛ وكانت هذه العصابة قد تآلفت بال عشرة، وتصافت بال صداقة، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله والمصير إلى جنته، وذلك أنهم قالوا: الشريعة قد دُست بال جهالات، واختلطت بالضلالات؛ ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة، وذلك لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية، والمصلحة الاجتهادية.

وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال؛ وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة: علميها وعمليها، وأفردوا لها فهرستاً وسموها رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء، وكتبوا أسماءهم، وبنوها في الوراقين، ولقنوها الناس، وادعوا أنهم ما فعلوا ذلك إلا ابتغاء وجه الله عز وجل وطلب رضوانه ليخلصوا الناس من الآراء الفاسدة التي تضر النفوس، والعقائد الخبيثة التي تضر أصحابها، والأفعال المذمومة التي يسقى بها أهلها؛ وحشوا هذه الرسائل بالكليم الدنيية والأمثال الشرعية والحروف المختمة والطرق الموهمة.

(١) أي أخذ العلم وتلقيه.

فقال: هل رأيت هذه الرسائل؟

قلت: قد رأيت جملةً منها، وهي مبثوثة من كل فن تُنفأ بلا إشباع ولا كفاية، وفيها خرافات وكنائيات وتلفيقات وتلزيقات وقد غرق الصواب فيها لغلبة الخطأ عليها.

وحملت عدةً منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني (محمد بن بهرام) وعرضتها عليه ونظر فيها أياماً واختبرها طويلاً؛ ثم ردّها عليّ وقال: تعبوا وما أغنوا، ونصبوا وما أجدوا، وحاموا وما وردوا، وغنوا وما أطربوا، ونسجوا فهلهلوا، ومشطوا فقلقلوا^(١)؛ ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يُستطاع؛ ظنوا أنهم يمكنهم أن يدسوا الفلسفة - التي هي علمُ النجوم والأفلاك والمجسطي والمقادير وآثار الطبيعة، والموسيقى التي هي معرفة النغم والإيقاعات والتفريات والأوزان، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات - في الشريعة، وأن يضموا الشريعة للفلسفة.

وهذا مرآةٌ دونه حدّد^(٢)؛ وقد توفّر على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدًا أنبياء، وأحضر أسباباً، وأعظم أقداراً، وأرفع أخطاراً، وأوسع قوًى، وأوثق عُراً، فلم يتيّم لهم ما أرادوه، ولا بلغوا منه ما أمّلوه؛ وحصلوا على لوثاتٍ قبيحة، ولطخاتٍ فاضحة، وألقابٍ مؤحشة، وعواقبٍ مخزية، وأوزارٍ مثقلة.

فقال له البخاريّ أبو العباس: ولم ذلك أيها الشيخ؟

قال: إنّ الشريعة مأخوذة عن الله - عزّ وجلّ - بوساطة السّفير بينه وبين الخلق من طريق الوحي، وباب المناجاة، وشهادة الآيات، وظهور المعجزات، على ما يوجبُه العقل تارةً، ويُجَوِّزُه تارةً، لمصالح عامّة مُتَقَنَّة، ومراشد تامّة مُبَيَّنَّة؛ وفي أثنائها ما لا سبيلَ إلى البحث عنه، والغوص فيه؛ ولا بدّ من التسليم للداعي إليه، والمنبّه عليه؛ وهناك يسقط (لِم) وينطّل (كيف)، ويَزُول (هَلَا) ويذهب (لَوْ) و(لَيْت) في الرّيح، لأنّ هذه الموادّ عنها محسومة، واعتراضات المعترضين عليها مردودة، وارتباب المرتابين فيها ضارّ، وسكون الساكنين إليها نافع؛ وجُمِلَتْها مُشْتَمِلَةٌ على الخير، وتفصيلها موصول بها على حسن التّقبّل، وهي متداولة بين متعلّق بظاهر مكشوف، ومختجّ بتأويل معروف؛ وناصرٍ باللغة الشائعة، وحامٍ بالجدل المُبين، وذائب بالعمل الصالح، وضاربٍ للمثل السائر، وراجع إلى البرهان الواضح، ومتفقٍ في الحلال والحرام، ومُستَنِدٍ إلى الأثر والخبر المشهورين بين أهل المِلَّة، وراجع إلى اتفاق الأُمَّة.

وأساسها على الورع والتّقوى، ومُنتهاها إلى العبادة وطلب الزُّلْفى.

(١) أي جعلوا الشعر شديد الجعودة

(٢) أي دفع ومنع.

ليس فيها حديثُ المنجّم في تأثيراتِ الكواكب وحركاتِ الأفلاكِ ومقاديرِ الأجرامِ ومطالعِ الطّوالعِ ومغاربِ الغواربِ .

ولا حديثُ تشاؤمِها وتأيّمِها، وهُبوطِها وصُعودِها، ونَحسِها وسَعْدِها، وظُهورِها واستِمرارِها، ورُجوعِها واستقامتِها، وتربيعِها وتثليثِها، وتسديسِها ومُقارنتِها .

ولا حديثُ صاحبِ الطبيعةِ الناظرِ في آثارِها، وأشكالِ الأسطُفُساتِ، بثبوتِها وافتراقِها، وتصريفِها في الأقاليمِ والمعادِنِ والأبدانِ، وما يتعلقُ بالحرارةِ والبرودةِ والرطوبةِ واليُوسَةِ؛ وما الفاعلُ وما المُنفعلُ منها؛ وكيف تَمَازُجُها وتَزَاوُجُها، وكيف تَنَافُرُها وتَسَايُرُها؛ وإلى أين تَسْرِي قُواها، وعلى أي شيء يَقِفُ مُنتهاها .

ولا فيها حديثُ المهندسِ الباحثِ عن مقاديرِ الأشياءِ ونُقْطِها وخطوطِها وسُطُوحِها وأجسامِها وأضلاعِها وزواياها ومقاطعِها، وما الكُرّةُ؟ وما الدائرةُ؟ وما المُستقيمُ؟ وما المُنحنى؟

ولا فيها حديثُ المنطقيِّ الباحثِ عن مراتبِ الأقوالِ، ومَناسِبِ الأسماءِ والحروفِ والأفعالِ؛ وكيف ارتباطُ بعضها ببعضِ على موضوعِ رجلٍ من يونانٍ حتى يَصِحَّ بزعمه الصدقُ، ويُنبَذَ الكَذِبُ .

وصاحبُ المنطقِ يرى أَنَّ الطبيبَ والمنجّمَ والمهندسَ وكلَّ من فاءَ بلفظٍ وأمَّ غرضاً فقراءَ إليه، محتاجونَ إلى ما في يديه .

قال: فَعَلَى هذا كيف يَسُوغُ لإخوان الصِّفاءِ أن يَنصبوا من تِلْقاءِ أنفُسِهِم دعوةً تَجْمعُ حقائقَ الفلسفةِ في طريقِ الشريعةِ؟

على أن وراءَ هذه الطوائفِ جماعةٌ أيضاً لهم مآخذُ من هذه الأغراضِ، كصاحبِ العزيمةِ وصاحبِ الطَّلَسْمِ وعابِرِ الرُّؤيا ومَدْعِي السُّخَرِ وصاحبِ الكيمياءِ ومستَعْمِلِ الوَهمِ .

قال: ولو كانت هذه جائزةً وممكنةً لكانَ اللهُ تعالى نَبَّهَ عليها، وكانَ صاحبُ الشريعةِ يُقَوِّمُ شريعتهِ بها، ويَكْمُلُها باستعمالِها، ويتلافى نقصَها بهذه الزيادةِ التي يجدها في غيرِها، أو يحضُرُ المتفلسفينَ على إيضاحِها بها ويتقدمُ إليهم بِاتِّمامِها، ويُفَرِّضُ عليهم القيامَ بكلِّ ما يُدَبِّبُ به عنها حسبَ طاقتهم فيها، ولم يفعل ذلك بنفسه، ولا وَكَّلَهُ إلى غيره من خلفائه والقائمينِ بدينه؛ بل نهى عن الخوضِ في هذه الأشياءِ، وكرَّهَ إلى الناسِ ذِكْرَها، وتوعَّدَهم عليها، وقال: من أتى عَرَفَاً أو طارقاً أو حازِياً^(١) أو كاهناً أو منجماً يطلبُ غيبَ اللهِ منه فقد حاربَ اللهَ، ومن حاربَ اللهَ حُرِبَ، ومن غلبَهُ غُلِبَ، حتى قال:

(١) الطارق الذي يطرق الحصى مستخبراً إياه عن الغيب والحاذي الذي ينظر في خيلان الوجه يتكهن .

«لو أَنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنِ النَّاسِ الْقَطَرَ سَبْعَ سِنِينَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ لِأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ بِهِ كَافِرِينَ وَيَقُولُونَ: مُطَرْنَا بِنُوءِ الْمَجْدَحِ»، فهذا كما ترى، والمَجْدَحُ: الدُّبْرَانُ.

ثم قال: ولقد اختلفت الأمة ضروباً من الاختلاف في الأصول والفروع، وتَنَازَعُوا فِيهَا فُنُوناً مِنَ التَّنَازُعِ فِي الْوَاضِحِ وَالْمُشْكَلِ مِنَ الْأَحْكَامِ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، وَالتَّفْسِيرِ وَالتَّأْوِيلِ، وَالْعَيَانِ وَالْخَبَرِ، وَالْعَادَةِ وَالْإِصْطِلَاحِ؛ فَمَا قَزَعُوا فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَى مَنْجَمٍ وَلَا طَبِيبٍ وَلَا مَنْطِقِيٍّ وَلَا مُهَنْدِسٍ وَلَا مُوسِيقِيٍّ وَلَا صَاحِبِ عَزِيمَةٍ وَشَغْبَذَةٍ وَسِخْرِ وَكِيمِيَاءٍ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَمَّمَ الدِّينَ بِنَبِيِّهِ ﷺ، وَلَمْ يُخَوِّجْهُ بَعْدَ الْبَيَانِ الْوَارِدِ بِالْوَحْيِ إِلَى بَيَانِ مَوْضُوعٍ بِالرَّأْيِ.

قال: وكما لم نجد في هذه الأمة من يَفْزَعُ إِلَى أَصْحَابِ الْفَلَسَفَةِ فِي شَيْءٍ مِنْ دِينِهَا، فَكَذَلِكَ أُمَّةٌ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهِيَ النَّصَارَى، وَكَذَلِكَ الْمَجُوسُ.

قال: ومما يَزِيدُكَ وَضُوحاً وَيُزِيلُكَ عَجَباً أَنَّ الْأُمَّةَ اخْتَلَفَتْ فِي آرَائِهَا وَمَذَاهِبِهَا وَمَقَالَاتِهَا فَصَارَتْ أَصْنَافاً فِيهَا وَفِرَقاً؛ كَالْمَرْجَةِ وَالْمَعْتَزِلَةِ وَالشَّيْعَةِ وَالسُّنِّيَّةِ وَالْخَوَارِجِ، فَمَا فَرَعَتْ طَائِفَةٌ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ إِلَى الْفَلَسَفَةِ، وَلَا حَقَّقَتْ مَقَالَاتِهَا بِشَوَاهِدِهِمْ وَشَهَادَتِهِمْ، وَلَا اشْتَغَلَتْ بِطَرِيقَتِهِمْ، وَلَا وَجَدَتْ عِنْدَهُمْ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَهَا بِكِتَابِ رَبِّهَا وَأَثَرِ نَبِيِّهَا.

وهكذا الفقهاء الذين اختلفوا في الأحكام من الحلال والحرام منذ أيام الصُّدُرِ الْأَوَّلِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا لَمْ نَجِدْهُمْ تَظَاهَرُوا بِالْفَلَسَفَةِ فَاسْتَنْصَرَوْهُمْ، وَلَا قَالُوا لَهُمْ: أَعِينُونَا بِمَا عِنْدَكُمْ؛ وَاشْهَدُوا لَنَا أَوْ عَلَيْنَا بِمَا قَبْلَكُمْ.

قال: فَأَيْنَ الدِّينُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ؟ وَأَيْنَ الشَّيْءُ الْمَأْخُوذُ بِالْوَحْيِ النَّازِلِ، مِنَ الشَّيْءِ الْمَأْخُوذِ بِالرَّأْيِ الزَّائِلِ؟

فَإِذَا أَدُلُّوا بِالْعَقْلِ فَالْعَقْلُ مُؤَهَّبَةٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ لِكُلِّ عَبْدٍ، وَلَكِنْ بِقَدْرِ مَا يُدْرِكُ بِهِ مَا يَعْلُوهُ، كَمَا لَا يَخْفَى بِهِ عَلَيْهِ مَا يَتْلُوهُ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْوَحْيِ، فَإِنَّهُ عَلَى نُورِهِ الْمُنْتَشِرِ، وَبَيَانِهِ الْمَيَسَّرِ.

قال: وبالجملية، النَّبِيُّ فَوْقَ الْفَيْلَسُوفِ، وَالْفَيْلَسُوفُ دُونَ النَّبِيِّ؛ وَعَلَى الْفَيْلَسُوفِ أَنْ يَتَّبِعَ النَّبِيَّ، وَلَيْسَ عَلَى النَّبِيِّ أَنْ يَتَّبِعَ الْفَيْلَسُوفَ، لِأَنَّ النَّبِيَّ مَبْعُوثٌ، وَالْفَيْلَسُوفُ مَبْعُوثٌ إِلَيْهِ.

قال: ولو كان العقل يُكَتَفَى بِهِ لَمْ يَكُنْ لِلْوَحْيِ فَائِدَةٌ وَلَا غِنَاءٌ، عَلَى أَنْ مَنَازِلَ النَّاسِ مَتَفَاوِةٌ فِي الْعَقْلِ، وَأَنْصِبَاؤُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ فِيهِ؛ فَلَوْ كُنَّا نَسْتَعْنِي عَنِ الْوَحْيِ بِالْعَقْلِ كَيْفَ كُنَّا نَصْنَعُ، وَلَيْسَ الْعَقْلُ بِأَسْرِهِ لَوَاحِدٍ مِنَّا، وَإِنَّمَا هُوَ لِجَمِيعِ النَّاسِ.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ بِالْعَبَثِ وَالْجَهْلِ: كُلُّ عَاقِلٍ مَوْكُولٌ إِلَى قَدْرِ عَقْلِهِ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَفِيدَ الزِّيَادَةَ مِنْ غَيْرِهِ، لِأَنَّهُ مَكْفِيٌّ بِهِ، وَغَيْرُ مُطَالِبٍ بِمَا زَادَ عَلَيْهِ.

قيل له: كفاك تمادياً في هذا الرأي أنه ليس لك فيه موافق، ولا عليه مُطابق؛ ولو استقلَّ إنسانٌ واحدٌ بعقله في جميع حالاته في دينه ودنياه لاستقلَّ أيضاً بقوته في جميع حاجاته في دينه ودنياه، وكان وَخْده يفي بجميع الصناعات والمعارف، وكان لا يحتاج إلى أحدٍ من نوعه وجنسه؛ وهذا قولٌ مرذولٌ ورأيٌ مخذولٌ.

قال البخاري: وقد اختلفت أيضاً درجات النبوة بالوحي، وإذا ساغ هذا الاختلاف في الوحي ولم يكن ذلك ثالماً له، ساغ أيضاً في العقل ولم يكن مؤثراً فيه.

فقال: يا هذا، اختلاف درجات أصحاب الوحي لم يُخرِجْهُمْ عن الثقة والطمأنينة بمن اصطفاهم بالوحي، وخصَّهم بالمناجاة، واجتباهم للرسالة، وأكملهم بما ألبسهم من شعار النبوة؛ وهذه الثقة والطمأنينة مفقودتان في الناظرين بالعقول المختلفة، لأنهم على بُعدٍ من الثقة والطمأنينة إلا في الشيء القليل والنزر اليسير؛ وعوار هذا الكلام ظاهر، وخطل هذا المتكلم بين.

قال الوزير: أفما سمع شيئاً من هذا المقدسي؟

قلت: بلى قد ألقيت إليه هذا وما أشبهه بالزيادة والنقصان، والتقديم والتأخير، في أوقات كثيرة بحضرة حمزة الوراق في الوراقين، فسكت، وما رأني أهلاً للجواب؛ لكن الجبري غلام ابن طرارة هيَّجه يوماً في الوراقين بمثل هذا الكلام، فاندفع فقال: الشريعة طبُّ المَرَضَى، والفلسفة طبُّ الأصحاء، والأنبياء يُطبِّون للمَرَضَى حتى لا يتزايد مَرَضُهُمْ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط. فأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يَغْتَرِبَهُمْ مَرَضٌ أضلَّ، فبين مدبر المريض ومدبر الصحيح فَرْقٌ ظاهر وأمرٌ مَكْشُوف، لأن غاية مدبر المريض أن يَنْتَقِلَ به إلى الصحة، هذا إذا كان الدواء ناجعاً، والطَّبْعُ قابلاً، والطبيب ناصحاً. وغاية مدبر الصحيح أن يحفظ الصحة، وإذا حَفِظَ الصحة فقد أَفَادَهُ كَسَبَ الفضائل، وفرَّغَ لها، وعَرَّضَها لاقتنائها؛ وصاحب هذه الحال فائزٌ بالسعادة العظمى، ومتبوئٌ الدرجة العليا؛ وقد صار مستحقاً للحياة الإلهية، والحياة الإلهية من الخلود والديمومة والسَّرمَدية.

فإن كَسَبَ من يبرأ من المرض بطبِّ صاحبه الفضائل أيضاً؛ فليست تلك الفضائل من جنس هذه الفضائل، لأنَّ إحداهما تقليدية، والأخرى برهانية؛ وهذه مظنونة، وهذه مستيقنة، وهذه رُوحانية، وهذه جسمية، وهذه دهرية، وهذه زمانية.

وقال أيضاً: إنَّما جَمَعْنَا بين الفلسفة والشريعة لأن الفلسفة مَعْرِفَةٌ بالشريعة، وإن كانت الشريعة جاحدة لها؛ وإنَّما جَمَعْنَا أيضاً بينهما لأن الشريعة عامة، والفلسفة خاصة، والعامة قوامها بالخاصة، كما أن الخاصة تمامها بالعامة؛ وهما متطابقتان إحداهما على الأخرى، لأنها كالظَّهارة التي لا بد لها من البُطانة، وكالبُطانة التي لا بد لها من الظَّهارة.

فقال له الجريري: أَمَا قَوْلُكَ طِبُّ الْمَرَضَى وَطِبُّ الْأَصْحَاءِ وَمَا نَسَفَتْ عَلَيْهِ كَلَامَكَ فَمَثَلٌ لَا يَعْبُرُ بِهِ غَيْرُكَ وَمَنْ كَانَ فِي مُشْكَلٍ، لَأَنَّ الطَّبِيبَ عِنْدَنَا الْحَادِقَ فِي طِبِّهِ هُوَ الَّذِي يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، أَعْنِي أَنَّهُ يُبْرِئُ الْمَرِيضَ مِنْ مَرَضِهِ، وَيَحْفَظُ الصَّحِيحَ عَلَى صِحَّتِهِ؛ فَأَمَا أَنْ يَكُونَ هَاهُنَا طَبِيبَانِ يَعَالِجُ أَحَدُهُمَا الصَّحِيحَ، وَالْآخَرُ يَعَالِجُ الْمَرِيضَ، فَهَذَا مَا لَمْ نَعْهَدْهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ؛ وَهُوَ شَيْءٌ خَارِجٌ عَنِ الْعَادَةِ، فَمَثَلُكَ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ، وَتَشْنِيعُكَ فَاضِحٌ لَكَ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ التَّدْبِيرَ فِي حِفْظِ الصَّحَّةِ وَدَفْعِ الْمَرَضِ - وَإِنْ كَانَ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ - وَاحِدٌ، فَالطَّبُّ يَجْمَعُهُمَا، وَالطَّبِيبُ الْوَاحِدُ يَقُومُ بِهِمَا وَبِشَرَائِطَهُمَا.

وَأَمَا قَوْلُكَ فِي الْفَصْلِ الثَّانِي: إِنَّ إِحْدَى الْفَضِيلَتَيْنِ تَقْلِيدِيَّةٌ، وَالْأُخْرَى بَرَهَانِيَّةٌ، فَكَلَامٌ مَدْخُولٌ، لِأَنَّكَ غَلَطْتَ عَلَى نَفْسِكَ؛ أَلَا تَعْلَمُ أَنَّ الْبَرَهَانِيَّةَ هِيَ الْوَارِدَةُ بِالْوَحْيِ، النَّازِمَةُ لِلرُّشْدِ، الدَّاعِيَةُ إِلَى الْخَيْرِ، الْوَاعِدَةُ بِحُسْنِ الْمَآبِ؛ وَأَنَّ التَّقْلِيدِيَّةَ هِيَ الْمَأْخُذَةُ مِنَ الْمَقْدَمَةِ وَالنَّتِيجَةِ، وَالِدَّعْوَى الَّتِي يُرْجَعُ فِيهَا إِلَى مَنْ لَيْسَ بِحُجَّةٍ، وَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ قَالَ شَيْئاً فَوَاقَفَهُ آخَرُ وَخَالَفَهُ آخَرُ، فَلَا الْمَوَافِقُ لَهُ يَرْجَعُ إِلَى الْوَحْيِ، وَلَا الْمَخَالَفُ لَهُ يَسْتَنِدُ إِلَى حَقٍّ؛ وَالْعَجَبُ أَنَّكَ جَعَلْتَ الشَّرِيعَةَ مِنْ بَابِ الظَّنِّ، وَهِيَ بِالْوَحْيِ، وَجَعَلْتَ الْفَلَسَفَةَ مِنْ بَابِ الْيَقِينِ، وَهِيَ مِنَ الرَّأْيِ.

وَأَمَا قَوْلُكَ: هَذِهِ رُوحَانِيَّةٌ - تَعْنِي الْفَلَسَفَةَ - وَهَذِهِ جَسْمِيَّةٌ - تَعْنِي الشَّرِيعَةَ - فَزُخْرَفَةٌ لَا تَسْتَحِقُّ الْجَوَابَ، وَلِمَثَلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْمُزْخَرَفُونَ؛ عَلَى أَنَا لَوْ قُلْنَا: بَلِ الشَّرِيعَةُ هِيَ الرُّوحَانِيَّةُ، لِأَنَّهَا صَوْتُ الْوَحْيِ، وَالْوَحْيُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْفَلَسَفَةُ هِيَ الْجَسْمِيَّةُ، لِأَنَّهَا بَرَزَتْ مِنْ جِهَةِ رَجُلٍ بِاعْتِبَارِ الْأَجْسَامِ وَالْأَعْرَاضِ، وَمَا هَذَا شَأْنُهُ فَهُوَ بِالْجِسْمِ أَشْبَهَ، وَعَنِ لُطْفِ الرُّوحِ أَبْعَدَ لَمَّا أَبْعَدْنَا.

وَأَمَا قَوْلُكَ: الْفَلَسَفَةُ خَاصَّةٌ وَالشَّرِيعَةُ عَامَةٌ، فَكَلَامٌ سَاقِطٌ لَا نُورَ عَلَيْهِ، لِأَنَّكَ تَشِيرُ بِهِ إِلَى أَنَّ الشَّرِيعَةَ يَعْتَقِدُهَا قَوْمٌ - وَهِيَ الْعَامَّةُ - وَالْفَلَسَفَةَ يَنْتَحِلُهَا قَوْمٌ - وَهِيَ الْخَاصَّةُ - فَلَمْ جَمَعْتُمْ رِسَائِلَ إِخْوَانِ الصِّفَاءِ وَدَعَوْتُمْ النَّاسَ إِلَى الشَّرِيعَةِ وَهِيَ لَا تَلْزَمُ إِلَّا لِلْعَامَّةِ، وَلَمْ تَقُولُوا لِلنَّاسِ: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْعَامَّةِ فَلْيَتَحَلَّ بِالشَّرِيعَةِ، فَقَدْ نَاقَضْتُمْ، لِأَنَّكُمْ حَشَوْتُمْ مَقَالَتَكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَزْعُمُونَ بِهَا أَنَّ الْفَلَسَفَةَ مَدْلُولٌ عَلَيْهَا بِالشَّرِيعَةِ، ثُمَّ الشَّرِيعَةُ مَدْلُولٌ عَلَيْهَا بِالْمَعْرِفَةِ، ثُمَّ هَأُنْتَ تَذَكِّرُ أَنَّ هَذِهِ لِلْخَاصَّةِ؛ وَتَتَلَكَّ لِلْعَامَّةِ؛ فَلِمَ جَمَعْتُمْ بَيْنَ مَفْتَرَقَيْنِ، وَفَرَقْتُمْ بَيْنَ مَجْتَمِعَيْنِ؛ هَذَا وَاللَّهُ الْجَهْلُ الْمُبِينُ، وَالْخُرْقُ الْمَشِينُ.

وَأَمَا قَوْلُكَ: إِنَّا جَمَعْنَا بَيْنَ الْفَلَسَفَةِ وَالشَّرِيعَةِ لِأَنَّ الْفَلَسَفَةَ مَعْتَرِفَةٌ بِالشَّرِيعَةِ، وَإِنْ كَانَتِ الشَّرِيعَةُ جَاوِدَةً لِلْفَلَسَفَةِ، فَهَذِهِ مَنَاقِضَةٌ أُخْرَى، وَإِنِّي أَظُنُّ أَنَّ حَسَنَ كَلِيلٍ، وَعَفْلَكَ عَلِيلٍ، لِأَنَّكَ قَدْ أَوْضَحْتَ غُذْرَ أَصْحَابِ الشَّرِيعَةِ، إِذْ جَحَدُوا الْفَلَسَفَةَ، وَذَلِكَ أَنَّ الشَّرِيعَةَ لَا تَذَكِّرُهَا، وَلَا تَحْضُ عَلَى الدِّيُونَةِ بِهَا؛ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسَ لَهُمْ عِلْمٌ بِأَنَّ

الفلسفة قد حَثَّتْ على قبول الشريعة، ونهت عن مخالفتها، وسمّتها بالناموس الحافظ لصلاح العالم.

ثم قال الجريري: حَدَّثَنِي أَيُّهَا الشَّيْخُ: على أيّ شريعة دَلَّتْ الفلسفة؟ أَعْلَى اليهودية، أم على النصرانية، أم على المجوسية، أم على الإسلام، أم على ما عليه الصابئون؟ فَإِنْ هَاهُنَا مَنْ يَتَفَلَسَفُ وَهُوَ نَصْرَانِيٌّ كَابِنُ زُرْعَةَ وَابْنُ خَمَارٍ وَأَمثالهما، وَهَاهُنَا مَنْ يَتَفَلَسَفُ وَهُوَ يَهُودِيٌّ، كَأَبِي الْخَيْرِ بْنِ يَعِيشَ، وَهَاهُنَا مَنْ يَتَفَلَسَفُ وَهُوَ مُسْلِمٌ، كَأَبِي سُلَيْمَانَ وَالثَّوْجَانِيَّ وَغَيْرَهُمَا، أَفَتَقُولُ إِنَّ الْفَلَسَفَةَ أَبَاحَتْ لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ هَذِهِ الطَّوَائِفِ أَنْ تَدِينْ بِذَلِكَ الدِّينَ الَّذِي نَشَأَتْ عَلَيْهِ؟ وَدَعِ هَذَا لِيُخَاطَبَ غَيْرُكَ، فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ بِالْهَدْيِ وَالْجِبِلَّةِ وَالْمَنْشِلِ وَالْوَرَاثَةِ؛ فَمَا بَالُنَا لَا نَرَى وَاحِدًا مِنْكُمْ يَقُومُ بِأَرْكَانِ الدِّينِ، وَيَتَّقِدُ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ يُرَاعِي مَعَالِمَ الْفَرِيضَةِ وَوُظَائِفَ النَّافِلَةِ؟ وَأَيْنَ كَانَ الصُّدْرُ الْأَوَّلُ مِنَ الْفَلَسَفَةِ؟ أَعْنِي الصُّحَابَةَ، وَأَيْنَ كَانَ التَّابِعُونَ مِنْهَا؟ وَلِمَ خَفِيَ هَذَا الْأَمْرُ الْعَظِيمُ - مَعَ مَا فِيهِ مِنَ الْفَوْزِ وَالنَّعِيمِ - عَلَى الْجَمَاعَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَالثَّلَاثَةِ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا وَفِيهِمُ الْفُقَهَاءُ وَالزُّهَادُ وَالْعُبَادُ وَأَصْحَابُ الْوَرَعِ وَالتَّقَى، وَالنَّاطِرِينَ فِي الدَّقِيقِ وَدَقِيقِ الدَّقِيقِ وَكُلُّ مَا عَادَ بِخَيْرٍ عَاجِلٍ وَثَوَابٍ آجِلٍ، هِيَاهُنَا لَقَدْ أُسْرَرْتُمُ الْحَسَوُ فِي الْارْتِغَاءِ^(١) وَاسْتَقِيمْتُمْ بِلَا دَلْوٍ وَلَا رِشَاءٍ، وَذَلَّلْتُمْ عَلَى فُسُولِكُمْ وَضَعِفْتُمْ مُتَّكِمِينَ وَأَرَدْتُمْ أَنْ تَقِيمُوا مَا وَضَعَهُ اللَّهُ، وَتَضَعُوا مَا رَفَعَهُ اللَّهُ، وَاللَّهُ لَا يُغَالِبُ؛ بَلْ هُوَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ، فَعَالَ لِمَا يُرِيدُ.

قد حاول هذا الكيد خلق في القديم والحديث، فنكصوا على أعقابهم خائبين، وَكُتِبُوا لَوُجُوهُهُمْ خَاسِرِينَ؛ مِنْهُمْ أَبُو زَيْدِ الْبَلْخِيِّ؛ فَإِنَّهُ ادَّعَى أَنَّ الْفَلَسَفَةَ مُقَاوَدَةٌ لِلشَّرِيعَةِ^(٢)، وَالشَّرِيعَةُ مُشَاكَلَةٌ لِلْفَلَسَفَةِ، وَأَنْ إِحْدَاهُمَا أُمٌّ وَالْأُخْرَى ظُئْرٌ، وَأَظْهَرَ مَذْهَبَ الزَّيْدِيَّةِ، وَأَنَقَادَ لِأَمِيرِ خُرَاسَانَ الَّذِي كَتَبَ لَهُ أَنْ يَعْمَلَ فِي نَشْرِ الْفَلَسَفَةِ بِشَفَاعَةِ الشَّرِيعَةِ، وَيَدْعُو النَّاسَ إِلَيْهَا بِاللُّطْفِ وَالشَّفَقَةِ وَالرَّغْبَةِ، فَشَتَّتَ اللَّهُ كَلِمَتَهُ، وَقَوَّضَ دِعَامَتَهُ، وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ إِرَادَتِهِ، وَوَكَّلَهُ إِلَى حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، فَلَمْ يَتِمَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ.

وكذلك رَامَ أَبُو تَمَامِ النَّيْسَابُورِيَّ، وَخَدَمَ الطَّائِفَةَ الْمَعْرُوفَةَ بِالشَّيْعِيَّةِ وَلَجَأَ إِلَى مَطَرُفِ بْنِ مُحَمَّدٍ وَزِيرِ مُرْدَاوِيحِ الْجِيلِيِّ لِيَكُونَ لَهُ بِهِ قُوَّةٌ، وَيَنْطَقَ بِمَا فِي نَفْسِهِ مِنْ هَذِهِ الْجَمَلَةِ، فَمَا زَادَتْهُ إِلَّا صِغَرًا فِي قَدْرِهِ، وَمَهَانَةً فِي نَفْسِهِ، وَتَوَارِيًا فِي بَيْتِهِ.

وهذا بَعَيْنُهُ قَصَدَ الْعَامِرِيَّ فَمَا زَالَ مَطْرُودًا مِنْ صُقْعٍ إِلَى صُقْعٍ يُنْذَرُ دَمُهُ وَيُرْتَصَدُّ

(١) الارتغاء أخذ الرغبة، وهذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً وهو يريد خلافه أو لمن يظهر طلب القليل وهو يريد الكثير.

(٢) أي مساوقة لها، وفي نسخة «مقارنة».

قتله، فمرة يتحصن بفناء ابن العميد، ومرة يلجأ إلى صاحب الجيش بنيسابور، ومرة يتقرب إلى العامة بكتب يصنفها في نضرة الإسلام، وهو على ذلك يتهم ويُقرب بالإلحاد؛ ويقدم العالم والكلام في الهَيُولَى والصورة والزمان والمكان، وما أشبه هذا من ضروب الهذيان التي ما أنزل الله بها كتابه، ولا دعا إليها رسوله، ولا أفاضت فيها أُمَّته.

ومع ذلك يُناغي صاحب كل بدعة؛ ويجلس إليه كل متهم؛ ويلقي كلامه إلى كل من ادّعى باطناً للظاهر وظاهراً للباطن.

وما عندي أن الأئمة الذين يأخذ عنهم ويقتبس منهم، كأرسطوطاليس وسقراط وأفلاطون، رهط الكفر ذكروا في كتبهم حديث الظاهر والباطن، وإنما هذا من نسج القداحين في الإسلام، الساترين على أنفسهم ما هم فيه من التهم؛ وهذا بعينه دبره الهجريون بالأمس، وبهذا دندن الناجمون بقزوين وبثوا الدعاة في أطراف الأرض، وبذلوا الرغائب وفتنوا النفوس.

وقد سمعنا تأويلات هذه الطوائف لآيات القرآن في قوله عز وجل: ﴿أُتْلِفُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثُلُثِ شُبِّ﴾ [المرسلات: ٣٠] وفي قوله تعالى: ﴿بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظُهُرُهُ مِنْ فِتْنَةٍ﴾ [العداب: ١٣] وفي قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٣٠] وفي قوله تعالى: ﴿سَرِيرُهُمْ أَيْتَانِي فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَقٌّ يَنْبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣] إلى غير ذلك مما يطول^(١) ويعول فدعونا من التورية والحيلة والإيهام والكناية عن شيء لا يتصل بالإرادة، والإرادة لشيء لا يتصل بالصریح، فالناس أنقذ لأديانهم وأخرص على الظفر ببيغيتهم من الصبارقة لدنانيرهم ودراهمهم.

فلما انبهَرَ المقدسي بما سمع وكاد يتفرى إهابه من الغيظ والعجز وقلة الحيلة قال: الناس أعداء ما جهلوا، ونشر الحكمة في غير أهلها يورث العداوة ويطرخ^(٢) الشحاء ويقدح زئذ الفتنة.

ثم كرر الجري كَرَّ المِذلِّ وعطف عطفة الواثق بالظفر، فقال: يا أبا سليمان، من هذا الذي يقر منكم أن عصا موسى انقلبت حية، وأن البحر انفلق، وأن يدأ خرجت بينضاء من غير سوء، وأن بشراً خلق من تراب، وأن آخر ولدته أنثى من غير ذكر، وأن ناراً موجهة طرح فيها إنسان فصارت له برداً وسلاماً، وأن رجلاً مات مائة عام ثم بعث فنظر إلى طعامه وشرابه على حالئهما لم يتغيرا، وأن قبراً تفقأ عن ميت حيي، وأن طيناً دبر^(٣) فنفيخ فيه فطار، وأن قمراً انشق، وأن جذعاً حن، وأن ذنباً

(١) من عال الشيء فلاناً إذا ثقل عليه وغلبه وأهمه.

(٢) أي يلقيها في القلوب.

(٣) أي صنع كهينة الطير.

تكلم، وأن ماء نبع من أصابع فروي منه جيش عظيم، وأن جماعة شبعَت من ثريدة في قدر جسم قطة؟

وعلى هذا، إن كنتم تدعون إلى شريعة من الشرائع التي فيها هذه الخوارق والبدائع فاعترفوا بأن هذه كلها صحيحة ثابتة كائنة لا ريب فيها ولا مزية، من غير تأويل ولا تدليس، ولا تعليل ولا تلبس، وأعطونا خطكم بأن الطبائع تفعل هذا كله، والمواد تواتي له، واللّه تعالى يفدر عليه؛ ودعوا التورية والحيلة والغيلة^(١) والظاهر والباطن، فإن الفلسفة ليست من جنس الشريعة، ولا الشريعة من فن الفلسفة، وبينهما يزمي الرامي ويهجمي الهامي؛ على أننا ما وجدنا الديانين من المتألهين من جميع الأديان يذكرون أن أصحاب شرائعهم قد دعوا إلى الفلسفة وأمروا بطلبها واقتباسها من اليونانيين هذا موسى وعيسى وإبراهيم وداود وسليمان وزكريا ويحيى إلى محمد - ﷺ - لم نَحَقْ مَنْ يعزو إليهم شيئاً من هذا الباب، ويُعلّق عليهم هذا الحديث.

قال الوزير: ما عجبني من جميع هذا الكلام إلا من أبي سليمان في هذا الاستحقرار والتعصب، والاحتشاد والتعصب؛ وهو رجل يعرف بالمنطقي، وهو من غلمان يحيى بن عديّ النصراني، ويقرأ عليه كتب يونان، وتفسير دقائق كتبهم بغاية البيان.

فقلت: إن أبا سليمان يقول: إن الفلسفة حقّ لكنها ليست من الشريعة في شيء، والشريعة حقّ لكنها ليست من الفلسفة في شيء، وصاحب الشريعة مبعوث، وصاحب الفلسفة مبعوث إليه، وأحدهما مخصوص بالوحي، والآخر مخصوص ببخه، والأول مكفي، والثاني كادح، وهذا يقول: أمرت وعلمت، وقيل لي، وما أقول شيئاً من تلقاء نفسي؛ وهذا يقول: رأيت ونظرت واستحسنست واستقبحت؛ وهذا يقول: نور العقل أهدي به؛ وهذا يقول: معي نور خالق الخلق أمشي بضائه؛ وهذا يقول: قال الله تعالى، وقال الملك؛ وهذا يقول: قال أفلاطن وسقراط؛ ويسمع من هذا ظاهر تنزيل، وسائق تأويل، وتحقيق سنة، واتفاق أمة؛ ويسمع من الآخر الهويلى والصورة والطبيعة والأسطقس والذاتي والعرضي والأينسي واللينسي، وما شاكل هذا ممّا لا يسمع من مسلم ولا يهودي ولا نصراني ولا مجوسي ولا مانوي.

ويقول أيضاً: من أراد أن يتفلسف فيجب عليه أن يعرض بنظره عن الديانات، ومن اختار التدبّر فيجب عليه أن يعرّد^(٢) بعنايته عن الفلسفة ويتحلّى بهما مُتَرَقِّين في مكانين على حالين مختلفين، ويكون بالدين مُتَقَرِّباً إلى الله تعالى، على ما أوضحه له صاحب الشريعة عن الله تعالى، ويكون بالحكمة مُتَصَفِّحاً لقدرة الله تعالى في هذا العالم الجامع للزينة الباهرة لكل عين، المُخَيَّرَ لكل عقل، ولا يهدم أحدهما بالآخر.

أعني لا يَجْعَدُ ما أَلْقَى إليه صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ مُجْمَلًا وَمُقْصَلًا، ولا يَغْفُلُ عَمَّا اسْتَخْرَنَ اللَّهَ تَعَالَى هَذَا الْخَلْقَ الْعَظِيمَ عَلَى مَا ظَهَرَ بِقُدْرَتِهِ، واشْتَمَلَ بِحُكْمَتِهِ، واستَقَامَ بِمَشِيتَتِهِ، وانتَظَمَ بِإِرَادَتِهِ واستَتَمَّ بِعِلْمِهِ؛ ولا يَغْتَرِضُ عَلَى مَا يَبْغُدُ فِي عَقْلِهِ وَرَأْيِهِ مِنَ الشَّرِيعَةِ، وبدائع آياتِ الثُّبُوتِ بِأحكامِ الفلسفة، فَإِنَّ الْفَلَسَفَةَ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْعَقْلِ الْمُقْصُورِ عَلَى الغَايَةِ، والدَّيَانَةِ مَأْخُودَةٌ مِنَ الْوَحْيِ الْوَاردِ مِنَ الْعِلْمِ بِالْقُدْرَةِ.

قال: وَلَعَمْرِي إِنَّ هَذَا صَعْبٌ، وَلَكِنَّ جَمَاعَ الْكَلَامِ، وَأَخَذَ الْمُسْتَطَاعَ، وَغَايَةُ مَا عَرَضَ لَهُ الْإِنْسَانُ الْمُؤَيَّدَ بِاللُّطَائِفِ، الْمُزَاحَ بِالْعِلَلِ وَبِضُرُوبِ التَّكَالِيفِ.

قال: وَمَنْ فَضَّلَ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذَا الْخَلْقِ أَنَّهُ نَهَجَ لَهُمْ سَبِيلِينَ وَنَصَبَ لَهُمْ عِلْمِينَ، وَأَبَانَ لَهُمْ نَجْدِينَ^(١) لِيَصْلُوا إِلَى دَارِ رِضْوَانِهِ إِمَّا بِسُلُوكِهِمَا وَإِمَّا بِسُلُوكِ أَحَدِهِمَا.

فقال له البخاري: فَهَلَا دَلَّ اللَّهُ عَلَى الطَّرِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ رَسَمْتَهُمَا فِي هَذَا الْمَكَانِ؟ قال: دَلَّ وَبَيَّنَّ، وَلَكِنَّكَ عَمَّ، أَمَا قَالَ: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] وفي فَحْوَى هَذَا وَمَا يَعْلَمُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ؟ فَقَدْ وَصَلَ الْعَقْلَ بِالْعِلْمِ، كَمَا وَصَلَ الْعِلْمَ بِالْعَقْلِ، لِأَنَّ كَمَالَ الْإِنْسَانِ بِهِمَا، أَلَا تَرَى أَنَّ الْعَاقِلَ مَتَى غُرِّيَ مِنَ الْعِلْمِ قَلَّ انْتِفَاعُهُ بِعَقْلِهِ؟ كَذَلِكَ الْعَالِمُ مَتَى خُلِّيَ مِنَ الْعَقْلِ بَطَلَ انْتِفَاعُهُ بِعِلْمِهِ، أَمَا قَالَ: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَزْوَاجُ الْأَلْبَابِ﴾؟ [البقرة: ٢٦٩] أَمَا قَالَ: ﴿فَاعْتَرِضُوا بِتَأْوِيلِ الْأَبْصَرِ﴾؟ [الحشر: ٢] أَمَا قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾؟ [النساء: ٨٢] أَمَا دَمَّ قَوْمًا حِينَ قَالَ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفِلُونَ﴾؟ [الروم: ٧] أَمَا قَالَ: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَمْ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا!﴾ [الأنعام: ١٨] أَمَا قَالَ: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾؟ [يوسف: ١٠٥] أَمَا قَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾؟ [ق: ٣٧] وَكِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مُحِيطٌ بِهَذَا كُلِّهِ، وَإِنَّمَا تَقَادُ إِلَى طَاعَةِ رَسُولِهِ ﷺ بَعْدَ هَذَا فِيمَا لَا يَنَالُهُ عَقْلُكَ، وَلَا يَبْلُغُهُ ذَهْنُكَ، وَلَا يَعْلُو إِلَيْهِ فِكْرُكَ، فَأَمْرُكَ بِاتِّبَاعِهِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ، وَإِنَّمَا دَخَلَتْ الْآفَةُ مِنْ قَوْمِ دَهْرَيْنِ مُلْحِدِينَ رَكَبُوا مَطِيَّةَ الْجَدَلِ وَالْجَهْلِ، وَمَالُوا إِلَى الشَّغْبِ بِالتَّعَصُّبِ، وَقَابَلُوا الْأُمُورَ بِتَحْسِينِهِمْ وَتَقْبِيحِهِمْ وَتَهْجِينِهِمْ، وَجَهِلُوا أَنَّ وَرَاءَ ذَلِكَ مَا يَفُوتُ دَرْعَهُمْ، وَيَتَخَلَّفُ عَنْ لِحَاقِهِ رَأْيُهُمْ وَنَظَرُهُمْ، وَيَعْمَى دُونَ كُنْهِ ذَلِكَ بَصَرُهُمْ؛ وَهَذِهِ الطَّائِفَةُ مَعْرُوفَةٌ، مِنْهُمْ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقَدُوسِ، وَابْنُ أَبِي الْعَوْجَاءِ، وَمَطَرُ بْنُ أَبِي الْغَيْثِ، وَابْنُ الرَّائِدِيِّ، وَالصِّمَرِيُّ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ طَاحُوا فِي أَوْدِيَةِ الضَّلَالَةِ، وَاسْتَجَرُوا إِلَى جَهْلِهِمْ أَصْحَابَ الْخِلَافَةِ وَالْمَجَانَةِ.

(١) يشير إلى العقل والعلم.

فقال البخاري: فما الذي تركت بهذا الوصف للذين جمعوا بين الفلسفة والديانة؛ ووصلوا هذه بهذه على طريق الظاهر والباطن، والخفي والجلي، والبادي والمكتوم؟

قال: تركت لهم الطويل العريض، القوم زعموا أن الفلسفة مُواطئةٌ للشريعة، والشريعة مُوافقةٌ للفلسفة؛ ولا فَرْقَ بين قول القائل: قال النبي، وقال الحكيم، وأنَّ أَفْلاطُنَ ما وضعَ كِتَابَ النَّوَامِيسِ إِلَّا لَتَعْلَمَ كَيْفَ نَقُولُ؟ وبأي شيء نبحت، وما الذي نُقَدِّمُ ونؤخر، وأن الثبوة فرغ من فروع الفلسفة، وأن الفلسفة أصل علم العالم، وأنَّ النَّبِيَّ محتاجٌ إلى تَتْمِيمٍ ما يأتي به من جهة الحكيم، والحكيم غني عنه؛ هذا وما أشبهه؛ وأنَّ صاحبَ الدِّينِ له أن يُعَيِّنَ وَيُورِّيَ وَيُشِيرَ وَيُكَنِّي حَتَّى تَتِمَّ المصلحة، وتنتظم الكلمة، وتتفق الجماعة، وتثبت السُّنة، وتحلوا المعيشة، وحتى قال قائل منهم: «أوائل الشريعة أمورٌ مُبتدعة، ووسائلها سُنَنٌ مُتَّبعة، وأواخرها حُقوقٌ منتزعة» وأين هذا النُّعت من قولي: «إنَّ الشريعةَ إلهية، والفلسفة بشرية»، أعني أن تلك بالوحي، وهذه بالعقل، وأنَّ تلك موثوقٌ بها ومُطمأنٌّ إليها، وهذه مشكوكٌ فيها مضطربٌ عليها.

قال له البخاري: فلمَ لمَ ينهج صاحبُ الشريعة هذه الطريق، وكان يزول هذا الخصام، ويتفي هذا الظن، وتكسد هذه السوق؟

فقال: إن صاحبَ الشريعة مُستغرقٌ بالنور الإلهي، فهو محبوس على ما يراه وبُيُصرة، ويجده وينظره، لأنَّه مأخوذ بما شهده بالعيان وأذركه بالحس وناله بوديعة الصدر عن كل ما عداه، فلهذا يدعو إلى اقتباس كماله الذي حصل له، ولا يسعد بدعوته إلا من وُفق لإجابته، وأذعن لطاعته، واهتدى بكلمته، والفلسفة كمال بشري، والدين كمال إلهي، والكمال الإلهي غني عن الكمال البشري، والكمال البشري فقيرٌ إلى الكمال الإلهي، فهذا هذا، وما أمر الله عز وجل بالاعتبار، ولا حث على التدبر، ولا حرك القلوب إلى الاستنباط، ولا حبَّب إلى القلوب البحث في طلب المكنونات، إلا ليكونَ عبادُه حُكَمَاءَ أَلْبَاءَ أَتْقِيَاءَ أَذْكَيَاءَ، ولا أَمَرَ بالتسليم ولا حَظَرَ الغُلُوَّ والإفراط في التعمق إلا ليكونَ عبادُه لاجئين إليه مُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ، مُعْتَصِمِينَ بِهِ، خَائِفِينَ مِنْهُ، رَاجِينَ لَهُ، يدعونه خَوْفاً وطمعاً، وَيَعْبُدُونَهُ رَغْباً وَرَهْباً، فَيَبِينُ ما بَيْنَ حرصاً على معرفته وعبادته، وطاعته وخدمته، وأخفى ما أخفى لئلا يُدَوِّمَ حاجتهم إليه، ولا يَقَعَ الغنى عنه، وبالحاجة يَقَعَ الخضوع والتجرد، وبلاستغناء يَعْرِضُ التَّجَبُّرَ والتمرد؛ وهذه أمورٌ جاريةٌ بالعادة، وثابتة بالسيرة الجائرة والعادلة؛ ولا سبيل إلى دفعها ورَفْعِها وإنكارها وجَحْدِها، فلهذا لزم كلُّ من أدرك بعقله شيئاً أن يتمَّ نقصه بما يجده عند من أدرك ما أدرك بوحي من ربه.

وقال أيضاً: مما يُؤكِّد هذه الجملة أنَّ الشريعة قد أتت على مَعْقُولٍ كثير، بنور الوحي المنير، ولم تأتِ الفلسفة على شيءٍ من الوحي لا كثير ولا قليل.

قال: وليس ليونانَ نبيٌّ يُعرف، ولا رسولٌ من قِبَلِ الله صادق، وإنما كانوا يَفَرِّعون إلى حُكَمائِهِمْ في وضع ناموسٍ يَجْمَعُ مصالحَ حياتِهِمْ ونظامَ عَيْشِهِمْ ومنافعِ أحوالِهِمْ في عاجِلَتِهِمْ، وكانت ملوكُهُمْ تُجِبُّ الحكمة وتؤثر أهلَهَا، وتقدِّم من تحلَّى بجزء من أجزائها، وكان ذلك الناموس يُعْمَلُ به ويُزَجَّع إليه، حتى إذا أبلاه الزمان، وأخلَّقه اللَّيْلُ والنَّهار، عادوا فوضعوا ناموساً آخَرَ جديداً بزيادة شيء على ما تقدَّم أو نقصان، على حسب الأحوالِ الغالبة على الناس، والمغلوبة بين الناس، ولهذا لا يُقال: إن الإسكندر في أيام مُلكه حين سار من المغرب إلى المشرق كانت شريعته كذا وكذا، وكان يذكر نبياً يُقال له: فلان، أو قال: أنا نبي، ولقد واقعَ داراً وغيره من الملوك على طريق الغلبة في طلبِ المُلك، وحياسة الديارِ وجباية الأموال والسَّني والغارة، ولو كان للنبوة ذِكْرٌ وللنبي حديثٌ لكان ذلك مشهوراً مذكوراً، ومؤرخاً معروفاً.

قال الوزير: هذا كلامٌ عجيبٌ ما سمعتُ مثله على هذا الشرح والتفصيل!

قلت: إن شِئْنَا أبا سليمانَ غزيرُ البحر، واسع الصدر، لا يُعلَقُ عليه في الأمور الروحانية والأنباء الإلهية والأسرار الغيبية، وهو طويلُ الفكرة، كثير الوحدة، وقد أوتي مزاجاً حسن الاعتدال، وخاطراً بعيدَ المنال، ولساناً فسيح المجال، وطريقته هذه التي اجتباها مكتنفةً بمعارضاتٍ واسعة، وعليها مداخلُ لخصمائه، وليس يفي كلُّ أحدٍ بتلخيصه لها، لأنه قد أفرَزَ الشريعة من الفلسفة، ثم حثَّ على انتحالهما معاً، وهذا شبيهة بالمناقضة. وقد رأيتُ صاحباً لمحمد بن زكرياء في هذه الأيام ورد من الرِّيِّ يُقال له: أبو غانم الطبيب، يُشادُه في هذا الموضع ويضايقه، ويلزمه القول بما يُنكره على الخصم، وإذا أذنت رَسَمْتُ كلامهما في ورقات.

فقال الوزير: قد بان الغرضُ الذي رمى إليه، وتقليبه بالجدل لا يزيده إلا إغلاقاً، والقصدُ معروف، والوقوفُ عليه كافٍ، ومع هذا فليت حَظُّنا منه كان يتوفر بالتلاقي والاجتماع، لا بالرواية والسماع، هاتِ فائدة الوداع، فقد بلغت في المؤانسة غاية الإمتاع.

قلت: أكره أن أختمَ مثل هذه الفِقر الشريفة بما يشبه الهزل وينافي الجدَّ، فإن أذنت رويْتُ ما يكون أساساً ودِعامَةً لما تقدَّم.

قال: هاتِ ما أحببت، فما عهدنا من روايتك إلا ما يشوقنا إلى رؤيتك.

قلت: قال ابن المَقَفِّع: عملُ الرَّجل بما يَعْلَمُ أنه خطأ هَوًى، والهوى آفةُ العفاف، وتركه العمل بما يَعْلَمُ أنه صوابٌ تَهَاوُنٌ، والتَهَاوُنُ آفةُ الدِّين، وإقدامه على ما لا يَعْلَمُ أصوابٌ هو أم خطأ لَجَاج، واللَّجَاجُ آفةُ الرِّأي.

فقال - حَرَسَ اللَّهُ نَفْسَهُ -: ما أَكْثَرَ رَوْتَقَ هذا الكلام! وما أَعْلَى رُتْبَتِهِ فِي كُنْهَ العقل! اكْتُبْهُ لَنَا، بَلِ اجْمَعْ لِي جُزْءاً لَطِيفاً مِنْ هَذِهِ الْفِقْرِ، فَإِنَّهَا تُرَوِّحُ الْعَقْلَ فِي الْفَيْئَةِ بَعْدَ الْفَيْئَةِ، فَإِنَّ نَوْرَ الْعَقْلِ لَيْسَ يَشْعُ فِي كُلِّ وَقْتٍ؛ بَلِ يَشْعُ وَيَبْرُقُ مَرَّةً، فَإِذَا شَعَّ عَمَّ نَفْعُهُ، وَإِذَا بَرَقَ خَصَّ نَفْعُهُ وَإِذَا خَفِيَ بَطَلَ نَفْعُهُ.

قلت: أَفْعُلْ. فقال: إِنْ كَانَ مَعَكَ شَيْءٌ آخَرُ فَادْكُرْهُ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ الْحَسَنَ لَا يُمَلِّ، وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ، فَإِنَّهُ قِيلَ لَهُ: أَتَمَلُّ الْحَدِيثَ؟ قَالَ: إِنَّمَا يُمَلِّ الْعَتِيقُ. قَالَ: صَدَقَ خَالِدٌ، إِنَّ الْحَدِيثَ لَا يُمَلِّ مِنَ الزَّمَانِ إِلَّا فِيمَا يَلِيهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يُمَلِّ فِي أَوَّلِ زَمَانِهِ وَفَاتِحَةِ أَوَانِهِ، وَإِنَّمَا الْمَلَلُ يَغْرِضُ بِتَكَرُّرِ الزَّمَانِ وَضَجْرِ الْحِسِّ وَنِزَاعِ الطَّبَعِ إِلَى الْجَدِيدِ، وَلِهَذَا قِيلَ: لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةٌ.

فَحَكَيْتُ أَنَّهُ لَمَّا تَقَلَّدَ كَسِيرَى أَنْوَشِرْزَوَانَ مَمْلَكَتَهُ عَكَّفَ عَلَى الصُّبُوحِ وَالْغُبُوقِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ وَزِيرُهُ رُقْعَةً يَقُولُ فِيهَا: إِنَّ فِي إِدْمَانِ الْمَلِكِ ضَرراً عَلَى الرِّعْيَةِ، وَالْوَجْهُ تَخْفِيفُ ذَلِكَ وَالتَّنْظُرُ فِي أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ. فَوَقَّعَ عَلَى ظَهْرِ الرُّقْعَةِ بِالْفَارْسِيَّةِ بِمَا تَرَجَّمَتْهُ: يَا هَذَا، إِذَا كَانَتْ سُبُلُنَا آمِنَةً، وَسِيرَتُنَا عَادِلَةً، وَالدُّنْيَا بِاسْتِقَامَتِنَا عَامِرَةً، وَعُمَلَانُنَا بِالْحَقِّ عَامِلَةٌ، فَلِمَ نَمْنَعُ فَرَحَةً عَاجِلَةً؟

قال: مِنْ حَدَّثَكَ بِهَذَا؟ قلت: أَبُو سُلَيْمَانَ شَيْخُنَا، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ رِضَاهُ عَنْ هَذَا الْمَلِكِ فِي هَذَا الْقَوْلِ؟

فقلت: اعْتَرَضَ فَقَالَ أَخْطأَ مِنْ وَجْهِهِ، أَحَدُهَا أَنَّ الْإِدْمَانَ إِفْرَاطٌ، وَالْإِفْرَاطُ مَذْمُومٌ؛ وَالْآخَرُ أَنَّهُ جَهْلٌ أَنَّ أَمْنَ السَّبِيلِ وَعَدْلَ السَّيْرَةِ وَعِمَارَةَ الدُّنْيَا وَالْعَمَلَ بِالْحَقِّ مَتَى لَمْ يُوَكَّلْ بِهَا الطَّرْفُ السَّاهِرُ وَلَمْ تُحَظَّ بِالْعَنَاءِ التَّامَةِ، وَلَمْ تُحَفَظْ بِالْإِهْتِمَامِ الْجَالِبِ لِدَوَامِ النَّظَامِ، دَبَّ إِلَيْهَا النِّقْصُ وَالتَّقْصُ بِأَبِّ لِلانْتِقَاضِ، مُزْعِزٌ لِلدُّعَاةِ. وَالْآخَرُ أَنَّ الزَّمَانَ أَعَزُّ مِنْ أَنْ يُبْذَلَ فِي الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَالتَّلَذُّذِ وَالتَّمَتُّعِ، فَإِنْ فِي تَكْمِيلِ النَّفْسِ النَّاطِقَةِ بِاكتِسَابِ الرِّشْدِ لَهَا وَإِبْعَادِ الْغَيِّ عَنْهَا مَا يَسْتَوْعِبُ أَضْعَافَ الْعُمُرِ، فَكَيْفَ إِذَا كَانَ الْعُمُرُ قَصِيراً، وَكَانَ مَا يَدْعُو إِلَيْهِ الْهَوَى كَبِيراً؟! وَالْآخَرُ أَنَّهُ ذَهَبَ عَلَيْهِ أَنَّ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ إِذَا وَقَفَتْ عَلَى اسْتِهْتَارِ الْمَلِكِ بِاللَّذَاتِ، وَانْهَمَاكِه فِي طَلَبِ الشَّهَوَاتِ، أَزْدَرَتْهُ وَاسْتِهَانَتْ بِهِ؛ وَحَدَّثَتْ عَنْهُ بِأَخْلَاقِ الْخَنَازِيرِ وَعَادَاتِ الْحَمِيرِ، وَاسْتِهَانَةُ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ بِالنَّاظِرِ فِي أَمْرِهَا وَالْقِيَمِ بِشَأْنِهَا مَتَى تَكَرَّرَتْ عَلَى الْقُلُوبِ تَطَرَّقَتْ إِلَى اللِّسَانِ، وَانْتَشَرَتْ فِي الْمَحَافِلِ، وَالتَّقَتَّ بِهَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ وَهَذِهِ مَكْسَرَةٌ لِلْهَيْبَةِ، وَقَلَّةٌ لِلْهَيْبَةِ رَافِعَةٌ لِلْحَشْمَةِ، وَارْتِفَاعُ الْحَشْمَةِ بَاعَثَ عَلَى الْوُثْبَةِ، وَالْوُثْبَةُ غَيْرُ مَأْمُونَةٍ مِنَ الْهَلَكَةِ؛ وَمَا خِلا الْمَلِكُ مِنْ طَامِعٍ رَاصِدٍ قَطُّ وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ الْحَازِمِ أَنْ يَظُنَّ أَنَّهُ لَا ضِدَّ لَهُ وَلَا مُنَازِعَ، وَقَدْ يَنْجُمُ الضِّدُّ وَالْمُنَازِعُ

من حيث لا يحتسب، وما أكثرَ حَجَلِ الوائق! وما أَقَلَّ حَزَمِ الوامِق! وما أَقَلَّ يَقْظَةَ المائق^(١)!

ثم قال: وعلى الضدِّ متى كان السائسُ ذا تحفُّظٍ وبحثٍّ، وتتبعُ وحزمٍ وإكبابٍ على لَمِ الشَّعَثِ وتقويمِ الأودِ وسدِّ الخللِ وتعرُّفِ المجهولِ وتحقُّقِ المعلومِ ورفعِ المنكرِ وبثِّ المعروفِ، احترستُ منه العامةُ والخاصَّةُ، واستشعرتُ الهيبةَ، والتزمَتُ بينها النِّصْفَةَ، وكُفِيتُ كثيراً من مُعاناتها ومراعاتها، وإن كان للدولة راصدٌ للغرةِ يئسَ من نفوذِ الحيلةِ فيها، لأنَّ اللَّصَّ إذا رأى مكاناً حصيناً وعَهدَ عليه حُرَّاساً لم يحدثَ نفسه بالتعرُّضِ له، وإنما يقصدُ قَصراً فيه ثُلْمةٌ، وباباً إليه طريقٌ، والأعراضُ بالأسبابِ، وإذا ضَعُفَ السَّبَبُ ضَعُفَ العَرَضُ، وإذا انقطعَ السَّبَبُ انقطعَ العَرَضُ.

فقال - أدام الله أيامه -: هذا كلامٌ كافٍ شافٍ. وقال بعد ذلك: حدِّثني عما تسمعُ من العامة في حديثنا.

قلت: سمعتُ (باب الطَّاقِ) قوماً يقولون: اجتمع الناس اليومَ على الشُّطِّ، فلما نزل الوزير ليركبَ المركبَ صاحوا وضجوا وذكروا غلاءَ القوتِ وعوزَ الطعامِ وتعذَّرَ الكسبِ وغَلَبَةَ الفقرِ وتهتَّكُ صاحبِ العِيالِ، وأَنَّهُ أجابهم بجوابٍ مرٍّ مع قُطوبِ الوجه وإظهارِ التبرُّمِ بالاستغاثة: بعدُ لم تأكلوا الثُّخالةَ.

فقال: واللَّهِ ما قلتُ هذا، ولا خَطَرَ لي على بالٍ، ولم أَقابلَ عامَّةً جاهلةً ضعيفةً جائعةً بمثل هذه الكلمةِ الحَشَناءِ، وهذا يقوله من طرح الشرَّ وأحبَّ الفسادَ وقصدَ التَّشْنِيعَ عَلَيَّ والإيحاشَ مِنِّي، وهو هذا العدوُّ الكلبُ، «يعني ابنُ يوسف» كفاني الله شرَّه، وشغله بنفسه، ونكسَ كيدَه على رأسه؛ واللَّهِ لأنظرُنَّ لها وللفقراءِ بمالٍ أَطْلَقَه من الخِزانةِ، وأرسمُ ببيعِ الخبزِ ثمانية بدرهمٍ، ويصلُ ذلك إلى الفقراءِ في كلِّ مَحَلَّةٍ على ما يذكرُ شيخُها، ويبيعُ الباقيون على السُّعْرِ الذي يَقُومُ لهم، ويشتريه الغنيُّ الواجدُ؛ ففعل ذلك - أحسنَ الله جزاءَهُ - على ما عرفتُ وشاهدتُ، وأبلغتُه بنشرِ الدعاءِ له في الجوامعِ والمجامعِ بطولِ البقاءِ ودوامِ العلاءِ وكُتِبَتِ الأعداءُ ونُصِرَ الأولياءُ.

ثم كتبتُ جزءاً من الفَقْرِ على ما رَسَمَ من قَبْلُ، فلَمَّا أوصلتُه إليه قال لي: اقرأ، فقرأتُه عليه، فقال: صلِّ هذا الجزءَ بجزءٍ آخرَ من حديثِ النبي - ﷺ - والصحابَةِ وجزءٍ من الشُّعْرِ، وبشيءٍ من معاني القرآنِ، فإنه متقدِّمٌ على كلِّ شيءٍ بحسبِ ما رفعَ الله من خطره، وأحوجَ إلى فهمه، ونَدَبَ إلى العملِ به، وأثابَ على التفكُّرِ فيه والتعجُّبِ منه.

وَعَظَ^(١) رَجُلٌ مِنْ (جُهَيْنَةَ) (عمرو بن العاص) فِي قِصَّةِ الْحُكُومَةِ، فَقَالَ عَمْرُو لَهُ: مَا أَنْتَ وَذَاكَ يَا تَيْسَ جُهَيْنَةَ؟ فَوَاللَّهِ مَا يَنْفَعُكَ الْحَقُّ، وَلَا يَضُرُّكَ الْبَاطِلُ، فَاسْكُتْ فَإِنَّ الظُّلْفَ لَا يَجْرِي مَعَ الْخَفِّ.

وقال بعض الحكماء: إِنَّ الْمُدُنَ ثُبْنِي عَلَى الْمَاءِ وَالْمَرْعَى وَالْمُحْتَطَبِ وَالْحَصَانَةِ.
وقال الشاعر:

لَا حُ سُهَيْلٌ فِي الظَّلَامِ الدَّامِسِ كَأَنَّهُ نَارٌ بِكَفِّ الْقَابِيسِ
قال ربيعة بن عامر بن مالك في عمرو بن الإطنابة - حين دَفَعَ أُخْتَهُ وَأَخَذَ أَخَاهُ
وكان أسيراً في قومه، وَجَعَلَ دَفَعَ أَخِيهِ إِلَيْهِ صَدَاقَ أُخْتِهِ، وَهُوَ الَّذِي تَسْمِيهِ الْعَرَبُ
الْمَسَاهَاةَ -: فَقَدْ حَزَمِي الَّذِي هُدَيْتُ لَهُ، وَعَزَمِي الَّذِي أُرْشِدْتُ إِلَيْهِ. وقال الشاعر:

وَسَاهَى بِهَا عَمْرُو وَرَاعَى إِفْأَلَهُ فَزُبْدٌ وَتَمُرٌ بَعْدَ ذَاكَ كَثِيرُ
وكانت دِيَّةُ الْعَرَبِيِّ مِائَةَ وَسَقٍ، وَدِيَّةُ الْهَجِينِ خَمْسِينَ وَسَقاً، وَدِيَّةُ الْمَوْلَى عَشْرَةَ أَوْسُقٍ؛
وكانت الْعَرَبُ تَجْعَلُ دِيَّةَ الْمُعَمِّ الْمُخَوَّلِ مِائَةَ بَعِيرٍ، وَدِيَّةَ الْمَوْلَى خَمْسَةَ وَعَشْرِينَ بَعِيرًا.
وقال جرير:

رَأَيْتُ بَنِي نُبَهَانَ أَذْنَابَ طَيِّئٍ وَلِلنَّاسِ أَذْنَابٌ تُرَى وَصُدُورُ
تَرَى شَرَطَ^(٢) الْمِغْزَى مُهُورَ نَسَائِهِمْ وَفِي شَرَطِ الْمِعْزَى لَهُنَّ مُهُورُ
وقال خالد بن جعفر بن كلاب:
بَلْ كَيْفَ تَكْفُرْنِي (هُوَ أَرْزَنُ) بَعْدَمَا أَغْتَقَشْتُهُمْ فَتَوَالِدُوا أَحْرَارًا
وَقَتَلْتُ رَبَّهُمْ زُهَيْرًا بَعْدَمَا جَدَعَ الْأَنْفُوفَ وَأَكْثَرَ الْأَوْتَارَا
وَجَعَلْتُ مَهْرَ نَسَائِهِمْ وَدِيَاتِهِمْ عُقْلَ الْمُلُوكِ هَجَائِنًا وَبِكَارَا
وقال جندل بن صخر، وكان عبداً:
وَمَا فَلَكَ رِقِّي ذَاتُ دَلٍّ خَدَلَجٍ وَلَا سَاقَ مَالِي صُدُقَةٌ وَعُقُولُ
وَلَكِنْ نَمَانِي كُلُّ أَبِيضٍ خَضُرٍ فَأَصْبَحْتُ أَذْرِي الْيَوْمَ كَيْفَ أَقُولُ
وَقَتَلَ الْكَلْبِيُّ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْجَوْشَنِ الْعُطْفَانِيَّ بِقَتْلِهِ ابْنَهُ الْجَرَّاحَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ
(رَوَّادًا) وَكَانُوا عَرْضُوا عَلَيْهِ الدِّيَّةَ، فَقَالَ:

شَفَيْتُ بِرَوَّادٍ غَلِيلاً وَجَدْتُهُ عَلَى الْقَلْبِ مِنْهُ مُسْتَسِرٌّ وَظَاهِرُ
أَلَا لَيْتَ قَبْرًا بَيْنَ أَدْمِي وَمُطَرِّقٍ يُحَدِّثُهُ عَنِّي الْأَحَادِيثُ خَابِرُ

(١) ربما هذه الفقر في ليلة أخرى غير الليلة السابعة عشرة المتقدمة.

(٢) أي صغارها.

- وقالوا نَدِيه من أبيه ونفتدي فقلت: كريم ما تَدِيه الأباعر
ألم تر أنَّ المالَ يذهبُ ذَرُّه وتَغْبُرُ أقوالٌ وتَبْقَى المَعَايِرُ
أَدْمِي ومُطَرِّق: غَدِيران بين فَدَك وبلاد طِيٍّ.
- سئلت ابنةَ الخُسِّ هل يَلْقَح البازل^(١)؟ قالت: نعم وهو رازِم، أي وإن كان لا
يقدِّر على القيام من الضَّعْف والهزال. يقال: جملٌ بازِلٌ وناقَةٌ بازِلٌ، ويقال: ضَرَبَه
فَبَرَكَه إذا أَبْرَكَه، وتَبَرَّكع، ويقال: شِم لي هذه الإبل، أي انظر لي خبرها.
- ويقال لولِد كلِّ بهيمةٍ إذا ساءَ غذاؤه: جَجِنَ ومُحْتَلٌ وجَذَعٌ، وكلُّ ما غُذِيَ بغير
أُمِّه يقال له: عَجِيٌّ، وكذلك الجَجِن والوَعِل والسَّغِلُ كُلُّه السَّيِّئُ الغِذاء.
- سئل النبي ﷺ عن ضالةِ الإبل، فقال: «مالِكٌ ولها؟ معها حذاؤها وسِقَاؤها تَرِدُ
الماء وتَأْكُل من الشَّجر حتى يَأْتِيها رَبُّها».
- سئل - عليه السَّلام - عن ضالةِ الغنم، فقال: هي لك أو لأخيك أو للذَّئب.
- قيل له عليه السَّلام: فاللُّقْطَةُ؟ قال: «تعرَّفُها سنة وتحصي وكاءها ووعاءها
وعِفَاصُها وعدَدَها؛ فإن جاء صاحبها فأدَّها إليه»^(٢).
- وقال أُبَيُّ بنُ كعبٍ: أصبْتُ مائةَ دينارٍ على عهد النبي ﷺ، فقال: «احفظ
عِفَاصَها وكِأَها وعدَدَها فإن جاء صاحبُها فأخبرَكَ بعدَدَها وعِفَاصِها وكِأَها فأدَّها إليه
وإلا فعَرَّفُها سنة، ثم استَمْتِع بها».
- قال عليُّ بن الحسن: خرج رسولُ الله ﷺ حتى إذا كان بِقُفِّ النخلتين قال له
الأنصار: يا رسولَ الله، هل لك في السِّباق؟ قال: نعم، وهو يومئذٍ على التَّوَّاصِحِ^(٣)
- وكان رسولُ الله ﷺ يسير في أخرياتِ الناس، وأُسامَةُ بنُ زيدٍ على العَضْبَاءِ ناقةٍ
رسولُ الله ﷺ، وهو في أوَّلِ الناس - فقال: أين أُسامَةُ؟ فتنادى الناسُ حتى بلغ أُسامَةُ
الصَّوْت، فَوَضَعَ السَّوْطَ في الناقة فأقبلت، فلما دَنَتْ قال رسولُ الله ﷺ: إنَّ إخواننا
من الأنصارِ قد أرادوا السِّباقَ فأَنِخْ نَاقَتَكَ حتى ترغو، ثم علقَ الخِطَامَ ثم سابَقَهم؛
- (١) البازل: الذي فطر نابه، أي انشق بدخوله في السنة التاسعة.
- (٢) روى البخاري في صحيحه ٢٠ - باب: حكم المفقود في أهله وماله. حديث رقم ٤٩٨٦ -
عن يزيد مولى المنبعث: أن النبي ﷺ سئل عن ضالة الغنم، فقال: «خذها، إنما هي لك
أو لأخيك أو للذئب» وسئل عن ضالة الإبل فغضب وأحمرت وجنتاه، وقال: «ما لك
ولها، معها الحذاء والسقاء، تشرب الماء، وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها». وسئل عن
اللُّقطة، فقال: «أعرف وكاءها وعفاصها، وعرفها سنة، فإن جاء من يعرفها، وإلا فاخطلها
بمالك».
- (٣) الإبل التي يستقى عليها.

فَفَعَلَ وَاسْتَبَقُوا، فَسَبَقَتْ نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَعَلَ أُسَامَةُ يَكْبُرُ وَيَقُولُ: سَبَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللَّهِ يَقُولُ: سَبَقَ أُسَامَةُ، فَلَمَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ قَالَ لَهُ: أَقْصِرْ يَا أُسَامَةُ، فَإِنَّ إِخْوَانَنَا مِنَ الْأَنْصَارِ فِيهِمْ حَيَاءٌ وَحَفِيزَةٌ.

قال: وليس لشيءٍ من الحيوانِ سَنَامٌ إلا البعير، وللبعضِ البَخَاتِي سَنَامَانِ، وللبعضِ البقرِ شيءٌ صَغِيرٌ عَلَى مَوْضِعِ الْكَاهِلِ. والجملُ يَبُولُ إِلَى خَلْفٍ، وكذلك الأسد. وقَضِيبُ الْجَمَلِ مِنْ عَصَبٍ، وقَضِيبُ الْإِنْسَانِ مِنْ لَحْمٍ وَغَضْرُوفٍ، وقَضِيبُ الذَّئْبِ وَالثَّعْلَبِ مِنْ عَظْمٍ، وقَضِيبُ ذَكَرِ الْأَرَانَبِ مِنْ عَظْمٍ عَلَى صُورَةِ الثُّقْبِ كَأَنَّهُ نَصْفُ أَنْبُوبَةٍ مَشْقُوقَةٍ. وَفِي قَلْبِ الثَّوْرِ عَظْمٌ، وَرَبْمَا وَجِدَ فِي قَلْبِ الْجَمَلِ. وَالْمَرَأَةُ تَلِدُ مِنْ قَبْلِ، وَالنَّاقَةُ مِنْ خَلْفٍ. وَزَمَانُ نَزْوِ الْجَمَالِ فِي (شَبَاطٍ). وَالْإِنَاثُ فِي الْإِبِلِ تَحْمِلُ اثْنَيْ عَشَرَ شَهْرًا وَتَضَعُ وَاحِدًا وَتَلْقَحُ إِذَا بَلَغَتْ ثَلَاثَ سِنِينَ، وَكَذَلِكَ الذَّكَرُ، ثُمَّ تُقِيمُ الْأُنْثَى سَنَةً ثُمَّ يُنْزَى عَلَيْهَا.

وَزَعَمَ صَاحِبُ الْمَنْطِقِ أَنَّ الْجَمَلَ لَا يَنْزُو عَلَى أُمِّهِ، وَإِنْ اضْطُرَّ كَرِهَهُ.

قال: وقد كان رجلٌ فِي الدَّهْرِ السَّالِفِ سَتَرَ الْأُمَّ بِثَوْبٍ ثُمَّ أَرْسَلَ بِكَرًا عَلَيْهَا، فَلَمَّا عَرَفَ ذَلِكَ لَمْ يُتِمَّ وَقَطَعَ، وَحَقَّقَ عَلَى الْجَمَالِ فَقَتَلَهُ.

قال: وقد كان لَمَلِكٍ فَرَسٌ أَنْثَى، وَكَانَ لَهَا أَفْلَاءٌ^(١)، فَأَرَادَ أَنْ تَحْمِلَ مِنْ أَكْرَمِهَا، فَصَدَّ عَنْهَا وَكَرِهَهَا، فَلَمَّا سَتِرَتْ وَتَبَّ فَرَكِبَهَا، فَلَمَّا رُفِعَ الثَّوْبُ وَرَأَاهَا هَرَبَ وَمَرَّ حُضْرًا^(٢) حَتَّى أَلْقَى نَفْسَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْدِيَةِ فَهَلَكَ...^(٣)

هَذَا كَلَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ.

قال حُذَيْفَةُ: كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابِنِ اللَّبُونِ، لَا ظَهَرَ فَيُرَكَّبَ، وَلَا لَبَنَ فَيُحْلَبَ.

قال دِيوجَانَسُ: إِنَّ الْمَرَأَةَ تُلْقَنُ الشَّرَّ مِنَ الْمَرَأَةِ، كَمَا أَنَّ الْأَفْعَى تَأْخُذُ السَّمَّ مِنَ الْأَصْلَةِ.

وقال فَيْثَاغُورَسُ: إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَرَوْنَ الْعَمَى الَّذِي يَعْرِضُ لِعَيْنِ الْبَدَنِ فَتَأْبَاهُ أَنْفُسُهُمْ، فَأَمَّا عَمَى عَيْنِ النَّفْسِ فَإِنَّهُمْ لَا يَرَوْنَهُ وَلَا تَأْبَاهُ أَنْفُسُهُمْ، فَلِذَلِكَ لَا يَسْتَحْيُونَ.

وقال أَيْضًا: كَمَا أَنَّ الَّذِي يَسْلُكُ طَرِيقًا لَا يَعْرِفُهُ لَا يَدْرِي إِلَى أَيِّ مَوْضِعٍ يُوَدِّيهِ، كَذَلِكَ الَّذِي يَسْمَعُ كَلَامًا لَا يَعْرِفُ الْغُرُضَ فِيهِ لَا يَرْجَحُ مِنْهُ إِلَّا التَّعَبَ.

قِيلَ لِدِيوجَانَسٍ: أَيُّهُمَا أَوْلَى، طَلَبُ الْغِنَى، أَمْ طَلَبُ الْحِكْمَةِ؟ فَقَالَ: لِلدُّنْيَا الْغِنَى، وَلِلْآخِرَةِ الْحِكْمَةُ.

(١) جمع فلو بكسر الفاء، وهو المهر الذي لم يبلغ الفطام.

(٢) الحضر: سرعة العدو.

(٣) سقط من الأصل.

وقيل له: متى تطيب الدنيا؟ قال: إذا تفلسف ملوكها ومَلَكَ فلاسفتها.

فقال الوزير - أسعده الله -: عندي أنّ هذا الكلام مدخول، لأن الفلسفة لا تصحّ إلا لمن رَفَضَ الدنيا وفرَّغ نفسه للدار الآخرة، فكيف يكون الملك رافضاً للدنيا وقالياً لها، وهو محتاج إلى سياسة أهلها والقيام عليها باجتلاب مصالحها ونفي مفسداتها، وله أولياء يحتاج إلى تدبيرهم وإقامة أبنيتهم والتوسعة عليهم ومواكبتهم ومشاربتهم ومداراتهم والإشراف على سرهم وعلايتهم، والملك أتعب من الطبيب الذي يجمع معالجة كثيرة بضروب الأدوية المختلفة والأغذية المتباينة؛ هذا والطبيب فقير إلى تقديم النظر في نفسه وبدنه، ونفي الأمراض والأعراض عن ظاهره وباطنه، ومن كان هكذا ومن هو أكثر منه وأشدّ حاجة وعلاقة كيف يستطيع أن يكون ملكاً وحكيماً؟! ولعلّ قائلاً يظنّ هذا ممكناً، ويكون الملك واعياً في الحكمة بالدعوى، وقائماً بالملك على طريق الأولى، وهذا إلى التياث الأمر واختلاله واختلاطه في الملك والفلسفة أقرب منه إلى إحكام الأصل وإثبات الفرع. قال: ولهذا لم نجد نحن في الإسلام من نظر في أمر الأمة على الزهد والثقي وإيثار البرّ والهدى إلا عدداً قليلاً، والمجوس تزعم أنّ الشريعة مُعَرَّجَةٌ عن الملك، أي الذي يأتي بها ليس له أن يُعَرِّجَ على الملك، بل له أن يَكِلَ الملك إلى من يقوم به على أحكام الدين، ولهذا قال مَلِكُنَا الفاضل: الدين والملك أخوان، فالدين أسّ، والملك حارس، فما لا أسّ له فهو مهدوم، وما لا حارس له فهو ضائع.

فقلت له: هذا باب إن توزّع القول فيه طال، وإن رُمِيَ بالقصد جاز، وللأئمة كلام كثير في الإمامة والخلافة وما يجري مجرى الثيابة عن صاحب الديانة على فنون مختلفة، وجَمَلٌ مُتَعَدِّدٌ، إلا أنّ الناظر في أحوال الناس ينبغي أن يكون قائماً بأحكام الشريعة، حاملاً للصغير والكبير، على طرائقها المعروفة، لأنّ الشريعة سياسة الله في الخلق، والملك سياسة الناس للناس، على أنّ الشريعة متى خَلَّتْ من السياسة كانت ناقصة، والسياسة متى عَرِيت من الشريعة كانت ناقصة، والملك مبعوث، كما أنّ صاحب الدين مبعوث، إلا أنّ أحد البعثين أخفى من الآخر، والثاني أشهر من الأول.

قال - أطال الله بقاءه -: كنت أحبّ أن أعلم من أين قلت: إن الملك مبعوث أيضاً؟ فإن هذه الكلمة ما ثبتت في أذني قطّ، ولا خطرّت لي على بال.

قلت: قال الله عزّ وجلّ في تنزيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلَكًا﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فعجِبَ وقال: كأني لم أسمع بهذا قطّ.

ذُكِرَ للإسكندر سوء أحوال رؤسائه مذهبه لما كان أبوه احتاز أموالهم وسلب أحوالهم. فقال: يجب للأبناء على الأبناء إزالة الدّم عنهم، ومحو الإثم، واستعطاف القلوب عليهم، ونشر المحامد عنهم؛ وأمر بردّ أموالهم عليهم، وزاد في الإحسان

إليهم . وقال : قد بلغ من قَرُطِ شفقة الآباء على الأبناء أن يُسيئوا إلى أنفسهم لتكون الإساءة سبباً للإحسان إلى أولادهم ، لأنهم يرون أولادهم كأنفسهم لأنهم من أنفسهم .

فقلت : أيها الوزير ، إني لأعجب من الإسكندر في الفعل الرّشيد والقول السّديد ، فهذا المنصور أبو جعفر صاحب الشهامة والصّرامة أخذ من وجوه العراق أموالاً بخواتيم أصحابها وأفقرهم ، وجعلها في خزائنه بعد أن كتب على تلك الخرائط والظروف أسماء أهلها ، ثم وصّى المهديّ بردها على أصحابها بعد موته ، ووكد ذلك عليه ، وقال : يا بُنيّ ، إنما أريد بهذا أن أحببك إلى الناس ، ففعل المهديّ ذلك ؛ فانتشر له الصّيت وكثر الدعاء وعجت الأصوات ، وقال الناس : هذا هو المهديّ الذي ورد في الأثر . فقال : هذا عجب .

وقال سُقراط : ينبغي لمن علم أنّ البدن هو شيء جُعل نافعاً للنفس مثل الآلة للصانع أن يطلب كلّ ما يصير البدن به أنفع وأوفق لأفعال النفس التي هي فيه ، وأن يهرب من كل ما يصير البدن غير نافع ولا موافق لاستعمال النفس له .

قال أوميرؤس : لا ينبغي لك أن تؤثر عِلْم شيء إذا عُرِث به غَضِبَت ، فإنك إذا فعلت هذا كنت أنت القاذف لنفسك .

وقال ديوجانس : من القبيح أن تتحرى في أغذية البدن ما يصلح له ولا يكون ضاراً ، ولا تتحرى في غذاء النَّفس الذي هو العِلْم لئلا يكون ضاراً .

وقال أيضاً : من القبيح أن يكون الملاح لا يُطلق سفينته في كلّ ربح ، ونحن نُطلق أنفسنا في غير بحث ولا اختبار .

ذكر لنا أبو سليمان أن فيلسوفاً ورَدَ مدينةً فيها فيلسوف ، فوجّه إليه المدني كاساً مَلأ ، يشير بها إلى أن الاستغناء عنه واقعٌ عنده ، فطرح القادِم في الكأس إبرة ، يُعلمه أن معرفته تنفذ في معرفته .

وقال فيلسوف يوناني : الثقلُ في الأمصار ، والتوسط في المجامع ، والتصرف في الصناعات ، واستماع فنون الأقوال ، مما يزيد الإنسان بصيرةً وحكمةً وتجربةً ويقظةً ومعرفةً وعِلماً .

قال الوزير : ما البصيرة؟

قلت : لَحْظُ النفس الأمور . قال : فما الحكمة؟ قلت : بلوُغُ القاصية من ذلك اللحظ . قال : فما التجربة؟ قلت : كمالُ النفس بِلِحاظ مآلها . قال : هذا حسن .

قال أنكساغورس : كما أن الإناء إذا امتلأ بما يسعه من الماء ثم تُجعل فيه زيادة على ذلك فاض وانصب ، ولعله أن يخرج معه شيء آخر ؛ كذلك الذهن ما أمكنه أن يضبطه فإنه يضبطه ، وإن طُلب منه ضبط شيء آخر أكثر من وَسْعه تَحَيَّر ، ولعل ذلك يُضَيِّعُ عليه شيئاً مما كان الذهن ضابطاً له ، وهذا كلام صحيح ، وإني لأتعبج من

أصحابنا إذا ظنوا وقالوا: إنَّ الإنسان يستطيع حفظ جميع فنون العلم والقيام بها والإبقاء عليها، ولو كان هذا مقدوراً عليه لوجد، ولو وُجد لعُرف، ولو عُرف لذكر، وكيف يجوز هذا وقلب الإنسان مُضغّة، وقوّته مقصورة، وانبساطه مُتناهٍ، واقتباسه وحفظه وتصوّره وذكره محدود؟ ولقد حدّثني عليّ بن المهديّ الطبريّ قال: قلتُ ببغداد لأبي بشر: لو نظرت في شيء من الفقه مع هذه البراعة التي لك في الكلام، ومع هذا اللسان الذي تحيّر فيه كلّ خصم. قال: أفعل، قال: فكنتُ أقرأ عليه بالنهار مع المختلِفَةِ الكلام، وكان يقرأ عليّ بالليل شيئاً من الفقه، فلمّا كان بعد قليل أقصّر عن ذلك، فقلت له: ما السبب؟ قال: واللّه ما أحفظ مسألة جليّة في الفقه إلّا وأنسى مسألة دقيقة في الكلام، ولا حاجة في زيادة شيء يكون سبباً لتقصان شيء آخر مني.

وسأل رجلٌ آخر أن يُقرضه مالاً، فوعده ثم غدر به، فلامه النَّاسُ، فقال: لأنّ يحمرّ وجهي مرّة أحبّ إليّ من أن يصفرّ مراراً كثيرة.

ووليّ أريوس ولاية فقال له أصدقاؤه: الآن يظهر فضلك. فقال: ليست الولاية تُظهر الرجل، بل الرجل يُظهر الولاية.

وقال ديوجانيس: الدنيا سوق المسافر، فليس ينبغي للعاقل أن يشتري منها شيئاً فوق الكفاف.

وقيل لاسطفانس: مَنْ صديقك؟ قال: الذي إذا صرّث إليه في حاجة وجدته أشدّ مسارعة إلى قضائها مني إلى طلبها.

وقال أفلاطون: إن للنفس لذتين: لذّة لها مُجرّدة عن الجسد، ولذّة مشاركة للجسد، فأما التي تنفرد بها النفس فهي العِلْم والحكمة، وأما التي تُشارك فيها البدن فالطعام والشراب وغير ذلك.

وقيل لسقراط: كيف ينبغي أن تكون الدنيا عندنا؟ قال: لا تستقبلوها بتمنٍّ لها، ولا تُتبعوها بتأسّف عليها؛ فلا ذلك مُجدٍ عليكم، ولا هذا راجع إليكم.

وقال سقراط: القُنيّة مخدومة، ومن خدم غير نفسه فليس بحرّ.

وقال بعض ندماء الإسكندر له: إن فلاناً يسيء الثناء عليك، فقال: أنا أعلم أن فلاناً ليس بشيّء، فينبغي أن يُنظر هل ناله من ناحيتنا أمرٌ دعاه إلى ذلك، فَبَحَث عن حاله فوجده رثّة، فأمر له بصلّة سنّيّة، فبلغه بعد ذلك أنه يبسط لسانه بالثناء عليه في المحافل؛ فقال: أما ترون أن الأمر إلينا أن يقال فينا خيرٌ أو شرّ.

قيل لطيماتاؤس: لم صرّثت تسيء القول في الناس؟ قال: لأنّه ليس يمكنني أن أسيء إليهم بالفعل. وكان مرّة في صحراء، فقال له إنسان: ما أحسن هذه الصحراء! قال: لو لم تحضّرها أنت.

وقال غالوس: ما وجه الاهتمام بما إن لم يكن؛ أَجْزَى فَوْتُهُ، وإن كان فالمنفعة به وبحضوره قليلة منقطعة.

وقال سُقراط: ينبغي إذا وَعَظْتَ أَلَّا تتشكَّلَ بشكل منتقم من عَدُوِّ، ولكن بشكل من يُسْعِطُ أو يَكْوِي بعلاجه داءً بصديق له، وإذا وَعَظْتَ أَيضاً بشيء فيه صلاحك، فينبغي أن تتشكَّلَ بشكل المريض للطبيب.

ركب مقاريوس في حاجة، فمرَّ بزيْمُوس وقد تعلق به رجل يطالبه بمال اختدعه عنه وعليهما جماعة من الناس، وهو يسأله تنجيم ذلك المال عليه نجوماً ليؤديه، ويتضرَّعُ أشدَّ التضرُّع. فقال منقاروس: ما طلبتُك عند هذا الرجل؟ فقال: أتاني فخدعني بالزُّهد والنُّسك عن مالي، ووعدني أن يملأ بيتي ذهباً من صنعته، فلم أزل في الاسترسال إلى ظاهره السليم حتى أفقرني باطنه السقيم. فقال له مقاريوس: إِنَّ كُلَّ مَنْ بَدَّلَ شيئاً إنما يَبْذُلُهُ على قَدَرٍ وَسِعِهِ؛ وكان زِيْمُوسُ أَتاك على حاله التي هو عليها، ولم يكن لِيَسْبَحَ لأَكْثَرَ مِنْ ذلك الْقَوْل؛ وَأَمَّا عَمَلُ الذَّهَبِ فَيَبِينُ ظاهراً، لَأَنَّ فَقْرَهُ يَدُلُّ على عَجْزِهِ وَضَعْفِهِ عنه، ومن أَمَلِ الْغِنَى عند الفقير فغاية ما يُمْكِنُ أن يَبْلُغَهُ أن يَصِيرَ مِثْلَهُ؛ وَآخِرُ مَا يُؤْمَلُ عند الفقير نَيْلُ الْفَقْرِ. فقد أَصَبْتَ ما كُنْتَ تُحِبُّ أن تَجِدَهُ عند زِيْمُوس؛ وهو حَظٌّ إِنْ تَمَسَّكَتَ به لم يَغْلُ بما تَلَفَ مِنْ مالِكَ، ولئن كان وَعَدَكَ أن يُفِيدَكَ مالاً باطلاً فلقد أَفَادَكَ معدناً حقاً، من غير قصدٍ إلى نفعك. ثم أَقْبَلَ على زِيْمُوس وقال له: ما أبعد شبه مَعْدِنِكَ من المَعَادِنِ الطَّبِيعِيَّةِ! إِنَّ المَعَادِنَ تَلْفُظُ الذَّهَبَ، وَمَعْدِنُكَ هذا يَبْتَلِعُ الذهب؛ ومن جاورَ مَعْدناً منها أَغْنَاهُ، وَمَنْ جاورَ مَعْدِنَكَ أَفْقَرَهُ؛ وَالمَعَادِنُ الطَّبِيعِيَّةُ تُثْمِرُ من غير قَوْل، ومَعْدِنُكَ يقول مِنْ غيرِ إِثْمَار. فقال زِيْمُوس: أَيُّها الفاضل، لئن عِبَتْنِي فَلَسْتُ بِأَوَّلِ حَكِيمٍ لَقِيَ من النَّاسِ الأَدَى. فقال له: أَجَلْ، ولا آخِرَهُمْ ولا أَوْسَطَهُمْ، لكنَّكَ من الْجُهَالِ الَّذِينَ لَقِيَ النَّاسُ مِنْهُمْ الأَدَى.

فقال - أَعْلَى اللَّهِ قَوْلُهُ -: فهل لهذا الأمر - أَعْنِي الكيمياء - مَرْجوع؟ وهل له حقيقة؟ وما تَحْفَظُ عن هذه الطائفة؟

فكان الجواب: أَمَّا يَحْيَى بْنُ عَدِيٍّ - وهو أستاذ هذه الجماعة - فكان في إِضْبَعِهِ خَاتَمٌ مِنْ فِضَّةٍ يَزْعُمُ أَنَّ فِضَّتَهُ عَمَلَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَأَنَّهُ شَاهَدَ عَمَلَهَا عَيْنَاناً، وَأَنَّهُ لَا يَشْكُ فِي ذَلِكَ.

وَأَمَّا أَصْحَابُهُ كَابِنُ رُزْعَةَ وَابْنُ الْخَمَّارِ، فَذَكَرُوا أَنَّ ذَلِكَ تَمَّ عَلَيْهِ مِنْ فَعْلٍ لَمْ يَفْطِنْ لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ اغْتَرَّه مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُخْتَالِينَ الْخَدَّاعِينَ.

وَأَمَّا شَيْخُنَا أَبُو سُلَيْمَانَ فَحَصَلَتْ مِنْ جَوَابِهِ عَلَى أَنَّهُ مُمْكِنٌ، وَلَمْ يَذْكُرْ سَبَبَ إِمْكَانِهِ وَلَا دَلِيلَ حَقِيقَتِهِ.

وأما أبو زيد البلخي - وهو سيد أهل المشرق في أنواع الحكمة فذكر أنه مُحَالٌ ولا أَضَلُّ له، وأنَّ حِكْمَةَ اللَّهِ تعالى لا توجبُ صِحَّةَ هذا الأمر، وأنَّ صِحَّتَهُ مَفْسَدَةٌ عامَّةٌ، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

وأما مِسْكَوِيَه - وها هو بين يديك - فيزعم أن الأمر حقٌ وصحيح، والطبيعة لا تمنع من إعطائه، ولكنَّ الصناعة شاقَّة، والطريق إلى إصابة المقدار عسيرة، وجمع الأسرار صعبٌ وبعيد، ولكنه غير مُمتنع؛ فقد مضى عُمرُه في الإكباب على هذا بالري أيام كان بناحية أبي الفضل وأبي الفتح ابنه مع رجل يُعرف بأبي الطيب، شاهدته ولم أحمد عقله، فإنه كان صاحبَ وسواسٍ وكذبٍ وسقط، وكان مخدوعاً في أول أمره، خادعاً في آخر عُمره.

وأبين ما سمعته في هذا الحديث أنَّ الطبيعة فوق الصناعة، وأنَّ الصناعة دون الطبيعة، وأنَّ الصناعة تشبَّه بالطبيعة ولا تكمل، والطبيعة لا تشبَّه بالصناعة وتكمل، وأنَّ الطبيعة قوَّة إلهية سارية في الأشياء واصله إليها، عاملةٌ فيها بقدر ما للأشياء من القبول والاستحالة والانفعال والمواتاة، إما على التمام، وإما على النقصان. وقيل: إنَّ الطبيعة لا تسلك إلى إبراز ما في المادة أبعد الطرق، ولا تترك أقرب الطرق، فلما كانت المعادن هي التي تُعطي هذه الجواهر على قدر المُقابلات العلوية والأشكال السماوية والمواد السفلية والكائنات الأرضية، لم يجوز أن تكون الصناعة مساوية لها، كما لم يجوز أن تكون مُستعلية عليها، لأن الصناعة بشريةٌ مستخرجةٌ من الطبيعة التي هي إلهية، ولا سبيل لقوَّة بشرية أن تنال قوَّة إلهية بالمساواة؛ فأما التشبيه والتقريب والتلبس، فيمكن أن يكون بالصناعة شيء كأنه ذهبٌ أو فضة، وليس هو في الحقيقة، لا ذهبٌ ولا فضة؛ وإذا كان ظهور القطن بالطبيعة وظهور الثوب بالصناعة فليس لهذه أن تُعرض لهذه، ولا لهذه أن تُعرض لهذه؛ والأمور موزونة، والصناعات متناهية؛ فإن ادَّعى في شيء من الصناعة ما يزيد عليها حتى تكون كأنها الطبيعة، احتيج إلى بُرْهانٍ واضح، وإلى عيانٍ مصرح، لأننا نعلم أنه ما من صناعةٍ ولا علم ولا سياسةٍ ولا نَحْلَةٍ ولا حالٍ إلا وقد حُمِلَ عليها، وزيدَ فيها وكُذِبَ من أجلها بما إذا طُلِبَتْ صحتُه بالبرهان لم تجد، أو بالعيان لم تقدر.

فأما أصحابُ الشُّكِّ ومن عُرف بالعبادة والصَّلاح؛ فقد ادَّعى لهم أن الصُّفر يُصيرُ لهم ذهباً، وشيئاً آخر يصيرُ فضة، وأن الله عزَّ وجلَّ يُزَلِّلُ لهم الجبل ويُنْزِلُ لهم القطر، ويُنبت لهم الأرض، وغير ذلك مما هو كآيات للأنبياء الذين يأتون من قِبَلِ اللَّهِ بالكتب والوصايا والأحكام والمواعظ والنصائح، وربما يسمي كثيرٌ من الناس ما يظهرُ للزُّهَّاد والعبَّاد من هذا الضرب كرامات ولا يسميها معجزات، والحقائق لا تَنقَلِبُ بالأسماء، فإن المسمَّى بالكرامة هو المسمَّى بالمعجزة والآية.

والخَوْضُ في هذا الطَّرَفِ قديم، وَفَضْلُهُ في الحقِّ شاقٌّ، والتنازُعُ فيه قائم،
والظَّنُّ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، واليقينُ غيرُ مظفور به، ولا موصولٌ إليه؛ والطبيعةُ قد أولعت
النَّاسَ بادِّعاء الغرائب، وَبَعَثَتْهُمْ على نُضْرَتِها بالرَّفْقِ والخُرْقِ، والتسهيلِ واللَّجَاجِ،
والمواتاةِ والمَحْكِ، وللهُ في طيِّ هذا العالمِ العلويِّ أسرارٌ وخفايا وغيوبٌ ومَكَامُنٌ لا
قوةَ لأحدٍ من البَشَرِ بالحِسِّ ولا بالعقلِ أَنْ يحومَ حولها، أو يبلُغَ غَمَقَها، أو يُدْرِكَ
كُنْهَها، ومن تَصَرَّفَ عَرَفَ، ومن عَرَفَ سَلِمَ، والسلام.

وحكى لنا أبو سليمان أَنَّ أَرِسْطوطاليس كتب إلى رجلٍ لم يُشْفَعْهُ في رَجُلٍ سألَهُ
الكلامَ له في حاجة: إِنْ كُنْتَ أَرَدْتَ ولم تُقَدِّرْ فمعدور، وَإِنْ كُنْتَ قَدَّرْتَ ولم تُرِدْ
فسوف يجيء وقتٌ تريد ولا تُقدِّر.

وقال بعض الحكماء: لا تُرَفِّهوا السُّفْلَةَ فيعتادوا الكَسَلَ والراحة، ولا تجرِّثوهم
فَيَطْلُبُوا السَّرَفَ والشَّعَبَ، ولا تأذِنوا لأولادِهِم في تعلُّمِ الأدبِ فيكونوا لرداءةِ أصولهم
أَذْهَنَ^(١) وأغَوَّصَ، وعلى التعلُّمِ أصْبَرَ؛ ولا جرمَ فَإِنَّهم إذا سادُوا في آخر الأمرِ خَرَبُوا
بُيُوتَ العِلْيَةِ أهل الفضائل.

وقال فيلسوف: للنفس خمسُ قُوَى: الحسُّ والوهم والذهن والاختبار والفكر.
فأما الحسُّ فَلَحاقُ الأشياءِ بلا فحص، ولا يُحتاج في ذلك اللِّحاقِ إلى شيءٍ
آخر، إلا أَنْ يكون ممنوعاً بمانع، وذلك إذا وجد شيئاً أبيضَ حَكَمَ بأنه أبيض بلا فِكر
ولا قياس.

وأما الوهم، فإنه يقع على الأشياء بتوسط الحسِّ.
وأما الاختبار فيوافق الفكر، كقولك: النفسُ لا تموت، فهذا قولٌ اختباريٌّ بعد
الفكر، فإن كان هذا هكذا فالاختبار ليس بقياس، ولكنه أَفْقُ القياس.

وأما الذَّهْنُ فإنه لا يهجم على أوائل الأشياء.
وقال آخر شبيهاً بهذا الكلام، ولا بأسَ أَنْ يكون مضموماً إليه، ليكون شمل
الفائدة أكثرَ نظاماً وأقربَ مَرَاماً.

قال: ليس للحواسِّ والحركات فِعْلٌ دونَ أَنْ تَبْعَثَها القُوَّةُ المميِّزة، فلذلك لا
يُحَسُّ السُّكْران ولا النائم، وكذلك أيضاً البهائم فإنها لا تصيحُ إلا بعدَ أَنْ يَغْرَضَ في
فِكْرَها شيء، ولا تتحرَّكُ إلا بانبعاثِ القُوَّةِ المميِّزة.

ولكل واحد من الحيوان ثلاثة أرواحٍ في ثلاثة أعضاءٍ رئيسة: نفسيةٌ في الدماغ،
وحيوانيةٌ في القلب، وطبيعيةٌ في الكبد.

(١) أي أجود ذهناً.

وفي كل واحد منها قوّةٌ مميّزةٌ بها يتم عمله، فالتّي في الدِّماغ هي العقل المميّز الحارس للبدن، ومنه ينبعث الحسُّ والحركة، والتي في القلب تنبعث منها الحرارة الغريزية في جميع البدن؛ وزعموا أن تلك الحرارة هي الرُّوح؛ والتي في الكبد هي موضع الهضم والنضج، وهي التي تنضج الطعام وتغيّره وتحيله دماً وتوزّع في كل عضو ما هو ملائم له، وبالجاذبة تجذب، وبالحابسة تحبس، وبالهاضمة تهضم، وبالدافعة تدفع.

فأما الدِّماغ فينقسم ثلاثة أقسام يخجّز بينها أغشيّة، أحدها في مقدّم الرأس موضع التخيّل، والثاني في وسط الرأس موضع العقل والفكر والتمييز، والثالث في مؤخّر الرأس موضع الحفظ والذكر والقبول؛ فكلُّ واحد مما ذكرنا يخدم الآخر، وإنّ ضَعْفَ أحدها ضَعْفٌ لضعفه الآخر، وباعتدالهنّ وسلامتهنّ قوامُ البدن والنفس.

ولكلِّ واحدٍ منها آلةٌ بها يستعين على خدمة الآخر.
قال: فكما أن الرّحى إذا نقصت شيئاً منها أو زدت أفسد الطحن؛ إمّا بزيادة أو نقصان، كذلك سائرُ خَدَمِهِ وآلاتِهِ.

وقال: الدِّماغ مَسْكَنُ الْعَقْلِ، وَخَدَمُهُ الْحَسُّ وَالْحَرَكَةُ؛ وَالْقَلْبُ مَسْكَنُ الْحَرَارَةِ الْغَرِيْزِيَّةِ، وَخَدَمُهُ الْعُرُوقُ الصُّوَارِبُ؛ وَالْكَبِدُ مَسْكَنُ النُّضْجِ وَالْهَضْمِ، وَخَدَمُهَا الْعُرُوقُ غَيْرُ الصُّوَارِبِ.

وقال: النار تُحْرِقُ، فإذا كانت موجودةً فالدُّخان والرَّمَادُ موجودان، والدُّخان رَمَادٌ لطيف، والرَّمَادُ دخانٌ كثيف.

وقال أبو سليمان: ذكر بعضُ البَحّاثين عن الإنسان أنّه جامعٌ لكلِّ ما تَفَرَّقَ في جميع الحيوان، ثم زاد عليها وَفُضِّلَ بثلاثِ خِصَالٍ: بالعقل والنظر في الأمور النافعة والصّارة، وبالمنطق لإبراز ما استفاد من العقل بوساطة النظر، وبالأيدي لإقامة الصّناعات وإبراز الصُّور فيها مماثلةً لما في الطبيعة بقوّة النفس.

ولمّا انتظّم له هذا كلّهُ جَمَعَ الْحَيْلَ وَالطَّلَبَ وَالْهَرَبَ وَالْمَكَايِدَ وَالْحَذَرَ، وهذا بَدَلُ السَّرْعَةِ وَالْخِفَّةِ التي في الحيوان، واتخذ بيده السلاح مكان الناب والمخالب والقرن، واتخذ الجُنَنَ لتكون وقايةً من الآفات، والعقل ينبوع العلم، والطبيعة ينبوع الصّناعات، والفكر بينهما قابلٌ منهما، مُؤدٌّ من بعض إلى بعض، فصوابٌ بديهية الفكر من صحّة العقل، وصوابٌ رَوْيَةُ الفكر من صحّة الطباع.

وقال أبو العباس: الناس في العلم على ثلاثِ درجات، فواحد يُلْهِمُ فَيَعْلَمُ فيصير مَبْدَأً، والآخر يتعلّم ولا يُلْهِمُ فهو يُوَدِّي ما قد حَفِظَ، والآخر يُجْمَعُ له بين أن يُلْهِمَ وأن يتعلّم. فيكون بقليل ما يتعلّم كثيراً بقوّة ما يُلْهِمُ.

وقال: الإنسان بين طبيعته - وهي عليه - ونفسه - وهي له - منقسّم؛ فإن اقتبس من العقل قوًى ثوره ما هو له من النفس، وأضعف ما هو عليه من الطبيعة، فإن لم يكن يقتبس بقي حيراناً أو متهوراً.

وقال سُقراط: الكلام اللطيف، ينبو عن الفهم الكثيف.

وحكى لنا أبو سليمان قال: قيل لفيلسوف: ما بال المريض إذا داواه الطبيب ودخل عليه فرح به وقبل منه وكافاه على ذلك، والجاهل لا يفعل ذلك بالعالم إذا علمه ويبن له؟ فقال: لأن المريض عالم بما عند الطبيب، وليس الجاهل كذلك، لأنه لا يعلم ما عند العالم.

وقال ديوجانس لصاحبه: أما تعلم أن الحمام إذا كان سمائياً كان أغلى ثمناً، وإذا كان أرضياً كان أقل ثمناً.

قال - أبقاه الله: - هذا مثل في غاية الحُسن والوضوح.

وقال ديوجانس: المأكول للبدن، والموهوب للمعاد، والمحفوظ للعدو.

وقال فيلسوف: التهاون باليسير أساس للوقوع في الكثير.

وقال أفلاطون: مثل الحكيم كمثل النملة تجمع في الصيف للشتاء، وهو يجمع في الدنيا للآخرة.

وقال فيلسوف: من يصف الحكمة بلسانه ولم يتحل بها في سره وجهه فهو في المثل كرجل رزق ثوباً فأخذ بطرفه فلم يلبسه.

وقال السيد المسيح: إن استطعت أن تجعل كنزك حيث لا يأكله السوس، ولا تدركه اللصوص، فافعل.

قال فيلسوف: إذا نازعك إنسان فلا تجبه، فإن الكلمة الأولى أنثى وإجابتها فخلها، وإن تركت إجابتها بترتها وقطعت نسلها، وإن أجبتها ألقتها؛ فكم من ولد يئمو بينهما في بطن واحد.

وقال فيلسوف: إن البعوضة تخيا ما جاءت وإذا شبعَت ماتت.

وقال ديوجانس: إن تكن ملحاً يضلح، فلا تكن ذباباً يُفسد.

وقيل لديوجانس: من أين تأكل؟ فقال: من حيث يأكل عبد له رب.

وقال ديوجانس: كن كالعروس تريد البيت خالياً.

قيل لأرسطوطاليس: إن فلاناً عاقل. قال: إذا لا يفرح بالدنيا.

وقيل لفيثاغورس: ما أملك فلاناً لنفسه! قال: إذا لا تصرعه شهوته، ولا تخدعه لذته.

وقيل لأسقليبوس: فلان له همّة. قال: إذا لا يَرْضَى لِنَفْسِهِ بدون القَدْرِ.

ومَدَحَ رجل ثيودوروس على زُهدِهِ في المال قال: وما حاجتي إلى شيءٍ البَخْتِ يأتي به، واللؤمُ يَحْفَظُهُ، والنفقةُ تُبَدِّدُهُ، إنَّ قَلَّ غَلَبَكَ الهمُّ بتكثيرِهِ، وإن كَثُرَ تَقَسَّمَكَ في حِفْظِهِ، يَخْسُدُكَ من فَاتِهِ ما عِنْدَكَ.

وَيَخْدَعُكَ عَنْهُ من يَطْمَعُ فِيهِ مِنْكَ.

وقال سُقراط: ما أَجِبُ أن تكون النفسُ عالمةً بكل ما أَعَدَّ لها؛ قيل: ولم؟ قال: لأنها لو عَلِمَتْ طارت فَرَحاً ولم يُتَنَفَّعْ بها.

وقال ديوجانس: القلبُ ذو لطافة، والجسمُ ذو كثافة، والكثيفُ يَحْفَظُ اللطيفَ كَضَوْءِ المِصْبَاحِ في القِنْدِيلِ.

وقال أفلاطون: العِلْمُ مِصْبَاحُ النفسِ، ينفي عنها ظِلْمَةَ الجهلِ، فما أُمَكَّنَكَ أن تُضَيِّفَ إلى مِصْبَاحِكَ مِصْبَاحَ غَيْرِكَ فافْعَلْ.

قال أبو سليمان: ما أَحَسَّنَ المِصْبَاحِ إذا كان زجاجُهُ نَقِيًّا، وضوؤه ذَكِيًّا، وَزَيَّتُهُ قَوِيًّا، وَذُبَالُهُ سَوِيًّا.

قيل لسقراط: ما أَحَسَّنَ بالمرء أن يتعلَّمَهُ في صِغَرِهِ؟ قال: ما لا يَسَعُهُ أن يَجْهَلَهُ في كِبَرِهِ.

قال أبو سليمان: ومن ههنا أَخَذَ مَنْ قال: يَحْسُنُ بالمرءِ التعلُّمُ ما حَسُنَتْ به الحياة.

قيل لهوميروس: ما أَضْبَرَكَ على عَيْنِ الناسِ لك! قال: لَأَنَا اسْتَوَيْنَا في العَيْبِ، فَأَنَا عِنْدَهُمْ مِثْلُهُمْ عِنْدِي.

وقيل للإسكندر: أي شيء أنت به أَسْرُ؟ قال: قُوَّتِي على مكافأة من أَحَسَّنَ إِلَيَّ بأَحْسَنَ مِنْ إِحْسَانِهِ.

وقال ديوجانس: إنَّ إِقْبَالَكَ بالحديث على مَنْ لا يَفْهَمُ عَنْكَ بمنزلة من وَضَعَ المائدةَ على مَقْبَرَةٍ.

ورأى دِيُوجَانِسَ رجلاً يأكل ويتذرَّع ويُكثِرُ، فقال له: يا هذا، ليست زيادة القوة بكثرة الأكل، وربما وَرَدَ على بَدَنِكَ من ذلك الضررُ العظيم، ولكنَّ الزيادةَ في القوةَ بجودة ما يقبل بَدَنُكَ منه على الملاءمة.

وقال ديوجانس: الذهبُ والفضَّةُ في الدار بمنزلة الشَّمْسِ والقمر في العالم.

قال أبو سليمان: هذا مليح، ولكن ينبغي أن تَبْقَى الشمس والقمر فإنهما يُكسِفان فيكونان سبباً لفساد كثير، ويدوبان^(١) ويُحْمَيان فيكونان ضارَّين.

وقال أفلاطون: موت الرؤساء أصلح من رآسة السفلة.

وقال: إذا بخل المَلِكُ بالمال كثر الإرجاف به.

وقال سولون: العلمُ صغيرٌ في الكَمِّيَّة، كبيرٌ في الكيفيَّة.

وقال أبو سليمان: يعني أن القليل منه إذا استعملته على وجه كان له إتاء ونفع فائض وذرٌّ سائخ، وغايةٌ محمودة، وأثرٌ باق. وهذه كلها كيفياتٌ من تلك الكَمِّيَّة.

وقال أفلاطون: لا يَسُوسُ النفوسَ الكثيرةَ على الحقِّ والواجبِ من لا يُمكنُهُ أن يَسُوسَ نفسه الواحدة.

وقال سُقراط: النَّفسُ الفاضلةُ لا تَطْعَى بالفَرْح، ولا تجزَعُ من التَّرح، لأنها تنظر في كلِّ شيء كما هو، لا تسلُّبه ما هو له ولا تُضَيِّفُ إليه ما ليس منه؛ والفَرْحُ بالشيء إنما يكون بالنَّظَرِ في محاسن الشيء دون مساوئه، والتَّرحُ إنما يكون بالنظر في مساوئ الشيء دون محاسينه؛ فإذا خَلَصَ النظرُ من شَوْبِ الغلط فيما يُنظر فيه انتفى الطُّغْيَانُ والجزع، وحَصَلَ النظامُ وربيع^(٢).

قال ديوجانس: ينبغي للإنسان أن يُنظر في المرأة، فإن كان وجهه حسناً استَقْبَحَ أن يُضَيِّفَ إليه فعلاً قبيحاً، وإن كان وجهه قبيحاً امتنعَ أن يضيف قبيحاً إلى قبيح حتى يتضاعف القُبْح.

وقال إبقراط: منزلة لطافة القلب في الأبدانِ بِمَنْزِلَةِ لطافة الناظر في الأجفان.

وقال: للقلبِ آفتان، وهما: الغمُّ والهَمُّ، فالغمُّ يَعْرِضُ منه النَّومُ، والهَمُّ يعرض منه السَّهَرُ، وذلك أن الهَمَّ فكَرٌّ في الخَوْفِ مما سيكون، فمِنه يَغْلِبُ السَّهَرُ؛ والغَمُّ لا فكَرَ فيه، لأنه إنما يحدث لما قد مضى وكان.

وقال أفلاطون: من يصحب السلطانَ فلا يَجْزَعُ من قسوته، كما لا يَجْزَعُ العَوَاضُ من مُلُوحة البَحْرِ.

قال أبو سليمان: هذا كلامٌ ضرُّه أكثرُ مِنْ نفعه، وإِثْمًا نَفَقَه صاحبه بالِمِثَال، والمِثَالُ يَسْتَجِيبُ للحَقِّ كما يَسْتَجِيبُ للباطل، والمعوَّل على ما ثَبَتَ بالدليل، لا على ما يُدَّعى بالتمثيل، وقد يَجِبُ أن يُجْتَنَّبَ جانبُ السلطان بغاية الاستطاعة والإمكان، إلا إذا كان الدهرُ سليماً من الآفات الغالبة. فقال له الأندلسي: وما صورةُ الزمان

(١) أي الذهب والفضة.

(٢) أي ثبت ودام.

الخالي من الآفات؟ فقال: أن يكون الدين طرياً، والدولة مقبلة، والخضبُ عامًا، والعلمُ مطلوباً، والحكمة مَـزْغوباً فيها، والأخلاق طاهرة، والدعوة شاملة، والقلوب سليمة، والمعاملات متكافئة، والسياسة مغروسة، والبصائر متقاربة. فقال: هذا لو صَحَّ لارتَفَعَ الكونُ والفساد اللذان هما سوسُ هذا المكان، فقال: غلظت يا أبا عبد الله، فإن الكونَ والفسادَ يكونان على حالهما، ولكنهما يقعان على مَـعْلُومَيْنِ للصورة الثابتة، والسياسة العامة الغالبة، كأنك لا تحس بالفرق بين زمان خِضْب الأرض وجَذْبِها؛ وكما أنَّ للأرض خِضْباً وجَذْباً؛ كذلك للأحوال والأديان وللدول صلاحٌ وفساد، وإقبالٌ وإدبار، وزيادةٌ ونقصان؛ ولو كان ما خِلْتَه لازماً، لكُنَّا لا نَتَمَنَّى مَلِكاً عادلاً، ولا سائساً فاضلاً، ولا ناظراً ناظماً، ولا مدبراً عالماً؛ وكان هذا لا يُعْرَف ولا يُعْهَد، ويكون في عُرضِ المُحال كَوْنُهُ ووجْدانُهُ؛ وليس الأمر هكذا فقد عَهِدْنَا مِثْلَ أَبِي جَعْفَرٍ بسجستان، وكان واللَّهِ بَصِيراً خبيراً، عالماً حكيماً، يَقْظاً حَذِراً، يَخْلُقُ وَيُفْري، وَيَرِيشُ وَيَنْبِري، وَيَكْسُو وَيُغْري، وَيُفْرَضُ وَيُبْري، وهكذا مِثْلُ أَبِي جَعْفَرٍ بِالْأَمْسِ مَلِكِ الْعِراقِ فِي حَزَامَتِهِ وَصِرَامَتِهِ وَقيامِهِ فِي جميعِ أُمُورِهِ، بَنَظَرِهِ وَتدبيرِهِ؛ وكذلك قد عَهِدَ النَّاسُ قَبْلَنَا مِثْلَ هذا، فَلِمَ يَقَعُ التَّعْجُبُ مِنْ شَيْءٍ عَلَيْهِ مَدَارُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

وقال ديوجانس لصاحب له: اطلُبْ في حَيَاتِكَ هذه؛ العلمَ والمالَ، تَمْلِكْ بهما النَّاسَ، لأنك بين الخاصَّة والعامة، فالخاصَّة تعظُمُكَ لِفَضْلِكَ، والعامة تعظُمُكَ لِمَالِكَ^(١).

وقال أفلاطون: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْدِرُ مَا يُعْطِي مِنَ الْحِكْمَةِ يَمْنَعُ الرِّزْقَ؛ قال أبو سليمان: لأنَّ الْعِلْمَ وَالْمَالَ كضَرْتَيْنِ قَلَمًا يَجْتَمِعَان وَيَضْطَلِحَان، ولأنَّ حَظَّ الْإِنْسَانِ مِنَ الْمَالِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ النَّفْسِ الشَّهْوِيَّةِ وَالسَّبْعِيَّةِ، وَحَظُّهُ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ قَبِيلِ النَّفْسِ الْعَاقِلَةِ، وَهَذَانِ الْحِطَّانُ كَالْمَتَعَانِدَيْنِ وَالضُّدَّيْنِ. قال: فيجب على الحَـصِيفِ وَالْمَمِيزِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْعَالِمَ أَشْرَفُ فِي سِنِّهِ وَعَنْصَرِهِ، وَأَوَّلُهُ وَأَخْرَهُ، وَسَفَرُهُ وَخَضَرُهُ، وَشَهَادَتُهُ وَمَغْيِيهِ مِنْ ذِي الْمَالِ؛ فَإِذَا وَهَبَ لَهُ الْعِلْمُ فَلَا يَأْسَ عَلَى الْمَالِ الَّذِي يُجْزِي مِنْهُ الْيَسِيرَ، وَلَا يُلْهِبُ نَفْسَهُ عَلَى فُوتِهِ حَسْرَةً وَأَسْفًا؛ فَالْعِلْمُ مُدَبِّرٌ، وَالْمَالُ مُدَبَّرٌ؛ وَالْعِلْمُ نَفْسِي، وَالْمَالُ جَسَدِي، وَالْعِلْمُ أَكْثَرُ خُصُوصِيَّةً بِالْإِنْسَانِ مِنَ الْمَالِ، وَأَقَاتَ صَاحِبُ الْمَالِ كَثِيرَةً وَسَرِيعَةً، لَأَنَّكَ لَا تَرَى عَالِماً سَرِقَ عِلْمُهُ وَتَرَكَ فَقِيراً مِنْهُ؛ وَقَدْ رَأَيْتَ جَمَاعَةً سُرِقَتْ أَمْوَالُهُمْ وَنُهِبَتْ وَأُخِذَتْ، وَبَقِيَ أَصْحَابُهَا مُحْتَاجِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ؛ وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الْإِنْفَاقِ، وَيَضْحَبُ صَاحِبَهُ عَلَى الْإِمْلَاقِ؛ وَيَهْدِي إِلَى الْقَنَاعَةِ، وَيُسَبِّلُ السُّرَّ عَلَى الْفَاقَةِ؛ وَمَا هَكَذَا الْمَالُ.

(١) في نسخة: فالخاصة تفضلك بما تعلم، والعامة تعظمك بما تملك.

الليلة الثامنة عشرة

وقال مَرَّةً: تعالَ حَتَّى نَجْعَلَ لَيْلَتَنَا هَذِهِ مُجُونِيَّةً، وَنَأْخُذَ مِنَ الْهَزْلِ بِنَصِيبٍ وَافِرٍ، فَإِنَّ الْجِدَّ قَدْ كَدَّنَا، وَنَالَ مِنْ قُوَانَا، وَمَلَأْنَا قَبْضاً وَكَرْباً هَاتِ مَا عِنْدَكَ.

قُلْتُ: قَالَ حَسَنُونَ الْمَجْنُونُونَ بِالْكُوفَةِ يَوْمًا - وَقَدْ اجْتَمَعَ إِلَيْهِ الْمُجَانُ يَصِفُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لَذَاتِ الدُّنْيَا - فَقَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَصِفُ مَا جَرَّبْتُهُ؛ فَقَالُوا: هَاتِ؛ فَقَالَ: الْأَمْنُ وَالْعَافِيَةُ، وَصَفْعُ الصُّلْعِ الرُّزْقِ، وَحَكُّ الْجَرْبِ، وَأَكْلُ الرُّمَانِ فِي الصَّيْفِ، وَالطَّلَاءُ فِي كُلِّ شَهْرَيْنِ، وَإِتْيَانُ النِّسَاءِ الرُّغْنِ وَالصَّبِيَانِ الرُّغْرِ^(١)، وَالْمَشْيُ بِلَا سَرَاوِيلَ بَيْنَ يَدَيَّ مِنْ لَا تَحْتَشِمُهُ، وَالْعَزْبَدَةُ عَلَى الثَّقِيلِ، وَقَلَّةُ خِلَافٍ مِنْ تَحِبُّهُ وَالتَّمَرُّسُ بِالْحَمَقَى وَمُؤَاخَاةُ ذَوِي الْوَفَاءِ، وَتَرْكُ مَعَاشِرَةِ السُّفْلَةِ وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَضْبَحْتُ مِنْ سُفْلِ الْأَنَامِ	إِذِ بَغْتُ عِزْضِي بِالطَّعَامِ
أَضْبَحْتُ صَفْعَاناً لَكِيٍّ	مَ النَّفْسِ مِنْ قَوْمٍ لَثَامِ
فِي اسْتِ أُمِّ رِبَاتِ الْخِيَامِ	وَمَنْ يَجُنُّ إِلَى الْخِيَامِ
نَفْسِي تَحَنُّ إِلَى الْهَلَا	مِ الْمَوْتُ مِنْ دُونِ الْهُلَامِ
مِنْ لَحْمٍ جَذِي رَاضِعٍ	رَخِصِ الْمَفَاصِلِ وَالْعِظَامِ
هَذَا لِأَوْلَادِ الْخَطَا	يَا وَالْبَغَايَا وَالْحَرَامِ
حَيِّ الْقُدُورِ الرَّأْسِيَا	تِ وَإِنْ صَمِمْنَ عَنِ الْكَلَامِ
وَقِصَاعُهُنَّ إِذَا أَتِيَا	نَكَ طَافِحَاتِ بِالسِّنَامِ
لَهْفِي عَلَى سَكَبَاجَةٍ	تَشْفِي الْقُلُوبَ مِنَ السَّقَامِ
يَا عَاذِلِي أَسْرَفْتُ فِي	عَذْلِ الْخَلِيعِ الْمُسْتَهَامِ
رَجُلٍ يَعْضُ إِذَا نَصَحَ	تَ لَهُ عَلَى فَأْسِ اللَّجَامِ
دَغَ عَذْلَ مَنْ يَغْصِي الْعَذُو	لَ وَلَا يُصِيخُ إِلَى الْمَلَامِ
خَلَعَ الْعِذَارَ وَرَاحَ فِي	ثُوبِ الْمَعَاصِي وَالْأَثَامِ
شَيْخٍ يُصَلِّي قَاعِداً	وَيَنْيِكُ عَشْرًا مِنْ قِيَامِ

(١) جمع أزرع، وهو الذي لا شعر له.

وَيَعَاْفُ نَيْكَ الْغَايَا تِ وَيَشْتَهِي نَيْكَ الْغُلَامِ
وَتَرَاهُ يُزْعَدُّ حِينَ يُذ كُرْ عِنْدَهُ شَهْرُ الصَّيَامِ
خَوْفًا مِنَ الشَّهْرِ الْمَعْدُ بِ نَفْسِهِ فِي كُلِّ عَامِ
سَلِسُ الْقِيَادِ إِلَى التَّصَا بِي وَالْمَلَاهِي وَالْحَرَامِ
مَنْ لِلْمُرُوَّةِ وَالْفُتُ وَةٌ بَعْدَ مَوْتِي وَالنُّدَامِ
مَنْ لِلسَّمَا حِ وَلِلرُّمَا حَ لَدَى الْهَزَاهِزِ وَالْحُسَامِ
مَنْ لِللَّوَا طِ وَلِلْحَلَا قِ وَلِلْمُلِمَاتِ الْعِظَامِ

كان محمد بن الحسن الجرجاني متقرباً في كلامه، فدخل الحمام يوماً، فقال للقيّم: أين الجليلة التي تسلخ بها الضويطة من الإخفيق^(١)؟ قال: فصنع القيم قفاه بجلدة الثورة وخرج هارباً، فلما خرج من الحمام وجه إلى صاحب الشرطة، فأخذ القيم وحبه، فلما كان عشاء ذلك اليوم كتب إليه القيم رُفعة يقول فيها: قد أبرمني المحبوسون بالمسألة عن السبب الذي حبست له، فأما خلّيتني وإما عرفتهم. فوجه من أطلقه، واتصل الخبر بالفتح، فحدث المتوكل، فقال: ينبغي أن يغنى هذا القيم عن الخدمة في الحمام. وأمر له بمائتي دينار.

قال: وكان بالبصرة مخنث يجمع ويعشق بعض المهالبة، فلم يزل المخنث به حتى أوقعه، قال: فلقيته من غد فقلت له: كيف وقعة الجفرة^(٢) عندكم البارحة؟ فقال: لما تدانت الأشخاص، ورقّ الكلام، والتفت الساق بالساق، ولطخ باطنها بالبزاق، وقرع البيض بالذكور، وجعلت الرماح تمور^(٣)؛ صبر الكريم فلم يجزع، وسلم طائعا فلم يخذع؛ ثم انصرف القوم على سلم، بأفضل غنم؛ وشفيت الصدور، وسكنت حرارة النفوس، ومات كل وجد، وأصيب مقتل كل هجر، واتصل الحبل، وانعقد الوصل. قال: فلو كان أعد هذا الكلام لمسألتي قبل ذلك بدهر لكان قد أجاد.

وقال أبو فرعون الشاشي:

أنا أبو فرعون فاغرف كُنيتي حلّ أبو عمرة وسط حُجرتي
وحلّ نسج العنكبوت بُرمتي أعشب ثُوري وقلت حنطتي

(١) الضويطة: الحمامة في أصل الحوض. والأخفيق: الشق في الأرض ولعله أراد التي يزال بها الرسخ من الجسد.

(٢) موضع بالبصرة، حدث به وقعة سنة سبعين بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير، وكان النصر فيها لأهل البصرة، ودامت هذه الوقعة أربعين يوماً. وفي الكلام تورية.

(٣) الذكور: السيوف، والبيض: التي تلبس على الرأس في الحرب، وتمور تضرب. وفي الكلام تورية كما لا يخفى.

وَحَالَفَ الْقَمْلُ زَمَاناً لِحَيَّتِي وَضَعَفْتُ مِنَ الْهَزَالِ ضَرْطَتِي
وَصَارَ ثُبَانِي^(١) كَفَافَ خُضْيَتِي أَيْرُ جِمَارٍ فِي حِرَامٍ عَيْشَتِي
أَبُو عَمْرَةَ: صَاحِبُ شُرْطَةِ الْمُخْتَارِ بْنِ عُبَيْدٍ، كَانَ لَا يَنْزِلُ بِقَوْمٍ إِلَّا اجْتَا حُهُمُ،
فَصَارَ مَثَلًا لِكُلِّ شَوْمٍ وَشَرٍّ. وَيُقَالُ أَيْضًا: إِنَّ أَبَا عَمْرَةَ اسْمُ الْجَوْعِ، هَكَذَا حَدَّثَنِي بِهِ أَبُو
الْحَسَنِ الْبَصْرِيُّ.

وَأَنْشَدَ بِشَرِّ بْنِ هَارُونَ فِي أَبِي طَاهِرٍ:
أَبَا عَبْدِ الْإِلَهِ وَأَنْتَ حُرٌّ مِنَ الْأَخْرَارِ مَنْزُوعُ الْقِلَادَةِ
سَأَلْتُكَ بِالْإِلَهِ لِتُخْبِرْتَنِي أَجْهَلُكَ مُسْتَفَادٌ أَمْ وَلَادَةٍ
فَإِنْ يَكُ فِيكَ مَوْلُودًا فَعُذِّرْ وَإِنْ يَكُ حَدِيثًا لَكَ بِاسْتِفَادَةٍ
فَوَاعِجِبْ أَيْزِيدُ النَّاسُ فَضْلًا وَأَنْتَ تَزِيدُ نَقْصًا بِالزِّيَادَةِ!
حَكَى الصُّوْلِيُّ: حَدَّثَنَا مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ قَالَ: كَانَ مَعَنَا مَخْنَثٌ يَلْقُبُ مِشْمِشَةً -
وَكَانَ أُمِّيًّا - فَكَتَبَ بِحَضْرَتِهِ رَجُلٌ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ كِتَابًا، فَقَالَ الْمَخْنَثُ: اكْتُبْ إِلَيْهِ:
مِشْمِشَةُ يقرأ عَلَيْكَ السَّلَامُ؛ فَقَالَ: قَدْ فَعَلْتُ - وَمَا كَانَ فَعَلَ - فَقَالَ: أَرْنِي؛ فَقَالَ: هَذَا
اسْمُكَ؛ فَقَالَ: هَيْهَاتَ، اسْمِي فِي الْكِتَابِ شَيْبَةُ دَاخِلِ الْأُذُنِ، فَعَجَبْنَا مِنْ جَوْدَةِ تَشْبِيهِهِ.
قَالَ نَضْلَةُ: مَرَزَتْ بِكَتَّاسِينَ أَحَدُهُمَا فِي الْبُئْرِ وَالْآخَرُ عَلَى رَأْسِ الْبُئْرِ؛ وَإِذَا ضَجَّعَتْ،
فَقَالَ الَّذِي فِي الْبُئْرِ: مَا الْخَبَرُ؟ فَقَالَ: قُبِضَ عَلَى عَلِيٍّ بْنِ عَيْسَى؟ فَقَالَ: مَنْ أَقْعَدُوا بِذَلِكَ؟
قَالَ: ابْنُ الْفُرَاتِ؛ قَالَ: قَاتِلَهُمُ اللَّهُ، أَخَذُوا الْمُضْحَفَ، وَوَضَعُوا بِدَلَهُ الطَّنْبُورَ.

كَتَبَ أَبُو الْعَيْنَاءِ ابْنَ مَكْرَمٍ: قَدْ أَصْبَحْتُ لَكَ غَلَامًا مِنْ بَنِي نَاعِظٍ، ثُمَّ مِنْ بَنِي
نَاشِرَةٍ، ثُمَّ مِنْ بَنِي نَهْدٍ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ: اثْنَيْنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ.

وَقَدَّمَ رَجُلٌ مَعَ امْرَأَةٍ إِلَى الْقَاضِي وَمَعَهَا طِفْلٌ، فَقَالَتْ: هَذَا ابْنُهُ، فَقَالَ الرَّجُلُ:
أَعَزَّ اللَّهُ الْقَاضِيَّ مَا أَعْرَفُهُ؛ فَقَالَ الْقَاضِي: أَتَى اللَّهُ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «الْوَلَدُ
لِلْفِرَاشِ، وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ»^(٢)، فَهَذَا وَأُمُّهُ عَلَى فِرَاشِكَ؛ قَالَ الرَّجُلُ: مَا تَنَائِكُنَا إِلَّا فِي

(١) الثِّبَانُ: سُرُوَالٌ صَغِيرٌ يَسْتُرُ الْعُورَةَ الْمَغْلُظَةَ.

(٢) رَوَى الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: ٣ - بَابُ: تَفْسِيرُ الْمَشَبَهَاتِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ: ١٩٤٨ - عَنْ
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: كَانَ عَتَبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ، عَهْدَ إِلَى أَخِيهِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ: أَنْ
ابْنَ وَلِيدَةٍ زَمْعَةَ مَنِي فَاقْبِضْهُ، قَالَتْ: فَلَمَّا كَانَ عَامَ الْفَتْحِ أَخَذَهُ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ وَقَالَ: ابْنُ
أَخِي، قَدْ عَهْدَ إِلَيَّ فِيهِ، فَقَامَ عَبْدُ بْنُ زَمْعَةَ فَقَالَ: أَخِي وَابْنُ وَلِيدَةٍ أَبِي، وَلَدَ عَلَى فِرَاشِهِ،
فَتَسَاوَقَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْنُ أَخِي، كَانَ قَدْ عَهْدَ إِلَيَّ فِيهِ. فَقَالَ عَبْدُ
بْنَ زَمْعَةَ: أَخِي وَابْنُ وَلِيدَةٍ أَبِي، وَلَدَ عَلَى فِرَاشِهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُوَ لَكَ يَا عَبْدُ بْنُ
زَمْعَةَ». ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرِ». ثُمَّ قَالَ لِسُودَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ، زَوْجٌ =

الاست، فَمِنْ أَيْنَ لِي وَلَدٌ؟ فقالت المرأة: أعزَّ الله القاضي؛ قل له: ما رأيت؟ يُعرِّفه^(١)؛ فكفَّ الرَّجُلُ، وأخذَ بيدَ ولده وانصرف.

قال: وسمعتُ آخرَ يقول لشاطر^(٢): أَسْكُتْ، فَإِنَّ نَهْرًا جَرَى فِيهِ الْمَاءُ لَا بَدَأَ أَنْ يَعودَ إِلَيْهِ. فقال له الآخر: حتى يعود إليه الماء تكون قد مَاتَتْ صَفَادُغُهُ.

ومن كلام الشُّطَّار: أَنَا الْبَغْلُ الْحَرُونَ، وَالْجَمَلُ الْهَائِجُ، أَنَا الْفِيلُ الْمُغْتَلِمُ لَوْ كَلَّمَنِي عَدُوِّي لَعَقَدْتُ شَعْرَ أَفْئِهِ إِلَى شَعْرِ أَسْتِهِ حَتَّى يَسْمُ فُسَاءَهُ، كَأَنَّهُ الْقُنْفُذَةُ.

وقال بعضُ القُصَّاص: فِي التَّبِيدِ شَيْءٌ مِنَ الْجَنَّةِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ﴾ [فاطر: ٣٤] وَالتَّبِيدُ يُذْهِبُ الْحَزْنَ.

قال وَسُمِعَتْ مَاجَنَةٌ تَقُول: ضُرَّ وَسْرٌ، وَقَدْ وَازُقْدُ، وَاطْرُخْ وَاقْتَرِخْ.

قال ابن أبي طاهر: دَعَا مُرَّةٌ قَوْمًا وَأَمَرَ جَارِيَتَهُ أَنْ تَبْخُرَهُمْ، فَأَدْخَلَتْ يَدَهَا فِي ثَوْبٍ بَعْضَهُمْ فَوَجَدَتْ أَثَرَهُ قَائِمًا، فَجَعَلَتْ تَمْرُسُهُ وَتَلْعَبُ بِهِ وَأَطَالَتْ؛ فَقَالَ مَوْلَاهَا: أَيُّشٍ آخِرُ هَذَا الْعُودِ؟ أَمَا أَخْتَرَقَ؟ قَالَتْ: يَا مَوْلَايَ، هُوَ عُقْدَةٌ.

قال مُزْبَدٌ: كَانَ الرَّجُلُ فِيمَا مَضَى إِذَا عَشِقَ الْجَارِيَةَ رَاسَلَهَا سَنَةً، ثُمَّ رَضِيَ أَنْ يَمْنُضَعَ الْعِلْكَ الَّذِي تَمْنُضُغُهُ، ثُمَّ إِذَا تَلَاقَا تَحَدَّثَا وَتَنَاشَدَا الْأَشْعَارَ، فَصَارَ الرَّجُلُ الْيَوْمَ إِذَا عَشِقَ الْجَارِيَةَ لَمْ يَكُنْ لَهُ هَمٌّ إِلَّا أَنْ يَرْفَعَ رِجْلَهَا كَأَنَّهُ أَشْهَدَ عَلَى نِكَاحِهَا أَبَا هُرَيْرَةَ.

قال ابن سيرين: كَانُوا يَعْشَقُونَ مِنْ غَيْرِ رِيَّةٍ، فَكَانَ لَا يُسْتَنْكَرُ مِنَ الرَّجُلِ أَنْ يَجِيءَ فَيَحْدُثُ أَهْلَ الْبَيْتِ ثُمَّ يَذْهَبُ. قال هشام: وَلَكِنَّهُمْ لَا يَرْضَوْنَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالْمَوَاقِعَةِ.

قل الأصمعي: قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ: هَلْ تَعْرِفُونَ الْعَشْقَ بِالْبَادِيَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ، أَيْكُنْ أَحَدًا لَا يَعْرِفُهُ. قُلْتُ: فَمَا هُوَ عِنْدَكُمْ؟ قَالَ: الْقُبْلَةُ وَالضُّبَّةُ وَالشَّمَّةُ، قُلْتُ: لَيْسَ هُوَ هَكَذَا عِنْدَنَا. قَالَ: وَكَيْفَ هُوَ؟ قُلْتُ: أَنْ يَتَفَخَّذَ الرَّجُلُ الْمَرَّةَ فَيُبَاضِعُهَا. فَقَالَ: قَدْ خَرَجَ إِلَى طَلَبِ الْوَلَدِ.

= النبي ﷺ: «احتجبي منه». لما رأى من شبهه بعتبة، فما رآها حتى لقي الله. وأخرج مسلم في صحيحه كتاب الرضاع، ١٠ - باب: الولد للفراش وتوفي الشبهات، رقم ١٤٥٧/٣٦.

(ابن وليدة زمعة) الوليدة الجارية والأمة وإن كانت كبيرة، والولد المتنازع فيه هو عبد الرحمن بن زمعة، وزمعة بن قيس والد سودة رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ. (ولد على فراشه) أي من امرأة كانت موطوءة له. (فتساوقا) ذهبا إليه يسوق كل منهما الآخر ليرافعا عنده. (الولد للفراش) الولد تابع لصاحب الفراش، وهو من كانت المرأة موطوءة له حين الولادة. (العاهر للحجر) للزاني الخيبة والحرمان ولا حق له في الولد، والعرب تكني عن حرمان الشخص بقولها: له الحجر وله التراب.

(١) أي يعرف ما رأى.

(٢) من أعيا أهله عبثاً.

قال بِشْرُ بْنُ هَارُونَ:

إِنْ أَبَا مُوسَى لَهُ لِحْيَةٌ تَدْخُلُ فِي الْجُحْرِ بِلَا إِذْنٍ
وَصُورَةٌ فِي الْعَيْنِ مِثْلُ الْقَذَى وَنَغْمَةٌ كَالْوَقْرِ فِي الْأَذْنِ
كَمْ صَفْعَةٍ صَاحَتْ إِلَى صَافِعٍ بِالنَّعْلِ مِنْ أَخْدَعِهِ: خُذْنِي
وَقَالَ لَنَا أَبُو يَوْسُفَ: قَالَ جَحْظَةُ: حَضَرْتُ مَجْلِسًا فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ وُجُوهِ الْكِتَابِ،
وَعِنْدَنَا قَيْتَةُ مُحَسَّنَةُ حَاضِرَةُ النَّادِرَةِ، فَقَالَ لَهَا بَعْضُهُمْ: بِحَيَاتِي عَلَيْكَ عَنِّي لِي:

لَسْتُ مِنِّي وَلَسْتُ مِنْكَ فَدَعْنِي وَأَمْضِ عَنِّي مُصَاحِبًا بِسَلَامٍ
فَقَالَتْ: أَهْكَذَا كَانَ أَبُوكَ يَغْنِيكَ؟ فَأَخْبَلَتْهُ.
اشْتَرَى مَدِينِي رُطْبًا، فَأَخْرَجَ صَاحِبُ الرُّطْبِ كَيْلَجَةً صَغِيرَةً لِيَكِيلَ بِهَا، فَقَالَ
الْمَدِينِي: وَاللَّهِ لَوَكِلْتُ بِهَا حَسَنَاتٍ مَا قَبِلْتُهَا.
سَأَلَ أَبُو عُمَارَةَ قَاضِي الْكُوفَةِ: أَيُّ بَنِيكَ أَثْقَلُ؟ قَالَ: مَا فِيهِمْ بَعْدَ الْكَبِيرِ أَثْقَلُ مِنَ
الصَّغِيرِ إِلَّا الْأَوْسَطُ.

اجْتَمَعَ جَمَاعَةٌ عِنْدَ جَامِعِ الصَّيْدِنَانِي، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: لَيْسَ لِلْمَخْمُورِ أَنْفَعُ مِنْ
سَلَحِهِ، فَقَالَ جَامِعٌ: أَخَذْتُهَا وَاللَّهِ مِنْ قَمِي.

قَالَ رَجُلٌ لِرَوْبَةٍ: أَتَهْمِزُ الْخُرَأُ؟ قَالَ: بِإِضْبَعِكَ يَا بَنَ الْخَبِيثَةِ.

وَقَفَ أَغْرَابِيٌّ عَلَى قَوْمٍ يُسَائِلُهُمْ، فَقَالَ لِأَحَدِهِمْ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: مَانِعٌ؛ وَقَالَ
لِلْآخَرِ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: مُحْرَزٌ؛ وَقَالَ لِلْآخَرِ: مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: حَافِظٌ؛ قَالَ: قَبِّحْكُمْ
اللَّهُ، مَا أَظُنُّ الْأَقْفَالَ إِلَّا مِنْ أَسْمَائِكُمْ.

مِنْ كَلَامِ الْعَامَّةِ: «مَنَارَةُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ عِنْدَكَ خَشْخَاشَةٌ فَارِغَةٌ...».

قَالَ جَحْظَةُ: قَرَأْتُ عَلَى فَصٍّ مَاجِنَةٍ: لَيْلَةُ غُرْسِي؛ ثَقَبُوا بِالْأَيْرِ كُسِّي. وَعَلَى
فَصٍّ مَاجِنَةٍ أُخْرَى: السَّحْقُ أَخْفَى وَالتَّيْكَ أَشْفَى.

وَقَالَ جُحَا لِأَبِي مُسْلِمٍ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ: إِنِّي نَذَرْتُ إِنْ رَأَيْتُكَ أَنْ أَخْذَ مِنْكَ أَلْفَ
دِرْهَمٍ. فَقَالَ: رَأَيْتُ أَصْحَابَ النَّذُورِ يُعْطُونَ لَا يَأْخُذُونَ، وَأَمَرَ لَهُ بِهَا.

قَالَ السَّرِي: رَأَيْتُ الْمُخَنَّثَ الَّذِي يَعْرِفُ بِالْغَرِيبِ، وَإِنْسَانًا مِنَ الْعَامَةِ قَدْ آذَاهُ
وَطَالَ ذَلِكَ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ وَقَالَ لَهُ: يَا مَشْقُوقُ؛ نَعْلُكَ زَائِفَةٌ، وَقَمِيصُكَ مَقْرُونُ
الْحَاجِبِينَ، وَإِزَارُكَ صَدَفٌ أَزْرَقُ، وَأَنْتَ تَتْلَاهِي بِأَوْلَادِ الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ. قَالَ السَّرِي:
فَخَجَلَ الْعَامِيُّ وَمَرَّ، فَقُلْتُ لَهُ: فَسَّرْ لِي هَذَا الْغَرِيبَ. فَقَالَ: إِمَضْ إِلَى ثَعْلَبٍ. فَقُلْتُ:
لَيْسَ هَذَا مِنْ عَمَلِهِ؛ فَسَّرَهُ لِي. قَالَ: الثَّعْلُ الزَائِفَةُ الَّتِي تَجْرُفُ التَّرَابَ جَرْفًا، وَالْقَمِيصُ
الْمَقْرُونُ، هُوَ الْخَلْقُ الَّذِي فِي كَيْفِيهِ رَقْعَتَانِ أَجُودُ مِنْهُ، فَهَمَّا تُفْصِحَانِ بَيَانًا، وَالْإِزَارُ

صَدَفَ أَزْرَق، أَي مَخْرَقٌ مُفْتَتٌ. فَقُلْتُ: فَقَوْلُكَ: يَا مَشْقُوق؟ قَالَ: قَطِيعُ الظَّهْرِ.
 قِيلَ لِلشَّعْبِيِّ: أَيَجُوزُ أَنْ يَصَلَّى فِي الْبَيْعَةِ؟ قَالَ: نَعَمْ. وَيَجُوزُ أَنْ يُخْرَأَ فِيهَا.
 وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: الْقُبْلَةُ رَسُولُ الْجَمَاعِ.

وَقَالَ الرَّشِيدُ لِلجَمَّازِ: كَيْفَ مَائِدَةُ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى، يَغْنِي الْبَزْمَكِيُّ. قَالَ: شَبْرٌ
 فِي شَبْرٍ، وَصَخْفَتُهُ مِنْ قِشْرِ الْخَشْخَاشِ، وَبَيْنَ الرَّغِيفِ وَالرَّغِيفِ مَضْرِبُ كُرَّةٍ؛ وَبَيْنَ
 اللَّوْنِ وَاللَّوْنِ فِتْرَةٌ نَبِيٌّ. قَالَ: فَمَنْ يَخْضَرُهَا؟ قَالَ: الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ؛ فَضَحَكَ وَقَالَ:
 لِحَاكَ اللَّهُ مِنْ رَجُلٍ.

قَالَ نَضْلَةُ: دَخَلْتُ سَاقِيَةً فِي الْكَرْخِ فَتَوَضَّأْتُ؛ فَلَمَّا خَرَجْتُ تَعَلَّقَ السَّقَاءُ بِي
 وَقَالَ: هَاتِ قِطْعَةً؛ فَضَرَطْتُ ضَرْطَةً وَقُلْتُ: خُلْ الْآنَ سَبِيلِي فَقَدْ نَقَضْتُ وَضُوءِي؛
 فَضَحَكَ وَخَلَّانِي.

وَعَدَ رَجُلٌ بَعْضَ إِخْوَانِهِ أَنْ يُهْدِيَ إِلَيْهِ بَغْلًا؛ فَطَالَ مَطْلُهُ، فَأَخَذَ قَارُورَةً وَبَالَ فِيهَا
 وَجَاءَ إِلَى الطَّيِّبِ وَقَالَ: انْظُرْ إِلَى هَذَا الْمَاءِ، هَلْ يُهْدِي إِلَيَّ بَعْضُ إِخْوَانِي بَغْلًا.

حَدَّثَنَا ابْنُ الْخَلَّالِ الْبَصْرِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الْيَعْقُوبِيِّ يَقُولُ: رَأَيْتُ عَلَى بَابِ
 الْمِرْبَدِ خَالِدًا الْكَاتِبَ وَهُوَ يَنَادِي: يَا مَعْشَرَ الظُّرَفَاءِ، وَالْمَتَخَلِّقِينَ بِالْوَفَاءِ؛ أَلَيْسَ مِنْ
 الْعَجَبِ الْعَجِيبِ، وَالنَّادِرِ الْغَرِيبِ، أَنَّ شِعْرِي يُزَنَّى بِهِ وَيُلَاطُ مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً وَأَنَا
 أَطْلُبُ دَرَهْمًا فَلَا أُعْطَى، ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

أَخْرَمُ مِنْكُمْ بِمَا أَقُولُ وَقَدْ نَالَ بِهِ الْعَاشِقُونَ مَنْ عَشِقُوا
 صِرْتُ كَأَنِّي ذُبَالَةٌ نُصِبْتُ تُضِيءُ لِلنَّاسِ وَهِيَ تَخْتَرِقُ

وَسَمِعْتُ الْمَاجِنَ الْمَعْرُوفَ بِالْغُرَابِ يَقُولُ: وَيْلَكَ أَتَيْشُ فِي ذَا؟ لَا تَخْتَلِطِ الْجَنْطَةُ
 بِالشَّعِيرِ، أَوْ يُضْنَعُ الْبَاذَنْجَانُ قَرْعًا، أَوْ يَتَحَوَّلَ الْفُجْلُ إِلَى الْبَاقِلَاءِ، وَيَصِيرُ الْخَزَنُوبُ
 إِلَى الْأَرَنْدَجِ.

وَسَمِعْتُ دَجَاجَةَ الْمَخَنَّتِ يَقُولُ لِآخَرٍ: إِنَّمَا أَنْتَ بَيْتٌ بِلَا بَابٍ، وَقَدَمٌ بِلَا سَاقٍ،
 وَأَعْمَى بِلَا عَصَا، وَنَارٌ بِلَا حَطَبٍ، وَنَهْرٌ بِلَا مَغْبَرٍ، وَحَائِطٌ بِلَا سَقْفٍ.

وَشَتَمَ آخَرَ فَقَالَ: يَا رَأْسَ الْأَفْعَى، وَيَا عَصَا الْمُكَارِي، وَيَا بُرْنَسَ الْجَائِلِيقِ، يَا
 كَوْدَنَ الْقَصَّارِ، يَا بَيْرَمَ النِّجَّارِ؛ يَا نَاقُوسَ النَّصَارَى؛ يَا ذَرُورَ الْعَيْنِ، يَا تَخْتَ الشَّيَابِ،
 يَا طَعْنَ الرُّمَحِ فِي الثَّرَسِ؛ يَا مَغْرَفَةَ الْقُدُورِ، وَمِكَنَسَةَ الدُّورِ؛ لَا تُبَالِي أَيْنَ وَضِغْتَ؟
 وَلَا أَيْ جُحْرٍ دَخَلْتَ؟ وَلَا فِي أَيْ خَانٍ نَزَلْتَ، وَلَا فِي أَيْ حِمَامٍ عَمِلْتَ؛ إِنْ لَمْ تَكُنْ
 فِي الْكُوَّةِ مِثْرَسًا فَتَحِ لِلصُّوْصِ الْبَابَ؛ يَا رَحَى عَلَى رَحَى؛ وَوَعَاءٌ فِي وَعَاءٍ، وَغِطَاءٌ
 عَلَى غِطَاءٍ، وَدَاءٌ بِلَا دَوَاءٍ؛ وَعَمَى عَلَى عَمَى؛ وَيَا جُهْدَ الْبَلَاءِ، وَيَا سَطْحًا بِلَا مِيزَابٍ،

ويا عوداً بلا مضراب، ويا فماً بلا ناب، ويا سكيناً بلا نصاب، ويا رعداً بلا سحاب،
ويا كوةً بلا باب؛ ويا قميصاً بلا مثزر، ويا جسراً بلا نهر، ويا قرأً على قر؛ ويا شطاً
الصّراة، ويا قَصراً بلا مِسْناة ويا وَرَقَ الكَمَاه، يا مَطْبَخاً بلا أفواه؛ يا ذَنْبَ الفار، يا
قَدراً بلا أُنْزار، يا رَأْسَ الطُّومار، يا رسولاً بلا أَخْبَار؛ يا خَيْطَ البَواري، يا رَحَى في
صَحاري، يا طاقاتٍ بلا سَواري.

دخل أبو نواس على عِنان جاريةٍ الناطِفيّ فقال لها:

لو رَأَى في البَيْتِ جُخْراً لَنَزَا حتّى يموتا
أو رَأَى في البَيْتِ ثَقْباً لَتَحَوَّلَ عَنْكَ بوتا
فأجابته:

زَوَّجُوا هَذَا بِالْألفِ وَأَظُنُّ الألفَ قُوتاً
قَبْلَ أَنْ يَنْثَقِلَ الدَّاءُ ءَ فَلَا يَأْتِي وَيُوتِي

فقال - أدام الله دَوْلَتَه، وبَسَطَ لَدَيْهِ نِعْمَتَه: - قَدِمَ هذا الفَنُّ على غيره، وما
ظننتُ أَنَّ هذا يَطْرُدُ في مجلسٍ واحد، ورَبِّمَا عِيبَ هذا الثَّمَطُ كُلُّ العِيبِ، وذلك ظُلْمٌ،
لأنَّ النفسَ تَحْتَاجُ إلى بَشَرٍ. وقد بَلَغني أَنَّ ابنَ عَبَّاسٍ كان يقول في مجلسه بعد
الخَوْضِ في الكتاب والسنة والفقه والمسائل: اخْمِصُوا، وما أراه أراد بذلك إلا لتعديل
النفس لئلا يَلْحَقَهَا كَلالُ الجِدِّ، ولتَقْتَبَسَ نشاطاً في المُسْتَأْنَفِ، ولتَسْتَعِدَّ لِقَبُولِ ما يَرِدُ
عليها فَتَسْمَعَ؛ والسلام.

الليلة التاسعة عشرة

وَرَسَمَ بِجَمْعِ كَلِمَاتِ بَوَارِعَ، قِصَارِ جَوَامِعَ، فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ أَشْيَاءَ كُنْتُ أَسْمَعُهَا مِنْ أَفْوَاهِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْأَدَبِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَفِيهَا قَرْعٌ لِلْحِسِّ، وَتَنْبِيْهٌُ لِلْعَقْلِ، وَإِمْتَاعٌ لِلرُّوحِ، وَمَعُونَةٌ عَلَى اسْتِفَادَةِ الْيَقَظَةِ، وَانْتِفَاعٌ فِي الْمَقَامَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَتَمَثُّلٌ لِلتَّجَارِبِ الْمُخْتَلَفَةِ؛ وَامْتِثَالٌ لِلْأَحْوَالِ الْمُسْتَأْنَفَةِ.

من ذلك :

«الْحَمْدُ لِلَّهِ» مِفْتَاحُ الْمَذْهَبِ. الْبِرُّ يَسْتَعِيدُ الْحُرَّ. الْقَنَاعَةُ عِزُّ الْمُعْسِرِ. الصَّدَقَةُ كَنْزُ الْمُوسِرِ. مَا انْقَضَتْ سَاعَةٌ مِنْ أَمْسِكَ إِلَّا بَبْضَعَةٍ مِنْ نَفْسِكَ. دِرْهَمٌ يَنْفَعُ خَيْرٌ مِنْ دِينَارٍ يَضُرُّ. مَنْ سَرَّهُ الْفُسَادُ، سَاءَ الْمَعَادُ. الشَّقِيُّ مَنْ جَمَعَ لَغَيْرِهِ فَضْنَ عَلَى نَفْسِهِ بِخَيْرِهِ. زِدْ مِنْ طَوْلِ أَمَلِكَ فِي قِصْرِ عَمَلِكَ. لَا يَغُرُّكَ صِحَّةُ نَفْسِكَ، وَسَلَامَةُ أَمْسِكَ، فَمُدَّةُ الْعُمُرِ قَلِيلَةٌ، وَصِحَّةُ النَّفْسِ مُسْتَحِيلَةٌ. مَنْ لَمْ يَغْتَبِرْ بِالْأَيَّامِ، لَمْ يَنْزَجِرْ بِالْمَلَامِ. مَنْ اسْتَعْنَى بِاللَّهِ عَنِ النَّاسِ، أَمِنَ مِنْ عَوَارِضِ الْإِفْلَاسِ. مَنْ ذَكَرَ الْمُنِيَّةَ، نَسِيَ الْأُمْنِيَّةَ. الْبَخِيلُ حَارِسُ نِعْمَتِهِ، وَخَازِنُ وَرَثَتِهِ. لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ دُنْيَاهُ مَا يُعِينُهُ عَلَى عِمَارَةِ أَخْرَاهُ. مَنْ ارْتَدَّى بِالْكَفَافِ، اكْتَسَى بِالْعَفَافِ. لَا تَخْدَعَنَّكَ الدُّنْيَا بِخَدَائِعِهَا، وَلَا تَفْتِنَنَّكَ بَوْدَائِعُهَا. رُبُّ حُجَّةٍ، تَأْتِي عَلَى مُهْجَةٍ؛ وَرُبُّ فُرْصَةٍ، تُؤَدِّي إِلَى غُصَّةٍ. كَمْ مِنْ دَمٍ، سَفَكَهُ قَمٌ. كَمْ إِنْسَانٍ، أَهْلَكَهُ لِسَانٌ. رُبُّ حَرْفٍ، أَدَّى إِلَى حَتْفٍ. لَا تُفْرِطْ، فَتُسْقُطْ. الزَّمُ الصَّمْتُ، وَأَخْفِ الصَّوْتَ. مَنْ حَسُنَتْ مَسَاعِيهِ، طَابَتْ مَرَاعِيهِ. مَنْ أَعَزَّ قَلْسُهُ، أَذَلَّ نَفْسَهُ. مَنْ طَالَ عُدُوُّهُ، زَالَ سُلْطَانُهُ. مَنْ لَمْ يَسْتَظْهِرْ بِالْيَقَظَةِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِالْحَفَظَةِ. مَنْ اسْتَهْدَى الْأَغْمَى عَمِيَ عَنِ الْهُدَى. مَنْ اغْتَرَّ بِمَحَالِهِ، قَصَرَ فِي احْتِيَالِهِ. زَوَالُ الدُّوَلِ، بِاصْطِنَاعِ السُّفُلِ. مَنْ تَرَكَ مَا يَغْنِيهِ، دَفَعَ إِلَى مَا لَا يَغْنِيهِ. ظَلُمَ الْعَمَالُ، مِنْ ظُلْمَةِ الْأَعْمَالِ. مَنْ اسْتَشَارَ الْجَاهِلَ ضَلَّ، وَمَنْ جَهَلَ مَوْضِعَ قَدَمِهِ زَلَّ. لَا يَغُرُّكَ طَوْلُ الْقَامَةِ، مَعَ قِصْرِ الْاسْتِقَامَةِ، فَإِنَّ الدَّرَّةَ مَعَ صِغَرِهَا، أَنْفَعَ مِنَ الصَّخْرَةِ عَلَى كِبَرِهَا. تَجَرَّعَ مِنْ عَدُوِّكَ الْغُصَّةَ، إِنْ لَمْ تَتَلَّ مِنْهُ الْفُرْصَةَ، فَإِذَا وَجَدْتَهَا فَانْتَهَزَهَا قَبْلَ أَنْ يَفُوتَكَ الدَّرَكُ، أَوْ يَصِيبَكَ الْفَلَكُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا دُوْلٌ تَبْنِيهَا الْأَقْدَارُ، وَيَهْدِمُهَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ. مَنْ زَرَعَ الْإِحْسَنَ، حَصَدَ الْمِحْنَ. مَنْ بَعُدَ مَطْمَعُهُ، قُرُبَ مَضَرَعُهُ. التَّغَلُّبُ فِي إِقْبَالِ جَدِّهِ، يَغْلِبُ الْأَسَدَ فِي اسْتِقْبَالِ شَدِّهِ. رُبُّ عَطَبٍ، تَحْتَ طَلَبٍ. اللِّسَانُ، رِقٌّ

الإنسان. من ثمرة الإحسان، كَثُرَةُ الإخوان. من سأل ما لَا يَجِبُ، أُجِيبَ بما لَا يَجِبُ، وأنشدتُ:

وليس لنا عَيْبٌ سِوَى أَنْ جُودَنَا أَضَرَّ بِنَا وَالْبَاسَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
فَأَقْنَى النَّدَى أَمْوَالَنَا غَيْرَ ظَالِمٍ وَأَقْنَى الرَّدَى أَعْمَارَنَا غَيْرَ عَائِبٍ
أَبُونَا أَبٌ كَانَ لِلنَّاسِ كُلِّهِمْ أَبٌ مِثْلُهُ أَغْنَاهُمْ بِالْمَنَاقِبِ

قال حميد بن الصَّيْمَرِيُّ لابنه: اصْحَبِ السُّلْطَانَ بِشِدَّةِ التَّوْقِي كَمَا تَصْحَبُ السَّبْعَ الصَّارِيَّ والفِيلَ الْمُغْتَلِمَ والأفعى القَاتِلَةَ؛ واصْحَبِ الصَّدِيقَ بِلِينِ الْجَانِبِ والتَّوَاضُعِ؛ واصْحَبِ العَدُوَّ بِالْإِعْذَارِ إِلَيْهِ والحِجَّةِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ؛ واصْحَبِ الْعَامَّةَ بِالْبِرِّ والبِشْرِ واللطْفِ باللسان.

وَقَعَ عَبْدُ الْحَمِيدِ الْكَاتِبُ عَلَى ظَهْرِ كِتَابٍ: يَا هَذَا، لَوْ جَعَلْتَ مَا تَحْمِلُهُ الْقِرَاطِيسُ مِنَ الْكَلَامِ مَالاً حَوَيْتَ جَمَالاً وَخُزْتَ كَمَالاً.

وَوَقَعَ السَّفَاحُ مَرَّةً: مَا أَقْبَحَ بِنَا أَنْ تَكُونَ الدُّنْيَا لَنَا وَحَاشَيْتَنَا خَارِجُونَ مِنْهَا، فَعَجَّلَ أَرْزَاقَهُمْ، وَزِدَ فِيهَا عَلَى قَدَرِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

قال الحسن بن علي: عُنْوَانُ الشَّرَفِ، حُسْنُ الْخَلْفِ.

وقال جعفر بن محمد - عليهما السلام -: إِنْ لَمْ تَجْفُ، فَقَلِّمًا تَصْفُو.

وقال أعرابي: النخلة جِذْعُهَا نَمَاءٌ، وَلِيفُهَا رِشَاءٌ، وَكَرْبُهَا^(١) صِلَاءٌ، وَسَعْفُهَا ضِيَاءٌ، وَحَمْلُهَا غِذَاءٌ.

وقال الأصمعي: سَمِعْتُ كَسَّاحاً يَقُولُ لَغْلَامٍ لَهُ: أَلَمْ أَضْغِ إِزَارَكَ، أَلَمْ أَصْنَعْ عُودَ مِجْرَفَتِكَ؟ أَلَمْ أَجْعَلْكَ كَسَّاحاً عَلَى حِمَارَيْنِ؟

وَجَدَ كِتَابَ بِالِيَمَنِ فِيهِ: أَنَا فَلَانَةُ بِنْتُ فَلَانَ التُّبَّعِيِّ، كُنْتُ أَكُلُ الْبَقْلَ الرَّطْبَ مِنَ الْهِنْدِ وَأَنَا بِالِيَمَنِ، ثُمَّ جُعْنَا حَتَّى اشْتَرَيْنَا مَكْوَكُ بُرٍّ بِمَكْوَكِ دُرٍّ، مِنْ يَوْسَفَ بْنِ يَعْقُوبَ بِمِصْرَ، فَمِنْ رَأَى فَلَا يَغْتَرَّ بِالدُّنْيَا.

وقال علي بن أبي طالب - كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ - لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ يَوْمَ صِفِّينَ: أَأَثَرْتُمْ مُعَاوِيَةَ؟ فَقَالَ: مَا أَثَرْنَاهُ، وَلَكِنَّا أَثَرْنَا الْقَسْبَ^(٢) الْأَصْفَرَ، وَالْبُرَّ الْأَحْمَرَ، وَالزَّيْتَ الْأَخْضَرَ.

قِيلَ لِلْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَمَّا صَالَحَ مُعَاوِيَةَ: يَا عَارَ الْمُؤْمِنِينَ. فَقَالَ: الْعَارُ خَيْرٌ مِنَ النَّارِ.

(١) أصول السعف الغلاظ العراض.

(٢) التمر اليابس.

نظر الحجاج يوماً على المائدة إلى رجل وجأ عُنُقَ رَجُلٍ آخَرَ، فدعا بهما، فقال للواجي: عَلَامَ صَنَعْتَ؟ فقال: غَصَّ بِعَظْمٍ فَخِفْتُ أَنْ يَقْتُلَهُ، فوجأتُ عَنْقَهُ فَأَلْقَاهُ؛ فسأل الآخر فقال: صَدَقَ؛ فدعا بالطَّبَّاحِ فقال له: أَتَدْعُ الْعِظَامَ فِي طَعَامِكَ حَتَّى يَغْصَّ بِهَا؟ فقال: إِنَّ الطَّعَامَ كَثِيرٌ، وَرَبِّمَا وَقَعَ الْعَظْمُ فِي الْمَرَقِ فَلَا يُزَالُ. قال: تَصُبُّ الْمَرَقَ عَلَى الْمَنَاخِلِ. فَكَانَ يَفْعَلُ.

قال سَلَمَةُ بْنُ الْمُحَبِّقِ: شَهِدْتُ فَتَحَ الْأُبُلَّةَ، فَوَقَعَ فِي سَهْمِي قِدْرُ نَحَاسٍ، فَتَنَظَّرْتُ فَإِذَا هِيَ ذَهَبٌ فِيهَا ثَمَانُونَ أَلْفَ مِثْقَالٍ، فَكَتَبْتُ فِي ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ، فَأَجَابَ بِأَنْ يُحْلَفَ سَلَمَةُ بِأَنَّهُ أَخَذَهَا يَوْمَ أَخَذَهَا وَهِيَ عِنْدَهُ، فَإِنْ حَلَفَ سَلَّمْتُ إِلَيْهِ، وَإِلَّا قُسِمَتْ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، قال: فَحَلَفْتُ فَسَلَّمْتُ إِلَيْهِ، فَأَصُولُ أُمُورِنَا الْيَوْمَ مِنْهَا. قال بعض الحكماء: لَا يَضُرُّ عَلَى الْمُرُوءَةِ إِلَّا ذُو طَبِيعَةٍ كَرِيمَةٍ. (١)

أصابَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَدِينٍ - وَكَانَ رَجُلٌ صِدْقٌ بِخِرَاسَانَ - مَالاً عَظِيماً فَجَهَّزَ سَبْعِينَ مَمْلُوكاً بِدَوَابِّهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ إِلَى هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، ثُمَّ أَصْبَحُوا مَعَهُ يَوْمَ الرَّحِيلِ، فَلَمَّا اسْتَوَى بِهِمُ الطَّرِيقُ نَظَرَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: مَا يَنْبَغِي لِرَجُلٍ أَنْ يَتَقَرَّبَ بِهَؤُلَاءِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: اذْهَبُوا أَنْتُمْ أحراراً، وَمَا مَعَكُمْ لَكُمْ. وقال أعرابي: مَنْ قَبِلَ صِلَتَكَ فَقَدْ بَاعَكَ مُرُوءَتَهُ، وَأَذَلَّ لِقَدْرِكَ عِزَّهُ.

كَتَبَ زِيَادُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ إِلَى الْمَهْدِيِّ:

أَنَا نَادَيْتُ عَفْوَكَ مِنْ قَرِيبٍ كَمَا نَادَيْتُ سُخْطَكَ مِنْ بَعِيدٍ
وَأَنْ عَاقَبْتَنِي فِلَسُوءٍ فِعْلِي وَمَا ظَلَمْتُ عُقُوبَةً مُسْتَقِيدٍ
وَأَنْ تَضَفِّخَ فِلَاحِسَانًا جَدِيدًا عَطَفْتُ بِهِ عَلَى شُكْرِ جَدِيدٍ

وقال رجل لمحمد بن نحرير: أَوْصِنِي؛ فقال: اسْمَعْ وَلَا تَتَكَلَّمْ، وَاعْرِفْ وَلَا تُعْرِفْ، وَاجْلِسْ إِلَى غَيْرِكَ وَلَا تُجْلِسْهُ إِلَيْكَ.

وقال رجل لابن أسيد القاضي: إِنَّ أُمِّي تَرِيدُ أَنْ تَوْصِيَنِي فَتَحْضُرْ وَتَكْتُبْ؛ فقال: وَهَلْ بَلَغَتْ مَبْلَغَ النِّسَاءِ؟

ودخل صاحب المَظَالِمِ بِالْبَصْرَةِ عَلَى رَجُلٍ مُبْرَسَمٍ وَعِنْدَهُ طَبِيبٌ يَدَاوِيهِ، فَأَقْبَلَ عَلَى الطَّبِيبِ وَأَهْلِ الْمَرِيضِ، وَقَالَ: لَيْسَ دَوَاءُ الْمُبْرَسَمِ إِلَّا الْمَوْتُ حَتَّى تَقِلَّ حَرَارَةُ صَدْرِهِ، ثُمَّ حِينَئِذٍ يَعَالَجُ بِالْأَدْوِيَةِ الْبَارِدَةِ حَتَّى يَسْتَبِيلَ.

(١) موضع النقاط عبارة لابن السماك غير واضحة.

واجتازَ به بائعٌ دُرَّاج فقال: بكم تبيعُ الدَّرَاجَةَ؟ فقال: بذرهم؛ فقال له: أحسين. قال: كذا بعْتُ. قال: نأخذُ منك اثنتين بثلاثة. قال: هما لك. قال: يا غلامُ خذْ منه، فإنه يُسهِّلُ البَيْعَ.

ودخلَ حَجَّاجُ بْنُ هَارُونَ عَلَى نَجَاحِ الْكَاتِبِ، فَذَهَبَ لِيَقْبَلَ رَأْسَهُ؛ فَقَالَ لَهُ: لَا تَفْعَلْ، فَإِنَّ رَأْسِي مَمْلُوءٌ بِالذَّهْنِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ عَلَيْهِ أَلْفَ رَظْلٍ خَرَاءَ لَقَبِلْتُهُ.

قَدَّمَ لابنَ الْحَسْحَاسِ سِكْبَاجَةً فَقَالَ لَصَدِيقٍ لَهُ: كُلْ فَإِنَّهَا أُمُّ الْقِرَى.

وَعَزَّى ابْنُ الْحَسْحَاسِ صَدِيقاً لَهُ مَاتَ ابْنَتُهُ، فَقَالَ: مَنْ أَنْتَ حَتَّى لَا تَمُوتَ ابْنَتُكَ الْبَطْرَاءُ! قَدْ مَاتَتْ عَائِشَةُ بِنْتُ النَّبِيِّ ﷺ.

أَخَذَ يَعْقُوبُ بْنُ اللَّيْثِيِّ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ رَجُلًا فَاسْتَصَفَّاهُ، ثُمَّ رَأَاهُ بَعْدَ زَمَانٍ، فَقَالَ لَهُ: أَبَا فَلَانِ، كَيْفَ أَنْتَ السَّاعَةَ؟ قَالَ لَهُ: كَمَا كُنْتُ أَنْتَ قَدِيمًا. قَالَ: وَكَيْفَ كُنْتُ أَنَا؟ فَقَالَ: كَمَا أَنَا السَّاعَةَ؛ فَأَمَرَ لَهُ بِعَشْرَةِ أَلْفٍ دِرْهَمٍ.

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: إِذَا وُضِعَ الطَّعَامُ فَقَدْ أُذِنَ لِلْأَكْلِ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - إِنَّ الْعَرَبَ لَا تَصْلُحُ بِبِلَادٍ لَا تَصْلُحُ بِهَا الْإِبِلُ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السُّنْدِيِّ: نَظَرَ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ قَدْ نَامَ فِي غَدَاةٍ مِنْ غَدَوَاتِ الصَّيْفِ طَيِّبَةَ النَّسِيمِ، فَكَرَّضَهُ بِرَجْلِهِ وَقَالَ: مَالِكَ تَنَامُ عَنِ الدُّنْيَا فِي أَطْيَبِ وَقْتِهَا، ثُمَّ عَنْهَا فِي أَخْبَثِ حَالَاتِهَا، ثُمَّ فِي نِصْفِ النَّهَارِ لِبُعْدِكَ عَنِ اللَّيْلِ الْمَاضِيَةِ وَالْآتِيَةِ، وَلَأنَّهَا رَاحَةٌ لَمَّا قَبْلُهَا مِنَ التَّعَبِ، وَجِمَامٌ لَمَّا بَعْدَهَا مِنَ الْعَمَلِ، نِمْتَ فِي وَقْتِ الْحَوَاجِجِ، وَتَنَبَّهْتَ فِي وَقْتِ رُجُوعِ النَّاسِ؛ وَقَدْ جَاءَ: «قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ»^(١).

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ السُّنْدِيِّ: أَيْقَظَتْ أَعْرَابِيَّةٌ أَوْلَادَهَا لَهَا صِغَاراً قَبْلَ الْفَجْرِ فِي

(١) قَالَ الْمَنَاوِي فِي فَيْضِ الْقَدِيرِ، شَرَحَ الْجَامِعَ الصَّغِيرَ (حَرْفُ الْقَافِ حَدِيثُ رَقْم: ٦١٦٨): (قِيلُوا فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَا تَقِيلُ) مِنَ الْقِيلُولَةِ قَالَ الْجَوْهَرِيُّ وَهِيَ النَّوْمُ فِي الظَّهْرِ وَقَالَ الْأَزْهَرِيُّ الْقِيلُولَةُ وَالْمَقِيلُ عِنْدَ الْعَرَبِ الْإِسْتِرَاحَةُ نِصْفُ النَّهَارِ وَعَمَلُ السَّلَفِ وَالْخَلْفِ عَلَى أَنَّ الْقِيلُولَةَ مَطْلُوبَةٌ لِإِعَانَتِهَا عَلَى قِيَامِ اللَّيْلِ، قَالَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ: وَإِنَّمَا تَطْلُبُ الْقِيلُولَةُ لِمَنْ يَقُومُ اللَّيْلَ وَيَسْهَرُ فِي الْخَيْرِ فَإِنَّ فِيهَا مَعُونَةً عَلَى التَّهَجُّدِ كَمَا أَنَّ فِي السَّحُورِ مَعُونَةً عَلَى صِيَامِ النَّهَارِ فَالْقِيلُولَةُ مِنْ غَيْرِ قِيَامِ اللَّيْلِ كَالسَّحُورِ مِنْ غَيْرِ صِيَامِ النَّهَارِ.

وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَأَبُو نَعِيمٍ فِي كِتَابِ الطَّبِّ النَّبَوِيِّ وَالدِّيْلَمِيِّ وَابْنُ بَرَكٍ (عَنْ أَنَسٍ) وَرَمَزَ السُّيُوطِيُّ لِحَسَنِهِ وَلَيْسَ كَمَا ذَكَرَ فَقَدْ قَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِيهِ كَثِيرٌ مِنْ مَرُوانٍ وَهُوَ كَذَابٌ أَهْدَى. وَقَالَ فِي الْفَتْحِ فِي سَنَةِ كَثِيرٍ مِنْ مَرُوانٍ مَتْرُوكٌ.

عَدَوَاتِ الرِّبِيعِ وَقَالَتْ: تَسْمُوا هَذِهِ الْأَرْوَاحَ، وَاسْتَنْشِقُوا هَذَا النَّسِيمَ، وَتَفْهَمُوا هَذَا النَّعِيمَ، فَإِنَّهُ يَشُدُّ مِنْ مُتِّكُمْ.

وَيَقَالُ فِي الْوَصْفِ: كَأَنَّهُ مِخْرَاكُ نَارٍ، وَكَأَنَّهُ الْجَأْمُ^(١) صَدَى.

وَإِذَا وَصَفُوهُ بِالْقَصْرِ قَالُوا: كَأَنَّهُ عُقْدَةُ رِشَا، وَأُبْنَةُ عَصَا. وَإِذَا كَانَ ضَعِيفًا قَالُوا: كَأَنَّهُ قِطْعَةُ زُبْدٍ، وَالْمَوْلُدُونَ يَقُولُونَ: كَأَنَّهُ أُسْكُرُجَةٌ.

قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ لَا أُحِيطُ بِنِعَمِكَ عَلَيَّ فَأَعِدُّهَا، وَلَا أَبْلُغُ كُنْهَ وَاحِدَةٍ مِنْهَا فَأُحَدِّثُهَا.

دَعَا عَطَاءُ السُّنْدِيُّ فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِكَ الْوَاقِعِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِكَ الْوَاسِعِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَانِعٌ.

وَدَعَا بَعْضُ السَّلَفِ: اللَّهُمَّ إِنَّ قَلْبِي وَنَاصِيَّتِي بِيَدِكَ لَمْ تَمْلِكْنِي مِنْهُمَا شَيْئًا، وَإِذْ فَعَلْتَ ذَلِكَ فَكُنْ أَنْتَ وَلِيَّهُمَا، فَاهْدِنَا سَوَاءَ السَّبِيلِ.

وَدَعَا بَعْضُ الصَّالِحِينَ: اللَّهُمَّ مَا كَانَ لِي مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّكَ قَضَيْتَهُ وَيَسَّرْتَهُ وَهَدَيْتَهُ، فَلَا حَمْدَ لِي عَلَيْهِ؛ وَمَا كَانَ مِنِّي مِنْ سُوءٍ فَإِنَّكَ وَعَظَّمْتَ وَزَجَرْتَ وَنَهَيْتَ فَلَا عُذْرَ لِي فِيهِ وَلَا حِجَّةَ.

وَدَعَا آخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ سُلْطَانٍ جَائِرٍ، وَنَدِيمٍ فَاجِرٍ، وَصَدِيقٍ غَادِرٍ، وَغَرِيمٍ مَآكِرٍ، وَقَرِيبٍ مُنَاكِرٍ، وَشَرِيكِ خَائِنٍ، وَحَلِيفٍ مَائِنٍ، وَوَلَدٍ جَافٍ، وَخَادِمٍ هَافٍ، وَحَاسِدٍ مُلَافِظٍ، وَجَارٍ مُلَاحِظٍ، وَرَفِيقٍ كَسَلَانَ، وَخَلِيلٍ وَسَنَانَ، وَ...^(٢) ضَعِيفٍ، وَمَرْكُوبٍ قُطُوفٍ، وَزَوْجَةٍ مَبْدُورَةٍ، وَدَارٍ ضَيِّقَةٍ.

قَالَ الْمَدَائِنِيُّ: قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ لِابْنِهِ: اشْحَذْ طَبْعَكَ بِالْعُيُونِ وَالْفِقْرِ وَإِنْ قَلْتُ، فَإِنَّ الشَّجَرَةَ لَا يَشِينُهَا قِلَّةُ الْحَمْلِ إِذَا كَانَ ثَمَرُهَا نَافِعًا، وَأَكْلُهَا نَاجِعًا.

وَقِيلَ لِلْأَوْزَاعِيِّ: مَا كِرَامَةُ الضَّيْفِ؟ قَالَ: طَلَاقَةُ الْوَجْهِ.

قَالَ مُجَاهِدٌ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٢٤] قَالَ: قِيَامُهُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ.

وَقَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: لَيْسَ مِنَ الْمُرُوءَةِ أَنْ تَسْتَخْدِمَ الضَّيْفَ.

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ الْجُنَيْدِ: كَانَ يُقَالُ أَرْبَعٌ لِلشَّرِيفِ لَا يَتَّبِعِي أَنْ يَأْتَفَ مِنْهُنَّ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا: قِيَامُهُ مِنْ مَجْلِسِهِ لِأَبِيهِ، وَخِدْمَتُهُ لَضَيْفِهِ، وَخِدْمَتُهُ لِلْعَالَمِ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ، وَإِنْ سُئِلَ عَمَّا لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْلَمُ.

(١) إناء من فضة.

(٢) بياض بالأصل.

حاتم كان يقول: العَجَلَة من الشَّيْطَانِ إِلَّا فِي خَمْسَةِ أَشْيَاءَ، فَإِنَّهَا مِنَ السَّئَةِ: إِطْعَامُ الضَّيْفِ إِذَا حُلَّ، وَتَجْهِيْزُ الْمَيْتِ، وَتَرْوِيْجُ الْبَكْرِ، وَقَضَاءُ الدَّيْنِ، وَالتَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ.

وقال: مَنْ أَطْعَمَ الضَّيْفَ لِحْمًا وَخُبْزَ حِنْطَةٍ وَمَاءً بَارِدًا فَقَدْ تَمَّمَ الضِّيَافَةَ.

وقال حاتم: الْمَرْوَرُ الْمُرَائِي إِذَا ضَافَ إِنْسَانًا حَدَّثَهُ بِسَخَاوَةِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، وَإِذَا ضَافَهُ إِنْسَانٌ حَدَّثَهُ بِزُهْدِ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ.

وقال ميمون بن ميمون: مَنْ ضَافَ الْبَخِيلَ صَامَتِ دَابَّتُهُ، وَاسْتَغْنَى عَنِ الْكَئِيفِ، وَأَمِنَ التُّخْمَةَ.

وقال بعض السلف الصالح: لَأَنْ أَجْمَعَ إِخْوَانِي عَلَى صَاعٍ مِنْ طَعَامٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِتْقِ رَقَبَةٍ.

قال الأعمش: كَانَ الرَّبِيعُ بْنُ خَنِثَمٍ يَصْنَعُ لَنَا الْخَبِيصَ وَيَقْدِمُهُ وَيَقُولُ: االلَّهُمَّ اغْفِرْ لِأَطْيَبِهِمْ نَفْسًا، وَأَحْسَنِهِمْ خُلُقًا، وَارْحَمْهُمْ جَمِيعًا.

وقال أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: كُلُّ بَيْتٍ لَا يَدْخُلُهُ الضَّيْفُ لَا تَدْخُلُهُ الْمَلَائِكَةُ.

ولَمَّا قَرَأَتْهُ عَلَى الْوَزِيرِ - بَلَّغَهُ اللَّهُ آمَالَهُ، وَزَكَّى أَعْمَالَهُ، وَخَفَّفَ عَنْ قَلْبِهِ أَثْقَالَهُ - قَالَ: مَا عَلِمْتُ أَنْ مِثْلَ هَذَا الْحَجْمِ يَخْوِي هَذِهِ الْوَصَايَا وَالْمُلُحَ؛ وَهَذِهِ الْكَلِمَاتُ الْغُرَرُ مَا فِيهَا مَا لَا يَجِبُ أَنْ يُحْفَظَ، وَاللَّهُ لَكَأَنَّهَا بَسْتَانٌ فِي زَمَانِ الْخَرِيفِ، لِكُلِّ عَيْنٍ فِيهِ مَنَظَرٌ، وَلِكُلِّ يَدٍ مِنْهُ مَقْطُفٌ، وَلِكُلِّ فَمٍ مِنْهُ مَذَاقٌ. إِذَا فَرَّغْتَ فَأَضِيفْ لِي جِزَاءً أَوْ جِزَيْنِ أَوْ مَا سَاعَدَكَ عَلَيْهِ النَّشَاطُ، فَإِنْ مَوْقَعَهَا يَخْسُنُ، وَذِكْرُهَا يَجْمُلُ، وَأَثَرُهَا يَبْقَى، وَفَائِدَتُهَا تُرَوَّى، وَعَاقِبَتُهَا تُحْمَدُ.

فَقُلْتُ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ.

الليلة العشرون

وقال لي مرة أخرى: اكتب لي جزءاً من الأحاديث الفصيحة المفيدة.

فكتبت: قال مالك بن عُمارة اللَّخْمِيّ: كنتُ أَجالِسُ في ظِلِّ الكَعْبَةِ أيامَ المَوْسِمِ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ وقبيصةَ بنَ ذؤيبَ وعُروَةَ بنَ الزُّبَيْرِ، وكنا نَخوضُ في الفِقْهِ مرَّةً، وفي الذِّكْرِ مرَّةً؛ وفي أشعارِ العَرَبِ وآثارِ الناسِ مرَّةً؛ فكنتُ لا أَجدُ عندَ أحدٍ منهم ما أَجدُه عندَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ من الاتِّساعِ في المعرفةِ والتَّصَرُّفِ في فنونِ العلمِ والفصاحةِ والبلاغةِ، وحُسنِ استماعِه إذا حَدَّثَ، وحلاوةِ لَفْظِه إذا حَدَّثَ؛ فخلوتُ معه ذاتَ ليلةٍ فقلتُ: واللَّهِ إِنِّي لَمَسرورٌ بك لما أَشاهدُه من كثرةِ تَصَرُّفِكَ وحُسنِ حَدِيثِكَ، وإقبالِكَ على جَلِيسِكَ؛ فقال: إِنَّكَ إِن تَعِشَ قليلاً فَستَرى العُيُونَ طامحةً إِلَيَّ والأَعناقَ قاصدةً نحوي، فلا عليك أن تُعَمِلَ إِلَيَّ رِكابَكَ. فلما أَفضتُ إِلَيهِ الخلافةَ شَخَّصْتُ أريدُه، فوافيته يومَ جُمُعَةٍ وهو يَخْطُبُ الناسَ، فتصدَّيتُ له، فلما وَقَعَتْ عَيْنُه عَلَيَّ بَسَرَ في وجهي، وأَعْرَضَ عَنِّي، فقلتُ: لِمَ يُثَبِّتُنِي معرفةً ولو عَرَفَنِي ما أَظْهَرَ نُكْرَةً. لكنني لم أَبْرَحْ مكاني حتى قُضِيَتِ الصلاةُ ودخلَ، فلم أَبْلُثْ أَن خَرَجَ الحاجِبُ إِلَيَّ فقال: مالك بن عُمارة، فقمْتُ، فأخذ بيدي وأدخلني عليه، فلما رَأَيْتُ مَدَ يَدَه إِلَيَّ وقال: إِنَّكَ تَرَأَيْتَ في موضعٍ لم يَجْزُ فيه إلا ما رَأَيْتَ من الإعراضِ والانقباضِ؛ فمرحباً وأهلاً وسهلاً، كيف كنتَ بَعْدَنا؟ وكيف كان مَسِيرُكَ؟ قلتُ: بخير، وَعَلَى ما يَحِبُّهُ أميرُ المؤمنين. قال: أَتذكرُ ما كنتُ قلتُ لك؟ قلتُ: نعم، وهو الذي أَعْمَلَنِي إِلَيْكَ؛ فقال: واللَّهِ ما هو بِميراثِ ادَّعِيانِه، ولا أثرٍ وَعَيْنانِه، ولكنني أَخْبِرُكَ عن نفسي خِصالاً سَمَتُ بها نفسي إلى الموضعِ الذي تَرى، ما لا حَيْثُ ذَا وَدَّ ولا ذَا قَرَابَةٍ قَطُّ، ولا شَيْئٌ بِمَصِيبَةٍ عَدُوٍّ قَطُّ، ولا أَعْرَضْتُ عن محدِّثٍ حتى يَنْتَهِي، ولا قصدتُ كبيرةً من محارِمِ اللَّهِ مثلَ ذَا بها واثباً عليها، وكنتُ من قُرَيْشٍ في بَيْتِها، ومن بَيْتِها في وَسَطِها، فكنتُ أَمَلُ أَن يَزِفَعَ اللَّهُ مِنِّي، وقد فَعَلَ؛ يا غلام، بَوَّهَ منزلاً في الدارِ. فأخذَ الغلامُ بيدي وقال: انطَلِقْ إلى رَحْلِكَ؛ فكنتُ في أخفضِ حالٍ، وأنعمُ بال؛ وكان يَسْمَعُ كلامي وأسمعُ كلامَه، فإذا حَضَرَ عَشاؤُه أو غداؤُه أَتاني الغلامُ وقال: إن شئتُ، صِرْتُ إلى أميرِ المؤمنين فإنه جالسٌ، فأمشي بلا جِذاءٍ ولا رِداءٍ فَيَرْفَعُ مَجْلِسِي، ويُقْبِلُ عَلَيَّ محاذِثِي، ويسألُنِي عن العِراقِ مرَّةً، وعن الحِجازِ مرَّةً،

حتى مَضَتْ لي عشرون ليلة. فتغذيتُ عنده يوماً، فلما تَفَرَّقَ الناسُ نَهَضْتُ للقيام، فقال: على رِسْلِكَ أيُّها الرجل، أيُّ الأمرين أَحَبُّ إليك: المُقام عندنا، ولك النَصْفَةُ في المعاشرة والمجالسة مع المِوَاساة، أم الشُّخوص ولك الجِباء والكَرامة؟ فقلتُ: فارقتُ أهلي وولدي على أنْ أَزُورَ أميرَ المؤمنين، فإنْ أَمَرَنِي اخْتَرْتُ فَنَاءَهُ على الأهل والولد، قال: بل أَرَى لك الرُّجوعَ إليهم، فإنهم مُتَطَلِّعون إلى رؤيتك، فتجددُ بهم عهداً ويجددون بك مثله، والخيارُ في زيارتنا والمقام فيهم إليك وقد أَمَرْنَا لك بعشرين ألفَ دينار، وكسُونَاك وَحَمَلْنَاكَ، أتراني مَلَأْتُ يَدَكَ أبا نَصْر؟ قلتُ: يا أميرَ المؤمنين، أراك ذاكرةً لما رَوَيْتَ عن نَفْسِكَ. قال: أَجَلْ، ولا خَيْرَ فيمن يَنْسَى إذا وَعَدَ؛ ودُعُ إذا شئتَ، صَحِبَتْكَ السلامة.

قال الوزير: ما أَخْلَى هذا الحديث! هاتِ ما بعده.

قلتُ: قال يحيى بن أبي يَعْلَى: لَمَّا قَدِمَ المالُ من ناحيةِ عمرَ بن عبد العزيز - رحمه الله - على أبي بكر بن حَزْم، قَسَمَهُ بين الناس في المدينة، فأصاب كلُّ إنسان خمسين ديناراً، فدَعَتْنِي فاطمةُ بنت الحسين - عليه السلام - فقالت: اكتبْ، فكتبتُ: بسم الله الرحمن الرحيم، لعبدِ الله عمرَ أمير المؤمنين من فاطمة بنت الحسين سلامُ الله عليك، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمَّا بعد، فَأُصَلِّحُ اللَّهُ أَمِيرَ المؤمنين وَأَعَانَهُ عَلَى مَا تَوَلَّاهُ، وَعَصَمَ بِهِ دِينَهُ، فَإِنَّ أَمِيرَ المؤمنين كَتَبَ إلى أبي بكر بن حَزْم أنْ يَقْسِمَ فِينَا مَالاً مِنَ الْكَتِيبَةِ، وَيَتَحَرَّى بِذَلِكَ مَا كَانَ يَصْنَعُ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْأُئِمَّةِ الرَّاشِدِينَ، وَقَدْ بَلَّغْنَا ذَلِكَ، وَقَسَمَ فِينَا، فَوَصَلَ اللَّهُ أَمِيرَ المؤمنين، وَجَزَاهُ مِنْ وَالٍ خَيْرَ مَا جَزَى أَحَدًا مِنَ الْوُلَاةِ، فَقَدْ كَانَتْ أَصَابَتُنَا جَفَوَةٌ، وَاحْتَجْنَا إِلَى أَنْ يُعْمَلَ فِينَا بِالْحَقِّ؛ فَأُقْسَمُ بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ المؤمنين لَقَدْ اخْتَدَمَ مِنْ آلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَنْ لَا خَادِمَ لَهُ، وَاكْتَسَى مِنْ كَانَ عَارِيًّا، وَاسْتَقَرَّ مَنْ كَانَ لَا يَجِدُ مَا يَسْتَقَرُّ بِهِ. وَبَعَثْتُ إِلَيْهِ رَسُولًا.

قال يحيى: فحدَّثَنِي الرسولُ قال: قَدِمْتُ الشَّامَ عَلَيْهِ، فَقَرَأُ كِتَابَهَا وَإِنَّهُ لَيُحْمَدُ اللَّهُ وَيُسْكُرُهُ، فَأَمَرَ لِي بِعَشْرَةِ دنانير، وبعثَ إلى فاطمة خَمْسَمِائَةِ دينار، وقال: استعيني بها على ما يُغَوِّزُكَ، وكتبَ إليها كتاباً يَذْكُرُ فِيهِ فَضْلَهَا وَقَضْلَ أَهْلِ بَيْتِهَا، وَيَذْكُرُ مَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ.

فَرَّقَ الْوَزِيرُ عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ وَقَالَ: أَذْكَرْتَنِي أَمْرَ الْعَلَوِيَّةِ، وَأَخَذَ الْقَلَمَ، وَاسْتَمَدَّ مِنَ الدَّوَاةِ، وَكَتَبَ فِي التَّذْكِرَةِ شَيْئاً، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى نَقِيبِ الْعَلَوِيَّةِ الْعُمَرِيِّ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي بِأَلْفِ دِينَارٍ، حَتَّى تَفَرَّقَ فِي آلِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ لِي: هَذَا مِنْ بَرَكَةِ الْحَدِيثِ.

ثم قال: كَيْفَ تَطَاوَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ مَعَ بُغْدِهِمْ مِنْ رَجَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَقُرْبِ بَنِي هَاشِمٍ مِنْهُ؟ وَكَيْفَ حَدَّثْتَهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِذَلِكَ؟ إِنَّ

عَجَبِي مِنْ هَذَا لَا يَنْقُضِي، أَيْنَ بَنُو أُمَيَّةَ وَبَنُو مَرْوَانَ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ أَحْوَالِهِمُ الْمَشْهُورَةِ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا؟

فقلت: أيُّها الوزير، إِذَا حُقِّقَ النَّظَرُ وَاسْتُشِفَّ الْأَصْلُ لَمْ يَكُنْ هَذَا عَجَبِيًّا، فَإِنَّ أَعْجَازَ الْأُمُورِ تَالِيَةً لِمَصْدُورِهَا، وَالْأَسَافِلُ تَالِيَةٌ لِأَعَالِيهَا، وَلَا يَزَالُ الْأَمْرُ خَافِيًّا حَتَّى يَنْكَشِفَ سَبَبُهُ فَيُزُولُ التَّعْجُّبُ مِنْهُ، وَإِنَّمَا بَعْدَ هَذَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُعْنَوْا بِهِ وَبَتَّعَرَفُوا أَوَائِلَهُ وَالْبَحْثَ عَنْ غَوَامِضِهِ، وَوَضَعِهِ فِي مَوَاضِعِهِ، وَذَهَبُوا مَذْهَبَ التَّعْصُّبِ.

قال: فما الذي خَفِيَ حَتَّى إِذَا عُرِفَ سَقَطَ التَّعْجُّبُ وَلَزِمَ التَّسْلِيمُ؟

فكان من الجواب: لَا خِلَافَ بَيْنَ الرُّوَاةِ وَأَصْحَابِ التَّارِيخِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ تُوُفِّيَ وَعَتَابُ بْنُ أَسِيدٍ عَلَى مَكَّةَ، وَخَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ عَلَى صَنْعَاءَ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَزْبٍ عَلَى نَجْرَانَ، وَأَبَانُ بْنُ سَعِيدٍ عَلَى الْعَاصِ عَلَى الْبَحْرَيْنِ، وَسَعِيدُ بْنُ الْقَشْبِ الْأَزْدِيُّ حَلِيفُ بَنِي أُمَيَّةَ عَلَى جَرَشَ وَنَحْوِهَا، وَالْمَهَاجِرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ الْمَخْزُومِيُّ عَلَى كِنْدَةَ وَالصَّدِيفِ؛ وَعَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى عُثْمَانَ، وَعُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ عَلَى الطَّائِفِ. فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ - ﷺ أَسَّسَ هَذَا الْأَسَاسَ، وَأَظْهَرَ أَمْرَهُمْ لِجَمِيعِ النَّاسِ؛ كَيْفَ لَا يَقْوَى ظُهُمُ، وَلَا يَنْبَسِطُ رَجَاؤُهُمْ، وَلَا يَمْتَدُّ فِي الْوَلَايَةِ أَمْلُهُمْ؟ وَفِي مَقَابِلَةِ هَذَا، كَيْفَ لَا يَضْعُفُ طَمَعُ بَنِي هَاشِمٍ، وَلَا يَنْقَبِضُ رَجَاؤُهُمْ، وَلَا يَقْصُرُ أَمْلُهُمْ؟ وَهِيَ الدُّنْيَا، وَالَّذِينَ عَارَضُوا فِيهَا، وَالْعَاجِلَةُ مَحْبُوبَةٌ، وَهَذَا وَمَا أَشْبَهَهُ حَدَدَ أَنْبِيَائُهُمْ، وَفَتَحَ أَبْوَابَهُمْ؛ وَأَثَرَعَ كَأْسَهُمْ، وَقَتَلَ أَمْرَاسَهُمْ، وَدَلَّائِلُ الْأُمُورِ تَسْبِقُ، وَتَبَاشِيرُ الْخَبَرِ تُعَرِّفُ.

قال ابن الكلبي: حَدَّثَنِي الْحَكَمُ بْنُ هِشَامٍ الثَّقَفِيُّ قَالَ: مَاتَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ جَحْشٍ عَنْ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ، وَكَانَتْ مَعَهُ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَخَطَبَهَا النَّبِيُّ ﷺ إِلَى النَّجَاشِيِّ، فَدَعَا بِالْقُرَشِيِّينَ فَقَالَ: مَنْ أَوْلَاكُمْ بِأَمْرِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ؟ فَقَالَ خَالِدُ بْنُ سَعِيدٍ بْنُ الْعَاصِ: أَنَا أَوْلَاهُمْ بِهَا. قَالَ: فَزَوِّجْ نَبِيَّكُمْ. قَالَ: فَزَوَّجَهُ وَمَهَّرَ عَنْهُ أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارٍ؛ فَكَانَتْ أَوَّلَ امْرَأَةٍ مَهَّرَتْ أَرْبَعَمِائَةَ دِينَارٍ؛ ثُمَّ حُمِلَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَمَعَهَا الْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّكَ لَتُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَى هَذَا الشَّابِّ. قَالَ: أَلَيْسَ ابْنُ الْمَخْزُومِيَّةِ؟ قَالُوا: بَلَى؛ قَالَ: إِذَا بَلَغَ بَنُو هَذَا أَرْبَعِينَ رَجُلًا كَانَ الْأَمْرُ فِيهِمْ، وَكَانَ مَرْوَانُ إِذَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ كَلَامًا قَالَ لِمُعَاوِيَةَ: وَاللَّهِ إِنِّي لَأَبُو عَشْرَةٍ، وَأَخُو عَشْرَةٍ، وَعَمُّ عَشْرَةٍ، وَمَا بَقِيَ إِلَّا عَشْرَةٌ حَتَّى يَكُونَ الْأَمْرُ فِيَّ؛ فَيَقُولُ مُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ: أَخَذَهَا وَاللَّهِ مِنْ عَيْنٍ صَافِيَةٍ.

فهذا - كما تَسْمَعُ - إِنْ كَانَ حَقًّا فَلَا سَبِيلَ إِلَى رَدِّهِ، وَإِنْ كَانَ مُفْتَعَلًا فَقَدْ صَارَ دَاعِيَةً إِلَى الْأَمْرِ الَّذِي وَقَعَ نَزَاعٌ فِيهِ، وَجَالَ الْخِصَامُ عَلَيْهِ.

وهاهنا شيء آخر.

قال القَعْقَاع بنُ عمرو: قلتُ لعلِّي بن أبي طالب - عليه السلام - . ما حَمَلَكَم على خلافِ العباسِ بن عبد المطلب وتَرْكِ رَأْيِهِ؟ وهذا يَغْنِي به أَنَّ العباسَ كان قال لعلِّي - عليه السلام - في مرض النَّبِيِّ ﷺ: قُمْ بنا إليه لِنَسْأَلَهُ عن هذا الأمر، فإن كان لنا أَشَاعُهُ في النَّاسِ، وإن كان في غيرنا وَصَّيَ فينا، وكان عليٌّ عليه السلام أبى على عمِّه العباسِ ولم يُطَاوِعْهُ. قال القَعْقَاع: قال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب - عليه السلام - في جوابه لي: لو فَعَلْنَا ذَلِكَ فَجَعَلْهَا في غَيْرِنَا بعد كلامنا لم نَدْخُلْ فيها أَبَدًا، فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَكُفَّ، فَإِنْ جَعَلْهَا فينا فهو الَّذي نريد، وإن جَعَلْهَا في غَيْرِنَا كَانَ رَجَاءُ مَنْ طَلَبَ ذَلِكَ مِنَّا مَمْدُودًا، ولم يَنْقَطِعْ مِنَّا ولا من النَّاسِ. قال القَعْقَاع: فكان النَّاسُ في ذلك فرقتين: فرقة تَحَزَّبَ للعباس وتَدِينُ له، وفرقة تَحَزَّبَ لِعَلِّيٍّ وتدين له. وما أَشْبَهَهُ يُضْعِفُ نفوسًا، وَيَرْفَعُ رُؤُوسًا.

وبعد فهذا البيتُ خُصَّ بالأمر الأوَّل، أعني الدَّعْوَةَ والنُّبُوَّةَ والكتابَ العزيز، فأما الدنيا فإنها تَزُولُ من قوم إلى قوم، وقد رُوِيَ أَبُو سُفْيَانَ صَخْرُ بن حَزْبٍ وقد وقف على قبر حمزة بن عبد المطلب وهو يقول: رحمك الله يا أبا عُمارة، لقد قاتلتنا على أمرٍ صار إلينا.

فإن قال قائل: فقد وصل هذا الأمرُ بعد مدَّةٍ إلى آل النَّبِيِّ ﷺ؛ فالجواب: صَدَقْتُ، ولكن لما ضَعُفَ الدِّينَ وَتَحَلَّحَ رُكْنُهُ وتداوَلَه النَّاسُ بِالْغَلْبَةِ والقَهْرِ، فتطاوَلَ له ناسٌ من آل رسول الله ﷺ بالعَجَمِ وبِقُوَّتِهِمْ ونَهَضَتْهُمْ وعادَتْهُمْ في مساوَرَةِ المُلُوكِ، وإزالة الدُّوَلِ وتناولِ العِزِّ كيف كان، وما وَصَلَ إلى أَهْلِ العَدَالَةِ والطَّهارة والزُّهْدِ والعبادة والوَرَعِ والأمانة، ألا ترى أَنَّ الحالَ استحالَت عَجَمًا: كِسْرِيَّةً وقِيَصْرِيَّةً، فأين هذا من حديث النُّبُوَّةِ النَّاظِقَةِ، والإمامة الصادقة؟ هذا الرِّبْعُ - وهو حاجب المنصور - يَضْرِبُ مَنْ شَمَّتْ الخليفةَ عند العَطْسَةِ، فيشْكِي ذلك إلى أبي جَعْفَر المنصور، فيقول: أَصَابَ الرَّجُلُ السُّنَّةَ وأَخْطَأَ الأدب. وهذا هو الجهل، كأنَّه لا يَعْلَمُ أَنَّ السُّنَّةَ أَشْرَفُ من الأدب، بل الأدبُ كُلُّهُ في السُّنَّةِ، وهي الجامعةُ للأدب النبوي والأمر الإلهي، ولكن لما غلبت عليهم العِزَّةُ، ودَخَلَتِ الثُّعْرَةُ في آثافِهِمْ، وظَهَرَتِ الخُزْنَوَانَةُ^(١) بَيْنَهُمْ سَمَّوْا آيِينَ^(٢) العَجَمِ أَدْبًا، وقَدَّمُوهُ على السُّنَّةِ التي هي ثَمَرَةُ النُّبُوَّةِ، هذا إلى غير ذلك من الأمور المعروفة، والأحوال المتعالمَةِ المتداوِلَةِ التي لا وَجْهَ لذكرها، ولا فائدة لنشرها، لأنها مقرَّرة في التاريخ، ودائرة في غُرُضِ الحديث.

ولما كانت أوائلُ الأمور على ما شَرَحْتُ، وأواسطُها على ما وَصَفْتُ كان من نتائجها هذه الفِتنَ والمذاهبُ، والتعصُّبُ والإفراطُ، وما تَفَاقَمَ منها وزاد ونما وعلا وتَرافَقَ، وضاعت الحِيلُ عن تَدَارُكِهِ وإصلاحه، وصارت العامةُ مع جَهْلِهَا، تجدُّ قُوَّةً من خاصَّتِهَا مع عِلْمِهَا، فسُفِكَتِ الدِّماءُ، واستُبيحَ الحريمُ، وشُنَّتِ الغاراتُ، وخُرِبَتْ

الديارات، وكثر الجدال، وطال القيل والقال، وفشا الكذب والمُحال، وأصبح طالب الحق حيران، ومحَبُّ السلامة مَقْصُوداً بكلِّ لسانٍ وسنان، وصار الناسُ أحزاباً في النحل والأديان^(١): فهذا نُصَيْرِي، وهذا إسحاقِي، وهذا جَارُودِي، وهذا قِطْعِي، وهذا جُبَّائِي، وهذا أشْعَرِي، وهذا خارجِي، وهذا شُعَيْبِي، وهذا قَرْمَطِي، وهذا راوْنِدِي، وهذا نَجَّارِي، وهذا زَعْفَرَانِي، وهذا قَدَرِي، وهذا جَبَرِي، وهذا لَفْطِي، وهذا مستَدْرِكِي، وهذا حَارِثِي، وهذا رَافِضِي، ومن لا يُحْصِي عَدَدَهَا إِلَّا اللَّهُ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ؛ لَا جَرَمَ شِمَتِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ بِالْمُسْلِمِينَ، وَعَابُوا وَتَكَلَّمُوا، وَوَجَدُوا أَجْراً وَجِصاً فَبَنُوا، وَسَمِعُوا فَوْقَ مَا تَمَنَّوْا فَرَوْزاً.

وقال النبي ﷺ: « لا يزداد الأمر إلا ضُعبوة، ولا الناسُ إلا اتِّباعَ هَوًى، حتى تقوم الساعةُ على شرارِ النَّاسِ ».

وقال أيضاً: « بدأ الإسلامُ غريباً، وسيعود كما بدأ غريباً، فطوبى للغُرَبَاءِ مِنْ أُمَّتِي »^(٢).

وقلْتُ لابن الجَلَاءِ الزَاهِدِ بِمَكَّةَ سَنَةً ثَلَاثَ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثُمِائَةً: ما صِفَةُ هَذَا الْغَرِيبِ؟ فَقَالَ لِي: يَا بُنَيَّ هُوَ الَّذِي يَفِرُّ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى مَدِينَةٍ، وَمِنْ قُلَّةٍ إِلَى قُلَّةٍ؛ وَمَنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ وَمَنْ بَرٍّ إِلَى بَحْرٍ، وَمَنْ بَحْرٍ إِلَى بَرٍّ، حَتَّى يَسْلَمَ، وَأَتَى لَهُ بِالسَّلَامَةِ مَعَ هَذِهِ النِّيرَانِ الَّتِي قَدْ طَافَتْ بِالشَّرْقِ وَالْغَرْبِ، وَأَتَتْ عَلَى الْحَزْثِ وَالنَّسْلِ، فَقَدِمَتْ كُلُّ أَقْوَاهُ، وَأَسَكَّتْ كُلُّ نَاطِقٍ، وَحَيَّرَتْ كُلَّ لَبِيبٍ، وَأَشْرَقَتْ كُلُّ شَارِبٍ، وَأَمَرَّتْ عَلَى كُلِّ طَاعِمٍ؛ وَإِنَّ الْفِكْرَ فِي هَذَا الْأَمْرِ لِمُخْتَلَسٍ لِلْعَقْلِ وَكَارِثٍ^(٣) لِلنَّفْسِ، وَمُحْرِقٍ لِلْكَبِدِ.

فَقَالَ الْوَزِيرُ: وَاللَّهِ إِنَّهُ لَكَذَلِكَ، وَقَدْ نَالَ مِنِّْي هَذَا الْكَلَامُ، وَكَبُرَ عَلَيَّ هَذَا الْخَطْبُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَنَظَرْتُ إِلَيْهِ وَقَدْ دَمَعَتْ عَيْنُهُ وَرَقَّ فُؤَادُهُ وَهُوَ - كَمَا تَعْلَمُ - كَثِيرُ النَّأَلَةِ، شَدِيدُ التَّوَقُّي، يَصُومُ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسَ، فَإِذَا كَانَ أَوَّلَ رَجَبٍ أَصْبَحَ صَائِماً إِلَى أَوَّلِ يَوْمٍ مِنْ

(١) انظر حول هذه الفرق كتب الفِرَقِ مثل مقالات الإسلاميين للأشعري والملل والنحل للشهرستاني والفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم.

(٢) روى مسلم في صحيحه ٦٥ - باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً، وإنه يارز بين المسجدين. حديث رقم: ٢٣١١ - (١٤٤).

وروى الترمذي، في سننه: ١٣ - باب ما جاء أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً. حديث رقم: ٢٧٦٤ - عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء».

(٣) من كرثه الهم إذا اشتد عليه.

شوال، وما رأينا وزيراً على هذا الدأب وبهذه العادة، لا منافقاً ولا مُخلصاً، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] تَوَلَّاهُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْوَلَايَةِ، وكفاه أكمل الكفاية، إنه قريب مجيب.

فلَمَّا رَأَيْتُ دَمَعَتَهُ، قُلْتُ: أيها الوزير، رُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «حُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ بَكْتٍ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ، وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ سَهْرَتٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَحُرِّمَتِ النَّارُ عَلَى عَيْنِ غَضَّتٍ عَنْ مَحَارِمِ اللَّهِ»^(١)، فقال - أحسن الله توفيقه -: هو الهلاك إن لم يُنْقِذَ اللَّهُ بِفَضْلِهِ، وَلَمْ يَتَّعَمَدْ بِعَفْوِهِ؛ لَوْ غَرِقْتُ فِي الْبَحْرِ كَانَ رَجَائِي فِي الْخُلَاصِ مِنْهُ أَقْوَى مِنْ رَجَائِي فِي السَّلَامَةِ مِمَّا أَنَا فِيهِ. قُلْتُ: إِذَا عَلِمَ اللَّهُ مِنْ ضَمِيرِكَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ أَلْبَسَكَ ثَوْبَ عَفْوِهِ، وَحَلَاكَ بِشِعَارِ عَافِيَتِهِ وَوَلَايَتِهِ، وَكَفَاكَ كَيْدَ أَعْدَائِكَ، وَعَصَبَ بَرُؤُسِهِمْ مَا يَرِيدُونَهُ بِكَ ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فقال: اجمع لي جزءاً من رقائق العُباد وكلامهم اللطيف الحلو، فإن مرامهم شريفة، وسرائرهم خالصة، ومواعظهم رادعة، وذاك - أظن - للذين الغالب عليهم، والتأله المؤثر فيهم؛ فالصدق مقرون بمنطقهم، والحق موصول بقصدهم، ولست أجد هذا المعنى في كلام الفلاسفة، وذاك - أظن أيضاً - لخوضهم في حديث الطبائع والأفلاك والآثار وأحداث الزمان. قُلْتُ: أفعل، فكتبت تمام ما تقدّم به، ثم كتبت بعد ورقات في حديث السَّكَّ.

قال عتبة بن المنذر السلمي: سئل رسول الله ﷺ أي الأجلين قضى موسى - عليه السلام -؟ فقال: أكثرهما وأوفاهما، ثم قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مُوسَى - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَمَّا أَرَادَ فِرَاقَ شُعَيْبٍ أَمَرَ أَمْرَاتَهُ تَسْأَلُ أَبَاهَا أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ تَتَاجَ غَنَمِهِ مَا يَعِيشُونَ بِهِ، فَأَعْطَاهَا مَا وَضَعَتْ غَنَمُهُ مِنْ قَالِبِ لَوْنِ ذَلِكَ الْعَامِ، فَلَمَّا وَرَدَتِ الْحَوْضَ وَقَفَ مُوسَى بِإِزَاءِ الْحَوْضِ فَلَمْ تَصْدُرْ مِنْهَا شَأٌ إِلَّا ضَرَبَ جَنْبَهَا بِعَصَاهُ، فَوَضَعَتْ قَوَالِبَ أَلْوَانِ كُلِّهَا وَوَضَعَتْ اثْنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ كُلِّ شَأٍ، لَيْسَ فِيهِنَّ فَشُوشٌ وَلَا ضَبُوبٌ وَلَا تُعُولُ وَلَا كَمِيشَةٌ تَفُوتُ الْكَفَّ، فَإِنْ افْتَتَحْتُمُ الشَّامَ وَجَدْتُمْ بِهَا بَقَايَا مِنْهَا، فَاتَّخِذُوهَا، وَهِيَ السَّامِرِيَّةُ»^(٢).

(١) في الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي: باب: حرف الحاء. حديث رقم: ٣٧٠٤ -: حرمت النار على عين بكت من خشية الله؛ وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله؛ وحرمت النار على عين غضت عن محارم الله أو عين فقتت في سبيل الله. التخریج (مفصلاً): الطبراني في الكبير والحاكم في المستدرک عن أبي ریحانة، تصحيح السيوطي: صحيح.

(٢) في مجمع الزوائد، للحافظ الهيثمي: باب هبة ما لم يولد. حديث رقم: ٦٤٩٢ - عن عتبة بن النذر أن رسول الله ﷺ سئل أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أبرهما وأوفاهما ثم قال النبي ﷺ: لما أراد موسى فراق شعيب صلى الله عليه وسلم أبرهما وأوفاهما ثم قال النبي ﷺ =

قال جعفر بن أبي طالب للتجاشي في حديث: بعث الله تعالى رسولا فينا نعرف صدقه وأمانته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد، وأمرنا بصديق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرّحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدّماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المخصّصات.

وقال صاحب التاريخ: ولدت لعمر بن الخطاب - رضوان الله عليه - أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب - عليه السلام - زيدا ورقية؛ وأم أم كلثوم فاطمة بنت النبي ﷺ.

قال أنس بن مالك: صلى الناس على رسول الله ﷺ لما توفي أفراداً لم يؤمهم عليه أحد.

ولما بلغ رسول الله ﷺ ثمان سنين، هلك عبد المطلب، وهو شيبه أبو الحارث، وذلك بعد الفيل بثمان سنين، وتوفيت أمه وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، كانت قدِمَت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيه إياهم، فماتت وهي راجعة إلى مكة.

= ما يعيشون به فأعطاها ما ولدت غنمه في ذلك العام من قال لون (أي جاءت على غير ألوان أمهاتها كأن لونها قد انقلب) قال: فما مرت شاة إلا ضرب موسى جنيها بعصاه فولدت قوالب ألوانها كلها وولدت ثنتين وثلاثين كل شاة ليس فيها فشوش ولا ضبوب ولا كمشة تفوت الكف ولا ثعول (الفشوش: التي يقطر لبنها من غير حلب لوسع ثقب الضرع، والضبوب: الضيقة مخرج اللبن، والكمشة الصغيرة الضرع، والثعول: التي لها حلمة زائدة). وقال رسول الله: إذا افتتحتم الشام فإنكم ستجدون بقايا منها وهي السامرية. رواه البزار وفيه ابن لهيعة وفيه كلام وبقية رجاله رجال الصحيح خلا عمر بن الخطاب السجستاني وهو ثقة ولم يضعفه أحد.

الليلة الحادية والعشرون

وسأل مرة عن الْمُغْنِي إذا راسله آخر^(١) لِمَ يجب أن يكون أَلَذَّ وَأَطْيَبَ، وأخْلَى وأَعَذَبَ؟

فكان من الجواب: أن أبا سليمان قال في جواب هذه المطالب ما يمنع من اقتضابِ قَوْلٍ وتكْلُفِ جواب، ذَكَرَ أَنَّ المسموع الواحد إنما هو بالحس الواحد، وربما كان الحس الواحد أيضاً غليظاً أو كَدِيراً، فلا يكون لنيله اللذة به بَسْطٌ وَنَشْوٌ وَلَذَاذَةٌ، وكذلك المسموع ربّما لم يكن في غاية الصفاء على تمام الأداء بالتقطيع الذي هو نفس في الهواء، فلا تكون أيضاً إنالته للذة على التمام والوفاء، فإذا تُنِّي المسموع - أعني تَوَحَّدَ النَّعْمُ بِالنَّعْمِ - قَوِيَ الحسُّ المُدْرِك، فنال مسموعين بالصناعة، ومسموعاً واحداً بالطبيعة؛ والحس لا يعشق الموحدة والمناسبة والاتفاق إلا بعد أن يجدها في المركّب، كما أن العقل لا يعشق إلا بعد أن ينالها في فضاء البسيط؛ فكلّما قَوِيَ الحس باستعماله، التذّ صاحبه بقوّته حتى كأنه يسمع ما لم يسمع بحسّ أو أكثر، وكما أن الحس إذا كان كليلاً كان الذي يناله كليلاً، كذلك الحس إذا كان قوياً كان ما يناله قوياً.

قال: هذا كلّهُ موهوبٌ للحس، فما للعقل في ذلك؟ فإنّما نرى العاقل تعثره دَهْشَةٌ وَأَرْيَحِيَّةٌ واهتزاز.

قلت: قد أتى على مجموع هذا ومعرفته أبو سليمان في مذاكرته لابن الخمار، وذكر أن من شأن العقل السكون، ومن شأن الحسّ التهيج، ولهذا يوصف العاقل بالوقار والسكينة، ومن دونه يوصف بالطيش والعجرفة، والإنسان ليس يجد العقل وجداناً فيلتذّ به، وإنما يعرفه إمّا جملةً وإمّا تفصيلاً؛ أعني جملةً بالرسم وتفصيلاً بالحدّ، ومع ذلك يشتاقي إلى العقل، ويتمنى أن يناله ضرباً من الثيل ويجده نوعاً من الوجدان، فلما أبرزت الطبيعة الموسيقى في عرض الصناعة بالآلات المهيّأة، وتحركت بالمناسبات التامة والأشكال المتّفقة أيضاً، حَدَثَ الاعتدال الذي يُشعر بالعقل وطلوعه وانكشافه وانجلائه، فبهر الإحساس، وبثّ الإيناس، وشوّق إلى عالم الروح والتعيم، وإلى محلّ الشرف العميم، وبعث على كسب الفضائل الحسّية

(١) أي تابعه في غنائه مساندة له.

والعقلية، أعني الشجاعة والجود والحلم والحكمة والصبر، وهذه كلها جماع الأسباب المكملّة للإنسان في عاجلته وآجلته؛ وبالواجب ما كان ذلك كذلك، لأن الفضائل لا تقتنى إلا بالشوق إليها، والحرص عليها، والطلب لها؛ والشوق والطلب والجرض لا تكون إلا بمشوقٍ وباعثٍ وداعٍ، فلهذا برزت الأريحية والهزة، والشوق والعزة؛ فالأريحية للروح، والهزة للنفس، والشوق للعقل، والعزة للإنسان. وما يجب أن يعلم أنّ السمع والبصر أخصّ بالنفس من الإحساسات الباقية، لأنهما خادما النفس في السرّ والعلانية، ومؤنساها في الخلوة، وممّداها في التوم واليقظة؛ وليست هذه الرتبة لشيء من الباقيات، بل الباقيات آثارها في الجسد الذي هو مطية الإنسان، لكن الفرق بين السمع والبصر في أبواب كثيرة: أطفؤها أنّ أشكال المسموع مركبة في بسيط، وأشكال المبصر مبسطة في مركّب.

قلت: وقد حكيت هذا لأبي زكرياء الصنميريّ فطربَ وازتاح وقال: ما أبعد نظَرَ هذا الرجل! وما أرقى لحظه! وما أعزّ جانبَه!

الليلة الثانية والعشرون

وقال لي مرّة أخرى: أزو لي شيئاً من كلام أبي الحسن العامري، فإني أرى أصحابنا يردّلونه ويذيلونه، فلا يرون له في هذه العُصبة قدماً، ولا يرفعون له في هذه الطائفة علماً.

فقلت: كان الرجل لكزّازته وغلظ طباعه وجفاء خلقه يُنفّر من نفسه، ويُغري الناس بعرضه، فإذا طُلب منه الفنّ الذي قد خُصّ به وطولّب بتحقيقه وُجد على غاية الفضل.

فمن كلامه قوله: الطبيعة تتدرّج في فعلها من الكلّيات البسيطة، إلى الجزئيات المركّبة، والعقل يتدرّج من الجزئيات المركّبة، إلى البسائط الكلّية، والإحاطة بالمعاني البسيطة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني المركّبة، ليتوصّل بتوسطها إلى إثبات إنّيّاتها، والإحاطة بالمعاني المركّبة تحتاج إلى الإحاطة بالمعاني البسيطة ليتوصّل بتوسطها إلى تحقيق إثباتها. وكما أن القوة الحسيّة عاجزة بطباعها عن استخلاص البسائط الأوائل، بل تحتاج معها إلى القوة العاقلة، وإن قوّيت لصار العقل فضلاً - كذلك أيضاً القوة العاقلة لا تقوى بذاتها على إثبات إنّيّاتها المركّبات إلا من جهة القوة الحسّاسة، ولو قوّيت عليه لصار الحسّ فضلاً للعاقلة.

قال: هذا كلامٌ بارعٌ من صدرٍ واسع، وأحبُّ أن تزيدني من نمطه. قلت: وقال أيضاً: الكلّي مُفتقرٌ إلى الجزئي لا لأن يصير بديموّمته محفوظاً بل لأن يصير بتوسطه موجوداً، والجزئي مُفتقرٌ إلى الكلّي لا لأن يصير بتوسطه موجوداً، بل لأن يصير بديموّمته محفوظاً.

وقال: الحال في جميع السُّبل - أعني مسالك الأشياء في تكوّنها صناعيّة كانت أو تدبيريّة أو طبيعيّة أو اتفاقيّة - واحدة، مثاله أن الإنسان وإن التذّ بالذستنبان^(١) فلن يُعدّ موسيقاراً إلّا إذا تحقّق بمبادئه الأولى التي هي الطّينيات وأنصاف الطّينيات، وكذلك الإنسان وإن استطاب الحلو فلن يسمّى حلوانياً إلّا إذا عرّف بسائطه وأسطفّساته.

وقال: العلم لا يحيط بالشيء إلّا إذا عرّف مبادئه القريبة والبعيدة والمتوسطة.

(١) كلمة فارسية مركبة من كلمتين: دستان معناه النغمة وبان أي الذي يضرب به.

وقال: نتوصل إلى كُرِّيَّة القمر بما نراه من اختلاف أشكاله، أعني أنا نراه في الدَّوْرَة الواحدة هلالياً مرَّتَيْن ومنصَّفاً مرَّتَيْن وبدراً مرَّةً واحدة، وهذه الأشكال وإن كانت متقدِّمة عندنا فإن كونه كُرِّيَّاً هو المتقدِّم بالذات.

وقال: ما هو أكثر تركيباً فالحسُّ أقوى على إثباته، وما هو أقلُّ تركيباً فالعقل أَخْلَصُ إلى ذاته.

وقال: الأحداث - وهي الذوات الإبداعية - الوقوف على إثباتها يغني عن البحث عن ماهياتها.

وقال: كلُّ معنى يُوجَدُ بوجوده غيره لا يرتفع بارتفاع ذلك الذي هو غيره، بل يرتفع غيره بارتفاعه، فإنه أقدمُ ذاتاً من غيره، مثاله الجنس لا يرتفع بارتفاع واحدٍ من أنواعه، والأنواع ترتفع بارتفاع الجنس، وكذلك حالُ النوع مع الشخص، فالجنس أقدم من النوع، والنوع أقدم من الشخص، وأعني بالجنس والنوع الطبيعيَّين لا المنطقيَّين.

وقال: معرفتنا أولاً تتعلق بالأشخاص الجزئية ثم بتوسطها ثبتت الأجناس فإذا المتقدِّم بالذات غير المتقدِّم إلينا.

وقال: مَسَلُّكُ العقل في تعرُّف المعاني الطبيعية مقابل لمسلك الطبيعة في إيجادها، لأنَّ الطبيعة تتدرَّج من الكلِّيات البسيطة إلى الجزئيات المركَّبة، والعقل يتدرَّج من الجزئيات المركَّبة إلى البسائط الكلية.

قال أبو النضر نفيس: إنما كان هذا هكذا لأنَّ الطبيعة متناولة من العقل والعقل مُناوِلٌ للطبيعة، فَوَجَبَ أن يختلف الأمران، فإن قال قائل: فهلا تمَّ الأمران معاً بواحدٍ منهما، أعني الطبيعة أو العقل؟ فالجواب أن أحدهما في العلو، والآخر في السفلى، فليس للعالي أن يهبط، ولا للسافل أن يعلو؛ فلمَّا كان هذا محالاً تَوَسَّطَ بينهما - أعني العالي والسافل - المناولة والتَّناوُلُ حتى اتَّصل الأول بالثاني، وغصَّ الفضاء بينهما بضروب الأفراد والأزواج، وانتظم الكل فلم يكن فيه خلل، ولا دونه مأتى، ولا وراءه متوهم.

وقال: الإنسان مركَّب من الأعضاء الآلية بمنزلة الرأس واليدين والرجلين وغيرها، ثم كلُّ واحد من هذه الأعضاء مركَّب من الأعضاء المتشابهة الأنواع بمنزلة اللحم والعظم والعصب والشريان، ثم كل واحد من هذه الأعضاء مركَّب من الأخطاط الأربعة التي هي الدم والبلغم والمرتان، ثم كلُّ واحد من هذه الأخطاط مركَّب من الأنسَطَقُسات الأربعة التي هي النار والهواء، والأرض والماء؛ ثم كلُّ واحد من هذه الأنسَطَقُسات مركَّب من الهَيُولَى والصورة.

وقال: كما أن لكل عضو قوة تخصه بتدبيرها، كذلك لجميع البدن قوة أخرى ضامنة لتدبيره.

قال: وقال الحكيم في كتاب «السماء»: «عِلَّةُ الأنواع والأجناس ودوامها هي الفلك المستقيم، وعلة كون الأشخاص وتجدد حُدُوثها هي الفَلَكُ المائل، فأما الكليات المنطقية فإن طبيعتها هي القوة القياسية المستتبّة لها عند تَكُونِ الحسّ على واحدٍ منها.

قال أبو النضر نفيس: هذا حُكْمٌ بالوهم، ورَأْيٌ خَرَجَ مِنَ الظَّنِّ؛ الفَلَكُ المستقيم والفَلَكُ المائل هما بنوع الوَحْدَةِ ونِسْبَةِ الاتِّفَاقِ، فليس لأحدهما اختصاص بالأنواع والأجناس، ولا بتجدد الأشخاص، والدليل على هذا أن قَالِباً لو قَلِبَ قَالِبُهُ ذلك لم يكن له عنه انفصال. ولِلرَّأْيِ زَلَّاتٌ، كما أَنَّ لِللِّسَانِ فَلَتَاتٌ، وللحَكِيمِ هَفَوَاتٌ، كما أَنَّ لِلْجَوَادِ عَثَرَاتٌ؛ وما أَكْثَرَ مَنْ يَسْكُرُ فيقول في سُكْرِهِ ما لا يعرف، وما أَكْثَرَ مَنْ يَغْرُقُ في النوم فيَهْذِي بما لا يدري، ومن الذي حَقَّقَ عنده أَنَّ الفَلَكُ المستقيم هذا نعتُهُ، والفَلَكُ المائل تلك صِفَتُهُ؛ هذا توهُّمٌ وتلفيقٌ، لا يَزْجَعُ مُدَّعِيهِ إلى تحقيقٍ، وقَوْلُ أَبِي الْحَسَنِ هذا عن الحكيم تقليدٌ، كما أَنَّ دَعْوَى ذَاكَ الْحَكِيمِ توهُّمٌ، وَمَحَبَّةُ الرُّجَالِ لِلرُّجَالِ فِتْنَةٌ حَامِلَةٌ عَلَى رَدِّ الْحَقِّ؟ وهذا أَمْرٌ قد طال منه الضَّجِيجُ، وفُزِعَ إِلَى اللَّهِ مِنْهُ بِالتَّضَرُّعِ.

قال أبو الحسن: الموجود له حقيقة واحدة لا تُذَرَكُ إِلَّا عَقْلاً، وليس له مَبْدَأٌ، ولو كان له مَبْدَأٌ لشاركه المَبْدَأُ في طبيعة الوجود، وليس بمتحرِّكٍ لَّأنَّهُ لا مُقَابِلَ لَهُ فيتحَرِّكُ إِلَيْهِ.

وقال أبو النضر نفيس: عَنَى بهذا الموجود الحقُّ الأوَّلُ الَّذِي هُوَ عِلَّةُ الْعِلَلِ، وهو البارئُ الإلهُ، وما أنصَفَ، لَّأنَّهُ يَجِبُ أَنْ يَفْسِمَ الموجودَ بأقسامه، ويَصِفَ مرتبته كُلَّ موجودٍ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ وَعَلَى مَا هُوَ بِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْ هَذَا الموجودِ الْأَعْلَى إِلَى آخِرِ الموجودِ الْأَسْفَلِ، أَوْ يَصِفَ الموجودَ الْأَسْفَلِ حَتَّى يَرْتَقِيَ إِلَى هَذَا الموجودِ الْأَعْلَى، فَإِنَّهُ مِمَّا يَعْقِلُ وَيُحِسُّ إِلَّا وَلَهُ مِنْ هَذَا الوجودِ نَصِيبٌ بِهِ اسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ موجوداً، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ النَّصِيبُ قَلِيلاً.

وقال: قد يوصف الشيء بأنه واحد بالمعنى وهو كثير بالأسماء، ويوصف بأنه واحد بالاسم وهو كثير بالمعنى، ويوصف بأنه واحد بالجنس وهو كثير بالأنواع، ويوصف بأنه واحد بالنوع وهو كثير بالشخص، ويوصف بأنه واحد بالاتصال وهو كثير بالأجزاء، وقد نقول في شيء: إنه واحد بالموضوع وهو كثير بالحدود، كالتفاحة الواحدة التي يوجد فيها اللون والطعم والرائحة، وقد يكون واحداً في الحد وكثيراً في الموضوع، كالبياض الذي يوجد في الثلج والقطن والإسفيداج، وقد يكون كثيراً بالحد

والموضوع كالعِلْم والحركة، فإنَّ موضوعَ هذا الجِسْم، وموضوعَ ذاك النفس، وحدُّ أحدهما غيرُ حدِّ الآخر، وقد يكون واحداً بالموضوع والحدُّ بمنزلة السِّيفِ والصَّنْصَامِ؛ وقد نقول أشياء تكون واحدةً بالفعل، وهي بالقوة كثيرة، كالسَّراج الواحد؛ فأما أن يكون واحداً بالقوة وكثيراً بالفعل من وجهٍ واحد، فلا يكون، بل من جهات مختلفة.

قال أبو النضر نفيس: الواحد الذي ينقسم فتنشأ منه الكثرة غيرُ الواحد الذي لا ينقسم، والكثير الذي يتوحد حتى يكون واحداً غيرُ الكثير الذي لا يتوحد، فالواحد الذي لا ينقسم علّة الواحد المنقسم، والكثير الذي يتوحد هو علّة الكثير الذي لا يتوحد، وبالحكمة الإلهية، ما كان هكذا حتى يكون الكثير الذي يتوحد في مقابلة الكثير الذي لا يتوحد، والواحد الذي ينقسم في مقابلة الواحد الذي لا ينقسم، وهذه المقابلة هي عبارة عن صورة التمام الحاصل للكل، وليست هي عبارة عن صورة مزاحمة لصورة، أو كثرة غالبية لكثرة، المستغاث بالله من قصور العبارة عن الغاية، وتفاعس اللفظ عن المراد.

وقال: يُعجبني من جُملة الحِكَم الأمثال التي يَضربونها، والعيون التي يستخرجونها، والمعاني التي يقرّبونها.

قلت: صدقت، مثلُ قول فيلسوف: البدن للنفس بمنزلة الدُّكان للمصانع، والأعضاء بمنزلة الآلات، فإذا انكسرت آلات المصانع وخُرب الدُّكان وانهدم، فإنَّ المصانع لا يقدِر على عمله الذي كان يَعْمَله إلا أن يتخذ دُكاناً آخر، وآلاتٍ جُددًا أخرى.

قال: أحبُّ أن أسمع شيئاً من مَثُور كلامِهِم في فنون مختلفة.

قلت: قال فيلسوف: العاقل يَضِلُّ عقله عند محاورَةِ الأحمق. قال أبو سليمان: هذا صحيح، ومثاله أنَّ العاقل إذا خاطَبَ العاقل فَهَمَّ وإن اختلفت مرتبتاهما في العقل، فإنهما يَزْجَعان إلى سِنخ^(١) العقل، وليس كذلك العاقل إذا خاطَبَ الأحمق، فإنهما ضدان، والضدَّ يهْرُب من الضدِّ؛ وقد قيل لأبي الهذيل العلاف - وكان مُتَكَلِّمَ زمانه -: إنَّكَ لَتَنَاطِرُ النِّظَام وتُدور بينكما نَوْبَات، وأحسنُ أحوالنا إذا حَضَرْنَا أن ننصرف شاكِّين في القاطع منكما والمنقطع، ونراك مع هذا يُنَاطِرُكَ زَنْجَوِيَه الحِمَالُ فَيَقْطَعُكَ في ساعة. فقال: يا قوم إن النِّظَام معي على جادة واحدة لا ينحرف أحدنا عنها إلا بَقْدَر ما يراه صاحبه فيُدْكَره انحرافه، ويَحْمَلُه على سَنَنِه فأمرُنَا يَقْرُب، وليس هكذا زنجويه الحِمَال فإنه يبتدئ معي بشيء، ثم يَطْفِر إلى شيء بلا واصله ولا فاصله، وأبقي، فيُحَكِّم عليَّ بالانقطاع، وذاك لعجزي عن ردِّه إلى سَنَنِ الطريق الذي فارَقني أنفًا فيه.

(١) سنج العقل: أصله.

وقال فيلسوف آخر: العادات قاهرات، فمن اعتاد شيئاً في السرّ فضحه في العلانية. قال أبو سليمان: وهذا صحيح، لأن حقيقة العادة في الشيء المعهود عوده بعد عوده، فهي - أعني العادة - الاستمرار الذي يقهر من اعتاده، والخلوّ حال، والعلانية حال، والعادة بجريانها تهجم في الحالين ولا تفرق؛ ولهذا ما قيل: العادة هي الطبيعة الثانية؛ كأن الطبيعة عادة، ولكنها الأولى بالجيلة؛ والعادة طبيعة ولكنها الأخرى بحسن الاختيار أو بسوء الاختيار.

وقال فيلسوف: ما أكثر من ظنّ أنّ الفقير هو الذي لا يملك شيئاً كثيراً وهذا فقير من جهة العرض، فأما الفقير الطبيعيّ فالذي شهواته كثيرة وإن كان كثير المال؛ كما أن الغنيّ الطبيعيّ لا يحتاج إلى شيء وإن كان قليل المال، أي الذي ملك نفسه وقمع شهواته وأخمد لهب إرادته؛ وقد ظنّ قوم أنّ الذين منعوا من الشهوات، ووصوا بالزهد في اللذات، خانوا الناس وحالوا بينهم وبين حظوظهم، وحرّموا ما هو لهم، وصدّوهم عن محبوباتهم؛ وهذا ظنّ خطأ، وأيّ مرادٍ في هذا للواعظين والمزهدين، والذين وصّوا وأشفقوا، ورذّعوا عن الخوض في لذات النفوس الغضبيّة والبهيميّة؟ والله ما كان ذلك منهم إلّا على طريق النصيحة والشفقة والإعذار والإنذار، إلّا أن يكون الذين ظنوا هذا إنما ظنّوه لأنهم رأوا بعض المزهدين راغباً، وبعض الناصحين غاشياً، وبعض الآمرين مخالفأ، وليس العمل على المختار، وعلى من أثر الغش في المقال؛ ولكن المرجع إلى ما يدلّ عليه الحق، ويشهد له العقل، ويصحّ فيه البرهان؛ أترى الفيلسوف غشّ في قوله لأصحابه: اقنعوا بالقوت، وانفوا عن أنفسكم الحاجة، ليكون لكم قربة إلى الله، لأنّ الله غير محتاج، كلّما احتجّتم أكثر كنتم منه أبعد، واهربوا من الشرّ والإثم، واطلبوا من الخير أعمّه وأعظمه، وأبقاه وأدومّه؛ واعرفوا الأبد، واطلبوا السّرمد، فإنّ من طلب الأبد ثم وجد بقي على الأبد، ومن طلب الأمد ثم وجد فنى على الأمد.

الحاجة ذلّ، والغنى عزّ، والعزّ ضدّ الذلّ؛ فمن طلب العزّ في العاجلة فقد طلب الذلّ وهو لا يدري، ومن طلب العزّ في الآجلة فقد وجد العزّ وهو يدري. في الحكمة أن يقال: اصبر على الذلّ ليتنال العزّ، وليس في الحكمة اثبت على العزّ ليتنال الذلّ، لهذا معكوس.

الليلة الثالثة والعشرون

وكان الوزير رَسَمَ بكتابة لَمَعَ من كلامِ الرَّسُولِ ﷺ، فَأَفْرَدْتُ ذلك في هذه الورقات، وهي:

قال ﷺ: «أَشَدُّ الأَعْمَالِ ثَلَاثَةٌ: إِنْصَافُ النَّاسِ مِنْ نَفْسِكَ، وَمُوَاسَاةُ الْإِخِ مِنْ مَالِكَ، وَشُكْرُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ».

وقال الواقدي: لَمَّا غَالَطَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ - يا خالد: ذَرُوا لِي أَصْحَابِي، لَوْ كَانَ أَحَدُ ذَهَبًا تَنْفَقُهُ قَرَارِيطُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ تُذْكَرْ غَدَوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ مِنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ^(١).

وقال عليه السلام: «إِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ تَبَشَّشَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ أَخْرَهَا أَعْرَضَ عَنْهُ»

وقال عليه السلام: «إِنَّمَا فَذْكُ طُعْمَةٍ أَطْعَمْنِيهَا اللَّهُ حَيَاتِي، ثُمَّ هِيَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ»^(٢).

(١) عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه. حديث رقم: ٣٦٦٧٤ - عن سلمة بن الأكوع قال: لما قدم خالد بن الوليد على النبي ﷺ بعد ما صنع ببني جذيمة ما صنع عاب عبد الرحمن بن عوف على خالد ما صنع، قال: يا خالد! أخذت بأمر الجاهلية قتلتهم بعمك الفاكه قاتلك الله! وأعانه عمر بن الخطاب على خالد، فقال خالد: أخذتهم بقتل أبيك، فقال عبد الرحمن: كذبت والله لقد قتلت قاتل أبي بيدي وأشهدت على قتله عثمان بن عفان، ثم التفت إلي عثمان فقال: أنشدك الله هل علمت أنني قتلت قاتل أبي؟ فقال عثمان: اللهم! نعم، ثم قال عبد الرحمن: ويحك يا خالد! ولو لم أقتل قاتل أبي كنت تقتل قوماً من المسلمين بأبي في الجاهلية؟ قال خالد: ومن أخبرك أنهم أسلموا؟ فقال: أهل السرية كلهم يخبرون أنك قد وجتهم قد بنوا المساجد وأقروا بالإسلام ثم حملتهم على السيف! قال: جاءني أمر رسول الله ﷺ أن أغير عليهم، فأغرت بأمر رسول الله ﷺ، فقال عبد الرحمن: كذبت على رسول الله ﷺ - وغالط عبد الرحمن، وأعرض رسول الله ﷺ عن خالد وغضب عليه، وبلغه ما صنع بعبد الرحمن فقال: يا خالد! ذروا لي أصحابي، متى يُنْكَ أَنْفُ الْمَرْءِ يَنْكَأُ الْمَرْءَ، وَلَوْ كَانَ أَحَدُ ذَهَبًا تَنْفَقُهُ قِيرَاطًا قِيرَاطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ تُذْكَرْ غَدَوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ مِنْ غَدَوَاتٍ أَوْ رَوْحَاتٍ عَبْدَ الرَّحْمَنِ.

(٢) روى مسلم في صحيحه ١٦ - باب قول النبي ﷺ: «لَا نُورُثُ مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ». حديث رقم: ٥٤ - ١٧٥٩ عن عروة ابن الزبير؛ أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرته؛ أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ سألت أبا بكر، بعد وفاة رسول الله ﷺ، أن يقسم لها ميراثها، مما ترك رسول =

وقال عليه السلام: «المقوم قد يَأْتُم ولا يَغْرُم».

وقال عليه السلام في دعائه: «اللَّهُمَّ اجْمَعْ عَلَى الْهُدَى أَمْرَنَا، وَأَصْلِح ذَاتَ بَيْنِنَا، وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِنَا، واجعل قلوبنا كقلوب خيارنا، واهدنا سواء السبيل وأخرجنا من الظلمات إلى النور، واصرف عنا الفواحش ما ظَهَرَ مِنْهَا وما بَطَّن، اللَّهُمَّ مَتَّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَأَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا وَمَعَايِشِنَا، اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا شَاكِرِينَ لِنِعْمَتِكَ، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيم».

وقيل له ﷺ: إِنَّ فَلَانًا اسْتَشْهَدَ، فقال: «كَلَّا، إِنْ الشُّمْلَةُ الَّتِي أَخَذَهَا مِنَ الْغَنَائِمِ يَوْمَ حُنَيْنٍ اسْتَعَلَّتْ عَلَيْهِ نَارًا»^(١).

وقال ﷺ: «مَنْ أَطْلَعَ مِنْ ضَيْرٍ بَابٍ فَفَقِئَتْ عَيْنُهُ فِيهِ هَدَرَ»^(٢).

= الله ﷺ، مما أفاء الله عليه. فقال لها أبو بكر: إن رسول الله ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا صدقة». قال: وعاشت بعد رسول الله ﷺ ستة أشهر. وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله ﷺ من خيبر وفدك. وصدقته بالمدينة. فأبى أبو بكر عليها ذلك. وقال: لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به. إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ. فأما صدقته بالمدينة فدفعتها عمر إلى علي وعباس. فغلبه عليها علي. وأما خيبر وفدك فأمسكهما عمر وقال: هما صدقة رسول الله ﷺ. كانتا لحقوقه التي تعروه ونوائبه. وأمرهما إلى من ولي الأمر. قال: فهما على ذلك إلى اليوم.

(١) ورد في صحيح مسلم ٤٨ - باب غلظ تحريم الغلول وأنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون. حديث رقم: ١٨٣ - (١١٥) عن أبي هريرة؛ قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر. ففتح الله علينا. فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً. غنمنا المتاع والطعام والثياب. ثم انطلقنا إلى الوادي. ومع رسول الله ﷺ عبد له، وهبه له رجل من جذام. يدعى رفاعه بن زيد من نبي الضبيب. فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله ﷺ يحل رحله. فرمى بسهم. فكان فيه حتفه. فقلنا: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله! قال رسول الله ﷺ «كَلَّا». والذي نفس محمد بيده! إن الشملة لتلتهب عليه ناراً، أخذها من الغنائم يوم خيبر. لم تصبها المقاسم قال ففزع الناس. فجاء رجل بشارك أو شراكين. فقال: يا رسول الله! أصبت يوم خيبر. فقال رسول الله ﷺ: «شارك من نار أو شراكان من نار».

قوله: (يحل رحله) الرجل هو مركب الرجل على البعير. (فكان فيه حتفه) أي موته. وجمعه حتوف. ومات حتف أنفه أي من غير قتل ولا ضرب. (الشملة) كساء صغير يؤتز به. (بشارك) الشراك هو السير المعروف الذي يكون في النعل على ظهر القدم.

(٢) ورد في الفيض القدير شرح الجامع الصغير، للإمام المناوي حرف الهمزة حديث رقم: ٢٩٨٥ - (أيما رجل كشف ستره) أي أزاله أو نحاه (فأدخل بصره) يعني نظر إلى ما وراء الستر من حرم أو غيرهن (من قبل أن يؤذن له) في الدخول (فقد أتى حداً لا يحل أن يأتيه) أي فيحرم عليه ذلك (ولو أن رجلاً) من أصحاب ما وراء المكشوف من الستر (فقاً عينه) أي الناظر أي قذفه بنحو حصاة فقلع عينه (لهدرت) أي عينه فلا يضمها الرامي وفيه حجة للشافعي أن من نظر من =

وقال ﷺ لرجل يَذْبَحُ شاةً: «ازْهَبْ شَفَرَتَكَ، فَإِذَا فَرَنْتَ فَأَرْخْ ذَبِيحَتَكَ، وَدَعَهَا تَخْبُ وَتَشْخُبُ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَمْرِي لِلدَّمِ وَأَحْلَى لِلْخَمِّ».

وقال عليه السلام: «خَيْرُ النَّاسِ الْغَنِيُّ الْخَفِيُّ التَّقِيُّ».

وقال: «التَّاجِرُ الصَّدُوقُ إِنْ مَاتَ فِي سَفَرِهِ كَانَ شَهِيداً، أَوْ فِي حَضَرِهِ كَانَ صَدِيقاً».

وقال ﷺ: «ظَهَرَ الْمُؤْمِنُ مِشْجَبُهُ، وَبَطَنَ خِزَانَتُهُ، وَرَجَلُهُ مَطِيئَتُهُ، وَذَخِيرَتُهُ رَبُّهُ».

وقال ﷺ: «مَا نَقَصَ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ^(١)، فَتَصَدَّقُوا، وَلَا عَفَا رَجُلٌ عَنْ مَظْلَمَةٍ إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا وَجَلًّا وَعَفْوًا، فَاعْفُوا؛ وَلَا فَتَحَ رَجُلٌ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ سَبْعِينَ بَاباً مِنَ الْفَقْرِ، فَاسْتَعْفُوا».

وقال عليه السلام: «أَجُودُ الْأَعْمَالِ: الْجُودُ فِي الْعُسْرِ، وَالْقَصْدُ فِي الْغَضَبِ، وَالْعَفْوُ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ».

= نحو كوة أو شق إلى بيت لا محرم له فيه فرماه صاحب البيت فقلع عينه هدر أوجب أبو حنيفة الضمان (ولو أن رجلاً مر على باب) أي منفذ نحو بيت (لا سترة عليه) أي ليس عليه باب من نحو خشب يستر ما وراءه عن العيون (فرأى عورة أهله) من الباب (فلا خطيئة عليه إنما الخطيئة على أهل الباب) في تركهم ما أمروا به من الستر وقلة مبالاتهم باطلاع الأجانب على عوراتهم وفي نسخ بدل الباب البيت وهو أقعد قال الزين العراقي: فيه أنه يحرم النظر في بيت غيره المستور بغير إذنه ولو ذمياً وأنه يحرم الدخول بطريق أولى.

قال المناوي: رواه أحمد والترمذي عن أبي ذر، ظاهر صنيع المصنف أن كلامهما روى الكل والأمر بخلافه فإن الترمذي لم يرو إلا بعضه وتماهه عند أحمد وقال الهيثمي: كالمنذري ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث وفيه ضع.

(١) روى الإمام مسلم في صحيحه ١٩ - باب استحباب العفو والتواضع. حديث رقم: ٦٩ - (٢٥٨٨) عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً. وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله».

قوله: (ما نقصت صدقة من مال) ذكروا فيه وجهين: أحدهما معناه أنه يبارك فيه ويدفع عنه المضرات، فينجبر نقص الصورة بالبركة الخفية. وهذا مدرك بالحس والعادة. والثاني أنه، وإن نقصت صورته، كان في الثواب المرتب عليه جبر لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة. (وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً) فيه أيضاً وجهان: أحدهما على ظاهره. ومن عرف بالعفو والصفح ساد وعظم في القلوب، وزاد عزه وإكرامه. والثاني أن المراد أجره في الآخرة وعزه هناك. (وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله) فيه أيضاً وجهان: أحدهما يرفعه في الدنيا ويثبت له بتواضعه في القلوب منزلة، ويرفعه الله عند الناس ويجعل مكانه. والثاني أن المراد ثوابه في الآخرة ورفعها فيها بتواضعه في الدنيا. قال العلماء: وهذه الأوجه في الألفاظ الثلاثة موجودة في العادة معروفة. وقد يكون المراد الوجهين معاً. في جميعها. في الدنيا والآخرة.

وقال عليه السلام: «إِنَّ بَيْنَ مُضْرَاعَيْنِ بَابِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ مِائَةِ عَامٍ، وَلِيَأْتِيَنَّ عَلَيْهِ يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٍ مِنَ الزَّحَامِ»^(١).

وَقَدْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَسُولٌ قَوْمٍ مِنْ بَنِي عَامِرٍ يَسْتَأْذِنُهُ فِي الْمَرْعَى حَوْلَ الْمَدِينَةِ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهَا دِيَارٌ لَا تَضِيقُ عَنْ جَارِنَا، وَإِنْ جَارِنَا لَا يُظْلَمُ فِي دِيَارِنَا، وَقَدْ أَلْجَأْتُكُمْ الْآزِمَةَ^(٢)، فَنَحْنُ نَأْذِنُ لَكُمْ فِي الْمَرْعَى وَنُشْرِكُكُمْ فِي الْمَأْوَى، عَلَى أَنْ سَرَحْنَا^(٣) كَسْرَ حِكْمٍ، وَعَانَيْنَا كَعَانِيَكُمْ، وَلَا تُعِينُوا عَلَيْنَا بَعْدَ الْيَوْمِ؛ فَقَالَ: لَا نَعِينُ عَدُوًّا مَا أَقْمَنَا فِي جَوَارِكٍ، فَإِذَا رَحَلْنَا فَإِنَّمَا هِيَ الْعَرَبُ تَطْلُبُ آثَارَهَا، وَتَشْفِي دُحُولَهَا؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: يَا بَنِي عَامِرٍ، أَمَا عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّؤْمَ كُلَّ اللَّؤْمِ أَنْ تَنْحَاشُوا عِنْدَ الْفَاقَةِ، وَتَشْبُوا عِنْدَ الْعِزَّةِ، فَقَالَ: وَأَبْيَكُ إِنَّ ذَلِكَ لِلَّؤْمِ، وَلَنْ نَبْغِيكَ غَائِلَةً بَعْدَ الْيَوْمِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ، وَأَذِّنْ لَهُمْ.

وَسُئِلَ ﷺ: كَيْفَ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ: «فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، ثُمَّ يَنْقُصُ»^(٤).

(١) رواه مسلم في صحيحه ٥٣ - كتاب الزهد والرقائق. حديث رقم: ١٤ - (٢٩٦٧) عن خالد بن عمير العدوي. قال: خطبنا عتبة بن غزوان. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد. فإن الدنيا قد أذنت بصرم وولت حذاء. ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء. يتصاها صاحبها. وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زال لها. فانتقلوا بخير ما بحضرتكم. فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقي من شفة جهنم. فهو في سبعة أعين عاماً لا يدرك لها قعر، والله! لتملان. أفعبجتم؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مضراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة. وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام. ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ. ما لنا طعام إلا ورق الشجر. حتى تقرحت أشداقنا. فالتقطت بردة فشقتها بيني وبين سعد بن مالك. فانتزعت بنصفها واتزر سعد بن نصفها. فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار. وإنني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيماً وعند الله صغيراً. وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت، حتى يكون آخر عاقبتها ملكاً. فستخبرون وتجربون الأمراء بعدنا.

قوله: (أذنت) أي أعلمت. (بصرم) الصرم الانقطاع والذهاب، (حذاء) مسرعة الانقطاع. (صباية) البقية اليسيرة من الشراب تبقى في أسفل الإناء. (يتصاها) في القاموس: تصابت الماء شربت صبايته. (قعرأ) قعر الشيء أسفله. (كظيظ) أي ممتلي. (قرحت) أي صار فيها قروح وجراح، من خشونة الورق الذي نأكله وحرارته. (سعد بن مالك) هو سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه.

(٢) الآزمة: الشدة.

(٣) السرح: المال السائم.

(٤) روى البخاري في صحيحه ١ - باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ. حديث رقم:

٢ - عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول».

وقد روى ابن الكلبي عن أبيه عن ابن صالح، عن ابن عباس قال: لما كان يوم بذر، - قال علي - عليه السلام - للمقداد: أعطني فرسك أركبه، فقال له رسول الله ﷺ: أنت تقاتل راجلاً خير منك فارساً. قال: فركبه ووتر قوسه ورمى فأصاب أذن الفرس فصرمه، فضحك النبي ﷺ حتى أمسك على فيه، فلما رأى علي ضحكته غضب فسل سيفه، ثم شد على المشركين: فقتل ثمانية قبل أن يزجج، فقال علي - عليه السلام -: لو أصابني شر من هذا كنت أهله حين يقول: «أنت تقاتل راجلاً خير منك فارساً»، فعصيته.

وقال ﷺ: «إن امرأ عرف الله وعبده وطلب رضاه وخالف هواه لتحقيق بأن يفوز بالرحمة».

لما ورد محمد بن مسلمة على عمرو بن العاص من جهة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صنع عمرو له طعاماً ودعاه إليه، فأبى محمد، فقال عمرو: أتحرّم طعامي؟ قال: لا، ولكني لم أؤمر به. فقال عمرو: لعن الله زماناً عملنا فيه لابن الخطاب، لقد رأيتُه وأباه وإنهما لفي شملة ما ثواري أرساغهما، وإن العاصي بن وائل لفي مقطعات الديباج مززرة بالذهب. فقال محمد: أما أبوك وأبو عمر ففي النار، وأما أنت فلولاً ما وليت لعمر لألفيتك معتقلاً عنزاً يسرك غزرها ويسوءك بكؤها^(١)، فقال عمرو: المجالس أمانة، فقال محمد: أما ما دام عمر حيّاً فنعم.

دخل النبي ﷺ على فاطمة - عليها السلام - يعودها من علة، فبكت، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ فقالت: قلة الطعم، وشدة السقم، وكثرة الهم.

قال عبد الله بن مسعود: شر الأمور محدثاتها، وشر الغنى غنى الإثم،

= قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً.

وروى مسلم في صحيحه ٢٣ - باب عرق النبي ﷺ في البرد، وحين يأتيه الوحي. حديث رقم: ٨٧ - (٢٣٣٣) عن عائشة؛ أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ فقال: «أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ. ثم يفصم عني وقد وعيته. وأحياناً ملك في مثل صورة الرجل. فأعي ما يقول».

وقوله: (أحياناً) الأحيان الأزمان. ويقع على القليل والكثير. (صلصلة) الصلصلة الصوت المتدارك. وقال الخطابي: معناه أنه صوت متدارك يسمعه ولا يشته أول ما يقرع سمعه، حتى يفهمه من بعد ذلك. (يفصم) أي يقلع وينجلي ما يتغشاني منه. قاله الخطابي: قال العلماء: الفصم هو القطع من غير إبانة، وأما القصم فقطع مع الإبانة والانفصال. ومعنى الحديث أن الملك يفارق على أن يعود، ولا يفارقه مفارقة قاطع لا يعود.

(١) البكاء: قلة اللبن.

وخَيْرُ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ، وَالْخَمْرُ جِمَاعُ الْإِثْمِ، وَالْدُنْيَا حِبَالَةُ الشَّيْطَانِ، وَالشَّبَابُ شُعْبَةٌ مِنَ الْجَنُونِ. قِيلَ لَهُ: أَتَقُولُ هَذَا مِنْ تَلَقُّائِكَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ تِلْقَاءِ مَنْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ طَاعَتَهُ.

وقال أبو ذَرٍّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - يَا أَبَا ذَرٍّ: إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أَحِبُّ لَكَ مَا أَحِبُّ لِنَفْسِي، لَا تَأْمُرَنَّ عَلَى اثْنَيْنِ، وَلَا تَوَلِّينَ مَالَ يَتِيمٍ^(١).

وقال أبو هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - ﷺ -: سَتَحْرُصُونَ عَلَى الْإِمَارَةِ، وَسَتَكُونُ حَسْرَةً وَنَدَامَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَنَعَمْتُ الْمُرْضِعَةَ، وَبُثِّتَ الْفَاطِمَةُ^(٢).

أَبُو أَمَامَةَ يَرْفَعُهُ، قَالَ: مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشْرَةٍ إِلَّا يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَغْلُولًا؛ أُطْلِقَهُ الْعَدْلُ، أَوْ أُوثِقَهُ الْجَوْرُ.

قال العباس للنبِيِّ ﷺ: أَمُرْنِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَأُصِيبَ.

قال عبدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ: إِنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَقَالَ لَهُ: أَقْرِضْنِي أَلْفَ دِينَارٍ إِلَى أَجَلٍ، فَقَالَ: مَنْ الْكَفِيلُ بِكَ؟ فَقَالَ: اللَّهُ. فَأَعْطَاهُ الْأَلْفَ، فَلَمَّا بَلَغَ الْأَجَلَ أَرَادَ الرَّدَّ، فَحَبَسَتْهُ الرِّيحُ، فَعَمِلَ تَابُوتًا وَجَعَلَ فِيهِ الْأَلْفَ وَغَلَّفَهُ، وَأَلْقَاهُ فِي الْبَحْرِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ أَدْ حَمَلَتَكَ؛ فَخَرَجَ النَّجَاشِيُّ إِلَى الْبَحْرِ فَرَأَى سَوَادًا؛ فَقَالَ: ائْتُونِي بِهِ. فَأَتَوْهُ بِالتَّابُوتِ، فَفَتَحَهُ، فَإِذَا فِيهِ الْأَلْفُ، ثُمَّ إِنَّ الرَّجُلَ جَمَعَ أَلْفًا بَعْدَ ذَلِكَ، وَطَابَتِ الرِّيحُ وَجَاءَ إِلَى النَّجَاشِيِّ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّجَاشِيُّ: لَا أَقْبِلُهَا مِنْكَ حَتَّى تُخْبِرَنِي بِمَا صَنَعْتَ فِيهَا. فَأَخْبَرَهُ بِالَّذِي صَنَعَ، فَقَالَ النَّجَاشِيُّ فَقَدْ آدَى اللَّهُ عَنْكَ، وَقَدْ بَلَغَتْ الْأَلْفُ فِي التَّابُوتِ، فَأَمْسِكَ عَلَيْكَ أَلْفَكَ.

رَأَى أَبُو هُرَيْرَةَ رَجُلًا مَعَ آخَرٍ، فَقَالَ: مَنْ هَذَا الَّذِي مَعَكَ؟ قَالَ: أَبِي. قَالَ: فَلَا تَمْشِ أَمَامَهُ، وَلَا تَجْلِسَ قَبْلَهُ، وَلَا تَذْعُهُ بِاسْمِهِ، وَلَا تَنْتَسِبَ لَهُ.

قال أبو هُرَيْرَةَ: كَانَ جُرَيْجٌ يَتَعَبَّدُ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، أَنَا أُمُّكَ، كَلِّمْنِي؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي؛ فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ، فَرَجَعَتْ ثُمَّ أَتَتْهُ ثَانِيَةً فَقَالَتْ: يَا جُرَيْجُ، كَلِّمْنِي، فَصَادَفَتْهُ يُصَلِّي فَقَالَ: اللَّهُمَّ أُمِّي وَصَلَاتِي، فَاخْتَارَ صَلَاتَهُ،

(١) روى مسلم في صحيحه ٤ - باب كراهة الإمارة بغير ضرورة. حديث رقم: ١٧ - (١٨٢٦) عن أبي ذر. أن رسول الله ﷺ قال: «يا أبا ذر! إني أراك ضعيفاً. وإني أحب لك ما أحب لنفسي. لا تأمرن على اثنين. ولا تولين مال يتيم».

قوله: (لا تأمرن) بحذف إحدى التاءين. أي لا تأمرن. وكذلك قوله: تولين، أي تتولين.

(٢) روى الإمام أحمد بن حنبل مسند أبي هريرة رضي الله عنه. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أنكم ستحرصون على الإمارة وستصير حسرة وندامة - قال حجاج - يوم القيامة نعمت المرزعة وبُثَّتْ الْفَاطِمَةُ».

ثم جاءته فصادفته يصلي، فقالت: اللهم إن هذا ابني قد عَقَنِي فلم يكلمني فلا تُمِثْه حتى تُريه المومسات، ولو دَعَتْ عليه أن يُفْتَنَ لُفِتَنَ؛ قال: وكان راعي ضأن يأوي إلى ديره، فخرجت امرأة من القرية، فوقع عليها الراعي، فحملت فولدت غلاماً، فقيل لها: ممن هذا؟ فقالت: من صاحب هذه الصومعة، فأقبل الناس إليه بفؤوسهم ومساحيهم فبصروا به، فصادفوه يصلي، فلم يكلمهم، فأخذوا يهدمون ديره، فنزل وتبسم ومسح رأس الصبي وقال: من أبوك؟ فقال: أبي راعي الضأن. فلما سمع القوم ذلك راعهم، وعجبوا، وقالوا: نحن نبني لك ما هدمنا بالذهب والفضة. قال: لا، أعيدوها كما كانت ثراباً؛ ثم عاد.

وقال أبو الدزداء: لا يحافظ على سُبحَةِ الضحى إلا أواب.

وقال أيضاً: ليس على سارق الحمام قطع.

وقال: إذا اخترتم أرضاً فلا تختاروا أرمينية، فإن فيها قطعة من عذاب الله، يعني البرد.

أبو هريرة يزفئه: ويل للعرفاء، ويل للأمناء، ليتَمَيَّنَ أقوام يوم القيامة أنهم كانوا متعلقين بين السماء والأرض يتذبذبون من الثريا، وأنهم لم يلوا عملاً.

قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة: «لا تسأل الإمارة، فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها»^(١).

وقال النبي ﷺ^(٢): «كلكم راع ومسؤول عن رعيته، فالأمير راع على الناس

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه ٦ - باب: من سأل الإمارة وكل إليها. حديث رقم: ٦٧٢٨ -

عبد الرحمن بن سمرة قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة، لا تسأل الإمارة، فإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها، وإذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيراً منها، فات الذي هو خير، وكفر عن يمينك.

وروى الإمام مسلم في صحيحه ٣ - باب نذر من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها، أن يأتي الذي هو خير، ويكفر عن يمينه. حديث رقم: ١٩ - (١٦٥٢) عبد الرحمن بن سمرة. قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الرحمن بن سمرة! لا تسأل الإمارة. فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها. وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها. وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفر عن يمينك. واث الذي هو خير».

(٢) روى الإمام البخاري في صحيحه ١٠ - باب: الجمعة في القرى والمدن. حديث رقم: ٨٥٣ -

أن عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته». قال: وحسبت أن قد قال: «والرجل راع في مال أبيه ومسؤول عن رعيته، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته».

ورواه مسلم في صحيحه.

وهو مسئول أقام أمر الله فيهم أم ضيع؛ والمرأة راعية على بيتها وما وليت من زوجها، ومسؤولة عنهم أقامت أمر الله فيهم أم ضيعت؛ والخادم مسؤول عن مال سيده أقام أمر الله فيه أم ضيع». هكذا رواه ابن عثبة عن نافع عن ابن عمر.

قال عياض الأشعري: قدّم أبو موسى على عمر ومعه كاتب له، فرّقع حسابَه، فأعجب عمر. وجاء إلى عمر كتاب، فقال لأبي موسى: أين كاتبك يقرأ هذا الكتاب على الناس؟ قال: إنه لا يدخل المسجد. قال: لِمَ؟ أجنب هو؟ قال: إنه نصراني. قال: فانتهره، وقال: لا تذهبنهم وقد أفصاهم الله، ولا تكرمهم وقد أهانهم الله، ولا تأتمنهم وقد خونهم الله.

قال عبد الله بن نافع: جاء رجُلان من الأنصار إلى النبي - ﷺ يختصمان في مواريتَ بينهما قد درستَ ليس بينهما بينة، فقال ﷺ^(١): إنكم لتختصمون إليّ وإنما أنا بشر، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، وإنما أقضي بينكم على نحو ما أسمع منكم، فمن قضيتُ له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من نار، يأتي بها إسطاماً^(٢) في عنقه يوم القيامة. قال: فبكى الرجلان، وقال كل واحد منهما: حقي لأخي؛ فقال ﷺ: أمّا إذ قلتما هذا فاذهبا فاستهما، وتوخيا الحق، وليحلل كل واحد منكما صاحبه. وفي رواية أخرى: اذهبا فاصطليحا.

وروى ابن عباس أن رسول الله - ﷺ - كتب إلى النجاشي أضحمة: سلام عليك فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن

(١) روى الإمام البخاري في صحيحه ٢٧ - باب: من أقام البيعة بعد اليمين. حديث رقم: ٢٥٣٤ - عن أم سلمة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «إنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار، فلا يأخذها».

قوله: «ألحن بحجته» أفطن وأفصح ببيان حجته وإظهار أن الحق له».

وفي ٩ - باب: إذا غصب جارية فزعم أنها ماتت، فقضي بقيمة الجارية الميتة، ثم وجدها صاحبها فهي له، ويرد القيمة ولا تكون القيمة ثمناً. حديث رقم: ٦٥٦٦ - عن أم سلمة، عن النبي ﷺ قال: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار».

ورواه مسلم في صحيحه - باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة. حديث رقم: ٤ - (١٧١٣) عن أم سلمة. قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنكم تختصمون إليّ. ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض. فأقضي له على نحو مما أسمع منه. فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً، فلا يأخذه. فإنما أقطع له به قطعة من النار».

(٢) الإسطام: مسعار النار، وهي الحديد التي تسعر بها.

عيسى بن مريم روح الله وكلمته، فكتب النجاشي: إلى محمد رسول الله ﷺ من النجاشي أضحمة بن أبجر: سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمته وبركاته^(١).

وقال النبي ﷺ: «الكافر خبّ ضبّ، والمؤمن دعبّ لعب».

وقال رجل للنبي - ﷺ -: «اغدِلْ فإنك إلى الآن لم تغدِلْ». فقال: «ويْلَكَ! إذا لم أغدِلْ أنا فمن يغدِلْ»^(٢)؟

(١) في نصب الراية، للزيلعي: مسائل شتى. كتاب النبي ﷺ إلى «النجاشي ملك الحبشة». قال: وذكر الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي كتاباً، وأرسله مع عمرو بن أمية الضمري، فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فأني أحمد إليك الله، الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم، وروح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول، فحملت به، فخلق به روحه، ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، والمولاة على طاعته، وأن تتبني، وتؤمن بالذي جاءني، فأني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى» قال: فكتب إليه النجاشي: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله، من أضحمة النجاشي، سلام عليك يا نبي الله، من الله ورحمة الله، وبركات الله، الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فقد بلغني كتابك يا رسول الله، فما ذكرت من أمر عيسى، فرب السماء والأرض إن عيسى لا يزيد على ما ذكرت تفريقاً وأنه كما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقد قرنا ابن عمك، وأصحابه، وأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداقاً، وقد بايعتك، وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه، لله رب العالمين، انتهى.

(٢) روى البخاري في صحيحه: ٢٢ - باب علامات النبوة في الإسلام حديث رقم: ٣٤١٤ أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسماً، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل، فقال: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». فقال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه؟ فقال: «دعه، فإن له أصحاباً يحقر أحدهم صلته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نضله فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى نضيه - وهو قدحه - فلا يوجد فيه شيء، ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آتتهم رجل أسود، إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس».

قال أبو سعيد: فأشهد أنني سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به، حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نعته.

وأخرجه مسلم في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، رقم: ١٠٦٤.

«خبت وخسرت» أي أنت الخائب والخاسر إذا ظننت أنني لا أعدل، لأنك تعتقد نفسك تابعاً لمن هذه صفته. «يحقر أحدهم صلته» يجدها قليلة ويظنها أقل ثواباً وقبولاً. «مع صلاتهم» إذا =

وقال ﷺ: «إِنَّ الْوَاحِدَ يَبْسُجُ ظَهْرَهُ وَعِزُّهُ».

وقال عُمر: رَدَّدَ الْخُصُومَ كَيْ يَضْطَلِّحُوا.

وقال عليه السلام: لَا تَخْلِفُوا بِأَيْمَانِكُمْ، وَمَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ فَلْيَقْبَلْ^(١).

وقال: مَنْ حَلَفَ يَمِيناً كَاذِبَةً يَفْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لِقَى اللَّهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ^(٢).

= قارنها بصلاتهم. «لا يجاوز تراقيهم» لا يتعداها، والتراقي جمع ترقوة وهي عظم يصل ما بين ثغرة النحر والعاتق، والمراد: لا يفقهون معناه، ولا تخشع له قلوبهم، ولا يؤثر في نفوسهم، فلا يعملون بمقتضاه. «يمرقون» يخرجون منه سريعاً دون أن يستفيدوا منه. «الرمية» هو الصيد المرمي، شبه مروقهم من الدين بمروق السهم الذي يصيب الصيد، فيدخل فيه ويخرج منه دون أن يعلق به شيء منه، لشدة سرعة خروجه. «نصله» حديدة السهم. «رصافة» هو العصب الذي يلوي فوق مدخل النصل. «قدحه» هو عود السهم قبل أن يوضع له الريش. «قذذه» جمع قذة وهي واحدة الريش الذي يعلق على السهم. «قد سبق الفرث والدم» أي لم يتعلق به شيء منهما لشدة سرعته، والفرث ما يجتمع في الكرش مما تأكله ذوات الكروش «آيتهم» علامتهم. «البضعة» قطعة اللحم. «تدردر» تضطرب وتذهب وتجيء. «حين فرقة» أي زمن افتراق بينهم، وفي رواية «على خير فرقة» أي أفضل طائفة. «نعت النبي» أي على وصفه الذي وصفه وحدده.

(١) روى ابن ماجه في سننه ٤ - باب من حلف له بالله فليرض. حديث رقم: ٢١٠١ - عن ابن عمر؛ قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يحلف بأبيه فقال: «لا تحلفوا بأبائكم. من حلف بالله فليصدق. ومن حلف له بالله فليرض. ومن لم يرض بالله، فليس من الله».

في الزوائد: رجال إسناده ثقات. (٢) روى الإمام البخاري صحيحه ١٠ - باب: عهد الله عز وجل. حديث رقم: ٦٢٨٣ - عن عبد الله رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من حلف على يمين كاذبة، ليقطع بها مال رجل مسلم، أو قال: أخيه، لقي الله وهو عليه غضبان». فأنزل الله تصديقه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾.

قال سليمان في حديثه: فمر الأشعث بن قيس فقال: ما يحدثكم عبد الله؟ قالوا له، فقال الأشعث: نزلت فيّ وفي صاحب لي، في بئر كانت بيننا.

وروى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده حديث عدي بن عميرة الكندي رضي الله تعالى عنه. قال أخبرني رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن أبيه عدي قال: خاصم رجل من كندة يقال له امرؤ القيس بن عباس رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرض ففضى على الحضرمي بالبينة فلم تكن له بينة ففضى على امرؤ القيس باليمين فقال الحضرمي إن أمكنته من اليمين يا رسول الله ذهبت والله أو ورب الكعبة أرضي فقال رسول الله ﷺ من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها مال أخيه لقي الله وهو عليه غضبان قال رجاء: وتلا رسول الله ﷺ (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً) فقال امرؤ القيس ماذا لمن تركها يا رسول الله قال الجنة قال فأشهد أنني قد تركتها لها.

وقال: مَنْ حَلَفَ يَمِيناً فَرَأَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا فَلْيَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَلْيَكْفُرْ عَنْ يَمِينِهِ^(١).

وقال - عليه السلام -: لا تُسَافِرِ الْمَرْأَةَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ^(٢).

حَدَّثَنَا أَبُو السَّائِبِ الْقَاضِي عُثْبَةُ بْنُ عُبَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمَرْزُبَانِ قَالَ: حَدَّثَنَا الْمُغِيرَةُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ الْمِنْقَرِيُّ قَالَ: كَانَ شَرِيكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى الْقَضَاءِ بِالْكُوفَةِ، فَقَضَى عَلَى وَكِيلٍ لَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ مُضْعَبٍ بِقَضَاءٍ لَمْ يُوَافِقْ عَبْدُ اللَّهِ، فَلَقِيَ شَرِيكاً بِبَغْدَادٍ، فَقَالَ لَهُ: قَضَيْتَ عَلَى وَكِيلِي قَضَاءً لَا يُوَافِقُ الْحَقَّ. قَالَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مَنْ لَا تَنْكِرُ. قَالَ: قَدْ نَكِرْتُكَ أَشَدَّ النَّكِيرِ. قَالَ: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُضْعَبٍ. قَالَ: فَلَا كَبِيرَ وَلَا طَيْبٍ. قَالَ: كَيْفَ لَا تَقُولُ هَذَا وَأَنْتَ تَشْتُمُ الشَّيْخَيْنِ. قَالَ: مِنَ الشَّيْخَانِ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ. قَالَ: وَاللَّهِ لَا أَشْتُمُ أَبَاكَ وَهُوَ دُونَهُمَا، فَكَيْفَ أَشْتُمُهُمَا وَهُمَا فَوْقِي وَأَنَا دُونَهُمَا؟

وقال عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ رَجُلٍ يُؤْتَى الدُّنْيَا وَيُوسَّعَ لَهَا فِيهَا وَهُوَ لِلَّهِ عَلَى غَيْرِ مَا يُحِبُّ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَذْرَجٌ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلَمَّا دَسُؤُوا مَا دُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فُزِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ فَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥]». قَالَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ: قَوْلُهُ ﷺ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَذْرَجٌ، مَعْنَاهُ إِلَّا وَهُوَ مُسْتَذْعٌ هَلَكْتُهُ، مَأْخُذٌ مِنَ الدَّرَاجِ، وَهُوَ الْهَالِكُ، يُقَالُ هُوَ أَغْلَمُ مَنْ دَبَّ وَدَرَجَ، وَيُرَادُ بِدَرَجٍ: هَلَكَ؛ وَبَدَبَ: مَشَى.

وقال سَعِيدُ بْنُ عَامِرٍ بْنِ حُزَيْمٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ أَمْنَاءَ عَلَى خَلْقِهِ يَضُنُّ بِهِمْ عَلَى الْقَتْلِ يُعِيشُهُمْ فِي عَافِيَةٍ، وَيُمِيتُهُمْ فِي عَافِيَةٍ»^(٣).

(١) روى مسلم في صحيحه: ٣ - باب نذر من حلف يميناً، فرأى غيرها خيراً منها، أن يأتي الذي هو خير، حديث رقم: ١٦ - (١٦٥١) عن عدي بن حاتم. قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين، فرأى غيرها خيراً منها، فليأت الذي هو خير، وليترك يمينه». قوله: «وليترك يمينه» أي فليحنت فيها ثم يكفر.

(٢) روى الإمام البخاري في صحيحه ٤ - باب: في كم يقصر الصلاة. حديث رقم: ١٠٣٦/ ١٠٣٧ - عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال: «لا تسافر المرأة ثلاثة أيام إلا مع ذي محرم».

وأخرجه مسلم في الحج، باب: سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره، رقم: ١٣٣٨. قوله: «ثلاث أيام» مسير ثلاث أيام بسير القوافل، وهي مسافة القصر عند الحنفية. تابعه أحمد، عن المبارك، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ.

وروى الإمام مسلم في صحيحه (٧٤) باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره. حديث رقم: ٤١٣ - (١٣٣٨) عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسافر المرأة ثلاثاً، إلا ومعها ذو محرم».

(٣) في الجامع الصغير لجلال الدين السيوطي باب حرف الألف الحديث رقم: ٢٣٧١ - إن لله تعالى عباد يضمن بهم عن القتل، ويطلق أعمارهم في حسن العمل، ويحسن أرزاقهم، ويحييهم =

قال نَاشِرُهُ بْنُ سُمَيٍّ: سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ يَوْمَ الْجَابِيَةِ: إِنِّي قَدْ نَزَعْتُ خَالَدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَأَمَرْتُ أَبَا عُيَيْدَةَ، فَقَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَعْتُ عَامِلًا اسْتَعْمَلَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَأَغْمَدْتُ سَيْفًا سَلَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَوَضَعْتُ لِيَوَاءَ شِدَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّكَ لَشَابٌّ قَرِيبُ الْقَرَابَةِ، وَهَذَا الْقَائِلُ هُوَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ حَفْصِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ابْنِ عَمِّ خَالِدٍ.

قال قَبِيصَةُ بْنُ الْمُخَارِقِ: نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الطَّرْقِ^(١) وَالْعِيَاةِ وَالْخَطِّ.
قال النبي ﷺ: «الْصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسَاكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَتَانِ: صِلَةٌ وَصَدَقَةٌ»^(٢).

قَبِيصَةُ بْنُ الْمُخَارِقِ وَزُهَيْرُ بْنُ عَمْرٍو قَالَا: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، انْطَلَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى رَضْمَةٍ^(٣) مِنْ جَبَلٍ فَعَلَا أَعْلَاهَا حَجْرًا، وَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ مَنْفٍ، يَا بَنِي فَهْرٍ، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ رَأَى الْعَدُوَّ

= فِي عَافِيَةٍ، وَيَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ فِي عَافِيَةٍ عَلَى الْفُرَشِ، فَيُعْطِيهِمْ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ. تَصْحِيحُ السِّيُوطِيِّ: ضَعِيفٌ.

وَفِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ. لِلْحَافِظِ الْهَيْثَمِيِّ بَابُ فَيَمَنْ طَالَ عَمْرُهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. الْحَدِيثُ رَقْمٌ: ١٦٧٢١ - عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنْ لِلَّهِ عِبَادٌ يُضَنُّ بِهِمْ عَنِ الْفَنَاءِ (فِي نَسْخَةِ «الْقَتْلِ») وَيُطِيلُ أَعْمَارَهُمْ فِي حَسَنِ الْعَمَلِ وَيُحَسِّنُ أَرْزَاقَهُمْ وَيُحْيِيهِمْ فِي عَافِيَةٍ وَيَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ فِي عَافِيَةٍ عَلَى الْفُرَشِ وَيُعْطِيهِمْ مَنَازِلَ الشَّهَدَاءِ.

رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَفِيهِ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْوَاسِطِيُّ الْوَارِقُ وَلَمْ أَعْرِفْهُ، وَبَقِيَّةُ رَجَالِهِ ثِقَاتٌ.

(١) يَرِيدُ بِالطَّرْقِ طَرُقَ الْحَصَى وَبِالْخَطِّ خَطَّ الرَّمْلِ.

(٢) رَوَى الْإِمَامُ التِّرْمِذِيُّ فِي سَنَنِهِ: ٢٦ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الْقَرَابَةِ. حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٦٥٣ - عَنْ الرَّبَابِ عَنْ عَمِّهَا سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ يُبَلِّغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيَفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا فَالْمَاءُ فَإِنَّهُ طَهُورٌ وَقَالَ: الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ».

وَفِي الْبَابِ عَنْ زَيْنَبِ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَجَابِرِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ.

قَالَ أَبُو عِيسَى: حَدِيثُ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ حَدِيثٌ حَسَنٌ.

وَرَوَى الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ فِي سَنَنِهِ: بَابُ الصَّدَقَةِ عَلَى الْأَقَارِبِ. عَنْ أُمِّ الرَّائِحِ عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنْ الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ وَعَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ.

وَرَوَاهُ لِلْإِمَامِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ. حَدِيثُ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ. عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ فَلْيَفْطِرْ عَلَى تَمْرٍ فَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَفْطِرْ بِمَاءٍ فَإِنَّ الْمَاءَ طَهُورٌ وَقَالَ: مَعَ الْغَلَامِ عَقِيقَتُهُ فَأَهْرِيقُوا عَنْهُ دَمًا وَأَمِيطُوا عَنْهُ الْأَذَى وَقَالَ الصَّدَقَةُ عَلَى الْمَسْكِينِ صَدَقَةٌ وَهِيَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ اثْنَانِ صِلَةٌ وَصَدَقَةٌ.

(٣) الرَضْمَةُ: الصَّخْرَةُ الْعَظِيمَةُ.

فَانْطَلَقَ يُرِيدُ أَهْلَهُ، وَخَشِيَ أَنْ يَسْبِقُوهُ إِلَى أَهْلِهِ، فَجَعَلَ يَهْتَفُ وَاصْبَاحَاهُ.

الثَّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ وَقَبِيصَةُ قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ إِذَا تَجَلَّى لَشَيْءٍ مِنْ خَلْقِهِ خَسَعُ»^(١).

تَزَوَّجَ رَجُلٌ امْرَأَةً فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، وَلَمْ يُسَمِّ لَهَا صَدَاقًا، فَسُئِلَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: لَهَا صَدَاقٌ إِحْدَى نِسَائِهِ، لَا وَكُسَ وَلَا شَطَطٌ، وَعَلَيْهَا الْعِدَّةُ، وَلَهَا الْمِيرَاثُ. فَقَامَ أَبُو سِنَانٍ فِي رَهْطٍ مِنْ أَشْجَعٍ، فَقَالُوا: لَقَدْ قَضَى فِيهَا بِقَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَرْوَعِ بِنْتِ وَاشِقِ الْأَشْجَعِيَّةِ^(٢).

عُقْبَةُ السُّلَمِيُّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ -: «إِذَا تَبَاطَأَتِ الْمَغَازِي وَكَثُرَتِ الْغَرَائِمُ وَاسْتَوْثِرَ بِالْغَنَائِمِ فَخَيْرُ جِهَادِكُمُ الرِّبَاطُ».

(١) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ: بَابُ صَلَاةِ الْكُسُوفِ: عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: خَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَأَطَالَ الْقِيَامَ جَدًّا. ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جَدًّا. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَأَطَالَ الْقِيَامَ جَدًّا. وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ جَدًّا. وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ سَجَدَ. ثُمَّ قَامَ فَأَطَالَ الْقِيَامَ. وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ. وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ فَقَامَ. فَأَطَالَ الْقِيَامَ. وَهُوَ دُونَ الْقِيَامِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ رَكَعَ فَأَطَالَ الرُّكُوعَ. وَهُوَ دُونَ الرُّكُوعِ الْأَوَّلِ. ثُمَّ سَجَدَ. ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ تَجَلَّتِ الشَّمْسُ. فَخَطَبَ النَّاسَ فَحَمَدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ. ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ. وَإِنَهُمَا لَا يَنْخَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ. فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَكَبَرُوا. وَادْعُوا اللَّهَ وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا. يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ إِنْ مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمْنُهُ. يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمَ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحَكْتُمْ قَلِيلًا. أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟». وَفِي رِوَايَةٍ: «إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ».

وَرَوَى الْإِمَامُ النَّسَائِيُّ سَنَنَهُ: كِتَابُ الْخُسُوفِ. عَنْ أَبِي بَكْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنْ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنَ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَخُوفُ بِهِمَا عِبَادَهُ.

(٢) رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ، ١٤ - (بَابُ الرَّجُلِ يَتَزَوَّجُ الْمَرْأَةَ وَلَا يَفْرُضُ لَهَا صَدَقًا). حَدِيثٌ رَقْمٌ: ٥٤٣ - عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: أَنَّ رَجُلًا تَزَوَّجَ امْرَأَةً وَلَمْ يَفْرُضْ لَهَا صَدَقًا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: لَهَا صَدَاقٌ مِثْلُهَا مِنْ نِسَائِهَا، لَا وَكُسَ، وَلَا شَطَطٌ، فَلَمَّا قَضَى قَالَ فَإِنْ يَكُنْ صَوَابًا فَمِنْ اللَّهِ وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فَمِنْی وَمِنْ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ بَرِيتَانِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ بَلَّغْنَا أَنَّهُ مَعْقِلُ بْنُ سِنَانِ الْأَشْجَعِيِّ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَضَيْتُ - وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ - بِقَضَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَرْوَعِ بِنْتِ وَاشِقِ الْأَشْجَعِيَّةِ، قَالَ: فَفَرَحَ عَبْدُ اللَّهِ فرحة ما فرح قبلها مثلها لموافقة قوله قول رسول الله ﷺ. قَالَ مَسْرُوقُ ابْنِ الْأَجْدَعِ: لَا يَكُونُ مِيرَاثٌ حَتَّى يَكُونَ قَبْلَهُ صَدَاقٌ. قَالَ مُحَمَّدٌ: وَبِهَذَا نَأْخُذُ. وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَالْعَامَةِ مِنْ فَقْهَائِنَا.

جَبَّانُ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ حُتَيْنٍ فَأَحْلَلَ لَهُمْ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ كَانَ نَهَاہُمْ عَنْهَا، وَحَرَّمَ عَلَيْهِمْ ثَلَاثَةَ أَشْيَاءَ كَانَ النَّاسُ يَحْلُلُونَهَا: أَحْلَلَ لَهُمْ أَكْلَ لَحُومِ الْأَضَاحِيِّ، وَزِيَارَةَ الْقُبُورِ، وَالْأُزْعِيَّةِ^(١)، وَنَهَاہُمْ عَنِ بَيْعِ الْمَغْنَمِ حَتَّى يُقَسَمَ، وَنَهَاہُمْ عَنِ النِّسَاءِ مِنَ السَّبَابِ إِلَّا يُوطَأَنَّ حَتَّى يَضْغَنَ أَوْلَادُهُنَّ، وَنَهَاہُمْ إِلَّا تَبَاعَ ثَمَرَةٌ حَتَّى يَبْدُو صَلَاحُهَا، وَيُؤْمَنَ عَلَيْهَا مِنَ الْعَاثَةِ.

وَهَبُ بْنُ حُذَيْفَةَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الرَّجُلُ أَحَقُّ بِمَجْلِسِهِ^(٢).

حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ: لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ.

(١) رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بَابَ اسْتِثْنَانِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتَ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي. وَاسْتَأْذَنْتَهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: زَارَ النَّبِيُّ ﷺ قَبْرَ أُمِّهِ. فَبَكَى وَأَبَكَى مِنْ حَوْلِهِ. فَقَالَ: «اسْتَأْذَنْتَ رَبِّي فِي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتَهُ فِي أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي. فَزُورُوا الْقُبُورَ. فَإِنَّهَا تَذْكُرُ الْمَوْتَ».

عَنْ ابْنِ بَرِيدَةَ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا. وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لَحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَأَمْسَكُوا مَا بَدَا لَكُمْ. وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ إِلَّا فِي سَقَاءٍ، فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا، وَلَا تَشْرَبُوا مَسْكِرًا».

قَوْلُهُ ﷺ: «اسْتَأْذَنْتَ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لَأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتَهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأْذَنْ لِي فِيهِ جَوَازُ زِيَارَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي الْحَيَاةِ وَقُبُورِهِمْ بَعْدَ الْوَفَاةِ، لِأَنَّهُ إِذَا جَازَتْ زِيَارَتُهُمْ بَعْدَ الْوَفَاةِ فِي الْحَيَاةِ أَوَّلَى وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ وَفِيهِ النَّهْيُ عَنِ الْإِسْتِغْفَارِ لِلْكَفَّارِ». قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ رَحِمَهُ اللَّهُ: سَبَبُ زِيَارَتِهِ ﷺ قَبْرَهَا أَنَّهُ قَصَدَ قُوَّةَ الْمَوْعِظَةِ وَالذِّكْرَى بِمُشَاهَدَةِ قَبْرِهَا، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ ﷺ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: «فَزُورُوا الْقُبُورَ فَإِنَّهَا تَذْكُرُكُمْ الْمَوْتَ».

رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ (٣٦) بَابَ اسْتِثْنَانِ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّهِ، حَدِيثٌ رَقْمٌ:

١٠٦ - (٩٧٧) عَنْ ابْنِ بَرِيدَةَ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فَزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لَحُومِ الْأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلَاثٍ، فَأَمْسَكُوا مَا بَدَا لَكُمْ. وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ إِلَّا فِي سَقَاءٍ، فَاشْرَبُوا فِي الْأَسْقِيَةِ كُلِّهَا. وَلَا تَشْرَبُوا مَسْكِرًا».

[قَوْلُهُ: (وَكُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ) يَعْنِي إِلْقَاءَ التَّمْرِ وَنَحْوَهُ فِي مَاءِ الظُّرُوفِ. إِلَّا فِي سَقَاءٍ. أَيْ إِلَّا فِي قَرْبَةٍ. إِنَّمَا اسْتِثْنَاهَا لِأَنَّ السَقَاءَ يَبْرِدُ الْمَاءَ، فَلَا يَشْتَدُ مَا يَقَعُ فِيهِ اشْتِدَادُ مَا فِي الظُّرُوفِ].

(٢) رَوَى التِّرْمِذِيُّ فِي سُنَنِهِ: ٤٤ - بَابُ مَا جَاءَ إِذَا قَامَ الرَّجُلُ مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ رَجَعَ فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ. حَدِيثٌ رَقْمٌ:

٢٨٩٩ - عَنْ وَهَبِ بْنِ حُذَيْفَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

«الرَّجُلُ أَحَقُّ بِمَجْلِسِهِ، وَإِنْ خَرَجَ لِحَاجَتِهِ، ثُمَّ عَادَ فَهُوَ أَحَقُّ بِمَجْلِسِهِ». هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ.

قال مالكُ بنُ عُبادة الغافقي: مرَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ بعبدِ اللَّهِ بنِ مَسعود فقال: لا تُكثِرْ هَمَّكَ؛ ما يُقَدَّرُ يَكُنْ، وما تُرْزَقُ يَأْتِكَ.

خالدُ بنُ عَدِيّ الجُهَنِيّ أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: من بَلَغَهُ مَغْرُوفٌ مِنْ أَخِيهِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ ولا إشرافِ نَفْسٍ فَلْيَقْبَلْهُ ولا يَزِدَّهُ، فإنما هو رِزْقُ ساقِهِ اللَّهِ إليه.

رافعُ بنُ مَكِيثٍ - أخو جُنْدَب بن مَكِيثٍ - شَهِدَ الحُدَيْبِيَّةَ قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «حُسْنُ المَلَكَةِ نَمَاءٌ، وسوءُ الخَلْقِ سُؤْمٌ، والصَّدَقَةُ تَدْفَعُ مِيتَةَ السُّوءِ، والْبِرُّ زِيَادَةٌ فِي العُمُرِ».

وقال النبي ﷺ: إِنَّ يَوْمَ الجُمُعَةِ يَوْمٌ زِينَةٌ كَيَوْمِ الفِطْرِ والنَّحْرِ.

خَبَّابُ بن الأَرْت - وكان من أصحاب النبي ﷺ - قال: إن رسولَ اللَّهِ ﷺ صَلَّى يوماً إلى جِدَارٍ كثيرِ الجِحْرَةِ إمَّا ظُهْرًا أو عَصْرًا، فلَمَّا صَلَّى خَرَجْتُ إليه عَقْرَبَ فَلَدَغْتُهُ، فغُشِيَ عليه، فرقاه الناس فأفاق، فقال: «إِنَّ اللَّهَ شَفَانِي وليس بِرُفَيْتِكُمْ».

قال الوزير: ما أَحْسَنَ هذا المجلس.

الليلة الرابعة والعشرون

وجرى حديث الفيل ليلة فأكثر من حُضِر وصفه بما لم يكن فيه فائدة تُعاد، ولا غريبة تُستفاد، فحكيت: إن العلماء بطبائع الحيوان ذكروا أن الفيلة لا تتولد إلا في جزائر البحار الجنوبية، وتحت مدار بُرج الحمل، والزرافة لا تكون إلا في بلاد الحبشة، والسَّمُورَ وغزال المِسْك لا يكونان إلا في الصحاري الشرقية الشمالية؛ وأما الصُّقُور والنُّسُور والبُزاة وما شاكلها من الطير فإنها لا تُفِرِّخ إلا في رؤوس الجبال الشامخة والعُقَاب. والنعام لا تُفِرِّخ إلا في البراري والقفار والفلوات. والوطواط والطيطوى وأمثالهما من الطير لا تُفِرِّخ إلا على سواحل البحار وشطوط الأنهار والبطائح والآجام؛ والعصافيرُ والفَوَاحِشُ وما شاكلها من الطير لا تُفِرِّخُ إلا بين الأشجار والدُّحَال^(١) والقرى والبساتين.

وحدث ابنُ الأعرابي عن هشام بن سالم - وكان مُسَيِّئاً من رَهْطِ ذي الرُّمة - قال: أكلتُ حِيَّةً بَيْضَ مُكَاءَ فَجَعَلَ المُكَاءُ يُشْرِشِرُ^(٢) على رأسها ويَذنو منها، حتى إذا فَتَحَتْ فاهاً تريده وهَمَّتْ به ألقى في فيها حَسَكَةً؛ فأخذتُ بحلقها حتى ماتت.

وأنشد أبو عمرو الشَّيْبَانِي قولَ الأَسَدِيِّ:

إِنْ كُنْتَ أَبْصَرْتَنِي قُلًّا وَمُضْطَلِّمًا فَرَبِّمَا قَتَلَ المُكَاءُ تُغْبَانَا

فقال - حرسَ اللّهَ نَفْسَه -: من أين للحيوان غير الإنسان هذه الفطنة وهذه الفضيلة وهذه الجُرْأَةُ وهذه الحيلة؟

فقلت: شيخنا أبو سليمان يقول في هذه الأيام - وقد جرى حديث الحيوان وعجائب أفاعيله - إن الإحساسات التي للحيوان على أصنافه لها غَرَضٌ عظيم، وبذلك الغرض لها تفاوتٌ عظيم ظاهرٌ وخافٍ، وأفعالٌ معهودة ونادرة، ولها أخلاقٌ معروفة، ومعارفٌ موصوفة؛ ولولا ذلك ما كان يقال: أصولٌ من جَمَلٍ، وأغدرٌ من ذئبٍ، وأروغٌ من نَعْلَبٍ، وأَجْبَنُ من صفرد، وأَجْمَعُ من دَرَّةٍ^(٣)، وآلفٌ من كَلْبٍ، وأهدى من

(١) جمع دحل، وهو نقب ضيق الفم متسع الأسفل حتى يمشي فيه.

(٢) المكاء: طائر، ويشرشر أي يرفرف.

(٣) النمل الأحمر الصغير.

قَطَاة، [وأحمق] من عقق، وأزهى من غراب، وأظلم من حية. وأشدَّ عداوةً من عَقْرَب. وأخبث من قِرْد، وأخَمَقُ مِنْ حُبَارَى، وأكذب من فاختة، وألأم من كلب على جيفة، وأعق من ضب، وأبر من هرة، وأنفر من ظليم^(١)، وأجرأ من ليث، وأحقد من فيل؛ وعلى هذا.

قال: وكما أن بين آحاد نوع الإنسان تفاوتاً في الأخلاق، كذلك بين آحاد نوع الحيوان تفاوت، وكما أنه يزل بعض العقلاء فيركب ما لا يُظن بمثله لعقله، كذلك يزل ويغلط بعض الحمقى فيأتي بما لا يحسب أن مثله يَهْتَدِي إليه، فليس العقل بحاظِر على صاحبه أن يندَر منه ما يكون من الحيوان، وأصناف الحيوان من الناس وغير الناس تتقاسم هذه الأخلاق بضروب المزاج المختلفة في الأزمان المتباعدة، والأماكن المتنازحة، تقاسماً محفوظاً بالنسب بالطبيعة المستولية، وإن كان ذلك التقاسم مجهول النسب للغموض الذي يغلب عليه، وإذا عُرف هذا الشرح وما أشبهه مما يزيده وضوحاً، زال التعجب الناشئ من جهل العلة وخفاء الأمر.

قال: ومن العَجَب أنا إذا قلنا: أروغ من ثعلب، وأجبن من صفر، وأحقد من فيل، أن هذا الرُّوغ وهذا الجُبْن وهذا الحَقْد في هذه الأصناف ليست لتكون عدّة لها مع نوع الإنسان، ولكن لتعاطى أيضاً بينها، وتستعملها عند الحاجة إليها؛ وكما يشبهه إنسانٌ لأنّه لصٌّ بالفأرة، أو بالفيل لأنّه حَقْد، أو بالجمل لأنّه صَوُول، كذلك يشبهه كلُّ ضَرْب من الحيوان في فعله وخلقه وما يَظْهَر من سِنِّهِ بأنه إنسان.

ويقال للبليد من الناس: كأنّه حِمَار؛ ويقال للذكي من الخيل: كأنّه إنسان؛ ولولا هذا التمازُج في الأصل والجوهر، والسُنخ والعُنصر، ما كان هذا التشابه في الفرع الظاهر، والعادة الجارية بالخبر والنظر.

ـ فقال: هذا كلام لا مزيد عليه ـ.

وقالت العلماء: إن هذا الاعتبار واصل في الحقيقة إلى جنس الثّبات، فإن النخل والموز لا ينبتان إلا في البلدان الدافئة والأرض اللينة الثرية، والجوز والفستق وأمثالهما لا ينبتان إلا في البلدان الباردة والأرض الجبلية. والدلب وأم غيلان في الصحارى والفقر؛ والقصب والصفصاف على شطوط الأنهار.

قالوا: وهكذا أيضاً وصف الجواهر المعدنية، كالذهب، فإنه لا يكون إلا في الأرض الرملية والجبال والأحجار الرخوة. والفضة والنحاس والحديد لا تكون إلا في الأرض الندية والتراب اللين والرطوبات الدهنية، والأملاح لا تنعقد إلا في الأراضي

والبَقَاع السَّيْحَة، والجص والاسفيداج لا يكونان إلا في الأرض الرملية المختلطة تُرابها بالحصي، والزاج لا يكون إلا في التراب العَفَص؛ وقد أَحْصَى بعض من عَنِيَ بهذا الشأن هذه الأنواع المعدنية فَوَجَدَهَا سَبعمائة نَوْع.

وقالوا: من الجواهر المعدنية ما هو صُلْب لا يذوب إلا بالنار الشديدة، ولا يُكْسَر إلا بالفأس كالياقوت والعقيق، ومنها تُرابي رِخْو لا يذوب ولكن يَنْفَرُك، كالمِلْح والزاج، والطلق؛ ومنها مائي رطب يَنْفِرُ من النار كالزُّبْق، ومنها هوائي دُهْنِي تَأْكُلُهُ النار، كالْكَبْرِيت والزَّرْنِيخ؛ ومنها نباتي كالْمَرْجَان، ومنها حيواني كالذَّر، ومنها طَلُّ مُنْعَقِد، كالعنبر والبادزهر، وذلك أَنَّ العنبر إِنَّمَا هو طَلُّ يَقَعُ على سطح ماءِ الْبَحْرِ، ثم يَنْعَقِد في مواضع مخصوصة في زمان مقدَّر؛ وكذلك البادزهر، فَإِنَّهُ طَلُّ يَقَعُ على بَعْضِ الأحجار، ثم يَرْشَحُ فِي حَلَلِهَا، وَيَغِيْبُ فِيهَا، وَيَنْعَقِدُ فِي بَقَاعٍ مَخْصُوصَةٍ، فِي زَمَانٍ مَعْلُومٍ، وَكَالتَّرَنْجِبِينَ الَّذِي هُوَ طَلُّ يَقَعُ على ضَرْبٍ مِنَ الشُّوْكَ؛ وَكَذَلِكَ اللَّكُّ فَإِنَّهُ يَقَعُ على نَبَاتٍ مَخْصُوصٍ يَنْعَقِدُ عَلَيْهِ؛ وَكَذَلِكَ الذَّرُّ فَإِنَّهُ طَلُّ يَرْسُخُ فِي أَصْدَافِ نَوْعٍ مِنَ الْحَيَوَانِ الْبَحْرِيِّ، ثُمَّ يَغْلُطُ وَيَجْمُدُ وَيَنْعَقِدُ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الموميا، وَهِيَ طَلُّ يَرْسُخُ فِي صَخُورٍ هُنَاكَ وَيَصِيرُ ماءً ثُمَّ يَنْزِلُ مِنْ مَسَامٍ ضَيِّقَةٍ وَيَجْمُدُ وَيَنْعَقِدُ.

وَالطَّلُّ هُوَ رُطُوبَةٌ هَوَائِيَّةٌ تَجْمُدُ مِنْ بَرْدِ اللَّيْلِ، وَتَقَعُ عَلَى النَّبَاتِ وَالشَّجَرِ وَالْحَجَرِ وَالصَّخْرِ؛ وَعَلَى هَذَا الْقِيَاسِ جَمِيعُ الْجَوَاهِرِ الْمَعْدِنِيَّةِ، فَإِنْ مَادَتْهَا إِنَّمَا هِيَ رُطُوبَاتٌ مَائِيَّةٌ، وَأَنْدَاءٌ وَبُخَارَاتٌ تَنْعَقِدُ بِطُولِ الْوُقُوعِ وَمَرُّ الزَّمَانِ.

وَقَالَتِ الْحُكَمَاءُ الْأَوَّلُونَ: هَاهُنَا طَبِيعَةٌ تَأْلَفُ طَبِيعَةً أُخْرَى، وَطَبِيعَةٌ تَلَزِقُ بِطَبِيعَةٍ أُخْرَى، وَطَبِيعَةٌ تَأْنَسُ بِطَبِيعَةٍ، وَطَبِيعَةٌ تَتَشَبَّهُ بِطَبِيعَةٍ، وَطَبِيعَةٌ تَقْهَرُ طَبِيعَةً، وَطَبِيعَةٌ تُخْبِثُ مَعَ طَبِيعَةٍ، وَطَبِيعَةٌ تَطْلُبُ مَعَ طَبِيعَةٍ، وَطَبِيعَةٌ تُفْسِدُ طَبِيعَةً، وَطَبِيعَةٌ تُحْمَرُ طَبِيعَةً، وَطَبِيعَةٌ تُبَيِّضُ طَبِيعَةً، وَطَبِيعَةٌ تَهْرُبُ مِنْ طَبِيعَةٍ، وَطَبِيعَةٌ تُبْغِضُ طَبِيعَةً، وَطَبِيعَةٌ تُمَارِجُ طَبِيعَةً.

فَأَمَّا الطَّبِيعَةُ الَّتِي تَأْلَفُ طَبِيعَةً فَمِثْلُ الْمَاسِ فَإِنَّهُ إِذَا قَرُبَ مِنَ الذَّهَبِ لَزِقَ بِهِ وَأَمْسَكَه، وَيَقَالُ: لَا يَوْجَدُ الْمَاسُ إِلَّا فِي مَعْدِنِ الذَّهَبِ فِي بَلَدٍ مِنْ نَاحِيَةِ الْمَشْرِقِ.

وَمِثْلُ طَبِيعَةِ الْمَغْنَاطِيسِ فِي الْحَدِيدِ، فَإِنَّ هَذَيْنِ الْحَجَرَيْنِ يَابَسَانِ صُلْبَانِ، وَبَيْنَ طَبِيعَتَيْهِمَا أَلْفَةٌ، فَإِذَا قَرَّبَ الْحَدِيدُ مِنْ هَذَا الْحَجَرِ حَتَّى يَشْمَّ رَائِحَتَهُ ذَهَبَ إِلَيْهِ وَالتَّصَقَّ بِهِ وَجَذَبَ الْحَدِيدُ إِلَى نَفْسِهِ وَأَمْسَكَه كَمَا يَفْعَلُ الْعَاشِقُ بِالْمَعشُوقِ. وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْحَجَرُ الْجَاذِبُ لِلْحَزِّ وَالْحَجَرُ الْجَاذِبُ لِلشَّعْرِ، وَالْجَاذِبُ لِلتَّنِّينِ؛ وَعَلَى هَذَا الْمَثَالِ مَا مِنْ حَجَرٍ مِنْ أَحْجَارِ الْمَعْدِنِ إِلَّا وَبَيْنَ طَبِيعَتِهِ وَبَيْنَ طَبِيعَةٍ شَيْءٍ آخَرَ إِنْ لَمْ يَشْتِيَاقِ، عَرِفَ ذَلِكَ أَوْ لَمْ يَعْرِفْ؛ وَمِثْلُ هَذَا مَا يَكُونُ بَيْنَ الدَّوَاءِ وَالْعَضْوِ الْعَلِيلِ، وَذَلِكَ أَنَّ مِنْ خَاصَّةِ كُلِّ عَضْوٍ عَلِيلٍ اشْتِيَاقُهُ إِلَى طَبِيعَةِ الدَّوَاءِ الَّتِي هِيَ ضِدُّ طَبِيعَةِ الْعِلَّةِ الَّتِي بِهِ، فَإِذَا

حَصَلَ الدَّوَاءُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْعُضْوِ الْعَلِيلِ وَأَحْسَ بِهِ جَذْبُهُ الْقُوَّةَ الْجاذِبَةُ إِلَى ذَلِكَ الْعُضْوِ
وَأَمْسَكَتِ الْمَمْسِكَةُ وَاسْتَعَانَتْ بِالْقُوَّةِ الْمَدْبُورَةِ لِطَبِيعَةِ الدَّوَاءِ عَلَى دَفْعِ الطَّبِيعَةِ الْمُؤَلَّفَةِ
لِلْعِلَّةِ وَقَوِيَتْ عَلَيْهَا وَدَفَعَتْهَا عَنِ الْعُضْوِ الْعَلِيلِ ، كَمَا يَسْتَعِين وَيُدْفَعُ الْمُحَارِبُ
وَالْمَخَاصِمُ بِقُوَّةٍ مِنْ يُعِينُهُ عَلَى خَصْمِهِ وَعَدُوَّهُ وَيُدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ وَأَمَّا الطَّبِيعَةُ الَّتِي تَقْهَرُ
طَبِيعَةً أُخْرَى فَمِثْلُ طَبِيعَةِ السُّنْبَادِجِ الَّذِي يَأْكُلُ الْأَحْجَارَ عِنْدَ الْحَكِّ أَكْلًا وَيُلِينُهَا وَيَجْعَلُهَا
مَلَسًا . وَمِثْلُ طَبِيعَةِ الْأَسْرُبِ الْوَسَخِ فِي الْمَاسِ الْقَاهِرِ لِسَائِرِ الْأَحْجَارِ الصُّلْبَةِ ، وَذَلِكَ
أَنَّ الْمَاسَ لَا يَقْهَرُهُ شَيْءٌ مِنَ الْأَحْجَارِ ، وَهُوَ قَاهِرٌ لَهَا كُلِّهَا ، وَلَوْ تَرَكَ عَلَى السُّنْدَانِ
وَطُرِقَ بِالْمِطْرَقَةِ لَدَخَلَ فِي أَحَدِهِمَا وَلَمْ يَنْكَسِرْ ، وَإِنْ جَعَلَ بَيْنَ صَفِيحَتَيْنِ مِنْ أَسْرُبٍ
وَضُمَّتَا عَلَيْهِ تَفَقَّتْ ؛ وَمِثْلُ طَبِيعَةِ الزَّبَقِ الطَّيَارِ الرُّطْبِ الْقَلِيلِ الصَّبِرِ عَلَى حَرَارَةِ النَّارِ ،
إِذَا طَلَى بِهِ الْأَحْجَارَ الْمَعْدِنِيَّةَ الصُّلْبَةَ مِثْلُ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالتَّحَاسِ وَالْحَدِيدِ أَوْهَنَهَا
وَأَزَاخَهَا حَتَّى يُمْكِنَ أَنْ تُكْسَرَ بِأَهْوَنِ سَغْيٍ ، وَتَتَفَقَّتْ قِطْعًا .

وَمِثْلُ الْكِبْرِيتِ الْمُتَيْنِ الرَّائِحَةِ الْمَسْوُودِ لِلْأَحْجَارِ النَّيِّرَةِ الْبَرَّاقَةِ ، الْمَذْهَبِ لِأَوَانِهَا
وَأَصْبَاغِهَا ، يُمْكِنُ النَّارَ مِنْهَا حَتَّى تَحْتَرِقَ فِي أَسْرَعِ مَدَّةٍ . وَالْعِلَّةُ فِي ذَلِكَ أَنَّ الْكِبْرِيتَ رُطوبَةٌ
دُهْنِيَّةٌ لَزِجَةٌ جَامِدَةٌ ، فَإِذَا أَصَابَتْهُ حَرَارَةُ النَّارِ ذَابَ وَالتَزَقَ بِأَجْسَادِ الْأَحْجَارِ وَمَازَجَهَا ، فَإِذَا
تَمَكَّنَتِ النَّارُ مِنْهَا احْتَرَقَ وَأُحْرِقَ مَعَهُ تِلْكَ الْأَجْسَادُ يَاقُوتًا كَانَتْ أَوْ ذَهَبًا أَوْ غَيْرَهُمَا .

وَأَمَّا الطَّبِيعَةُ الَّتِي تَرُسُبُ فِي طَبِيعَةِ أُخْرَى وَتُنِيرُهَا ، فَمِثْلُ الثُّوَشَادِرِ الَّذِي يَغُوصُ
فِي قَعْرِ الْأَشْيَاءِ وَيَغْسِلُهَا مِنَ الْوَسَخِ .

وَأَمَّا الطَّبِيعَةُ الَّتِي تُعِينُ طَبِيعَةً أُخْرَى فَمِثْلُ الْبُورَقِ الَّذِي يُعِينُ النَّارَ عَلَى سَبْكِ هَذِهِ
الْأَحْجَارِ الْمَعْدِنِيَّةِ الذَّائِبَةِ ، وَمِثْلُ الزَّاجَاتِ وَالشُّبُوبِ الَّتِي تَجْلُوها وَتُنِيرُهَا وَتَضْبَعُهَا ،
وَمِثْلُ الْمَغْنِيسِيَا وَالْقَلَى الْمُعِينَيْنِ عَلَى سَبْكِ الرَّمْلِ وَتَضْفِيفَتِهِ حَتَّى يَكُونَ مِنْهُ زُجَاجٌ ؛
وَعَلَى هَذَا الْمِثَالِ جَمِيعُ الْأَحْجَارِ الْمَعْدِنِيَّةِ .

النَّارُ هِيَ الْحَاكِمَةُ بَيْنَ الْجَوَاهِرِ الْمَعْدِنِيَّةِ بِالْحَقِّ .

وَيُقَالُ : مِنْ أَدْمَنَ الْأَكْلَ وَالشُّرْبَ فِي أَوَانِي التَّحَاسِ أَفْسَدَتْ مَزَاجَهُ ، وَعَرَضَ لَهُ
أَمْرَاضٌ صَغْبَةٌ ، وَإِنْ أَذْنِيتَ أَوَانِي التَّحَاسِ مِنَ السَّمَكِ شِمِمَتْ لَهَا رَائِحَةٌ كَرِيهَةٌ وَإِنْ
كُبِتَ آتِيَةُ التَّحَاسِ عَلَى سَمَكٍ مَشْوِيٍّ أَوْ مَطْبُوخٍ بِحَرَارَتِهِ حَدَثَ مِنْهُ سُمٌّ قَاتِلٌ .

الْقَلْعَى قَرِيبٌ مِنَ الْفِضَّةِ فِي لَوْنِهِ ، وَلَكِنْ يَخَالَفُهَا فِي ثَلَاثِ صِفَاتٍ : الرَّائِحَةِ
وَالرَّخَاوَةِ وَالصَّرِيرِ ، وَهَذِهِ الْآفَاتُ دَخَلَتْ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَعْدِنِهِ كَمَا تَدْخُلُ الْآفَاتُ عَلَى
الْمَقْلُوجِ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ ؛ فَرَخَاوَتُهُ لِكَثْرَةِ زَبَقِهِ ، وَصَرِيرُهُ لِعِلَظِ كِبَرِيَّتِهِ .

وَيُقَالُ : إِنَّ لَوْنَ الْيَاقُوتِ الْأَصْفَرِ وَالذَّهَبِ الْإِبْرِيْزِ ، وَلَوْنَ الزَّعْفَرَانِ وَمَا شَاكَلَهَا
مِنَ الْأَلْوَانِ الْمُشْرِقَةِ مَنْسُوبَةٌ إِلَى نُورِ الشَّمْسِ وَبَرِيقِ شُعَاعِهَا ، وَكَذَلِكَ بَيَاضُ الْفِضَّةِ

والمِلْح والبلّور والقُطْن وما شاكله من ألوان التّبات منسوبة إلى نور القمر وبريق شعاعه؛ وعلى هذا المثال سائر الألوان.

وقال أصحاب النجوم: السواد لزحل، والخُمْرة للمريخ، والخُضرة للمشتري، والزُّرْقَة للزُّهرة، والصُّفْرة للشمس، والبياض للقمر، والتَّلَوْن لعطارد.

ويقال: إن العلة الفاعلة للجواهر المعدنية هي الطبيعة، والعلّة الطّينية الزُّبْبُ والكبريت؛ والعلّة الصُّوريّة دَوْرانُ الأفلاك وحركات الكواكب حَوْلَ الأركان الأربعة التي هي: النَّار والهواء والماء والأرض؛ والعلّة التَّماميّة المنافع التي ينالها الإنسان والحيوان.

ويقال: إن الجواهر المعدنية ثلاثة أنواع: منها ما يكون في الثراب والطّين والأرض السَّيْخَة، ويتمُّ نُضْجُه في السَّنة وأقلُّ كالكباريت والأملاح والشُّبُوب والزَّاجات وما شابهها؛ ومنها ما يكون في قعر البحار وقرار المياه، ولا يتمُّ نُضْجُه إلَّا في السَّنة أو أكثر كالذرّ والمَرْجان، فإنَّ أحدهما نبات وهو المرجان، والآخر حيوان، وهو الدرّ.

ومنها ما يكون في وسط الحَجَر وكهوف الجبال وخَلَلِ الرِّمال فلا يتمُّ نُضْجُه إلَّا في السنين، كالذهب والفضة والتّحاس والحديد والرّصاص وما شاكلها؛ ومنها ما لا يتمُّ نُضْجُه إلَّا في عَشْرَات السنين، كالياقوت والزَّبَرْجَد والعقيق وما شاكلها.

وقال بعض من حضر المجلس - وهو الرَّجُلُ القَدُمُ الثَّقِيلُ -: إنَّ الزارع لا يَزْرَعُ طالباً للعُشْب، بل قَصْدُه للحَب، ولا بدّ للعُشْب من أن يَنْبُتَ إنَّ أَحَبَّ أو كَرِه، فلمْ ذلك؟ فقول له: قد يَصْحَبُ المَقْصُودُ ما ليس بمقصود، من حيث لا يَتِمُّ المَقْصُودُ إلَّا بما ليس بمقصود، والعُشْب هو فَضَلَات الحَب، وبه صفاء الحَب وتَمَامُه، ولولا القوَّة التي تصفّي الحَب وتُصَوِّرُه بصورته الخاصة به، وتَنْفِي كَدْرَه وتُحْصِلُ صَفْوَه لكان العُشْب في بَدَنِ الحَب، وحينئذٍ لا يكون الحَب المُتَنَفِّع به المخصوصُ باسمه المعروف بعينه، بل يكون شيء آخر؛ فلمَّا تميّزت تلك الشوائب التي كانت ملايسَةً له من أجزاء الأرض والماء وآثار الهواء والنار، خَلَصَ منتفعاً به، مقصوداً بعينه، فوَجَبَ بهذا الاعتبار أن يكون الحَب بالذَّات، والعُشْب بالعرَض.

فقال - أدام الله دَوْلَتَه -: هل تَعْرِفُ العَرَبُ الفَرْقَ بين الرُّوح والنَّفْس في كلامها؟ وهل في لَفْظِها مِنْ نَظْمِها ونَثْرِها ما يدلُّ على ما بينهما، أو هما كشيء واحد لِحَقِّه اسمان؟

فكان الجواب: إنَّ الاستعمال يَخْلُطُ هذا بهذه وهذه بهذا في مواضع كثيرة، وإذا جاء الاعتبار أَفْرَدَ أحدهما من الآخر بالحدِّ والرسم؛ وعلى هذا اتَّفَقَ رأيُ الحُكَمَاءِ، لأنَّهم حَكَمُوا بأنَّ الرُّوحَ جِسْمٌ لطيف مُنَبَّثٌ في الجسد على خاصٍّ ماهيته فيه فأَمَّا

النفس الناطقة فإنها جوهرٌ إلهيٌّ، وليست في الجسد على خاصٍّ ماهيته ولكنها مدبرةٌ للجسد؛ ولم يكن الإنسان إنساناً بالروح، بل النفس، ولو كان إنساناً بالروح لم يكن بينه وبين الجمار فرق، بأن كان له روحٌ ولكن لا نفس له. فأما النفسان الأخريان اللتان هما الشهوية والغضبية فإنهما أشدَّ اتصالاً بالروح منهما بالنفس، وإن كانت النفس الناطقة تدبرهما وتمدّهما وتأمّرهما وتنهماهما؛ فهذا أيضاً يوضح الفرق بين الروح والنفس، فليس كلُّ ذي روح ذا نفس، ولكن كلُّ ذي نفس ذو روح؛ وقد وجدنا في كلام العرب مع هذا الفرق بينهما، فإن النابغة قد قال للثعمان بن المُنذر:

وَأَسْكَنْتَ نَفْسِي بَعْدَ مَا طَارَ رُوحُهَا وَأَلْبَسْتَنِي نُعْمَى وَلَسْتُ بِشَاهِدٍ

وقال أبو الأسود:

لَعَمْرُكَ مَا حَشَاكَ اللَّهُ رُوحاً بِهِ جَشَعٌ وَلَا نَفْساً شَرِيرَةً

قال: هذا من الفوائد التي كنتُ أجنُّ إليها، وأستبعدُ الظفرَ بها، وما أنفع المطارحة والمفاتحة وبَثَّ الشكِّ واستماحة النفس، فإن التغافل عما تمسُّ إليه الحاجة سوء اختيار، بل سوء توفيق.

وما أحسن ما قال بعضُ الجَلَّة: تَوَانَيْتُ فِي أَوَانِ التَّعْلُمِ عَنِ الْمَسْأَلَةِ عَنْ أَشْيَاءَ كَانَتِ الْحَاجَةُ تَخْفِزُ إِلَيْهَا وَالْكُسْلُ يَصُدُّ عَنْهَا، فَلَمَّا كَبُرْتُ أَنْفَتُ مِنْ ذِكْرِهَا وَعَرَضَهَا عَلَى مَنْ عِلْمُهَا عِنْدَهُ، فَبَقِيَتِ الْجَهَالَةُ فِي نَفْسِي، وَرَكَدَتِ الْوَحْشَةُ بَيْنَ قَلْبِي وَفِكْرِي.

ثم جرى في حديث النفس ذكرُ بعض العلماء فإنه قال: إِنَّ نَفْسَكَ هِيَ إِحْدَى الْأَنْفُسِ الْجُزْئِيَّةِ مِنَ النَّفْسِ الْكَلِّيَّةِ، لَا هِيَ بَعِينُهَا، وَلَا مَنْفَصِلَةٌ عَنْهَا، كَمَا أَنَّ جَسَدَكَ جُزْءٌ مِنْ جَسَدِ الْعَالَمِ لَا هُوَ كُلُّهُ وَلَا مَنْفَصِلٌ عَنْهُ؛ وَقَدْ مَرَّ مِنْ أَمْرِ النَّفْسِ مَا فِيهِ إِضْخَاحٌ تَامٌ وَاسْتِئْصَارٌ وَاسِعٌ، وَإِنْ كَانَ الْكَلَامُ فِي نَعْتِ النَّفْسِ لَا آخِرَ لَهُ، وَلَا وَقُوفَ عَنْهُ.

ولو قال قائل: إِنَّ جَسَدَكَ هُوَ كُلُّ الْعَالَمِ لَمْ يَكُنْ مُبْطِلاً، لِأَنَّهُ شَبِيهُ بِهِ، وَمَسْلُوكٌ مِنْهُ، وَبِحَقِّ الشَّبه يحكيه، وبحق الانسلاال يستمد منه؛ وكذلك النفس الجزئية هي النفس الكلية، لأنها أيضاً مشاكهة لها، وموجوده بها، فبحق الشَّبه أيضاً تحكي حالها، وبحق الوجود تبقى بقاءها، فليس بين الجسد إذا أُضيفَ إلى العالم، والنفس إذا قيسَتْ بالأخرى فرق، إِلَّا أَنَّ الْجَسَدَ مَعْجُونٌ مِنَ الطِّينَةِ، وَالنَّفْسَ مَدْبَرَةٌ بِالْقُوَّةِ الْإِلَهِيَّةِ؛ وَلِهَذَا احْتِيجَ إِلَى الْإِحْسَاسِ وَالْمَوَادِّ، وَإِلَى الْإِقْتِبَاسِ وَالِاتِّمَاسِ حَتَّى تَكُونَ مُدَّةَ الْحَيَاةِ الْجَسَدِيَّةِ بِالْعِلَّةِ إِلَى آخِرِهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْجَسَدِ، وَيَكُونُ مَبْدَأُ الْحَيَاةِ النَّفْسِيَّةِ مَوْصُولاً بِالْأَبَدِ بَعْدَ الْأَبَدِ.

فقال - أدام الله سعادته -: لو كان ما يمر من هذه الفوائد الغرر والمرامي اللطاف مرسوماً بسوادٍ على بياض، ومقيّداً بلفظٍ وعبرة، لكان له رِيعٌ وإتاء، وزيادة ونماء.

فكان الجواب؛ إِنَّ هَذَا غَيْرُ مُتَعَذِّرٍ وَلَا صَغْبٍ إِنَّ نَفْسَ اللَّهِ فِي الْبَقَاءِ، وَصَرَفَ هَذِهِ الْهَمُومَ الَّتِي تَقْسُمُ الْفِكْرَ بِالْعَوَارِضِ الَّتِي لَا تُحْتَسَبُ، وَالْأَسْبَابِ الَّتِي لَا تُعْرَفُ؛ فَأَمَّا وَالْأَشْغَالُ عَلَى تَكَافُفِهَا، وَالزَّمَانُ عَلَى تَلَوُّنِهِ فَكَيْفَ يُمَكِّنُ ذَلِكَ؛ وَالْعَجَبُ أَنَّهُ يَجْرِي حَرْفٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمُورِ الشَّرِيفَةِ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الضَّيِّقَةِ.

ولقد قال أبو سليمان أمس: كيف نشاط الوزير - أدام الله سعادته - في شأنه، وكيف كان تقبله لرسالتي إليه، وتلطفي له، وخدمتي لدولته؟

فقلت: ما لَمْ شَيْءٌ يَحْتَاجُ إِلَى الزِّيَادَةِ مِنْ فَهْمٍ وَدِرَايَةٍ، وَبَيَانٍ وَاسْتِبَانَةٍ، وَهَشَاشَةٍ وَرَفَقٍ، وَاطَّلَاعٍ وَتَأَنٍّ؛ وَلَكِنَّ الْوَقْتَ مُسْتَوْعَبٌ بِالتَّدْبِيرِ وَالنَّظَرِ، وَكَفَّ الْعَدُوَّ بِالْمُدَاوَرَةِ مَرَّةً، وَبِالْإِحْسَانِ مَرَّةً. فقال: اللَّهُ يُبْقِيهِ، وَيُرِينَا مَا نُحِبُّهُ فِيهِ.

وقال أيضاً أبو سليمان: كيف لا يكون ما تَقَلَّدَهُ ثَقِيلاً، وما تَصَدَّى لَهُ عَظِيماً، وما يَبَاشِرُهُ بِلِسَانِهِ وَقَلَمِهِ صَغْباً، وَالْأَوْلِيَاءُ أَعْدَاءُ، وَالْأَعْدَاءُ جُهَالُ، وَالْحَضُّ عَلَيْهِ مِنْ وَرَائِهِ شَدِيدٌ، وَنَصِيحُهُ غَاشٍ، وَثِقَتُهُ مُرِيبٌ، وَالشُّغْبُ مُتَّصِلٌ، وَطَلَبُ الْمَالِ لَا آخِرَ لَهُ، وَالْمُضْطَنَعُ مُسْتَزِيدٌ، وَالْمَحْرُومُ سَاخِطٌ، وَالْمَالُ مَمْزُوقٌ، وَالتَّجْدِيفُ مِنَ الطَّالِبِ وَاقِعٌ، وَالتَّحَكُّمُ بِالْإِذْلَالِ دَائِمٌ، وَالْإِسْتِقَالَةُ مِنَ الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ زَائِدَةٌ، وَالْكَلَامُ لَيْسَ يَنْفَعُ، وَالتَّدَبُّرُ لَيْسَ يَقْمَعُ؛ وَالْوَعْظُ هَيَاءً مَثْنُورٌ، وَالْأَصْلُ مَقْطُوعٌ مَبْتُورٌ، وَالسِّرُّ مَكْشُوفٌ، وَالْعَلَانِيَةُ فَاضِحَةٌ؛ وَقَدْ رَكِبَ كُلُّ هَوَاهُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِكْرٌ فِي عُقْبَاهُ؛ وَاخْتَلَطَ الْمُبْرَمُ بِالسَّحِيلِ، وَضَاقَ عَلَى السَّالِكِ كُلِّ سَبِيلٍ؛ وَمَنَابِعُ الْفُسَادِ وَمَنَابِتُ التَّخْلِيطِ كُلُّهَا مِنْ الْحَاشِيَةِ الَّتِي لَا تَعْرِفُ نِظَامَ الدَّوْلَةِ وَلَا اسْتِقَامَةَ الْمَمْلَكَةِ؟ وَإِنَّمَا سُؤْلُهَا تَعْجِيلُ حَظٍّ وَإِنْ كَانَ نَزْراً، وَاسْتِلَابُ دِرْهَمٍ وَإِنْ كَانَ زَيْفاً، وَلَعَمْرِي لَيْسَ يَكُونُ الْكَدْرُ إِلَّا بَعْدَ الصَّفْوِ، كَمَا لَا يَكُونُ الصَّفْوُ إِلَّا بَعْدَ الْكَدْرِ، هَكَذَا اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَالنُّورُ وَالظُّلَامُ، هَذَا يَخْلُفُ هَذَا، وَهَذَا يَتْلُو هَذَا.

قال: أَغْنِي بِهَذَا أَنَّهُ لَمَّا فُقِدَ الْمَلِكُ السَّعِيدُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِالْأَمْسِ حَدَثَ هَذَا كُلُّهُ، فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ زَمَّ وَخَطَّم، وَجَبَرَ وَخَطَّم، وَأَسَا وَجَرَحَ، وَمَنَعَ وَمَنَحَ؛ وَأَوْرَدَ وَأَصْدَرَ، وَأَظْهَرَ وَسَتَرَ، وَسَهَلَ وَوَعَّرَ، وَوَعَدَ وَتَوَعَّدَ، وَأَنْحَسَ وَأَسْعَدَ، وَوَهَبَ زَمَانَهُ وَحَيَاتَهُ لِهَذَا، لِأَنَّهُ جَعَلَ لَذَّتَهُ فِيهِ، وَغَايَتَهُ إِلَيْهِ، وَاشْتَهَى أَنْ يَطِيرَ صَيْتُهُ فِي أَطْرَافِ الْأَرْضِ فَيَسْمَعَ مَلُوكُهَا بِفِطْنَتِهِ وَحَزْمِهِ، وَتَصْمِيمِهِ وَعَزْمِهِ، وَجِدَّهُ وَتَشْمِيرِهِ، وَرِضَاهُ فِي مَوْضِعِ الرِّضَا، وَسُخْطِهِ فِي وَقْتِ السُّخْطِ، وَرَفْعِهِ لِمَنْ يَرْفَعُهُ بِالْحَقِّ، وَوَضْعِهِ لِمَنْ يَضَعُهُ بِالْوَاجِبِ؛ يُجْرِي الْأُمُورَ بِسَنَنِ الدِّينِ مَا اسْتَجَابَتْ، فَإِنْ عَصَتْ أَخَذَ بِأَحْكَامِ السِّيَاسَةِ الَّتِي هِيَ الدُّنْيَا، وَلَمَّا كَانَتِ الْأُمُورُ مُتَلَبِّسَةً بِالْأَمْرِ وَالنَّاسِ لَمْ يَجُزْ لِلْعَاقِلِ الْحَصِيفِ، وَالْمَدْبُرِ اللَّطِيفِ أَنْ يُعْمَلَ التَّدْبِيرُ فِيهَا مِنْ نَاحِيَةِ الدِّينِ فَحَسَبَ، وَلَا مِنْ نَاحِيَةِ الدُّنْيَا فَقَطْ، لِأَنَّ دَائِرَةَ الدِّينِ إِلَهِيَّةٌ، وَدَائِرَةُ الدُّنْيَا حِسِّيَّةٌ، وَفِي الْإِحْسَانِ أَحْقَادٌ لَا

بدّ من إطفاء نائرتها، وصنائع لا بدّ من تربيتها، وموضوعات لا بدّ من إشالتها ومرفوعات لا بدّ من إزالتها؛ وتدابير لا بدّ من إخفائها، وأحوال لا بدّ من إبدائها، ومقامات لا بدّ من الصّبر على عوارض ما فيها، وأمور هي مسطورة في كتب السياسات للحكماء لا بدّ من عرفانها والعمل بها والمصير إليها، والزيادة عليها؛ فليس الخبر كالعيان، ولا الشاهد كالغائب، ولا المظنون كالمُستيقن.

ثم قال: - أعني أبا سليمان - وهذا كلّ منوط بالتوفيق والتأييد اللذين إذا نزلا من السّماء واتّصلا بمفرق السائس تضامّت أحواله على الصّلاح، وانتشرت على النّجاح؛ وكُفّي كثيراً من همومه؛ ثم دعا للوزير بالبقاء المديد، والعيش الرّغيد والجّد السّعيد؛ وأمن الحاضرون على ذلك، وكانوا جمّاً غفيراً، لا فائدة في ذكر أسمائهم والإشارة إلى أعيانهم؛ وكلّهم لما سمعوا هذا الكلام الشّريف عجبوا منه، وعوّذوه وسألوه أن ينظّم لهم رسالة في السياسة؛ فقال: قد رسمت شيئاً منذ زمان، وقد شاع وفشا، وكتب وحمل في جملة الهدية إلى قابوس بخرجان، فهذا - أيها الشيخ - نمط أبي سليمان وأنت عنه مشغول، قد رصيت بترك النّظر في أمره، وبذلّ الجاه له فيما عاد بشأنه، واللّه ما هذا لسوء عهدك فيه، ولا لحيلولة نيتك عنه؛ ولكن لقلّة حظّه منه وإنحاء الزّمان على كلّ من يجري مجراه، مع عوز مثله في عصره؛ وكيف تُتهم بسوء اعتقاد وقلّة حفاظ، وتوان عن رعاية عهد، وقيام بحق، وأنت من فرقك إلى قدّمك فضل وخير وجود ومجد وإحسان وكرم ومعونة ورفد وإنعام وتفقد وتعهد وبذل وعزف؛ ولو كان امرؤ من الدّهب المصقى لكنته ولو كان أحد من الرّوح الصّرف لكنته؛ ولو كان أحد من الضّيّاء المحيط لكنته؛ فسبحان من خلّق صِرْفاً بلا مزاج، وصفواً بلا كدر، وواحد بلا ثان، لقد فخر بك الشّرق على الغرب، وسلّم لك بلا خصومة ولا شغب، فأدام اللّه لك ما آتاك وأفاض عليك من لدنه ما يُنور مسعاك؛ وبلغك السّعادة العظمى في عقبك، كما بلغك السّعادة الصّغرى في دُنياك.

أعرض أيّها الشّيخ هذا الحديث على ما ترى، والكلام ذو جيّشان، والصّدور ذو عليان، والقلم ذو نقيان ومتدفّقه لا يستطاع رده؛ ومُنْبَعِثُهُ لا يُقدّر على تسهيله، وخطبه غريب، وشأنه عجيب؛ وإنما يعرف دقّه وجلّه من يدوق حُلُوه ومُرّه، ومع هذا كلّه، فإني أذكرك أمري لتلحظه بعين الرّعاية، وأعرض عليك حديثي لتلحظه في صحيفه العناية؛ فلقد أمسيّت بين صديق يشقّ عليّ حزنه لي، وبين عدوّ تسوءني شماتته بي؛ وقد صحّ عندي أن إقبالك عليّ يسر، كما أن إعراضك عني عُسر، وأرجع إلى تمام هذين الجزأين وإنه أخرى.

وأما حديث الزّهاد وأصحاب النّسك، فإنه كان تقدّم بإفراد جزء فيه، وقد أثبتّه في هذا الموضع، ولم أحب أن أغزله عن جملته، فإن فيه تنبيهاً حسناً، وإرشاداً

مَقْبُولاً، وكَمَا قَصَدْنَا بِالْهَزْلِ الَّذِي أَفْرَدْنَا فِيهِ جُزْءاً جَمَاماً لِلنَّفْسِ قَصْدْنَا بِهَذَا الْجُزْءِ الَّذِي عَطَفْنَا عَلَيْهِ إِصْلَاحاً لِلنَّفْسِ وَتَهْذِيباً لِلخَلْقِ، وَاقْتِدَاءً بِمَنْ سَبَقَ إِلَى الْخَيْرِ وَاتِّبَاعاً لِمَنْ قَصَدَ النُّصْحَ؛ وَشَرَفُ الْإِنْسَانِ مَوْقُوفٌ عَلَى أَنْ يَكُونَ فَاتِحاً لِبَابِ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَلَا أَقْلٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ مَقْتَفِياً لِأَثَرٍ مِنْ كَانَ فَاتِحاً قَبْلَهُ؛ وَمَنْ تَقَاعَسَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْأُمُورِ فَهُوَ الْخَاسِرُ الَّذِي جَهَلَ قِيَمَةَ نَفْسِهِ، وَضَلَّ عَنْ غَايَةِ حَيَاتِهِ، وَحُرِمَ التَّوْفِيقَ فِي إِصَابَةِ رُشْدِهِ؛ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

قال ابن مسعود: لو عرفت البهائم ما عرفتكم ما أكلتم سميناً.

وقال أبو هريرة: اللهم إني أسألك قلباً قاراً، ورزقاً داراً، وعَمَلاً ساراً.

وقال بعض السلف: اللهم إني أسألك قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وبدناً صابراً.

وقال صالح بن مسمار: لا أدري أنعمته عليّ فيما بسط لي أفضل، أم نعمته فيما روى عني، لأنه فيما بسط لي أخواني، وفيما روى عني حماني، نظر لي بما يزيد على نظري لنفسي، وآتاني من عنده أكثر مما عندي.

وقال الله عز وجل - لموسى - عليه السلام: حبّني إلى عبادي. قال: وكيف أحبيك؟ قال: ذكرهم آلائي ونعمائي.

وقال شذاد بن حكيم لبعض الواعظين: أي شيء تقول إذا جلست على المنبر؟ قال: أذكرهم آلاء الله لي شكروا، وأذكرهم جفأهم لي توبوا، وأخبرهم عن إبليس وأعوانه حتى يحذروا.

وقال بعض الصالحين: مثل الدنيا ونعيمها كخابية فيها سمٌ وعلى رأسها عسلٌ، فمن رغب في العسل سقي من السم، ومثل شدة الدنيا كمثل خابية مملوءة من العسل وعلى رأسها قطرات من سم، فمن صبر على أكلها بلغ إلى العسل.

جاء رجل إلى حاتم الزاهد بنميّة، فقال: يا هذا أبطأت عني وجئت بثلاث جنایات؛ بَعُضْتُ إِلَيَّ الْحَبِيبَ، وَشَغَلْتُ قَلْبِي الْفَارِغَ، وَأَغْلَقْتُ نَفْسَكَ التَّهْمَةَ، وَأَنْتَ آمِنٌ.

وكان خالد بن صفوان يقول: قبول قول النمام شرٌ من النميّة، لأن النميّة دلالة، والقبول إجازة، وليس من دَلَّ على شيء كمن قَبِلَ وأجاز.

وقال ابن السماك الواعظ: يُدْرِكُ النَّمَامُ بِنَمِيَّتِهِ مَا لَا يُدْرِكُ السَّاجِرُ بِسُخْرِهِ.

وقال معمر: ما نزلت بعد نازلة فكان مفرّعه إلى الله إلا فرّج الله عنه.

وقال عمر: ما أسأل الله الرزق وقد فرغ منه، ولكن أسأله أن يبارك لي فيه.

وقال مالك بن دينار: الجلوس مع الكلب خيرٌ من الجلوس مع رفيق سوء.

وقال أبو هريرة: تهادوا عباد الله يتجدد في قلوبكم الود، وتذهب السخيمة.

وقال حاتم: صاحبُ الضُّغنِ غيرُ ذي دين، والغائبُ^(١) غيرُ ذي عِبادة. والثَّمام غيرُ صدوق، والحاسد غيرُ منصور.

وقال بعض السُّلف: مَنْ استَقْصَى عيوبَ الناسِ بقي بلا أصدقاء.
وقال محمد بنُ واسع: ينبغي للرجل أن يكون مع المرأة كما يكون أهلُ المجنون مع المجنون، يحتملون منه كلَّ أذى ومَكروه.

قيل لمالك بن دينار: لو تزوجت؛ قال: لو استطعتُ لطلَّقتُ نفسي.
قال شقيق: اشتريتُ بطيخةً لأُمِّي، فلما ذاقَها سَخِطْتُ. فقلت: يا أُمِّي، على على من تُرَدِّين القضاءَ ومَنْ تُلومين، أحرَّثها أَمْ مُشْتَرِيها أَمْ خالِقها؟ فأما حارِثها ومُشْتَرِيها فما لهما ذنب، فلا أراكِ تلومين إلا خالِقها.

ويقال: إِنَّ عبداً حَبَشِيًّا ناوَلَه مولاة شَيْئاً يأكلُه، وقال: أعْطِنِي قطعَةً منه فأعطاه، فلما أَكَلَه وَجَدَه مُراً، فقال: يا غلام، كيف أَكَلْتَ هذا مع شِدَّةِ مَرارته. قال: يا مولاي، قد أَكَلْتُ مِنْ يَدِكَ حُلُواً كثيراً، ولم أَحِبْ أَنْ أُرِيكَ مِنْ نَفْسِي كراهةً لمرارته.

وأوحى اللهُ تعالى إلى عُزَيْر: إذا نزلت بك بليَّةٌ لا تُشْكِنِي إلى خَلْقِي كما لم أَشْكُكَ إلى ملائِكَتي عند صُعودِ مَساوِئِكَ إليّ، وإذا أَذْنَبْتَ ذنباً فلا تنظر إلى صِغَرِه، ولكن انظر من أَهديته إليه.

وقال لقمان: إِنَّ الذَّهَبَ يُجَرَّبُ بالنَّارِ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يُجَرَّبُ بالبلاءِ.

وقال بعضُ السُّلف: عليكم بالصَّبْرِ فَإِنَّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وقال: ﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] وقال: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]. وقال: ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. وقال: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

وقال الأوزاعي: المؤمن يُقِلُّ الكلامَ وَيُكْثِرُ العَمَلَ. والمُنَافِقُ يُكْثِرُ الكلامَ وَيُقِلُّ العَمَلَ.

وقال فضيل بن عياض: الخَوْفُ ما دامَ الرجلُ صحيحاً أفضل، فإذا نزلت الموتُ فالرَّجاءُ أَفْضَلُ.

وقال التَّيبي - رَحِمَهُ اللهُ -: إِيَّاكُمْ والخيانة، فإنها بُشِيت البِطانة^(٢)، وقال النبي ﷺ:

(١) من يغتاب الناس.

(٢) في سنن النسائي في الاستعاذة من الجوع. عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول:

اللهم إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بشس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بُشِيت البطانة.

« من رَدَّ عن عِرْضِ أَخِيهِ رَدَّ اللَّهُ عَنْ وَجْهِهِ لَفَحَ النَّارَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »^(١).

وَرُوِيَ: مَنْ وَقِيَ شَرَّ لَقْلَقِهِ وَقَبْقَبِهِ وَذَبَذَبِهِ^(٢) فَقَدْ وَقِيَ شِرَّةَ الشَّبَابِ.

وقيل لابن المبارك: إنك لتَحْفَظَ نَفْسَكَ مِنَ الْغِيْبَةِ. قال: لو كنت مُغْتَاباً أَحَدًا لَاغْتَبْتُ وَالِدِي، لَأَنْهُمَا أَحَقُّ بِحَسَنَاتِي.

وقال بعض الصالحين: لو أَنَّ رَجُلًا تَعَشَّى بِالْوَانِ الطَّعَامِ وَقَدْ أَصَابَ مِنَ النَّسَاءِ فِي اللَّيْلِ، وَرَجُلًا آخَرَ رَأَى رُؤْيَا عَلَى مِثَالِ مَا أَصَابَ الْأَوَّلُ فِي الْيَقَظَةِ، فَإِذَا مَضَى صَارَ الْحَالِمُ وَالْآخِرُ سَوَاءً.

وقال شقيق: مَنْ أَبْصَرَ ثَوَابَ الشَّدَةِ لَمْ يَتَمَنَّ الْخُرُوجَ مِنْهَا.

وقال شقيق لأصحابه: أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ، أَنْ يَكُونَ لَكُمْ شَيْءٌ عَلَى الْمَلِيءِ، أَوْ يَكُونَ شَيْءٌ لِلْمَلِيءِ عَلَيْكُمْ؟ فَقَالُوا: بَلْ نُحِبُّ أَنْ يَكُونَ لَنَا عَلَى الْمَلِيءِ. فقال: إِذَا كُنْتُمْ فِي الشَّدَةِ يَكُونَ لَكُمْ عَلَى اللَّهِ؛ وَإِذَا كُنْتُمْ فِي النُّعْمَةِ يَكُونَ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ.

وقال بعض السلف: شَتَانٌ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ: عَمَلٍ تَذْهَبُ لَذَّتُهُ وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ، وَعَمَلٍ تَذْهَبُ مُؤَوَّتُهُ وَيَبْقَى ذُخْرُهُ.

وقال الرقاشي في مواعظه: خذوا الذَّهَبَ مِنَ الْحَجَرِ، وَاللُّؤْلُؤَ مِنَ الْمَزْبَلَةِ.

وقال يحيى بن معاذ: الْعِلْمُ قَبْلَ الْعَمَلِ، وَالْعَقْلُ قَائِدُ الْخَيْرِ، وَالْهَوَى مَزَكِبُ الْمَعَاصِي، وَالْمَالُ دَاءُ الْمُتَكَبِّرِ.

= قوله: «فإنه بش الضجيع» ضجيعك بفتح فكسر من ينام في فراشك، أي بش صاحب الجوع الذي يمتنع من وظائف العبادات ويشوش الدماغ ويثير الأفكار الفاسدة والخيالات الباطلة، والبضانة بكسر باء موحدة وهي ضدة الظهارة وأصلها في الثوب فاتسع فيما يستبطن من أمره وللإمام أبي داود في: ٣٦٧ - ٣٢٢ م باب في الاستعاذة. حديث رقم: ١٥٤٧ - عن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بش الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنه بش البطانة».

وللإمام ابن ماجه في: (٥٣) باب التعوذ من الجوع. حديث رقم: ٣٣٥٤ - عن أبي هريرة؛ قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم! إني أعوذ بك من الجوع، فإنه بش الضجيع. وأعوذ بك من الخيانة، فإنها بشت البطانة».

في الزوائد: في إسناده ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف.

(١) سنن الترمذي، ٢٠ - باب: ما جاء في الذب عن المسلم. حديث رقم: ١٩٩٦ - عن أم الدرداء عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة».

(٢) اللقلق: اللسان، والققب: البطن. والذذب: العورة.

وقال: من تعلّم علّم أبي حنيفة فقد تعرّض للسلطان، ومن تعلّم النحو والعربية دُلّه بين الصّبيان، ومن علّم علّم الزُّهاد بلغ إلى العرش.

وقال بعض الصّالحين: إنّ العلماء يَسْقُون الناس، فبعضهم من العُذْران والحياض، وبعضهم من العيون والقلوب، وبعضهم من البحار الواسعة.

وقال حاتم: لا تَنظُر إلى من قال، ولكن انظر إلى ما قال.

وقال مالك بن دينار: إني لا أقدر أن أعمل بجميع ما أقول.

وقال وهيب بن الورد: مثُل عالم السوء كمثُل الحَجَر يقع في السّاقية فلا هو يَشْرِب الماء، ولا يَحُلِّي عن الماء فيذهب إلى الشجرة.

وقال النبي ﷺ: لَأَنَا مِنْ غَيْر الدَّجَالِ أَخَوْفَ عَلَيْكُمْ. قيل: وَمَنْ هُوَ؟ قال: الأئمة المَصلُون.

وقال الثّوري: نعوذ بالله من فِتنة العالمِ الفاجر، وفِتنة القائدِ الجاهل.

وقال النبي ﷺ: «سيكون في أمتي علماء فُسّاق، وقُرَاء جُهّال».

وقال الثّوري: العلّم طبيبُ الدّين، والمالُ داؤه، فإذا رأيت الطّبيبَ يَجُرُّ الداءَ إلى نفسه فكيف يعالجُ غيره.

وقال عيسى بن مريم: ما ينفع الأعمى ضوءُ الشّمس وهو لا يُبصرُها.

وقال النبي ﷺ: «أشدّ الناس حَسْرَةً يَوْمَ القيامةِ عالمٌ علّم الناس ونَجّوا به، وارْتَهَنَ هو بسوءِ عَمَلِهِ».

وقال أحمد بن حَرْب: إن مَنَازِلَ الدُّنْيَا لا تُقَطَّعُ بالكلام، فكيف يُقَطَّعُ طريقُ الآخرة بالكلام.

وقال أبو مسلم الخولاني: العلماء ثلاثة: رجلٌ عاش بعِلْمِهِ وعاش به الناسُ، ورجلٌ عاش بعِلْمِهِ ولم يَعِشْ به الناسُ، ورجلٌ عاش بعِلْمِهِ الناسُ وهَلَكَ هو.

وشاورَ رجلٌ محمد بن أسلم فقال: إني أريدُ أن أُزَوِّجَ بِنْتِي، فَبِمَنْ أُزَوِّجُ؟ قال: لا تُزَوِّجْها عالِماً مفتوناً، ولا كاسِباً كاذِباً، ولا عابِداً شاكّاً.

قيل: نَصَحَ إبليسُ فقال: إِيَّاكَ والكِبَرُ، فَإِنِّي تَكَبَّرْتُ فَلَعِنْتُ، وَإِيَّاكَ والحِرْصُ فَإِنَّ أَبَاكَ حَرَصَ عَلَى أَكْلِ الشَّجَرَةِ فَأُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَإِيَّاكَ والحَسَدَ فَإِنَّ أَحَدَ بَنِي آدَمَ قَتَلَ أَخَاهُ بِالْحَسَدِ.

ومرَّ حاتمٌ بِقَوْمٍ يَكْتُبُونَ العِلْمَ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ وقال: إن لم يكن معكم ثلاثةُ أَشْيَاءَ لن تُفْلِحُوا. قالوا: وما هي؟ قال: هُم أَمْسِ، واغْتِمَامُ اليومِ، وخَوْفُ الغَدِ.

وقال ابنُ عَمَرَ: كان في بني إسرائيل ثلاثةٌ خرجوا في وَجْهِهِ، فأَخَذَهُم المَطَرُ

فدخلوا كهفاً، فوق حجراً عظيماً على باب الكهف، وبقوا في الظلمة وقالوا: لا ينجيننا إلا ما عملناه في الرخاء. فقال أحدهم: إني كنتُ راعياً فأرختُ وحلبتُ، وكان لي أبوان وأولاد وامرأة فسقيتُ أولاً الوالدين ثم الأولاد، فجئتُ يوماً فوجدتُ أبوي قد ناما فلم أوقظهما لحزمتيهما ولم أسقي الأولاد وبقيتُ قائماً إلى الصبح؛ فإن كنت يا ربّ قبلتَ هذا منّي فاجعل لنا فرجاً. فتحرك الحجر ودخل عليهم الضوء.

وقال الثاني: إني كنتُ صاحب ضياع، فجاءني رجل بعدما متّع النهار، وكان لي أجراء يخصدون الزرع، فاستأجرته، فلما تم عملهم أعطيتهم أجورهم، فلما بلغتُ إلى ذلك الرجل أعطيتُه وافياً كما أعطيتُ غيره، فغضبوا وقالوا: تعطيه مثل ما أعطيتنا. فأخذتُ تلك الأجرة واشتريتُ بها عجولاً ونمى حتى كثر البقر؛ فجاء صاحب الأجر يطلبُ فقلتُ: هذه البقر كلها لك، فسلمتها إليه، فإن كنت يا ربّ قبلتَ منّي هذا الوفاء ففرج عنا. فتحرك الحجر ودخل منه ضوء كثير.

وقال الثالث: كانت لي بنتٌ عمّ فراودتها، فأبّت، حتى أعطيتها مائة دينار فلما أردتُ ما أردتُ اضطربتُ وارتعدتُ. فقلتُ لها: ما لك؟ فقالت: إني أخاف الله. فتركتها ورجعتُ عنها، إلهي فإن كنتُ قبلتُ ذلك منّي ففرج عنا. فتحرك الحجر وسقطَ عن باب الكهف وخرجوا منه يمشون.

وقال حاتم: لو أدخلت السوق شياً كثيرة لما اشتري أحد المَهْزُول، بل يقصد السمين للذبح.

وقال يحيى بن معاذ: في القلب عيونٌ يهيج منها الخيرُ والشرُّ.

وقال بعض الصالحين في دعائه: اللهم إني أحَدنا لا يشاء حتى تشاء، فاجعل مشيئتك لي أن تشاء ما يُقرّبني إليك؛ اللهم إنك قدّرت حركات العبد، فلا يتحرك شيء إلا بإذنك، فاجعل حركاتي في هَواك.

وقال قاسم بن محمّد: لأن يعيش الرَّجُل جاهلاً خيراً له من أن يقول ما لا يعلم.

وقال الشعبي: لم يكن مجلسٌ أحبَّ إليّ من هذا المجلس، ولأن أبعدَ اليوم عن بساطه أحبُّ إليّ من أن أُحبس فيه.

وقال حاتم: إذا رأيت من أخيك عيباً فإن كتمته عليه فقد خُنته، وإن قلته لغيره فقد اغتبتّه، وإن واجهته به فقد أوْحَشْتَه؛ قيل له: كيف أصنع؟ قال: تَكْنِي عنه، وتُعَرِّضُ به، وتجعله في جملة الحديث.

وقال: إذا رأيت من أخيك زلةً فاطلب لها سبعين وجهاً من العِلَل، فإن لم تجد فلمْ نَفْسَكَ.

وقال إبراهيم بن جُنَيْد: اتَّخِذْ مِرَاتَيْنِ، وانظر في إحداهما عيبَ نفسك، وفي الأخرى محاسنَ الناس.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا دارُ خراب، وأخربُ منها قلبُ من يَعمُرُها، والآخرة دارُ عُمران، وأَعمُرُ منها قلبُ من يَعمُرُها.

وقال ابن السماك: الدنيا كالعرُوس المجلُوة تشوّفت لخطابها وفَتَنَتْ بغيرورها، فالعيون إليها ناظرة، والقلوبُ عليها والهة؛ والنفوس لها عاشقة، وهي لأزواجها قاتلة.

وقال بعض العارفين: الدنيا أربعة أشياء: الفَرَحُ والراحَةُ والحلاوة واللذة؛ فالفَرَحُ بالقلب والراحَةُ بالبدن، واللذة بالخلق، والحلاوة بالعين.

وقال يحيى بن معاذ: الدنيا خَمْرُ الشيطان، فمن سَكر منها لم يُفِقْ إلا في مَسْكَنِ النَّادمين.

وقال بعض السلف: الزهد خَلْعُ الراحة، وبذلُ الجهد، وقطعُ الأمل.
وقال الأنطاكي أحمد بن عاصم: الزُّهُدُ هو الثِّقَةُ باللَّهِ، والتَبَرُّؤُ من الخَلْقِ، والإخلاصُ في العمل، واحتمالُ الدُّل.

وقال داود - عليه السلام - في دعائه: يا رازق النّعاب في عُشّه.

وقال بعضُ السّلف: لو كنتَ على ذَنْبِ الرِّيحِ لم تَفرَّ من رِزْقِكَ.

وقال آخر: الإنسان بين رِزْقِهِ وأَجَلِهِ، إلا أنه مخدوعٌ بِأَمَلِهِ.

وقال عيسى بن مريم عليه السلام: خلَقَكَ ربُّكَ في أربع مراتب، فكنتَ آمناً ساكناً في ثلاث، وقلقلْتَ في الرابعة، أولاهَا في بطن أُمِّكَ في ظُلُمَاتِ ثلاث، والثانية حين أخرجَكَ منه وأخرج لك لبناً من بين فَرْثٍ ودم. والثالثة إذا قُطِمَتْ أَطْعَمَكَ المَرِيَّ الشَّهِيَّ، حتى إذا اشتدت عِظامُكَ وبلغتَ تَمَامَكَ صِرْتَ خائناً وأخذتَ في السَّرِقَةِ والحيلة.

وقال أُنس: رأيتُ طائراً أَكَمَ فَتَحَ فَاهُ فجاءت جرادة فدخلت فَمَهُ.

وقال عيسى - عليه السلام -: يا ابن آدم اغتَبِرْ رِزْقَكَ بِطَيرِ السماءِ، لا يَزْرَعَنَّ ولا يَخْصُذَنَّ وإِلَهُ السَّمَاءِ يَزْرُقُهُنَّ. فَإِنْ قَلْتَ: لها أجنحةٌ فاعتَبِرْ بِخَمْرِ الوَحْشِ وبِقَرِ الوَحْشِ ما أَسْمَنَها وما أَبْشَمَها وأَبْدَنَها!

وقال ابن السَّمَاك: لو قال العبد: يا ربِّ لا تَزْرُقْني، لقال الله: بل أرزُقكَ على رَغْمِ أَنفِكَ، ليس لك خالقٌ غيري، ولا رازقٌ سِواي، إن لم أرزُقكَ فمن يَزْرُقُكَ؟

وقيل لراهب: مِن أين تأكل؟ فقال: إن خالقَ الرّحى يأتي بالطّحين.

وقال حاتم: الحمارُ يَعْرِفُ طَرِيقَ الْمَغْلَفِ، والمنافِقُ لا يَعْرِفُ طَرِيقَ السَّمَاءِ.
وقال إبراهيمُ بنُ أدهم: سَأَلْتُ رَاهِباً مِنْ أَيْنَ تَأْكُلُ؟ قال: ليس هذا العلمُ
عِنْدِي، ولكن سَلْ رَبِّي مِنْ أَيْنَ يُطْعِمُنِي.

وقال حاتم: مَثَلُ الْمُتَوَكِّلِ مَثَلُ رَجُلٍ أَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى جَبَلٍ.
وقال بعضُ الأبرار: حَسْبُكَ مِنَ التَّوَكُّلِ أَلَّا تَطْلُبَ لِنَفْسِكَ نَاصِراً غَيْرَهُ، وَلَا
لِرِزْقِكَ خَازِناً غَيْرَهُ، وَلَا لَعَمَلِكَ شَاهِداً غَيْرَهُ.

وقال عبدُ الحميد بنُ عبد العزيز: كان لأبي صديقٍ وَرَاقٌ، فقال له أبي يوماً:
كيف أَصْبَحْتَ؟ قال: بخير ما دامت يَدَيَّ مَعِي، فَأَصْبَحَ الْوَرَّاقُ وَقَدْ شَلَّتْ يَدُهُ.
قال أبو العالية: لَا تَتَّكِلْ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَكِلَكَ اللَّهُ إِلَيْهِ، وَلَا تَعْمَلْ لِغَيْرِ اللَّهِ
فَيَجْعَلَ ثَوَابَ عَمَلِكَ عَلَيْهِ.

وقال رجلٌ لأبي ذرٍّ: أَنْتَ أَبُو ذَرٍّ؟ قال: نعم. قال: لَوْلَا أَنْكَ رَجُلٌ سَوْءٌ مَا
أُخْرِجْتَ مِنَ الْمَدِينَةِ. فقال أبو ذرٍّ: بَيْنَ يَدَيَّ عَقَبَةٌ كَوْودٌ إِنْ نَجَوْتُ مِنْهَا لَا يَضُرُّنِي مَا
قُلْتَ، وَإِنْ أَفْعَ فِيهَا فَأَنَا شَرٌّ مِمَّا تَقُولُ.

وقيل لفضيل: إِنْ فَلَانًا يَقَعُ فِيكَ. فقال: لَا غِيْظَ لِمَنْ أَمَرَهُ بِذَلِكَ؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ.
وقال رجلٌ لأبي هريرة: أَنْتَ أَبُو هُرَيْرَةَ؟ قال: نعم. قال: سَارِقُ الذَّرِيرَةِ^(١)؟ قال:
اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ كَاذِباً فَاغْفِرْ لَهُ، وَإِنْ كَانَ صَادِقاً فَاغْفِرْ لِي، هَكَذَا أَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وقال رجلٌ لابنِ مُكْدَمٍ: يَا كَافِرُ. قال: وَجَبَ عَلَيَّ الشُّكْرُ، حَيْثُ لَمْ يَجْرِ ذَلِكَ
عَلَى لِسَانِي، وَلَمْ تَجِبْ عَلَيَّ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ فِيهِ، وَقَدْ طَوَيْتُ قَلْبِي عَلَى جُمْلَةِ أَشْيَاءٍ.
قال: وَمَا هُنَّ؟ قال: إِنْ قُلْتُ أَلْفَ مَرَّةٍ لَا أَجِيْبُكَ مَرَّةً، وَلَا أَحْقِدُ عَلَيْكَ، وَلَا أَشْكُوكَ
إِلَى أَحَدٍ، وَإِنْ نَجَوْتُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بَعْدَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ شَفَعْتُ لَكَ. فتاب الرجل.

كان للحسن جَارٌ نَصْرَانِيٌّ، وَكَانَ لَهُ كَنِيفٌ عَلَى السَّطْحِ، وَقَدْ نَقَبَ ذَلِكَ فِي بَيْتِهِ،
وَكَانَ يَتَحَلَّبُ مِنْهُ الْبَوْلُ فِي بَيْتِ الْحَسَنِ، وَكَانَ الْحَسَنُ أَمَرَ بِإِنَاءٍ فَوَضَعَ تَحْتَهُ، فَكَانَ
يُخْرِجُ مَا يَجْتَمِعُ مِنْهُ لَيْلاً، وَمَضَى عَلَى ذَلِكَ عَشْرُونَ سَنَةً، فَمَرَضَ الْحَسَنُ ذَاتَ يَوْمٍ
فَعَادَهُ النَّصْرَانِيُّ، فَرَأَى ذَلِكَ، فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ: مُذْ كَمْ تَحْمِلُونَ مِنِّي هَذَا الْأَذَى؟
فَقَالَ: مِنْذُ عَشْرِينَ سَنَةً. فَقَطَعَ النَّصْرَانِيُّ رُتَاهُ وَأَسْلَمَ.

وجاءت جاريةٌ لِمَنْصُورِ بْنِ مِهْرَانَ بِمِرْقَةٍ فَهَرَّقَتْهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِحَرِّهَا
نَظَرَ إِلَيْهَا، فَقَالَتْ: يَا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ اذْكُرْ قَوْلَ اللَّهِ. قال: وَمَا هُوَ؟ قَالَتْ:
﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] قال: كَظَمْتُ. قَالَتْ: وَادْكُرْ ﴿وَالْمَافِينَ عَنِ

النَّاسِ ﴿[آل عمران: ١٣٤] قال: قد عَفَوْتُ. قالت: واذكُرْ ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: اذهبي فأنتِ حُرَّةٌ.

قال الحسن: ما جَزَعَةٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَزَعَةٍ مُصِيبَةٍ رَدَّهَا صَاحِبُهَا بِصَبْرٍ، وَجَزَعَةٌ غَضَبٍ رَدَّهَا صَاحِبُهَا بِحِلْمٍ.

وكان محمد بن المنكدر إذا غَضِبَ على غلامه يقول: ما أَشْبَهَكَ بِسَيِّدِكَ؟

وقال أبو ذر: كيف يكون حليماً من يَغْضَبُ على جِمارِهِ وَسَخِلِهِ وَهَرِهِ.

ومات ابن للرشيد فجَزَعَ جَزَعاً شديداً، فَوَعَّظَهُ العلماء فلم يتعظ؛ فَدَخَلَ مَخْنَثٌ

وقال: أَتَأْذُنُ لي في الكلام؟ قال: تَكَلَّمْ. فكشَفَ عن رَأْسِهِ وقام بين يديه، وقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أنا رجل، وقد تَشَبَّهْتُ بالنساء كما تَرَى، فأَيُّ شَيْءٍ كُنْتَ تَصْنَعُ لو كان ابْنُكَ في الْأَحْيَاءِ وكان على صُورَتِي، فَاتَّعَظَ به وَأَخْرَجَ النَّوَاحَاتِ مِنَ الدَّارِ.

قال وَهْب: مَكْتُوبٌ في الكُتُبِ الْقَدِيمَةِ: إِنْ كُنْتُمْ تَرِيدُونَ رَحْمَتِي فَارْحَمُوا عِبَادِي.

وقال جعفر بن محمد - عليهما السلام -: حُسْنُ الْجَوَارِ عِمَارَةُ الدِّيَارِ وَمَثْرَأَةُ الْمَالِ.

ولما قرأ هذا الْجُزْءَ - حَرَسَهُ اللَّهُ - ارتاح وقال: أين نحن من هذه الطَّرِيقَةِ، إِلَى

اللَّهِ الْمُشْتَكَى.

الليلة الخامسة والعشرون

وقال - أدام الله دولته - ليلة: أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَ كَلَاماً فِي مَرَاتِبِ النُّظْمِ والنُّثْرِ،
وإِلَى أَيِّ حَدٍّ يَنْتَهِيَانِ، وَعَلَى أَيِّ شَكْلِ يَتَّفِقَانِ، وَأَيُّهُمَا أَجْمَعُ لِلْفَائِدَةِ، وَأَزْجَعُ بِالْعَائِدَةِ،
وَأَدْخُلُ فِي الصَّنَاعَةِ، وَأَوْلَى بِالْبَرَاعَةِ؟؟

فكان الجواب: إِنَّ الكَلَامَ عَلَى الكَلَامِ صَغْبٌ. قال: وَلِمَ؟ قلتُ: لِأَنَّ الكَلَامَ
عَلَى الْأُمُورِ الْمُعْتَمَدِ فِيهَا عَلَى صُورِ الْأُمُورِ وَشُكُولِهَا الَّتِي تَنْقَسِمُ بَيْنَ الْمُعْقُولِ وَبَيْنَ مَا
يَكُونُ بِالْحِسِّ مُمَكِّنٍ، وَقَضَاءُ هَذَا مَتَّسِعٌ، وَالْمَجَالُ فِيهِ مُخْتَلَفٌ. فَأَمَّا الكَلَامُ عَلَى
الكَلَامِ فَإِنَّهُ يَدُورُ عَلَى نَفْسِهِ، وَيَلْتَبِسُ بَعْضُهُ بِبَعْضِهِ؛ وَلِهَذَا شَقَّ النَّحْوُ وَمَا أَشَبَّهُ النَّحْوَ
مِنَ الْمَنْطِقِ، وَكَذَلِكَ النَّثْرُ وَالشَّعْرُ وَعَلَى ذَلِكَ.

وقد قال الناس في هذين الفئتين ضرباً من القول لم يبعدوا فيها من الوصف
الحسن، والإنصاف المحمود، والتنافس المقبول، إلّا ما خالطه من التعصب
والمحك، لأنّ صاحب هذين الخلقين لا يخلو من بعض المكابرة والمغالطة ويقدر
ذلك يصير له مدخل فيما يراود تحقيقه من بيان الحجة أو قصورها عما يرام من البلوغ
بها، وهذه آفة معترضة في أمور الدين والدنيا، ولا مطمع في زوالها، لأنها ناشئة من
الطبائع المختلفة، والعادات السيئة، لكنني مع هذه الشوكة الحادة، والخطة الكادة؛
أقول ما وعيته عن أرباب هذا الشأن، والمُتَمَيِّن لهذا الفن، وإنّ عن شيء يكون شكلاً
لذلك وصلته به تكميلاً للشرح، واستيعاباً للباب، وصمداً^(١) للغاية، وأخذاً بالحيطة،
وإن كان المنتهى منه غير مَطْمُوع فيه، وَلَا مَوْضُولٍ إِلَيْهِ؛ وَاللَّهُ الْمَعِينُ.

قال شيخنا أبو سليمان: الكَلَامُ يَنْبَغُ فِي أَوَّلِ مَبَادِئِهِ إِمَّا مِنْ عَفْوِ الْبَدِيهَةِ، وَإِمَّا
مِنْ كَدِّ الرُّوْيَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ مَرْكَباً مِنْهُمَا، وَفِيهِ قُوَاهُمَا بِالْأَكْثَرِ وَالْأَقَلِّ؛ فَضِيلَةُ عَفْوِ
الْبَدِيهَةِ أَنَّهُ يَكُونُ أَضْفَى، وَفَضِيلَةُ كَدِّ الرُّوْيَةِ أَنَّهُ يَكُونُ أَشْفَى، وَفَضِيلَةُ الْمَرْكَبِ مِنْهُمَا
أَنَّهُ يَكُونُ أَوْفَى؛ وَعَيْبُ عَفْوِ الْبَدِيهَةِ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ الْعَقْلِ فِيهِ أَقَلٌّ؛ وَعَيْبُ كَدِّ الرُّوْيَةِ
أَنْ تَكُونَ صُورَةُ الْحِسِّ فِيهِ أَقَلٌّ، وَعَيْبُ الْمَرْكَبِ مِنْهُمَا بِقَدْرِ قِسْطِهِ مِنْهُمَا: الْأَغْلَبُ
وَالْأَضْعَفُ؛ عَلَى أَنَّهُ إِنْ خَلَصَ هَذَا الْمَرْكَبُ مِنْ شَوَائِبِ التَّكْلِيفِ، وَشَوَائِبِ التَّعَسُّفِ،

(١) أي قصداً إليها.

كان بليغاً مقبولاً رائعاً خلواً، تَحْتَضِنُه الصُّدُورُ، وتَحْتَلِسُه الآذَانُ، وتَنْتَهِبُه المَجَالِسُ، ويتَنَافَسُ فيه المُنافِسُ بَعْدَ المُنافِسِ، والتَّفَاضُلُ الوَاقِعُ بَيْنَ البُلْغَاءِ فِي النِّظْمِ والنَّثْرِ، إِنَّمَا هُوَ فِي هَذَا الْمَرْكَبِ الَّذِي يُسَمَّى تَأْلِيْفًا وَرَضْفًا؛ وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صُورَةُ الْعَقْلِ فِي الْبَيْدِيَّةِ أَوْضَحَ، وَأَنْ تَكُونَ صُورَةُ الْحَسَنِ فِي الرِّوْيَةِ الْوَحْدِ إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ مِنْ غَرَائِبِ آثَارِ النَّفْسِ وَنَوَادِرِ أَفْعَالِ الطَّبِيعَةِ، وَالْمَدَارُ عَلَى الْعَمُودِ الَّذِي سَلَفَ نَعْتُهُ، وَرَسَا أَصْلُهُ.

وَسَمِعْتُ أَبَا عَائِذٍ الْكَرْخِيَّ صَالِحَ بَنٍ عَلِيٍّ يَقُولُ: النَّثْرُ أَصْلُ الْكَلَامِ، وَالنِّظْمُ فَرْعُهُ؛ وَالْأَصْلُ أَشْرَفُ مِنَ الْفَرْعِ، وَالْفَرْعُ أَنْقَضُ مِنَ الْأَصْلِ؛ لَكِنْ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا زَانِثَاتٌ وَشَائِنَاتٌ، فَأَمَّا زَانِثَاتُ النَّثْرِ فَهِيَ ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِمْ يَقْصِدُونَ النَّثْرَ، وَإِنَّمَا يَتَعَرَّضُونَ لِلنِّظْمِ فِي الثَّانِي بَدَاعِيَّةٍ عَارِضَةٍ، وَسَبَبٍ بَاعِثٍ، وَأَمْرٍ مُعَيَّنٍ.

قَالَ: وَمِنْ شَرَفِهِ أَيْضاً أَنَّ الْكُتُبَ الْقَدِيمَةَ وَالْحَدِيثَةَ النَّازِلَةَ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى أَلْسِنَةِ الرُّسُلِ بِالتَّأْيِيدِ الْإِلَهِيِّ مَعَ اخْتِلَافِ اللُّغَاتِ كُلِّهَا مَنْشُورَةٌ مَبْسُوطَةٌ، مُتَبَايِنَةٌ الْأَوْزَانِ، مُتَبَاعِدَةٌ الْأَبْنِيَةِ، مُخْتَلَفَةٌ التَّصَارِيفِ، لَا تَتَنَادَى لِلوِزْنِ، وَلَا تَدْخُلُ فِي الْأَعَارِضِ؛ هَذَا أَمْرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُقَابَلَهُ مَا يَذْخَرُهُ، أَوْ يُعْتَرَضَ عَلَيْهِ بِمَا يُخْرِضُهُ^(١).

قَالَ: وَمِنْ شَرَفِهِ أَيْضاً أَنَّ الْوَحْدَةَ فِيهِ أَظْهَرُ، وَأَثَرُهَا فِيهِ أَشْهَرُ، وَالتَّكْلُفُ مِنْهُ أَبْعَدُ، وَهُوَ إِلَى الصَّفَاءِ أَقْرَبُ، وَلَا تَوْجَدُ الْوَحْدَةُ غَالِبَةً عَلَى شَيْءٍ إِلَّا كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى حُسْنِ ذَلِكَ الشَّيْءِ وَبَقَائِهِ، وَبَهَائِهِ وَنَقَائِهِ.

قَالَ: وَمِنْ فَضِيلَةِ النَّثْرِ أَيْضاً كَمَا أَنَّهُ إِلَهِيٌّ بِالْوَحْدَةِ، كَذَلِكَ هُوَ طَبِيعِيٌّ بِالْبِدْءَةِ، وَالْبِدْءَةُ فِي الطَّبِيعِيَّاتِ وَحْدَةٌ، كَمَا أَنَّ الْوَحْدَةَ فِي الْإِلَهِيَّاتِ بَدَأَةٌ، وَهَذَا كَلَامٌ خَطِيرٌ.

قَالَ: أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَنْطِقُ فِي أَوَّلِ حَالِهِ مِنْ لَدُنْ طُفُولِيَّتِهِ إِلَى زَمَانٍ مَدِيدٍ إِلَّا بِالْمَنْشُورِ الْمَتَبَدِّدِ، وَالْمَيَسُورِ الْمَتَرَدِّدِ؛ وَلَا يُلْهِمُ إِلَّا ذَاكَ، وَلَا يُنَاغِي إِلَّا بِذَاكَ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْمَنْظُومُ، لِأَنَّهُ صِنَاعِيٌّ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي حِصَارِ الْعَرُوضِ وَأَسْرِ الْوِزْنِ وَقَيْدِ التَّأْلِيفِ، مَعَ تَوَقُّيِ الْكُسْرِ، وَاحْتِمَالِ أَصْنَافِ الرُّحَافِ، لِأَنَّهُ لَمَّا هَبَطَتْ دَرَجَتُهُ عَنْ تِلْكَ الرُّبُوعَةِ الْعَالِيَةِ، دَخَلَتْهُ الْآفَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

قَالَ: فَإِنْ قِيلَ: إِنْ النِّظْمُ قَدْ سَبَقَ الْعَرُوضَ بِالذُّوقِ، وَالذُّوقُ طَبِيعِيٌّ؛ قِيلَ فِي الْجَوَابِ: الذُّوقُ وَإِنْ كَانَ طَبَاعِيًّا فَإِنَّهُ مَخْدُومُ الْفِكْرِ، وَالْفِكْرُ مِفْتَاحُ الصَّنَائِعِ الْبَشَرِيَّةِ، كَمَا أَنَّ الْإِلْهَامَ مُسْتَخْدِمُ الْفِكْرِ، وَالْإِلْهَامُ مِفْتَاحُ الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ.

قَالَ: وَمِنْ شَرَفِ النَّثْرِ أَيْضاً أَنَّهُ مُبْرَأٌ مِنَ التَّكْلُفِ، مُنْزَعٌ عَنِ الضَّرُورَةِ، غَنِيٌّ عَنِ الْاعْتِذَارِ وَالْإِفْتِقَارِ، وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ، وَالْحَذْفِ وَالتَّكْرِيرِ، وَمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا مِمَّا

هو مدوّن في كُتب القوافي والعروض لأربابها الذين استَنَفَدُوا غَايَتَهُمْ فيها.

وقال عيسى الوزير: النَّثْرُ من قِبَلِ الْعَقْلِ، وَالتَّنْظُمُ من قِبَلِ الْحِسِّ، وَلِدُخُولِ التَّنْظِمِ فِي طَيِّ الْحِسِّ دَخَلَتْ إِلَيْهِ الْآفَةُ، وَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الضَّرُورَةُ، وَاحْتِيجُ إِلَى الْإِغْضَاءِ عَمَّا لَا يَجُوزُ مِثْلُهُ فِي الْأَصْلِ الَّذِي هُوَ الشَّرْ.

وقال ابن طرارة - وكان من فُصَحَاءِ أَهْلِ الْعَصْرِ بِالْعِرَاقِ -: الشَّرُّ كَالْحُرَّةِ، وَالتَّنْظُمُ كَالْأَمَةِ، وَالْأَمَةُ قَدْ تَكُونُ أَحْسَنَ وَجْهًا، وَأَدَمَّتْ شَمَائِلَ، وَأَخْلَى حَرَكَاتٍ؛ إِلَّا أَنَّهَا لَا تُوصَفُ بِكَرَمِ جَوْهَرِ الْحُرَّةِ وَلَا بِشَرَفِ عِزِّهَا وَعِثِّ نَفْسِهَا وَفَضْلِ حَيَاتِهَا.

وقال: وَلشَرَفِ النَّثْرِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي التَّنْزِيلِ ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنُورًا﴾ [الإنسان: ١٩] وَلَمْ يَقُلْ: لُؤْلُؤًا مَنُظُومًا؛ وَنَجُومُ السَّمَاءِ مَنُثَرَةٌ وَإِنْ كَانَ انْتِشَارُهَا عَلَى نِظَامٍ، إِلَّا أَنَّ نِظَامَهَا فِي حَدِّ الْعَقْلِ، وَانْتِشَارُهَا فِي حَدِّ الْحِسِّ، «لَأَنَّ الْحِكْمَةَ إِذَا غُطِّيَتْ نَفْسُهَا كَانَتْ الْغَلْبَةُ لِلصُّورَةِ الْقَائِمَةِ بِالْقُدْرَةِ».

وقال أحمد بن محمد كاتب رُكْنِ الدَّوْلَةِ: الْكَلَامُ الْمَنُثَوْرُ أَشْبَهُ بِالْوَشْيِ، وَالْمَنُظُومُ أَشْبَهُ بِالْمَنِيرِ الْمَخْطُوطِ، وَالْوَشْيُ يَرُوقُ مَا لَا يَرُوقُ غَيْرُهُ.

ويقال: كَثًّا فِي نِثَارِ فُلَانٍ، وَلَا يَقَالُ: كَثًّا فِي نِظَامِ فُلَانٍ.

وقال ابن هِنْدُو الْكَاتِبُ: إِذَا نُظِرَ فِي النِّظْمِ وَالنَّثْرِ عَلَى اسْتِعَابِ أَحْوَالِهِمَا وَشَرَائِطِهِمَا، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى هَوَادِيهِمَا وَتَوَالِيهِمَا كَانَ أَنَّ الْمَنُظُومَ فِيهِ نَثْرٌ مِنْ وَجْهِ، وَالْمَنُثَوْرَ فِيهِ نَظْمٌ مِنْ وَجْهِ، وَلَوْلَا أَنَّهُمَا يَسْتَهْمَانِ هَذَا النِّعَتَ لَمَا ائْتَلَفَا وَلَا اخْتَلَفَا.

وقال ابنُ كَعْبِ الْأَنْصَارِيِّ: مِنْ شَرَفِ النَّثْرِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِهِ أَمْرًا وَنَاهِيًا، وَمَسْتَخِيرًا وَمَخْبِرًا، وَهَادِيًا وَوَاعِظًا، وَغَاضِيًا وَرَاضِيًا، وَمَا سُلِبَ التَّنْظِمُ إِلَّا لِهُبُوطِهِ عَنْ دَرَجَةِ النَّثْرِ، وَلَا نُزَّةَ عَنْهُ إِلَّا لِمَا فِيهِ مِنَ النِّقْصِ، وَلَوْ تَسَاوَيَا لَنَظَمَ بَهُمَا، وَلَمَّا اخْتَلَفَا خُصَّ بِأَشْرَفِهِمَا الَّذِي هُوَ أَجْوَلُ فِي جَمِيعِ الْمَوَاضِعِ، وَأَجْلَبُ لِكُلِّ مَا يُطْلَبُ مِنَ الْمَنَافِ.

فهذا قليل من كثير مما يكون تبصرةً لِبَاغِيِ هَذَا الشَّانِ، وَلَمَنْ يَتَوَخَّى حَدِيثُهُ عِنْدَ كُلِّ إِنْسَانٍ.

وَأَمَّا مَا يُفْضَلُ بِهِ التَّنْظِمُ عَلَى النَّثْرِ فَأَشْيَاءُ سَمِعْنَاهَا مِنْ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ كَانَتْ سَمَاءُ عِلْمِهِمْ دُرُورًا، وَبَحْرُ أَدَبِهِمْ مُتَلَاطِمًا، وَرَوْضُ فَضْلِهِمْ مُزْدَهَرًا، وَشَمْسُ حِكْمَتِهِمْ طَالِعَةٌ، وَنَارُ بِلَاغَتِهِمْ مُشْتَعِلَةٌ، وَأَنَا آتِي عَلَى مَا يَخْضُرُنِي مِنْ ذَلِكَ، مَنَسُوبًا إِلَيْهِمْ، وَمَحْسُوبًا لَهُمْ، لِيَكُونَ حَقُّهُمْ بِهِ مَقْضِيًا، وَذِكْرُهُمْ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ طَرِيًّا.

قال السَّلَامِيُّ: مِنْ فُضَائِلِ التَّنْظِمِ أَنَّ صَارَ لَنَا صِنَاعَةً بِرَأْسِهَا، وَتَكَلَّمَ النَّاسُ فِي قَوَافِيهَا، وَتَوَسَّعُوا فِي تَصَارِيفِهَا وَأَعَارِضِهَا، وَتَصَرَّفُوا فِي بَحُورِهَا، وَاطَّلَعُوا عَلَى

عجائب ما استُخِزنَ فيها من آثار الطَّبيعة الشَّريفة، وشَوَاهِدِ القُدرةِ الصادقة؛ وما هكذا النثر، فإنَّه قَصُرَ عن هذه الذُّرْوَةِ الشَّامِخَةِ، والقَلَّةِ العاليةِ؛ فصار بذلك بِذِلَّةً لِكافَّةِ الناطقين من الخاصَّةِ والعامةِ والنساءِ والصُّبيانِ.

وقال أيضاً: من فضائل النَّظْمِ أَنَّهُ لَا يُعْنَى وَلَا يُحْدَى إِلَّا بِجَيِّدِهِ وَلَا يُؤْهَلُ لِلْخَنِ الطَّنْطَنَةِ، وَلَا يُحَلَّى بِالِإيقاعِ الصحيحِ غيرُهُ، لَأَنَّ الطَّنْطَنَاتِ والنَّقَرَاتِ، والحركاتِ والسكناتِ لَا تَتَنَاسَبُ إِلَّا بَعْدَ اشْتِمَالِ الْوِزْنِ والنَّظْمِ عَلَيْهَا، وَلَوْ كَانَ فُعِلَ هَذَا بِالنَّثْرِ كَانَ مَنَقُوصاً، كَمَا لَوْ لَمْ يُفْعَلْ هَذَا بِالنَّظْمِ لَكَانَ مُحْسُوساً؛ وَالْغِنَاءُ مَعْرُوفُ الشَّرَفِ، عَجِيبُ الْأَثَرِ، عَزِيزُ الْقَدْرِ، ظَاهِرُ النِّفَعِ فِي مَعَابِثَةِ الرُّوحِ، وَمُنَاغَاةُ الْعَقْلِ، وَتَنْبِيهِ النَّفْسِ، وَاجْتِلَابُ الطَّرَبِ وَتَفْرِيجُ الْكُرْبِ؛ وَإِثَارَةُ الْهَيْزَةِ، وَإِعَادَةُ الْعِزَّةِ، وَإِذْكَارُ الْعَهْدِ، وَإِظْهَارُ النَّجْدَةِ، وَاكْتِسَابُ السَّلَوةِ؛ وَمَا لَا يُحْصَى عَدَدُهُ.

ويقال: مَا أَحْسَنَ هَذِهِ الرِّسَالَةَ لَوْ كَانَ فِيهَا بَيْتٌ مِنَ الشَّعْرِ، وَلَا يَقَالُ: مَا أَحْسَنَ هَذَا الشَّعْرُ لَوْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ مِنَ النَّثْرِ، لَأَنَّ صُورَةَ الْمَنْظُومِ مَحْفُوظَةٌ، وَصُورَةُ الْمَثُورِ ضَائِعَةٌ.

وقال ابنُ نُباتَةَ: مِنْ فَضْلِ النَّظْمِ أَنَّ الشَّوَاهِدَ لَا تَوْجَدُ إِلَّا فِيهِ، وَالْحُجَجَ لَا تُؤْخَذُ إِلَّا مِنْهُ، أَعْنِي أَنَّ الْعُلَمَاءَ وَالْحُكَمَاءَ وَالْفُقَهَاءَ وَالنَّحْوِيِّينَ وَاللُّغَوِيِّينَ يَقُولُونَ: «قَالَ الشَّاعِرُ»؛ وَ«هَذَا كَثِيرٌ فِي الشَّعْرِ»، وَ«الشَّعْرُ قَدْ أَتَى بِهِ»، فَعَلَى هَذَا الشَّاعِرُ هُوَ صَاحِبُ الْحِجَّةِ، وَالشَّعْرُ هُوَ الْحِجَّةُ.

وقال الخالِعُ: لِلشُّعَرَاءِ حَلْبَةٌ، وَلَيْسَ لِلْبُلَغَاءِ حَلْبَةٌ، وَإِذَا تَبَتَّعْتَ جَوَائِزَ الشُّعَرَاءِ الَّتِي وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ مِنَ الْخُلَفَاءِ وَوُلَاةِ الْعُهُودِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْوُلَاةِ فِي مَقَامَاتِهِمْ الْمُؤَرَّخَةِ، وَمَجَالِسِهِمُ الْفَاخِرَةِ، وَأَنْدِيَتِهِمُ الْمَشْهُورَةِ، وَجَدْتَهَا خَارِجَةً عَنِ الْحَضَرِ، بَعِيدَةً مِنَ الْإِحْصَاءِ؛ وَإِذَا تَبَتَّعْتَ هَذِهِ الْحَالَ لِأَصْحَابِ النَّثْرِ لَمْ تَجِدْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ؛ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: مَا أَكْمَلَ هَذَا الْبَلِيغُ لَوْ قَرَضَ الشَّعْرُ! وَلَا يَقُولُونَ: مَا أَشْعَرَ هَذَا الشَّاعِرُ لَوْ قَدَّرَ عَلَى النَّثْرِ! وَهَذَا لَغِنَى النَّاطِمِ عَنِ النَّاثِرِ، وَقَفَرِ النَّاثِرِ إِلَى النَّاطِمِ؛ وَقَدْ قَدَّمَ النَّاسُ أَبَا عَلِيٍّ الْبَصِيرَ عَلَى أَبِي الْعَيْنَاءِ، لِأَنَّ أَبَا عَلِيٍّ جَمَعَ بَيْنَ الْفَضِيلَتَيْنِ، وَضَرَبَ بِالسَّيْفَيْنِ فِي الْحَوْمَتَيْنِ، وَفَازَ بِالْقَدْحَيْنِ الْمُعَلَّيْنِ فِي الْمَكَانَيْنِ.

وقال لنا الْأَنْصَارِيُّ: سَمِعْتُ ابْنَ ثَوَابَةَ الْكَاتِبَ يَقُولُ: لَوْ تَصَفَّحْنَا مَا صَارَ إِلَى أَصْحَابِ النَّثْرِ مِنْ كِتَابِ الْبَلَاغَةِ، وَالْخُطْبَاءِ الَّذِينَ ذَبُّوا عَنِ الدَّوْلَةِ، وَتَكَلَّمُوا فِي صُنُوفِ أَحْدَاثِهَا وَفُنُونِ مَا جَرَى اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ بِهِ؛ مِمَّا فُتِّقَ بِهِ الرِّثْقُ، وَرُتِّقَ بِهِ الْفَتْقُ، وَأُصْلِحَ بِهِ الْفَاسِدُ، وَلُمَّ بِهِ الشَّعْثُ، وَقُرِّبَ بِهِ الْبَعِيدُ، وَبُعِدَ بِهِ الْقَرِيبُ، وَحُقِّقَ بِهِ الْحَقُّ، وَأُبْطِلَ بِهِ الْبَاطِلُ، لَكَانَ يَوْفِي عَلَى كُلِّ مَا صَارَ إِلَى جَمِيعٍ مِنْ قَالِ الشَّعْرِ وَلَاكَ الْقَصِيدَ، وَلَهْجَ بِالْقَرِيضِ، وَاسْتِمَاحَ بِالْمَرْحَمَةِ؛ وَوَقَّفَ مَوْقِفَ الْمَظْلُومِ، وَانصَرَفَ انصِرَافَ الْمَحْرُومِ؛

وَأَيْنَ مَنْ يَفْتَخِرَ بِالْقَرِيضِ، وَيُدِلَّ بِالنَّظْمِ، وَيُبَاهِي بِالْبَدِيعَةِ، مِنْ وَزِيرِ الْخَلِيفَةِ، وَمِنْ صَاحِبِ السَّرِّ، وَمَنْ لَيْسَ بَيْنَ لِسَانِهِ وَلِسَانِ صَاحِبِهِ وَاسْطَةً، وَلَا بَيْنَ أُذُنِهِ وَأُذُنِهِ حِجَابٌ؟! وَمَتَى كَانَتِ الْحَاجَةُ إِلَى الشُّعْرَاءِ كَالْحَاجَةِ إِلَى الْوُزَرَاءِ؟! وَمَتَى قَامَ وَزِيرٌ لَشَاعِرٍ لِلخِدْمَةِ أَوْ لِلتَّكْرِمَةِ؟! وَمَتَى قَعَدَ شَاعِرٌ لَوْزِيرٍ عَلَى رَجَاءٍ وَتَأْمِيلٍ؟! بَلْ لَا تَرَى شَاعِرًا إِلَّا قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ خَلِيفَةٍ أَوْ وَزِيرٍ أَوْ أَمِيرٍ بَاسِطَ الْيَدِ، مَمْدُودَ الْكَفِّ، يَسْتَعْطِفُ طَالِبًا، وَيَسْتَرْحِمُ سَائِلًا؛ هَذَا مَعَ الذَّلَّةِ وَالْهَوَانِ، وَالْخَوْفِ مِنَ الْخِيَّةِ وَالْجُرْمَانِ، وَخَطَرِ الرَّدِّ عَلَيْهِ فِي لَفْظٍ يَمُرُّ، وَإِعْرَابٍ يَجْرِي، وَاسْتِعَارَةٍ تَعْرُضُ، وَكِنَايَةٍ تَعْتَرِضُ، ثُمَّ يَكُونُ مَقْلَبًا مَشِينًا بِمَا يَظُنُّ بِهِ مِنَ الْهَجَاءِ الَّذِي رُبَّمَا دَلَّاهُ فِي حَوْمَةِ الْمَوْتِ، وَقَدْ بَرَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِإِحْسَانِهِ الْقَدِيمِ وَمَنْهُ الْجَسِيمِ صَاحِبِ الْبَلَاغَةِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ، وَكَفَاهُ مَوْوَنَةُ الْعَذْرِ بِهِ، وَالضَّرَرُ فِيهِ.

قال: وكان ابنُ ثَوَابَةٍ إِذَا جَالَ فِي هَذِهِ الْأَكْنَافِ لَا يُلْحَقُ شَأْنُهُ، وَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ، وَلَا يُطَمَعُ فِي جَوَابِهِ.

قال: وله مُنَاطَرَاتٌ وَاسِعَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ نَاقَضُوهُ وَعَارَضُوهُ، وَكَاشَفُوهُ وَوَاجَهُوهُ؛ فَثَبَّتَ لَهُمْ، وَانْتَصَفَ مِنْهُمْ، وَأَزْبَى عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يُقْلِعْ عَنْ مَسَالِطِهِمْ وَمُبَالَطَتِهِمْ إِلَى أَنْ نَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ، وَرَاجَعُوا مَا هُوَ أَوْلَى بِهِمْ.

قال أبو سليمان: المعاني المعقولة بسيطةٌ فِي بُخْبُوحَةِ النَّفْسِ، لَا يَحُومُ عَلَيْهَا شَيْءٌ قَبْلَ الْفِكْرِ، فَإِذَا لَقِيَهَا الْفِكْرُ بِالذَّهْنِ الْوَثِيقِ وَالْفَهْمِ الدَّقِيقِ أَلْقَى ذَلِكَ إِلَى الْعِبَارَةِ، وَالْعِبَارَةِ حِينَئِذٍ تَتَرَكَّبُ بَيْنَ وَزْنِ هُوَ النَّظْمُ لِلشُّعْرِ، وَبَيْنَ وَزْنٍ هُوَ سِيَاقَةُ الْحَدِيثِ؛ وَكُلُّ هَذَا رَاجِعٌ إِلَى نِسْبَةِ صَحِيحَةٍ أَوْ فَاسِدَةٍ، وَصُورَةِ حَسَنَاءٍ أَوْ قَبِيحَةٍ، وَتَأْلِيفٍ مَقْبُولٍ أَوْ مَمْجُوجٍ، وَذَوْقٍ حُلُوٍّ أَوْ مُرٍّ وَطَرِيقٍ سَهْلٍ أَوْ وَغَرٍّ، وَاقْتِضَابٍ مُفْضَلٍ أَوْ مَرْدُودٍ، وَاحْتِجَاجٍ قَاطِعٍ أَوْ مَقْطُوعٍ، وَبُزْهَانٍ مُسْفِرٍ أَوْ مُظْلَمٍ، وَمُتَنَاولٍ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبٍ، وَمَسْمُوعٍ مَأْلُوفٍ أَوْ غَرِيبٍ.

قال: فإذا كَانَ الْأَمْرُ فِي هَذِهِ الْحَالِ عَلَى مَا وَصَفْنَا فَلِلنَّثْرِ فَضِيلَتُهُ الَّتِي لَا تُنْكَرُ، وَلِلنَّظْمِ شَرْفُهُ الَّذِي لَا يُجْحَدُ وَلَا يُسْتَرُ، لِأَنَّ مَنَاقِبَ النَّثْرِ فِي مُقَابَلَةِ مَنَاقِبِ النَّظْمِ، وَمَثَالِبَ النَّظْمِ فِي مُقَابَلَةِ مَثَالِبِ النَّثْرِ؛ وَالَّذِي لَا بَدَّ مِنْهُ فِيهِمَا السَّلَامَةُ وَالِدَقَّةُ، وَتَجَنُّبُ الْعَوِيصِ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَى التَّأْوِيلِ وَالتَّخْلِيسِ.

وقد قال بعض العرب: خَيْرُ الْكَلَامِ مَا لَمْ يُخْتَجِ مَعَهُ إِلَى كَلَامٍ.

وَوَقَّفَ أَعْرَابِيٌّ عَلَى مَجْلِسِ الْأَخْفَشِ فَسَمِعَ كَلَامَ أَهْلِهِ فِي النَّخْوِ وَمَا يَدْخُلُ مَعَهُ، فَحَازَ وَعَجِبَ، وَأَطْرَقَ وَوَسَّوَسَ، فَقَالَ لَهُ الْأَخْفَشُ: مَا تَسْمَعُ يَا أَخَا الْعَرَبِ؟ قَالَ: أَرَاكُم تَتَكَلَّمُونَ بِكَلَامِنَا فِي كَلَامِنَا بِمَا لَيْسَ مِنْ كَلَامِنَا.

وقال أعرابي آخر:

ما زال أخذهم في النحو يُعْجِمُنِي حَتَّى سَمِعْتُ كَلامَ الزَّنْجِ والرُّومِ
وقال أبو سليمان: نَحُو العَرَبِ فِطْرَةٌ، وَنَحُونَا فِطْنَةٌ؛ فلو كان إلى الكمال سبيلٌ
لكانت فِطْرَتُهُمْ لَنَا مع فِطْنَتِنَا، أو كانت فِطْنَتُنَا لَهُمْ مع فِطْرَتِهِمْ.
وقال: لَمَّا تَمَيَّزَتِ الأشياءُ في الأصول، تَلَاَقَتْ ببعض التشابه في الفروع، وَلَمَّا
تَبَايَنَتِ الأشياءُ بالطَّبَائِعِ، تَأَلَّفَتِ بِالمُشَاكَلَةِ في الصَّنَائِعِ، فَصَارَتْ مِنْ حَيْثُ افْتَرَقَتْ
مُجْتَمِعَةً، وَمِنْ حَيْثُ اجْتَمَعَتْ مَفْتَرِقَةً، لَتَكُونَ قُدْرَةُ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - آتِيَةً عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ، وَحِكْمَتُهُ مَوْجُودَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَمَشِيئَتُهُ نَافِذَةٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ.
وقد أَشَدَّ بعضُ الأعرابِ مَا يَقْتَضِي هَذَا المَكَانُ رَسْمَهُ فِيهِ، لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِمَا نَحْنُ
فِيهِ فِي ذِكْرِهِ وَوصفه.

قال:

مَآذَا لَقِيتُ مِنَ المِستَعْرِبِينَ وَمِنْ
إِنْ قُلْتُ قَافِيَةً فِيهِ يَكُونُ لَهَا
قَالُوا لَحْنَتْ وَهَذَا الحَرْفُ مُنْخَفِضٌ
وَحَرَّشُوا بَيْنَ عِبْدِ اللَّهِ وَاجْتَهَدُوا
إِنِّي نَشَأْتُ بِأَرْضٍ لَا تُشَبُّ بِهَا
وَلَا يَطَا القِرْدُ وَالخِنْزِيرُ سَاحَتَهَا
مَا كُلُّ قَوْلِي مَعْرُوفٌ لَكُمْ فَخَذُوا
كَمْ بَيْنَ قَوْمٍ قَدْ احْتَالُوا لِمَنْطِقَتِهِمْ
وَبَيْنَ قَوْمٍ رَأَوْا شَيْئاً مُعَايَنَةً
فهذا هذا.

وقال أبو سليمان: البلاغة ضروب: فمنها بلاغة الشعر ومنها بلاغة الخطابة ومنها بلاغة
النثر، ومنها بلاغة المثل، ومنها بلاغة العقل، ومنها بلاغة البديهة، ومنها بلاغة التأويل.
قال: فَأَمَّا بلاغة الشعر فَأَنْ يَكُونَ نَحْوُهُ مَقْبُولاً، وَالمَعْنَى مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ مَكْشُوفاً،
وَاللَفْظُ مِنَ الغَرِيبِ بَرِيئاً، وَالكُنْيَاةُ لَطِيفَةً، وَالتَصْرِيحُ احْتِجَاجاً، وَالمُؤَاخَاةُ مَوْجُودَةٌ،
وَالْمَوَاءَمَةُ ظَاهِرَةٌ.

وَأَمَّا بلاغة الخطابة فَأَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ قَرِيباً، وَالإِشَارَةُ فِيهَا غَالِبَةً، وَالسَّجْعُ عَلَيْهَا
مُسْتَوِلياً، وَالْوَهْمُ فِي أَضْعَافِهَا سَابِحاً، وَتَكُونُ فِقْرُهَا قِصَاراً، وَيَكُونُ رِكَابُهَا سَوَادَ إِبِلٍ.

(١) الهيق: ذكر النعام، والسيدان: الذئباب.

وأما بلاغة النثر فإن يكون اللفظ متناولاً، والمعنى مشهوراً، والتهذيب مستعملاً، والتأليف سهلاً، والمراد سليماً، والروثق عالياً، والحواشي رقيقة، والصفائح مصقولة، والأمثلة خفيفة المآخذ، والهادي متصلة، والأعجاز مفصلة.

وأما بلاغة المثل فإن يكون اللفظ مقتضياً، والحذف محتملاً، والصورة محفوظة، والمزمى لطيفاً، والتلويح كافياً، والإشارة مغيية، والعبارة سائرة.

وأما بلاغة العقل فإن يكون نصيب المفهوم من الكلام أسبق إلى النفس من مسموعه إلى الأذن، وتكون الفائدة من طريق المعنى أبلغ من تزصيع اللفظ، وتقفية الحروف، وتكون البساطة فيه أغلب من التركيب، ويكون المقصود ملحوظاً في عرض السنن، والمزمى يتلقى بالوهم لحسن الترتيب.

وأما بلاغة البديهة فإن يكون انجياش اللفظ للفظ في وزن انجياش المعنى للمعنى، وهناك يقع التعجب للسامع، لأنه يهجم بفهمه على ما لا يظن أنه يظفر به كمن يعثر بمأموه، على غفلة من تأمله، والبديهة قدرة روحانية، في جيلة بشرية، كما أن الروية صورة بشرية، في جيلة روحانية.

وأما بلاغة التأويل فهي التي تحوج لغموضها إلى التدبر والتصفح، وهذان يفيدان من المسموع وجوهاً مختلفة كثيرة نافعة، وبهذه البلاغة يتسع في أسرار معاني الدين والدنيا، وهي التي تأولها العلماء بالاستنباط من كلام الله عز وجل وكلام رسوله - ﷺ - في الحرام والحلال، والحظر والإباحة، والأمير والهي، وغير ذلك مما يكثر؛ وبها تفاضلوا، وعليها تجادلوا، وفيها تنافسوا، ومنها استملوا، وبها اشتغلوا؛ ولقد فُقدت هذه البلاغة لفقد الروح كله، وبطل الاستنباط أوله وآخره، وجولان النفس واعتصار الفكر إنما يكونان بهذا التمثط في أعماق هذا الفن؛ وها هنا تنثال الفوائد وتكثر العجائب، وتتلاقح الخواطر، وتتلاحق الهمم، ومن أجلها يستعان بقوى البلاغات المتقدمة بالصفات الممثلة، حتى تكون معينة ورافدة في إثارة المعنى المدفون، وإنارة المراد المخزون.

وأمثلة هذه الأبواب موجودة في الكتب، ولولا ذلك لرسمت في هذا المكان لكل فن مثلاً وشكلت شكلاً، ولو فعلت ذلك لكنت مكرراً لما قد سبق إليه، ومتكلفاً ما قد لقن من قبل. على أن الزهد في هذا الشأن قد وضع عنّا وعن غيرنا مؤونة الخوض فيه، والتعني به، والتوفر عليه، وتقديمه على ما هو أهم منه، أغني طلب القوت الذي ليس إليه سبيل إلا بيع الدين، وإخلاق المروءة، وإرافة ماء الوجه، وكذ البدن، وتجرع الأسى، ومقاساة الحرفة، ومض الجрман، والصبر على ألوان وألوان؛ والله المستعان.

وقد كان هذا الباب يُتنافس فيه أَوَّانَ كان للخلافة بِهَجَّة، وللنِّبَاة عنها بهاء، وللديانة مُعْتَقِد وللمرُوءة عاشق، وللخير مُنْتَهَز، وللصدق مُؤَثِّر، وللأدب شُرة، وللبيان سَوْق، وللصَّواب طالب، وفي العلم راغب؛ فأما اليوم واليدُ عنه مقبوضة، والذَّيْلُ دُونَهُ مشمَّر، والمُتَحَلِّي بِجمالِهِ مَطْرُود، والمُبَاهِي بِشرفِهِ مُبْعَد، فما يُصْنَعُ بِهِ، وللهُ أَمْرٌ هُوَ بِالْعُهِ.

وقال ابنُ ذأب: قال لي ابن موسى: اجتمعنا عند عبد المَلِك بن مَرْوَانَ فقال: أَيُّ الآدَابِ أَغْلَبُ على الناس؟ فقلنا فأكثرنا في كل نوع؛ فقال عبد الملك: ما الناس إلى شيءٍ أَخْوَجُ منهم إلى إقامة ألسنتهم التي بها يتعاورون القول، ويتعاطون البيان، ويتهاذون الحُكْم، ويستخرجون غوامض العلم من مخابئها؛ ويجمعون ما تفرَّق منها؛ إن الكلامَ فارِقٌ للحكم بين الخصوم، وضياءٌ يَجْلُو ظُلْمَ الأغاليط، وحاجةُ الناسِ إليه كحاجتهم إلى موادِّ الأغذية.

وقد قال زهير:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفُ فؤاده فلم يَبْقَ إلا صورةُ اللحمِ والدمِ
فقلنا: لم يَقُلْهُ زُهَيْر، إنما قاله زيادُ الأعجم؛ فقال: لا، قاله من هو أعظمُ تجربةً وأنطقُ لساناً منه.

وقال أبو العِيْناء: سمعتُ العَبَّاس بن الحَسَن العَلَوِيَّ يصفُ كلامَ رَجُلٍ فقال: كَلَامُهُ سَمَحٌ سَهْلٌ، كَأَن بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقُلُوبِ نَسَبٌ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ الْحَيَاةِ سَبَبٌ؛ كَأَنَّمَا هُوَ تُخْفَةُ قَادِمٍ، وَدَوَاءُ مَرِيضٍ، وَوَاسِطَةُ قِلَادَةٍ.

ورأيتُ أبا إِسْحاقَ الصَّابِي وهو يَعْجَبُ من فَضْلِ قَرَأَهُ من كتاب وَرَدَ عليه، وهو: أَشْعِرُ قَلْبِكَ يَأْسَ مُجَاوِزِ السَّبِيلِ، مَقْصُرٍ عَنِ الشُّوْطِ.

وقال ابنُ ذَكْوَانَ: سمعتُ إِبْرَاهِيمَ بن العَبَّاسِ الصُّوْلِيَّ يقول: ما سمعتُ كلامَ مُخَدَّثٍ أَجْزَلَ في رِقَّة، ولا أَضْعَبَ في سُهولة، ولا أَبْلَغَ في إيجاز، من قَوْلِ العَبَّاس بنِ الأَخْتَف:

تَعَالَى نُجْدُ دَارِسِ الْعَهْدِ بَيْنَنَا كِلَانًا عَلَى طُولِ الْجَفَاءِ مَلُومٌ
أَنَاسِيَّةٌ مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا وَقَاطِعَةٌ حَبْلَ الصَّفَاءِ ظَلُومٌ

وفي الجملة، أَحْسَنُ الكلامِ ما رَقَّ لَفْظُهُ، وَلَطْفُ مَعْنَاهُ، وَتَلَالُؤُ رَوْنَقِهِ، وَقَامَتْ صُورَتُهُ بَيْنَ نَظْمٍ كَأَنَّهُ نَثْرٌ، وَنَثْرٍ كَأَنَّهُ نَظْمٌ، يُطْمِعُ مَشْهُودُهُ بِالسَّمْعِ، وَيَمْتَنِعُ مَقْصُودُهُ عَلَى الطَّنْعِ؛ حَتَّى إِذَا رَامَهُ مُرِيعٌ خَلَقَ، وَإِذَا خَلَقَ أَسَفَّ، أَعْنِي يَبْتَعِدُ عَلَى الْمُحَاوِلِ بَعْنَفٍ، وَيَقْرُبُ مِنَ الْمُتَنَاوِلِ بِلُطْفٍ.

وما رأيتُ أَحَدًا تَنَاهَى فِي وَصْفِ النَثْرِ بِجَمِيعِ مَا فِيهِ وَعَلَيْهِ غَيْرَ قُدَامَةَ بنِ جَعْفَرٍ

في المنزلة الثالثة من كتابه؛ قال لنا علي بن عيسى الوزير: عرض عليّ قُدَامَةُ كتابه سنة عشرين وثلاثمائة؛ واختبرته فوجدته قد بالغَ وأحسن، وتفرّد في وصفِ فُتُونِ البلاغة في المنزلة الثالثة بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى، ممّا يدلّ على المختار المُجْتَبَى والمُعَيَّبِ المَجْتَنَّب. ولقد شاكَه فيه الخليل بن أحمد في وضع العروض؛ ولكني وجدته هجينَ اللفظ، رَكِيكَ البلاغة في وَصْفِ البلاغة، حتّى كأنّ ما يَصِفُهُ ليس ما يعرفه، وكأنّ ما يدلّ به غير ما يدلّ عليه. والعرب تقول: فلان يدلّ ولا يدلّ، حكاه ابن الأعرابي، وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم، وحُسنِ التصوُّر، وتَوَارِدِ المعنى، ونَقْدِ الطَّنَج، وتصرُّفِ القريحة. قال: ولولا أنّ الأمر على ما ذكرتُ لكان ذلك الطريقُ الَّذي سَلَكَه، والفنُّ الَّذي مَلَكَه، والكنزُ الَّذي هَجَمَ عليه، والنَّمْطُ الَّذي ظَفَرَ به؛ قد بَرَزَ في أحسنِ مَعْرِضٍ، وتَحَلَّى بِالطَّفِيفِ كلام، وماسَ في أطولِ ذَيْلٍ، وسَفَرَ عن أحسنِ وَجْهٍ، وطلَّعَ من أقربِ نَفَقٍ، وحلَّقَ في أبعدِ أَفقٍ.

وابنُ المَرَاغِي يَقُولُ كثيراً - وهو شَيْخٌ من جِلَّةِ العلماء، وله سَهْمٌ وافٍ في زُمرةِ البُلغاء -: ما أحسنَ مَعُونَةَ الكلماتِ القِصارِ، المُشْتَمِلَةِ على الحُكْمِ الكِبَارِ، لَمَنَ كانتِ بلاغَتُهُ في صِناعَتِهِ بالقلمِ واللِّسانِ، فإنَّها تُوافِيهِ عندَ الحاجة، وتَسْتَضْحِبُ أخواتِها على سَهولة؛ وهكذا مَصَارِيْعُ أبياتِ الشُّعْرِ؛ فإنَّها تَخْتَلِطُ بالثَنِّ مُتَقَطَّعةً ومَوْزونةً، ومُنْتَثِرةً ومَنْصُودةً.

قال لي ابنُ عُبَيْدِ الكاتب: بلغني هذا الوصف عن هذا الشيخ؛ فبلوته بالتتبُّع فوجدته على ما قال؛ وما أشبه ما ذكره إلا بالِصُّرَّةِ^(١) المُعَدَّة عند الإنسان، لما يحتاجُ إليه في الوقتِ المهمِّ والأمرِ المُلِمِّ؛ فهذا هذا.

فقال - أدام الله دولته، وكبت أعداءه -: قدّم هذا الباب فقد أتى على ما لم أظنّ أنه يُؤْتَى عليه ويُهْتَدَى إليه - إذا شئتَ؛ وانصرفتُ.

الليلة السادسة والعشرون

ثم قال: وما أمثلة الكلمات القصار التي أومأ إليها ذلك الشيخ؟

فكان من الجواب: إن هذا الباب واسع، نحو قول القائل: ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار. كل عزيز دخل تحت القدرة فهو ذليل. غنم من أدبته الحكمة، وأحكمته التجربة. التضامن رائد التباين. المرء ما عاش في تجريب.

الدهر يوم ويوم والعيش عذل ولوم

وأكثر أسباب النجاح مع اليأس

من لم يقدمه حزم أخره عجز. كم مستدرج بالإحسان إليه، ومغترب باليسر عليه. الحرب مثقلة العباد مذهباً للطارف والتلاد.

ليس المقل عن الزمان براضي

من ضاق صدره اتسع لسانه.

وحسبك داء أن تصح وتسلما

العيال سوس المال. ظمأ قاصح خير من ري فاضح. احذروا نقاذ النعم، فما كل شارٍ مردود. خير الأمور أوسطها. يكفيك من شر سماعه. الكريم لا يلين على قسر، ولا يقتسر على يسر. ما أدرك التمام ثاراً، ولا محا عاراً.

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

إن المطامع فقر والغنى اليأس

والأمر تخقيره وقد ينمي

رب كبير حاجه صغير

ذهب القضاء بحيلة الأقوام

وقد يستجهل الرجل الحليم

وإذا مضى شيء كأن لم يفعل

من عرف بالحكمة لاحظته العيون بالهبة. البطنة تذهب الفطنة، إن المقدرة

تُذْهِبُ الحَفِيزَةَ . من ثَقُلَ على صديقه خَفَّ على عدوّه . زيادةُ لسان على عقلٍ خُدعة ، وزيادة عقل على منطق هُجْنَةٌ .

وحاجة من عاش لا تَنقُضي
من أطاع هواه ، أعطى عدوّه مُناه .

عند الشّدائد تَذْهَبُ الأحقادُ
إِخْذَرْ صَرَعاتِ البَغْيِ وفَلَتَاتِ المُزاح .

ومن يَسأل الصُّغْلوكَ أين مَذَاهِبُهُ
« المرءُ يَعِجْزُ لا المَحالة »

ذَلَّ الطالب بِقَدْرِ حاجتِهِ ، إذا اَزْدَحَمَ الجواب خَفِيَ الصَّواب . الكريم للكريم مُجَلّ . موتٌ في قوّةٍ وعِزٌّ خيرٌ من حَيَاةٍ في ذُلٍّ وعِجْز . عَذُلُ السلطان خيرٌ من خِضْب الزمان . من تَوَقَّي سَلِمَ ، ومن تَهَوَّرَ نَدِمَ ، من أَسْرَعَ إلى الناس بما يكرهون ، قالوا فيه ما لا يَعلَمون . الضُّرُّ خيرٌ من الفاقة ، عَيٌّ صامت خيرٌ من عَيٍّ ناطق . رُبُّما سَوَدَّ المَالُ غيرَ السَّيِّدِ ، وقَوَّى غيرَ الأيِّدِ . وهل يَدْفَعُ رَيْبَ المَنِيَةِ الحِيلُ .

الموت حَثْمٌ في رِقاب العباد

كفى بالإقرار بالذُّنْبِ عُذْرًا ، وبرجاءِ العَفْوِ شافِعًا . قليلٌ يُوعَى ، خيرٌ من كثير يُنْسَى ، ليس على طول الخِدَمِ نَدَمٌ ، ومن وراء المرءِ ما لم يَعْلَم . مروءتان ظاهرتان : الرأسة والفصاحة . من أطال الأمل أساء العمل . لا تَكْلُفْ ما كُفِيت ، ولا تُضَيِّعْ ما وَلِيت . احتمِلْ من أدلَّ عليك ، واقبَلْ ممَّنِ اعْتَذَرَ إليك .

إِنَّ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا العَطَبُ
إِنَّ الكِرَامَ على ما نَابَهُمْ صُبُرٌ

لو سَكَتَ من لا يَعْلَمُ سَقَطَ الاختلاف . لا عُذْرٌ في عُذْر . ليس من العدل سُرْعَةُ العَدْلِ . أقْبَحُ عملِ المَقْتَدِرِينَ الانتقام . شَرُّ من الموت ، ما يُتَمَنَّى له الموت . من جاعَ جَشِعَ . المَكِيدَةُ في الحرب أبلغُ من التَّجْدَةِ . لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ ، ما أَصْلَحَ مَثْوَاكَ . من أَحَبَّ أن يطاع ، لا يسألُ ما لا يُسْتَطاع ، إذا غلبَتْكَ نَفْسُكَ بما تَظُنُّ ، فأغلبْها بما تَسْتَيْقِنُ . الرُّدُّ الجميل أَحْسَنُ من المَطْلِ الطويل . القبر خيرٌ من الفَقْرِ . شَفِيعُ المُذْنِبِ إقراره ، وتوبته اعْتِذاره . صُخْبَةُ الأَشْرارِ ، تورث سوءَ الظَّنِّ بالأخيار ، لا كثيرَ مع تبذير ، ولا قليلَ مع تقدير . من صانَ لسانَه نجا من الشرِّ كُلِّهِ .

ولربما نفع الفتى كَذِبُهُ
فَمَنْ يُغْدِي إذا ظَلَمَ الأميرُ

إِذَا فَرَزَ الْفَوَّادُ فَلَا رُقَادُ
مَا الْعِلْمُ إِلَّا مَا وَعَاهِ الصَّدْرُ
إِنَّ الْكَرِيمَ عَلَى الْإِخْوَانِ ذُو الْمَالِ
إِنَّ السُّفْرَارَ لَا يَزِيدُ فِي الْأَجْلِ
إِنَّ الشُّفَيْقَ بِسُوءِ ظَنِّ مُوَلَّعٍ

لَا تَبُلْ عَلَى أَكْمَةٍ، وَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَى أَمَةٍ. إِذَا أَقْبَلَتِ الدُّنْيَا عَلَى الْمَرْءِ أَعَارَتْهُ مَحَاسِنَ غَيْرِهِ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ عَنْهُ سَلَبَتْهُ مَحَاسِنَ نَفْسِهِ. فِي التَّجَارِبِ عِلْمٌ مُسْتَأْنَفٌ. قَدْ خَاطَرَ مَنْ اسْتَعْنَى بِرَأْيِهِ. عَلَيْكَ لِأَخِيكَ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِ لَكَ. الْحَقُّ ظِلٌّ ظَلِيلٌ. الْمَوَدَّةُ قَرَابَةٌ مُسْتَفَادَةٌ. مُغْدِمٌ وَصُولٌ خَيْرٌ مِنْ مُكْثِرٍ جَافٍ. مِنَ الْفَرَاغِ تَكُونُ الصَّبْوَةُ. مَنْ نَالَ اسْتَطَالَ. فِي تَقَلُّبِ الْأَحْوَالِ عِلْمٌ جَوَاهِرِ الرِّجَالِ. الشُّكْرُ عَصِمَةٌ مِنَ التَّقْمَةِ. اللَّبُّ مِصْبَاحُ الْعِلْمِ. مَنْ رَكِبَ الْعَجَلَةَ، لَمْ يَأْمَنِ الْكَبْوَةُ. إِزَالَةُ الرُّوَاسِي، أَيْسَرُ مِنْ تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ. قَارِبَ النَّاسِ فِي عَقُولِهِمْ تَسْلَمُ مِنْ غَوَائِلِهِمْ، وَتَرْتَعُ فِي حَدَائِقِهِمْ. عَاشِرُ أَخَاكَ بِالْحُسْنَى. الْحَسَدُ أَهْلَكَ الْجَسَدَ. خَذْ عَلَى خِلَافِكَ مِثْقَالَ الصَّبْرِ. خَيْرٌ مَا رُمَتْ مَا يُنَالُ.

كُلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

قَدْ يُدْرِكُ الْمَتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعِجِلِ الزَّلُّ
غَمُّ الْفَقِيرِ لَا يَكْشِفُهُ إِلَّا الْمَوْتُ. خِفَّةُ الظَّهْرِ أَحَدُ الْيَسَارِينِ. أَصُولُ الْأَسْقَامِ مِنْ فُضُولِ الطَّعَامِ. طَلَاقُ الدُّنْيَا مَهْرُ الْجَنَّةِ. مَنْ عَزَّ النَّفْسَ إِثَارُ الْقَنَاعَةِ، التَّوَاضُّعُ بِالْغِنَى أَجْمَلُ، وَالْكِبَرُ بِالْفَقِيرِ أَسْمَجُ. مَنْ اسْتَعَانَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَزَلْ مَخْذُولًا. مَنْ لَمْ يَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ مَا آتَاهُ طَالَ عَثْبُهُ عَلَى الدَّهْرِ. عُجْبُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ أَحَدُ حُسَادِ عَقْلِهِ. الْعَجْزُ وَالتَّوَانِي يُنْتِجَانِ الْفَاقَةَ. إِنْ صَبَرْتَ صَبَرَ الْأَحْرَارُ، وَإِلَّا سَلُوتُ سُلُو الْأَغْمَارِ. الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ يَنْمُو. مَعَاشِرَةُ الْإِخْوَانِ تَجْلُو الْبَصَرَ، وَتَطْرُدُ الْفِكْرَ. لَا تُوحِشْكَ الْغُرْبَةُ مَا أُنِسْتَ بِالْكَفَايَةِ، فَإِنَّ الْفَقْرَ أَوْحَشُ مِنَ الْغُرْبَةِ. الْغِنَى أُنْسٌ فِي غَيْرِ الْوَطَنِ. الْغِنَى فِي الْغُرْبَةِ مَوْصُولٌ، وَالْفَقِيرُ فِي الْأَهْلِ مَضْرُومٌ. أَوْحِشُ قَرِينِكَ إِذَا كَانَ فِي إِحَاشِهِ أُنْسُكَ. إِذَا أَيْسَرْتَ فَكُلَّ أَهْلِ أَهْلِكَ، وَإِنْ أَعَسَّرْتَ فَأَنْتَ غَرِيبٌ فِي قَوْمِكَ. مِنْ أَخْلَاقِ الصُّبْيَانِ، إِلْفُ الْأَوْطَانِ، وَالْحَنِينُ إِلَى الْإِخْوَانِ. مَنْ لَمْ يَأْنَفْ، لَمْ يَشْرَفْ، خَيْرُ الْمَوَدَّةِ مَا لَمْ تَكُنْ جِدَارَ عَادِيَةٍ، وَلَا رَجَاءَ فَائِدَةٍ. مَنْ حَمَلَ الْأُمُورَ عَلَى الْقَضَاءِ اسْتَرَاحَ فِي الْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ حَتَّى يَنْتَهِيَ. لَوْ اسْتَحَسَّنَ النَّاسُ مَا أَمَرَ بِهِ الْعَقْلُ اسْتَقْبَحُوا مَا نَهَى عَنْهُ الْعَقْلُ. أَقْدَرُ النَّاسِ عَلَى الْجَوَابِ مَنْ لَا يَغْضِبُ. الْكَلَامُ فِي وَقْتِ السَّكُوتِ عِيٌّ، وَالسَّكُوتُ فِي وَقْتِ الْكَلَامِ خَرَسٌ. الْهَمُّ يَهْدِمُ الْبَدَنَ، وَيَنْعُصُ الْعَيْنَ، وَيَقْرُبُ الْأَجَلَ. الْمَوْتُ رَقِيبٌ غَيْرُ غَافِلٍ. الْمَرْءُ نَهَبُ الْحَوَادِثِ. إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ. هَبْ مَا

أَنْكَزْتَ لِمَا عَرَفْتَ، وَاعْفِرْ مَا أَغْضَبَكَ لِمَا أَرْضَاكَ. الْيَأْسُ إِحْدَى الرَّاحَتَيْنِ. الْمَظْلُ أَحَدُ الْعَذَابَيْنِ. الْكَظْمُ مَرٌّ، وَلَا يَتَجَرَّعُهُ إِلَّا حُرٌّ. الرَّأْيُ لَا يَضْلُحُ إِلَّا بِالشَّرِكَةِ، وَالْمُلْكُ لَا يَضْلُحُ إِلَّا بِالتَّفَرُّدِ. مِنْ كَبُرَ عَنَصْرُهُ، حَسَنَ مَحَضْرُهُ.

وَلَرُبَّ مُطْمِئِنَّةٍ تَعُودُ رِيَا حَا

وَالْحَمْدُ لَا يُشْتَرَى إِلَّا بِأَمَانٍ

وَلَكِنْ نَكْءُ الْقَرْحِ بِالْقَرْحِ أَوْجَعُ

مَنْ أَزْهَرَ بِقَوْلٍ، حَقِيقٌ أَنْ يُثْمِرَ بِفِعْلٍ. السَّلَامُ أَرْخَى لِلْبَالِ، وَأَبْقَى لِنَفُوسِ الرِّجَالِ. حَسْبُكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا أَوْضَحَ غَيْكَ مِنْ رُشْدِكَ. التَّسْوِيفُ بَطَاعَةُ اللَّهِ اغْتِرَارٌ، وَحَيَاةُ الْمَرْءِ كَالشَّيْءِ الْمُعَارِ. مَنْ بَدَّلَ بَعْضَ عَنَائِهِ لَكَ، فَاجْعَلْ جَمِيعَ شُكْرِكَ لَهُ.

وَلِلْخُرِّ مِنْ مَالِ الْكَرِيمِ نَصِيبٌ

الْيَوْمَ فِعْلٌ، وَغَدًا ثَوَابٌ.

الْخَيْرُ مَخْتَارٌ شَهِيٍّ الْمُطْلَبُ وَالشَّرُّ مُحْذُورٌ كَرِيهٌ مُجْتَنَبٌ

رُبَّ سَكُوتٍ مِنْ كَلَامٍ أَبْلَغُ وَرُبَّ قَوْلٍ مِنْ عُمُودٍ أَدْمَغُ

مَنْ سَلِمَ النَّاسُ عَلَى لِسَانِهِ أَصْبَحَ مَنْصُورًا عَلَى سُلْطَانِهِ

مَنْ الْقَلِيلُ يُجْمَعُ الْكَثِيرُ رُبَّ صَغِيرٍ قَسَدُهُ كَبِيرُ

مَنْ بَاعَ مَا يَفْتَنِي بِمَا يَبْقَى غَنِمَ وَأَثَرَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَى نَدَمَ

قَدْ يُحَرِّمُ الرَّاجِي وَيُعْطِي الْقَانِطُ وَيُبْعَدُ الْأَذْنَى وَيُدْنِي الشَّاحِطُ

مَنْ لَمْ يُنَلِّكَ الْبِرَّ فِي حَيَاتِهِ لَمْ تَبْكْ عَيْنَاكَ عَلَى وَفَاتِهِ

الْمَالُ مَا تُنْفِقُ لَا مَا تَجْمَعُهُ وَالزَّرْعُ مَا تَحْصُدُ لَا مَا تَزْرَعُهُ

يَا رَبُّ هَزَلٍ كَانَ مِنْهُ الْجِدُّ وَرُبَّ مَزْجٍ كَانَ مِنْهُ الْحِفْدُ

الْبَحْرُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْفُرَاتِ

فَقَالَ - أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ -: هَذَا فَنٌّ مُؤَفٍّ عَلَى الْغَايَةِ.

الليلة السابعة والعشرون

وقال - أدام الله أيامه - في ليلة أخرى: كنت أحب أن أسمع كلاماً في كُنْه الاتفاق وحقيقته، فإنه مما يحار العقل فيه، ويَزُلُّ حَزْمُ الحازِمِ معه، وأحب أيضاً أن أسمع حديثاً غريباً فيه؛ فكان الجواب: إن الرواية في هذا الباب أكثر وأفسى من الاطلاع على سرّه، والظفر بمكنونه؛ فقال: هات ما يتعلق بالرواية.

قلت: حكى لنا أبو سليمان في هذه الأيام أن ثيودسيوس ملك يونان كتب إلى إيبقس الشاعر أن يزوده بما عنده من كتب فلسفية؛ فجمع ماله في عيّبة ضخمة، وارتحل قاصداً نحوّه، فلقى في تلك البادية قوماً من قطاع الطريق، فطعموا في ماله وهموا بقتله، فناشدهم الله ألا يقتلوه وأن يأخذوا ماله ويخلّوه، فأبوا، فتحير ونظر يميناً وشمالاً يلتمس مُعيناً وناصراً فلم يجد، فرفع رأسه إلى السماء، ومدّ طرفه في الهواء، فرأى كراكيّ تطير في الجوّ مُحَلِّقة، فصاح: أيّتها الكراكيّ الطائرة، قد أعجزني المعين والناصر، فكوني الطالبة بدمي، والآخذة بثأري. فضحك اللصوص، وقال بعضهم لبعض: هذا أنقص الناس عقلاً، ومن لا عقل له لا جناح في قتله؛ ثم قتلوه وأخذوا ماله واقتسموه وعادوا إلى أماكنهم؛ فلما اتصل الحديث بأهل مدينته حزنوا وأعظموا ذلك، وتبعوا أثر قاتله واجتهدوا فلم يُغنوا شيئاً ولم يقفوا على شيء؛ وحضر اليونانيون وأهل مدينته إلى هيكلم لقراءة التسايح والمذاكرة بالحكمة والعظة، وحضر الناس من كل قطر وأوب، وجاء القتل واختلطوا بالجمع، وجلسوا عند بعض أساطين الهيكل، فهم على ذلك إذ مرّت بهم كراكيّ تتناغى وتصيح، فرفع اللصوص أعينهم ووجوههم إلى الهواء ينظرون ما فيه فإذا كراكيّ تصيح وتطير، وتسدّ الجوّ؛ فتضاحكوا، وقال بعضهم لبعض: هؤلاء طالبو دم إيبقس الجاهل - على طريق الاستهزاء - فسمع كلامهم بعض من كان قريباً منهم فأخبر السلطان فأخذهم وشدّد عليهم، وطالبهم فأقروا بقتله، فقتلهم؛ فكانت الكراكيّ المطالبة بدمه، لو كانوا يغفلون أن الطالب لهم بالمرصاد.

وقال لنا أبو سليمان: إن إيبقس وإن كان خاطب الكراكيّ فإنه أشار به إلى رب الكراكيّ وخالقها، ولم يُطل الله دمه ولا سدّ عنه باب إجابته؛ فسبحانه كيف يهيئ الأسباب، ويفتح الأبواب، ويرفع الحجاب بعد الحجاب.

فقال: هذا عَجَبٌ.

قلتُ: قال لنا أبو سليمان: كلَّ ما جُهِل سببُه من ناحية الحسنِ بالعادة، ومن ناحية الطبيعة بالإمكان، ومن ناحية النفس بالتهيئة، ومن ناحية العقل بالتجوير، ومن ناحية الإله بالتوفيق فهو مَعْجُوبٌ منه، معجوزٌ عنه، مسلمٌ لمن له القُدرة المُحيطة، والمشيئة النافذة، والحكمة البالغة، والإحسانُ السابق.

ولقد حكى أبو الحسن الفَرَضِيُّ في أمر الاتفاق شيئاً ظريفاً عن بعض إخوانه قال: خرجنا إلى بعض المُنْتَزَهِات ومعنا جَرّ نصِيدُ به السَّمَائِي، وكُنَّا جماعة، فقال حَدَّثَ كان معنا - وكان أَصْغَرُنا سِتّاً -: أنتم تصيدون بَجَرٍّ^(١)، وأنا أَصِيدُ بيدي؛ يقول ذلك على جِهَةِ المَرْح؛ فرمى بعد قليل فأتفق له أن أثارَ سُمائِي، فأسرعَ إليه ونحن لا نَعْلَمُ أَنَّهُ أَحَدٌ شَيْئاً، فقلنا له على طريق العَبَث: احذر الخنزير - من غير أن نكون رأينا خنزيراً - فالتفت فزعاً وفَرَّ مُوَلِّياً، فأتفق له أن رأى خنزيراً منه غير بعيد، فأقبل إلينا مُسرِعاً هارباً من الخنزير والسُمائي بيده وقد صاده.

وكنت في البادية في صَفَر سنة أربع وخمسين منصرفاً من الحج ومعِي جماعة من الصُوفية، فلَحِقْنَا جُهْدٌ من عَوَزِ القُوَّة وتَعَدُّر ما يُمَسِّكُ الرُّوحَ في حديث طويل - إلا أَنَا وَصَلْنَا مِنْ رُبَالَةٍ^(٢) - بالحيلة اللطيفة مَنَّا، والصُّنْعُ الجميل من الله تعالى - إلى شيء من الدقيق؛ فانتعشت أنفُسُنَا به، وَغَنِمْنَاهُ، ورَأَيْنَاهُ نَفْحَةً من نَفَحَاتِ الله تعالى الكريم؛ فجعلناه زادنا، وسِرْنَا، فلما بَلَّغْنَا المَنْزِلَ قعدنا لثُمَارِيس ذلك الدقيق، ولَقَطْنَا البَعَرَ ودَفَاقَ الحَطَبِ، فلما أَجْمَعْنَا على العَجْنِ والمَلَكِ^(٣) لم نجد الحُرَاقَ - وكان عندنا أَنَّهُ معنا، وأُنَّا قد استظهرناه - فدخلْنَا حَيْرَةً شديدة، وَرَكِبْنَا غَمًّا غَالِبًا، وَسَفَقْنَا من ذلك الدقيق شيئاً، فما سَاغَ ولا قَبِلْتَهُ الطبيعة، وَبِثْنَا لَيْلَتَنَا طَاوِينَ سَاهِرِينَ، قد علانا الكَمَدَ، وملَكْنَا الوُجُومَ والأسَفَ؛ فقال بعضُنَا: هذا لَمَّا وَجَدْنَا الدقيق؟! وَأَصْبَحْنَا وَرُكْبُنَا قد استرخَتْ، وعيونُنَا غارت، وَأَحَدُنَا لا يحدثُ صاحِبَه غَمًّا وَكَزْبًا. وعُدْنَا إلى ما كُنَّا فيه قبلُ بزيادة حَسْرَةٍ من النَظَرِ إلى الدقيق؛ وقال صاحبُ لنا: نَرْمِي بِجِرَابِ الدَّقِيقِ حَتَّى نَلْقَى حِمْلَهُ وَثِقْلَهُ في طولِ هذا الطريق؛ فقلنا: ليس هذا بصواب، وما يضرُّنا أن يكون معنا، فلعلَّنَا أن نَرَى رَكْبًا أو نَلْقَى حَطْبًا. وكانت البادية خاليةً في ذلك الوقت، لِرُغْبِ لَحِقِ قَوْمًا من بني كِلَابٍ من جهة أعدائهم، فلم يكن يجتازُ بها في ذلك الوقت غريب. وبقينا كذلك إلى اليوم الثالث، ونحن نُلَاحِظُ ونُجَاهِدُ في المَشْيِ؛

(١) الجَر: الحبل.

(٢) اسم بلد بين الكوفة والمكة.

(٣) أي إنعام العجن.

فلَمَّا كَانَ الْعَصْرُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ كُنْتُ أَسِيرُ أَمَامَ الْقَوْمِ أَجْرَتَهُمْ وَأَسْأَلُهُمْ، وَكُنْتُ كَالْحَاطِبِ لَهُمْ: «إِذَا عَثَرْنَا بِحُرَاقٍ وَظَفِرْنَا بِفَتِيلَةٍ»؛ فَوَجَدُوا خِرْقَةً مَلْفُوفَةً فِيهَا حُرَاقٌ، فَهَلَلُوا وَكَبَّرُوا، وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ؛ فَقُلْتُ كَالْمَتَعَجَّبِ: مَا الْخَيْرُ؟ قَالُوا: الْبُشْرَى؛ قُلْتُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالُوا: هَذِهِ خِرْقَةٌ مُلِئَتْ حُرَاقًا، فَلَا تَسْلُ عَمَّا دَهَانَا مِنَ الْفَرْحِ وَالِاسْتِيشَارِ؛ وَثَابَ إِلَيْنَا مِنَ السُّرُورِ وَالْارْتِيَاحِ، وَزَالَ عَنَّا مِنَ الْإِنْخِذَالِ وَالْإِنْكَسَارِ، وَقَعَدْنَا فِي مَكَانِنَا ذَلِكَ، وَلَقَطْنَا الْبَعَرَ، وَأَثَرْنَا الْوَقُودَ، وَأَجَّجْنَا نَارًا عَظِيمَةً، وَمَلَكْنَا الدَّقِيقَ كُلَّهُ مَلَكََةً وَاحِدَةً وَكَانَ أَرْبَعِينَ رِطْلًا، وَكَانَ ذَلِكَ بِلَاغِنَا إِلَى الْقَادِسِيَّةِ؛ فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهَا تَلَقَّانَا بَشَرٌ مِنْ أَهْلِهَا، وَقَالُوا لَنَا: كَيْفَ سَلِمْتُمْ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ مَعَ الْعُوزِ وَالْخَوْفِ؟ فَقُلْنَا: لُطْفُ اللَّهِ يُقَرِّبُ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَسَهِّلُ كُلَّ شَدِيدٍ، وَيَضَعُ لِلضَّعِيفِ حَتَّى يَتَعَجَّبَ الْقَوِيُّ.

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ يَجِدُ هَذَا الْقَوْلَ، وَيُنْكِرُ هَذَا الْفَضْلَ، وَيَرْجِعُ إِلَى دِينٍ وَثِيقٍ أَوْ وَاهٍ ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وَحَدَّثَنِي أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ هَارُونَ الزُّنْجَانِيُّ الْقَاضِي صَاحِبُ الْمَذْهَبِ قَالَ: اصْطَحَبَ رَجُلَانِ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ مَسَافِرَيْنِ: مَجُوسِيٌّ مِنْ أَهْلِ الرِّيِّ، وَالْآخَرُ يَهُودِيٌّ مِنْ أَرْضِ جَيٍّ^(١)؛ وَكَانَ الْمَجُوسِيُّ رَاكِبًا بَغْلَةً لَهُ عَلَيْهَا سُفْرَةٌ مِنَ الزَّادِ وَالنَّفَقَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهُوَ يَسِيرُ مَرْفُوعًا وَادِّعَاً، وَالْيَهُودِيٌّ يَمْشِي بِلَا زَادٍ وَلَا نَفَقَةٍ؛ فَبَيْنَا هُمَا يَتَحَادَثَانِ إِذْ قَالَ الْمَجُوسِيُّ لِلْيَهُودِيِّ: مَا مَذْهَبُكَ وَعَقِيدَتُكَ يَا فُلَانٌ؟ قَالَ الْيَهُودِيٌّ: أَعْتَقِدُ أَنَّ فِي هَذِهِ السَّمَاءِ إِلَهًا هُوَ إِلَهُ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَأَنَا أَعْبُدُهُ وَأَقْدِّسُهُ وَأَضْرَعُ إِلَيْهِ، وَأَطْلُبُ فَضْلَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الرِّزْقِ الْوَاسِعِ وَالْعَمْرِ الطَّوِيلِ، مَعَ صِحَّةِ الْبَدَنِ، وَالسَّلَامَةِ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، وَالتَّضَرُّعِ عَلَى عَدُوِّي، وَأَسْأَلُهُ الْخَيْرَ لِنَفْسِي وَلِمَنْ يُوَافِقُنِي فِي دِينِي وَمَذْهَبِي، فَلَا أَغْبَأُ بِمَنْ يُخَالِفُنِي، بَلْ أَعْتَقِدُ أَنَّ مَنْ يُخَالِفُنِي دَمَهُ لِي يَجِلُّ، وَحَرَامٌ عَلَيَّ نُصْرَتُهُ وَنَصِيحَتُهُ وَالرَّحْمَةُ بِهِ. ثُمَّ قَالَ لِلْمَجُوسِيِّ: قَدْ أَخْبَرْتُكَ بِمَذْهَبِي وَعَقِيدَتِي وَمَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ ضَمِيرِي، فَخَبِّرْنِي أَنْتَ أَيْضًا عَنْ شَأْنِكَ وَعَقِيدَتِكَ وَمَا تَدِينُ بِهِ رَبِّكَ؟ فَقَالَ الْمَجُوسِيُّ: أَمَّا عَقِيدَتِي وَرَأْيِي فَهُوَ أَنِّي أُرِيدُ الْخَيْرَ لِنَفْسِي وَأَبْنَاءِ جَنْسِي، وَلَا أُرِيدُ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ سُوءًا، وَلَا أَتَمَنَّى لَهُ ضَرًّا، لَا لِمُوَافِقِي، وَلَا لِمُخَالِفِي. فَقَالَ الْيَهُودِيٌّ: وَإِنْ ظَلَمَكَ وَتَعَدَّى عَلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ فِي هَذِهِ السَّمَاءِ إِلَهًا خَبِيرًا عَالِمًا حَكِيمًا لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ مِنْ شَيْءٍ، وَهُوَ يَجْزِي الْمُخْسِينَ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءَ بِإِسَاءَتِهِ. فَقَالَ الْيَهُودِيٌّ: يَا فُلَانُ، لَسْتُ أَرَاكَ تَنْصُرُ مَذْهَبَكَ وَتُحَقِّقُ رَأْيَكَ. قَالَ الْمَجُوسِيُّ: كَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِأَنِّي مِنْ أَبْنَاءِ جَنْسِكَ، وَبَشَرٌ مِثْلُكَ، وَتَرَانِي أَمْشِي جَائِعًا نَصِيبًا مَجْهُودًا، وَأَنْتَ رَاكِبٌ وَادِّعٌ مَرْفَعٌ شَبْعَانُ. فَقَالَ: صَدَقْتَ، وَمَاذَا تَبْغِي؟ قَالَ: أَطْعِمْنِي مِنْ زَادِكَ، وَاحْمِلْنِي سَاعَةً، فَقَدْ كَلَلْتُ وَضَعُفْتُ. قَالَ: نَعَمْ وَكَرَامَةً. فَتَزَلَّ

(١) مدينة بناحية أصبهان.

وَمَدَّ مِنْ سَفَرْتِهِ وَأَطْعَمَهُ وَأَشْبَعَهُ، ثُمَّ أَزْكَبَهُ، وَمَشَى سَاعَةً يَحْدُثُهُ؛ فَلَمَّا مَلَكَ الْيَهُودِيُّ الْبَغْلَةَ وَعَلِمَ أَنَّ الْمَجُوسِيَّ قَدْ أَصَابَ، حَزَّكَ الْبَغْلَةَ وَسَبَقَهُ، وَجَعَلَ الْمَجُوسِيَّ يَمْشِي وَلَا يَلْحَقُهُ، فَنَادَاهُ: يَا فُلَانُ، قِفْ لِي وَانْزِلْ، فَقَدْ انْحَسَرْتُ وَانْبَهَزْتُ. فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: أَلَمْ أَخْبِرْكَ عَنْ مَذْهَبِي وَخَبَرْتَنِي عَنْ مَذْهَبِكَ، وَنَصَرْتَهُ وَحَقَّقْتَهُ؟ فَأَنَا أُرِيدُ أَيْضاً أَنْ أَحَقِّقَ مَذْهَبِي وَأَنْصُرَ رَأْيِي وَاعْتِقَادِي. وَجَعَلَ يَحْرُكُ الْبَغْلَةَ، وَالْمَجُوسِيَّ يَقْفُوهُ عَلَى ظَلْعٍ وَيُنَادِي: قِفْ يَا هَذَا وَاحْمِلْنِي، وَلَا تَتْرُكْنِي فِي هَذَا الْمَوْضِعِ فَيَأْكُلَنِي السَّبُعُ وَأَمُوتَ ضَياعاً، وَارْحَمْنِي كَمَا رَحِمْتُكَ. وَالْيَهُودِيُّ لَا يُلْوِي عَلَى نِدَائِهِ وَاسْتِغَاثَتِهِ، حَتَّى غَابَ عَنْ بَصَرِهِ؛ فَلَمَّا يَبْسُ الْمَجُوسِيُّ مِنْهُ وَأَشْفَى عَلَى الْهَلَكَةِ، ذَكَرَ اعْتِقَادَهُ وَمَا وَصَفَ بِهِ رَبَّهُ، فَرَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: إِلَهِي قَدْ عَلِمْتُ أَنِّي اعْتَقَدْتُ مَذْهَباً وَنَصَرْتُهُ، وَوَصَفْتُكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ، وَقَدْ سَمِعْتُ وَعَلِمْتُ، فَحَقَّقْتُ عِنْدَ هَذَا الْبَاغِي عَلَيَّ مَا مَجَّدْتُكَ بِهِ، لِيَعْلَمَ حَقِيقَةَ مَا قُلْتُ. فَمَا مَشَى الْمَجُوسِيُّ إِلَّا قَلِيلاً حَتَّى رَأَى الْيَهُودِيَّ وَقَدْ رَمَتْ بِهِ الْبَغْلَةَ، وَانْدَقَّتْ عُقْقُهُ، وَهِيَ وَاقِفَةٌ نَاحِيَةً مِنْهُ تَتَنَظَّرُ صَاحِبَهَا؛ فَلَمَّا أَذْرَكَ الْمَجُوسِيُّ بَغْلَتَهُ رَكَبَهَا وَمَضَى لِسَبِيلِهِ، وَتَرَكَ الْيَهُودِيَّ مُعَالِجاً لَكَرْبِ الْمَوْتِ؛ فَنَادَاهُ الْيَهُودِيُّ: يَا فُلَانُ، ارْحَمْنِي وَاحْمِلْنِي وَلَا تَتْرُكْنِي فِي هَذِهِ الْبَرِيَّةِ أَهْلِكَ جُوعاً وَعَطْشاً، وَانْصُرْ مَذْهَبَكَ، وَحَقِّقْ اعْتِقَادَكَ. قَالَ الْمَجُوسِيُّ: قَدْ فَعَلْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ، وَلَكِنَّكَ لَمْ تَفْهَمْ مَا قُلْتُ لَكَ وَلَمْ تَعْقِلْ مَا وَصَفْتُ. فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِأَنِّي وَصَفْتُ لَكَ مَذْهَبِي فِي قَوْلِي، حَتَّى حَقَّقْتُهُ بِفِعْلِي، وَذَاكَ أَنِّي قُلْتُ: إِنْ فِي هَذِهِ السَّمَاءِ إِلَهٌ خَيْرٌ أَعْدَالاً لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَهُوَ وَلِيُّ جَزَاءِ الْمُحْسِنِ بِإِحْسَانِهِ، وَالْمُسِيءِ بِإِسَاءَتِهِ. قَالَ الْيَهُودِيُّ: قَدْ فَهِمْتُ مَا قُلْتُ، وَعَلِمْتُ مَا وَصَفْتُ. قَالَ الْمَجُوسِيُّ: فَمَا الَّذِي مَنَعَكَ مِنْ أَنْ تَتَّعِظَ بِمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ الْيَهُودِيُّ: اعْتِقَادُ نَشَأَتِي عَلَيْهِ، وَمَذْهَبُ تَرْبِيَّتِي بِهِ، وَصَارَ مَأْلُوفاً مُعْتَاداً كَالْجِلَّةِ بِطُولِ الدَّأْبِ فِيهِ، وَاسْتِعْمَالُ أَبْنِيَّتِهِ، اقْتِدَاءً بِالْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ وَالْمُعَلِّمِينَ مِنْ أَهْلِ دِينِي وَمِنْ أَهْلِ مَذْهَبِي، وَقَدْ صَارَ ذَلِكَ كَالْأَسِّ الثَّابِتِ، وَالْأَصْلِ النَّابِتِ؛ وَيَضْعُبُ مَا هَذَا وَصَفُهُ أَنْ يُتْرَكَ وَيُرْفَضَ وَيُزَال. فَرَحِمَهُ الْمَجُوسِيُّ، وَحَمَلَهُ مَعَهُ حَتَّى وَافَى الْمَدِينَةَ، وَسَلَّمَهُ إِلَى أَوْلِيَائِهِ مُحَطَّماً مُوجِعاً، وَحَدَّثَ النَّاسَ بِحَدِيثِهِ وَقِصَّتِهِ، فَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ مِنْ شَأْنِهِمَا زَمَاناً طَوِيلًا.

وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ لِلْمَجُوسِيِّ بَعْدُ: كَيْفَ رَحِمْتَهُ بَعْدَ خِيَانَتِهِ لَكَ، وَبَعْدَ إِحْسَانِكَ إِلَيْهِ؟ قَالَ الْمَجُوسِيُّ: اعْتَذِرْ بِحَالِهِ الَّتِي نَشَأَ فِيهَا، وَدَأْبَ عُمُرِهِ فِي اعْتِقَادِهَا، وَسَعَى لَهَا وَاعْتَادَهَا؛ وَعَلِمْتُ أَنَّ هَذَا شَدِيدُ الزَّوَالِ عَنْهُ، وَصَدَّقْتُهُ وَرَحِمْتَهُ، وَهَذَا مِنْ شُكْرٍ عَلَى صُنْعِ اللَّهِ بِي حِينَ دَعَوْتُهُ عِنْدَمَا دَهَانِي مِنْهُ، وَبِالرَّحْمَةِ الْأُولَى أَعَانَنِي رَبِّي، وَبِالرَّحْمَةِ الثَّانِيَةِ شَكَرْتُهُ عَلَى مَا صَنَعَ بِي.

هَذَا كُلُّهُ سَرْدَنَاهُ لِسَبَبِ الْأَمْرِ الَّذِي يَبْدُو مِنْ غَيْرِ جَنَانٍ، وَالْعَارِضِ الَّذِي يَبْرُزُ مِنْ غَيْرِ تَوْهُمٍ.

وأبو سليمان يقول: الأمور مَقْسُومَةٌ على الحدود الطبيعية والقوى النفسية والبسائط العقلية والغرائب الإلهية، فبالواجب، ما كان هاهنا مألوفاً له نسبة إلى الطبيعة، ونادراً له نسبة إلى النفس، وبديعاً له نسبة إلى العقل، وغريباً له نسبة إلى الإله، والفَلَتَات في الأحوال من هذا القَبِيل، أعني ما يَتَخَلَّل هذه المراتب.

فقال له البخاري: أيقال لما يَصُدِّر عن الإله فلتة؟

قال: بِحَسَب مَصِيرِهِ إلينا، ووصوله إلى عالمنا، لا بِحَسَب صُدُورِهِ عن الباري، فليس هناك هذا ولا ما يُشَبِّهه، لأنَّ هذه السَّمَات لِحَقَّت المَرَكَبَات، من الأوائل المَزْدَوِجَات، والثواني المَكْرَرَات، والثالثات المُحَقَّقَات، والزوابع المتممات، والخوامس المدبَّرات، والسادس المضاعفات، والسوابع الظَّاهِرَات، والثامن المعقَّبات، والتواسع العاليات، والعواشر الكاملات؛ وما بَعْدَ العواشر داخلٌ في المَكْرَرَات.

قال له البخاري مستزيداً: أكان التوفيق من الاتفاق؟

فقال: هما يتوَحَّدان من وجه، ويفترقان من وجه؛ فَوَجْهُ تَوَحُّدِهِمَا أَنَّ الاتفاق وليدُ التوفيق، والتوفيق غايةُ الاتفاق؛ وَوَجْهُ افتراقِهِمَا أَنَّ الاتفاق يَبْرُز إلى الحسِّ، وأصحابه يَشْتَرِكُون في التعجُّب منه، والاسْتِطْرَافِ له؛ والتوفيق يُسْتَرُّ عن الحسِّ؛ ولهذا لا تُسَلِّكُ مَسَالِكَهُ. وأما الوفاق والموافقة والتوفيق والاتفاق فمتلازمة المعاني؛ ولَمَّا لم يَكُنْ بين المعنى والمعنى مسافةً محصَّلةً حُسِبَ هذا في حَيْزِ هذا، وَعُدَّ هذا في جُمْلَةِ هذا.

وقال - أَبَقَاهُ اللَّهُ وَأَدَامَ أَيَّامَهُ -: ما اليُمْنُ والبركة؟ والقَالُ والطَّيْرَةُ وَأَضْدَادُهَا؟

فكان الجواب: إِنَّ اليُمْنَ عِبَارَةٌ عن شيء يَبْشُرُ به وَيُبْتَغَى وَيُرَاد؛ ويقال: فلانٌ مَيِّمُونُ النَّاصِيَةِ، وميسور الناصية؛ أي هو سببُ ظاهِرٍ في نيلِ مأمُولٍ وإِذْرَاكِ محبوبٍ؛ واشْتِقَاقُهُ في اليَمِينِ، وهو القوَّة؛ ولذلك يقال لليسار: شِمَالٌ، لأنها أضعفُ منها، وتسمَّى أيضاً: الشُّؤْمَى. ويقال: يَمَنُ فلانٌ عليهم، وشؤْمٌ، وهو ميمونٌ ومشئومٌ؛ جُعِلَ الفِعْلُ على طريقِ ما لم يُسَمَّ فاعِلُهُ، لأنَّه شيءٌ موصولٌ به من غيرِ إرادته واختيارِهِ. وإنما نزعوا إلى قولهم: فلان مشئوم ليكون الفعل واقعاً به - أعني المَكْرُوه - وإلا فهو شائمٌ في الأصل. ويقال: شَأْمُ فلانٌ قَوْمَهُ، وكذلك يَمَنُهُمْ؛ وكأَنَّهُما قُوَّتَانِ عُلُويَّتَانِ تَصْحَبَانِ مِزَاجَيْنِ مختلفين، وإذا اعتيَّدَ منهما هذان العَرَضَانِ اللذان يَصُدَّرَانِ عن هاتين القُوَّتَيْنِ العُلُويَّتَيْنِ، قيل: فلان كذا، وفلانٌ كذا.

وأما البركة فهي النَّمَاءُ والزِّيَادَةُ والرَّيْعُ، من حيث لا يوجد بالحسِّ ظاهراً مكشوفاً يُشار إليه، فإذا عُهِدَ من الشيء هذا المعنى خافياً عن الحسِّ قيل: هذه بركة، واشتقاقها من البروك، وهو اللزوم والسَّعة؛ ومن ذلك: البركة. والبركة

يوصف بها كل شيء، وليس لضدها اسم مشهور، لذلك يقال: قليل البركة.
وأما الفأل ففسر بأنه جريان الذكر الجميل على اللسان مغزولاً عن القصد، إما
من القائل، وإما من السامع. وقد سمع النبي - ﷺ - لما نزل المدينة على أبي أيوب
الأنصاري - أبا أيوب يقول لغلام له: يا سالم يا غانم. فقال لأبي بكر: «سَلِمَتْ لَنَا
الدَّارُ فِي غَنَمٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ». وهذا مشهور بين الناس.

وضد الطيرة والإشعار. ويروى أنه نهى عن الطيرة، وكان يحب الفأل - ﷺ -،
وليس لهما عِلَلٌ راتبة، ولا أسباب مُوجِبَة، ولا أوائل معروفة؛ ولهذا كره الإفراط في
التطير والتعويل على الفأل، لأنهما أمران يَصْحَاحُ وَيَبْطُلَانِ، والأقل منهما لا يميز من
الأكثر؛ وللمزاج من الإنسان فيهما أثر غالب، والعادة أيضاً تُعِينُ، والولوع يزيد،
والتحفظ مما هذا شأنه شديد، ولقد غلبَ هذا حتى قيل: فلان مدور الكعب، وفلان
مشئوم؛ وحتى تعدى هذا إلى الدابة والدار والعبد؛ وكل هذا ظهر في هذه الدار حتى
لا يكون للعبد طمأنينة إلا بالله، ولا سكون إلا مع الله، ولا مطلوب إلا من الله؛
ولهذا - عز وجل - يُطْلِعُ الخوف من ثنية الأمن، ويسوق الأمن من ناحية الخوف،
ويبعث النصر وقد وقع اليأس، ويأتي بالفرج وقد اشتد البأس. وأفعال الله تعالى خفية
المطالع، جلية المواقع، مطوية المنافع؛ لأنها تسري بين الغيب الإلهي، والعيان
الإنسي، وكل ذلك ليصح التوكل عليه، والتسليم له، واللياذ به، ويعرج على كنف
ملكه، ويتبوأ معان خُلدَه، ويُنال ما عنده بطاعته وعبادته.

فقال الوزير - كَبَتَ اللَّهُ أعداءه، وَبَلَغَهُ مُنَاهُ -: هذا كلام ليس عليه كلام، أرى
النَّعَاسَ يَخْطُبُ إِلَى عَيْنِي حَاجَتَهُ، وَإِذَا شِئْتَ فَاجْمَعْ لِي فَقَرَأَ مِنْ هَذَا الضَّرْبِ الَّذِي مَرَّ
مِنْ حَدِيثِ الطَّيْرَةِ وَالْفَأْلِ وَالْإِتِّفَاقِ.

الليلة الثامنة والعشرون

وَعُدْتُ لَيْلَةً أُخْرَى وَقَرَأْتُ عَلَيْهِ أَشْيَاءَ مِنْ هَذَا الْفَنِّ .
 مِنْهَا : عَقَّدَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لِسَعِيدِ بْنِ عَمْرِو الْجُرَشِيِّ أَيَّامَ التَّرْكِ ، فَقَالَ
 سَعِيدٌ : يَا فَتْحُ ، يَا نَضْرُ ، خُذَا اللَّوَاءَ . فَقَامَ هِشَامُ : أَعْمَدًا قُلْتُ هَذَا ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكْتُهُمَا
 غُلَامَايَ دَعَوْتُهُمَا . قَالَ هِشَامُ : هُوَ الْفَتْحُ وَالنَّضْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَكَانَ ذَلِكَ كَذَاكَ .
 وَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَغْرِضُ ، فَمَرَّ بِهِ حَيَّةٌ بَنُ نَكَّازٍ ، فَقَالَ :
 لَا حَاجَةَ لَنَا فِي هَذَا ، هَذَا حَيَّةٌ وَأَبُوهُ يَنْكُرُ .
 وَرَمَى رَجُلُ الْجِمَارِ ، فَأَصَابَ صَلْعَةً عَمَرَ بِحَصَاةٍ فَشَجَّهُ . فَقَالَ رَجُلٌ : أَشْعِرْتَ يَا
 أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَقُومُ عَمْرُ هَذَا الْمَقَامَ أَبَدًا . فَكَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ .
 وَخَرَجَ رَجُلٌ يَنْظُرُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَلَقِيَ رَجُلًا ، فَقَالَ لَهُ :
 مَا اسْمُكَ ؟ قَالَ : عِقَالٌ . قَالَ : ابْنُ مَنْ ؟ قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ . قَالَ : مِنْ بَنِي مَنْ ؟ قَالَ : مِنْ
 بَنِي عَقِيلٍ . قَالَ عَقْلَتَهُ عَقْلَكَ اللَّهُ .

هَذَا الْجُزْءُ أَيُّهَا الشَّيْخُ - أَبْقَاكَ اللَّهُ مَا تَمَنَّيْتُ الْبَقَاءَ - هُوَ الْجُزْءُ الثَّانِي ، وَالثَّلَاثُ
 يَتْلُوهُ ، وَالظَّنُّ الْجَمِيلُ بِكَ ، يَعِدُنَا بِالْحُسْنَى مِنْكَ ، وَقَدْ عَلِمْتَ الْغَرَضَ فِي جَمْعِ هَذَا
 كُلِّهِ وَالتَّعَبُ فِيهِ ، وَأَرْجُو أَلَّا يَخِيبَ الْأَمَلُ ، وَلَا يَبُورَ الْعَمَلُ ، وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَا يَخْلُو
 مِنْ بَعْضِ الْخَلَلِ وَالزَّلَلِ . فَإِذَا أَخَذْتَ بِحُكْمِ الْفَضْلِ الَّذِي هُوَ عَادَتُكَ وَدَيْدَنُكَ مَعَ
 الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ ، وَالْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، فَازْ قَدْحِي ، وَصَدِّقْ نَوْتِي ، وَصَحِّحْ زَجْرِي وَقَالِي .
 حَرَسَ اللَّهُ نَفْسَكَ ، وَصَانَ نِعْمَتَكَ ، وَكَبَّتْ كُلُّ عَدُوٍّ لَكَ .

كِتَابُ الْمُتَنَاعِ وَالْمُوَانِسَةِ

تَأليف
أبي حَيَّانَ التَّوْحِيدِي

وَهُوَ مَجْمُوعُ مَسَامِرَاتٍ وَفُنُونٍ شَتَّى
حَاضَرَ بِهَا الْوَزِيرُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْعَارِضُ فِي عِدَّةٍ لِيَالٍ

اعْتَنَى بِهِ وَرَاجَعَهُ
هَيْثَمُ خَلِيفَةُ الطَّعِيمِي

الجزء الثالث

المكتبة العصرية
بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أيها الشيخ وصل الله قولك بالصواب، وفعلك بالتوفيق، وجعل أحوالك كلها منظومةً بالصلاح، راجعةً إلى حميد العاقبة، متألّفة بشوارد السُرور، ووفّر حظّك من المَدح والثناء، فإنهما ألدُّ من الشَّهْد والسَّلوى، ومدّ في عُمرِكَ لكسب الخير، واستدامة النعمة بالشُّكر؛ وجعلَ تلذّذك باصطناع المعروف، وعرفك عواقب الإحسان إلى المُستحقِّ وغير المستحق، حتّى تكلفَ ببثّ الجميل، وتُشغفَ بنشر الأيادي، وحتى تجدَ طعمَ الثناء، وتطربَ عليه طربَ النشوانِ على بديع الغناء. لا طرب البردانيّ على غناء علوة جارية ابن علويه في درب السِّلَق إذا رفعت عَقيرتها فغنت بأبيات السُّروي:

بالورد في وَجَنَتَيْكَ مَنْ لطمك	وَمَنْ سقاك المُدام لِمَ ظلمك؟
خَلَاكَ لا تَسْتَفِيقُ مِنْ سُكْرِ	توسّع شَتْمًا وَجَفوةَ خَدَمِكَ
مُعَقَّرَبِ الصُّدغِ قد ثملتَ فما	يَمْنَعُ مِنْ لَثَمِ عاشِقِيكَ فمك؟
تَجِرُ فَضْلَ الإزارِ مُنْخَرِقَ التِّ	غَلِيْنٍ قد لَوَّ الشَّرى قَدَمَكَ
أَظْلَمَ مِنْ حَيْرَةٍ وَمِنْ دَهْشِ	أقول لما رأيتُ مَبْتَسِمَكَ
باللهِ يا أَقْحَوَانَ مَضْحَكِهِ	على قَضِيبِ العَقِيقِ مَنْ نَظَمَكَ؟

ولا طربَ ابن فهم الصُّوفيّ على غناء «نهاية» جارية ابن المغنّي إذا اندفعت بشدوها:

أستودعُ اللهَ في بغداد لي قمرًا	بالكَرْخِ من قَلَمِكَ الأَزْرارِ مَطْلَعُهُ
ودَّعْتُهُ وبودّي لو يودُّعُنِي	صَفْوُ الحِياةِ وأنّي لا أودُّعُهُ

فإنه إذا سَمِعَ هذا منها ضَرَبَ بِنَفْسِهِ الأَرْضَ، وتمرَّغَ في التراب وهاج وأزبد، وتعقّر شعره؛ وهاتِ مِنْ رِجالِكَ من يَضْبُطُهُ ويمسكه، وَمَنْ يَجْسُرُ على الدنو منه، فإنه يَعْضُ بنابه، ويخْمِشُ بظفره، ويركلُ برجله ويخرقُ المرقعةَ قِطْعَةً قِطْعَةً، ويلطِّمُ وَجْهَهُ أَلْفَ لَطْمَةٍ في ساعة، ويخرج في العَباءَةِ كأنه عبد الرزاق المجنون صاحبُ الكيل في جيرانك بباب الطاق.

ولا طربَ ابن غيلانَ البزاز على تَرْجِيعات «بلور» جارية ابن اليزيدي المؤلّف

بين الأكباد المحرقة، والمُحْسِن إلى القلوب المتصدعة والعيون الباكية إذا عَنَّت .
 أعطِ الشَّبابَ نَصِيبَهُ ما دُمْتَ تُغْذِرُ بالشَّبابِ
 وانعم بأيام الصُّبَى واخْلَعْ عِذارَكَ في التَّصَابِي
 فإنه إذا سمع هذا منها انقلبت حمالق عَيْنِيهِ، وسَقَطَ مَغْشِياً عليه، وهاتِ الكافور
 وماء الورد، وَمَنْ يقرأ في أذُنِهِ آيَةَ الْكُرْسِيِّ والمعوذتين، وَيُزْقَى بِهَيَا شَرَاهِيا^(١).

ولا طربَ أَبِي الوزير الصوفي القاطن في دار القُطان عند جامع المدينة على
 «قَلَمِ القُضِيَّة» إذا تَنَاولَتْ في استهلالها، وتضاجرت على ضَجَرَتِها، وتذكرت شجوها
 الذي قد أَضناها وأنضاهَا، وسلبها منها وأنساها إياها. ثم اندفعت وعَنَّت بصوتها
 المعروف بها.

أقولُ لها والصبحُ قد لاح نوره كما لاح ضَوْءُ البارقِ المتأَلَّقِ
 شَبِيهُكَ قد وَاقَى وحان افتراقنا فهل لك في صَوْتِ ورِطَلٍ مُرَوِّقِ
 فقالت حياتي في الذي قد ذكرته وإن كنت قد نَغَضْتَهُ بالتفرُّقِ
 ولا طرب الجراحي أَبِي الحسن مع قضائه في الكرخ وِرْدَائِهِ الْمُحَشَّى، وكَمِيهِ
 الْمُقَدَّرِينَ ووجنتيه المتخَلَجَتَيْنِ، وكلامه الفُخْمِ، وإطراقه الدائم؛ فَإِنَّهُ يَغْمِزُ بالحاجب
 إذا رأى مِرْطاً، وأَمَلُ أَنْ يُقْبَلَ خِداً وقُرْطاً؛ على غناء شُعْلَةٍ:

لا بدَّ للمشتاقِ مِنْ ذِكْرِ الوَطَنِ واليأسِ والسَّلْوَةِ مِنْ بَعْدِ الحَزَنِ
 وقيامته تقوم إذا سَمِعَهَا تَرْجِعُ في لحنها.

لو أَنَّ ما تَبْتَلِينِي الحادِثَاتُ بِهِ يُلْقَى على الماءِ لم يُشْرَبِ مِنَ الكَدْرِ
 فهناك ترى شَبِيَّةً قد ابتَلَتْ بالدموع، وفُؤاداً قد نَزَا إلى اللّٰهَةِ، مع أَسْفٍ قد ثَقَبَ
 القلبَ، وأَوْهَنَ الرُّوحَ، وجاب^(٢) الصَّخْرَ، وأذاب الحديدَ، وهناك ترى واللّٰهَ أحداقَ
 الحاضرين باهتة، ودموعهم متحدرة، وشهيقهم قد علا رَحْمَةً له، ورقَّةً عليه،
 ومساعدةً لحاله، وهذه صُورَةٌ إذا استولَتْ على أَهْلِ مَجْلِسٍ وَجَدَتْ لها عَذَوِي لا
 تُمَلِّكُ، وغايةً لا تُذَرِّكُ، لأنَّه قَلَمًا يخلو إنسانٌ من صَبْوَةٍ أو صَبَابَةٍ، أو حَسْرَةٍ على
 فائت، أو فِكْرٍ في مُتَمَنَّى، أو خوفٍ من قَطِيعَةٍ، أو رَجاءٍ لِمَتَمَنٍّ، أو حُزْنٍ على حالٍ،
 وهذه أَحْوالٌ مَعْرُوفَةٌ، والناسُ منها على جَدِيلَةٍ^(٣) معهودَةٍ.

(١) كلمة عبرانية معناها يا حي يا قيوم.

(٢) قطعة.

(٣) طريقة.

ولا طرب ابن غسان البصري المتطبّب إذا سمع ابن الرّفاء يُعْثِي:

وحياة مَنْ أَهْوَى فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ أبدأ لأخلف كاذباً بحياته
لأخالفنّ عواذلي في لذتي ولأشعِدَنَّ أخِي على لذاته

وابنُ غسان هذا مليح الأدب، وهو الذي يقول في ابن نصرٍ العامل - وقد عالجه من علة فلم يفتقده ولم يقض حقه -:

هَبِ الشُّعراءُ تُعْطِيهِمْ رِقاعاً مُزوّرةً كلاماً عن كلام
فَلِمَ صلة الطَّبیبِ تكونُ زوراً وقد أَهدى الشفاء من السَّقام
عجبتُ لمنْ نَمَتِه أَرْضُ لُؤم وبُخلٍ لِمَ يُعَدُّ من الكِرام
نُسِبتَ إلى السَّماجة لا لشيءٍ سوى نُقصانِ لُؤمِكَ في اللئام

عنى بها أنه من أضحكان^(١)، وكان آخر حديث ابن غسان ما عرفته، فإنه عرّق نفسه في كِرْذاب^(٢) كلّواذي، وذلك لأسباب تجمعت عليه من صَفَرِ اليد، وسوء الحال، وجَرَبِ أكل بدنه، وعِشْقِ أَحرقَ كبده على غلام (الأمديّ الحلاوي) بباب الطاق، وحيرة عَزَبَ معها عقله، وخَذَله رأيه، ومَلَكه حينه، ونَسألُ الله حسن العُقْبى بدركِ المُنَى، وليس للإنسان من أمره شيء، وما هو آئض^(٣) إليه فهو مملوكٌ عليه، يُصَرِّفه فيما يُصَرِّفُ فيظُنُّ أنه أتى من قِبَلِه، ولعمري مَنْ غُلَطَ غِلَط، ومن غُولِطَ غَالِط، والكلام في هذا غاشٌّ والإغراق فيه مُوسوس، والإعراض عنه أَجْلَبُ للأنس، وما أحسن ما قال القائل:

إذا استَغَفَيْتُ مِنْ أَسْرِ اللَّيالي تُصَرِّفْني فَأُسْرِني في خِلاصِي

ولولا طَيْشُ القَلَمِ وتَشَعُّبُ الخاطر، وشُرُودُ الرأْي، ما عَثَرْتُ بهذا الموضع ولا عَلِقتُ بهذا الحبل، نعم.

ولا طَرَبَ ابنُ بُناةِ الشاعِرِ على صَوْتِ الخاطِيفِ إذا عَنَّت.

تَلْتَهَبُ الكَفُّ مِنْ تَلْهِيبِها وَتَحْسُرُ العَيْنُ إِنْ تَقْصَاها
كَأَنَّ ناراً بِها مَحَرَّةً تَهَابُها مَرَّةً وَتَغْشَاها
نَأْخِذُها تارَةً وَتَأْخِذُنا فَتَخُنْ فُزْسائِها وَصَرْعَاها

(١) إشارة إلى شهرتهم بالبخل.

(٢) كلمة فارسية تعني دوامة الماء.

(٣) راجع.

ولا طَرَبَ ابن العَوْدِيّ إذا سمع غناء تَرَف الصابئة في صوتها، عند نشاطها ومَرَجَها، وهوها حاضر، وطَرَفها إليه ناظر:

لَبَّ الهوى كلَّما دَعَاكَ ولاح في الحبِّ من لَحَاكَ
مَنْ لَمْ فِي الحُبِّ أَوْ نَهَاكَ فزَدَ فِي غَيِّكَ انْهَمَاكَ
إِنْ لَمْ تَكُن فِي الهوى كذاكَ نال لذَّاتِه سِوَاكَ

ولا طَرَبَ المعلِّم غلام الحُضْرِيّ شيخ الصُّوفية إذا سمع ابن بُهلولٍ يغني في رحبة المسجد بعد الجمعة وقد خَفَّ الزحام:

وقال لي العَدُولُ تَسَلَّ عنها فقلتُ له: أتدري ما تَقول؟
هي النفسُ التي لا بُدَّ منها فكيف أزل عنها أو أُحَوِّلُ؟

ولا طرب ابن الغازي على جارية العَمِّيِّ في مجلسها الغاصُّ بنبلاء الناس بين السُّورَيْنِ^(١):

يَلْحَى، ولو أَرَقَّهُ مِيعَادُ أَوْ رَاغَهُ الْإِغْرَاضُ وَالْإِنْعَادُ
أَوْ هَرَّهْ الْأَعْدَاءُ وَالْحُسَّادُ أَوْ سَلَقَتْهُ الْأَلْسُنُ الْجِدَادُ
مَا لَمْ مَسْنُ لَيْسَ لَهُ فُؤَادُ

ولا طَرَبَ ابن صُبَّر القاضي قبلَ القضاء على غناء درة جارية أبي بكر الجَرَّاحِيّ في دَرْب الزعفرانيّ التي لا تَقْعُدُ في السَّنة إِلَّا في رَجَبٍ، إذا غَنَّتْ:

لَسْتُ أَنْسَى تِلْكَ الزِّيَارَةَ لَمَّا طَرَقْتُنَا وَأَقْبَلْتَ تَتَشَتَّى
طَرَقْتَ ظَبِيَّةَ الرُّصَافَةِ لِيلاً فَهِيَ أَحْلَى مِنْ جَسَّ عُوداً وَغَتَّى
كَمْ لِيَالٍ بِثَنَّا نَلَكُذْ وَنَلْهُو وَنُسَقَّى شَرَابِنَا وَنُغَنَّى
هَجَرْتُنَا فَمَا إِلَيْهَا سَبِيلُ غَيْرَ أَنَا نَقُولُ: كَانَتْ وَكُنَّا

وإذا بَلَغْتَ «كانت وكنا» رأيتَ الحِجَبَ مَشْقُوقاً، والدَّيْلَ مَخْرُوقاً، والدَّمَعَ مُنْهَمَلاً، والبالَ مُنْخَذِلاً، ومكتومَ السَّرِّ في الهوى بادياً، ودليلَ العَشِقِ على صاحِبِه مُنَادِياً.

ولا طرب ابن حَجَّاج الشاعر على غناء قِنْوَةَ البَصْرية، وهي جَارَتُهُ وَعَشِيقَتُهُ، وله معها أحاديث، ومع زوجها أعاجيب؛ وهناك مكَايِدَات، وَرَمِيّ ومُعَايِرَات، وإِفْشاء نِكَات؛ إذا أُنْشِدَتْ:

يَا لَيْتَنِي أَحْيَا بِقُرْبِهِمُو فَإِذَا فَقَدْتُهُمْ انْقَضَى عُمْرِي

(١) محلة كانت بكرخ بغداد، وعمى: نسبة إلى العم، بطن من تميم.

ثم ثنت بصوتها الآخر:

هَبِينِي امراً إمّا بريئاً ظلمته وإمّا مُسيئاً تاب بَعْدُ فأغْتَبَا
فكنتُ كذِي داءٍ تبغى لدائه طبيباً فلما لم يجدهُ تَطَبَّبَا
ولا طرب ابن معروف قاضي القضاة على غناء عُلَيَّة إذا رَجَعَتْ لحنها في حلقها
الحلو الشَّجِي بشعر ابن أبي ربيعة:

أُنِيرِي مَكَانَ البَذْرِ إِنْ أَقْلَ البَذْرُ وقُومِي مَقَامَ الشَّمْسِ مَا اسْتَأَخَرَ الفَجْرُ
ففيكَ من الشَّمْسِ المُنِيرَةِ نُورُهَا وليس لها مِنْكَ المحاجِرُ والشَّعْرُ
ولا طَرَبَ ابن إسحاق الطبري على صَوْتِ دُرَّة البصريّة إذا غَنَّت:

يَا ذَا الَّذِي زَارَ وَمَا زَارَا كَأَنَّهُ مُقْتَبِسٌ نَارَا
قَامَ بِبَابِ الدَّارِ مِنْ زَهْوِهِ مَا ضَرَّه لَوْ دَخَلَ الدَّارَا
لَوْ دَخَلَ الدَّارَ فَكَلَّمْتُهُ بِحَاجَتِي مَا دَخَلَ النَّارَا
نَفْسِي فِدَاهُ الْيَوْمَ مِنْ زَائِرٍ مَا حَلَّ حَتَّى قِيلَ قَدْ سَارَا

ولا طَرَبَ ابن الأَزْرَق الجَرَجَرَانِي على غناء سُندُسَ جارية ابن يوسف صاحب ديوان السَّوَاد إذا تَشَاجَتْ وَتَدَلَّلَتْ، وَتَقَتَّلَتْ وَتَقَتَّلَتْ^(١)، وَتَكَسَّرَتْ وَتَيَسَّرَتْ، وقالت: أنا واللَّهِ كَسَلَانَةٌ مَشْغُولَةٌ القَلْبِ بَيْنَ أَحْلَامِ أَرَاهَا زِدِيَّةً، وَبَحْتِ إِذَا اسْتَوَى التَّوَى، وَأَمَلِ إِذَا ظَهَرَ عَثْرٌ؛ ثم اندفعت وغنَّت:

مَجْلِسُ صَبَّيْنِ عَمِيدَيْنِ لَيْسَا مِنَ الحُبِّ بِخُلُوعَيْنِ
قَدْ صَيَّرَا رُوحَيْهِمَا وَاحِداً وَاقْتَسَمَاهُ بَيْنَ جِسْمَيْنِ
تَنَازَعَا كَأْساً عَلَى لَذَّةٍ قَدْ مَزَجَاهَا بَيْنَ دُمْعَيْنِ
الكَأْسُ لَا تَحْسُنُ إِلَّا إِذَا أَذْرَتْهَا بَيْنَ مُحَبِّينِ

ولا طرب ابن سَمْعُون الصُّوفِي على ابن بُهلول إذا أخذ القُضِيبَ وأوقع ببنانه الرُّخَص، ثم زَلْزَلَ الدُّنْيَا بصوته الناعم، وَغَنَّتِ الرَّخِيمَةُ، وإشارته الخالبة، وحركته المدغدة، وظرفه البارِع، ودماثته الحُلُوة، وَغَنَّى:

وَلَوْ طَابَ لِي عَزْسٌ لَطَابَتْ ثِمَارُهُ وَلَوْ صَحَّ لِي غَيْبِي لَصَحَّتْ شَهَادَتِي
تَزْهَدْتُ فِي الدُّنْيَا وَإِنِّي لِرَاغِبٍ أَرَى رَغْبَتِي مَمْرُوجَةً بِزَهَادَتِي
أَيَا نَفْسٍ مَا الدُّنْيَا بِأَهْلٍ لِحُبِّهَا دَعِيهَا لِأَقْوَامٍ عَلَيْهَا تَعَادَتِ

(١) تفتلت: تلوت، وتفتلت: ثنت في مشيتها.

ولا طرب ابن حيَّويه على غلام الأمراء إذا غَنَّى :

قد أشهد الشاربَ المعدَّلَ لا معروْفُهُ مُنْكَرٌ ولا حَصْرُ
في فِثْيَةٍ لِيُنِي المآزِرَ لا ينسَوْنَ أخلاقَهُمْ إذا سَكروا
وغلامُ الأمراء هو الذي يقول فيه القائل :

أبو العباس قد حَجَّ وقد عاد وقد غَنَّى
وقد علَّقَ عُنَّا زَا فهذا هم كما كنَّا

وأصحابنا يَسْتَمْلِحُونَ قولَه (هَمْ) هاهنا، وَيَرَوْنَه من العِيِ الفصيح .

ولا طَرَبَ أَبِي سُلَيْمَانَ المنطقيُّ إذا سمع غناء هذا الصَّبِيِّ الموصليِّ النابغ الذي قد فتن الناس وملا الدنيا عِيَارَةً وخسارةً، وافتضح به أصحابُ التُّسك والوقار، وأصنافُ الناس من الصُّغار والكبار، بوجهه الحسن، وثره المُبْتَسِم، وحديثه الساحر، وطَرَفه الفاتر، وقَدَّه المَدِيد، ولَفْظَه الحُلُو، ودَلَّه الخُلُوب، وتمنَّعه المَطْمِيع، وإطماعه المُمْنَع وتشكيكه في الوصل والهجر، وخلطه الإباء بالإجابة، ووقوفه بين لا ونعم. إن صرَّخت له كَنَى، وإن كَنَيْتَ له صرَّح؛ يَسْرِقُكَ مِنْكَ، وَيَرُدُّكَ عَلَيْكَ، يَغْرِفُكَ مُنْكَرًا لَكَ، وَيُنْكَرُكَ عَارِفًا بِكَ؛ فحالُه حالات، وهِدَايَتُه ضلالات، وهو فتنة الحاضرِ والبادي، ومُتْنِيَّة السائق والهادي؛ في صوته الذي هو من قلائده :

عرفتَ الذي بي فلا تَلْحَنِي فليس أخو الجهل كالعالم
وكنتُ أخوْفُهُ بالدُّعَا وأخشى عليه من المائم
فلو كنتُ أبصرتُ مثلاً له إذا لمتُ نَفْسِي مَعَ اللائم
فلما أقام على ظُلمه تركتُ الدُّعَاءَ على الظالم

ولا طَرَبَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ البَصْرِيُّ على إيقاع ابن العَصْبِيِّ إذا أَوْقَعَ بقضيبه وغَنَّى بصوته :

أَنَسِيَتِ الوَضْلَ إذ بِشَ ناعلى مَزَقَدٍ وَزَدِ
واغْتَنَّقْنَا كَوْشاح وانْتَظَمْنَا نَظْمَ عِقْدِ
وتَعَطَّفْنَا كَغُضْنِي ن فقَدَانَا كَقَدِّ

وبسبب هذا ونظائره عابه الواسطيُّ، وقَدَحَ في دينه، وألصق به الرِّبِيَّة، واستحلَّ في عِرْضِهِ الغِيبَةِ، ولقبه بالمنفَر عن المذهب، وقاطع الطَّرِيق على المُسْتَرَشِد .

ولا طَرَبَ ابنُ الوَرَّاقِ على رَوْعَةٍ جارية ابن الرُّضِيِّ في الرُّصافَةِ إذا غَنَّت :

وَحَقُّ مَحَلِّ ذِكْرِكَ مِنْ لِسَانِي وَقَلْبِي حِينَ أَخْلُو بِالْأَمَانِي
لَقَدْ أَضْبَحْتُ أَغْبِطُ كُلَّ عَيْنٍ تَعَايْنُهَا فَتَسْعَدُ بِالْعِيَانِ

ولا طَرَبَ السُّنْدَوَانِي عَلَى ابْنِ الْكَرْخِيِّ إِذَا غَنَّى :

هَجَرْتَنِي ثُمَّ لَا كَلَّمْتَنِي أَبَدًا إِنْ كُنْتُ حُنْتُكَ فِي حَالٍ مِنْ الْحَالِ
فَلَا انْتَجَيْتُ نَجِيًّا فِي خِيَانَتِكُمْ وَلَا جَرْتُ خَطَرَةً مِنْهُ عَلَى بَالٍ
فَسَوْغِينِي الْمُنَى كَيْمَا أَعِيشَ بِهَا ثُمَّ احْبَسِي الْبَذْلَ مَا أَطْلَقْتَ آمَالِي
أَوْ ابْعَثِي تَلْفًا إِنْ كُنْتَ قَاتِلْتِي إِلَيَّ مِنْكَ بِإِحْسَانٍ وَإِجْمَالٍ
وَلَا طَرَبَ الْحَرِيرِيُّ الشَّاهِدَ عَلَى جَلِيَّةَ جَارِيَةِ أَبِي عَائِذِ الْكَرْخِيِّ « إِذَا أَخَذْتَ فِي
هَزَارِهَا » ، وَاشْتَعَلَتْ بِنَارِهَا وَغَنَّتْ :

قَالَتْ بُثَيْنَةُ لَمَّا جِئْتُ زَائِرَهَا سَبْحَانَ خَالِقِنَا مَا كَانَ أَوْفَاكَ
وَعَدْتَنَا مَوْعِدًا تَأْتِي لَنَا عَجَلًا وَقَدْ مَضَى الْحَوْلُ عَنَّا مَا رَأَيْنَاكَ
إِنْ كُنْتَ ذَا غَرَضٍ أَوْ كُنْتَ ذَا مَرَضٍ أَوْ كُنْتَ ذَا خُلَّةٍ أُخْرَى عَدَزْنَاكَ
وَلَا طَرَبَ أَبِي سَعِيدِ الصَّائِغِ عَلَى جَارِيَتِهِ ظُلُومٌ إِذَا قَلَبْتَ لِحْنَهَا إِلَى خَلْقِهَا
وَاسْتَنْزَلْتَهُ مِنَ الرَّأْسِ ، ثُمَّ أَوْقَعَتْ فغَنَّتْ :

فِيَا لَكَ نَظْرَةً أَوَدَتْ بِعَقْلِي وَغَادَرَ سَهْمُهَا مِنِّي جَرِيحًا
فَلَيْتَ مَلِيكَتِي جَادَتْ بِأُخْرَى وَأَعْلَمَ أَنَّهَا تَنُكَ الْقُروَحَا
فَإِنَّمَا أَنْ يَكُونَ بِهَا شِفَائِي وَإِنَّمَا أَنْ أَمُوتَ فَأُسْتَرِيحَا
وَلَا طَرَبَ الزُّهْرِيُّ عَلَى خَلُوبَ جَارِيَةِ أَبِي أَيُّوبَ الْفَطَّانِ إِذَا أَهَلَّتْ وَاسْتَهَلَّتْ ، ثُمَّ
انْدَفَعَتْ وَغَنَّتْ :

إِذَا أَرَدْتُ سُلوًا كَانَ نَاصِرَكُمْ قَلْبِي وَمَا أَنَا مِنْ قَلْبِي بِمُنْتَصِرٍ
فَأَكْثِرُوا أَوْ أَقِلُّوا مِنْ إِسَاءَتِكُمْ فَكُلُّ ذَلِكَ مَحْمُولٌ عَلَى الْقَدَرِ
وَضَعْتُ خَدِي لِأَدْنَى مَنْ يُطِيفُ بِكُمْ حَتَّى احْتَقَرْتُ وَمَا مِثْلِي بِمُحْتَقَرٍ

وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَرْزُبَانِيُّ شَيْخُنَا إِذَا سَمِعَ هَذَا جُنَّ وَاسْتَغَاثَ ، وَشَقَّ الْجَنِبَ وَحَوْلَقَ وَقَالَ : يَا قَوْمُ أَمَا تَرَوْنَ إِلَى الْعَبَّاسِ بْنِ الْأَحْنَفِ ، مَا يَكْفِيهِ أَنْ يَفْجَرَ حَتَّى يَكْفُرَ؟ مَتَى كَانَتِ الْقَبَائِحُ وَالْفَضَائِحُ وَالْعُيُوبُ وَالذُّنُوبُ مَحْمُولَةً عَلَى الْقَدَرِ؟ وَمَتَى قَدَّرَ اللَّهُ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ وَقَدْ نَهَى عَنْهَا ، وَلَوْ قَدَّرَهَا كَانَ قَدْ رَضِيَ بِهَا ، وَلَوْ رَضِيَ بِهَا لَمَا عَاقَبَ عَلَيْهَا ، لَعَنَ اللَّهُ الْعَزَلَ إِذَا شِيبَ بِمَجَانَةٍ ، وَالْمَجَانَةَ إِذَا قُرِنَتْ بِمَا يَقْدَحُ فِي الدِّيَانَةِ . وَرَأَيْتُ أَبَا صَالِحِ الْهَاشِمِيِّ يَقُولُ لَهُ : هَوْنٌ عَلَيْكَ يَا شَيْخَ ، فَلَيْسَ هَذَا كُلُّهُ عَلَى مَا تَظُنُّ ، الْقَدَرُ يَأْتِي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، وَيَتَعَلَّقُ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَيَجْرِي بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَهُوَ سَرُّ اللَّهِ الْمَكْتُومِ ، كَالْعِلْمِ الَّذِي يَحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ ؛ وَكُلُّ مَا جَارَ أَنْ يَحِيطَ بِهِ عِلْمٌ جَارَ أَنْ يَجْرِيَ بِهِ قَدَرٌ ، وَإِذَا جَارَ هَذَا جَارَ أَنْ يَنْشُرَهُ خَبَرٌ ، وَمَا هَذَا التَّضَاقُوقُ وَالتَّحَارُجُ فِي هَذَا

المكان، والشاعرُ يَهْزِلُ وَيَجِدُّ، وَيَقْرُبُ وَيَبْعُدُ، وَيُصِيبُ وَيُخْطِئُ، ولا يُوَاخِذُ بما يُوَاخِذُ به الرَّجُلُ الديان، والعالم ذو البيان.

ولا طَرَبَ ابن المَهْدِيِّ على جارية بنت خاقان المشهورة بعلوة إذا غنَّت:

أُرْوَعُ حين يأتيني الرسولُ وأُكَمِّدُ حين لا يأتي الرسولُ
أؤمِّلُكم وقد أيقنْتُ أني إلى تكذيبِ آمالي أوَّلُ

ولا طَرَبَ أبي طاهر بن المقتعي المعدل على علوان غلام ابن عرس فإنه إذا حَضَرَ وألقى إزاره، وحلَّ أزاره، وقال لأهل المجلس: اقترحوا واستفتحوا فإنني ولدكم بل عبدكم لأخدمكم بغنائي، وأتقرب إليكم بولائي، وأساعدكم على رخصي وغلائي؛ مَنْ أَرَادَنِي مَرَّةً أَرَدْتُهُ مَرَّاتٍ، ومن أَحَبَّنِي رِيَاءَ أَحَبَّتِهِ إِخْلَاصاً، وَمَنْ بَلَغَ بِي بَلْغْتُ بِهِ؛ لم أُنْخَلْ عليكم بحُسْنِي وظُرْفِي، ولم أُنْفَسْ بهما عليكم، وإنما خِلَقْتُ لَكُمْ، وَلَمْ أَغَاضِبْكُمْ وأنا أُمْلِكُكُمْ غَدًا إِذَا بَقَلَ وَجْهِي، وتَدَلَّى سِبَالِي، وَوَلَّى جَمَالِي، وَتَكَسَّرَ خَدْيِي، وَتَعَوَّجَ قَدْيِي، ما أصنع؟ حاجتي واللَّهِ إليكم غداً أَشَدُّ من حاجتكم إليَّ اليوم، لَعَنَ اللَّهُ سُوءَ الْخَلْقِ، وَعُسْرَ الطَّبَاعِ، وَقِلَّةَ الرِّعَايَةِ، واستحسانَ الغدر. فيمُرُّ في هذا وما أَشَبَّهُه كلامٌ كثير، فلا يَبْقَى مِنَ الْجَمَاعَةِ أَحَدٌ إِلَّا وَيَنْبُضُ عِرْفُهُ، وَيَهْشُ فُؤَادُهُ، وَيَذْكُرُ طَمَعُهُ وَيَفْكُهُ قَلْبُهُ، وَيَتَحَرَّكُ سَاكِنُهُ، وَيَتَدَغْدَغُ رُوحُهُ، وَيَوْمِي إِلَيْهِ بِقُبْلَتِهِ، وَيَغْمِزُهُ بِطَرْفِهِ، وَيُخْصِصُهُ بِتَحِيَّةٍ، وَيَعْدُهُ بِعَطِيَّةٍ، وَيُقَابِلُهُ بِمَدْحَةٍ، وَيُضَمِّنُ لَهُ مَنَحَةً، وَيُعَوِّدُهُ بِلسَانِهِ، وَيُفَضِّلُهُ عَلَى أَقْرَانِهِ، وَيَرَاهُ وَاحِدَ أَهْلِ زَمَانِهِ؛ فَيَرَى ابْنَ الْمُقْتَعِيِّ وقد طَارَ فِي الْجَوِّ، وَحَلَقَ فِي السَّكَاكِ، وَلَقَطَ بِأَنَامِلِهِ التُّجُومَ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى الْجَمَاعَةِ بِفَرَحِ الْهَشَاشَةِ، وَمَرَجِ الْبَشَاشَةِ، فيقول: كيف ترون اختياري وأين فراستي من فِرَاسَةِ غَيْرِي، أَيْ اللَّهُ لِي إِلَّا مَا يَزِينُنِي، وَلَا يَشِينُنِي، وَيَزِيدُ فِي جَمَالِي، وَلَا يَنْقُصُ مِنْ حَالِي؛ وَيَقْرَأُ عَيْنِي وَلُبِّي، وَيَقْصِمُ ظَهْرَ عَدُوِّي؛ هَاتِ يَا غَلَامُ ذَلِكَ الثَّوبَ الدِّيْقِيَّ وَذَلِكَ الْبُرْدَ الشَّطْوِيَّ، وَذَلِكَ الْفَرْجَ الرُّومِيَّ، وَتِلْكَ السَّكَّةَ الْمُطْيِيَّةَ، وَالْبَحُورَ الْمَدْحَرَّ فِي الْحَقَّةِ، وَهَاتِ الدِّينَارَ الَّذِي فِيهِ مَائَةٌ مِثْقَالِ أَهْدَاهُ لَنَا أَمْسَ أَبُو الْعَلَاءِ الصَّيْرَفِيُّ فَإِنَّهُ يَكْفِيهِ لِنَفَقَةِ أَسْبُوعٍ؛ مَا أَحْسَنَ سِكَتَهُ، وَأَخْلَى نَقْشَهُ! مَا رَأَيْتُ فِي حُسْنِ اسْتِدَارَتِهِ شِبْهًا، وَعَجَّلْ لَنَا يَا غَلَامُ مَا أَذْرَكَ عِنْدَ الطَّبَاحِ، مِنَ الدَّجَاجِ وَالْفِرَاحِ؛ وَالْبَوَارِدِ وَالْجُوزِيَّاتِ وَتَزَايِينِ الْمَائِدَةِ؛ وَصِلْ ذَلِكَ بِشَرَاءِ أَقْرَاطِ وَجْنِي وَزَيْتُونٍ مِنْ عِنْدِ كَبَلِ الْبَقَالِ فِي الْكَرْخِ، وَقَطَائِفِ حَبَشٍ، وَفَالْوَدَجِ عُمَرُ، وَفُقَّاعَ زُرَيْقٍ، وَمُخْلَطَ خُرَاسَانَ مِنْ عِنْدِ أَبِي زُبُورٍ، وَلَوْ كُنَّا نَشْرَبُ لَقُلْنَا: وَشَرَابِ صَرِيفِينَ مِنْ عِنْدِ ابْنِ سُورِينَ، وَلَكِنْ إِنْ أَحْبَبْتُمْ أَنْ أَخْضِرَ بِسَبِّبِكُمْ وَمَنْ أَجْلِكُمْ فَلَيْسَ فِي الْفَتْوَةِ أَنْ أُمْتَنِعَ مِنْ أَرِيكُمْ بِسَبِّبِ ثِقَلِ رُوحِي وَقِلَّةِ مُسَاعِدَتِي، لَعَنَ اللَّهُ الشَّهَادَةَ، فَقَدْ حَبَّبْتَنِي عَنْ كُلِّ شَهْوَةٍ وَإِرَادَةٍ؛ وَمَا أَعْرِفُ فِي الْعَدَالَةِ، إِلَّا قُوَّةَ الطَّلَبَةِ وَالْعَالَةِ.

وما أَحْسَنَ ما قالَ مَنْ قالَ :

ما العَيْشُ إلا في جُنُونِ الصُّبَى فإنْ تولَّى فُجِنُونِ المُدَامِ
هذا كُلُّهُ يَمُرُّ وما هو أَشَجَى مِنْهُ وأَرْقُ، وأعَجَبُ وأظرفُ، ثم يَنْدَفِعُ علَوانٍ
ويغني في آياتِ بَشَارِ :

ألا يا قَومُ خَلُّوني وشاني فلستُ بتاركِ حُبِّ الغواني
نَهوني يا عُبيدَةَ عَنْ هَواكِمْ فلمْ أَقبلْ مِقالَةَ مَنْ نَهاني
فإن لم تُسَعِفني فَعِدِّي ومَنِّي خِداعاً لا أُموتُ على بَيانٍ
ولا طَرِبَ أبي سَعِيدِ الرَّقِيّ على غناء مذكُورَةٍ إذا اندَفَعَتْ وغَثَتْ :

سررتُ بهجرَكَ لما عَلِمْتُ بأنَّ لِقَلْبِكَ فيه سُرُوراً
ولولا سُرُورُكَ ما سَرَنِي ولا كانَ قلبي عليه صَبُوراً
ولكنْ أرى كُلَّ ما ساءَني إذا كانَ يُرضيك سَهلاً يسيراً
ولا طَرِبَ ابن مَيَّاس على غِناء حَبَابَةِ جاريةِ أبي تَمَّامٍ إذا غَثَتْ :

صَدَدْنَا كَأَنَّا لا مَوَدَّةَ بَيْنَنا على أَنَّ طَرَفَ العَيْنِ لا بُدَّ فاضِحُ
ومَدَّ إلينا الكاشِحُونَ عُيُونَهُمْ فلمْ يَبْدُ مِنَّا ما حَوَّثَهُ الجَوانِحُ
وصافحتُ من لاقَيْتُ في البيتِ غَيْرَها وكلُّ الهَوَى مِنِّي لَمَنْ لا أَصافِحُ

وحَبَابَةُ هُذِهِ كانت تَنُوحُ أيضاً، وكانت في النُّوحِ واحدةٌ لا أُختَ لها، والناسُ
بالعراق تَهالِكُوا على نُوحِها، ولولا أَنِّي أَكرَهُ ذِكرَهُ لَرَفَعْتُ الحديثَ بِهِ . وقَدِمَ مِنْ شاشِ
خُرَاسَانَ أبو مُسْلِمٍ - وكان في مرتبة الأَمراء - فاشترَها بثلاثين أَلْفَ دِرْهَمٍ مِعْزِيَةً،
وخرج بها إلى المَشْرِقِ، فقيل : إنَّها لم تَعِشْ بِهِ إلا دُونَ سَنَةٍ لَكَمَدَ لِحِقَها، وهَوَى لها
بِغَداد ماتت مِنْهُ .

ورأيتُ لها أُختاً يُقال لها صَبَابَةُ، وكانت في الحُسْنِ والجمال فَوْقَها، وفي
الصَّنْعَةِ والحِذْقِ دونَها، وَزَلَزْتُ هُذِهِ بِغَدادَ في وَقْتِها، ولم يَكُنْ لِلناسِ غَيْرُ حديثِها،
لنَوادِرِها، وحاضِرِ جوابِها، وَجِدَّةِ مِزاجِها، وسُرْعَةِ حَرَكتِها، بغيرِ طَيْشٍ ولا إفراطٍ،
وهذه سَمائِلُ إذا اتَّفَقَتْ في الجَواري الصانعاتِ المُحْسِناتِ خَلْبَنَ العُقُولِ، وَخَلَسْنَ
القلوبَ، وَسَعَرْنَ الصُّدُورَ، وَعَجَلْنَ بِعُشاقِهِنَّ إلى القُبُورِ .

ولا طَرِبَ الكِنانِيُّ المُقَرِّئُ الشَّيخُ الصالِحُ على غِناء هُذِهِ في صَوْتِها
المعروفِ بها :

عهودُ الصُّبَى هاجَتْ لِي اليَوْمَ لَوَعَةً وذكرُ سُلَيْمٍ حينَ لا يَنْتَفِعُ الذِّكْرُ
بأَرْضِها كانَ الهَوَى غَيْرَ عازِبٍ لَدَيْنَا وَغَضُّ العَيْشِ مُهْتَصِرٌ نَضِرُ

كَأَنَّ لَمْ نَعِشْ يَوْمًا بِأَجْرَاعِ بَيْشَةٍ بِأَرْضِ بِهَا أَنْشَأَ شَيْبَتَنَا الدَّهْرُ
بَلَى إِنَّ هَذَا الدَّهْرَ فَرَّقَ بَيْنَنَا وَأَيُّ جَمِيعٍ لَا يَفْرُقُهُ الدَّهْرُ
وَلَا طَرَبَ غَلَامٍ بَابَا عَلَى جَارِيَةِ أَبِي طَلْحَةَ الشَّاهِدِ فِي سُوقِ الْعَطَشِ إِذَا غَنَّتْ:
لَيْتَ شِغْرِي بِكَ هَلْ تَعُدُّ لَمْ أَتِي لَكَ عَانِي
فَلَقَدْ أَسْرَزْتُهِ مِنْ كَ وَأَطْلَعْتُ الْأَمَانِي
وَتَوَهَّمْتُكَ فِي نَفْسِ سَيِّ فَنَاجَاكَ لِسَانِي
فَاجْتَمَعْنَا وَافْتَرَقْنَا بِالْأَمَانِي فِي مَكَانٍ

ولو ذَكَرْتُ هَذِهِ الْأَطْرَابَ مِنَ الْمُسْتَمْعِينَ، وَالْأَغَانِي مِنَ الرُّجَالِ وَالصُّبَّانِ
وَالْجَوَارِي وَالْحَرَائِرِ - لَطَالَ وَأَمَلَّ، وَزَاخَمْتُ كُلَّ مَنْ صَنَّفَ كِتَابًا فِي الْأَغَانِي
وَالْأَلْحَانِ، وَعَهْدِي بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَةً سِتِّينَ وَثَلَاثُمِائَةً.

وقد أَحْصَيْنَا - وَنَحْنُ جَمَاعَةٌ فِي الْكَرْخِ - أَرْبَعُمِائَةً وَسِتِّينَ جَارِيَةً فِي الْجَانِبَيْنِ،
وَمِائَةً وَعِشْرِينَ خُرَّةً، وَخَمْسَةً وَتِسْعِينَ مِنَ الصُّبَّانِ الْبُدُورِ، يَجْمَعُونَ بَيْنَ الْحِذْقِ
وَالْحُسْنِ وَالظَّرْفِ وَالْعِشْرَةِ، هَذَا سِوَى مَنْ كُنَّا لَا نَنْظُرُ بِهِ وَلَا نَصِلُ إِلَيْهِ لِعِزَّتِهِ وَحَرَسِهِ
وَرُقْبَائِهِ، وَسِوَى مَا كُنَّا نَسْمَعُهُ مِمَّنْ لَا يَتَظَاهَرُ بِالْغِنَاءِ وَبِالضَّرْبِ إِلَّا إِذَا نَشِطَ فِي وَقْتِ،
أَوْ ثَمِلَ فِي حَالِ، وَخَلَعَ الْعِذَارَ فِي هَوًى قَدْ حَالَفَهُ وَأَضْنَاهُ، وَتَرْتَّمْ وَأَوْقَعَ، وَهَزَّ رَأْسَهُ،
وَصَعَّدَ أَنْفَاسَهُ، وَأَطْرَبَ جُلَاسَهُ، وَاسْتَكْتَمَهُمْ حَالَهُ، وَكَشَفَ عَنْهُمْ حِجَابَهُ، وَادَّعَى
الثِّقَّةَ بِهِمْ، وَالِاسْتِئْذَانَ إِلَى حِفَاطِهِمْ.

ثم إِنِّي أَرْجِعُ إِلَى مُنْقَطَعِ الْكَلَامِ فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى مِنْ هَذَا الْجُزْءِ الثَّالِثِ وَأَصِلُهُ
بِالدُّعَاءِ الَّذِي أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَقْبَلَهُ فَيْكَ، وَيَحَقِّقَهُ لَكَ وَبِكَ، وَأَقُولُ: وَأَبْقَاكَ لِي خَاصَّةً،
فَقَدْ تَعَصَّبْتُ لِي غَائِبًا وَشَاهِدًا، وَتَعَمَّمْتُ بِسَبَبِي سِرًّا وَجَهْرًا، وَبَدَأْتُ بِالتَّفَضُّلِ، وَغَدَتُ
بِالْإِفْضَالِ، وَتَظَاهَرْتُ بِالْفَضْلِ؛ فَإِنْ اسْتَزِدْتُكَ فَلِلَّهِمُ الَّذِي قَلَّمَا يَخْلُو مِنْهُ بَشَرٌ، وَإِنْ
تَظَلَّمْتُ فَلِلدَّالَةِ الَّتِي تَغْلَطُ بِهَا الْخَدَمُ، وَإِنْ خَاشَتُ فَلِلثِّقَةِ بِحُسْنِ الْإِجَابِ، وَإِنْ
غَالِظْتُ فَلِإِعْلَمِي بِغَالِبِ الْجِلْمِ وَفَرْطِ الْإِحْتِمَالِ، وَمَا افْتَرَقَ الْكِرْمُ وَالتَّغَاوُلُ قَطًّا، وَمَا
افْتَرَقَ الْمَجْدُ وَالْكَيْسُ قَطًّا، وَلَيْسَ إِلَّا أَنْ يَظْلَمَ السَّيِّدُ نَفْسَهُ لِعَبْدِهِ فِي الْحَقُوقِ اللَّازِمَةِ
وغيرِ اللَّازِمَةِ، وَيُعْرِضَ عَنِ الْحِجَّةِ وَإِنْ كَانَتْ لَهُ؛ وَالنَّاسُ يَقُولُونَ: الْحَقُّ مَرٌّ، وَأَنَا
أَقُولُ: السُّوْدُودُ مَرٌّ، وَالرَّئِاسَةُ ثَقِيلَةٌ، وَالتَّزْوُلُ تَحْتَ الْعَيْنِ شَدِيدٌ؛ لَكِنْ ذَلِكَ كُلُّهُ مَنِئُتُ
الْعِزِّ، وَدَلِيلٌ عَلَى صِحَّةِ الْأَصْلِ، وَبَابٌ إِلَى اكْتِسَابِ الْحَمْدِ، وَإِشَادَةِ الذِّكْرِ، وَإِبْعَادِ
الصُّيُتِ؛ وَمُكْرِمُ النَّفْسِ بِإِهَانَةِ الْمَالِ وَبَذْلِ الْجَاهِ وَإِثَارِ التَّوَاضُّعِ أَرْبَحُ تِجَارَةً، وَأَحْمَى
حَرِيمًا، وَأَعَزُّ نَاصِرًا مِنْ مُهِينِ النَّفْسِ بِصِيَانَةِ الْمَالِ وَحُبْسِ الْجَاهِ وَاسْتِعْمَالِ التَّكْبَرِ؛ هَذَا

ما لا يَشْكُ فيه أحد وإن أباه طباغُه، ولم يُساعدَه اختيارُه، وكان في طَبِينِه يُبْس، وفي مَنَبَتِه شَوْك، وفي عِرْقِه خَوْر، وفي خُلْقِه تِه.

وقد رأيتُ ناساً من عَظَماءِ أَهْلِ الفَضْلِ والمُروءَةِ عابوا مَذَهَبَ الرُّجُلِ الذي مَآكَسَ في شَيءٍ تافِهٍ يسير اشتراه، قيل له: أنت تَهَبُ أَضعافَ هذا، فما هذا المِكَاسُ؟! فقال: هذا عَقْلِي أَبْخَلَ به، وتلك مُروءَتِي أَجود بها.

وأكثرُ الناسِ الذين لم يَغُورُوا في التَّجَارِبِ، ولا أَنَجِدُوا في الحَقائِقِ، يَرَوْنَ هذا حِكْمَةً تامَّةً، وفضيلةً شريفةً.

فأمَّا الذين ذكُرَتْهم في أوَّلِ الحديثِ فإنهم قالوا: لا تتمُّ المُرُوءَةُ وصاحبُها يَنْظُرُ في الدَّقِيقِ الحَقِيرِ، ويُعيدُ القَوْلَ ويُبدئُه في الشَيءِ النَّزِرِ الذي لا مَرَدَّ له ظاهر، ولا جَدْوَى حاضرة.

وذكروا أيضاً أَنَّ العَقْلَ أَشْرَفُ من أن يُذَالَ في مِثْلِ هذه الحال، ويُستخدَمَ على هذا الوجه، قالوا: هذا وما هو في بابِه بالكَيْسِ أَشْبَهَ، والكَيْسُ يُحَمَّدُ في الصُّبْيَانِ، وهو من مبادئ اللُّؤْمِ، وفوائِحِ صَدِّ الخُلُقِ، وقد قال الأوَّلُ:

وقد يَتَغَابَى المَرْءُ عن عَظَمِ مالِه ومن تَخَتَ بُرْدِيهِ المُغِيرَةُ أو عَمُرُو
ولذلك يقال للحيوان الذي لا يَنْطِقُ: هو كَيْسٌ.

هذا والله الصُّدُق، فإني سمعتُ بمَكَّةَ أَعْرَابِيًّا يقول: ما أَكَيْسَ هَذَا القِطُّ؟! قالوا: ولذلك لا يقال للشَّيْخِ المَجْرُبِ والحَكِيمِ البليغ والأصِيلِ في الشَّرَفِ والمشهورِ بِالزَّماتَةِ والسَّكِينَةِ: كَيْسٌ. والكَيْسُ هو حَدَّةُ الحِجْسِ في طَلَبِ المَثالَةِ ودَفْعِ الكَرِيهَةِ وبلوغِ الشَّهْوَةِ. والحِجْسُ بعيدٌ من العَقْلِ، والعالي في الحِجْسِ كَأَنَّهُ يَزْتَقِي في وادي الحيوان الذي لا تُطَقُّ له، والعالي في العَقْلِ كَأَنَّهُ مَطْمِئُنٌّ في وادي المَلِكِ الذي لا حِجْسَ له، والمَلِكُ لم يَغْدَمْ الحِجْسَ لِنَقْصِهِ، ولكن لِكَمالِهِ، لأنَّهُ غَنِيَ عنه، كما أَنَّ الحِمَارَ لم يَغْدَمْ العَقْلَ لِكَمالِهِ، ولكن لِنَقْصِهِ ولما لم يُرَدَّ من الحِمَارِ أن يكون إنساناً جَبِلَ على ما هو له وبه كاملٌ في نَقْصِهِ، أي هو كاملٌ بما هو به حِمَارٌ وناقصٌ بما ليس هو به إنساناً؛ ولما لم يُرَدَّ من الإنسان أن يكون حِمَاراً حُفِظَ عليه ما هو به إنسان، ودُرِّجَ إلى كمال الملك الذي هو به شبيه؛ وهذا التدرِجُ طَريقُهُ على الاختيار الجيِّد والتوفيق السابق.

وَبَعْدَتْ - جعلني الله فداك - عن مَنهَجِ القَوْلِ وَسَنَنِ الحديثِ، وَأَطَعْتُ داعِيَةَ الوَسْوَاسِ، وَذَهَبْتُ مع سائِحِ الوَهْمِ؛ وقد قيل: «الحديثُ ذُو شُجُونٍ». وقد قال الأوَّلُ:

ولمَّا قَضَيْنَا من مَنى كُلِّ حاجَةٍ وَمَسَّحَ بالأركانِ مَنْ هُوَ ماسِحُ
أَخَذْنَا بِأَطْرافِ الأحاديثِ بَيْنَنَا وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأباطِحِ

فأزجُ وأقول:

قد أوصلت إليك الجزأين الأول والثاني على يد غلامك فائق؛ وهذا الجزء - وهو الثالث - قد والله نفثت فيه كل ما كان في نفسي من جد وهزل، وغث وسمين، وشاحب ونضير، وفكاهة وطيب، وأدب واحتجاج، واعتذار واعتلال واستدلال، وأشباه من طريف الممالحة على ما رسم لي، وطلب مني؛ ولأنه آخر الكتاب ختمته برسالة وصلتها بكلام في خاص أمري ستقف عليه، وتستأنف نظراً في حالي، يكون - إن شاء الله - كظني بك، ورجائي فيك؛ وفيه بعض العربدة لم أخرج منه إلى كفران لنعمة، ولا جحد لإحسان، ولا ستر ليد، ولا إنكار لمعروف، ولا شك في عناية؛ وإنما تكلمت على مذهب المدلل المقل الذي يبعثه إقلاله على تجاوز قدره بالدالة، ويربع به إذلاله عن حسن أدبه بقرط الثقة؛ ورُب واثق حجل؛ وبالله المعاذ من ذلك، وفي الحالين صاحب هذا المذهب لا يخلو من ولاء صحيح المغتقب، وعقيدة كسيكة الذهب؛ وأنت بكرم طباعك، وسعة باعك، تجبر نقصي، وتأسو ما غث من جراحي، وأما اهتمامي؛ ومن كان إخوانك إليه مشكوراً، وتغذيرك عنده مستوراً، لخليق أن يكون على بالك خاطراً، ويلسانك مذكوراً، والسلام.

وها أنا أخذ في نشر ما جرى على وجهه إلا ما اقتضى من الزيادة في الإبانة والتفريب، والشرح والتكشيف.

وقد جمعت لك جميع ما شاهدته في هذه المدة الطويلة، ليكون حظك من الكرم والمجد مؤفوراً، ونصيب من اهتمامك بأمرى وجذبك بباعي وإنقاذك إيتاي من أسري تاماً، فظني واعد بأنك تبليغ بي ما أمله فيك وتتجاوزته وتتطاول إلى ما فوقه، لأزداد عجباً مما خصك الله به، وأفردك فيه؛ وأتحدث على مر الأيام بغريبه، وأحس كل من أراه بغدادك على سلوك طريقك في الخير، ولزوم منهاجك في الجميل، والدبونة بمذهبك المستقيم، وأكابد أصحابنا ببغداد؛ وأقول لهم: هل كان في حسابكم أن يطلع عليكم من المشرق من يزيد ظرفه على ظرفكم، «ويبعث بعلمه على علمكم»، ويبرز هذا التبريز في كل شيء تفخرون به على غيركم، فأنظرهم فيك وبسبك، لا مناظرة الحنبلين مع الطبريين؛ وأتعصب لك، لا تعصب المفضلين والبرغوثيين؛ وأجادل من أجلك، لا جدل الزيديين مع الإماميين؛ وأدعي في فضائل الظاهرة والباطنة دغوى أقوى من دغوى الشيعة، وأضرب في ذلك كل مثل، وأستعين بكل سجع، وأزوي كل خبر، وأنشد كل بيت، وأعبر كل رؤيا، وأقيم كل برهان، وأستشهد كل حاضر وغائب، وأتأول كل مشكل وغامض، وأضيف إليك الآية بعد الآية، والمعجزة بعد المعجزة، وأنصت لكل ضريبة، وأدعي كل غريبة؛ هذا ولا أخلط كلامي بالهزل، ولا أشين دغواي بالمحال، ولا أبعد الشاهد، ولا أتعلق

بالمُسْتَعْجِمِ، وَلَا أَجْنَحُ إِلَى التَّلْفِيْقِ وَالتَّلْزِيْقِ؛ وَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ هَذَا وَلِيَّ فِي قَوْلِ الْحَقِّ
فِيكَ مَنُذُوحَةٌ، وَفِي تَقْدِيمِ الصَّدَقِ عَلَى غَيْرِهِ كَفَايَةٌ، وَفِي نَشْرِ الْمَطْوِيِّ مِنْ فَضْلِكَ
بَلَاغٌ؟ وَإِنَّمَا يَمِيلُ إِلَى الْكَذِبِ مَنْ قَعَدَ بِهِ الصَّدَقُ، وَيَتَيَمَّمُ بِالصَّعِيدِ مَنْ فَاتَهُ الْمَاءُ،
وَيَحْلُمُ بِالْمُنَى مَنْ عَدِمَ الْمُتَمَنَّى فِي الْيَقَظَةِ؛ فَأَمَّا أَنْتَ وَقَدْ أَلْبَسَكَ اللَّهُ رِْدَاءَ الْفَضْلِ،
وَأَطْلَعَكَ مِنْ مَنَبَتِ كَرِيمٍ، وَدَرَجَكَ مِنْ بَيْتِ ضَخْمٍ، وَأَتَاكَ الْحِكْمَةَ، وَفَتَقَ لِسَانَكَ
بِالْبَيَانِ، وَأَثَرَعَ صَدْرَكَ بِالْعِلْمِ، وَخَلَطَ أَخْلَاقَكَ بِالْإِمَانَةِ، وَشَهَرَكَ بِالْكَرَمِ، وَخَفَّفَ
عَلَيْكَ النُّهُوضَ بِكُلِّ مَا يُكْسِبُكَ الشُّكْرَ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ، وَبِكُلِّ مَا يَدْخُرُ لَكَ الْأَجْرُ
عِنْدَ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ، حَتَّى صِرْتَ كَهْفًا لِأَبْنَاءِ الرَّجَاءِ، وَمَفْزَعًا لَكَ لِبَنِي الْأَمَالِ؛ فَبَابُكَ
مَغْشِيٌّ مَزُورٌ، وَفِنَاؤُكَ مُنْتَابٌ وَخَوَانُكَ مَخْضُورٌ، وَعِلْمُكَ مُقْتَبَسٌ، وَجَاهُكَ مَبْدُولٌ،
وَضِيْفُكَ مُحَدَّثٌ، وَكُتُبُكَ مُسْتَعَارَةٌ، وَغَدَاؤُكَ حَاضِرٌ، وَعَشَاؤُكَ مُعَجَّلٌ، وَوَجْهُكَ
مَبْسُوطٌ، وَعَفْوُكَ مَحْمُودٌ، وَجِدُّكَ مَشْكُورٌ، وَكُلُّ أَمْرِكَ قَائِمٌ عَلَى النِّهَايَةِ، وَبَالِغُ الْغَايَةِ،
وَاللَّهُ يَزِيدُكَ وَيَزِيدُنَا بِكَ، وَلَا يَتَلَيَّنَا بِفَقْدِ مَا أَلْفَنَاهُ مِنْكَ، بِمَنِّهِ وَجُودِهِ.

الليلة التاسعة والعشرون

قال الوزير - أعز الله نصره، وأطاب ذكره، وأطار صيته - ليلة: أحب أن أسمع كلاماً في قول الله عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فإن هذا الإيجاز لم يُعهد في كلام البشر.

فكان من الجواب: إن الإشارة في «الأول» إلى ما بدأ الله به من الإبداع والتصوير، والإبراز والتكوين؛ والإشارة في «الآخر» إلى المصير إليه في العاقبة على ما يجب في الحكمة من الإنشاء والتصريف، والإنعام والتعريف، والهداية والتوقيف. وقد بان بالاعتبار الصحيح أنه عز وجل لما كان مُحجَّباً عن الأبصار، ظَهَرَتْ آثاره في صفحات العالم وأجزائه، وحواشيه وأثنائه، حتى يكون لسان الآثار داعياً إلى معرفته، ومَعْرِفَتُهُ طَرِيقاً إلى قَصْدِهِ، وقَصْدُهُ سَبَباً لِلْمَكَانَةِ عنده والحُظُوةَ لَدَيْهِ. على أنه في احتجابه بارز، كما أنه في بُرُوزِهِ مُحْتَجِبٌ؛ وبيان هذا أن الحجاب من ناحية الحسّ والبُرُوز من ناحية العقل، فإذا طُلِبَ من جهة الحسّ وَجِدَ محجوباً، وإذا لُحِظَ من جهة العقل وَجِدَ بارزاً، وهاتان الجهتان لِيَسْتَأْذِنَا له تعالى، ولكنها للإنسان الذي له الحسّ والعقل، فصار بهما كالناظر من مكانين؛ وَمَنْ نَظَرَ إلى شيء واحد من مكانين كانت نِسْبَتُهُ إلى المَنْظُورِ إليه مفترقة. وإنما شَقَّ هذا الأمر على أكثر الناس واختلفوا فيه، لأنهم راموا تحقيق ما لا يُحَسُّ بالحسّ، ولو راموا ذاك بالعقل المَخْضِ بِغَيْرِ شَوْبٍ من الحسّ، لكان المَرُومُ يَسْبِقُ الرَّائِمَ، والمَطْلُوبُ يَلُوحُ قُبَالَه الطالب من غير شك لايس، ولا ريب مُوحِش، لأنه ليس في العقل والمعقول شك، وإنما الرَّيْبُ والشُّكُّ والظَّنُّ والتَّوَهُّمُ كلُّها من علائق الحسّ وتَوابع الخلقة، ولولا هذه العوارض لَمَا اغْبَرَّ وَجْهُ العقل، ولا عَلَا شُحُوبٌ، وَلَبَقِيَ على نَصْرَتِهِ وَجَمَالِهِ وَحُسْنِهِ وَبَهْجَتِهِ. ولما كان الإنسان مَفِیضٌ هذه الأعراض في الأول، صار مَفِیضٌ هذه الأحوال في الثاني، فاستعار من العقل ثوره في وَصْفِ الأشياء الجسْمِيَّةِ جَهْلًا منه وخطأ، واستعار من ظلام الحسّ في وَصْفِ الأشياء الروحانيَّةِ عَجْزًا منه ونقصاً، ولو وُقِفَ لَوْضَعُ كُلِّ شيءٍ مَوْضِعَهُ ونُسِبَهُ إلى شكله، ولم يَزَعْ الوَضِيعُ إلى مَحَلِّ الرَّفِيعِ، ولم يَضَعْ الرَّفِيعُ في مَوْضِعِ الوَضِيعِ.

فلما بلغ الحديث هذا الحد، عَجِبَ الوزير وقال: ما أعذَّبَ هذا المورِد! وما

أَعْجَبَ هَذَا الْمَشْهَدُ! وَمَا أَبْعَدَ هَذَا الْمَقْصِدُ! وَمَا أَرَى لِمَصْنُفٍ مِنَ الْمَوْحِدِينَ مُتَّصِرًا فِي هَذَا النَّوعِ إِلَّا لِهَذِهِ الْعِصَابَةِ الْكَرِيمَةِ الْمَخْصُوصَةِ بِالْيَقِظَةِ.

وَسَأَلَ عَنْ جُشَمٍ فِي اسْمِ الرَّجُلِ مَا مَعْنَاهُ؟
فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ: إِنَّ أَبَا سَعِيدٍ السَّيرَافِيَّ الْإِمَامَ ذَكَرَ عَنْ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ أَنَّهُ يَقَالُ:
«رَجُلٌ عَظِيمُ الْجُشَمِ»، يَعْنِي وَسَطُهُ، وَمِنْهُ سُمِّيَ جُشَمًا.

وَقَالَ: مَا الْجِمَحِمُ؟ وَمَا الْخَمَخِمُ؟
فَقِيلَ: أَمَّا الْخَمَخِمُ فَبَقْلٌ يَهِيحُ فِي أَوَّلِ الصَّيْفِ وَيَنْبُتُ فَيُؤْكَلُ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ؛
وَأَمَّا الْجِمَحِمُ فَبَقْلٌ آخَرُ خَبِيثٌ مُنْتِنُ الرِّيحِ.

وَقَالَ: فَأَرَأَيْتَ الْمِسْكَ، أَتَقُولُهَا بِالْهَمْزِ؟
فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ: حَكَاهُ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ بِالْهَمْزِ.
قَالَ: عَارِضًا الرَّجُلَ مَا يُعْنَى بِهِمَا؟
قِيلَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيَّ: هُمَا شَعْرُ خَدَّيْهِ، وَلَوْ قُلْتَ لِأَمْرَدٍ: امْسَحْ
عَارِضِيكَ كَانَ خَطَأً.

وَقَالَ: سَمِعْتُ الْيَوْمَ فِي كَلَامِ ابْنِ عُبَيْدٍ: لَايْتَهُ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ أَرَادَ: لَاوْتَهُ مِنْ
الْلُوثِ لَوْتُ الْعِمَامَةِ.

فَقِيلَ: بَلْ يَقَالُ: لَايْتَهُ إِذَا تَشَبَّهَ بِاللَّيْثِ.
وَقَالَ: مَا الشَّاكِدُ؟

فَقِيلَ: الْمُعْطِيُّ مِنْ غَيْرِ مَكَافَأَةٍ.
قَالَ: أَوْتَهْمَزُ الْكَلِمَةَ؟

فَقِيلَ: إِنِّي لَوْ لَمْ أَهْمِزْ لَكَانَ مُفَاعَلَةً مِنْ كَفَيْتُ.
قَالَ: وَالثَّانِيَةُ؟ تَكُونُ مِنْ كَفَأْتُ الْإِنَاءِ. فَمَا مَعْنَاهُ؟
قِيلَ: قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: كَأَنَّهُ قَلَبَ الْحَالَ إِلَيْهِ بِالْمِثْلِ.
قَالَ: الذَّوْدُ، مَا قَدَّرَ عَدَدَهُ مِنَ الْإِبِلِ؟

فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ: أَنَّ ابْنَ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: الذَّوْدُ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ. وَإِذَا
بَلَغَتْ الْعَشْرِينَ أَوْ قَارَبَتْ فِيهِ قِطْعَةً وَضَبَّةً وَفِرْقَةً وَصِرْمَةً حَتَّى تَبْلُغَ الثَّلَاثِينَ وَالْأَرْبَعِينَ.
ثُمَّ هِيَ حُدْرَةٌ وَعَكْرَةٌ وَعَجْرَمَةٌ حَتَّى تَبْلُغَ مِائَةً. ثُمَّ هُنَيْدَةٌ. فَإِذَا بَلَغَتْ مِائَتَيْنِ فِيهِ خِطَرٌ.
وَكَذَلِكَ الثَّلَاثُمِائَةُ. فَإِذَا بَلَغَتْ أَرْبَعُمِائَةٍ فِيهِ عَرْجٌ إِلَى الْأَلْفِ، وَالْجَمَاعَةُ عُرُوجٌ. فَإِذَا
كَثُرَتْ عَنِ الْأَرْبَعِينَ وَالْخَمْسِينَ فَبَلَغَتْ مِائَةً وَزَادَتْ فِيهِ جُرْجُورٌ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ
جُرْجُورًا لِجَرَّاجِهَا وَأَصْوَاتِهَا. وَقَدْ تَسْتَعِيرُ الْعَرَبُ بَعْضَ هَذَا فَتَجْعَلُهُ فِي بَعْضٍ.

وَقَالَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْقَبْضِ وَالْقَبْضِ؟

فَقِيلَ: الْقَبْضُ لَعَدَدٍ مَا كَانَ قَلِيلًا أَوْ كَثِيرًا؛ قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: وَأَنْسَدَنِي الْعَامِرِيُّ لَابِنَ مَيَّادَةَ:

عَطَاؤُكُمْ قَبْضٌ وَيَخْفِنُ غَيْرُكُمْ وَلَلْحَفْنُ أَغْنَى لِلْفَقِيرِ مِنَ الْقَبْضِ
وَقَالَ: الْقَبْضُ بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، وَالْقَبْضُ بِالْكَفِّ، وَالْحَفْنُ بِالْكَفِّ وَالرَّاحَةُ إِلَى
فَوْقَ مَفْتُوحَةٍ قَلِيلًا. هَذَا لَفْظُهُ.

وَقَالَ: الْإِلُّ الَّذِي هُوَ الْعَهْدُ هَلْ يُجْمَعُ؟
فَقِيلَ: حَكَى ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ فِي جَمْعِهِ، فَقَالَ: إِلَّا لَوْ وَأَلُولُ.
وَقَالَ: آمَ الرَّجُلُ مَاذَا؟

فَقِيلَ: هَذَا عَلَى وَجْهِهِ؛ يُقَالُ: آمَ الرَّجُلُ يَوْمَ أَوْامًا مِنَ الْعَطَشِ؛ وَيُقَالُ آمَ
الرَّجُلُ يَوْمَ إِيَامَا، وَهُوَ الدُّخَانُ. وَآمَ الرَّجُلُ يَتِيمٌ إِذَا بَقِيَ بغيرِ حَلِيلَةٍ، وَالْأَيْمُ مُسْتَعْمَلٌ
فِي الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ.

قَالَ: هَذَا نَمَطٌ مُفِيدٌ، وَيَجِبُ أَنْ يُجْمَعَ مِنْهُ جُزْءٌ أَوْ جُزْآنِ لِيَسْهُلَ عَلَى الطَّرْفِ
الْمَجَالُ فِيهِ، فَإِنَّ الْكُتُبَ الطُّوَالَ مُسَمَّيَةً، وَإِذَا تَدَاخَلَ اللَّطِيفُ بِالْكَثِيفِ وَمَا رَقَّ بِمَا غُلِظَ
نَبَتِ النَّفْسُ، وَدَبَّ الْمَلَلُ وَالْإِنْسَانُ كَسَلُهُ مِنْ طِينِهِ، وَنَشَاطُهُ مِنْ نَفْسِهِ، وَالطِّينُ أَغْلَبَ
مِنْ النَّفْسِ.

فَكَانَ الْجَوَابُ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ لِلْأَمْرِ الْمُشْرِفِ.
قَالَ: هَاتِ حَدِيثًا يَكُونُ مَقْطُوعًا لِلْوَدَاعِ، فَإِنَّ اللَّيْلَ قَدْ عَبَسَ وَجْهَهُ، وَجَنَحَ
كَاهِلُهُ، وَأَهْدَى إِلَى الْعَيْنِ سِنَّةَ تَسْرِقِ الذَّهْنِ وَتَنْسِي الرِّأْيِ.
فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ أَنَّهُ مَرَّ بِي الْيَوْمَ حَدِيثٌ يُضَارِعُ مَا جَرَى مُنْذُ لَيَالٍ فِي فِسَادِ
النَّاسِ وَحُؤُولِ الزَّمَانِ، وَمَا ذَهَمَ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ فِي حَدِيثِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ الْعَمُودُ
وَالدُّعَامَةُ فِي عِمَارَةِ الدَّارَيْنِ، وَقَدْ طَالَ تَعَجُّبِي مِنْهُ، وَصَحَّ عِنْدِي أَنَّ الدَّاءَ فِي هَذَا
قَدِيمٌ، وَالْوَجَعُ فِيهِ أَلِيمٌ.

قَالَ: فَهَاتِ فَتَشْيِيكَ قَدْ رَغَبَ شَدِيدًا، وَغَرَامُكَ قَدْ بَعَثَ جَدِيدًا.
فَكَانَ مِنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سَلَامٍ قَالَ فِيمَا حَدَّثَنَا بِهِ أَبُو السَّائِبِ
الْقَاضِي عُثْبَةُ بْنُ عُبَيْدٍ اللَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا السَّكْرِيُّ أَبُو سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ:
سَمِعْتُ يُونُسَ يَقُولُ: فَكَّرْتُ فِي أَمْرِ فَاسَمَعُوهُ. قُلْنَا: هَاتِهِ. قَالَ: كُلُّ مَنْ أَصْبَحَ عَلَى
وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ إِلَّا أُمَّتَنَا^(١) هَذِهِ؛ وَالسُّلْطَانُ وَمَنْ يُطِيفُ بِهِ هَلْكَى إِلَّا قَلِيلًا،

(١) يريد بهم أهل طبقته، كما يدل على ذلك سياق القصة.

فإذا قَطَعْتَ هذه الطَبَقَةَ حتى تبلغ الشَّامَ فأَكَلُهُ رَبًّا وَبَاغِيَةً وَشَرَبُهُ خَمْرٍ وَبَاعْتُهَا إِلَّا قَلِيلاً،
فإذا خَلَّفْتَ هذا الرَّمْلَ حتى تَأْتِيَ رَمْلَ يَبْرِينَ وَأَعْلَامَ الرُّومِ فلا غَسَلَ من جَنَابَةٍ، ولا
إِسْبَاغَ وَضُوءٍ، ولا إِتِمَامَ صَلَاةٍ، ولا عِلْمَ بِحُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ إِلَّا
قَلِيلاً؛ فإذا صِرْتَ إِلَى الْأَمْصَارِ فَأَصْحَابُ هذه الْكَرَاسِيِّ ليسَ مِنْهُمْ إِلَّا ذَنْبٌ مُسْتَعِزٌّ
بَذَنِّهِ، يَخْتَلِكُ عن دِينَارِكَ وَدِرْهَمِكَ، يَكْذِبُ، وَيَبْخَسُ في المِيزَانِ، وَيَطْفُفُ في
الْمِكَيَالِ، إِلَّا قَلِيلاً؛ فإذا صِرْتَ إِلَى أَصْحَابِ الْعَلَاتِ الَّذِينَ كُفُّوا الْمُؤُونَةَ وَأُنْعِمَ عَلَيْهِمْ
وَجَدْنَهُمْ يُمَسِّي أَحَدَهُمْ سَكَرَانَ وَيُضْبِحُ مَخْمُوراً، إِلَّا قَلِيلاً، ومعِيَ وَاللَّهُ مِنْهُمْ قَطِيعٌ في
الدارِ، فإذا صِرْتَ إِلَى قَوْمٍ لَمْ يُنْعَمْ عَلَيْهِمْ بِمَا أُنْعِمَ عَلَى هَؤُلَاءِ، وَهُمْ يَشْتَهُونَ مَا
يَشْتَهِي هَؤُلَاءِ، فَوَاحِدٌ لِيصَّ، وَآخَرُ طَرَّارٌ^(١)، وَآخَرُ مُسْتَقْفٍ^(٢) إِلَّا قَلِيلاً، فإذا صِرْتَ
إِلَى أَصْحَابِ هذه السَّوَارِي^(٣)، فهذا يَشْهَدُ عَلَى هذا الْكُفْرِ. وهذا يَبْرَأُ من هذا، وَاللَّهُ
لَنْ لَمْ يَعْمَنَا اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ إِنَّهَا لِلْفَضِيحَةِ.

فقال الوزير: لقد شَرَّدْتَ النُّومَ عن عَيْنِي، وَمَلَأْتَ قَلْبِي عَجَباً، فَإِنَّ الْأَمْرَ
لَكُمَْا قَالَ، فإذا كَانَ هذا قَوْلُهُ في عَصْرِهِ، وَشَجَرَةُ الدِّينِ عَلَى نَضَارَةِ أَغْصَانِهَا
وُخْضِرَةُ أَوْرَاقِهَا، وَيَنْعُ ثِمَارُهَا، فَمَا قَوْلُهُ - تُرَى - فِينَا لَوْ لَحِقْنَا، وَأَذْرَكَ زَمَانَنَا، إِنَّا
لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

(١) الطرار هو الذي يشق كمنك ويستل ما فيه.

(٢) يقال استقفاه إذا جاء من خلفه وحزبه بالعصا على قفاه.

(٣) سوارى المسجد وعمده ويريد بأصحابه العلماء.

الليلة الثلاثون

وقال الوزير - أدام الله أيامه - : سراويل يُذَكِّرُ أم يُؤَنِّثُ ، ويُصَرِّفُ أم لا ؟
فكان الجواب : أن علي بن عيسى حَدَّثَنَا عن شيخه ابن السراج قال : سألت المبرِّدَ
فقلت : إذا كان الواحدُ في صِيعَةِ الجَمْعِ ما يُصْنَعُ به في الصَّرْفِ في مثل شَعْرِهِ هَرَامِيلُ
وهذه سَراويل وما أَشْبَهه ، فقال : أَلَحِقَهُ بالجمع فامْتَنَعَه الصَّرْفُ ، لأنَّه مِثْلُهُ وشِيعُهُ .
قال : وسألتُ أَحْمَدَ بنَ يَحْيَى عن ذلك ، فقال : أَخْبَرَنَا سَلَمَةُ عن القَرَاءِ قال :
أَلَحِقَهُ بِأَحْمَدَ فامْتَنَعَه الصَّرْفُ في المَعْرِفَةِ ، وَاصْرِفْهُ في التَّكْرَةِ حتَّى يكون بين الواحدِ
والجمع فَرْقٌ .

وسأل فقال : ما واحد المناخِبِ والمناجِبِ وما حُكْمُهُما ؟
فكان من الجواب : واحد المناخِبِ مُنْخَابٌ ، يُمدح به ويُذَمُّ ، فإذا كان مَذْحاً
فهو مَأْخُودٌ مِنَ النَّخْبِ ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذَمًّا فهو مَأْخُودٌ مِنَ النَّخْبَةِ ، وهي
الاست . قال : وهكذا المِنْجَابُ يكون مَذْحاً وَذَمًّا ، فإذا كان مَذْحاً فهو مَأْخُودٌ مِنَ
الانتجاب ، وهو الاختيار ، وإذا كان ذَمًّا فهو مَأْخُودٌ مِنَ النَّجَبِ ، وهو قِشْرُ الشَّجَرِ .

قال : ما معنى قولهم : امرأةٌ عَرُوبٌ ؟
فكان من الجواب أن مُحَمَّدَ بنَ يَزِيدٍ قال - على ما حَدَّثَنَا به أبو سعيد وابن
السراج عنه - إنه من الأضداد ، وهي المتحِبَّةُ إلى زوجها ؛ وهي الفاسدة ، مأخُودٌ مِنَ
قولهم : عَرِبَتْ مَعَدَّتُهُ إذا فَسَدَتْ .

وقال : الضَّهْيَاءُ يُمَدُّ وَيُقْصَرُ ؟
فكان من الجواب أن ابنَ الأَعرابيِّ قال : الَّذِي حَصَلَتْهُ عن الأَغْرَابِ أَنَّ الضَّهْيَاءَ
الْمَمْدُودَةُ هي التي لا تَحْيِضُ ، وأن المقصورة هي الياسمين ، وَجَمْعُ الأوَّلِ ضَهْيِي
وَجَمْعُ الْمَقْصُورِ ضَهَايَا .

قال : ما مَعْنَى المَنْدَلِيِّ المَطِيرِ ؟
فكان من الجواب : أن ابنَ الأَعرابيِّ قال : هو مقلوب المَطَرِيِّ .

وقال : أَنَشِدْنِي غَزْلاً . فَأَنشَدْتُهُ ما حَضَرَ في الوَقْتِ لأَعرابيِّ :
أَمْرٌ مُجْتَبَأٌ عَنِ بَيْتِ سَلَمَى وَلَمْ أَلْمِمْ بِهِ وَبِهِ الْعَلِيلُ
أَمْرٌ مُجْتَبَأٌ وَهَوَايَ فِيهِ وَطَرَفِي عَنْهُ مُنْكَسِرٌ كَلِيلُ

وَقَلْبِي فِيهِ مُقْتَتَلٌ فَهَلْ لِي
 وَقَالَ: أَتَحْفَظُ الْأَبْيَاتَ الَّتِي فِيهَا:
 تَكْفِيهِ فَلَذَةُ كِبِدٍ إِنْ أَلَمَ بِهَا
 فَأَنْشَدَهُ ابْنُ نُبَاتَةَ، وَذَاكَ لِأَنِّي قُلْتُ: مَا أَحْفَظُ إِلَّا هَذَا الْبَيْتَ شَاهِدًا، وَهُوَ لِأَعْشَى
 بِأَهْلَةٍ يَزْنِي الْمُتَشِيرُ:

إِنِّي أَتَشْنِي لِسَانٍ لَا أَسْرُ بِهَا
 قَبِيتُ مَرْتَفِعًا لِلنَّجْمِ أَزْقُبُهُ
 وَجَاشَتْ النَّفْسُ لَمَّا جَاءَ جَمْعُهُمْ
 يَأْتِي عَلَى النَّاسِ لَا يُلَوِّي عَلَى أَحَدٍ
 نَعَيْتُ مَنْ لَا تُغِبُّ الْحَيَّ جَفْنَتُهُ
 مَنْ لَيْسَ فِي خَيْرِهِ شَرٌّ يَكْذُرُهُ
 طَاوِي الْمَصِيرَ عَلَى الْعَزَاءِ مُنْصَلِتٍ
 لَا تُنَكِرُ الْبَازِلُ الْكُومَاءَ ضَرْبَتَهُ
 وَتَفْزَعُ الشُّوْلُ مِنْهُ حِينَ تُبْصِرُهُ
 لَا يَضْعُبُ الْأَمْرُ إِلَّا رَيْثَ يَزْكِبُهُ
 يَكْفِيهِ حُرَّةٌ فَلِذَاكَ أَلَمَ بِهَا
 لَا يَتَأَرَى لِمَا فِي الْقِدْرِ يَرْقُبُهُ
 لَا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنَ وَمِنْ وَصَبٍ
 مَهْفَهْفٌ أَهْضَمُ الْكَشْحَيْنِ مُنْخَرِقٌ
 عِشْنَا بِذَلِكَ دَهْرًا ثُمَّ فَارَقْنَا
 لَا تَأْمَنُ النَّاسُ مُنْسَاهَ وَمُضْبِحَهُ
 إِمَّا يُصِيبُكَ عَدُوٌّ فِي مُنَاوَاةٍ
 لَوْ لَمْ تَخُنْهُ نُفَيْلٌ وَهِيَ خَائِنَةٌ
 وَرَادَ حَرْبٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ
 إِمَّا سَلَكَتْ سَبِيلًا كُنْتَ سَالِكَهَا
 مَنْ لَيْسَ فِيهِ إِذَا قَاوَلْتَهُ رَهَقٌ

مِنْ عَلَوِ عَجَبٍ مِنْهَا وَلَا سُخْرُ
 حَيْرَانَ ذَا حَذَرٍ لَوْ يَنْفَعُ الْحَذَرُ
 وَرَاكِبٌ جَاءَ مِنْ (تَثْلِيثٍ) مُغْتَمِرُ
 حَتَّى التَّقِينَا وَكَانَتْ دُونَنَا (مُضَرُ)
 إِذَا الْكَوَاكِبُ أَخْطَا نَوَاهَا الْمَطَرُ
 عَلَى الصَّدِيقِ وَلَا فِي صَفْوِهِ كَدَرُ
 بِالْقَوْمِ لَيْلَةٌ لَا مَاءٌ وَلَا شَجَرُ
 بِالْمَشْرِفِيِّ إِذَا مَا اجْلَوْدَ السَّفَرُ
 حَتَّى تُقَطَّعَ فِي أَغْنَاقِهَا الْجِرَرُ
 وَكُلُّ أَمْرٍ سِوَى الْفَحْشَاءِ يَأْتِمُرُ
 مِنَ الشُّوَاءِ وَيَكْفِي شُرْبَهُ الْغُمَرُ
 وَلَا يَعْضُ عَلَى شُرْشُوفِهِ الصَّفَرُ
 وَلَا يَزَالُ أَمَامَ الْقَوْمِ يَفْتَفِرُ
 عَنْهُ الْقَمِيصُ بِسِيرِ اللَّيْلِ مُحْتَقِرُ
 كَذَلِكَ الرُّمَحُ ذُو النُّضَلَيْنِ يَنْكَسِرُ
 مِنْ كُلِّ أَوْبٍ وَإِنْ لَمْ يَأْتِ يُنْتَظَرُ
 يَوْمًا فَقَدْ كُنْتَ تَسْتَعْلِي وَتَنْتَصِرُ
 أَلَمْ بِالْقَوْمِ وَرَدَّ مِنْهُ أَوْ صَدَرَ
 كَمَا يُضْيِئُ سَوَادُ الطُّخْيَةِ الْقَمَرُ
 فَادْهَبْ فَلَا يُبْعِدُكَ اللَّهُ مُنْتَشِرُ
 وَلَيْسَ فِيهِ إِذَا يَاسَرْتَهُ عُسُرُ

الليلة الواحدة والثلاثون

وَجَرَى لَيْلَةً حَدِيثُ الرَّأْيِ فِي الْحَرْبِ وَالْحَزْمِ وَالتَّيَقُّظِ وَقِلَّةِ الاسْتِهَانَةِ بِالْخَضَمِ .

فَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ الْكَاتِبُ : أَنَا أَسْتَحْسِنُ كَلَاماً جَرَى أَيَّامَ الْأَمِينِ وَالْمَأْمُونِ ، وَذَاكَ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ عِيسَى بْنِ مَاهَانَ لَمَّا تَوَجَّهَ إِلَى حَرْبِ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ مِنْ بَغْدَادَ ، سَأَلَ قَوْماً وَرَدُّوا مِنَ الرَّيِّ عَنْ طَاهِرٍ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ مُجِدٌّ . فَقَالَ : وَمَا طَاهِرٌ ؟ إِنَّمَا هُوَ شَوْكَةٌ مِنْ أَغْصَانِي ، وَشَرَارَةٌ مِنْ نَارِي ؛ ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ : وَاللَّهِ مَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَنْ يَنْقُصَ أَنْقِصَافَ الشَّجَرِ مِنَ الرِّيحِ الْعَاصِفَةِ إِلَّا أَنْ يَبْلُغَهُ غُبُورُنَا عَقَبَةُ هَمْدَانِ ، لِأَنَّ السَّخَالَ لَا تَقْوَى عَلَى النَّطَاحِ ، وَالثَّعَالِبُ لَا صَبْرَ لَهَا عَلَى لِقَاءِ الْأَسُودِ ، فَإِنْ يَقُمْ طَاهِرٌ بِمَوْضِعِهِ يَكُنْ أَوَّلَ مَعْرُضٍ لَطَبَاتِ السُّيُوفِ وَأَسِنَّةِ الرُّمَاحِ . فَقَالَ يَحْيَى بْنُ عَلِيٍّ لِعَلِيِّ بْنِ عِيسَى : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ الْعَسَاكِرَ لَا تُسَاسُ بِالتَّوَانِي ، وَالْخُرُوبُ لَا تُدَبَّرُ بِالْأَغْتِرَارِ ، وَإِنَّ الشَّرَارَةَ الْخَفِيَّةَ رَبَّمَا صَارَتْ ضِرَاماً ، وَالتَّهْلَةَ مِنَ السَّيْلِ رَبَّمَا صَارَتْ بَخْرًا عَظِيماً .

فَقَالَ : إِنَّمَا حَجَبَ عَلِيٌّ بْنُ عِيسَى عَنْ وَثِيقِ الرَّأْيِ هَذَا الاسْتِحْقَارُ بِالْكَلَامِ ، وَالْاِقْتِدَارُ عَلَى اللَّفْظِ ، وَمَنْ صَدَّقَ فِكْرُهُ فِي طَلَبِ الرَّأْيِ النَّافِعِ ، قَلَّ كَلَامُهُ بِالْهَذَرِ الضَّائِعِ .

وَقَالَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ : مَا رَأَيْتُ مِنْ يَفِيٍّ بِإِخْصَاءِ وَجْهِهِ فَعِيلٍ وَمَوَاقِعِهَا .

فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ : أَنَّ الْأَخْفَشَ قَدْ ذَكَرَ عَشْرَةَ أَوْجُهٍ ، وَهِيَ أَكْثَرُ مَا قَدَّرَ عَلَيْهِ ، وَالتَّصْفُحُ قَدْ دَلَّ عَلَى أَرْبَعِينَ وَجْهًا وَزِيَادَةً .

قَالَ : فَمَا أَغْرَبُ مَا مَرَّ بِكَ مِنْهَا ؟

فَقِيلَ : فَعِيلٌ بِمَعْنَى فَعَلَ . فَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ غَرِيبٌ ، فَهَاتِ لَهُ شَاهِداً . فَقِيلَ : يَقَالُ مَكَانٌ دَمِيئٌ وَدَمَتْ ، وَيَقِينٌ وَيَقَنْ ، وَرَصِيفٌ وَرَصَفَ ؛ وَلِلْفَرَسِ الْعَتِيدِ لِلْعَدُوِّ : الْعَتْدُ ؛ وَالنَّقِيلُ مِنَ الْعَدُوِّ : نَقْلٌ ؛ وَالْخَبِيطُ مِنَ الْوَرَقِ : خَبَطَ ؛ وَلِلْعَدِيمِ : عَدَمٌ ؛ وَالبُشْرُ النَّزِيحُ : نَزَحَ ، وَلِلْجِسْمِ الْعَمِيمِ : عَمَمَ .

وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْقَفِيلُ الشَّوْكُ الْيَابِسُ ، وَالْجَمْعُ قَفْلٌ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى : هُوَ مِنْ بَعْدِ أَيِّ بَعِيدٍ ، وَالبَعْدُ يَكُونُ لِلْجَمْعِ وَالْوَاحِدِ .

فَعَجَبَ وَقَالَ : يَنْبَغِي أَنْ يُعْنَى بِهَذِهِ الْوُجُوهِ كُلُّهَا . فَإِنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى مِثْلِ الْأَخْفَشِ

ظَفَرَ حَسَنَ، وامتياز في العزارة جميل، وما تَفَاضَلَتْ دَرَجَاتُ الْعُلَمَاءِ إِلَّا بِتَصَفُّحِ الْأَخِيرِ قَوْلَ الْأَوَّلِ واستيلائه على ما فاته.

وسأل - أباد الله عده، وحقق مناه - وقال: هل يسلم على أهل الذمة؟ وهل يُبْدَأُون؟

فكان أبو البُخْتَرِيُّ الداودي حاضراً - فحكى أَنَّ عُمَرَ بن عبد العزيز سُئِلَ عن هذا بَعَيْنِهِ، فقال: يُرَدُّ عليهم السلام، ولا بأس بأن يُبْدَأُوا، لقول الله عز وجل: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ [الزخرف: ٨٩].

وَحَكَى فِي مَعْرِضِ حَدِيثِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ: كَتَبَ مَجْنُونٌ إِلَى مَجْنُونٍ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، حَفِظَكَ اللَّهُ، وَأَبْقَاكَ اللَّهُ، كَتَبْتُ إِلَيْكَ وَدَجَلْتُ تَطْعَمِي، وَسُقْنُ الْمَوْصِلِ هَا هِيَ، وَمَا يَزْدَادُ الصُّبْيَانِ، إِلَّا شَرًّا، وَلَا الْحِجَارَةُ إِلَّا كَثْرَةً، فَإِيَّاكَ وَالْمَرْقُ فَإِنَّهُ شَرُّ طَعَامٍ فِي الدُّنْيَا، وَلَا تَبْتَ إِلَّا وَعِنْدَ رَأْسِكَ حَجَرٌ أَوْ حَجَرَانِ، فَإِنَّ الْأَخْبَرَ يَقُولُ: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وَكَتَبْتُ إِلَيْكَ لثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً خَلْتُ مِنْ عَاشُورَاءَ سَنَةِ الْكَمَاءِ».

قال: وَكَتَبَ مَجْنُونٌ آخَرُ: «أَبْقَاكَ اللَّهُ مِنَ النَّارِ وَسُوءِ الْحِسَابِ، وَتَقْدِيرِكَ نَفْسِي مُوَفَّقًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ».

قال: وَكَتَبَ مَجْنُونٌ آخَرُ إِلَى مَجْنُونٍ مِثْلِهِ: وَهَبَ اللَّهُ لِي جَمِيعَ الْمَكَارِهِ فَيْكَ، كِتَابِي إِلَيْكَ مِنَ الْكُوفَةِ حَقًّا حَقًّا حَقًّا، أَفْلَامِي تَخْطُ، وَالْمَوْتُ عِنْدَنَا كَثِيرٌ، إِلَّا أَنَّهُ سَلِيمٌ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، أَحْبَبْتُ لِيَعْرِفَهُ إِعْلَامُكُمْ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

فضحك - أضحك الله سنه - حتى استلقى، وقال: مَا الَّذِي يَبْلُغُ بِنَا هَذَا الْإِسْطِرَافَ إِذَا سَمِعْنَا بِحَدِيثِ الْمَجَانِينِ؟

فَقَالَ ابْنُ زُرْعَةَ: لِأَنَّ الْمَجْنُونَ مُشَارِكٌ لِلْعَاقِلِ فِي الْجِنْسِ، فَإِذَا كَانَ مِنَ الْعَاقِلِ مَا يُحَسَّبُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمَجْنُونِ كَرِهَ ذَلِكَ لَهُ، وَإِذَا كَانَ مِنَ الْمَجْنُونِ مَا يُعْهَدُ مِنَ الْعَاقِلِ تُعْجِبُ مِنْهُ، وَالْعَقْلُ بَيْنَ أَصْحَابِهِ ذُو عَرَضٍ وَاسِعٍ، وَبِقَدْرِ ذَلِكَ يَتَفَاضَلُونَ التَّفَاضُلَ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى حَضْرِهِ، وَكَذَلِكَ الْجَنُونُ بَيْنَ أَهْلِهِ ذُو عَرَضٍ وَاسِعٍ، وَبِحَسَبِ ذَلِكَ يَتَفَاوَتُونَ التَّفَاوُتَ الَّذِي لَا مَطْمَعَ فِي تَخْصِيلِهِ، وَكَمَا أَنَّهُ يَبْدُرُ مِنَ الْعَاقِلِ بَعْضُ مَا لَا يُتَوَقَّعُ إِلَّا مِنَ الْمَجْنُونِ كَذَلِكَ يَبْدُرُ مِنَ الْمَجْنُونِ بَعْضُ مَا لَا يُتَوَقَّعُ إِلَّا مِنَ الْعَاقِلِ، وَلَا يُعْتَدُ بِذَلِكَ وَلَا بِهَذَا، أَعْنِي أَنَّ الْعَاقِلَ بِذَلِكَ الْمَقْدَارِ لَا يُرَى مَجْنُونًا، وَالْمَجْنُونُ بِذَلِكَ الْمَقْدَارِ لَا يُسَمَّى عَاقِلًا، وَإِنَّمَا اجْتَمَعَا فِي النَّادِرِ الْقَلِيلِ، لِاجْتِمَاعِهِمَا فِي الْجِنْسِ الَّذِي يَعْثُمُهُمَا، وَالنَّوْعَ الَّذِي يَفْصِلُهُمَا، وَفِي الْجُمْلَةِ الْإِنْسَانُ بِمَا هُوَ بِهِ حَيَوَانٌ سَبْعٌ وَحِمَارٌ، وَبِمَا هُوَ بِهِ نَفْسِيٌّ إِنْسَانٌ، وَبِمَا هُوَ بِهِ عَاقِلٌ نَبِيٌّ وَمَلَكٌ؛ وَهَذِهِ الْأَعْرَاضُ - وَإِنْ تَدَاخَلَتْ

لانتظامها في طينة واحدة - فإنها تتميز بقوة العقل في الصورة المخلوطة إما مفارقة، وإما مواصلة. ومرّ له في هذا الموضع كلامٌ بليغٌ تامٌّ مكشوف^(١).

ثمّ ترمى الحديث إلى أمر المُطعمين والطاعمين، والذين يهشّون عند المائدة، والذين يغيبسون ويجمّون ويُطرقون، والذين يصخبّون ويلغّطون، ويضجّرون ويغْتَاطون.

فقال: أحبُّ أن أسمع في هذا أكثرَ ما فيه، ويمرُّ بي أعجبه، فإنّ في معرفة هذا الباب تهيئاً وإيقاظاً كثيراً.

فكان من الجواب: إنّ الناس قديماً وحديثاً قد خاضوا في هذا الفنّ خوضاً بعيداً، وما وقفوا منه عند حدّ، لأنّ الحديث عن الأخلاق المختلفة بالأمزجة المتباينة، والطبائع المتباينة لا يكاد ينتهي إلى غاية يكون فيها شفاء للمستمع المُستفيد ولا للرواية المُفيد.

قال: قبل كل شيء أعلمونا يا أصحابنا: الحثُّ على الأكل أحسن، أم الإمساك حتى يكون من الأكل ما يكون؟

فكان من الجواب: أن هذه المسألة بعينها جرّت بالأمس بالرّيّ عند ابن عبّاد فتئوّهَبَ الكلام فيها، وأفضى إلى الأولى الحثُّ والتأنيُّ والبسط والطلاقة ولين اللفظ وقلة التحديق وإسجاء الطّرف مع اللّطف والدّماثة، من غير دلالة على تكلف في ذلك فاضح ولا إمساكٍ عنه قادح.

وحكى ابن عبّاد في هذا الموضع أنّ بعض السّلف قال: الطّعام أهونُ من أن يُحَثَّ على تناوله.

وقال الحسن بن عليّ: الطّعام أجلُّ من أن لا يُحَثَّ على تناوله. ومذهبُ الحسن أحسن.

قال: ولقد حضرتُ موائد ناس لا أظنُّ بهم البخل فلم يحثُّوني ولم ينسْطوني فقَبَضَنِي ذلك، وكأَنَّ انقباضي كان بمَعُونَتِهِمْ، وإن لم يكن بإرادتهم.

قال الوزير: هذه فائدة من هذا الرجل الذي يُتهدى قوله، وتُروى أخباره.

ثم حكيتُ له أن أسماء بنَ حارِجة قال: ما صنعتُ طعاماً قطّ فدَعَوْتُ عليه نَفْراً إلّا كانوا آمنٌ عليّ مِنِّي عليهم. فقال: زدنا من هذا الضرب ما كان، قلت: لو أذن لي في جمعه كان أولى؛ قال: لك ذلك فما يضُرُّنا أن تُطربَ آذاننا بما تهوى نفوسنا.

فكان من الجواب أنّ الجاحظ قد أتى على جمهرة هذا الباب إلّا ما شدَّ عنه ممّا لم يَقَعْ إليه، فإنّ العالم - وإن كان بارعاً - ليس يجوز أن يُظنَّ به أنه قد أحاط بكلّ

(١) إلى هنا ينتهي الجزء الثاني حسب تقسيم طبعة أحمد أمين وأحمد الزين.

باب، أو بالباب الواحد إلى آخره؛ على أنه حَدَّثَ من عهد الجاحظ إلى وقتنا هذا أمورٌ وأمور، وهناتٌ وهناتٌ، وغرائبٌ وعجائب، لأنَّ الناسَ يكتسبون على رأس كلِّ مائة سنةٍ عادةً جديدةً، وخليقةً غيرَ مَعهودَةٍ، وبِذءِ هذه المئين هو الوقت الذي فيه تَنَعَّدُ شريعة، وتظهر نبوة، وتَفْشُو أحكام، وتَسْتَقَرُّ سُنَن، وتُؤَلَّفُ أحوالٌ بعد فطامٍ شديد، وتلكؤُ واقع؛ ثم على استئنان ذلك يكون ما يكون.

وقال مَيْمون بن مِهْران: مَنْ ضافَ البخيلَ صامَتِ دابَّتُهُ، واستَغْنَى عن الكَنيف، وأَمِنَ الثُّخْمةَ.

وقال حامد اللِّقاف المتزهَّد: المرائي إذا ضافَ إنساناً حَدَّثَهُ بِسَخاوةِ إبراهيم، وإذا ضافَهُ إنسانٌ حَدَّثَهُ بِزُهدِ عيسى بن مَرِيَم.

وقال مالك بن دينار: دَخَلْنَا على ابنِ سِيرِينَ فقال: ما أَذْرِي ما أَطْعُمُكُمْ؟ ثم قَدَّمَ إلينا شُهْدَةً.

وقال الأعمش: كَانَ خَيْثَمَةُ يَصْنَعُ الْخَيْصَرَ ثم يقول: كُلُّوا فواللَّهِ ما صُنِعَ إِلَّا من أَجْلِكُمْ.

وقال بكر بن عبد الله المُرْزِي: أَحَقُّ الناسِ بِلَطْمَةٍ من إذا دُعِيَ إلى طَعامٍ ذَهَبَ بآخرِ معه، وأَحَقُّهُمْ بِلَطْمَتَيْنِ مَنْ إذا قِيلَ له: اجْلِسْ هاهنا، قال: بل هاهنا؛ وأَحَقُّ الناسِ بثلاثِ لَطَمَاتٍ مَنْ إذا قِيلَ له: كُلْ، قال: ما بالُ صاحبِ الْبَيْتِ لا يَأْكُلُ مَعَنَا.

وقال إبراهيم بن الجُنَيْد: كَانَ يقال: أربَع لا يَنْبَغِي لِشَريف أن يَأْنِفَ مِنْهُنَّ وإن كان أميراً: قِيامُهُ من مجلسه لأبيه، وَخِدمَتُهُ للعالمِ يَتَعَلَّمُ منه، والسؤالُ عَمَّا لا يَعْلَمُ ممن هو أَعْلَمُ منه، وَخِدمَةُ الضيف بنفسيهِ إكراماً له.

وقال حاتم الأصم: كَانَ يقال العَجَلَةُ من الشيطانِ إِلَّا في خمس، فإنها من سُنَّةِ رَسولِ اللَّهِ ﷺ: إطعام الضَّيف إذا حَلَّ، وتجهيز المَيِّت إذا مات، وتزويج البكر إذا أذْرَكَ، وقضاء الدين إذا حَلَّ وَوَجِبَ، والتَّوبَةُ من الذَّنْبِ إذا وَقَعَ.

وقال النبي ﷺ: «ليلةُ الضَّيفِ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مُسلم، فمن أَصْبَحَ بِفَنائِهِ فهو أَحَقُّ به إن شاء أَخَذَ، وإن شاء تَرَكَ».

وجاءت امرأة إلى الليث بن سعد وفي يدها قَدَح، فسألت عَسلاً وقالت: رَؤُوجِي مريض؛ فأمر لها براوية عَسَل؛ فقالوا: يا أبا الحرث: إنما تسأل قَدَحاً. قال: سألت على قَدْرِها ونُعْطِها على قَدَرِنا.

خَرَجَ ابنُ المُبارَك يوماً إلى أصحابه، فقال لهم: نَزَلَ بنا ضَيْفُ اليومَ فقال: اتخذوا لي فالودجاً، فسرنا ذلك منه.

وقال الحسنُ في الرَّجُلِ يَدْخُلُ بَيْتَ أَخِيهِ فَيَرَى السَّلَّةَ فِيهَا الْفَاكِهِةَ: لَا بَأْسَ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُ.

وقال ابنُ عمر: أَهْدَيْتُ لِرَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ - شاةً فَقَالَ: أَخِي فَلَانُ أَخَوَجُ إِلَيْهَا، وَبَعَثَ بِهَا إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ يَبْعَثُ بِهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى تَدَاوِلَهَا تِسْعَةُ أَبْيَاتٍ، وَرَجَعَتْ إِلَى الْأَوَّلِ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

قال أبو سعيد الخُدْرِيّ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ ظَهْرٌ فَلْيَعُدْ عَلَى مَنْ لَا ظَهْرَ لَهُ؛ وَمَنْ كَانَ لَهُ زَادٌ فَلْيَعُدْ عَلَى مَنْ لَا زَادَ لَهُ، حَتَّى رَأَيْنَا أَنَّهُ لَا حَقَّ لِأَحَدٍ مِنَّا فِي الْفَضْلِ».

وَسُئِلَ ابْنُ عُمَرَ: مَا حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ؟ قَالَ: أَلَّا يَشْبَعَ وَيَجُوعَ، وَأَلَّا يَلْبَسَ وَيَعْرَى، وَأَنْ يُوَاسِيَهُ بِيَضَائِهِ وَصَفَرَاتِهِ.

وَكَانَ ابْنُ أَبِي بَكْرَةَ يُتَّفِقُ عَلَى جِيرَانِهِ أَرْبَعِينَ دَارًا سِوَى سَائِرِ نَفَقَاتِهِ، وَكَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِمُ بِالْأَضَاحِيِّ وَالْكَسْوَةِ فِي الْأَعْيَادِ، وَكَانَ يَغْتَقِي فِي كُلِّ يَوْمٍ عِيدٍ مِائَةَ مَمْلُوكٍ.

وَكَانَ حَمَّادُ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ يُفْطِرُ كُلَّ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ خَمْسِينَ إِنْسَانًا، وَإِذَا كَانَ يَوْمَ الْفِطْرِ كَسَاهُمْ ثَوْبًا ثَوْبًا وَأَعْطَاهُمْ مِائَةَ مِائَةٍ.

وقال الشاعر:

أَرَاكَ تَوْمُلُ حُسْنَ الثَّنَاءِ وَلَمْ يَزُوقِ اللَّهُ ذَاكَ الْبَخِيلَا
وَكَيْفَ يَسُودُ أَخُو بَطْنَةٍ يَمُنُّ كَثِيرًا وَيُعْطِي قَلِيلَا
وقال النبي ﷺ: «تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيّ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْخُذُ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ».

وقال عليه السلام: «مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ، وَقَرَى الضَّيْفَ، وَأَوَى فِي النَّائِبَةِ، فَقَدْ وَفَّى شُحَّ نَفْسِهِ».

وقالت أُمُّ الْبَنِينَ أَخْتُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَفُّ لِلْبَخْلِ، لَوْ كَانَ طَرِيقًا مَا سَلَكَتُهُ، وَلَوْ كَانَ ثَوْبًا مَا لَبِستُهُ، وَلَوْ كَانَ سِرَاجًا مَا اسْتَضَأْتُ بِهِ.

وقال الأصمعيّ: قَالَ بَعْضُ الْعَرَبِ: لَيْسَتْ الْفِتْوَةُ الْفِسْقُ وَلَا الْفُجُورُ، وَلَا شُرْبُ الْخُمُورِ، وَإِنَّمَا الْفِتْوَةُ طَعَامُ مَوْضُوعٍ، وَصَنِيعُ مَصْنُوعٍ، وَمَكَانُ مَرْفُوعٍ، وَلِسَانُ مَغْسُولٍ، وَنَائِلُ مَبْذُولٍ، وَغَفَافُ مَعْرُوفٍ، وَأَذَى مَكْفُوفٍ.

وقال أبو حازم المدنيّ: أَسْعَدُ النَّاسِ بِالْخُلُقِ الْحَسَنُ صَاحِبُهُ، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ، ثُمَّ زَوْجَتُهُ، ثُمَّ وَلَدُهُ، حَتَّى إِنْ قَرَسَهُ لِيَصْهَلَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَهُ، وَكَلَبَهُ يُشْرِشِرُ بِذَنْبِهِ إِذَا رَأَاهُ، وَقَطَّهَ يَدْخُلُ تَحْتَ مَائِدَتِهِ، وَإِنَّ السَّيِّئَ الْخُلُقِ لِأَشْقَى

الناس، نَفْسُهُ مِنْهُ فِي بَلَاءٍ، ثُمَّ زَوَّجَتْهُ، ثُمَّ وَلَدَهُ، ثُمَّ خَدَّمَهُ، وَإِنَّهُ لَيَدْخُلُ وَهْمٌ فِي سُرُورِ فَيَتَفَرَّقُونَ فَرَقًا مِنْهُ، وَإِنَّ دَابَّتَهُ لَتَحِيدُ عَنْهُ إِذَا رَأَتْهُ، مِمَّا تَرَى مِنْهُ، وَكَلْبُهُ يَنْزُو عَلَى الْجِدَارِ، وَقِطْعُهُ يَفِرُّ مِنْهُ.

وكان على باب ابن كيسان مكتوب: اَدْخُلْ وَكُلْ.

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول في بكائها على النبي ﷺ: أَبَيْي مَنْ لَمْ يَنْمِ عَلَى الْوَثِيرِ، وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْرِ الشَّعِيرِ.

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْ وِعَاءً مَلَأَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاجْعَلُوا ثُلثًا لِلطَّعَامِ، وَثُلثًا لِلشَّرَابِ، وَثُلثًا لِلرَّيْحِ».

قال الشاعر:

لِيسُوا يُبَالُونَ إِذَا أَضْبَحُوا شَبَعَى بِطَانًا حَقٌّ مَنْ ضَيَّعُوا
وَلَا يُبَالُونَ بِمَوَلَاهُمْ وَالْكَلْبُ فِي أَمْوَالِهِمْ يَزْتَعِ
وحكى لنا أبو بكر أحمد بن إبراهيم بجزجان - إمام الدنيا - قال: رأيت أبا خليفة المفضل بن الحباب، وقد دُعي إلى وليمة فرأى الصُّحَافَ تَوْضَعُ وتَرْفَعُ، فقال: أَلْلَحْسُنُ وَالْمَنْظَرُ دُعِينَا، أَمْ لِلْأَكْلِ وَالْمَخْبَرِ؟ فقليل: بل للأكل والمخير، قال: فاتركوا الصَّحْفَةَ يَبْلُغُ قَعْرُهَا.

وكان سليمان بن ثَوَابَةِ ضَخَمَ الْخِوَانِ، كَثِيرَ الطَّعَامِ، وَافَرَ الرِّغِيفِ، وَكَانَ مُحَجَّبًا بِإِجَادَةِ الْأَلْوَانِ، وَاتَّخَذَ الْبَدَائِعَ وَالطَّرَائِفَ وَالْغَرَائِبَ عَلَى مَائِدَتِهِ؛ وَكَانَتْ لَهُ ضُرُوبٌ مِنَ الْحَلْوَى لَا تُعْرَفُ إِلَّا بِهِ، وَكَانَ حُبُّهُ الَّذِي يُوضَعُ عَلَى الْمَائِدَةِ الرِّغِيفُ مِنْ مَكُوكٍ دَقِيقٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَبُو فَرْعُونَ الْعَدَوِيُّ:

مَا النَّاسُ إِلَّا نَبِطٌ وَخُورَانٌ كَكَهْمَسٍ أَوْ عَمَرَ بْنِ عِمْرَانَ
ضَاقَ جِرَابِي عَنْ رَغِيفِ سَلْمَانَ أَيْرُ حِمَارٍ فِي حِرَامٍ قَحْطَانٍ
وَأَيْرُ بَغْلٍ فِي اسْتٍ أُمَّ عَدْنَانَ

وَعَشِقَ رَجُلٌ جَارِيَةً رُومِيَّةً كَانَتْ لِقَوْمٍ ذَوِي يَسَارٍ، فَكَتَبَ إِلَيْهَا يَوْمًا: جُعِلْتُ فِدَاكَ، عِنْدِي الْيَوْمَ أَصْحَابِي، وَقَدْ اشْتَهَيْتُ سَكْبَاجَةً بَقْرِيَّةً فَأَحِبُّ أَنْ تُوَجِّهِي إِلَيْنَا بِمَا يَغْمِنَا وَيَكْفِينَا مِنْهَا، وَدَسْتَجَّةً مِنْ نَبِيذٍ لَتَغْدَى وَنَشْرَبَ عَلَى ذِكْرِكَ، فَلَمَّا وَصَلَتِ الرُّقْعَةُ وَجَّهَتْ إِلَيْهِ بِمَا طَلَبَ؛ ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهَا يَوْمًا آخَرَ: فَذَنْكَ نَفْسِي، إِخْوَانِي مُجْتَمِعُونَ عِنْدِي، وَقَدْ اشْتَهَيْتُ قَلِيَّةً جَزُورِيَّةً فَوَجَّهِي بِهَا إِلَيَّ وَمَا يَكْفِينَا مِنَ النَّبِيذِ وَالثَّقْلِ، لِيَعْرِفُوا مَنَزَلَتِي عِنْدَكَ، فَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ بِكُلِّ مَا سَأَلَ؛ ثُمَّ كَتَبَ إِلَيْهَا يَوْمًا آخَرَ: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَدْ اشْتَهَيْتُ أَنَا وَأَصْحَابِي رُؤُوسًا سَمَانًا، فَأَحِبُّ أَنْ تُوَجِّهِي إِلَيْنَا بِمَا يَكْفِينَا، وَمِنْ النَّبِيذِ بِمَا

يُروينا؛ فَكَتَبَتِ الجارية عند ذلك: إِنِّي رَأَيْتُ الحُبَّ يَكُونُ فِي القَلْبِ، وَحُبُّكَ هَذَا مَا تَجَاوَزَ المَعْدَةَ. وَكَتَبْتُ أَسْفَلَ الرُّقْعَةِ:

عَلَيْرِي مِنْ حَبِيبٍ جَا عِنَا فِي زَمَنِ الشُّدَّةِ
وَكَانَ الحُبُّ فِي القَلْبِ فَصَارَ الحُبُّ فِي المَعْدَةِ

وقال جرير:

وَلَا يَذْبَحُونَ الشَّاةَ إِلَّا بِمَيْسِرٍ كَثِيرٍ تَنَاجِيهَا لِئَامٌ قُدُورُهَا

وقالت عادية بنتُ فَرْعَةَ الزَّبِيرِيَّةِ فِي ابْنِهَا دَوْسٍ:

تَشْبُهُ دَوْسٌ نَفَرًا كَرَامًا

كَانُوا الذُّرَى وَالْأَنْفَ وَالسَّنَامَا

كَانُوا لِمَنْ خَالَطَهُمْ إِذَا مَا

كَالسَّمْنِ لَمَّا سَغَبَلَ الطَّعَامَا

يَقَالُ سَغَبَلَ رَأْسَهُ بِالذُّهْنِ وَسَغَسَغَهُ وَرَوَاهُ وَأَمْرَعَهُ.

قال الواقدي: قِيلَ لِأُمِّ أَيُّوبَ: أَيُّ الطَّعَامِ كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ عَرَفْتُمْ ذَلِكَ بِمُقَامِهِ عِنْدَكُمْ؟ فَقَالَتْ: مَا رَأَيْتُهُ أَمَرَ بِطَعَامٍ يُصْنَعُ لَهُ بَعِيْنُهُ، وَلَا رَأْيَانَهُ أُتِيَ بِطَعَامٍ فَعَابَهُ قَطُّ. وَقَدْ أَخْبَرَنِي أَبُو أَيُّوبَ أَنَّهُ تَعَشَّى عِنْدَهُ لَيْلَةً مِنْ قَضْعَةٍ أُرْسِلَ بِهَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فِيهَا طَفِيْشَلٌ فَرَأَيْتُهُ يَنْهَكَ تِلْكَ الْقَضْعَةَ مَا لَمْ يَنْهَكَ غَيْرَهَا، فَرَجَعَ إِلَيَّ فَأَخْبَرَنِي، فَكُنَّا نَعْمَلُهَا لَهُ. وَكُنَّا نَعْمَلُ لَهُ الْهَرِيْسَةَ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ، وَكَانَ يَحْضُرُ عَشَاءَهُ مِنْ خَمْسَةِ إِلَى سِتَّةٍ إِلَى عَشْرَةٍ كَمَا يَكُونُ الطَّعَامُ فِي الْقِلَّةِ وَالْكَثْرَةِ.

وَكَانَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ يَعْمَلُ لَهُ هَرِيْسَةً لَيْلَةً وَلَيْلَةً لَا، فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْأَلُ عَنْهَا:

أَجَاءَتْ قِصْعَةُ أَسْعَدٍ أَمْ لَا؟ فَيَقَالُ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: هَلُمُّوْهَا؛ فَنَعْرِفُ بِذَلِكَ أَنَّهَا تُعْجِبُهُ.

قَدِمَ صُھَيْبٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِقُبَاءٍ وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، بَيْنَ أَيْدِيهِمْ رُطْبٌ قَدْ جَاءَهُمْ بِهِ كُلْثُومُ بْنُ الْهَذَمِ أُمَهَاتُ جَرَادِيْنٍ^(١) وَصُھَيْبٌ قَدْ رَمَدَ فِي الطَّرِيقِ، وَأَصَابَتْهُ مَجَاعَةٌ شَدِيْدَةٌ، فَوَقَعَ فِي الرُّطْبِ؛ قَالَ صُھَيْبٌ: فَجَعَلْتُ أَكُلُ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَرَى إِلَى صُھَيْبٍ يَأْكُلُ الرُّطْبَ وَهُوَ رَمَدٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَأْكُلُ الرُّطْبَ وَأَنْتَ رَمَدٌ؟» فَقَالَ صُھَيْبٌ: أَنَا أَكُلُ بِشَقِّ عَيْنِي الصَّحِيْحَةَ، فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ^(٢).

(١) نوع من الرطب، سمي بذلك لأن نخله يجتمع تحته الجرزان وأم جرزان آخر نخلة بالحجاز إدراكاً.

(٢) في مسند ابن ماجه . ٣ - باب الحمية . حديث رقم : ٣٤٤٣ - عن صُھَيْبٍ؛ قال: قدمت على النَّبِيِّ ﷺ، وبين يديه خبز وتمر. فقال النَّبِيُّ ﷺ: «ادن فكل» فأخذتُ أَكُلُ مِنَ التَّمْرِ. فقال =

وقال الأعشى :

لو أَطْعِمُوا الْمَنَّ وَالسَّلْوَى مَكَائَهُمْ ما أَبْصَرَ النَّاسُ طَعْمًا فِيهِمْ نَجَعًا
وقال الكميت :

وما اسْتَنْزَلْتُ فِي غَيْرِنَا قَدْرُ جَارِنَا ولا تُفَيْثُ إِلَّا بِنَا حِينَ تُنْصَبُ
يقول إذا جاورنا جَارًا لم نُكَلِّفْهُ أَنْ يَطْبُخَ مِنْ عِنْدِهِ، ويكون ما يَطْبُخُهُ مِنْ عِنْدِنَا
بما نُعْطِيهِ مِنَ اللَّحْمِ لِيُنْصَبَ قَدْرَهُ. ويقال للحَيْسِ سَوِيطَةٌ. وقال: الرَّغِيغَةُ لَبَنٌ يُطْبَخُ.
وقال: هي العَصِيدَةُ، ثم الْحَرِيرَةُ ثم النَّجِيرَةُ، ثم الْحَسُوءُ. واللُّوْقَةُ: الرُّطْبُ بالسَّمْنِ،
والسَّلِيْقَةُ: الدُّرَّةُ تُدْقُ وتُضَلَّحُ بِاللَّبَنِ، والرَّصِيْعَةُ: الْبُرُّ يُدْقُ بِالْفِهْرِ وَيُبْلُ وَيُطْبَخُ بِشَيْءٍ
مِنَ السَّمْنِ، وَالْوَجِيئَةُ: التَّمَرُ يُوجَأُ ثم يُؤْكَلُ بِاللَّبَنِ.
وقال أعرابي: ليس من الألبان أخلَى من لبن الخَلْفَةِ. والنَّخْبَةِ والفَقْطِيَّةُ يُخْلَطُ
لَبَنُ إِبِلٍ بِلَبَنِ عَئِم.

وقال أعرابي: الحمد لله الذي أغنانا بِاللَّبَنِ عَمَّا سِوَاهُ. ويقال أَكَلَ خُبْزًا قَفَارًا
وَعَفَارًا وَعَفِيرًا: لا شَيْءَ مَعَهُ وَعَلَيْهِ الْعَفَارُ وَالْدَّمَارُ وَسُوءُ الدَّارِ؛ وَأَكَلَ خُبْزًا جَبِيْزًا أَيْ
فَطِيْرًا يَابَسًا. وجاء بَتَمَرٍ فَضٌّ وَفَضًّا وَقَدْ وَحَتْ: لا يَلْزُقُ بَعْضُهُ بَبَعْضٍ.
قال أبو الحسن الطوسي: أخبرني هشام قال: دَخَلَ عَلَيَّ فَرَجُ الرُّحْجِيِّ وَقَدْ
تَعَدَّيْتُ وَاتَّكَأْتُ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ: إِنَّمَا تُحْسِنُ الْأَكْلَ وَالْإِتْكَاءَ. قال: فَتَرَكْتُ
الْأَكْلَ عِنْدَهُ أَيَّامًا، وَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَبَعَثَ إِلَيَّ: إِنْ كُنْتُ لَا تَأْكُلُ طَعَامَنَا فَلَيْسَ لَنَا فِيكَ
حَاجَةٌ. قال: «فَأَكَلْتُ شَيْئًا ثُمَّ أَتَيْتُهُ» فَلَمْ يَعْتَذِرْ مِمَّا كَانَ.

قال أبو الحسن: أخبرني الفراء قال: العرب تسمي السُّكْبَاجَةَ الصَّعْفَصَةَ. وَأُنْشِدَ:
أَبُو مَالِكٍ يَعْتَادُنَا فِي الظَّهَائِرِ يَجُوءُ فَيُلْقِي رَحْلَهُ عِنْدَ عَامِرٍ^(١)
أَبُو مَالِكٍ: الْجُوعُ، هَكَذَا تَقُولُ الْعَرَبُ وَيَجِيءُ وَيَجُوءُ لِعَتَانٍ. وقال الآخر:
رَأَيْتُ الْغَوَانِي إِذْ نَزَلَتْ جَفَوْنَنِي أَبَا مَالِكٍ إِنِّي أَظُنُّكَ دَائِبًا
أَبُو مَالِكٍ هَاهُنَا الشَّيْبُ.

قال أبو الحسن: أخبرني الثوري عن أبي عُبَيْدَةَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي يُزَوَّى عَنْ
عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ رَأَى فِي رَوْثٍ فَرَسِهِ حَبَّةَ شَعِيرٍ، فَقَالَ: لِأَجْعَلَنَّ لَكَ فِي غَرَزٍ^(٢)

= النَّبِيُّ ﷺ: «تَأْكُلُ تَمْرًا وَبِكَ رَمَدٌ؟» قَالَ، فَقُلْتُ: إِنِّي أَمْضِغُ مِنْ نَاحِيَةِ أُخْرَى. فَتَبَسَّمَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ. فِي الزَّوَائِدِ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، رَجَالُهُ ثِقَاتٌ.

(١) مِنْ أَسْمَاءِ الْخَبَزِ.

(٢) نَوْعٌ مِنَ النَّبَاتِ.

النَّقِيعَ مَا يَشْغَلُكَ عَنْ شَعِيرِ الْمُسْلِمِينَ. قَالَ: والنَّقِيعُ: موضع بالمدينة أَخْمَاهُ عمر بن الخطاب لخیل المسلمين، خِلاف البَقِيع بالباء.

قال الطَّوْسِيُّ: العرب تقول: «أيدي الرجال أعناقُها» أي مَنْ كان أطولَ على المائدة تناولَ فأكل، الهاءُ تَرْجِعُ على الإبل، أي أيدي الرجال أعناق الإبل، أي مَنْ طَالَ نال.

قال الأصمعي: سألت بعضَ الأكلةِ فيمَنْ كان يُقَدِّمُ على مُيسَّرِي: الناس كيف تَصْنَعُ إِذَا جَهَدَتْكَ الْكِظَةُ - والعَرَبُ تقول: «إِذَا كُنْتَ بَطْنًا فَعُدَّكَ زَمِينًا؟» قَالَ: أَخَذُ رَوْثًا حَارًّا وَأَغَصِرُهُ وَأَشْرَبُ مَاءَهُ، فَأَخْتَلِفُ عَنْهُ مِرَارًا، فَلَا أَلْبَثُ أَنْ يَلْحَقَ بَطْنِي بِظَهْرِي فَأَشْتَهِي الطَّعَامَ.

قال ابن الأعرابي: قال الكِلَابِيُّ: هو يَنْدِفُ الطَّعَامَ إِذَا أَكَلَهُ بِيَدِهِ، وَيَلْقَمُ الْحَسُوَّ، وَاللَّقَمَ بِالشُّقَّةِ، وَالتَّذْفُ: الْأَكْلُ بِالْيَدِ. وقال الزبيرِي: يَنْدِفُ.

وأنشد ابن الأعرابي:

وَيَظْلُ ضَيْفُ بَنِي عُبَادَةَ فِيهِمْ مُتَضَمَّرًا وَبُطُونُهُمْ كُثْمٌ

أَي مُمْتَلِئَةٌ. وَالتَّضَمُّرُ: الْهَزَالُ وَالنَّحَافَةُ، كَالنَّخْلِ الْمُضَمَّرِ، أَيْ الَّذِي قَدْ ذَوَتْ جُذُوعُهُ. قَالَ الشَّيْبُوذِيُّ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]. قَالَ: الَّذِينَ يَشْرُدُونَ وَيَأْكُلُ غَيْرُهُمْ. قَالَ أَبُو الْحَسَنِ: كَانَتْ لِي ابْنَةُ تَجْلِسُ مَعِيَ عَلَى الْمَائِدَةِ فَتُبْرِزُ كَفًّا كَأَنَّهَا طُلْعَةٌ، فِي ذِرَاعِ كَأَنَّهَا جُمَارَةٌ، فَلَا تَقَعُ عَيْنُهَا عَلَى أَكْلَةٍ نَفِيسَةٍ إِلَّا خَصَّصْنِي بِهَا، فَزَوَّجْتُهَا، وَصَارَ يَجْلِسُ مَعِيَ عَلَى الْمَائِدَةِ ابْنٌ لِي، فَيُبْرِزُ لِي كَفًّا كَأَنَّهَا كِرْزَانَةٌ، فِي ذِرَاعٍ كَأَنَّهَا كَرْبَةٌ^(١)، فَوَاللَّهِ إِنْ تَسْبِقُ عَيْنِي إِلَى لُقْمَةٍ طَيِّبَةٍ إِلَّا سَبَقَتْ يَدُهُ إِلَيْهَا.

وقال أعرابيٌّ للنبي ﷺ: إِنِّي نَذَرْتُ إِذَا بَلَغْتَنِي نَاقَتِي أَنْ أَنْحَرَهَا وَأَكُلَ مِنْ كَبِدِهَا. قَالَ: «بِسْمَا جَارَتِهَا»^(٢).

(١) الكِرْزَانَةُ: أَصُولُ الْكَرْبِ الَّتِي تَبْقَى فِي جَذْعِ النَّخْلَةِ بَعْدَ قَطْعِ السَّعْفِ. وَالكَرْبَةُ: أَصُولُ السَّعْفِ الْغُلَاطِ الْعَرَاضِ.

(٢) فِي مَسْنَدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ. مَسْنَدُ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا. عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حَصِينٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: كَانَتْ امْرَأَةٌ أَسْرَاهَا الْعَدُوُّ وَكَانُوا يَرِيحُونَ إِبِلَهُمْ عِشَاءً فَآتَتْ الْإِبِلَ تَرِيدُ مِنْهَا بَعِيرًا تَرْكِبُهُ فَكَلِمَا دَنَتْ مِنْ بَعِيرٍ رَغَا فَتَرْكَبُهُ حَتَّى أَتَتْ نَاقَةً مِنْهَا فَلَمْ تَرِغْ فَارْكَبَتْ عَلَيْهَا ثُمَّ نَجَتْ فَقَدِمَتْ الْمَدِينَةَ فَلَمَّا رَأَاهَا النَّاسُ قَالُوا نَاقَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْعِضْبَاءُ قَالَتْ إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَهَا إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْجَانِي عَلَيْهَا قَالَ بِسْمَا جَزَيْتِهَا لَا نَذَرَ لِبْنِ آدَمَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ وَلَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

أضلَّ أعرابيٌّ بغيراً له، فطلبه، فرأى على باب الأمير بُخْتِيًّا، فأخذه وقال: هذا بعيري، فقال: إنَّكَ أَضَلَلْتَ بغيراً وهذا بُخْتِي. فقال: لَمَّا أَكَلَ عِلْفَ الأمير تَبَخَّخْتُ. فضحك منه وتركه يعيدُ قوله ويُعْجِبُه.

الكِدْنَةُ: غِلْظُ اللَّحْمِ وَتَرَاكُمُه، ومنه قول هشام لسالم - وقد رآه فأعجبه جسمه -: ما رأيتُ ذا كِدْنَةٍ أَحْسَنَ مِنْكَ، فما طعامُكَ؟ قال: الْخُبْزُ وَالزَّيْتُ. قال: أَمَّا تَأْجِمُه^(١)؟ قال: إِذَا أَجْمَتُهُ تركته حتى أشتيه، ثم خرج وقد أصاب في جسمه بَرَصاً. فقال: لَقِيعَنِي^(٢) الْأَحْوَلُ بعينه، فما خَرَجَ هِشَامُ من المدينة حتى صَلَّى عليه. وقال عبد الأعلى القاص: الْفَقِيرَ مَرَقَّتْهُ سِلْقَةٌ، وَغِذَاؤُهُ عُلْقَةٌ، وَخُبْزَتُهُ فِلْقَةٌ، وَسَمَكَتُهُ شِلْقَةٌ، أَي كَثِيرَةُ الشُّوكِ.

قال رجاء بن سَلَمَةَ: الْأَكْلُ فِي السُّوقِ حِمَاقَةٌ. قيل لِدُوَيْبِ بْنِ عَمْرٍو: إِنَّكَ مُفْلِسٌ لَا تَقْدِرُ عَلَى قُرْصٍ وَلَا جُمْعٍ وَلَا حُقَالَةٍ، وَيَتَيْتُكَ عَامِرٌ بِالْفَارِ.

قال علي بن عيسى: الطَّلَاقُ الثَّلَاثُ الْبَتَّةُ إِنْ كَانَ يَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّحَوُّلِ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُمْ يَسْرِقُونَ أَطْعَمَةَ النَّاسِ يَأْكُلُونَهَا فِي بَيْتِهِ لِأَمْنِهِمْ فِيهِ، لِأَنَّهُ لَا هَرَّ هَنَّاكَ وَلَا أَحَدٌ يَأْخُذُ شَيْئاً وَلَا يُؤْذُونَ، وَإِنْ لَهُمْ لِمُسْنَقَةٍ مَمْلُوءَةٍ مَاءً كَلِمَا جَفَّتْ سَكَبَ لَهُمْ فِيهَا مَاءٌ.

جَعَلَ الْخَبَرَ عَنِ الْفَارِ عَلَى التَّلْمَحِ، كَالْخَبَرِ عَنْ قَوْمٍ عُقْلَاءَ. وقال النبي ﷺ: «أَكْرِمُوا الْخُبْزَ فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمَهُ وَسَخَّرَ لَهُ بَرَكَاتِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ»^(٣).

وقال آخر:

كَأَنَّ صَوْتَ سَخْبِهَا الْمُفْتَحِ سَعَالَ شَيْخٍ مِنْ بَنِي الْجُلَاحِ
يَقُولُ مِنْ بَعْدِ السُّعَالِ أَح

قال الأصمعي: الرَّجِيعُ: الشَّوَاءُ يُسَخَّنُ ثَانِيَةً. وَالنَّقِيعَةُ مَا يُخْرِزُهُ رَئِيسُ الْقَوْمِ مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ أَنْ تُقَسَمَ وَالْجَمْعُ نَقَائِعُ. وقال: أَنَشِدْنِي عَيْسَى بْنُ عَمْرِو لِمَعَاوِيَةَ بْنِ صَعْصَعَةَ:

مِثْلُ الذُّرَى لُحِبْتُ عَرَائِكُهَا لَخَبَ الشُّفَارِ نَقَائِعَ النَّهْبِ

(١) أجم الطعام: مله.

(٢) أي أصابه

(٣) روى السيوطي في الجامع الصغير. باب حرف الألف حديث رقم: ١٤٢٥ - أكرموا الخبز؛ فإن الله أنزله من بركات السماء وأخرجه من بركات الأرض. تصحيح السيوطي: ضعيف.

وقال مُهْلَهْل:

إِنَّا لَنَضْرِبُ بِالسَّيْفِ رُؤُسَهُمْ ضَرَبَ الْقُدَارِ نَقِيعَةَ الْقُدَامِ
الْقُدَارُ: الْجَزَارُ. وَالْقُدَارُ: الْمَلِكُ أَيْضاً. وَالْقُدَامُ: رُؤَسَاءُ الْجِيُوشِ، وَالوَاحِدُ قَادِمٌ.
وَقَالَ مَعْنُ بْنُ أَوْسٍ يَصِفُ هَدِيرَ قَدَرٍ:

إِذَا التَّطَمَّتْ أُمُوجُهَا فَكَأَنَّهَا عَوَائِدُ دُهْمٍ فِي الْمَحَلَّةِ فُيْلُ
إِذَا مَا انْتَحَاهَا الْمُزْمِلُونَ رَأَيْتَهَا لَوْشِكُ قِرَاهَا وَهِيَ بِالْجَزْلِ تُشْعَلُ
سَمِعَتْ لَهَا لَغَطاً إِذَا مَا تَعَطَّمَطَتْ كَهَذِرِ الْجَمَالِ رُزْماً حِينَ تَجْفُلُ

وقال آخر:

إِذَا كَانَ فَضْدُ الْعِرْقِ وَالْعِرْقُ نَاضِبٌ وَكَشَطُ سَنَامِ الْحَيِّ عَيْشاً وَمَغْنَمًا
وَكَانَ عَتِيقُ الْقِدِّ خَيْرَ شَوَائِهِمْ وَصَارَ غَبُوقُ الْخُودِ مَاءً مُحَمَّمًا
عَقَرْتُ لَهُمْ دُهْمًا مَقَاحِيْدَ جِلَّةٍ وَعَادَتْ بَقَايَا الْبَرْكِ نَهْباً مُقَسَّمًا

قال: وَإِذَا كَانَ الْقَحْطُ فَصَدُوا الْإِبِلَ وَعَالَجُوا ذَلِكَ الدَّمَ بِشَيْءٍ مِنَ الْعِلَاجِ لَهَا كَمَا يَصْنَعُ التُّرْكُ، فَإِنَّهَا تَجْعَلُهُ فِي الْمُضْرَانِ، ثُمَّ تَشْوِيهِ أَوْ تَطْبُخُهُ، فَيُؤْكَلُ كَمَا تُؤْكَلُ التَّقَانِيقُ وَمَا أَشَبَّهُ ذَلِكَ.

وأما قوله: «وَالْعِرْقُ نَاضِبٌ» فَإِنَّمَا يَعْنِي قَلَّةَ الدَّمِّ لِهَزَالِ الْبَعِيرِ، وَكَذَلِكَ جَمِيعُ الْحَيَوَانِ، وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ دَمًا إِذَا كَانَ بَيْنَ الْمَهْزُولِ وَالسَّمِينِ.

وَقَالَتْ أُمُّ هِشَامِ السَّلُولِيَّةُ: مَا ذَكَرَ النَّاسُ مَذْكُوراً خيراً مِنَ الْإِبِلِ وَأَجْدَى عَلَى أَحَدٍ بِخَيْرٍ؛ هَكَذَا رُوِيَ.

وَقَالَ الْأَنْدَلِسِيُّ: إِنْ حَمَلْتُ أَنْقَلْتُ، وَإِنْ مَشْتُ أَبْعَدْتُ، وَإِنْ حَلَبْتُ أَرْوَتْ، وَإِنْ نُجِرْتُ أَشْبَعْتُ.

قَالَ أَبُو الْحَسَنِ الْهَيْثَمُ، عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: قَدِمْتُ يَا جُمَيْرِيُّ بِخَمْسِ سَفَائِفَ دَقِيقٍ، وَذَاكَ فِي زَمَنِ مَصْعَبٍ وَهُوَ مُعَسِّكٌ بِهَا فَلَقِيَنِي عِكْرِمَةُ بْنُ رَبِيعِ الشَّيْبَانِيُّ فَقَالَ: بِكُمْ أَخَذْتُمَا؟ قُلْتُ: بَتَسْعِينَ أَلْفًا. قَالَ: فَإِنِّي أُعْطِيكَ مِائَةً وَخَمْسِينَ أَلْفًا عَلَى أَنْ تَوْخَّرَنِي. فَدَفَعْتُهُنَّ إِلَيْهِ، وَمَا فِي الْمُعَسِّكِ يَوْمُئِذٍ دَقِيقٌ. قَالَ: فَجَاءَ بَنُو تَيْمٍ اللَّهُ فَأَخَذُوا ذَلِكَ الدَّقِيقَ، فَجَعَلَ كُلُّ قَوْمٍ يَغْجِنُونَ عَلَى حِيَالِهِمْ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى رَهْوَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فَحَفَرُوهَا، ثُمَّ جَعَلُوا فِيهَا الْحَشِيشَ، ثُمَّ طَرَحُوا ذَلِكَ الْعَجِينَ فِيهَا، ثُمَّ أَقْبَلُوا فَأَخَذُوا فَرَساً وَدِيقاً^(١)... فَخَلَوْا عَنْهُ، ثُمَّ أَقْبَلُوا وَهُوَ يَتَّبِعُهُمْ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى الْحَفِيرَةِ، فَدَفَعُوا

(١) مِنَ الْوِدَاقِ وَهُوَ شَهْوَةُ الْفَحْلِ، وَمَوْضِعُ النِّقَاطِ كَلَامٍ سَاقِطٍ مِنَ الْأَصْلِ.

الفرس الوديق فيها، وتبعها الفرس، وتنادى الفريقان: إن فرس حوُشب وقع في حفيرة عكرمة فما أخرجوه إلا بالعمد. قال: فغلبه عكرمة.

قال الشاعر:

لا أَشْتُمُ الضَّيْفَ إِلَّا أَنْ أَقُولَ لَهُ: أَبَاتَكَ اللَّهُ فِي أَبْيَاتِ عَمَارٍ
أَبَاتَكَ اللَّهُ فِي أَبْيَاتِ مُعْتَنَزٍ عن المكارم لا عَفْ ولا قَارِي
جَلَدِ النَّدَى زَاهِدٍ فِي كُلِّ مَكْرُمَةٍ كَأَنَّمَا ضَيَّفُهُ فِي مَلَّةِ النَّارِ

وقال آخر:

وهو إذا قِيلَ لَهُ: وَنَهَا كُلَّ فَإِنَّهُ مُوَاشِيكَ مُسْتَعَجِلٍ
وهو إذا قِيلَ لَهُ: وَنَهَا فُلَّ فَإِنَّهُ أَخْجَ بِهِ أَنْ يَنْكُلَ

قيل لصوفي: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: لا حدَّ له، ولو أراد الله أن يؤكل بحدٍّ لَبَيَّنَ كما بَيَّنَ جميعَ الحدود. وكيف يكون للأكل حدٌّ، والأكلُ مُخْتَلِفُوا الطَّبَاعِ والمزاج والعارض والعادة، وحكمة الله ظاهرة في إخفاء حدِّ الشَّبَعِ حتى يأكل مَنْ شاء على ما شاء كما شاء.

وقيل لصوفي: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ فقال: ما نشطَ على أداءِ الفرائض، وثَبَّطَ عن إقامة التَّوَافِلِ.

وقيل لمتكلم: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ فقال: حدُّه أن يجلبَ النوم، ويضجرَ القوم، ويبعثَ على اللُّوم.

وقيل لطفيلي: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَنْ يُؤْكَلَ على أنه آخِرُ الزَّادِ، ويُؤْتَى على الجِلِّ والدَّقِّ.

وقيل لأعرابي: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَمَّا عندكم يا حاضرة فلا أذري، وأما عندنا في البادية فما وَجَدَتِ العين، وامتدَّتْ إليه اليد، ودارَ عليه الضُّرسُ وأساعُه الحَلَقُ، وانتَفَخَ به البطن، واستدارت عليه الحَوَايا، واستغاثت منه المَعِدَةُ، وتقوَّست منه الأضلاع، والتَّوَّتْ عليه المصارين، وخيف منه الموت.

وقيل لطبيب: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: ما عدَّلَ الطبيعة، وحَفِظَ المِزَاجَ وأَبْقَى شَهْوَةً لما بَعْدَ.

وقيل لقصار: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَنْ تَثْبَ إلى الجَفَنَةِ كَأَنَّكَ سِرْحَانٌ وتأكل وأنت غَضْبَانٌ، وتَمْضَغُ كأنك شيطان، وتَبْلَعُ كأنك هَيْمَانٌ، وتَدَعُ وأنت سَكْرَانٌ، وتَسْتَلْقِي كأنك أَوَانٌ.

وقيل لحمال: ما حدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَنْ تَأْكُلَ ما رَأَيْتَ بَعْشِرٍ يَدِينُكَ غَيْرَ عَائِفٍ ولا مُتَقَرِّزٍ، ولا كَارِهِ ولا مُتَعَرِّزٍ.

وقيل لمَلّاح: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: حَدُّ السُّكْرِ. قيل: فما حَدُّ السُّكْرِ؟ قال: أَلَا تَعْرِفُ السَّمَاءَ مِنَ الْأَرْضِ، وَلَا الطُّوْلَ مِنَ الْعَرْضِ، وَلَا النَافِلَةَ مِنَ الْقَرْضِ، مِنْ شِدَّةِ التَّهْسِ وَالْكَسْرِ وَالْقَطْعِ وَالْقَرْضِ. قيل له: فَإِنَّ السُّكْرَ مُحَرَّمٌ، فَلِمَ جَعَلْتَ الشَّبَعِ مِثْلَهُ؟ قال: صَدَقْتُمْ، هُمَا سُكْرَانِ: أَحَدُ السُّكْرَيْنِ مَوْصُوفٌ بِالْعَيْبِ وَالْخَسَارِ، وَالْآخَرُ مَعْرُوفٌ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ. قيل له: أَمَا تَخَافُ الْهَيْضَةَ؟ قال: إِنَّمَا تُصِيبُ الْهَيْضَةُ مَنْ لَا يَسْمِي اللَّهَ عِنْدَ أَكْلِهِ، وَلَا يَشْكُرُهُ عَلَى النِّعْمَةِ فِيهِ. فَأَمَّا مَنْ ذَكَرَ اللَّهَ وَشَكَرَهُ فَإِنَّهُ يَهْضِمُ وَيَسْتَمِرُّ وَيَقْرُمُ إِلَى الزِّيَادَةِ.

وقيل لبخيل: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: الشَّبَعُ حَرَامٌ كُلُّهُ، وَإِنَّمَا أَحَلَّ اللَّهُ مِنَ الْأَكْلِ مَا نَفَى الْخَوَى، وَسَكَنَ الصُّدَاعَ، وَأَمْسَكَ الرَّمَقَ، وَحَالَ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ الْمَرْحِ، وَهَلْ هَلَكَ النَّاسُ فِي الدِّينِ وَالْدُنْيَا إِلَّا بِالشَّبَعِ وَالتَّضْلُعِ وَالْبِطْنَةِ وَالْإِحْتِشَاءِ، وَاللَّهُ لَوْ كَانَ لِلنَّاسِ إِمَامٌ لَوَكَّلَ بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ عَادَةَ الصَّحَةِ، وَحَالَةَ الْعَدَالَةِ، حَتَّى يَزُولَ التَّعَدِّي، وَيَفْشُو الْخَيْرُ.

وقيل لجُنْدِيٍّ: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: مَا شَدَّ الْعَضُدَ، وَأَخَمَى الظَّهْرَ، وَأَدَّرَ الْوَرِيدَ، وَزَادَ فِي الشَّجَاعَةِ.

وقيل لَزَاهِدٍ: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: مَا لَمْ يَحُلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ صَوْمِ النَّهَارِ وَقِيَامِ اللَّيْلِ. وَإِذَا شَكَا إِلَيْكَ جَائِعٌ عَرَفْتَ صِدْقَهُ لِإِحْسَاسِكَ بِهِ.

وقيل لَمَدَنِيٍّ: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ فقال: لَا عَهْدَ لِي بِهِ، فَكَيْفَ أَصِفُ مَا لَا أَعْرِفُ؟
وقيل لِمَنِيٍّ: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَنْ يُخْشَى حَتَّى يُخْشَى.
وقيل لثُرَكِيٍّ: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: أَنْ تَأْكُلَ حَتَّى تَذُنُّ مِنَ الْمَوْتِ.
وقيل لِسَمَوِيهِ الْقَاصِّ: مَنْ أَفْضَلُ الشَّهَدَاءِ؟ قال: مَنْ مَاتَ بِالتَّخَمَةِ، وَدُفِنَ عَلَى الْهَيْضَةِ.

قيل لِسَمَرْقَنْدِيٍّ: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: إِذَا جَحَظْتَ عَيْنَكَ، وَبَكِمَ لِسَانُكَ، وَثَقُلْتَ حَرَكَتَكَ، وَازْجَحَنَ بَدَنُكَ، وَزَالَ عَقْلُكَ، فَأَنْتَ فِي أَوَائِلِ الشَّبَعِ. قيل له: إِذَا كَانَ هَذَا أَوَّلَهُ، فَمَا آخِرُهُ؟ قال: أَنْ تَنْشَقَّ نِصْفَيْنِ.

قيل لِهِنْدِيٍّ: ما حَدُّ الشَّبَعِ؟ قال: الْمَسْأَلَةُ عَنْ هَذَا كَالْمُحَالِ، لِأَنَّ الشَّبَعِ مِنَ الْأَرْزُ النَّقِيِّ الْأَبْيَضِ، الْكِبَارِ الْحَبِّ، الْمَطْبُوحِ بِاللَّبَنِ الْحَلِيبِ، الْمَغْرُوفِ عَلَى الْجَامِ الْبَلُورِ، الْمَدُوفِ^(١) بِالسُّكَّرِ الْفَاتِقِ، مُخَالَفٌ لِلشَّبَعِ مِنَ السَّمَكِ الْمَمْلُوحِ وَخُبْزِ الدَّرَّةِ، وَعَلَى هَذَا يَخْتَلِفُ الْأَمْرُ فِي الشَّبَعِ. فَقِيلَ لَهُ: فَدَعْ هَذَا، إِلَى مَتَى يَنْبَغِي أَنْ يَأْكُلَ الْإِنْسَانُ؟ قال: إِلَى أَنْ يَقَعَ لَهُ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ لُقْمَةً زَهَقَتْ نَفْسُهُ إِلَى النَّارِ.

قيل لمُكارٍ: ما حَدَّ الشَّبَع؟ قال: واللَّهِ ما أَذْري، ولكن أُحِبُّ أَنْ أَكَلَ ما مَسَى
جِمَارِي مِنَ المَنْزِلِ إِلَى المَنْزِلِ.

قيل لجَمَّال: ما حَدَّ الشَّبَع؟ قال: أنا أَوَّصِلُ الأَكَلَ فما أَعْرِفُ الحَدَّ، ولو كُنْتُ
أَنْتَهِي لَوَصَفْتُ الحَالَ فِيهِ، أَعْنِي أَنِّي سَاعَةً أَلْتُ الدَّقِيقَ، وسَاعَةً أَمَلَّ المَلَّةَ، وسَاعَةً
أَثْرَدُ، وسَاعَةً أَكَلُ وسَاعَةً أَشْرَبُ لَبَنَ اللَّقَاحِ؛ فليس لي فَرَاغ فَأَدْرِي أَنِّي بَلَغْتُ مِنَ
الشَّبَعِ، إِلَّا أَنِّي أَعْلَمُ فِي الجُمْلَةِ أَنَّ الجُوعَ عَذَابٌ وَأَنَّ الأَكَلَ رَحْمَةٌ، وَأَنَّ الرَّحْمَةَ كُلَّمَا
كَانَتْ أَكْثَرَ، كَانَ العَبْدُ إِلَى اللَّهِ أَقْرَبَ، واللَّهِ عَنْهُ أَرْضَى.

قال الوزير لَمَّا بَلَغْتُ هَذَا المَوْضِعَ مِنَ الجُزْءِ - وَكُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ -: ما أَحْسَنَ ما
اجْتَمَعَ مِنْ هَذِهِ الأَحَادِيثِ! هل بَقِيَ مِنْهَا شَيْءٌ؟ قلت: بَقِيَ مِنْهَا جُزْءٌ آخَرُ.
قال: دَعُهُ لَلَّيْلَةِ أُخْرَى وَهَاتِ مُلَحَّةَ الوَدَاعِ.

قلت: قيل لَصُوفِيٍّ فِي جَامِعِ المَدِينَةِ: ما تَسْتَهِي؟ قال: مَائِدَةٌ رَوْحَاءٌ عَلَيْهَا جَفْنَةٌ
رَحَاءٌ، فِيهَا ثَرِيدَةٌ صَفْرَاءٌ، وَقِدْرٌ حَمْرَاءٌ بِيضَاءٌ.

قال: أَبَيَّنْتَ الآنَ أَلَّا تَوَدُّعَ إِلَّا بِمِثْلِ ما تَقَدَّمَ؟ وَانصَرَفْتُ.

الليلة الثانية والثلاثون

ثم حضرت فقرأت ما بقي من هذا الفن .
قال رجل من فزارة :

تَنْبَحُ أَحْيَانًا وَأَحْيَانًا تَهْرُ وَتَتَمَطَّى سَاعَةً وَتَقْدَحِرُ
تَعْدُو عَلَى الضَّيْفِ بَعْدَ مُنْكَسِرِ يَسْقُطُ عَنْهَا ثَوْبُهَا وَتَأْتِرُ
لَوْ نُحِرَتْ فِي بَيْتِهَا عَشْرُ جُرُزْ لِأَضْبَحَتْ مِنْ لَحْمِهِنَّ تَغْتَذِرُ
بِحَلِيفِ سَخٍّ وَدَمْعٍ مِنْهُمْ مِرْ يَفِرُّ مَنْ قَاتَلَهَا وَلَا تَفِرُ
المُقْدَحِرُ : المتهيبُ للسُّبَابِ .
وقال أبو دلامة الأسدي .

قَدْ يُشْبِعِ الضَّيْفَ الَّذِي لَا يَشْبَعُ مِنْ الْهَيْبِ وَالْجِرَادِ تَسَعُ
ثم يقول أَرْضُوا بهذا أَوْ دَعُوا

وقال آخر :

حَتَّى إِذَا أَضْحَى تَدْرَى وَانْتَحَلَ لَجَارَتَيْهِ ثُمَّ وَلَّى فَنَثَلَ
ذَرَقَ الْأَثْوَقَيْنِ الْقَرْنَبَى وَالْجَعَلَ

وقال آخر :

إِذَا أَتَوْهُ بِطَعَامٍ وَأَكَلَ بَاتَ يُعَشِّي وَحَدَّه أَلْفِي جُعَلَ
وقال أبو النجم :

تَذْنِي مِنَ الْجَدُولِ مِثْلَ الْجَدُولِ أَجُوفَ فِي غَلَصَمَةٍ كَالْمِرْجَلِ
تَسْمَعُ لِلْمَاءِ كَصَوْتِ الْمِسْحَلِ بَيْنَ وَرِيدَيْهَا وَبَيْنَ الْجَحْفَلِ
يُلْقِيهِ مِنْ طُرُقِ أَتْشَاهَا مِنْ عَلٍ قَذْفُ لَهَا جَوْفٍ وَشِدْقٍ أَهْدَلِ
كَأَنَّ صَوْتَ جَزْعِهَا الْمُسْتَعْجَلِ جَنْدَلَةٌ دَهْدَهَتْهَا فِي جَنْدَلِ

وقال آخر :

يَقُولُ لِلطَّاهِي الْمُطَرِّي فِي الْعَمَلِ ضَهَبَ لَنَا إِنَّ الشُّوَاءَ لَا يُمَلُ
بِالشَّخْمِ إِمَّا قَدْ أَجْمَنَاهُ بِخَلِ عَجَلُ لَنَا مِنْ ذَا وَالْحِقُّ بِالْبَدَلِ

وأنشد ابن الأعرابي:

أَعْدَدْتُ لِلضَّيْفِ وَلِلرَّفِيقِ والجَارِ وَالصَّاحِبِ وَالصَّدِيقِ
وَلِلْعِيَالِ الدَّرْدَقِ اللَّصُوقِ حمراءَ مِنْ مَعَزِ أَبِي مَرْزُوقِ
تَلَحَّسْ خَدَّ الْحَالِبِ الرَّفِيقِ بَلَيْنِ الْمَسِّ قَلِيلِ الرَّيْقِ
كَأَنَّ صَوْتَ شُخْبِهَا الْفَتِيقِ فَحَيْحُ ضَبِّ حَرْبِ حَنِيقِ
فِي جُحْرِ ضَاقٍ أَشَدَّ الضَّيْقِ

وأنشد أيضاً:

هَلْ لَكَ فِي مِقْرَةٍ قَنِيلِ نِيٍّ وَشَكْوَةٍ بَارِدَةِ النَّسِيِّ
تُخْرِجُ لَحْمَ الرَّجُلِ الضُّوِيِّ حَتَّى تَرَاهُ نَاهِدَ الثُّدِيِّ
وَأَنشَدَ ابْنُ حَبِيبٍ:
نِعْمَ لَقُوعُ الصُّبْنَةِ الْأَصَاغِرِ شَرُوبُهُمْ مِنْ حَلَبٍ وَحَاظِرِ
حَتَّى يَرُوحُوا سَقَطَ الْمَازِرِ وَضَعُ الْفِقَاحِ نُشْزِ الْخَوَاصِرِ
وَأَنشَدَ الْأَمْدِيُّ:

كَأَنَّ فِيهِ حِرَاباً شُرْعَا زُرْقاً تَفُضُّ الْبَدَنَ الْمُدْرَعَا
لَوْ عَضَّ رُكْنَا وَصَفَا تَصَدَّعَا

وقال محمد بن بشير:

لَقَلَّ عَاراً إِذَا ضَيَّفَ تَضَيَّفَنِي مَا كَانَ عِنْدِي إِذَا أُعْطِيتُ مَجْهُودِي
فَضْلُ الْمُقِلِّ إِذَا أُعْطَاهُ مُضْطَبِّراً وَمُكْثِرِ فِي الْغِنَى سَيَّانٍ فِي الْجُودِ
لَا يَعْدُمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ أَفْعَلُهُ إِمَّا نَوَالِي وَإِمَّا حُسْنَ مَرْزُودِي
قال الأعرابي: نِعَمَ الْغَدَاءُ السَّوِيْقُ، إِنْ أَكَلْتَهُ عَلَى الْجُوعِ عَصَمَ، وَإِنْ أَكَلْتَهُ عَلَى الشَّبَعِ هَضَمَ.

وقال العَوَّامِي - وَكَانَ زَوَّاراً لِإِخْوَانِهِ فِي مَنَازِلِهِمْ -: الْعُبُوسُ بُوسٌ، وَالْبِشْرُ بُشْرَى، وَالْحَاجَةُ تَفْتَقُ الْحِيلَةَ، وَالْحِيلَةُ تَشْحَدُ الطَّبِيعَةَ.

ورَأَيْتُ الْحَنْبَلُونِي يُنْشِدُ ابْنَ آدَمَ - وَكَانَ مُوسِراً بِخَيْلٍ -:

وَمَا لَامَرِي طَوْلَ الْخُلُودِ وَإِنَّمَا يُخَلِّدُهُ حُسْنُ النَّئَاءِ فَيَخْلُدُ
فَلَا تَدْخِرُ زَاداً فَتُضْبِحَ مُلْجَأً إِلَيْهِ وَكُلُّهُ الْيَوْمَ يُخْلِفُهُ الْعَدُ

وَحَكَى لَنَا ابْنُ أَسَادَةَ قَالَ: كَانَ عِنْدَنَا - يَعْنِي بِأَصْفَهَان - رَجُلٌ أَعْمَى يَطُوفُ وَيَسْأَلُ، فَأَعْطَاهُ مَرَّةً إِنْسَانٌ رَغِيفاً، فَدَعَا لَهُ وَقَالَ: أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ،

وجزاك خيراً، وردَّ غُرْبَتِكَ. فقال له الرَّجُلُ: وَلَمْ ذَكَرْتَ الْغُرْبَةَ فِي دُعَاكَ، وما عَلِمْتُكَ بِالْغُرْبَةِ؟ فقال: الآن لي هاهنا عشرون سَنَةً ما ناولني أحدٌ رَغِيفاً صحيحاً.

وقال آخر:

يُرَى جَارُهُمْ فِيهِمْ نَحِيفاً وَضِيفُهُمْ يَجُوعُ وَقَدْ بَاتُوا مِلَاءَ الْمَذَاخِرِ
وقال الْكَرَّوْسِيُّ:

وَلَا يَسْتَوِي الْاِثْنَانِ لِلضَّيْفِ: آنَسٌ كَرِيمٌ، وَزَاوٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ قَاطِبٌ
وَأُنْشَدَ:

طَعَامُهُمْ فَوْضَى فَضَى فِي رِحَالِهِمْ وَلَا يُخْسِنُونَ السُّرَّ إِلَّا تَنَادِيَا
وَأُنْشَدَ آخَرُ:

يُمَانٌ وَلَا يَمُونُ وَكَانَ شَيْخاً شَدِيدَ اللَّفْمِ هَلْقَاماً بَطِينَا
العرب تقول: إِذَا شَبِعَتْ الدَّقِيقَةُ لَحَسَتْ الْجَلِيلَةُ.

قال ابنُ سَلَامٍ: كَانَ يُخْبَزُ فِي مَطْبَخِ سُلَيْمَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي كُلِّ يَوْمٍ سِتْمِائَةُ كُرٍّ حِنْطَةٍ، وَيَذْبَحُ لَهُ فِي كُلِّ غَدَاةٍ سِتَّةُ آلَافِ ثُورٍ وَعَشْرُونَ شَاةً، وَكَانَ يُطْعَمُ النَّاسَ وَيُجْلِسُ عَلَى مَائِدَتِهِ بِجَانِبِهِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَأَبْنَاءَ السَّبِيلِ، وَيَقُولُ لِنَفْسِهِ: مَسْكِينُ بَيْنَ مَسَاكِينِ.

ولما وَرَدَ تِهَامَةٌ وَاقَى الْحَرَمَ وَذَبَحَ لِلْبَيْتِ طَوْلَ مُقَامِهِ بِمَكَّةَ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَةَ آلَافِ نَاقَةٍ وَخَمْسَةَ آلَافِ ثُورٍ وَعَشْرِينَ أَلْفَ شَاةٍ. وَقَالَ لِمَنْ حَضَرَ: إِنَّ هَذَا الْمَكَانَ سَيَخْرُجُ مِنْهُ نَبِيٌّ صِفَتُهُ كَذَا وَكَذَا.

وقال أعرابي:

وَإِذَا خَشِيتَ مِنَ الْفَوَادِ لَجَاجَةً فَاضْرِبْ عَلَيْهِ بِجُرْعَةٍ مِنْ رَائِبٍ
وروى هشيم أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - قَالَ: مِنْ كَرَمِ الْمَرْءِ أَنْ يَطِيبَ زَادَهُ فِي السَّفَرِ.
وقال ابن الأعرابي: يَقَالُ: جَاءَ فُلَانٌ وَلَقَدْ لَغَطَ رِبَاطُهُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ.
وَأُنْشَدَ:

رَبَا الْجُوعُ فِي أَوْنِيهِ حَتَّى كَأَنَّهُ جَنِيبٌ بِهِ إِنَّ الْجَنِيبَ جَنِيبُ
أَي جَاعَ حَتَّى كَأَنَّهُ يَمْشِي فِي جَانِبٍ مُتَعَقِّفاً^(١).

وقال أيضاً: إِنَّ مِنْ شُؤْمِ الضَّيْفِ أَنْ يَغِيبَ عَنْ عِشَاءِ الْحَيِّ، أَيْ لَا يُذَكِّرْكَ، فَيُرِيدُ إِذَا جَاءَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّفُوا لَهُ عِشَاءً عَلَى حِدَةٍ.

(١) متعقفاً أي معوجاً.

وأنشد:

حَيَّاكَ رَبُّكَ واضْطَبَّخْتَ ثَرِيدَةً وإدامُها رُزٌّ وَأَنْسَتْ تُدَبِّلُ
واللُّقْمَةُ واللُّقْمَةُ إِذَا جُمِعَتَا مِنَ الثَّرِيدِ والعصائدُ يُقالُ لهما دُبْلَةٌ، ومنه سَمِيَتْ
الدُّبَيْلَةُ، وهي الْوَرَمُ الَّذِي يَخْرُجُ بِالنَّاسِ. وأنشد:
أَقُولُ لِمَا ابْتَرَكُوا جُنُوحًا بِقَضْعَةٍ قَدْ طُفِّحَتْ تَطْفِيحًا
دَبِّلُ أَبَا الْجَوَزَاءِ أَوْ تَطْلِيحًا

وقال الْفَرَزْدَقُ:

فَدَبَّلْتُ أَمْثَالَ الْأَنْفِئِ كَأَنَّهَا رُؤُوسُ أَعَادٍ قُطِعَتْ يَوْمَ مَجْمَعِ
وقال سعيد بن المسيَّب: قال رسول الله ﷺ: «أَطِيبُوا الطَّعَامَ فَإِنَّهُ أَنْفَى
لِلسُّخْطِ، وَأَجْلِبُ لِلشُّكْرِ، وَأَرْضَى لِلصَّاحِبِ». قال بشار:

يَعْصُ إِذَا نَالَ الطَّعَامَ بِذِكْرِكُمْ وَيَشْرِقُ مِنْ وَجْدٍ بِكُمْ حِينَ يَشْرَبُ
المَسْعُورُ: الجائع. قال هميان بن قُحافة:
لَأَقَى صَحَافًا بَطْنًا مَسْعُورًا

وقال شاعر:

يَمْشِي مِنَ الْبُطْنَةِ مَشْيَ الْأَبْرَحِ
الْبَرْحُ: دخول البطن وخروج الثَّئِثَةِ أَسْفَلَ السُّرَّةِ.
وقال آخر:

أَغْرُ كَمَصْبَاحِ الدُّجْنَةِ يَتَّقِي شَذَى الزَّادِ حَتَّى تُسْتَفَادَ أَطَايِبُهُ
شدهاء: طيبه.

وقال أعرابي: بنو فلان لا يَبْرُزُونَ ولا يَقْدُرُونَ^(١).

وقال الثوري: بَطَّنُوا غَدَاءَكُمْ بِشَرْبَةٍ.

وقال الشاعر:

لَا يَسْتَوِي الصَّوْتَانِ حِينَ تَجَاوَبَا صَوْتُ الْكَرِيبِ وَصَوْتُ ذَنْبٍ مُقْفِرِ
الْكَرِيبُ: الشَّوْبَقُ وهو الْمِخْوَرُ وَالْمِسْطَحُ.
وقال الشاعر:

إِذَا جَاءَ بَاغِي الْخَيْرِ قُلْنَا بِشَاشَةٍ لَهُ بَوِجُوهُ كَالدَّنَانِيرِ: مَرْحَبًا

(١) لا يبرزون: من بزر القدر إذا رميت فيها البزر، ولا يقدرُونَ من الْقَدَر وهو الطبخ في القدر.

وأهلاً فلا ممنوع خير تريده ولا أنت تخشى عندنا أن نُؤوِّبَا
قال الشعبي: استسقيت على خوانٍ قتيبة، فقال: ما أسقيك؟ فقلت: الهينُ
الوجد، العزيزُ الفقْد، فقال: يا غلام، اسقه الماء.

مرُّ مسكينٍ بأبي الأسود ليناً وهو ينادي: أنا جائع! فأدخله وأطعمه حتى شبع،
ثم قال له: انصرف إلى أهلك، وأتبعه غلاماً وقال له: إن سمعته يسأل فازدده إليّ.
فلما جاوزَه المسكينُ سأل كعاده، فتشبَّث به الغلامُ وردَّه إلى أبي الأسود. فقال: ألم
تشبع؟ فقال: بلى. قال: فما سؤالك؟ ثم أمر به فحس في بيت وأغلق عليه الباب،
وقال: لا تُروِّع مسلماً سائر الليلة ولا تكذب. فلما أصبح خلَّى سبيله، وقال: لو
أطعنا السؤالَ صرنا مثلهم.

وسمع دابةً له تغتلف في جوف الليل، فقال: إني لأراك تسهرين في مالي
والناس نيام، والله لا نصبحين عندي. وباعها.

وأبو الأسود يُعدُّ في الشعراء والتابعين والمحدثين والبُخلاء والمفاليج والنحويين
والقضاة والعُرج والمعلمين.

وقال الشاعر:

أنفق أبا عمرو ولا تعدّرا وكل من المال وأطعم من عرا
لا ينفع الدّزهم إلا مُدبراً

كان مُسلم بن قتيبة لا يجلس لحوائج الناس حتى يشبع من الطعام الطيب،
ويروى من الماء البارد، ويقول: إن الجائع ضيق الصدر، فقير النفس، والشبعان
واسع الصدر، غني النفس.

وقال أعرابي:

هَلَكْتُ هَرِيئَةً^(١) وَهَلَكْتُ جُوعاً وَخَرَقَ مِغْدَتِي شَوْكُ الْقَتَادِ
وَحَبَّةُ حَنْظَلٍ وَلِبَابُ قَطْنٍ وَتُؤْمُ يَنْظُمُ بَطْنٌ وَادِي

وقال الفرزدق:

وإن أبا الكرشاء ليس بسارقٍ ولكنّه ما يسرق القومُ يأكل
ولديك الجح:

إذا لم يكن في البيت ملحٌ مطيبٌ وخَلٌ وزيتٌ حَوْلَ حُبِّ دَقِيقِ
فِرَاسُ ابنِ أُمِّي في جِرَامِ ابنِ خالتي ورأسُ عدوي في جِرَامِ صديقي

وقال آخر:

وما جيرة إلا كليب بن وائل ليالي تحمي عزّة منبت البقل
وقال مسعر بن مكدّم لرقبة بن مضقلة: أراك طفيلياً. قال: يا أبا محمد، كلُّ
من ترى طفيلي إلا أنهم يتكاثمون.

وقال شاعر:

قوم إذا آنسوا ضيفاً فلم يجدوا إلا دم الرأس صبّوه على الباب
قال المفجع: الرأس الرئيس.
اشتدّ بأبي فرعون الشايب الحال فكتب إلى بعض القضاة بالبصرة:

يا قاضي البصرة ذا الوجه الأعز إليك أشكو ما مضى وما عجز
عفا زماناً وشتاء قد حضر إن أبا عمرة^(١) في بيتي انحجز
يضرّب بالدف وإن شاء زمر فاطرده عني بدقيق ينتظر
فأجابه إلى ما سأل.

ويقال: وقف أعرابي على حلقة الحسن البصري رحمه الله عليه فقال: رحم
الله من أعطى من سعة، وواسى من كفاف، وآثر من قلة. فقال الحسن: ما أبقي
أحداً إلا سألّه.

وقال ابن حبيب: يقال أحمق من الضبع، وذلك أنها وجدت تؤدية في غدير،
فجعلت تشرب الماء وتقول: «يا حبذا طعم اللبن» حتى انشق بطنها فماتت.
والتؤدية: العود يشد على رأس الخلف^(٢) لئلا يرضع الفصيل أمّه.

دعا رجل آخر فقال له: هذه تكسب الزيارة وإن لم تسعد، ولعل تقصيراً أنفع
فيما أحب بلوغه من برك. فقال صاحبه: حرصك على كرامتي يكفيك مؤونة
التكلف لي.

قيل لأعرابي: لو كنت خليفة كيف كنت تصنع؟ قال: كنت أستوفي شريف كل
قوم ناحيته، ثم أخلو بالمطبخ فأمر الطهارة فيغظمون الثريدة ويكثرون العراق^(٣)، فأبداً
فأكل لقمًا، ثم أذن للناس، فأني ضياع يكون بعد هذا؟!

وقال أعرابي لابن عم له: والله ما جفائكم بعظام، ولا أجسامكم بوسام، ولا
بدت لكم نار، ولا طوليتم بشار.

(١) كناية عن الجوع.

(٢) الخلف: الضرع.

(٣) جمع عرق وهو العظم الذي أكثر ما عليه من اللحم وبقي عليه شيء يسير.

وقيل لأعرابي: لِمَ قالت الحاضرة للعبد: باعَكَ اللَّهُ في الأعراب؟ قال: لأنَّنا نُعْرِى جِلْدَهُ، وَنُطِيلُ كَدَّهُ، وَنُجِيعُ كَيْدَهُ.

وقال طفيلي: إِذَا حُدُنْتُ عَلَى الْمَائِدَةِ فَلَا تَزِدْ فِي الْجَوَابِ عَلَى نَعَمٍ، فَإِنَّكَ تَكُونُ بِهَا مُؤَانِساً لَصَاحِبِكَ، وَمُسِيغاً لِلْقَمَتِكَ، وَمُقْبِلاً عَلَى شَأْنِكَ.

وقيل لأعرابي: أَيُّ شَيْءٍ أَحَدٌ؟ قال: كَيْدٌ جَائِعَةٌ، تُلْقِي إِلَى أَمْعَاءِ ضَالِعة^(١).
وقيل لآخر: أَيُّ شَيْءٍ أَحَدٌ؟ قال ضِرْسُ جَائِعٍ، يُلْقِي إِلَى مَعَى ضَالِعٍ وقال آخر:
أَحِبُّ أَنْ أَضْطَادَ ضَبًّا سَخْبَلًا وَوَزَلًا يَزْتَادُ رَمَلًا أَرْمَلًا
قَالَتْ سُلَيْمَى لَا أَحِبُّ الْجَوْزَلَا وَلَا أَحِبُّ السَّمَكَاتِ مَأْكَلَا

الْجَوْزَلُ: قَرْخُ الْحَمَامِ. وَالْوَزَلُ: دَابَّةٌ. أَرْمَلٌ: صِفَةُ لِلْوَزَلِ. وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ كَانَ أَسْمَنَ لَهُ، وَهُوَ يَسْفِدُ فَيَهْزُلُ.

ويقال: أَقْبَحُ هَزِيلَيْنِ: الْمَرَأَةُ وَالْفَرَسُ، وَأَطْيَبُ غَثٌ أَكْلَ غَثِ الْإِبِلِ، وَأَطْيَبُ الْإِبِلِ لَحْماً مَا أَكَلَ السَّعْدَانِ^(٢)، وَأَطْيَبُ الْغَنَمِ لَبَنًا مَا أَكَلَ الْخُرْبُثَ.

ويقال: أَهْوَنُ مَظْلُومٍ سِقَاءُ مُرَوِّبٍ، وَهُوَ الَّذِي يُسْقَى مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يُمَخَّضَ وَتُخْرَجَ زُبْدَتُهُ.

ويقال: سَقَانَا ظَلِيمَةً وَطَبِهِ، وَقَدْ ظَلِمْتُ أَوْطَبُ الْقَوْمِ.

وقال الشاعر:

وَصَاحِبِ صِدْقٍ لَمْ تَنْلِنِي شَكَائِهِ ظَلِمْتُ وَفِي ظَلَمِي لَهُ عَامِداً أَجْرُ

يعني وَطَبَ لَبَنٍ.

وكان الحسنُ البصريُّ إِذَا طَبَخَ اللَّحْمَ قَالَ: هَلُمُّوا إِلَى طَعَامِ الْأَحْرَارِ.

قال سفيانُ الثوريُّ: إِنِّي لَأَلْقَى الرَّجُلَ فيقول لي مرحباً فيلِينُ له قلبي، فكيف بمن أَطَأَ بِسَاطِهِ، وَأَكَلَ ثَرِيدَهُ، وَأَزْدَرَدَ عَصِيدَهُ؟

حكى أبو زيد: قَدْ هَجَأَ غَزْيِي^(٣): إِذَا ذَهَبَ، وَقَدْ أَهْجَأَ طَعَامُكُمْ غَزْيِي: إِذَا

قَطَعَهُ. قال الشاعر:

فَأَخْزَاهُمْ رَبِّي وَدَلَّ عَلَيْهِمْ وَأَطْعَمَهُمْ مِنْ مَطْعَمٍ غَيْرِ مُهْجِي

قال: وَيُقَالُ: بَأَزْتُ بُؤْرَةً فَأَنَا أَبَاؤُهَا، إِذَا حَفَرْتَ حَفِيرَةً يُطَبَخُ فِيهَا وَهِيَ الْإِرَّةُ.

ويقال: أَرُتْ إِرَةً فَأَنَا أَثْرُهَا وَأَرَأَا.

(١) أي قوية.

(٢) نوع من أنواع النبات، وهو من أفضل مراعي الإبل.

(٣) الغرث: الجوع.

وقال حسان:

تَخَالُ قُدُورَ الصَّادِ حَوْلَ بُيُوتِنَا قَنَابِلٌ^(١) دُهِمَاءُ فِي الْمَبَاءِ ضِيْمَا
قال أبو عبيدة: كان الأصمعيّ بخيلاً، وكان يَجْمَعُ أَحَادِيثَ الْبُخْلَاءِ وَيُوصِي بِهَا
وَلَدَهُ وَيَتَحَدَّثُ بِهَا.

وكان أبو عبيدة إذا ذُكِرَ الْأَصْمَعِيُّ أَنشَدَ:

عَظُمَ الطَّعَامُ بِعَيْنِهِ فَكَأَنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ لِلْأَكْلَيْنِ طَعَامٌ
ويقال: أَسَارَتْ، إذا أَبْقَيْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ أَوْ غَيْرِهِمَا، وَالْأَسْمُ
السُّورُ وَجَمَاعَتُهُ الْأَسَارُ. ويقال: فَأَذْتُ الْخُبْزَةَ فِي الْمَلَةِ^(٢) أَفَادُهَا إِذَا خَبَزَتْهَا
فِيهَا. وَالْمِفَادُ: الْحَدِيدَةُ الَّتِي يُخْبَزُ بِهَا وَيُشْوَى. ويقال: تَمَلَأْتُ مِنَ الْأَكْلِ
وَالشَّرَابِ تَمَلُّوْا، إِذَا شَبِعْتَ مِنْهُمَا وَامْتَلَأْتَ. ويقال: لَفَأْتُ اللَّحْمَ عَنِ الْعِظَمِ لَفَأً
إِذَا جَلَفْتَ اللَّحْمَ عَنِ الْعِظَمِ. وَاللَّفِيفَةُ هِيَ الْبَضْعَةُ الَّتِي لَا عَظْمَ فِيهَا نَحْوُ
النَّخْضَةِ وَالْهَبْرَةِ وَالْوَذْرَةِ.

وَأَنشَدَ يَعْقُوبُ:

سَقَى اللَّهَ الْغَضَا وَخُبُوتَ قَوْمٍ مَتَى كَانَتْ تَكُونُ لَهُمْ دِيَارَا
أُنَاسٌ لَا يُنَادِي الضَّيْفَ فِيهِمْ وَلَا يَقْرُونَ آنِيَةً صِغَارَا
قال الأصمعي: قال ابن هُبَيْرَةَ: تَعْجِيلُ الْغَدَاءِ يَزِيدُ فِي الْمَرْوَةِ، وَيَطْيِبُ النَّكْهَةَ،
وَيُعِينُ عَلَى قَضَاءِ الْحَاجَةِ.

قال بعض الْعَرَبِ: أَطْيَبُ مَضْغَةٍ أَكَلَهَا النَّاسُ صِيْحَانِيَّةٌ^(٣) مُصْلَبَةٌ.

ويقال: أَكَلْتُ الدَّوَابَّ، بِرَذَوْنَةٍ رَغُوثٌ وَهِيَ الَّتِي يَرْضَعُهَا وَلَدُهَا.

قال أبو الحارث حميد: مَا رَأَيْتُ شَيْئاً أَشَبَهَ بِالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ مِنْ قَدْرِ سُقَيْتِ
اللبن كثيرة السُّكَّرِ.

وقال الشاعر:

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي رَفِيقِي أَنْ يَرَى مَكَانَ يَدَيَّ مِنْ جَانِبِ الزَّادِ أَقْرَعَا
ضَمَّ عِثْمَانَ بْنِ رَوَاحٍ السَّقَرُ وَرَفِيقاً لَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّفِيقُ: امْضُ إِلَى السُّوقِ فَاشْتَرِ
لَنَا لَحْماً. قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ. قَالَ: فَمَضَى الرَّفِيقُ وَاشْتَرَى اللَّحْمَ ثُمَّ قَالَ لِعِثْمَانَ: قُمْ
الْآنَ فَاطْبُخِ الْقِدْرَ. قَالَ: وَاللَّهِ مَا أَقْدِرُ. فَطَبَخَهَا الرَّفِيقُ. ثُمَّ قَالَ: قُمْ الْآنَ فَاتْرُدْ.

(١) القنابل: طوائف الجوع.

(٢) موضع النار.

(٣) الصيحاني: نوع من أنواع تمر المدينة.

قال: واللّه إني لأعجزُ عن ذلك. فترَدَ الرّقِيقُ. ثم قال: قم الآن فكلْ. فقال: واللّه لقد استحييتُ من كثرةِ خِلافي عليك، ولولا ذلك ما فعلتُ.

قال يونس: أتيتُ ابن سيرينَ فدَعَوْتُ الجاريةَ، فسمِعته يقول: قُولي إنّه نائم. فقلت: معي حَيِص. فقال: مكانك حتى أخرج إليك.

قال أردشير: إحدروا صولةَ الكريم إذا جاع، واللّثيم إذا شبع.
قال النبي ﷺ فيما رَواه جابرُ بنُ عبد الله: هَلَاكُ الرَّجُلِ أَنْ يَحْتَقِرَ مَا فِي بَيْتِهِ أَنْ يَقْدَمَهُ إِلَى ضَيْفِهِ، وَهَلَاكُ الضَّيْفِ أَنْ يَحْتَقِرَ مَا قُدِّمَ إِلَيْهِ.

وقال الشاعر:

يا ذاهباً في داره جائياً بغير معنى وبلا فائدة
قد جُنَّ أضيافُك من جوعهم فاقرأ عليهم سورة المائدة

وقال ابن بَدْر:

ونحن نبذلُ عند القحطِ ما أكلوا من السديفِ إذا لم يؤنسِ القرعُ
وننحر الكومَ عبطاً في أرومتنا للنازلين إذا ما استنزِلوا شبعوا

وقال آخر:

أطعمني بيضةً وناولني من بعد ما دُفئتَ فقده قدحا
وقال أيُّ الأصواتِ تسئلُني؟ يزيد، إنني أراك مُقتَرِحاً
فقلتُ صوتُ المِقْلَى وجَزْدَقَةٌ إن خابَ ذا الاقتراحِ أو صلحاً
فقطَّبَ الوجهَ وانثنى غضباً وكان سكران طافحاً فصحاً
فقلتُ: إنني مزحت، قال: كذا رأيتُ حُرّاً بمثلِ ذا مزحاً؟

قال ابن حبيب: كان الرجلُ إذا اشتدَّ عليه الشتاءُ تنحى ونزلَ وحده لثلاً ينزل به ضيفٌ فيكونُ صُفْعاً مُستَحَبّاً.

وهذا ضدُّ قول زهير:

بسطَ البيوتَ لكي تكونَ مطيَّةً من حيثَ توضعُ جفنةُ استَرْفِدِ
فإذا كان الشتاءُ انحازَ الناسُ من الجذبِ والجهدِ، وإذا أخصبوا أغاروا للثأر لا للسؤال.

وقال الشاعر في عبيد الله بن عباس:

ففي السنةِ الجذبِ أطعمتَ حامضاً وحلوا وشحماً تامكاً وسناماً
وقال مجاهدٌ في قول الله عز وجل: ﴿وَأَعْتَدْتُ لِمَنْ مُتَّكَأً﴾ [يوسف: ٣١]، أي طعاماً، يقال: اتكأنا عند فلانٍ، أي طعمنا.

ذكر الأصمعي أن أعرابياً خَرَجَ في سَفَرٍ ومعه جماعة، فأزْمَلَ^(١) بعضهم من الزاد، وحَضَرَ وقتَ العَدَاءِ وجعل بعضهم ينتظر بَعْضاً بالغداء، فلَمَّا أَبْطَأَ ذلك عليهم عَمَدَ بَعْضُهُمْ إلى زَادِهِ فَأَلْقَاهُ بَيْنَ يَدَيِ الْقَوْمِ، فَأَقْبَلُوا يَأْكُلُونَ، وجلس صَاحِبُ الزَادِ بَعِيداً لِلتَّوْفِيرِ عَلَيْهِمْ، فصاح به أعرابي: يا سُودَدَاهُ! وهل شَرَفٌ أَفْضَلُ من إطعام الطعام والإيثار به في وَقتِ الحاجةِ إليه؟ لقد آثَرْتَ في مَخْمَصَةٍ ويوم مَسْغَبَةٍ، وتَفَرَّدْتَ بِمَكْرَمَةٍ قَعَدَ عنها مَنْ أَرَى من نُظْرَائِكَ، فلا زالت نَعْمُ اللَّهِ عليك غَادِيَةً ورائحة.

وفي مثله يقول حاتم الطائي:

أَكُفْ يَدَيَّ مِنْ أَنْ تَنَالَ أَكْفَهُمْ إِذَا مَا مَدَدَتْهَا وَحَاجَاتُنَا مَعَا
وإِنِّي لَأَسْتَحْيِي رَفِيقِي أَنْ يَرَى مَكَانَ يَدَيَّ مِنْ جَانِبِ الزَّادِ أَقْرَعَا
قال: المَخْمَصَةُ: المَجَاعَةُ. والخَمَصُ: الجُوع.

قال شاعرٌ يَدُّمُ رجلاً:

يَرَى الخَمَصَ تَعْذِيباً وَإِنْ يَلْقَ شَبْعَةً يَبِثُّ قَلْبُهُ مِنْ قِلَّةِ الهَمِّ مُبْهِمًا
وقال المرقش الأكبر:

إِنْ يُخْصِبُوا يَغْنَوْا بِخَضْبِهِمْ أَوْ يُجْدِبُوا فَجُدُوبِهِمْ أَلَمْ
وَكَتَبَ بعضهم إلى أخ له: إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُزَوِّيَ ظَمَأَ أَخِيكَ بِقُرْبِكَ، وَتُبَرِّدَ عَلَيْهِ بَطْلَعَتِكَ، وَتَوْنِسَ وَخَشَتَهُ بِأَنَسِكَ، وَتَجْلُوَ غِشَاءَ نَظِيرِهِ بِوَجْهِكَ، وَتُزَيِّنَ مَجْلِسَهُ بِجَمَالِ حُضُورِكَ، وَتَجْعَلَ عِدَاكَ عِنْدَهُ فِي مَنْزِلِكَ الَّذِي هُوَ فِيهِ سَاكِنٌ، وَتَمْتَمْتَ لَهُ السَّرُورَ بِكَ بَاقِي يَوْمِكَ، مُؤَثِّراً لَهُ عَلَى شِغْلِكَ، فَعَلْتَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ -.

وقال الشاعر:

وَكأنْ هَذَرِ دِمَائِهِمْ فِي دُورِهِمْ لَعَطَ القَبِيلِ عَلَى خِوَانِ زِيَادٍ
قال بعض الخطباء: العَجَبُ مِنْ ذِي جِدَّةٍ مُنَعَمٍ عَلَيْهِ يَطْوِي جَارَهُ جَوْعاً وَقَرّاً، وَأَفْرُخُهُ شُعْتُ جُرْدٍ مِنَ الرِّيشِ، وَهُوَ مِبْطَانٌ مُحْتَشٍ مِنْ حُلُوهِ وَحَامِضِهِ، مُكْتَنٌّ فِي كَيْتِهِ وَدِفْئِهِ، مَزِيَّ لَهْ شَهْوَةٍ عَنْ آدَاءِ الَّذِي عَلَيْهِ لَجَارُهُ وَقَرِيبِهِ وَذِي حُلَّةٍ بَطِرَ رَفِيقِهِ، كَيْفَ يَأْمَنُ سَلْباً مَفَاجِئاً؟ أَمَا لَوْ وَجَّهَ بَعْضُ فَضْلِهِ إِلَى ذِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ كَانَ مُسْتَدِيماً لِمَا أُولِي، مُسْتَزِيداً مِمَّا أُوتِيَ.

قال الشاعر^(٢):

وَإِذَا تَأَمَّلَ شَخْصَ ضَيْفٍ مَقْبِلٍ مَتَسَرِّبِلٍ سِرْبَالِ مَخْلٍ أَغْبَرِ
أَوْمًا إِلَى الْكُومَاءِ هَذَا طَارِقُ نَحَرْتَنِي الْأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تُنْحَرِي

وفي هذه الأبيات ما يُستحسن :

كَمْ قَدْ وَلَدْتُمْ مِنْ كَرِيمٍ مَاجِدٍ دَامِيَ الْأَظَافِرِ أَوْ غَمَامٍ مُمَطِّرٍ
سَدِ كَتْ أَنَامِلُهُ بِقَائِمٍ مَرَهْفٍ وَبَنَشْرٍ عَائِدَةٍ وَذِرْوَةٍ مَنَبَرٍ
يَلْقَى السِّیُوفَ بِوَجْهِهِ وَبِنَحْرِهِ وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمَغْفَرِ
ويقول للطرف :

اصطبر لشبَا القنا فَعَقَزْتُ رُكْنَ الْمَجْدِ إِنْ لَمْ تُغْفَرْ
وقال آخر :

وقال وَقَدْ كَشَّكِيَّة فَكُلُّ شِبَعٍ إِنِّهَا فِي النَّهَائَةِ
تُطْفِي الْمُرَارَ وَتَنْفِي الْخُمَارَ وَمَا بَعْدَهَا فِي النُّهَائِ غَايَةِ
وَلَا تَتَوَقَّعْ أَخِيرًا بِجِيكِ ففِي أَوَّلِ الْمُسْتَطَابِ الْكِفَايَةِ
وقال آخر :

كَأْتَمَا فُؤُوهُ إِذَا تَمَدَّدَا لِلْقَمِ أَخْلَاقُ جِرَابٍ أَسْوَدَا
كَأَنَّهُ مُخْتَرِصٌ قَدْ جَوَّدَا جَانِبِي جَرَادٍ فِي وَعَاءٍ مِثْلَدَا
وَصَاحِبٍ صَاحِبَتْ غَيْرَ أَبْعَدَا تَرَاهُ بَيْنَ الْحُرَّتَيْنِ مُسْنَدَا
الحُرَّة: الغرارة.

وقال جَابِرُ بْنُ قَبِيصَةَ: مَا رَأَيْتُ أَخْلَمَ جَلِيْسًا، وَلَا أَفْضَلَ رَفِيْقًا، وَلَا أَشْبَهَ سَرِيْرَةً بَعْلَانِيَّةً، مِنْ زِيَاد.

وقال جَابِرٌ أَيْضًا: شَهِدْتُ قَوْمًا وَرَأَيْتَهُمْ بَعَيْنِي، فَمَا رَأَيْتُ أَقْرَأَ لِكِتَابِ اللَّهِ، وَلَا أَفْقَهَ مِنْ دِينِ اللَّهِ، مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أُعْطِيَ مِنْ صُلْبٍ مَالُهُ فِي غَيْرِ وَلَاثَةٍ، مِنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ. وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَسْوَدَ مِنْ مَعَاوِيَةَ. وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا أَنْصَعَ ظَرْفًا، وَلَا أَخْضَرَ جَوَابًا، وَلَا أَكْثَرَ صَوَابًا، مِنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ. وَمَا رَأَيْتُ رَجُلًا الْمَعْرِفَةَ عِنْدَهُ أَنْفَعُ مِنْهَا عِنْدَ غَيْرِهِ، مِنَ الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ.

ويقال: مَا كَانَ الطَّعَامُ مَرِيئًا وَلَقَدْ مَرَأَ، وَمَا كَانَ الرَّجُلُ مَرِيئًا وَقَدْ مَرَأَ.

وقال لَنَا الْقَطَّانُ أَبُو مَنْصُورٍ رَئِيسُ أَهْلِ قَزْوِينَ: الرَّجُلُ مِنْ أَرْضِ أَرْدَبِيلٍ إِذَا دَخَلَ بَلَدًا يَسْأَلُ فَيَقُولُ: كَيْفَ الْخُبْزُ وَالْمُبَرَّزُ، وَلَا يَسْأَلُ عَنْ غَيْرِهِمَا. فَقِيلَ لَهُ: لِمَ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: يَأْخُذُ الْخُبْزَ وَالْمُبَرَّزَ، يَأْكُلُ وَيَسْلُحُ إِلَى الصَّبَاحِ.

قال الشاعر :

وَمَا تُنْسِنَا الْآثَامَ لَا تُنْسِ جُوعَنَا بَدَارَ بَنِي بَذَرٍ وَطُولِ التَّلْدُ
ظَلَّلْنَا كَأَنَّا بَيْنَهُمْ أَهْلُ مَاتِمٍ عَلَى مِيْتٍ مُسْتَوْدِعٍ بَطْنٍ مَلْحِدٍ

يُحَدِّثُ بَعْضُ بَعْضُنَا عَنْ مُصَابِهِ وَيَأْمُرُ بَعْضُ بَعْضُنَا بِالتَّجَلُّدِ
وقال آخر:

دَعُونِي فَإِنِّي قَدْ تَعَدَّيْتُ أَنْفَا فَإِنْ مَسَّ كَفِّي خُبْرُكُمْ فاقْطَعُوا يَدَيَّ
وقال آخر يَصِفُ دَارَ قَوْمٍ:

الجَوْعُ دَاخِلُهَا وَاللُّوْحُ^(١) خَارِجُهَا وَلَيْسَ يَفْرُبُهَا خُبْرٌ وَلَا مَاءٌ

قال الهلالي: أتى رجلٌ أبا هريرة فقال: إني كنتُ صائماً فدخلتُ بيتَ أبي فوجدتُ طعاماً، فنسيتُ فأكلتُ. قال: الله أطعمك. قال: ثم دخلتُ بيتاً آخر فوجدتُ أهله قد حلَبُوا لَفَحْتَهُمْ فسَقُونِي، فنسيتُ فشربتُ. فقال: يا بُنَيَّ هَوْنٌ عَلَيْكَ فَإِنَّكَ قَلَمًا اعْتَدْتَ الصَّيَامَ.

وقال الشاعر:

وَجَدْتُ وَغْدَكَ زُوراً فِي مُزَوَّرَةٍ ذَكَرْتَ مُبْتَدِئاً إِحْكَامَ طَاهِيهَا
فَلَا شَفَى اللَّهَ مَنْ يَرْجُو الشِّفَاءَ بِهَا وَلَا عَلَتْ كَفٌّ مُلِقَ كَفِّهِ فِيهَا
فَاخْبِسْ رَسُولَكَ عَنِّي أَنْ يَجِيءَ بِهَا فَقَدْ حَبَسْتُ رَسُولِي عَنْ تَقَاضِيهَا

قال مطرف بن عبد الله بن الشخير عن أبيه: قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَأَنْتَ أَطْوَلُنَا عَلَيْنَا طَوْلًا، وَأَنْتَ أَلْجَفْنَةُ الْغَرَاءِ. فقال النبي ﷺ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ وَلَا يَسْتَفِيزَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

وقال آخر:

وَأَخْمَرُ مُبْنِيضُ الرُّجَاجِ كَأَنَّهُ رِداءُ عَرُوسٍ مُشْرَبٍ بِخَلْقٍ
لَهُ فِي الْحَشَا بَرْدُ الْوِصَالِ وَطَعْمُهُ وَإِنْ كَانَ يَلْقَاهُ بَلَوْنٌ حَرِيقٍ
كَأَنَّ بَيَاضَ اللَّوْزِ فِي جَنْبَاتِهِ كَوَاكِبُ دُرٍّ فِي سَمَاءِ عَقِيقٍ

قال يونس: أَشَدُّ طَعَامٍ ضُرًّا مَا كَانَ مِنْ عَامٍ إِلَى عَامٍ، وَهُوَ اللَّبَأُ الَّذِي لَا يُوْجَدُ إِلَّا فِي الْوِلَادَةِ كُلِّ عَامٍ وَإِنْ كَانَ مُزِيدًا.

حكى يونس: التَّنَافِيطُ، أَنْ يُنْزَعَ شَعْرُ الْجِلْدِ، ثُمَّ يُلْقَى فِي النَّارِ ثُمَّ يُؤْكَلُ، وَذَلِكَ فِي الْجَذَبِ.

وقال الشاعر:

جَاوَزْتُ شَيْبَانَ فَاخْلَوْلَى جَوَارُهُمْ إِنَّ الْكِرَامَ خِيَارُ النَّاسِ لِلْجَارِ
وَكَتَبَ ابْنُ دِينَارٍ إِلَى صَدِيقٍ لَهُ: وَكَتَبْتَ تَفَضُّلاً مِنْكَ تَعْتَذِرُ مِنْ تَأْخِرِكَ عَنْ قِضَاءِ

حَقَّ زِيَارَتِي بِقُصُورِ يَدَيْكَ عَنْ بَرٍّ يُشْبِهُنِي وَيُشْبِهُكَ؛ فَأَمَّا مَا يُشْبِهُنِي فِي هَذَا الْوَقْتُ
فَرَغِيفٌ وَسُكَّرَجَةٌ كَامَخَ حَرِيفٌ يَنْقُبُ اللِّسَانَ بِحِرَافَتِهِ .
وَكَانَ ابْنُ أَبِي الْبَغْلِ إِذَا أَنْشَدَ:

أُرُونِي مَنْ يَقُومُ لَكُمْ مَقَامِي

يقول: لو شَهِدْتُ قَائِلَهُ لَقُلْتُ: كُلُّ الْحَارِسِ يَقُومُ مَقَامَكَ . هذه قِصَّةٌ فِي
حُضُورِ مَا يُشْبِهُنِي، فَأَمَّا مَا يُشْبِهَكَ فَمَتَعِدُّرٌ كَمَا قِيلَ:

وَمَطْلَبُ مِثْلِي إِنْ أَرَدْتَ عَسِير

وَقَالَ رَجُلٌ لِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادِ بْنِ ظَبْيَانَ: مَا أَعْدَدْتُ فِي كِنَانَتِي سَهْمًا غَيْرَكَ .
فَقَالَ: لَا تُعِدَّنِي فِي كِنَانَتِكَ فَوَاللَّهِ لَوْ قُمْتُ فِيهَا لَطُلْتُهَا، وَلَوْ جَلَسْتُ فِيهَا لَخَرَقْتُهَا .
وَلَمَّا انْتَضَرْتُ بِي مَا يُشْبِهَكَ طَالَ الْإِنْتَظَارُ، وَالْعَامَّةُ تَمْتَلِ - عَلَى خُسَاسَةٍ لَفْظُهَا -: «إِذَا
أَرَدْتُ أَلَّا تُزَوِّجَ ابْنَتَكَ فَعَالَ بِمَهْرِهَا» . وَأَمَلِي فِيكَ عَلَى الْأَحْوَالِ بَعِيدٍ، وَظَنِّي فِيكَ
جَمِيلٍ، وَلَسْتُ أَخْشَى فِيمَا لِي عِنْدَكَ الْقَوْتَ فَأُعْجِلُهُ .

وَهَلْ يُنْقَمُ الْكَلْبُ إِلَّا الْحَجَرَ

الْعَرَبُ يَقُولُ: لَيْثِمُ جَبَانٍ .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: لَا يَكُنْ بَطْنٌ أَحَدِكُمْ عَلَيْهِ مَغْرَمًا، لِيَكْسِرْهُ بِالْثَمِيرَةِ وَالْكُسِيرَةِ
وَالْبُقَيْلَةِ وَالْعُلَيْكَةِ .

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: الْفَرَزْدَقُ، الرَّغِيفُ الْوَاسِعُ .

قِيلَ لِابْنِ الْقُرَيْبَةِ: تَكَلَّمْ . فَقَالَ: «لَا أُحِبُّ الْخُبْزَ إِلَّا يَابَسًا» . أَرَادَ لَا أُحِبُّ أَنْ
أَتَكَلَّمُ إِلَّا بَعْدَ الْإِرْتِئَاءِ .

وَرَوَى أَبُو عُبَيْدَةَ فِي تَفْسِيرِ بَيْتِ الْأَعَشَى فِي دِيْوَانِهِ:

إِذَا مَا هُمْ جَلَسُوا بِالْعَشِيِّ فَأَحْلَامُ عَادٍ وَأَيْدِي هُضْمٍ

قَالَ: شَبَّهَهُمْ بِأَنْسَالِ عَادٍ، وَهُمْ ثَمَانِيَةُ ذَوُو أَحْلَامٍ وَسُودَذُ: مَالِكٌ - وَهُوَ سَيِّدُ
الْثَمَانِيَةِ - وَعَمَّارٌ وَطَفِيلٌ، وَشَمِيرٌ، وَقَرْزَعَةٌ، وَخُمَمَةٌ، وَنُضْضٌ، وَذُفَيْفٌ؛ وَهُمْ الَّذِينَ
بَعَثَ لِقَمَانُ بْنُ عَادٍ جَارِيَةً بِعُصٍّ مِنْ لَبَنٍ، فَقَالَ لَهَا: ايْتِي الْحَيَّ فَادْفِعِيهِ إِلَى سَيِّدِهِمْ لَا
تَسْأَلِي عَنْهُ . فَأَتَتْ الْجَارِيَةُ الْحَيَّ، فَرَأَتْهُمْ مُخْتَلِفِينَ بَيْنَ عَامِلٍ وَلَا عِبٍ، وَثَمَانِيَةً عَلَى
رُؤُوسِهِم الطَّيْرَ وَقَارًا؛ وَرَأَتْ جَارِيَةً مِنَ الْحَيِّ، فَأَخْبَرَتْهَا بِمَا قَالَ لِقَمَانُ؛ قَالَتْ: هَؤُلَاءِ
سَادَةُ الْحَيِّ، وَسَأَصِفُ لَكَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فَادْفَعِي الْعُصَّ إِلَى مَنْ شِئْتَ أَمَّا هَذَا
فَعَمَّارٌ، أَخَذَ وَدَّارَ، لَا تَخْمُدُ لَهُ نَارَ، لِلْمُعْشَبَاتِ عَقَّارَ (الْمُعْشَبَةُ: الَّتِي تَسْمَنُ عَلَى
شَحْمٍ قَدِيمٍ)، وَأَمَّا هَذَا فَخُمَمَةٌ، غَدَاؤُهُ كُلُّ يَوْمٍ نَاقَةٌ سِنِمَةٌ، وَبَقَرَةٌ شَحِمَةٌ، وَشَاةٌ

كِدْمَة . وَأَمَّا هَذَا فَقَرَزَعَة ، إِذَا لَقِيَ جَائِعاً أَشْبَعَهُ ، وَإِذَا لَقِيَ قِرْناً جَعَجَعَهُ ، وَقَدْ خَابَ جَيْشٌ لَا يَغْزُو مَعَهُ . وَأَمَّا هَذَا فَطُفِيلٌ ، غَضَبَهُ حِينَ يَغْضَبُ وَيَلِ ، وَرِضَاهُ حِينَ يَرْضَى سَيْلٌ ، وَلَمْ تَحْمِلْ مِثْلَهُ عَلَى ظَهْرِهَا إِبِلٌ وَلَا خَيْلٌ ، وَأَمَّا هَذَا فَسَمِيرٌ ، لَيْسَ فِي أَهْلِهِ بِالسَّحِيحِ الْقَتِيرِ ، وَلَا الْمُسْرِفِ الْبَطْرِ ، وَلَا يَخْدَعُ الْحَيَّ إِذَا أُوتِيَ^(١) . وَأَمَّا هَذَا فَدُقَيْفٌ ، قَارِي الضَّيْفِ ، وَمُغْمِدُ السَّيْفِ ، وَمُعِيلُ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، وَأَمَّا هَذَا فَنَيْضٌ ، أَسْنَتُ الْحَيِّ فَمِرْضٌ ، فَعَدَلُ مَرَضِهِ عِنْدَهُمْ إِسْنَاتُهُمْ (أَيَ فَخْطَهُمْ) ، فَقَامُوا عَلَيْهِ^(٢) فَأَوْسَعَهُمْ دَقِيقاً وَلَحِماً غَرِيضاً ، وَمِسْكَاً رَمِيضاً ، وَكَسَاهُمْ ثِيَاباً بَيْضاً ؛ وَأَمَّا هَذَا فَمَالِكٌ ، حَامِيَتُنَا إِذَا غَرَزْنَا ، وَمُطْعِمٌ وَلِدَانِنَا إِذَا شَتَوْنَا ، وَدَافِعٌ كُلِّ كَرِيهَةٍ إِذَا عَدَتْ عَلَيْنَا . فَدَفَعَتِ الْعُسَّ إِلَى مَالِكٍ ، فَكَانَ سَيِّدَهُمْ .

بَشَّرَتْ امْرَأَةً زَوْجَهَا بِأَنَّ ابْنَهَا مِنْهُ قَدْ اتَّعَرَّ^(٣) ، فَقَالَ : أَتُبَشِّرُ بِنَبِيِّ بَعْدُ الْخُبْرِ ؛ أَذْهَبِي إِلَى أَهْلِكَ .

قال الشاعر :

مَنْ يَشْتَرِي مِئِي أَبَا زَيْنٍ بَكَرَ بْنَ نَطَاحٍ بِفَلَسَيْنِ
كَأَتَمَّا الْأَكْلَ مِنْ خُبْرِهِ يَفْلَعُ مِنْهُ شَحْمَةَ الْعَيْنِ
وَأَنْشَدَ عَلِيٌّ مِنْ بَنِي دُبَيْرٍ :

يَابْنَ الْكِرَامِ حَسْباً وَنَائِلَا حَقّاً أَقُولُ لَا أَقُولُ بِإِطْلَا
إِلَيْكَ أَشْكُو الدَّهْرَ وَالزَّلَازِلَا وَكُلَّ عَامٍ نَقَّحَ الْحَمَائِلَا
التَّنْقِيحُ : الْقَشْرُ ، أَيْ قَشَرُوا حَمَائِلَ سَيُوفِهِمْ فَبَاغَوْهَا لَشَدَّةِ زَمَانِهِمْ . وَأَنْشَدَ :

سَلَا أُمَّ عَبَّادِ الرِّيحِ أَغْصَفَتْ وَجَلَّلَ أَطْرَافَ الرُّعَانِ قَتَامُهَا
وَجَفَّتْ بَقَايَا الطَّرِيقِ إِلَّا نُضِيَّةً يَصُدُّ الْأَشَافِي وَالْمَوَاسِي سَنَاْمُهَا
وَضَمَّ إِلَيَّ اللَّيْلُ مَنْزِلَ رُفْقَةٍ تَرَامَتْ بِهِمْ طَخِيَاءُ دَاجِ ظَلَامُهَا
تَكَادُ الصَّبَا تَهْتَزُّهُمْ مِنْ ثِيَابِهِمْ شَدِيداً بِأَزْيَاطِ الرُّجَالِ اعْتِصَامُهَا
لَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي مُفِيدٌ وَمُتْلِفٌ وَمُطْعِمٌ أَيَّامٍ يُحِبُّ طَعَامُهَا
وقال آخر :

إِنَّ بَنِي غَاضِرَةَ الْكِرَامَا إِنَّ يُقِيمِ الضَّيْفَ بِهِمْ أَعْوَامَا
يَكُنْ قِرَاهُ اللَّحْمَ وَالسَّنَامَا أَوْ يُضْبِحِ الدَّهْرُ لَهُمْ غُلَامَا
يَكُنْ ظَرِيفاً وَجْهَهُ كُرَامَا

(١) استشير .

(٢) قاموا بخدمته .

(٣) نبت ثغره .

وقال سَمَاعَةُ بْنُ أَشْوَلٍ:

رَأَتْ إِيلَا لَابَنِّي عُبَيْدٍ تَمَنَّعَتْ
فَقَالَتْ أَلَا تَعْدُو لِقَاحَكَ هَكَذَا
فَمَا حَلَبْتَ إِلَّا الثَّلَاثَةَ وَالثَّنَى
وَأَنْشَدَ أَبُو الْجَرَّاحِ:

أَرَى الْخُلَانَ قَدْ صَرَمُوا وَصَالِي
وَمَا أَذْنَبْتُ مِنْ ذَنْبٍ إِلَيْهِمْ
وَأَضَحَّوْا لَا سَلَامَ وَلَا كَلَامَ
سِوَى خَفِّ الْمَنَائِحِ وَالسَّوَامِ

وقال آخر:

خِرْقٌ إِذَا وَقَعَ الْمَطِيُّ مِنَ الْوَجَا
حَتَّى تَوُوبَ بِهِ قَلِيلًا

وقال آخر:

تَزَوَّدْتُ إِذْ أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ غَادِيًا
أَرَانِي إِذَا مَا جِئْتُ أَطْلُبُ نَائِلًا
إِلَيْكَ وَنَحْوَ النَّاسِ لَا أَتَزَوَّدُ
نَظَرْتُ إِلَى وَجْهِكَ كَأَنَّكَ أَزْمَدُ

ويقال: أَزَوَادُ الرَّكْبِ مِنْ قُرَيْشٍ أَبُو أُمَيَّةَ بْنُ الْمُغِيرَةِ، وَالْأَسْوَدُ بْنُ الْمُطَّلِبِ بْنِ
أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى، وَمُسَافِرُ بْنُ أَبِي عَمْرٍو بْنِ أُمَيَّةَ عَمُّ عَقْبَةَ، كَانُوا إِذَا سَافَرُوا خَرَجَ
مَعَهُمُ النَّاسُ فَلَمْ يَتَّخِذُوا زَادًا، وَلَمْ يُوقِدُوا نَارًا كَانُوا يَكْفُونَهُمْ.

وقال الشاعر:

وَبِالْبَدْوِ جُودٌ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ
وَقَالَ آخَرُ:

وَالنَّاسُ إِنْ شَبِعَتْ بُطُونُهُمْ
وَقَالَ آخَرُ:

دُورٌ تُحَاكِي الْجِنَانَ حُسْنًا
مَتَى أَرَى الْجُنْدَ سَاكِنِيهَا
لَكِنَّ سُكَّانَهَا خِسَاسٌ
وَفِي دَهَالِيْزِهَا يُدَاسُ

وقال آخر:

لَوْلَا مَخَافَةُ ضَعْفِي عَنْ ذَوِي رَحْمِي
وَحَاجَةُ الْأَخِ تَبْدُو لِي فَأُنْجِحُهَا
وَحَالُ مُعْتَصِمِ بِي مِنْ ذَوِي عَدَمٍ
لَمْ أَثْنِ فِي عَمَلٍ كَفِّي عَلَى قَلَمِي

وقال آخر:

وَأَوْثَرُ ضَيْفِي حِينَ لَا يُوجَدُ الْقَرَى
بِقُوتِي أَخْبُوهُ وَأَرْقُدُ طَاوِيَا

وما استَكثَرَتْ نَفْسِي لِإِذِلِّ وَجْهِهِ نَوَالاً وَإِنْ كَانَ النَّوَالُ حَيَاتِيَا
وقال المبرد: البَطْنُ: الذي لَا يَهْمُهُ إِلَّا بَطْنُهُ. والرَّغِيبُ: الشَّدِيدُ الْأَكْلُ.
والمَنْهُومُ: الذي تَمْتَلِي بَطْنُهُ وَلَا تَنْتَهِي نَفْسُهُ.

وأنشد ابن الأعرابي:

وإن قَرَى أَهْلَ النَّبَاجِ أَرَانِبْ وإن جَاءَ بَعْدَ الرِّئِثِ فَهُوَ قَلِيلُ
إِذَا صَدَّ مَشْغُورٌ وَأَعْرَضَ مُعْرِضُ فَيَوْمَ عَلَى أَهْلِ النَّبَاجِ طَوِيلُ
وقال آخر:

يَمِينُكَ فِيهَا الْخَضْبُ وَالنَّاسُ جُوعٌ وَقَدْ شَمِلَتْهُمْ حَزَجَفٌ وَدُبُورُ
وقال آخر:

أَلَقْتُ قَوَائِمَهَا خَساً وَتَرْتُمْتُ طَرَباً كَمَا يَتَرْتُمُ السَّكْرَانُ
يعني قِدْرًا. وقوائِمُها، يَعْنِي الْأَثَافِي. وَخَساً: فَرَدَ.
وَأُنْشِدَ:

بِئْسَ غِذَاءُ الْعَرَبِ الْمَزْمُوعِ حَوَابَةٌ تُنْقِضُ بِالضُّلُوعِ
الرُّمَاعُ: دَاءٌ. وَحَوَابَةٌ: دَلْوٌ كَبِيرَةٌ. وَالْحَوْبُ وَالْحَوْبُ: الْإِثْمُ. وَالْحَبِيَّةُ: الْحَالُ.
وَالْحَوْبَاءُ: النَّفْسُ.

الْعَرَبُ تَقُولُ: مَاءٌ لَا تَبْنَ مَعَهُ وَلَا غَيْرُهُ. خَبْرٌ قَفَارٌ: لَا أَدَمَ مَعَهُ. وَسَوِيقٌ جَافٌ
هُوَ الَّذِي لَمْ يَلْتَ بِسَمْنٍ وَلَا زَيْتٍ. وَحَنْظَلٌ مُبَسَّلٌ، وَهُوَ أَنْ يُؤْكَلَ وَخَدَهُ.
قال الراجز:

بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَنْظَلُ الْمُبَسَّلُ يَجْعُ مِنْهُ كَبِيدِي وَأُكْسَلُ
وَيَنْجَعُ أَيْضاً.

وقال أبو الجراح: الْمُبَسَّلُ يُخْرِقُ الْكَبِدَ. وَالْمُبْكَلُ: أَنْ يُؤْكَلَ بِتَمَرٍ أَوْ غَيْرِهِ، يُقَالُ
بَكَّلُوهُ لَنَا، أَيْ اخْلُطُّوهُ. قَالَ: وَعِنْدَنَا طَعَامٌ يُقَالُ لَهُ: الْخَوْلَعُ وَهُوَ أَنْ يُؤْخَذَ الْحَنْظَلُ
فَيَنْقَعَ مَرَّاتٍ حَتَّى تَخْرُجَ مَرَارَتُهُ، ثُمَّ يُخْلَطَ مَعَهُ تَمَرٌ وَدَقِيقٌ فَيَكُونُ طَعَاماً طَيِّباً.

وقال: الْخَلِيطَةُ وَالنَّخِيسَةُ وَالْقَطِيبَةُ: أَنْ يُحْلَبَ لَبَنُ الضَّأْنِ عَلَى لَبَنِ الْمِعْزَى،
وَالْمِعْزَى عَلَى لَبَنِ الضَّأْنِ، أَوْ حَلَبَ الثَّوْقِ عَلَى لَبَنِ الْغَنَمِ.
قال:

اسقنني وابدؤ غليلي

مَلِيءَ الرَّجُلِ: سَمِنَ بَعْدَ هُزَالٍ.

قِيلَ لَطْفِيلُ الْعَرَائِسِ: كَمِ اثْنَيْنِ فِي اثْنَيْنِ؟ قَالَ: أَرْبَعَةُ أَرْغِفَةٍ.

وقيل له: حُكِيَ أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ نَحْنُ الْعَرَبُ أَقْوَى النَّاسِ لِلضَّيْفِ، فَقَالَ: إِنَّ هَذَا النَّضْبَ عَلَى الْمَذْحِ.

وقال العُمَانِيُّ:

مَنْ كُلَّ جِلْفٍ لَمْ يَكُنْ مُصَرِّمًا جَعَدَ يُرْعَى مِنْهُ التَّصْنُوعُ رَيْثَمَا
لَمْ يَتَجَشَّأْ مِنْ طَعَامٍ بَشْمًا
وَلَمْ يَبِثْ مِنْ فَتْرَةٍ مُوَضَّمَا يَغْمِزُ ضُدْعَيْهِ وَيَشْكُو الْأَعْظَمَا
إِذَا أَجَاعَ بَطْنُهُ تَحْزَمَا لَمْ يَشْرَبِ الْمَاءَ وَلَمْ يَخْشَ الظَّمَا
يَكْفِيهِ مِنْ قَارِصَةٍ مَا يَمَّمَا

وَحَلَّةٍ مِنْهُ إِذَا مَا أَعْيَمَا أَصَابَ مِنْهُ مَشْرِبًا وَمَطْعَمَا
لَا يَغْقِرُ الشَّارِفَ إِلَّا مُخْرِمَا وَلَا يِعَافُ بَصَلًا وَسَلْجَمَا
يَوْمًا وَلَمْ يَفْعَرْ لِبَطْيَخٍ قَمَا فَهُوَ صَحِيحٌ لَا يَخَافُ سَقَمَا
أَسْوَدَ كَالْمَحْرَاثِ يُدْعَى شَجْعَمَا صَمَحْمَخٌ مِنْ طُولِ مَا تَأْتَمَا
لَمْ يَبْلُ يَوْمًا سَوْرَةً مِنَ الْعَمَى وَلَمْ يَحْجِ الْمَسْجِدَ الْمُكْرَمَا
وَلَمْ يَزُرْ حَاطِيمَهُ وَزَمَزَمَا وَلَا تَرَاهُ يَطْلُبُ التَّفَهُمَمَا
لَوْ لَمْ يُرَبِّ مُسْلِمًا مَا أَسْلَمَا مَا عَبَدَ اثْنَانِ جَمِيعًا صَنَمَا
عَاتٍ يَرَى ضَرْبَ الرُّجَالِ مَغْنَمَا إِذَا رَأَى مُصَدِّقًا تَجَهَّمَا
وَهَزَّ فِي الْكَفِّ وَأَبْدَى الْمِعْصَمَا هِرَاوَتَيْنِ نَبْعَةً وَسَلَمَا
يَثْرُكُ مَا رَامَ رُفَاتًا رِمَمَا وَإِنْ رَأَى إِمْرَةً تَزْعَمَمَا
لَمْ يُعْطِهِ شَيْئًا وَإِنْ تَرَعَّمَا وَإِنْ قَرَأَ عَهْدًا لَهُ مُتَمَمَمَا
هَانَ عَلَيْهِ شَقٌّ مَا قَدَّرَقَمَا وَأَنْ يَدُقَ طِينَهُ الْمُخْتَمَمَا
صَمَصَامُهُ مَاضٍ إِذَا مَا صَمَّمَا إِذَا اعْتَرَتْهُ عِزَّةٌ ثَمَ انْتَمَى
فِي ثُرْوَةِ الْحَيِّ إِذَا مَا يَمَّمَا ظَلَّ يَرَى حُكْمًا عَلَيْهِ مُبْرَمَا

أَنْ يَظْلِمَ النَّاسَ وَالْأُيُتْلَمَا

وقال آخر:

مَا كَانَ يُنْكَرُ فِي نَدِيٍّ مُجَاشِعٍ أَكُلَ الْخَزِيرِ وَلَا ارْتِضَاعُ الْفَيْشَلِ

وقال آخر:

بِلَادَ كَأَنَّ الْجُوعَ يَطْلُبُ أَهْلَهَا بَدَخَلَ إِذَا مَا الضَّيْفُ صَرَّتْ جَنَادِبُهُ

وقال آخر:

كَرِيْهِه لَا يُطْعِمُ الْكَرِيْأَ بِاللَّيْلِ إِلَّا جِرْجَرًا مَقْلِيًّا
مُخْتَرَقًا يَنْصَفًا وَنَصْفًا نِيًّا

وقال الأصمعي: قال الهيثم بن جرّاد - وَدَّمَ قَوْمًا -: وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ آلُ
فَلَاةٍ فَتَغْصِمَكُمُ، وَلَا أَنْتُمْ آلُ رَيْفٍ فَتَأْكُلُونَ. فقيل: لو زِدْتَ؟ فقال: ما بَعْدَ هذا
شيء.

قال: وما أشبه هذا الجواب بقول عقيل بن عُلفة حين قيل له: لم لا تطيلُ
الهجاء؟ قال: يَكْفِيكَ مِنَ الْقَلَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالْعُنُقِ.

وقيل لابن عُمر: لو دَعَوْتَ اللَّهَ بِدَعَوَاتٍ؟ فقال: اللَّهُمَّ عَافِنَا وَارْحَمْنَا وَارْزُقْنَا.
فقيل له: لو زِدْتَنَا؟ فقال: نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْإِسْهَابِ.

قال شاعر:

إِذَا أَغْلَقَ الْبَابَ الْكَرِيمُ مِنَ الْقِرَى فَلَيْسَ عَلَى بَابِ الْفَرَزْدَقِ حَاجِبُ
فَتَى يَشْتَرِي حُسْنَ الشَّاءِ بِمَالِهِ إِذَا غَبَرَ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ الْكَوَائِبُ

قال: وكلّ لحم وخُبْزٍ أَنْضِجَ دَفِينًا فهو مَلِيلٌ، وما كان في تَنُورٍ فهو شِوَاءٌ؛ وما
كان في قِدْرِ فهو حَمِيلٌ.

قال الأحنفُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: إن إخواننا من أهل الكوفة والشام نَزَلُوا فِي
مُقَلَّةِ الْجَمَلِ وَحَوْلَاءِ النَّاقَةِ^(١) مِنْ أَنْهَارٍ مَتَفَجِّرَةٍ، وَثِمَارٍ مَتَدَلِّيَةٍ، وَنَزَلْنَا بِسَبِيحَةِ نَشَاشَةٍ^(٢)
يَأْتِينَا مَأْوَتَنَا فِي مِثْلِ حَلْقُومِ النَّعَامَةِ أَوْ مَرَى الْحَمَلِ^(٣)، فِيمَا أَنْ تَشُقُّ لَنَا نَهْرًا، وَإِمَّا أَنْ
تَرْفَعَنَا إِلَيْكَ.

قال جابر: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ الْأَغْنِيَاءَ بِاتِّخَاذِ الْغَنَمِ، وَالْفُقَرَاءَ بِاتِّخَاذِ الدَّجَاجِ^(٤).

(١) جملة يتمثل بهما في الخصب والنعمة.

(٢) أي نزارة الماء لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها.

(٣) مثل في قلة ما يأتيهم من الماء وضيق مسايله إليهم.

(٤) في سنن ابن ماجه. ٦٩ - باب اتخاذا الماشية. حديث رقم: ٢٣٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أمر رسول الله ﷺ الأغنياء باتخاذ الغنم. وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج. وقال: «عند اتخاذ الأغنياء الدجاج، يأذن الله بهلاك القرى».

في الزوائد: في إسناده علي بن عروة، تركوه. وقال ابن حبان: يضع الحديث. وعثمان بن عبد الرحمن، مجهول والمتن ذكره ابن الجوزي في الموضوعات. وفي كشف الخفاء، للإمام العجلوني: حرف الجيم. حديث رقم: ١٠٧٦ - الجمعة حج =

والعربُ تقول: أَكْرِمُوا الإِبِلَ إِلَّا فِي بَيْتِ يَبْنَى، أَوْ دَمٍ يُفْدَى، أَوْ عَزَبٍ يَتَزَوَّجُ، أَوْ حَمَلٍ حَمَالَةٍ.

وقال مُعَاوِيَةُ لأَعْرَابِيٍّ: مَا تَجَارَتُكَ؟ قَالَ: أَبِيعَ الإِبِلَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ أَقْوَاهَا حَرَبٌ، وَجُلُودُهَا جَرَبٌ، وَبَعْرُهَا حَطَبٌ، وَتَأْكُلُ الذَّهَبَ.

وقال خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ: الإِبِلُ لِلْبُعْدِ، وَالْبِغَالُ لِلثِقَلِ، وَالْبَرَاذِينُ لِلْجَمَالِ وَالِدَّعَةِ، وَالْحَمِيرُ لِلْحَوَائِجِ، وَالْخَيْلُ لِلْكَرِّ وَالْفَرِّ.

وقال آخر:

يَقْذِفْنَ فِي الْأَعْنَاقِ وَالْعَلَاصِمِ قَذْفَ الْجَلَامِيدِ بِكَفِّ الرَّاجِمِ
يُرِيدُ بِالْأَعْنَاقِ بِالْحُلُوقِ.

وقال آخر:

نَعَارُ إِذَا مَا الرُّوْعُ أَبْدَى عَنِ الْبُرَى وَنَقَرِي عَبِيطَ اللَّحْمِ وَالْمَاءِ جَامِسُ
وقال آخر:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا نَاقٌ مُصَرَّمَةٌ تَرَعَى الْفَلَاةَ وَلَا قَعْبٌ مِنَ اللَّبَنِ
وقال أَبُو الصَّلْتِ:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانِ مِنْ لَبَنِ شَيْبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالَا

وَوَصَفَ بَعْضُ الْبُلْغَاءِ التَّجَارَ فَقَالَ: لَا يَوْجَدُ الْأَدَبُ إِلَّا عِنْدَ الْخَاصَّةِ وَالسُّلْطَانِ وَمُدَبِّرِيهِ، وَأَمَّا أَصْحَابُ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّا لَا نَعْدَمُ مِنْ أَحَدِهِمْ خُلُقًا دَقِيقًا وَدِينًا رَقِيقًا، وَحِرْصًا مُسْرِفًا، وَأَدَبًا مُخْتَلِفًا، وَدَنَاءَةً مَعْلُومَةً، وَمُرُوءَةً مَعْدُومَةً وَإِلْغَاءَ اللَّفِيفِ^(١)، وَمُجَادَبَةً عَلَى الطَّفِيفِ، يَبْلُغُ أَحَدُهُمْ غَايَةَ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ فِي عِلْقٍ^(٢) وَاحِدٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَعَ رَجُلٍ وَاحِدٍ، إِذَا اشْتَرَاهُ مِنْهُ أَوْ بَاعَهُ إِتَاهَ، إِنْ بَايَعَكَ مُرَابِحَةً وَخَبَّرَ بِالْأَثْمَانِ، قَوَى الْأَيْمَانَ عَلَى الْبُهْتَانِ، وَإِنْ قَلَّدَتْهُ الْوِزْنَ أَعْنَتَ لِسَانَ الْمِيزَانِ، لِيَأْخُذَ بِرُجْحَانٍ أَوْ يُعْطِيَ بِنُقْصَانٍ؛ وَإِنْ كَانَ لَكَ قَبْلَهُ حَقٌّ لَوَاهُ مُحْتَجًّا فِي ذَلِكَ بِسَنَةِ السُّوفِيِّينَ، يَرْضَى لَكَ مَا لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ، وَيَأْخُذُ مِنْكَ بِنَقْدٍ وَيُعْطِيكَ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَرَى أَنَّ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ فِي الْمُبَايَعَةِ مِثْلَ مَا لَهُ؛ إِنْ اسْتَنْصَحْتَهُ عَشَكَ، وَإِنْ سَأَلْتَهُ

= المساكين: وروى الديلمي عن ابن عمر رفعه: الدجاج غنم فقراء أمتي، والجمعة حج فقرائها، ولا بن ماجه بسند ضعيف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال أمر رسول الله ﷺ الأغنياء باتخاذ الغنم، وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج، وقال عند اتخاذ الأغنياء الدجاج يأذن الله بهلاك القرى.

(١) الصديق.

(٢) النفيس من المتاع.

كَذَبَكَ، وَإِنْ صَدَقْتَهُ حَرَبَكَ مُتَمَرِّدُهُمْ صَاعِقَةً عَلَى الْمُعَامِلِينَ، وَصَاحِبِ سَمَتِهِمْ نِقْمَةً عَلَى الْمُسْتَرْسِلِينَ؛ قَدْ تَعَاطَوْا الْمُنْكَرَ حَتَّى عَرِفَ، وَتَنَاقَرُوا الْمَعْرُوفَ حَتَّى نُسِيَ، يَتَمَسَّكُونَ مِنَ الْمِلَّةِ بِمَا أَضْلَحَ الْبِضَائِعُ^(١)، وَيَنْهَوْنَ عَنْهَا كُلَّمَا عَادَتْ بِالْوَضَائِعِ؛ يُسِرُّ أَحَدُهُمْ بِحِيلَةٍ يُزْرِقُهَا لِسَلْعَةٍ يَنْفَقُهَا، وَغِيلَةٍ لِمُسْلِمٍ يَحْمِيهِ الْإِسْلَامُ، فَإِذَا أَحْكَمَ حِيلَتَهُ وَغِيلَتَهُ عَدَا قَادِرًا عَلَى حَزْزِهِ، فَغَرَّ وَضَرَّ، وَأَبَّ إِلَى مَنْزِلِهِ بِحِطَامٍ قَدْ جَمَعَهُ مَغْتَبِطًا بِمَا أَبَاحَ مِنْ دِينِهِ وَانْتَهَكَ مِنْ حُرْمَةِ أَخِيهِ، يَعُدُّ الَّذِي كَانَ مِنْهُ حِذْقًا بِالتَّكْسَبِ، وَرِفْقًا بِالْمَطْلَبِ، وَعِلْمًا بِالتَّجَارَةِ، وَتَقَدُّمًا فِي الصَّنَاعَةِ.

فَلَمَّا بَلَغْتُ قِرَاءَتِي هَذَا الْمَوْضِعَ قَالَ الْوَزِيرُ: إِنْ كَانَ هَذَا الْوَصْفُ عَنَى الْعَامَّةَ بِهَذَا الْقَوْلِ دَخَلَ فِي وَصْفِهِ الْخَاصَّةُ أَيْضًا، فَوَاللَّهِ مَا أَسْمَعُ وَلَا أَرَى هَذِهِ الْأَخْلَاقَ إِلَّا شَائِعَةً فِي أَصْنَافِ النَّاسِ مِنَ الْجُنْدِ وَالْكَتَّابِ وَالتُّنَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَأَهْلِ الْعِلْمِ؛ لَقَدْ حَالَ الزَّمَانُ إِلَى أَمْرٍ لَا يَأْتِي عَلَيْهِ النَّعْتُ، وَلَا تَسْتَوْعِبُهُ الْأَخْبَارُ، وَمَا عَجَبِي إِلَّا مِنَ الزِّيَادَةِ عَلَى مَرِّ السَّاعَاتِ، وَلَوْ وَقَفَ لَعَلَّهُ كَانَ يُرْجَى بَعْضُ مَا قَدْ وَقَعَ الْيَأْسُ مِنْهُ؛ وَاعْتَرَضَ الْقَنُوطُ دُونَهُ.

فَقَالَ ابْنُ زُرْعَةَ وَكَانَ حَاضِرًا: هَذَا لِأَنَّ الزَّمَانَ مِنْ قَبْلِ كَانَ ذَا لَبُوسٍ مِنَ الدِّينِ رَائِعٍ، وَذَا يَدٍ مِنَ السِّيَاسَةِ بَسِيطَةٍ، فَأَخْلَقَ اللَّبُوسُ وَبَلَى، بَلْ تَمَزَّقَ وَفَنِيَ، وَضَعُفَتِ الْيَدُ بَلْ شَلَّتْ وَقُطِعَتْ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى سِيَاسَةٍ دِينِيَّةٍ لِأَسْبَابٍ لَا تَتَفَقُّ إِلَّا بِعِلَلٍ فَلَكِيَّةٍ، وَأُمُورٍ سَمَاوِيَّةٍ، فَحِينَئِذٍ يَكُونُ انْقِيَادُ الْأُمُورِ الْجَانِحَةِ لَهَا، فِي مُقَابَلَةِ جِرَانِ الْأُمُورِ الْجَامِحَةِ عَنْهَا، وَذَلِكَ مُنْتَظَرٌ فِي وَقْتِهِ، وَتَمَنِّيُ ذَلِكَ قَبْلَ إِبَانَةِ وَسْوَاسِ النَّفْسِ، وَخَوَرُ الطَّبَاعِ، وَالنَّاسِ أَهْدَافَ لِأَغْرَاضِ الزَّمَانِ وَمُقَلَّبُونَ بِحَوَادِثِ الدَّهْوَرِ، وَلَا فَكَاكَ لَهُمْ مِنَ الْمَكَارِهِ، وَلَا اعْتِلَاقَ لَهُمْ بِالْمَحَابِّ إِلَّا بِالِدَوَاعِي وَالصَّوَارِفِ الَّتِي لَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى تَحْوِيلِ هَذِهِ إِلَى هَذِهِ، وَلَا إِلَى تَبْدِيلِ هَذِهِ بِهِذِهِ، وَاخْتِيَارُهُمْ لِلتَّوَجُّهِ إِلَى مُحَبُّوهُمْ أَوْ الْإِغْرَاضِ عَنْ مَكْرُوهِهِمْ ضَعِيفٌ طَفِيفٌ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَتِ الْحَسَرَاتُ تَزُولُ فِي وَقْتِ مَا يُرَادُ، وَالْغَبْطَةُ تُمَلِّكُ بِإِدْرَاكِ مَا يُتَمَنَّى، وَهَذَا شَأْنٌ مَحْكُومٌ بِهِ بِقُوَّةِ النَّفْسِ، غَيْرُ مُسْتَيْقِظٍ إِلَيْهِ بِقُوَّةِ الْحِسِّ.

فَقَالَ الْوَزِيرُ: أَحْسَنْتَ يَا أَبَا عَلِيٍّ فِي هَذَا الْوَصْفِ، «وَإِنْ نَفَثَكَ لِيَدُلُّ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ»، وَلَوْ كَانَ الْبَالُ ظَافِرًا بِنِعْمَةٍ، وَالصَّدْرُ فَارِغًا مِنْ كُرْبَةٍ، لَكُنَّا نَبْلُغُ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ مَبْلَغًا نَشْفِي بِهِ غَلِيلَنَا قَائِلِينَ وَنُشْفَى بِهِ مُسْتَمْعِينَ، وَلَكِنِّي قَاعِدٌ مَعَكُمْ وَكَأَنِّي غَائِبٌ، بَلْ أَنَا غَائِبٌ مِنْ غَيْرِ كَافِ التَّشْبِيهِ، وَاللَّهِ مَا أُمَلِّكُ تَصَرُّفِي وَلَا فِكْرِي فِي أَمْرِي، أَرَى وَحْدًا

فِي قَتْلِ حَبْلِ، وَآخَرَ فِي حَفْرِ بَثْر، وَآخَرَ فِي نَضْبِ فَخٍّ، وَآخَرَ فِي دَسِّ حِيلَةٍ، وَآخَرَ فِي تَقْبِيحِ حَسَنِ، وَآخَرَ فِي شَحْدِ حَدِيدٍ، وَآخَرَ فِي تَمْزِيقِ عِزْضٍ، وَآخَرَ فِي اخْتِلَاقِ كَذِبٍ، وَآخَرَ فِي صَدْعِ مُلْتَثِمٍ، وَآخَرَ فِي حَلِّ عَقْدٍ، وَآخَرَ فِي نَفْثِ سِحْرِ، وَنَارِي مَعَ صَاحِبِي رَمَادٍ، وَرِيحُهُ عَلَيَّ عَاصِفَةٌ، وَنَسِيمِي بَيْنِي وَبَيْنَهُ سَمُومٌ، وَنَصِيبِي مِنْهُ هُمُومٌ وَغُمُومٌ، وَإِنِّي أَحَدْتُكُمْ بِشَيْءٍ تَعْلَمُونَ بِهِ صِدْقِي فِي شُكْوَايَ، وَتَقِفُونَ مِنْهُ عَلَى تَفْسُخِي تَحْتَ بَلْوَايَ، وَلَوْلَا أَنِّي أَطْفِئُ بِالْحَدِيثِ لَهَبًا قَدْ تَضَرَّرَ صَدْرِي بِهِ نَارًا، وَاحْتَشَى فُؤَادِي مِنْهُ أَوَارًا؛ لَمَا تَحَدَّثْتُ بِهِ، وَلَوْ اسْتَطَعْتُ طَيِّهَ لَمَا نَبَسْتُ بِحَرْفٍ مِنْهُ، وَلَكِنْ كَيْتَمَانِي لِلْحَدِيثِ أَنْقَبُ لِحِجَابِ الْقَلْبِ مِنَ الْعَتَلَةِ لِسُورِ الْقَضْرِ.

دَخَلْتُ مِنْذُ أَيَّامٍ فَوَصَلْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ، فَقَالَ لِي: قَدْ أَعَدْتُ الْخِلْعَةَ فَالْبَسْهَا عَلَى الطَّائِرِ الْأَسْعَدِ، فَقُلْتُ: أَفْعَلُ، وَفِي تَذَكُّرْتِي أَشْيَاءَ لَا بَدَّ مِنْ ذِكْرِهَا وَعَرْضِهَا.

فَقَالَ: هَاتِ، فَقُلْتُ: يُتَقَدَّمُ^(١) بِكَذَا وَكَذَا، وَيُفْعَلُ كَذَا وَكَذَا. فَقَالَ: عِنْدِي جَمِيعُ ذَلِكَ، أَمْضِ هَذَا كُلَّهُ، وَاصْنَعْ فِيهِ مَا تَرَى، وَمَا فَوْقَ يَدِكَ يَدٌ، وَلَا عَلَيْكَ لِأَحَدٍ اعْتِرَاضٌ؛ فَانْقَلِبْتُ عَنِ الْمَجْلِسِ إِلَى زَاوِيَةِ فِي الْحُجْرَةِ، وَفِيهَا تَحَدَّرَتْ دُمُوعِي، وَعَلَا شَهِيْقِي، وَتَوَالَى نَشِيجِي، حَتَّى كَذْتُ أَفْتَضِّحُ قَدْنَا مِنْ بَعْضِ خَدَمِي مِنْ ثِقَاتِي، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ النَّاسُ وَقُوفٌ يَنْتَظِرُونَ بُرُوزَكَ بِالْخِلْعَةِ الْمُبَارَكَةِ وَالتَّشْرِيفِ الْمَيْمُونِ، وَأَنْتَ فِي نُوحٍ وَنَدَمٍ؟ فَقُلْتُ: تَنَحَّ عَنِّي سَاعَةً حَتَّى أَطْفِئُ نَارَ صَدْرِي، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ الْعَارِضُ لِأَنِّي كُنْتُ عَرَضْتُ عَلَى صَاحِبِي تَذَكُّرَةً مُشْتَمِلَةً عَلَى أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةٍ، فَأَمْضَاهَا كُلَّهَا، وَلَمْ يُنَاطِرْنِي فِي شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَا زَادَنِي شَيْئًا فِيهَا، وَلَا نَاطَرَنِي عَلَيْهَا، وَلَعَلِّي قَدْ بَلَوْتُهَ بِهَا، وَأَخْفَيْتُ مَعْزَايَ فِي ضِمْنِهَا، فَخِيلَ إِلَيَّ بِهَذِهِ الْحَالِ أَنَّ غَيْرِي يَقِفُ مَوْقِفِي، فَيَقُولُ فِي قَوْلَا مُزْخَرَفًا، وَيَنْسُبُ إِلَيَّ أَمْرًا مُؤَلَّفًا، فَيُمْضِي ذَلِكَ أَيْضًا لَهُ كَمَا أَمْضَاهُ لِي، فَوَجَدْتَنِي بِهَذَا الْفِكْرِ الَّذِي قَدْ فَتَّقَ لِي هَذَا النُّوعَ مِنَ الْأَمْرِ كِرَاقِمَ عَلَى صَفْحَةِ مَاءٍ، أَوْ كَقَابِضٍ فِي جَوْءٍ عَلَى قِطْعَةٍ مِنْ هَوَاءٍ؛ أَوْ كَمَنْ يَنْفُخُ فِي غَيْرِ قَحَمٍ، أَوْ يَلْعَبُ فِي قَيْدٍ، وَلَقَدْ صَدَّقَ الْأَوَّلُ حَيْثُ قَالَ:

وَإِنْ أَمْرًا دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمُّهُ لَمَسْتَمْسِكْ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورٍ

غَيْرَ أَنِّي أَذْكَرُ لَكُمْ مَا عَنِّي مِنْ هَذَا الْأَمْرِ:

اعْلَمُوا أَنِّي ظَنَنْتُ أَنَّ مَا نَظَّمَهُ الْمَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَأَصْلَحَهُ، وَبَنَاهُ وَقَوَّمَهُ، وَنَسَجَهُ وَتَوَقَّهَ لَا يَسْتَحِيلُ فِي ثَلَاثِينَ سَنَةً وَلَا خَمْسِينَ سَنَةً؛ وَأَنَّ الْحَالَ تَدُومُ عَلَى ذَلِكَ الْمِنْهَاجِ، وَتَسْتَمِرُّ عَلَى ذَلِكَ السِّيَاجِ، وَنَكُونُ قَدْ أَخَذْنَا بِطَرِيقٍ مِنَ السَّعَادَةِ، وَبَلَّغْنَا

(١) أَيِ يُؤْمَرُ بِهِ.

لأنفسنا بعض ما كُنَّا نَسْلُطُ عَلَيْهِ التَّمَنِّيَّ مِنَ الْإِرَادَةِ فَتَجَمَّعَ بَيْنَ عُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ، وَشَرَفِ الرِّيَاسَةِ، وَتَيْلِ اللَّذَّةِ، وَإِدْرَاكِ السَّرُورِ، وَاصْطِنَاعِ الْعُرْفِ، وَكَسْبِ الثَّنَاءِ، وَنَشْرِ الذِّكْرِ، وَبُعْدِ الصَّيْتِ، فَعَادَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِالضَّدِّ، وَحَالَ إِلَى الْخِلَافِ وَوَقَّفَ عَلَى الْفِكْرِ الْمُضْنِيِّ، وَالْخَوْفِ الْمُفْلِقِ، وَالْيَأْسِ الْحَيِّ، وَالرَّجَاءِ الْمَيِّتِ؛ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الْقَائِلُ:

أَظْمَشَنِي الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتُهَا مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبًا

فَقَالَ لَهُ ابْنُ زُرْعَةَ: إِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا بِيَدِ اللَّهِ، وَلَا يُسْتَنْجَزُ الْخَيْرُ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا يُسْتَدْفَعُ الشَّرُّ إِلَّا بِهِ، فَسَلِّهِ جَمِيلَ الصَّنْعِ وَحُسْنَ النِّيَّةِ وَأَنِوِ الْخَيْرَ، وَبُنِّ الْإِحْسَانَ، وَكِلْ أَعْدَاءَكَ إِلَى رَبِّكَ الَّذِي إِذَا عَرَفَ صِدْقَكَ وَتَوَكَّلَكَ عَلَيْهِ قَلَّلَ حَدَّهِمْ، وَعَفَرَ حَدَّهِمْ، وَسَيَّحَ الْفُرَاتَ إِلَى جَمْرَتِهِمْ حَتَّى يُطْفِئَهَا، وَسَلَّطَ الْأَرْضَةَ عَلَى أَبْدَانِهِمْ حَتَّى تَقْرِضَهَا، وَشَعَلَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، وَخَالَفَ بَيْنَ كَلِمَتِهِمْ، وَصَدَّعَ شَمْلَ جَمِيعِهِمْ، وَرَدَّهِمْ إِلَيْكَ صَاغِرِينَ ضَارِعِينَ، وَعَرَضَهُمْ عَلَيْكَ خَاضِعِينَ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ، وَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُحْسِنِينَ عَلَى الْمُسِيئِينَ.

قَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُ رَوْحًا كَثِيرًا بِمَا قُلْتُ لَكُمْ وَمَا سَمِعْتُ مِنْكُمْ، وَأَرْجُو أَنَّ اللَّهَ يُعِينُ الْمَظْلُومَ، وَيُهِينُ الظَّالِمَ. قَدْ تَمَطَّى اللَّيْلُ، وَتَعَوَّرَتِ النُّجُومُ، وَحَنَّ الْبَدَنُ إِلَى التَّرَفِّهِ، فَإِذَا شِئْتُمْ. فَانصَرَفْنَا مُتَعَجِّبِينَ.

الليلة الثالثة والثلاثون

عُدْنَا إلى ما كنا فيه مِنْ حَدِيثِ الْمُمَالِحَةِ - وَكَانَ قَدْ اسْتَرَادَنِي - فَكَتَبْتُ لَهُ هَذِهِ
الورقات وقرأتها بين يديه، فقال كلاماً كثيراً عند كل ما مرَّ مما يكون صلةً لذلك
الحديث، خَزَلْتُهُ طَلَباً لِلتَّخْفِيفِ.

قال حَمَادُ الرَّائِيَةِ: عَنْ قَتَادَةَ قَالَ زِيَادُ لَعْيَلَانَ بْنِ خَرْشَةَ: أَحِبُّ أَنْ تَحْدِثَنِي عَنْ
الْعَرَبِ وَجَهْدِهَا وَضَنْكِ عَيْشِهَا لِتَحْمَدَ اللَّهَ عَلَى النِّعْمَةِ الَّتِي أَصْبَحْنَا بِهَا. فَقَالَ لَعْيَلَانُ:
حَدَّثَنِي عَمِّي قَالَ: تَوَالَّتْ عَلَى الْعَرَبِ سِنُونَ سَبْعٌ فِي الْجَاهِلِيَةِ خَصَّتْ كُلَّ شَيْءٍ،
فَخَرَجْتُ عَلَى بَكْرِ لِي فِي الْعَرَبِ، فَمَكْتُ سَبْعاً لَا أَذُوقُ فِيهِمْ شَيْئاً إِلَّا مَا يَنَالُ بَعِيرِي
مِنْ حَشَرَاتِ الْأَرْضِ حَتَّى دَنَوْتُ إِلَى جِوَاءِ عَظِيمٍ، فَإِذَا بَيْتٌ جَحْشٍ^(١) عَنِ الْحَيِّ،
فَمِلْتُ إِلَيْهِ، فَخَرَجْتُ إِلَيَّ امْرَأَةٌ طَوَالَةَ حَسَانَةٍ، فَقَالَتْ: مَنْ؟ قُلْتُ: طَارِقٌ لَيْلٌ يَلْتَمِسُ
الْقَرَى. فَقَالَتْ: لَوْ كَانَ عِنْدَنَا شَيْءٌ أَنْزَلْنَاكَ بِهِ، وَالِدَالُ عَلَى الْخَيْرِ كِفَاعِلِهِ، جُسْ هَؤُلَاءِ
الْبُيُوتَ فَاَنْظُرْ إِلَى أَعْظَمِهَا، فَإِنَّ يَكُ فِي شَيْءٍ مِنْهَا خَيْرٌ فِيهِ. فَفَعَلْتُ حَتَّى دَنَوْتُ إِلَيْهِ،
فَرَحَّبَ بِي صَاحِبُهُ وَقَالَ: مَنْ؟ قُلْتُ: طَارِقٌ لَيْلٌ يَلْتَمِسُ الْقَرَى. فَقَالَ: يَا فُلَانُ، فَأَجَابَهُ،
فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكَ (مِنْ) طَعَامٍ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا وَقَرَّ فِي أَدْنِي شَيْءٌ كَانَ أَشَدَّ
عَلَيَّ مِنْهُ. فَقَالَ: هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَرَابٍ؟ قَالَ: لَا، ثُمَّ تَأَوَّهَ وَقَالَ: قَدْ أَبْقَيْنَا فِي ضَرْعِ
فُلَانَةٍ شَيْئاً لِيَطَارِقَ إِنْ طَرَقَ، قَالَ: فَأَتَتْ بِهِ، فَأَتَى الْعَطْنُ فَابْتَعَثَهَا، فَحَدَّثَنِي عَمِّي أَنَّهُ شَهِدَ
فَتَحَّ أَصْفَهَانِ وَتُسْتَرُ وَمَهْرَجَانَ قُدْفَ وَكُورَ الْأَهْوَازِ وَفَارِسَ، وَجَاهَدَ عِنْدَ السُّلْطَانِ وَكَثُرَ
مَالُهُ وَوَلَدُهُ، قَالَ: فَمَا سَمِعْتُ شَيْئاً قَطُّ كَانَ أَلَدَّ إِلَيَّ مِنْ شَحْبِ تِلْكَ النَّاقَةِ فِي تِلْكَ
الْعُلْبَةِ، حَتَّى إِذَا مَلَأَهَا فَفَاضَتْ مِنْ جَوَانِبِهَا وَارْتَفَعَتْ عَلَيْهَا رُغْوَةٌ كَجُمَّةِ الشَّيْخِ أَقْبَلَ بِهَا
نَحْوِي فَعَثَّرَ بَعُودٍ أَوْ حَجَرَ، فَسَقَطَتِ الْعُلْبَةُ مِنْ يَدِهِ، فَحَدَّثَنِي أَنَّهُ أُصِيبَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ وَوَلَدِهِ
وَأَهْلِ بَيْتِهِ، فَمَا أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ أَعْظَمَ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَابِ الْعُلْبَةِ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ كَذَلِكَ رَبَّ الْبَيْتِ
خَرَجَ شَاهِراً سَيْفَهُ، فَبَعَثَ الْإِبِلَ ثُمَّ نَظَرَ إِلَى أَعْظَمِهَا سَنَاماً، عَلَى ظَهْرِهَا مِثْلُ رَأْسِ الرَّجُلِ
الصَّعِيلِ^(٢)، فَكَشَفَ عَنْ فُوْهَتِهِ ثُمَّ أَوْقَدَ نَاراً، وَاجْتَبَّ سَنَامَهَا، وَدَفَعَ إِلَيَّ مُذْيَةً وَقَالَ: يَا
عَبْدَ اللَّهِ، اضْطَلَّ وَاجْتَمَلَ فَجَعَلْتُ أَهْوِي بِالْبُضْعَةِ إِلَى النَّارِ، فَإِذَا بَلَغْتُ إِنَاهَا أَكَلْتُهَا، ثُمَّ

(١) أي بعيد عن منازل ذلك الحي.

(٢) الدقيق الرأس.

مَسَحْتُ ما في يَدَي من إهالَتها على جِلْدِي، وكان قَدْ فَحَلَ على عَظْمِي حتَّى كأنه شَنٌّ، ثم شَرِبْتُ ماءً وَخَرَزْتُ مَعْشِيًا عَلَيَّ، فما أَفَقْتُ إلى السَّحَرِ.

فَقَطَعَ زيادُ الحديثِ وقال: لا عليكَ أَنْ تُخْبِرنا بِأَكْثَرِ مِنْ هذا، فَمَنْ المَنْزُولُ به. قلتُ: عامرُ بْنُ الطُّفَيْلِ. قال: أبو علي؟ قلتُ: أبو علي.

واستعاذني الوزير أدام الله علوه هذا الحديثَ مَرَّتَيْنِ وَأَكْثَرَ التَّعْجُبِ، وقال: صَدَقَ القائلُ في العَرَبِ: مُنِعُوا الطَّعامَ وَأَعْطُوا الكلامَ.

تَعَدَّى أبو العِيْناءِ عند ابن مكرَّم، فَقَدَّمَ إليه عُرَاقًا^(١)، فلما جَسَّهُ قال: قَدْرُكُمْ هذه طُبِخَتْ بِشِطْرَنْجٍ^(٢)؟

وقَدَّمَ إليه يوماً قِدرًا فوجَدَها كَثيرةَ العِظامِ، فقال: هذه قِدرٌ أم قَبْرٌ؟

وأكلَ عِنْدَه أبو العِيْناءِ يَوْمًا، فَسُقِيَ ثلاثَ شَرَباتِ باردة، ثم طَلَبَ الرَّابِعَةَ فَسُقِيَ شَرِبَةً حارَّةً، فقال: لعلَّ مَزَلْتُمْ تَعْتَرِيها حُمَّى الرَّبْعِ.

قال سَلَمَةُ؛ بَقِيَ أَبُو القَمُقامِ بَعْدَادَ وَكُنَّا نأتيهِ وَنَسْمَعُ مِنْه، فجاءنا بِجَفَنَةٍ فيها جُودَابَ فجعلَ أَصْحابُنا يَأْكُلونَ، ثم أَتاهُمْ بِسُقُودٍ فيه يَرابِيعُ فَسَلَّتْها في الجَفَنَةِ، فَعَلِمَ القومُ أَنَّهُم قد دُهِوا، فَجَعَلُوا يَسْتَقِيثُونَ ما أَكَلُوا.

وقالت عائشة: رضي الله عنها: يا رسول الله، لي جارتان بأَيَّتِهْمَا أَبْدا؟ قال: «بأَذْنَاهُمَا بِأَبَا مِنْكَ».

وقال حَكِيم: يَنْبَغِي أَلَّا يُعْطَى البَخِيلُ أَكْثَرُ مِنْ قُوَّتِهِ، لِيُحْكَمَ عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما حَكَمَ به على نفسه.

وقال الشاعر:

أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ قَوْصَرَةٌ	يَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ مَرَّةً
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِرْخَةٌ	يَزُحُّها ثُمَّ يَنامُ الفَخَّةَ
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ دَوْخَلَةٌ	يَأْكُلُ مِنْهَا كُلَّ يَوْمٍ مَلَّةً
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ هِرْشَقَةٌ	وَنَشْفَةٌ يَمَلَأُ مِنْهَا كَفَّهُ
أَفْلَحَ مَنْ كَانَتْ لَهُ كِرْدِيْدَةٌ	يَأْكُلُ مِنْهَا وَهُوَ ثَانٍ جِيْدَةٌ

وقال أبو فرعون الشاشي يَخاطِبُ الحُجَّاجَ:

يا خَيْرَ رَكِبٍ سَلَكَوا طَرِيقًا	وَيَمَّمُوا مَكَّةَ وَالْعَقِيْقًا
وَأَطْعَمُوا ذَا الكَعْكَ والسَّوِيْقَا	وَالْخُشْكَنانَ اليابِسَ الرَّقِيْقَا

(١) العظم الذي أخذ ما عليه من اللحم.

(٢) يصف ما في القدر كبيادق الشطرنج من ييوسها.

وقال آخر:

رَأَيْتُ الْجُوعَ يَطْرُدُهُ رَغِيفٌ وَمِلءُ الْكَفِّ مِنْ مَاءِ الْفُرَاتِ

وقال النبي ﷺ: «الطاعمُ الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»^(١).

قَبْلَ مُزْبَدٍ جَارِيَةٍ بَخْرَاءَ، فَقَالَ لَهَا: أَطْنُوكَ تَعْشَيْتِ بَكْرَشَ، أَوْ احْتَشَيْتِ صَحْنًا؛
فَقَالَتْ: مَا أَكَلْتُ إِلَّا خَرْدَلًا. قَالَ: قَدْ ذَهَبَ النُّصْفُ الثَّانِي وَبَقِيَ مَا قَبْلَهُ.

قال الشاعر:

وَبَاتُوا يُعْشَوْنَ الْقُطَيْعَاءَ ضَيْفَهُمْ وَعِنْدَهُمُ الْبَزْنِيُّ فِي جُلَلِ دُسَمٍ

وقال آخر:

وَمَا أَطْعَمُونَا الْأَوْتَكَى مِنْ سَمَاحَةٍ وَلَا مَنَعُوا الْبَزْنِيَّ إِلَّا مِنْ الْبُخْلِ

سَمِعْتُ الْحَجَّاجِيَّ يَقُولُ: كُلِّ الْخُبْزِ أَوْ السَّمَكِ، فَإِنْ أَكَلَ أَحَدُهُمَا كَانَ مُطِيعًا؛
فَإِذَا نَفَيْتَ فَقُلْتَ: لَا تَأْكُلِ الْخُبْزَ وَالسَّمَكِ؛ فَإِنْ أَكَلَ أَحَدُهُمَا لَمْ يَعْصِكَ؛ وَإِذَا قُلْتَ:
لَا تَأْكُلِ الْخُبْزَ أَوْ السَّمَكِ، لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَأْكُلَ أَحَدُهُمَا لِأَنَّ التَّقْدِيرَ فِي النَّفْيِ لَا تَأْكُلُ
أَحَدَهُمَا، وَالتَّقْدِيرُ فِي الْإِيجَابِ أَتَيْتَ أَيُّهُمَا شِئْتَ؛ فَهَذِهِ خَاصِيَّةٌ أَوْ. السَّوِيْقُ:
الْجَشْيِيشُ، لِأَنَّهُ رُضٌ وَكُسِيرٌ. الْمِجَشَّةُ: رَحَى صَغِيرَةٌ يُجَشُّ بِهَا. رُويَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ رَأَى الشَّبْرَمَ عِنْدَ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ فَقَالَ: «حَارٌّ حَارٌّ»، وَأَمَرَ بِالسَّنَا.

ويقال: أَكَلَ الْبَطِيخَ مَجْفَرَةً، أَيِ يَفْقَعُ مَاءَ النِّكَاحِ.

ويقال: فَلَانَ عَظِيمُ الْمُجْرَأَشُ أَيِ الْوَسَطِ، فَرَسٌ مُجْرَأَشُ الْجَنْبَيْنِ وَاجْرَأَشَتْ
الْإِبِلُ، إِذَا بَطْنَتْ، وَإِبِلٌ مُجْرَأَشَةٌ أَيِ بَطَانٍ؛ وَيُقَالُ: كَثَاةٌ قَذَرِكُمْ، وَهِيَ مَا ارْتَفَعَ مِنْهَا
عِنْدَ الْعُلَى.

وقال النبي ﷺ فيما رواه ابن عباس قال: سمعته يقول: «ليس بمؤمنٍ مَنْ بَاتَ
شَبْعَانَ رِيَّانَ وَجَارَهُ جَائِعٌ طَائٍ»^(٢).

(١) سنن الترمذي، ١٥ - باب. حديث رقم: ٢٦٠٥ - عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر». هذا حديث حسن غريب.

صحيح البخاري، ٥٤ - باب: الطاعم الشاكر مثل الصائم الصابر. [قوله: «الطعام...» ثواب من يأكل ويشكر الله تعالى على فضله مثل ثواب من يصوم ويصبر على الجوع، ابتغاء وجه الله تعالى].

(٢) في الجامع الصغير. لجلال الدين السيوطي باب: حرف الميم. حديث رقم: ٧٧٧١ - ما آمن بي من بات شعبان وجاره جائع إلى جنبه، وهو يعلم به. تصحيح السيوطي: حسن.

وفي الفيض القدير، شرح الجامع الصغير، للإمام المناوي حرف الميم. حديث رقم: ٧٧٧١ - «ما آمن بي من بات شعبان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به» المراد نفي الإيمان الكامل وذلك لأنه يدل على قسوة قلبه وكثرة شحه وسقوط مروءته وعظيم لؤمه وخبث طويته.

قال عُمَرُ: مُدْمِنُ اللَّحْمِ كَمُدْمِنِ الْخَمْرِ.
وقال لَقِيْطُ بْنُ زُرَّارَةَ يَذُمُّ أَصْحَابَهُ يَوْمَ جَبَلَةَ:
إِنَّ الشُّوَاءَ وَالنَّشِيْلَ وَالرُّغْفَ وَالْقَيْنَةَ الْحَسَنَاءَ وَالْكَأْسَ الْأَنْفَ
لِلضَّارِبِينَ الْهَامَ وَالْحَيْلُ قُطِفَ
قِيلَ لِدُبٍّ: لِمَ تُفْقِرُ رَجُلًا فِي لَيْلَةٍ مِنْ كَثَرَةِ مَا تَأْكُلُ مِنْ عَيْنِهِ؟ فقال: لَا تَلُمْنِي،
فَإِنَّ بَيْنَ يَدَيَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ أَنْجَحُرُ فِيهَا فَلَا أَتَلَمَّظُ إِلَّا بِالْهَوَاءِ.
قال ابن الأعرابي: إِذَا أَفْدَحَ ^(١) الرَّجُلُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَأَطْعَمَ لَحْمَهُ الْمَسَاكِينَ سُمِّيَ
مَتَمِّمًا، وَبِهِ سُمِّيَ ابْنُ نُؤَيْرَةَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ النَّابِغَةِ:

إِنِّي أَتَمِّمُ أَيْسَارِي وَأَمْنَحُهُمْ مَثْنَى الْأَيْدِي وَأَكْسُو الْجَفْنَةَ الْأُدْمَا
الثَّرْتُمَ مِنْ فُتَاتِ الطَّعَامِ وَيَقَالُ الثَّرْتُمُ أَيْضًا مَا فَضَلَ مِنَ الطَّعَامِ فِي الْإِنَاءِ،
ويقال: طَعَامٌ ذُو نُزُلٍ. وَالْمَلِيحُ وَالْمِلْحُ: السَّمْنُ، يُقَالُ: تَمَلَّحْتَ الْجَارِيَةَ وَتَحَلَّمْتَ
إِذَا سَمِنْتَ.

وقال أَبُو الطَّمْحَانِ الْقَيْنِيُّ:
وَإِنِّي لَا رَجُو مِلْحَهَا فِي بَطُونِكُمْ وَمَا كَشَطْتُ مِنْ جِلْدٍ أَشَعَتْ أَغْبَرَا
هَكَذَا سَمِعْتُ. وَيُقَالُ: سَمِنَ حَتَّى كَأَنَّهُ خَرَسٌ، وَالْخَرَسُ: الدُّنُّ بَعَيْنُهُ. وَفِي
الْمَثَلِ: «إِنَّ آخِرَ الْخَرَسِ لِدُرْدِي» أَيِ آخِرِ الدُّنِّ دُرْدِي.
وَأُنْشِدُ:

حَبَبْذَا الصَّيْفُ حَبَبْذَا مِنْ أَوَانٍ	وَرَمَانٍ يَفْسُوقُ كُلَّ رَمَانٍ
رَمَنْ الْخَمْرِ وَالْمَسَاوِرِ وَالْجَشْشِ	بِنِ وَوَزْدِ الْخِلَافِ وَالرَّيْحَانِ
رَمَنْ كَانَتْ الْمَضَائِرُ فِيهِ	بِلُحُومِ الْجِدَاءِ وَالْحُمْلَانِ
وَصُدُورُ الدَّجَاجِ بِالْخَلِّ وَالْمُ	رِّي وَنَثْرِ السَّدَابِ وَالْأَنْجَذَانِ
وَسِمَانٍ مِنَ الْفَرَارِيحِ تُغْلَى	بِعَصِيرِ الْأَغْنَابِ وَالرُّمَانِ
وَشِوَا الْوَرَةِ السَّذِيذَةِ وَالْقَا	رِصَ بَيْنَ الْحَلِيبِ وَالْأَلْبَانِ
وَنَقْيِ السَّوِيْقِ بِالسَّكَّرِ الْمَثِ	خُولٍ فِي الثَّلَجِ فِي الزُّجَاجِ الْيَمَانِي
وَقِلَالٍ تُحَطُّ مِنْ بَكَرَاتٍ	مُزَوِيَاتٍ غَلَائِلَ الْعَطَشَانِ

وَاعْتَرَضَ حَدِيثُ الْعِلْمِ، فَأَنْشَدَ ابْنُ عُيَيْدٍ الْكَاتِبُ لِسَابِقِ الزُّبَيْرِيِّ قَوْلَهُ:
الْعِلْمُ يَجْلُو الْعَمَى عَنْ قَلْبِ صَاحِبِهِ كَمَا يُجْلِي سَوَادَ الظُّلْمَةِ الْقَمَرُ

(١) أي ضرب بالفداح.

وقال أيضاً:

إِذَا مَا لَمْ يَكُنْ لَكَ حُسْنُ فَهْمٍ أَسَأْتَ إِجَابَةً وَأَسَأْتَ فَهْمًا

آخر:

الْعِلْمُ يُنْعِشُ أَقْوَاماً فَيَنْقَعُهُمْ كَالْعَيْثِ يُدْرِكُ عِيدَانَا فَيُخَيِّبُهَا

فقال الوزير: عندي في صحيفة حفظ الصبا: العلم سراجٌ يُجَلِّي الظلمة، وضيءٌ يَكْشِفُ العَمَى.

التَّذَلُّلُ مكروهٌ إلا في استفادته، والِحِرْصُ مذمومٌ إلا في طلبه، والحَسَدُ منهيٌّ عنه إلا عليه.

ثم عاد الحديث إلى المُمَالَحَةِ:

حدثني مُطَهَّرُ بْنُ أَحْمَدَ الْكَاتِبُ عن ابنِ قَرَارَةَ الْعِطَّارِ قَالَ: اجتمع ذات يومٍ عندي على المائدة أبو علي بنُ مُقَلَّةَ وأبو عبد الله اليزيدي، وكان ابنُ مُقَلَّةَ يُفَضِّلُ الْهَرِيسَةَ، وكان اليزيديُّ يُفَضِّلُ الْجَوَذَابَةَ، وكان كلُّ واحدٍ منهما يصفُ النوعَ الذي يَقُولُ به وَيُؤَثِّرُهُ، فقال اليزيديُّ: الْهَرِيسَةُ طَعَامُ السُّوقِيِّينَ وَالسُّفَلَةِ، وليست الجوازبة بهذه الصفة؛ فقال لي ابنُ مُقَلَّةَ: ما اسم الجوازبة بالفارسية؟ فقلتُ جَوَزَاب، فقال: ضَمَّ الْكَافُ^(١). وفهمتُ ما أَرَادَ، فقلتُ: نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ، وَاللَّهُ لَقَدْ عَافَتْهَا نَفْسِي، وَسَكَتَ الْيَزِيدِيُّ.

قال يزيد بن ربيع: الْكَبَابُ طَعَامُ الصَّعَالِيكِ، والماء والملح طَعَامُ الْأَعْرَابِ، والهرائس والرؤوس طَعَامُ السَّلَاطِينِ، والشَّوَاءُ طَعَامُ الدُّعَارِ، وَالْخَلُّ وَالزَّيْتُ طَعَامُ أُمَّثَلَانَا. وحدثني ابنُ ضَبْعَوْنَ الصُّوفِيُّ قَالَ: قال لي أبو عمر الشاري صَاحِبُ الْخَلِيفَةِ: انْهَضْ بِنَا حَتَّى نَتَغَدَّى، فَإِنَّ عِنْدِي مَصُوصاً وَهَلَاماً وَبَقِيَّةَ مُطَجَّجَةٍ، وَشَيْئاً مِنَ الْبَاذَنْجَانِ الْبُورَانِيِّ الْبَائِتِ الْمَخْرُ. قلتُ: هذه كلها تَزَايِنُ الْمَائِدَةِ، فَأَيْنَ الْأَذَمُّ؟

كان عبدُ اللَّهِ بنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ يَكْثُرُ أَكْلُ الْجَوَذَابِ وَلَا يُؤَثِّرُ عَلَيْهِ شَيْئاً، وَكَانَ يَقُولُ: يَشُدُّ الْعَضْدَيْنِ، وَيَقْوِي السَّاعِدَيْنِ، وَيَجْلُو النَّاطِرَيْنِ، وَيَزِيدُ فِي سَمْعِ الْأَذْنَيْنِ، وَيَحْمَرُّ الْوَجْنَتَيْنِ، وَيَزِيدُ فِي الْمَنِيِّ، وَهُوَ طَعَامُ شَهْيٍ، فَأَيُّ شَيْءٍ بَقِيَ؟ وَبَلَغَ الْمَنْصُورَ وَصْفُهُ هَذَا، فَقَالَ: بِحَقِّ مَا وَصَفَهُ، وَلَا تُقْبَلُ أَكْلُهُ. وَقَالَ وَكَيْعُ بْنُ الْجَرَّاحِ: التَّمَتُّنُ عَلَى الْمَائِدَةِ خَيْرٌ مِنْ زِيَادَةِ لَوْنَيْنِ، وَكَمَالِ الْمَائِدَةِ كَثْرَةُ الْخُبْزِ، وَالسَّمِيدُ الْأَبْيَضُ أَحْلَى مِنَ الْأَصْفَرِ.

(١) الجوزاب: كلمة فارسية بمعنى الطعام الذي يتخذ من اللحم والأرز والسكر والبندق، وقوله: ضَمَّ الْكَافُ: الكاف الفارسية المكتوبة هنا حرف جيم (جوزاب) ويشير إلى لفظ (جوز) بالفارسية وهو الفساء.

وكان يحيى بن أكرم يحب الجوداب، فبلغه أن رجلاً ممن يحضر عنده يعيب الجوداب، فقال يحيى: إن ثبت عندي هذا توقفت عن شهادته، وحكمت عليه بضغف الحس وقلة التمييز، فبلغ الرجل ذلك، فاحترس، فقال له يحيى يوماً: ما قولك في الجوداب؟ فقال: أشرف مأكّل وأطيبه، سهل المدخل، لذيذ المَطعم، جيد الغدا، قليل الأذى. قال: أصبت، هكذا أريدك.

أبو صالح عن ابن عباس قال: ما من داخلٍ إلا وله خيرة، فابذوه بالسلام، وما من مدعوٍ إلا وله حشمة، فابذوه باليمين.

قال حمّدان: قلت لجارية أرذت شراءها - وكانت ناعمة البدن رطبة شطبة غضة بضّة -: ما كان غذاؤك عند مولاي؟ قالت: المبطن. قلت: وما المبطن؟ قالت: الأرز الريان من اللبن، بالفالودج الريان من العسل، والخبيصة الريانة من الدهن والسكر والزعفران. قلت: حق لك.

وقال ابن الجصاص الصوفي: دخلت على أحمد بن روح الأهوازي فقال: ما تقول في صفحة أرز مطبوخ، فيها نهر من سمن، على حافاتها كُثبان من السكر المنخول، فدمعت عيني. فقال: مالك؟ قلت: أبكي شوقاً إليه، جعلنا الله وإياك من الواردين عليه بالعواصة والردّادتين. فقال لي: ما الغواصة والردّادتان؟ قلت: الغواصة الإبهام، والردّادتان: السبابة والوسطى. فقال: أحسنت، بارك الله عليك.

شكا رجل إلى عمر الجوع فقال: أكذك وأنت تنث نث الحميت؟ أي ترشح كما يرشح الرق.

وقال ابن سكرة:

أطمعني في خروفيكم خرفي	فجئت مستعجلاً ولم أقف
وجئت أرجو أطرافه فغدت	في طرف والسّمك في طرف
وحذروني من ذكر رزته	يا حرّ صدري لها ويا لهفي
عائنته والذي يفصله	والقلب مني على شفا جرف
ما حلّ بي منك عند منصرفي	ما كنت إلا فريسة التلّف

ويقال: القانع غني وإن جاع وعري، والحريص فقير وإن ملك الدنيا.

قيل لإبراهيم الخليل - عليه السلام -: بأي شيء اتخذك الله خليلاً؟ قال: بأني ما خيّر بين أمرين إلا اخترت الذي لله، وما اهتممت لما تكفل لي به، وما تعدّيت وما تعشيت إلا مع ضيف.

واغترضَ حديثٌ فقال: أنشدني بَيْتِي ابنُ غَسَّانِ البُصْرِيُّ فِي حَدِيثِ بَخْتِيَارٍ،
يَعْنِي عِزَّ الدَّوْلَةِ، فَأَنْشَدْتُهُ:

أَقَامَ عَلَى الْأَهْوَاذِ سِتِّينَ لَيْلَةً يَدْبُرُ أَمْرَ الْمَلِكِ حَتَّى تَدْمَرَا
يَدْبُرُ أَمْرًا كَانَ أَوَّلُهُ عَمِيًّا وَأَوْسَطُهُ تُكْلًا وَآخِرُهُ خَرًا
فَقَالَ: مَا أَعْجَبَ الْأُمُورَ الَّتِي تَأْتِي بِهَا الدُّهُورُ! عُدْ إِلَى قِرَاءَتِكَ، فَعُدْتُ وَقَرَأْتُ.

رُويَ فِي الْحَدِيثِ: لَا تَأْكُلُوا ذُرْوَةَ الثَّرِيدِ، فَإِنَّ الْبَرَكَهَ فِيهَا.
وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: اللَّبَنُ أَحَدُ اللَّحْمَيْنِ، وَمَلَكُ الْعَجِينِ أَحَدُ الرِّيعَيْنِ؛ وَالْمَرْقَةُ أَحَدُ
اللَّحْمَيْنِ، وَالبَلَاغَةُ أَحَدُ السِّيفَيْنِ وَالتَّمْيِي أَحَدُ السُّكَّرَيْنِ.

أَرَادَ مُزَبَّدٌ أَضْحِيَّةً فَلَمْ يَجِدْهَا، فَأَخَذَ دِيكًا لِيُضْحِيَ بِهِ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ جِيرَانُهُ شَاءَ شَاءَ
حَتَّى اجْتَمَعَ عِنْدَهُ سَبْعُ شِيَاهٍ، فَقَالَ: دِيكِي أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ إِسْحَاقَ لِأَنَّهُ قُدِي
بَكْبَشٍ، وَدِيكِي سَبْعَةُ.

الْكُتْلُ: اللَّحْمُ، وَالْعَيْمَةُ: شَهْوَةُ اللَّبَنِ، وَالْقَرْمُ: شَهْوَةُ اللَّحْمِ.
وَقَالَ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يِرْقَ قَلْبُهُ فَلْيَكْثِرْ مِنْ أَكْلِ الْبَلَسِ»^(١). قِيلَ: هُوَ التِّينُ.
وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ:

يَمُنُّ عَلَيَّ بِالتَّزْوِيجِ شَيْخِي وَفِي التَّزْوِيجِ لِي هَمٌّ وَشُغْلُ
وَكُنْتُ مِنَ الْهُمُومِ رَخِيًّا بِالِ فَحَلَّ مِنَ الْهُمُومِ عَلَيَّ ثِقْلُ
فَقُلْتُ لَهُ: مَنَنْتَ بِغَيْرِ مَنْ وَمَالِكَ بِالَّذِي أُسْدَيْتَ فَضْلُ
أَعْزَابَ الْعَشِيرَةِ لَوْ عَلِمْتُمْ بِحَالِي حِينَ لِي بَيْتٌ وَأَهْلُ
عَلِمْتُمْ أَنْكُمْ فِي حَالٍ عَيْشٍ رَخِيٍّ مَالَهُ يَأْقُومُ عَدْلُ

قَالَ إِسْحَاقُ الْمَوْصِلِيُّ: أَمَلَى بَعْضُ الْفُقَهَاءِ بِالْكُوفَةِ أَنَّ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ كَرِهَ السَّمَرَ إِلَّا فِي الْفِقْهِ، يَرِيدُ كَثْرَةَ السَّمَرِ إِلَّا فِي الْفِقْهِ.

قِيلَ لِمَيْسِرَةِ الرَّأْسِ: مَا أَكْثَرُ مَا أَكَلْتُ؟ قَالَ: مَائَةٌ رَغِيفٍ بِكَيْلَاجَةٍ مِلْحٍ؛
فَقِيلَ: هَذَا أَكَلُكَ فِي بَيْتِكَ؟ قَالَ: أَكَلْتُ فِي بَيْتِي رَغِيفَيْنِ، وَأَحْتَشِي إِلَى اللَّيْلِ
فِي شَلِّ الْخَيْلِ.

تَنَاولَ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ تُفَاحَةً فَأَكَلَهَا، فَقِيلَ: وَيَحَكَ، تَأْكُلُ التَّحِيَّاتِ؟ فَقَالَ:
وَالصَّلَوَاتِ وَالطَّيِّبَاتِ.

(١) فِي كَشَفِ الْخُفَا: رَقْم ٥٥٤٤: فِيهِ مَتْرُوكٌ وَمَنْكَرُ الْحَدِيثِ وَكَذَابٌ. وَبِالْبَلَسِ: الْعَدَسُ. وَقَالَ
النَّوْي: حَدِيثُ أَكْلِ الْبَطِيخِ وَالبَقْلَاءِ وَالْعَدَسِ وَالْأَرْزِ لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ صَحِيحٌ.

يقال: الطَّعْمَةُ: الكَسْبُ. ويقال: جئتُ بالطَّعْمَةِ. والطَّعْمُ: الطَّعَامُ: والطَّعْمُ: الذَّوْقُ. وهذه الأرضُ طُعْمَةٌ لَكَ وطَّعْمَةٌ.

قال إسحاق: كنت يوماً عند أحمد بن يوسف الكاتب، فدخل أحمد بن أبي خالد الكاتب ونحن في الغناء، فقال: واللّه ما أجْدُ شيئاً ممّا أنتم فيه. قال إسحاق: فهان عليّ وخفّ في عيني، فقلت له كالمستهزئ به: جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَصَدْتُ إلى أرقّ شيء خَلَقَهُ اللّهُ وألَيَّه على الأُذُنِ والقَلْبِ، وأظْهَرِه للسرور والفرح، وأنفاه للهمّ والحزن، وما ليس للجوارح منه مَوْوَنَةٌ غليظة، وإنما يَفْرَعُ السَّمْعُ وهو منه على مسافة، فَتَطَرَّبَ له النفس، فَذَمَّتْهُ؟! ولكنه كان يقال: لا يَجْتَمِعُ في رجل شهوة كل لذة، وبعد، فإن شهوة كل رجل على قَدَرِ تَرْكِيهِهِ ومِزَاجِهِ. قال: أَجَلْ، أما أنا فالطعام الرقيق أعجِبُ إليّ من الغناء. فقلت: إي واللّه ولحم البقر والجواميس والطيوس الجبليّة بالبالزنجان المبرّر أيضاً تُقدِّمُهُ؟ فقال: الغِنَاءُ مُخْتَلَفٌ فيه، وقد كَرِهَهُ قوم. قلتُ: فالْمُخْتَلَفُ فيه أَطْلُقُهُ لنا حتى تُجْمِعُوا على تحريمه، أعلمتُ - جُعِلْتُ فِدَاكَ - أنّ الأوائل كانت تقول: مَنْ سَمِعَ الغِنَاءَ على حقيقته مات. فقال: اللهم لا تُسَمِّعْناهُ على الحقيقة إذا فَنِمْتُ. فاستَظَرَفْتُهُ في هذه اللفظة، وقَدِّمُوا إليه الطعام فَشْغَلَ عن ذمّ الغِنَاءِ.

قال سعيد بن أبي عروّة: نَزَلَ الْحَجَّاجُ في طريق مَكَّةَ، فقال لحاجبه: انظُرْ أعربياً يَتَغَدَّى مَعِيَ، وأسأله عن بعض الأمر، فنظر الحاجب إلى أعرابيٍّ بَيْنَ شَمْلَيْنِ، فقال: أَجِبْ الأميرَ، فأناه، فقال له الْحَجَّاجُ: إِذَنْ فَتَغَدَّدَ مَعِيَ. فقال: إنه دَعَانِي مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنْكَ فَأَجَبْتُهُ. قال: وَمَنْ هُوَ؟ قال: اللّهُ عَزَّ وَجَلَّ دَعَانِي إلى الصَّوْمِ فَصُمْتُ، قال: أَفِي هذا اليوم الحارِّ؟ قال: نَعَمْ، صُمْتُه ليوم هو أَشَدُّ مِنْهُ حَرّاً. قال: فَأَفْطِرْ وَصُمْ غَدًا. قال: إِنَّ صُمَمْتُ لِي البقاء إلى غَدٍ. قال: ليس ذلك إليّ. قال: فكيف تَسْأَلُنِي عاجلاً بأجل لا تَقْدِرُ عليه؟ قال: إنّه طعام طيّب. قال: إِنَّكَ لَمْ تُطَيِّبْهُ وَلَا الْخَبْازَ؛ وَلَكِنْ العافية طَيِّبَتُهُ، وَلَمْ يُفْطِرْ، وَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ.

قال أعرابي: هذا الطَّعَامُ مَطْيَبَةٌ لِلنَّفْسِ، مَحْسَنَةٌ لِلْجِسْمِ.

قال أبو حاتم: حَدَّثَنَا الْأَصْمَعِيُّ قال: قال أبو طفيلة الجَرَمَازِيُّ: قال أعرابيٌّ: ضِفْتُ رَجُلًا فَأَتَانَا بِخَبِرٍ مِنْ بَرٍّ كَأَنَّهُ مَنَاقِيرُ الثُّغْرَانِ^(١)، وَأَتَانَا بِتَمْرِ كَأَغْنَاكِ الْوِزْلَانِ^(٢)، يَوْحَلُ فِيهِ الضَّرْسُ.

وقال آخر: ونظر إلى رَجُلٍ يأكل بالعين والشم واليد والرأس والرجل: لَوْ سَأَلْتَهُ عَنْ اسْمِهِ لَمَّا ذَكَرَهُ، وَلَوْ طَلَعَ وَلَدُهُ الْغَائِبُ عَلَيْهِ مَا عَرَفَهُ:

يَلْعَبُ بِالْخُمْسَةِ فِي قَضْعَةٍ لِعَبِّ أَخِي الشُّطْرَنْجِ بِالشَّاهِ

قال ابن الأعرابي: كان المُحَسِّن الضبي شَرَّها على الطعام، وكان دميماً، فقال له زياد ذات يوم: كم عيالك؟ قال: تسع بنات... قال: فأين هُنَّ منك. فقال: أنا أَحَسُّ مِنْهُنَّ وهنَّ أَكَلُ مِنِّي؛ فَضَحِك. وقال: جازَ ما سَأَلْتَ لَهُنَّ. وأَمَرَ له بأربعة آلاف دِرْهَم، فقال:

إِذَا كُنْتُ مُرْتَادَ الرُّجَالِ لِنَفْعِهِمْ فَنَادِ زِيَاداً أَوْ أَخَا لَزِيَادِ
يُجِيبُكَ أَمْرُؤٌ يُعْطِي عَلَى الْحَمْدِ مَالَهُ إِذَا ضَنَّ بِالْمَعْرُوفِ كُلِّ جَوَادِ
وقال سِنَانُ بْنُ أَبِي حَارِثَةَ:

ثُمَّ أَطْعِمُ زَادِي غَيْرَ مُدْخِرٍ أَهْلَ الْمَحَلَّةِ مِنْ جَارٍ وَمِنْ جَادِي
قَدْ يَعْلَمُ الْقَوْمُ إِذْ طَالَ اغْتِرَابُهُمْ وَأَزْمَلُوا الزَّادَ أَنِّي مُنْفِدُ زَادِي
وقال السَّقَّاحُ بْنُ بَكْرٍ:

وَالْمَالِيُّ الشَّيْزِيُّ لِأَضْيَافِهِ كَأَنَّهَا أَغْضَاؤُ حَوْضٍ بِقَاعِ
لَا يَخْرُجُ الْأَضْيَافُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَّا وَهُمْ مِنْهُ رِوَاءُ شِبَاعِ
أُورِدَ أَعْرَابِيٌّ إِلَيْهِ، فَأَبَى أَهْلُ الْمَاءِ أَنْ يَجِيزُوهُ، وَقَالُوا: إِبْلُكَ كَثِيرَةٌ، فَإِنْ أُورِدْتَ فَشَرِطْ أَنْ تَقِفَ بَعِيداً عَنِ الْمَاءِ وَتَسْقِي مَا جَاءَكَ مِنْهَا، وَلَا تُحَاجِزْ بِهَا؛ قَالَ: أَفْعَلُ، وَأَنْشَأَ يَقُولُ:

رُبَّ طَبِيخٍ مِرْجَلٍ مُلْهَوِّجٍ يَسْلُثُهُ الْقَوْمُ وَلَمَّا يَنْضَجِ
حُشٌّ بِشَيْءٍ مِنْ ضِرَامِ الْعَرْفَجِ

فَانْقَضَتْ الْإِبِلُ كُلُّهَا عَلَى الْمَاءِ فَشَرِبَتْ.

قال الشاعر:

شَرِبُ النَّبِيذِ عَلَى الطَّعَامِ قَلِيلُهُ فِيهِ الشُّفَاءُ وَصِحَّةُ الْأَبْدَانِ
وَإِذَا شَرِبْتَ كَثِيرَهُ فَكَثِيرُهُ مُزْجٌ عَلَيْكَ رِكَائِبُ الشَّيْطَانِ
فَتَكُونُ بَيْنَ الضَّاحِكِينَ كَبُومَةٍ عَمِيَاءَ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْغُرْبَانِ
فَاخْذَرْ بِجُهِدِكَ أَنْ تُرَى كَجَنِيْبَةٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ تُقَادُ بِالْأَرْسَانِ

قال حَمَزَةُ الْمَصْتَفِ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِسَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ: أَنْ اتَّخِذْ لَنَا سُوراً، أَيَّ طَعَامٍ كَطَعَامِ الْوَلِيمَةِ، وَهِيَ فَارِسِيَّةٌ.

قال شيخنا أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيِّ: أَخْطَأَ هَذَا الْمَتَأَوَّلُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ النَّبِيُّ ﷺ: أَنْ سَلْمَانٌ اتَّخَذَ لَنَا خَنْدَقاً يَوْمَ الْأَحْزَابِ، لِأَنَّهُ حَضَّ عَلَى ذَلِكَ، وَلَيْسَ ذَا مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالْفِظِ.

وقال جَعْفَرُ بْنُ الْمُؤَسَّسِ فِي وَصْفِ عَصِيدَةٍ:

وَمَاءٌ عَصِيدَةٍ حَمْرَاءُ تَخْكِي إِذَا أَبْصَرَتْهَا مَاءُ الْخَلْقِ
تَنْزِلُ عَنِ اللَّهَاءِ تَمَرٌ سَهْلًا وَتَجْرِي فِي الْعِظَامِ وَفِي الْعُرُوقِ

قال الحسن بن سهل: أشياء تذهب هباء: دينٌ بلا عقل، ومالٌ بلا بذل وعِشْقٌ بلا وصل. فقال حميد: بقي عليه مائدةٌ بلا نَقْل، ولحسةٌ بلا فضل.

قيل لصوفي: ما حدُّ الشُّبُع؟ قال: الموت.

وقيل لآخر: ما حدُّ الشُّبُع؟ قال: أكلٌ حتى يقع عليَّ السُّبُات فأنام على وجهي وتتجافى أطرافِي عن الأرض.

وقيل لآخر: ما حدُّ الشُّبُع؟ قال: أن أدخل إصبعي في حلقي فيصِلَ إلى الطعام.

قال يعقوب: أصبحتُ خالفاً: لا أشتهي الطعام. وخُلفَ البطنُ تَغْيَرُهُ.

ويقال: مَغْسَنِي بَطْنِي، وهو المَغْس، ورجل مَمْغُوس.

ويقال: غَمَزَنِي بَطْنِي ومَلَكَنِي.

والعامَّة تقول: كلُّ ما في القَدْرِ تُخرِجُهُ المِغْرَفَةُ، ورجل مُقْرِضِبٌ وقُرَاضِبٌ وقِرْضَابٌ إذا كان أكولاً، وكذلك السِّيفُ واللُّصُّ، قال الشاعر:

وليس يَرُدُّ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا من القَوْمِ إِلَّا كُلُّ مَاضِي العَزَائِمِ

ومرَّ ابنُ عامرٍ بن عبدِ القَيْسِ وهو يأكلُ بَقْلاً بِمِلْحٍ، فقال: لقد رَضِيتُ بِالْيَسِيرِ. فقال: أَرْضَى مِنِّي بِالْيَسِيرِ مَنْ رَضِيَ بالدُّنْيَا عَوْضاً عن الآخِرَةِ.

قال عبد الملك بن مروان: لا تَسْتَأْكَنَّ إِلَّا عَرَضاً، ولا تَأْكُلَنَّ إِلَّا عَضاً ولا تَشْرَبَنَّ إِلَّا مَصّاً، ولا تَرْكَبَنَّ إِلَّا نَصّاً^(١)، ولا تَعْقِدَنَّ إِلَّا وَصّاً.

ويقال: ماء قَرَّاح؛ وَخُبْزٌ قَفَّار: لا أدمَ مَعَهُ، وَسَوِيقٌ جافٌّ، ولبنٌ صَرِيح: لَمْ يُخَالِطْهُ شَيْءٌ.

وقال سعيد بن سلمة: شيطان لا تَشْبُعُ مِنْهُمَا بَبْغَادًا: السَّمْكُ والرُّطْبُ.

قال أعرابي: أَكَلْتُ «فِرْسِيكَةً» وعلى خَوْخَةٍ، فجاء غلام حَزَوْرٌ فَنَظَرَ حُرَّتِي.

الفِرْسِيكَةُ: الخَوْخَةُ المَقْدَدَةُ. والخَوْخَةُ: القَمِيصُ الأخضرُ بَطْنٌ بَفَرَوْ. والحرَّةُ: الأذن.

قيل لحاتم الأصم: بِمِ رَزِقْتَ الحِكْمَةَ؟ قال: بِخَلَاوَةِ البَطْنِ، وَسَخَاوَةِ النَّفْسِ، ومكَابِدَةِ اللَّيْلِ.

وقال شقيق البلخي: العِبَادَةُ حِرْفَةٌ، وَحَانُوتُهَا الحَلَوَةُ، وآلَتُهَا الجُوعُ.

قال لُقمان: إذا امْتَلَأَتِ المَعِدَةُ نَامَتِ الفِكْرَةُ، وَخَرِسَتِ الحِكْمَةُ، وَقَعَدَتِ الأَعْضَاءُ عَنِ العِبَادَةِ.

وقال عمر: لولا القيامة لشاركناكم في لين عيشكم.

وقال بعض العرب: أَقْلِلْ طَعَامَكَ تَحْمَدَ مَنَامَكَ.

قال يحيى بن مُعَاذٍ: الشَّبَعُ يُكْنَى بالكُفْرِ.

وقال غيره: الجُوعُ يُكْنَى بالرَّحْمَةِ.

وقال أعرابي:

تَحْيِزُ مَنِّي خِيفَةً أَنْ أَضِيفَهَا كَمَا انْحَاذَتْ الْأَفْعَى مَخَافَةَ ضَارِبٍ

وَذَكَرَ الْمَهْلَبُ اللَّحْمَ فَقَالَ: إِذَا التَّقَى الْوَارِدُ وَالْغَابِرُ فَتَوَقَّعِ الْفُسَادَ.

الليلة الرابعة والثلاثون

وقال الوزير في بعض الليالي: قد والله ضاق صدري بالغَيْظ لما يَبْلُغني عن العامة من خَوْضِها في حديثنا، وذكرها أمورنا، وتتبعها لأسرارنا، وتنقيرها عن مَكْنُونِ أحوالنا، ومكتوم شأننا، وما أدري ما أضنع بها، وإنِّي لأهْمُ في الوقت بعد الوقت بقطع السنة وأزيد وأزجل وتنكيل شديد، لعل ذلك يطرَحُ الهَيْبَةَ ويخسِمُ المادَّةَ، ويقطَعُ هذه العادة، لحاهمُ الله، ما لهم لا يُقبلون على شؤونهم المهمة، ومعاشهم النافعة، وفرائضهم الواجبة؟ ولم ينقبون عما ليس لهم، ويرجعون بما لا يُجدي عليهم، ولو حَقَّقُوا ما يقولون ما كان لهم فيه عائدة ولا فائدة؛ وإنني لأعجب من لهجهم وشغفهم بهذا الخلق حتى كأنه من الفرائض المحتومة، والوظائف الملزومة؛ وقد تكرَّر منا الزجر، وشاع الوعيد، وفشا الإنكارُ بين الصغار والكبار، ولقد تعايى عليَّ هذا الأمرُ وأغلق دُوني بابه، وتكاثف عليَّ حجابُه، والله المستعان.

فقلت: أيُّها الوزير، عندي في هذا جوابان: أحدهما ما سمعتُ من شيخنا أبي سليمان، وهو مَنْ تَفَوَّقَ في الفضل والحكمة والتجربة ومحبة هذه الدولة والشَّفَقَةِ عليها من كل هبة ودبة؛ والآخرُ مما سمعته من شيخ صوفيٍّ، وفي الجوابين فائدتان عظيمتان، ولكن الجملة خشناء، وفيها بعض الغلظة، والحق مرٌّ، ومن تَوَخَّى الحقَّ احتمَلَ مرارته.

قال: فاذكر الجوابين وإن كانا غليظين، فليس يُنتفع بالدواء إلا بالصبر على بشاعته، وضدود الطبع عن كراهته.

قلت: أما أبو سليمان، فإنه قال في هذه الأيام: ليس ينبغي لمن كان الله عز وجل جعله سائس الناس: عامتهم وخاصتهم وعالمهم وجاهلهم، وضعيفهم وقويهم، وراجحهم وشائِلهم، أن يضجر مما يبلُغُه عنهم أو عن واحد منهم لأسباب كثيرة، منها: أن عقله فوق عقولهم، وحلمه أفضل من حلمهم، وصبره أتم من صبرهم؛ ومنها: أنهم إنما جعلوا تحت قدرته، ونيطوا بتدبيره، واختبروا بتصرفهم على أمره ونهيه، ليقوم بحق الله تعالى فيهم، ويصبر على جهل جاهلهم، ويكون عماد حاله معهم الرِّفقَ بهم، والقيام بمصالحهم، ومنها: أن العلاقة التي بين السلطان وبين الرعية قوية، لآنها إلهية، وهي أوشج من الرِّجم التي تكون بين الوالد والولد، والمليك والد كبير، كما أن الولد ملك صغير، وما يجب على الوالد في سياسة ولده من الرِّفق به، والحنو عليه، والرقة له، واجتلاب المنفعة إليه، أكثر ممَّا يجب على الولد في طاعة والده، وذلك أن الولد

غُرٌّ، وقريبُ العهدِ بالكُونِ، وجاهلٌ بالحال، وعارٍ من التَّجربةِ، كذلك الرِّعيَّةُ الشبيهة بالوَلَدِ، وكذلك المَلِكُ الشبيهُ بالوالد؛ ومما يزيد هذا المَعْنَى كَشْفًا، وَيُكْسِبُهُ لُطْفًا، أَنَّ المَلِكَ لَا يَكُونُ مَلِكًا إِلَّا بِالرَّعيَّةِ، كما أَنَّ الرَّعيَّةَ لَا تَكُونُ رعيَّةً إِلَّا بِالْمَلِكِ، وهذا من الأحوالِ المتضايِفةِ، والأسماءِ المُتَنَاصِفةِ؛ وبسبب هذه العلاقة المُحْكَمَةِ والوُضْلَةِ الوُشِيَجَةِ، ما لهَجَّتِ العامةُ بتعرُّفِ حالِ سائسِها، والناظرِ في أمرِها، والمالِكِ لزمَامِها، حتى تكونَ على بيانٍ من رَقَاةِ عيشِها، وطيبِ حَيَاتِها، ودُرُورِ مَوَارِدِها، بالأَمْنِ الفَاشِي بَيْنِها، والعدلِ الفَائِضِ عَلَيْها، والخيرِ المَجْلُوبِ إِلَيْها، وهذا أمرٌ جارٍ على نظامِ الطَّبِيعَةِ، ومندوبٌ إِلَيْهَ أيضًا في أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ.

قال: ولو قالت الرِّعيَّةُ لسلطانِها: لم لَا نَخُوضُ في حَدِيثِكَ، ولا نَبْحَثُ عن غَيْبِ أَمْرِكَ، ولم لَا نَسْأَلُ عن دِينِكَ وَنَحْلَتِكَ وَعَادَتِكَ وَسِيرَتِكَ؟ ولم لَا نَقِفُ على حَقِيقَةِ حَالِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ، وَمَصَالِحُنَا مُتَعَلِّقَةٌ بِكَ، وَخَيْرَاتُنَا مُتَوَقَّعَةٌ مِنْ جِهَتِكَ، وَمَسَرَّتُنَا مَلْحُوظَةٌ بِتَذْيِيرِكَ، وَمَسَاءَتُنَا مَصْرُوفَةٌ بِاهْتِمَامِكَ، وَتَطْلُمُنَا مَرْفُوعٌ بِعِزِّكَ، وَرَفَاهِيَّتُنَا حَاصِلَةٌ بِحُسْنِ نَظَرِكَ وَجَمِيلِ اعْتِقَادِكَ، وَشَائِعٌ رَحْمَتِكَ وَبَلِيعٌ اجْتِهَادِكَ، ما كان جوابُ سلطانِها وسائسِها؟ أما كان عليه أن يَعْلَمَ أَنَّ الرَّعيَّةَ مُصِيبَةٌ فِي دَعْوَاهَا الَّتِي بِهَا اسْتَطَالَتْ، بَلَى وَاللَّهِ، الْحَقُّ مُعْتَرَفٌ بِهِ وَإِنْ شَعَبُ الشَّاعِبِ، وَأَعْنَتِ الْمُعْنَتِ.

قال: ولو قالت الرِّعيَّةُ أيضًا: وَلِمَ لَا تَبْحَثُ عَن أَمْرِكَ؟ وَلِمَ لَا تَسْمَعُ كُلَّ عَثٍّ وَسَمِينٍ مِنَّا! وَقَدْ مَلَكَتْ نَوَاصِينَا، وَسَكُنَتْ دِيَارُنَا، وَصَادَرَتْنَا عَلَى أَمْوَالِنَا، وَحُلَّتْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ضِيَاعِنَا، وَقَاسَمَتْنَا مَوَارِثُنَا، وَأَنْسَيْنَا رَفَاعَةَ^(١) الْعَيْشِ، وَطِيبَ الْحَيَاةِ، وَطُمَأْنِينَةَ الْقَلْبِ، فَطَرَقْنَا مَخَوْفَةً، وَمَسَاكِينًا مَئْزُولَةً، وَضِيَاعُنَا مُقْطَعَةً، وَنَعْمُنَا مَسْلُوبَةً، وَحَرِيمُنَا مُسْتَبَاحٌ، وَنَقْدُنَا زَائِفٌ، وَخَرَاغُنَا مُضَاعَفٌ، وَمُعَامَلَتُنَا سَيِّئَةٌ، وَجُنْدُنَا مُتَغَطَّرَسٌ، وَشُرَطُنَا مُنَحَرَفٌ، وَمَسَاجِدُنَا خَرِبَةٌ، وَوُقُوفُهَا مُنْتَهَبَةٌ، وَمَارِسَاتُنَا خَاوِيَةٌ، وَأَعْدَاؤُنَا مُسْتَكْبِلَةٌ، وَغِيُونُنَا سَخِينَةٌ، وَصُدُورُنَا مَغِيظَةٌ، وَبَلِيَّتُنَا مُتَّصِلَةٌ، وَفَرَحُنَا مَعْدُومٌ. ما كان الجوابُ أيضًا عَمَّا قَالَتْ وَعَمَّا لَمْ تَقُلْ، هَيِّئْ لَكَ، وَخَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهَا مِنْ سَطَوَتِكَ وَصَوْلَتِكَ؟

وحكى لنا في عَرَضِ هذا الكلامِ أَنَّهُ رُفِعَ إِلَى الْخَلِيفَةِ الْمُعْتَصِدِ أَنَّ طَائِفَةً مِنَ النَّاسِ يَجْتَمِعُونَ بِبَابِ الطَّاقِ وَيَجْلِسُونَ فِي دُكَّانِ شَيْخِ تَبَّانٍ، وَيَخُوضُونَ فِي الْفُضُولِ وَالْأَرَاجِيفِ وَفَنُونِ مِنَ الْأَحَادِيثِ، وَفِيهِمْ قَوْمٌ سَرَاةٌ وَتَنَاءٌ^(٢) وَأَهْلُ بَيُوتَاتٍ سِوَى مَنْ يَسْتَرْقِ السَّمْعَ مِنْهُمْ مِنْ خَاصَّةِ النَّاسِ، وَقَدْ تَفَاقَمَ فَسَادُهُمْ وَإِفْسَادُهُمْ، فَلَمَّا عَرَفَ الْخَلِيفَةُ ذَلِكَ ضَاقَ ذَرْعًا، وَحَرَجَ صَدْرًا، وَامْتَلَأَ غَيْظًا، وَدَعَا بِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ، وَرَمَى بِالرِّفِيعَةِ^(٣) إِلَيْهِ، وَقَالَ: انْظُرْ فِيهَا وَتَفَهَّمْهَا. ففعل، وشاهد من تَرُبُّدِ وَجْهِ الْمُعْتَصِدِ مَا أَرَعَجَ سَاكِنَ صَدْرِهِ، وَشَرَّدَ

(١) خفضه ولينه.

(٢) الرؤساء.

(٣) الرقعة المرفوعة.

أَلِفَ صَبْرِهِ، وَقَالَ: قَدْ فَهَمْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَمَا الدَّوَاءُ؟ قَالَ: تَتَقَدَّمُ بِأَخَذِهِمْ وَصَلَبَ بَعْضَهُمْ وَإِخْرَاقَ بَعْضِهِمْ وَتَغْرِيقَ بَعْضِهِمْ، فَإِنَّ الْعُقُوبَةَ إِذَا اخْتَلَفَتْ، كَانَ الْهَوَلُ أَشَدَّ، وَالْهَيْبَةُ أَفْشَا، وَالزُّجْرُ أَنْجَعُ، وَالْعَامَّةُ أَخَوْفَ.

فَقَالَ الْمُعْتَصِدُ - وَكَانَ أَعْقَلُ مِنَ الْوَزِيرِ -: وَاللَّهِ لَقَدْ بَرَّدَتْ لَهَيْبَ غَضَبِي بِفُورَتِكَ هَذِهِ، وَنَقَلْتَنِي إِلَى اللَّيْنِ بَعْدَ الْغِلْظَةِ، وَحَطَطْتَ عَلَيَّ الرَّفْقَ، مِنْ حَيْثُ أَشْرْتَ بِالْخُرْقِ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّكَ تَسْتَجِيزُ هَذَا فِي دِينِكَ وَهَذِيكَ وَمُرُوءَتِكَ، وَلَوْ أَمَرْتُكَ بِبَعْضِ مَا رَأَيْتَ بِعَقْلِكَ وَحَزَمِكَ لَكَانَ مِنْ حُسْنِ الْمُؤَاوَزَةِ وَمِنْذُولِ النَّصِيحَةِ وَالنَّظَرِ لِلرَّعِيَّةِ الضَّعِيفَةِ الْجَاهِلَةِ أَنْ تَسْأَلَنِي الْكَفَّ عَنْ الْجَهْلِ، وَتَبْعَثَنِي عَلَى الْحَلَمِ، وَتُحَبِّبَ إِلَيَّ الصَّفْحَ وَتُرْعِبَنِي فِي فَضْلِ الْإِغْضَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَشْيَاءِ. وَقَدْ سَاءَنِي جَهْلُكَ بِحُدُودِ الْعِقَابِ وَبِمَا تُقَابِلُ بِهِ هَذِهِ الْجَرَائِرَ، وَبِمَا يَكُونُ كُفًّا لِلذُّنُوبِ، وَلَقَدْ عَصَيْتَ اللَّهَ بِهَذَا الرَّأْيِ وَذَلَّلْتَ عَلَى قَسْوَةِ الْقَلْبِ وَقِلَّةِ الرَّحْمَةِ وَيُسِّسِ الطَّيْنَةِ وَرِقَّةِ الدِّيَانَةِ، أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ الرَّعِيَّةَ وَدِيْعَةَ اللَّهِ عِنْدَ سُلْطَانِهَا؟ وَأَنَّ اللَّهَ يُسْأَلُ عَنْهَا كَيْفَ سُسَّتْهَا؟ وَلَعَلَّهُ لَا يَسْأَلُهَا، وَإِنْ سَأَلَهَا فَلْيُؤَكِّدِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِ مِنْهَا؛ أَلَا تَدْرِي أَنَّ أَحَدًا مِنَ الرَّعِيَّةِ لَا يَقُولُ مَا يَقُولُ إِلَّا لظَلَمَ لِحَقِّهِ أَوْ لِحَقِّ جَارِهِ، وَدَاهِيَةِ نَالَتِهِ أَوْ نَالَتْ صَاحِبًا لَهُ؟ وَكَيْفَ نَقُولُ لَهُمْ: كُونُوا صَالِحِينَ أَنْفِيَاءَ مُقْبِلِينَ عَلَى مَعَاشِكُمْ، غَيْرَ خَائِضِينَ فِي حَدِيثِنَا، وَلَا سَائِلِينَ عَنْ أَمْرِنَا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ فِي كَلَامِهَا: غَلَبْنَا السُّلْطَانَ فَلَيْسَ فَرْوَتْنَا، وَأَكَلْ خُضْرَتْنَا. وَحَقَّقَ الْمَمْلُوكُ عَلَى الْمَالِكِ مَعْرُوفَ، وَإِنَّمَا يُخْتَمَلُ السَّيِّدُ عَلَى صُرُوفِ تَكَالُفِهِ، وَمَكَارِهِ تَصَارِيفِهِ، إِذَا كَانَ الْعَيْشُ فِي كَنَفِهِ رَافِعًا، وَالْأَمَلُ فِيهِ قَوِيًّا، وَالصَّدْرُ عَلَيْهِ بَارِدًا، وَالْقَلْبُ مَعَهُ سَاكِنًا، أَنْظُرْ أَنْ الْعَمَلَ بِالْجَهْلِ يَنْفَعُ، وَالْعُدْرَ بِهِ يَسَعُ، لَا وَاللَّهِ مَا الرَّأْيُ مَا رَأَيْتَ، وَلَا الصَّوَابُ مَا ذَكَرْتَ، وَجَهْ صَاحِبِكَ وَلِيَكُنْ ذَا خَبْرَةٍ وَرَفِقٍ، وَمَعْرُوفًا بِخَيْرٍ وَصِدْقٍ، حَتَّى يَعْرِفَ حَالَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ، وَيَقِفَ عَلَى شَأْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي مَعَاشِهِ، وَقَدَّرِ مَا هُوَ مُتَقَلِّبٌ فِيهِ وَمُنْقَلِبٌ إِلَيْهِ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ فَعَلَّقْهُ بِهِ، وَمَنْ كَانَ سَيِّئَ الْحَالِ فَصَلِّهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ بِمَا يُعِيدُ نَضْرَةَ حَالِهِ، وَيُفِيدُهُ طُمَأْنِينَةً بِأَلِهِ؛ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذَا الرَّهْطِ، وَهُوَ غَنِيٌّ مَكْفِيٌّ، وَإِنَّمَا يُخْرِجُهُ إِلَى دَكَانِ هَذَا التَّبَانِ الْبَطْرِ وَالزَّهْوِ، فَادْعُ بِهِ، وَانصَحْهُ، وَلَا طِفْهُ، وَقُلْ لَهُ: إِنَّ لَفْظَكَ مَسْمُوعٌ، وَكَلَامُكَ مَرْفُوعٌ؛ وَمَتَى وَقَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى كُنْهِ ذَلِكَ مِنْكَ لَمْ تَجِدْكَ إِلَّا فِي عَرْصَةِ الْمَقَابِرِ، فَاسْتَأْنِفْ لِنَفْسِكَ سِيرَةً تَسْلُمُ بِهَا مِنْ سُلْطَانِكَ، وَتُحَمَّدَ عَلَيْهَا عِنْدَ إِخْوَانِكَ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْعَلَ نَفْسَكَ عِظَةً لِعَيْرِكَ بَعْدَ مَا كَانَ عَيْرُكَ عِظَةً لَكَ؛ وَلَوْلَا أَنَّ الْأَخْذَ بِالْجَرِيرَةِ الْأُولَى مَخَالِفُ السَّيْرَةِ الْمَثَلَى، لَكَانَ هَذَا الَّذِي تَسْمَعُهُ مَا تَرَاهُ، وَمَا تَرَاهُ تَوَدُّ أَنَّكَ لَوْ سَمِعْتَهُ قَبْلَ أَنْ تَرَاهُ. فَإِنَّكَ يَا عَبِيدَ اللَّهِ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ بَالَغْتَ فِي الْعُقُوبَةِ، وَمَلَكَتْ طَرْفِي الْمَصْلَحَةَ، وَقُمْتَ عَلَى سَوَاءِ السِّيَاسَةِ، وَنَجَوْتَ مِنَ الْحَوْبِ وَالْمَأْثَمِ فِي الْعَاقِبَةِ.

قال: وفارق الوزير حَضْرَةَ الخليفة، وعملَ بما أَمَرَ به على الْوَجْهِ اللَّطِيفِ، فعادت الحال تَرْفَ بالسَّلامَةِ الْعَامَّةِ، والعَافِيَةِ النَّامَةِ؛ فَتَقَدَّمَ إِلَى الشَّيْخِ الثَّبَّانِ بَرَفَعِ حَالٍ مِنْ يَقْعُدُ عِنْدَهُ حَتَّى يُوَاسِيَ إِنْ كَانَ مُحْتَاجًا، وَيُصَرِّفَ إِنْ كَانَ مُتَعَطِّلًا، وَيُنْصَحَ إِنْ كَانَ مُتَعَقِّلًا.

فقال الوزير: ما سَمِعْتُ مِثْلَ هَذَا قَطَّ، وما ظَنَنْتُ أَنْ الْخَطْبَ فِي مِثْلِ هَذَا يَبْلُغُ هَذَا الْقَدْرَ؛ فَهَاتِ الْجَوَابَ الْآخَرَ الَّذِي حَفِظْتَهُ عَنِ الصُّوفِيِّ.

فقلتُ: إِنْ كَانَ هَذَا كَافِيًا فَإِنَّ ذَلِكَ فَضَّلَ.

فقال: هكذا هو، وَإِنَّ فِيمَا مَرَّ لِكِفَايَةٍ، وما يَزِيدُ عَلَى الْكِفَايَةِ، وَلَكِنْ الزِّيَادَةُ مِنَ الْعِلْمِ دَاعِيَةٌ إِلَى الزِّيَادَةِ مِنَ الْعَمَلِ، وَالزِّيَادَةُ مِنَ الْعَمَلِ جَالِبَةٌ الْإِنْتِفَاعَ بِالْعِلْمِ، وَالْإِنْتِفَاعَ بِالْعِلْمِ دَلِيلٌ عَلَى سَعَادَةِ الْإِنْسَانِ، وَسَعَادَةُ الْإِنْسَانِ مَقْسُومَةٌ عَلَى اقْتِبَاسِ الْعِلْمِ وَالتَّمَسُّكِ بِالْعَمَلِ، حَتَّى يَكُونَ بِأَحَدِهِمَا زَارِعًا، وَبِالْآخَرِ حَاصِدًا، وَبِأَحَدِهِمَا تَاجِرًا، وَبِالْآخَرِ رَابِحًا.

فَوَصَلْتُ الْحَدِيثَ وَقُلْتُ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ قَالَ: كُنْتُ بَنِيْسَابُورَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ، وَقَدْ اشْتَغَلْتُ خُرَاسَانَ بِالْفِتْنَةِ، وَتَبَلَّلْتُ دَوْلَةَ آلِ سَامَانَ بِالْجُورِ وَطُولِ الْمُدَّةِ، فَلَجَأَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبَ الْجَيْشِ إِلَى قَايِينَ، وَهِيَ حِصْنُهُ وَمَعْقَلُهُ، وَوَرَدَ أَبُو الْعَبَّاسِ صَاحِبُ جَيْشِ آلِ سَامَانَ نَيْسَابُورَ بَعْدَ عَظِيمَةٍ، وَعُدَّةٍ عَمِيمَةٍ، وَزِيْنَةٍ فَاجِرَةٍ، وَهَيْئَةٍ بَاهِرَةٍ، وَعَلَا السَّعْرُ وَأُخِيفَتِ السُّبُلُ، وَكَثُرَ الْإِرْجَافُ، وَسَاءَتِ الظُّنُونُ، وَضَجَّتِ الْعَامَّةُ، وَالتَّقَسَّ الرَّأْيُ، وَانْقَطَعَ الْأَمَلُ، وَتَبَحَّ كَلْبٌ كَلْبَ مِنْ كُلِّ زَاوِيَةٍ، وَزَارَ كُلُّ أَسَدٍ مِنْ كُلِّ أَجْمَةٍ، وَضَبَحَ كُلُّ ثَغْلَبٍ مِنْ كُلِّ تَلْعَةٍ.

قال: وَكُنَّا جَمَاعَةً غُرَبَاءَ نَأْوِي إِلَى دُوَيْرَةِ الصُّوفِيَّةِ لَا تَبَرُّحُهَا، فَتَارَةٌ نَقْرَأُ، وَتَارَةٌ نُصَلِّي، وَتَارَةٌ نَنَامُ، وَتَارَةٌ نَهْذِي، وَالْجُوعُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، وَنُخَوِّضُ فِي حَدِيثِ آلِ سَامَانَ، وَالْوَارِدِ مِنْ جِهَتِهِمْ إِلَى هَذَا الْمَكَانِ، وَلَا قُدْرَةَ لَنَا عَلَى السِّيَاحَةِ لِانْسِدَادِ الطَّرِيقِ، وَتَخَطُّفِ النَّاسِ لِلنَّاسِ، وَشُمُولِ الْخَوْفِ، وَغَلَبَةِ الرُّعْبِ، وَكَانَ الْبَلَدُ يَتَقَدُّ نَارًا بِالسُّؤَالِ وَالتَّعَرُّفِ وَالْإِرْجَافِ بِالصُّدُقِ وَالْكَذِبِ، وَمَا يُقَالُ بِالْهَوَى وَالْعَصْبِيَّةِ؛ فَضَاقَتْ صُدُورُنَا، وَخَبِثَتْ سَرَائِرُنَا وَاسْتَوَلَى عَلَيْنَا الْوَسْوَاسُ، وَقَلْنَا لَيْلَةً: مَا تَرَوْنَ يَا صَحَابَتَنَا مَا دَفَعْنَا إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْكَرِيهَةِ، كَأَنَّا وَاللَّهِ أَصْحَابُ نَعَمٍ وَأَرْبَابُ ضِيَاعٍ نَخَافُ عَلَيْهَا الْغَارَةَ وَالتَّهْبَ، وَمَا عَلَيْنَا مِنْ وَايَةٍ زَيْدٍ، وَعَزَلٍ عَمْرٍو، وَهَلَائِكَ بَكْرٍ، وَنَجَاةٍ بَشَرٍ، نَحْنُ قَوْمٌ قَدْ رَضِينَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الْعَسِيرَةِ، وَلِهَذِهِ الْحَيَاةِ الْقَصِيرَةِ، بِكَسْرَةٍ يَابِسَةٍ، وَخُرْقَةٍ بَالِيَةٍ، وَزَاوِيَةٍ مِنَ الْمَسْجِدِ مَعَ الْعَافِيَةِ مِنْ بَلَايَا طُلَّابِ الدُّنْيَا. فَمَا هَذَا الَّذِي يَغْتَرِبُنَا مِنْ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي لَيْسَ لَنَا فِيهَا نَاقَةٌ وَلَا جَمَلٌ، وَلَا حَظٌّ وَلَا أَمَلٌ، قُومُوا بِنَا غَدًا حَتَّى نَزُورَ أَبَا زَكَرِيَّا الزَّاهِدَ، وَنَظْلُ نَهَارَنَا عِنْدَهُ لَاهِينَ عَمَّا نَحْنُ فِيهِ، سَاكِنِينَ مَعَهُ، مُقْتَدِينَ بِهِ.

فَاتَّفَقَ رَأْيُنَا عَلَى ذَلِكَ، فَغَدَوْنَا وَصِرْنَا إِلَى أَبِي زَكَرِيَاءَ الزَّاهِدِ، فَلَمَّا دَخَلْنَا رَحَّبَ بِنَا، وَفَرِحَ بِزِيَارَتِنَا، وَقَالَ: مَا أَشَوْقَنِي إِلَيْكُمْ، وَمَا أَلْهَفَنِي عَلَيْكُمْ! الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَمَعَنِي وَإِيَّاكُمْ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ، حَدَّثُونِي مَا الَّذِي سَمِعْتُمْ، وَمَاذَا بَلَغَكُمْ مِنْ حَدِيثِ النَّاسِ، وَأَمْرٍ هَؤُلَاءِ السَّلَاطِينِ؟ فَرُجُّوا عَنِّي؛ وَقُولُوا لِي مَا عِنْدَكُمْ، فَلَا تَكْتُمُونِي شَيْئًا فَمَالِي وَاللَّهِ مَزْعَمِي فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ إِلَّا مَا اتَّصَلَ بِحَدِيثِهِمْ، وَاقْتَرَنَ بِخَبَرِهِمْ! فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الزَّاهِدِ الْعَابِدِ مَا وَرَدَ، دُهِشْنَا وَاسْتَوْحَشْنَا، وَقَلْنَا فِي أَنْفُسِنَا: انْظُرُوا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ هَرَبْنَا، وَبِأَيِّ شَيْءٍ عَلِقْنَا، وَبِأَيِّ دَاهِيَةٍ دُهِينَا.

قَالَ: فَخَفَّفْنَا الْحَدِيثَ وَانْسَلَلْنَا، فَلَمَّا خَرَجْنَا قَلْنَا: أَرَأَيْتُمْ مَا بُلَيْنَا بِهِ، وَمَا وَقَعْنَا عَلَيْهِ، ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوُ الْبَلَوِّ الْأَمِينُ﴾ [الصفات: ١٠٦]. مِيلُوا بِنَا إِلَى أَبِي عَمْرٍو الزَّاهِدِ فَلَهُ فَضْلٌ وَعِبَادَةٌ وَعِلْمٌ وَتَفَرُّدٌ فِي صَوْمَعَتِهِ حَتَّى تُقِيمَ عِنْدَهُ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ، فَقَدْ نَبَا بِنَا الْمَكَانَ الْأَوَّلَ، وَبَطَلَ قَصْدُنَا فِيمَا عَزَمْنَا عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ. فَمَشِينَا إِلَى أَبِي عَمْرٍو الزَّاهِدِ وَاسْتَأْذَنَّا، فَأَذِنَ لَنَا، وَوَصَلْنَا إِلَيْهِ فَسَرَّ بِحُضُورِنَا، وَهَشَّ لِرُؤُوسِنَا، وَابْتَهَجَ بِقَصْدِنَا، وَأَعْظَمَ زِيَارَتِنَا، ثُمَّ قَالَ: يَا أَصْحَابَنَا مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حَدِيثِ النَّاسِ؟ فَقَدْ وَاللَّهِ طَالَ عَطَشِي إِلَى شَيْءٍ أَسْمَعُهُ، وَلَمْ يَدْخُلْ عَلَيَّ الْيَوْمَ أَحَدٌ فَاسْتَحْبِرْهُ، وَإِنَّ أُذُنِي لَدَى الْبَابِ لَا أَسْمَعُ قَرَعَةً أَوْ أَعْرَفُ حَادِثَةً، فَهَاتُوا مَا مَعَكُمْ وَمَا عِنْدَكُمْ، وَقُصُّوا عَلَيَّ الْقِصَّةَ بِقَصِّهَا وَنَصِّهَا، وَدَعُوا التَّوَرِيَّةَ وَالْكِنَايَةَ، وَادْكُرُوا الْعَثَّ وَالْثَمِينَ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ هَكَذَا يَطِيبُ، وَلَوْلَا الْعَظْمُ مَا طَابَ اللَّحْمُ، وَلَوْلَا التَّوَى مَا حَلَا التَّمْرُ، وَلَوْلَا الْقِشْرُ لَمْ يَوْجِدِ اللَّبُّ.

فَعَجِبْنَا مِنْ هَذَا الزَّاهِدِ الشَّانِي أَكْثَرَ مِنْ عَجَبِنَا مِنَ الزَّاهِدِ الْأَوَّلِ، وَخَاطَفَنَاهُ الْحَدِيثَ، وَوَدَّعْنَاهُ، وَخَرَجْنَا، وَأَقْبَلَ بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ يَقُولُ: أَرَأَيْتُمْ أَظْرَفَ مِنْ أَمْرِنَا وَأَغْرَبَ مِنْ شَأْنِنَا؟ انْظُرُوا مِنْ أَيِّ شَيْءٍ كَانَ تَغْرِيجُنَا ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾ [ص: ٥] وَتَلَدَدُنَا وَتَبَلَدُنَا وَقَلْنَا: يَا أَصْحَابَنَا: انْطَلِقُوا إِلَى أَبِي الْحَسَنِ الضَّرِيرِ، وَإِنْ كَانَ مَضْرِبُهُ بَعِيدًا فَإِنَّا لَا نَجِدُ سَكُونًا إِلَّا مَعَهُ، وَلَا نَظْفَرَ بِضَالَّتِنَا إِلَّا عِنْدَهُ، لِرُفْهِدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَوَحُّدِهِ وَشُغْلِهِ بِنَفْسِهِ مَعَ زَمَانَتِهِ فِي بَصَرِهِ، وَوَرَعِهِ، وَقَلَّةِ فِكْرِهِ فِي الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا. وَطَوِينَا الْأَرْضَ إِلَيْهِ، وَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَجَلَسْنَا حَوَالَيْهِ فِي مَسْجِدِهِ، وَلَمَّا سَمِعَ بِنَا أَقْبَلَ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مَتَا يَلْمُسُهُ بِيَدِهِ وَيُرَحِّبَ بِهِ، وَيَدْعُو لَهُ وَيَقْرُبُ، فَلَمَّا انْتَهَى أَقْبَلَ عَلَيْنَا وَقَالَ: أَمِنْ السَّمَاءِ نَزَلْتُمْ عَلَيَّ؟ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي قَدْ وَجَدْتُ بِكُمْ مَأْمُولِي، وَأُخْرَزْتُ غَايَةَ سُؤْلِي، قُولُوا لِي غَيْرَ مُخْتَشِمِينَ: مَا عِنْدَكُمْ مِنْ أَحَادِيثِ النَّاسِ؟ وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ هَذَا الْوَارِدُ؟ وَمَا يَقَالُ فِي أَمْرِ ذَلِكَ الْهَارِبِ إِلَى قَايِينَ، وَمَا الشَّائِعُ مِنَ الْأَخْبَارِ؟ وَمَا الَّذِي يَتَهَامَسُ بِهِ نَاسٌ دُونَ نَاسٍ؟ وَمَا يَقَعُ فِي هَوَاجِسِكُمْ وَيَسْتَبِقُ إِلَى نَفُوسِكُمْ؟ فَإِنَّكُمْ بُرْدُ الْأَفَاقِ، وَجَوَالَةُ الْأَرْضِ، وَلَقَاطَةُ الْكَلَامِ، وَيَتَسَاقَطُ إِلَيْكُمْ مِنَ الْأَقْطَارِ مَا يَتَعَدَّرُ عَلَى عِظَمَاءِ الْمُلُوكِ وَكُبَرَاءِ النَّاسِ.

فَوَرَدَ عَلَيْنَا مِنْ هَذَا الْإِنْسَانِ مَا أَنْسَى الْأَوَّلَ وَالثَّانِي، وَمِمَّا زَادَ فِي عَجَبِنَا أَنَّا كُنَّا نَعُدُّهُ فِي طَبَقَةٍ فَوْقَ طَبَقَاتِ جَمِيعِ النَّاسِ فَخَفَّفْنَا الْحَدِيثَ مَعَهُ، وَوَدَّعْنَاهُ، وَخَسَّنَا مِنْ عِنْدِهِ، وَطَفِقْنَا نَتَلَاوُمُ عَلَى زِيَارَتِنَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمِ لَمَّا رَأَيْنَا مِنْهُمْ، وَظَهَرَ لَنَا مِنْ حَالِهِمْ، وَازْدَرَيْنَاهُمْ.

وَانْقَلَبْنَا مُتَوَجِّهِينَ إِلَى دُوَيْرَتِنَا الَّتِي غَدَوْنَا مِنْهَا مُسْتَطَرِّقِينَ كَالْأَيْنِ، فَلَقِينَا فِي الطَّرِيقِ شَيْخًا مِنَ الْحُكَمَاءِ يُقَالُ لَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْعَامِرِيُّ، وَلَهُ كِتَابٌ فِي التَّصَوُّفِ قَدْ شَحَنَهُ بَعْلَمُنَا وَإِشَارَتُنَا، وَكَانَ مِنَ الْجَوَالِينِ الَّذِينَ نَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ وَاطَّلَعُوا عَلَى أَسْرَارِ اللَّهِ فِي الْعِبَادَةِ؛ فَقَالَ لَنَا: مِنْ أَيْنَ دَرَجْتُمْ؟ وَمَنْ قَصَدْتُمْ. فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مَسْجِدٍ، وَعَصَبْنَا حَوْلَهُ، وَقَصَصْنَا عَلَيْهِ قِصَّتَنَا مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا، وَلَمْ نَخْذِفْ مِنْهَا حَرْفًا. فَقَالَ لَنَا: فِي طَيِّ هَذِهِ الْحَالِ الطَّارِئَةِ غَيْبٌ لَا تَقْفُونَ عَلَيْهِ، وَسِرٌّ لَا تَهْتَدُونَ إِلَيْهِ، وَإِنَّمَا غَرَّكُمْ ظَنُّكُمْ بِالزُّهَادِ، وَقَلْتُمْ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الْخَبَرُ عَنْهُمْ كَالْخَبَرِ عَنِ الْعَامَّةِ، لِأَنَّهُمْ الْخَاصَّةُ، وَمِنَ الْخَاصَّةِ خَاصَّةُ الْخَاصَّةِ، لِأَنَّهُمْ بِاللَّهِ يَلُودُونَ، وَإِيَّاهُ يَعْبُدُونَ، وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُونَ، وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ، وَمَنْ أَجَلُهُ يَتَهَالَكُونَ، وَبِهِ يَتِمَّ الْكُونَ.

قُلْنَا لَهُ: فَإِنْ رَأَيْتَ يَا مُعَلِّمُ الْخَيْرِ أَنْ تَكْشِفَ عَنَّا هَذَا الْغِطَاءَ، وَتَرْفَعَ هَذَا السُّتْرَ، وَتَعْرِفُنَا مِنْهُ مَا وَهَبَ اللَّهُ لَكَ مِنْ هَذَا الْغَيْبِ، لَنَكُونَ شَاكِرِينَ، وَتَكُونَ مِنَ الْمَشْكُورِينَ.

فَقَالَ: نَعَمْ، أَمَّا الْعَامَّةُ فَإِنَّهَا تَلْهَجُ بِحَدِيثِ كُبَرَائِهَا وَسَاسَتِهَا لَمَّا تَرْجُو مِنْ رَحَاءِ الْعَيْشِ وَطَيْبِ الْحَيَاةِ وَسَعَةِ الْمَالِ وَدُورِ الْمَنَافِعِ وَاتِّصَالِ الْجَلْبِ وَتَفَاقِ السُّوقِ وَتَضَاعُفِ الرُّنْحِ؛ فَأَمَّا هَذِهِ الطَّائِفَةُ الْعَارِفَةُ بِاللَّهِ، الْعَامِلَةُ لِلَّهِ، فَإِنَّهَا مُوَلَّعَةٌ أَيْضًا بِحَدِيثِ الْأُمَرَاءِ، وَالْجَبَّارَةِ الْعِظَمَاءِ، لِيَتَّقِيَ عَلَى تَصَارِيفِ قُدْرَةِ اللَّهِ فِيهِمْ، وَجَرِيَانِ أَحْكَامِهِ عَلَيْهِمْ، وَنُفُوذِ مَشِيتَتِهِ فِي مَحَابَّتِهِمْ وَمَكَارِهِهِمْ فِي حَالِ النُّعْمَةِ عَلَيْهِمْ، وَالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ، أَلَا تَرَوْنَهُ قَالَ جَلَّ ثَنَاهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُرحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْتَهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، وَبِهَذَا الْاعتِبَارِ يَسْتَنْبِطُونَ خَوَافِي حِكْمَتِهِ، وَيَطْلَعُونَ عَلَى تَتَابُعِ نِعْمَتِهِ وَغَرَائِبِ نِقْمَتِهِ، وَهَاهُنَا يَعْلَمُونَ أَنَّ كُلَّ مُلْكٍ سِوَى مُلْكِ اللَّهِ زَائِلٌ، وَكُلُّ نَعِيمٍ غَيْرِ نَعِيمِ الْجَنَّةِ حَائِلٌ، وَيَصِيرُ هَذَا كُلُّهُ سَبَبًا قَوِيًّا لَهُمْ فِي الضَّرْعِ إِلَى اللَّهِ، وَاللِّيَازِ بِاللَّهِ، وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَيَتَّبِعُونَ بِهِ مِنْ حِرَانِ الْإِبَاءِ، إِلَى انْقِيَادِ الْإِجَابَةِ، وَيَتَنَبَّهُونَ مِنْ رَقْدَةِ الْعَفْلَةِ، وَيَكْتَحِلُونَ بِالْيَقِظَةِ مِنْ سِنَةِ السَّهْوِ وَالْبَطَالَةِ، وَيَجِدُّونَ فِي أَخْذِ الْعِتَادِ، وَاتِّسَابِ الزَّادِ إِلَى الْمَعَادِ، وَيَعْمَلُونَ فِي الْخِلَاصِ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ الْحَرِجِ بِالْمَكَارِهِ، الْمَحْفُوفِ بِالرَّزَايَا، الَّذِي لَمْ يُفْلِحْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا بَعْدَ أَنْ هَدَمَهُ وَثَلَمَهُ، وَهَرَبَ مِنْهُ، وَرَحَلَ عَنْهُ إِلَى مَحَلٍّ لَا دَاءَ فِيهِ وَلَا غَائِلَةٌ؛ سَاكِنُهُ خَالِدٌ، وَمَقِيمُهُ مُطْمَئِنٌّ، وَالْفَائِزُ بِهِ مَنْعَمٌ، وَالْوَاصِلُ إِلَيْهِ مَكْرَمٌ، وَبَيْنَ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي هَذِهِ الْحَالِ وَفِي غَيْرِهَا فَرْقٌ يَضِيحُ لِمَنْ رَفَعَ اللَّهُ طَرْفَهُ إِلَيْهِ، وَفَتَحَ بَابَ السَّرِّ فِيهِ عَلَيْهِ، قَدْ يَتَشَابَهَ الرَّجُلَانِ فِي فِعْلٍ،

وأحدهما مذموم، والآخر محمود، وقد رأينا مُصَلِّياً إلى القِبْلَةِ وقلْبُهُ مُعَلَّقٌ بإخلاص العِبَادَةِ، وآخر إلى جانبِهِ أيضاً يَصَلِّي إلى القِبْلَةِ وقلْبُهُ في طَرَفٍ ما في كُفِّ الآخَرِ، فلا تَنْظُرُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى ظَاهِرِهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ تَصِلُوا بِنَظَرِكُمْ إِلَى بَاطِنِهِ، فَإِنَّ الْبَاطِنَ إِذَا وَاطَأَ الظَّاهِرَ كَانَ تَوَحُّداً، وَإِذَا خَالَفَهُ إِلَى الْحَقِّ كَانَ وَحْدَةً، وَإِذَا خَالَفَهُ إِلَى الْبَاطِلِ كَانَ ضَلَالَةً، وهذه المقامات مُرْتَبَةٌ لِأَصْحَابِهَا، وَمَوْقُوفَةٌ عَلَى أَرْبَابِهَا؛ لَيْسَ لغيرِ أَهْلِهَا فِيهَا نَفْسٌ، وَلَا لغيرِ مُسْتَحِقِّهَا مِنْهَا قَبَسٌ.

قال الشيخ الصوفي: فوالله ما زال ذلك الحكيم يَحْشُو آذَانَنَا بهذه وما أَشَبَّهَا، وَيَمْلَأُ صُدُورَنَا بما عنده حتى سُرِرْنَا وانصرفنا إلى مُتَعَشِّنَا وقد استفدنا على يَأْسٍ مَنَّا فائدةً عظيمة لو تَمَنَّيْنَاهَا بِالْعَزْمِ الثَّقِيلِ وَالسَّعْيِ الطَوِيلِ لَكَانَ الرِّبْحُ مَعَنَا، وَالزِّيَادَةُ فِي أَيْدِينَا.

فلما سمع الوزيرُ هذا عَجِبَ وقال: لا أدري: أَكَلَامُ أَبِي سُلَيْمَانَ فِي ذَلِكَ الْاِحْتِجَاجِ أَبْلَغُ، أَمْ الْحِكَايَةُ عَنْ الْمُعْتَضِدِ أَشْفَى، أَمْ رَوَايَةُ الشَّيْخِ الصُّوفِيِّ أَطْرَفُ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّ فِي الْبَحْثِ عَنْ سِرِّ الْإِرْجَافِ هَذِهِ اللَّطِيفَةُ الْخَفِيَّةُ، وَهَذِهِ الْحِجَّةُ الْجَلِيَّةُ، وَكُنْتُ أَرَى أَنَّ الصُّوفِيَّةَ لَا يَرْجِعُونَ إِلَى رُكْنٍ مِنَ الْعِلْمِ، وَنَصِيبٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، وَأَنَّهُمْ إِنَّمَا يَهْدُونَ بِمَا لَا يَعْلَمُونَ، وَأَنْ بِنَاءَ أَمْرِهِمْ عَلَى اللَّعِبِ وَاللَّهْوِ وَالْمَجُونِ.

فقلت: لو جُمِعَ كَلَامُ أَئِمَّتِهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ لَزَادَ عَلَى عَشْرَةِ آلَافٍ وَرَقَّةٍ عَمَّنْ نَقَفَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْبِقَاعِ الْمُتَقَارِبَةِ، سِوَى مَا عِنْدَ قَوْمٍ آخَرِينَ لَا نَسْمَعُ بِهِمْ، وَلَا يَبْلُغُنَا خَبَرُهُمْ.

قال: فَاذْكُرْ لِي جَمَاعَةً مِنْهُمْ.

قلت: الْجَنِّيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الصُّوفِيُّ الْبَغْدَادِيُّ الْعَالِمُ، وَالْحَارِثُ بْنُ أَسَدِ الْمُحَاسِبِيِّ، وَرُوَيْمٍ، وَأَبُو سَعِيدِ الْخَرَّازِ، وَعَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ الْمَكِّيَّ، وَأَبُو يَزِيدَ الْبِسْطَامِيِّ، وَالْفَتْحُ الْمَوْصِلِيُّ، وَهُوَ الَّذِي سَمِعَ وَهُوَ يَقُولُ: إِلَى مَتَى تُرَدُّدُنِي فِي سِكَكِ الْمَوْصِلِ، أَمَا أَنَّ لِلْحَبِيبِ أَنْ يَلْقَى حَبِيبَهُ؟ فَمَاتَ بَعْدَ جُمُعَةٍ.

فقال: هَذَا عَجَبٌ. وَلَقَدْ مَرَّ فِي هَذَا الْفَنِّ مَا كَانَ فَوْقَ حُسْبَانِي وَأَكْثَرُ مِمَّا كَانَ فِي ظَنِّي، وَكَمْ مِنْ شَيْءٍ حَقِيرٍ يُطْلَعُ مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ كَبِيرٍ.

وقال: أَنَشِدْنِي شَيْئاً؛ فَأَنْشِدْنِي قَوْلَ الشَّاعِرِ:

وَكَانَ تَحَلُّمِي عَنْهُ لِحَامًا	رَجَعْتُ عَلَى السَّفِيهِ بِفَضْلِ حِلْمِي
أَسَافُهُ وَقُلْتُ لَهُ: سَلَامًا	وَوَظَنْ بَيَّ السَّفَاةَ فَلَمْ يَجِدْنِي
وَقَدْ كَسَبَ الْمَذَلَّةَ وَالْمَلَامًا	فَقَامَ يَجُرُّ رِجْلَيْهِ ذَلِيلًا
وَأُخْرَى أَنْ يَنَالَ بِهِ انتِقَامًا	وَفَضْلُ الْحِلْمِ أَبْلَغُ فِي سَفِيهِ

فقال: مَا أَعْجَبَ أَمْرَ الْعَرَبِ، تَأْمُرُ بِالْحِلْمِ مَرَّةً، وَالصَّبْرَ وَالْكُظْمَ مَرَّةً، وَتُحَثُّ

بعد ذلك على الانتصاف وأخذ الثأر، وتَذُمُّ السَّفَهَ وقَمَعَ العَدُوَّ! وهكذا شأنها في جميع الأخلاق؛ أعني أنها رُبَّمَا حَضَّتْ عَلَى الْقَنَاعَةِ والصَّبْرِ والرِّضَا بالمَيْسُور، ورُبَّمَا خَالَفَتْ هذا، فأَخَذَتْ تَذَكُّرُ أَنَّ ذَلِكَ فَسَالَةٌ ونُقْصَانُ هِمَّةٍ وَلِينُ عَرِيكَةٍ وَمَهَانَةُ نَفْسٍ؛ وكذلك أيضاً تحثُّ عَلَى الْبَسَالَةِ والإِقْدَامِ والانتصارِ والحِمِيَّةِ والجَسَارَةِ؛ ورُبَّمَا عَدَلَتْ إِلَى أَضْدَادِ هذه الأخلاقِ والسَّجَايَا والضَّرَائِبِ والأحوال؛ فِي أَوْقَاتٍ يَحْسُنُ فِيهَا بَعْضُهَا، وَيَقْبُحُ بَعْضُهَا، وَيُعَذِّرُ صَاحِبُهَا فِي بَعْضِهَا، وَيُلَامُ فِي بَعْضِهَا؛ وذلك لَأَنَّ الطَّبَائِعَ مُخْتَلِفَةٌ، والعَرَائِزُ متعادية، فهذا يَمْدَحُ البُخْلَ فِي غُرُضِ الْحَزْمِ، وهذا يَحْمَدُ الاقْتِصَادَ فِي جُمْلَةِ الاحْتِيَاظِ، وهذا يَذُمُّ الشَّجَاعَةَ فِي غُرُضِ طَلَبِ السَّلَامَةِ؛ وليس في جميع الأخلاق شيءٌ يَحْسُنُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ، بَلْ لِكُلِّ ذَلِكَ وَقْتُ وَجَيْنٌ وَأَوَانٌ.

قال: وَلَعَمْرِي إِنَّ الْقِيَامَ بِحَقَائِقِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَحُدُودِهَا صَعْبٌ، لَأَنَّهَا لَا تَوْجَدُ إِلَّا مُتَلَابِسَةً وَمُتَدَاخِلَةً، وَتَخْلِيصُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بِحَدِّهِ وَحَقِيقَتِهِ وَوَزْنِهِ مِمَّا يَقُوتُ دَرْعُ الْإِنْسَانِ الضَّعِيفِ الْمُتَمِّ، الْمُثْبِرِ الطَّيْنَةِ.

قال: وَمِنْهُ أَنَّ الْحَكِيمَ قَالَ لِلْإِسْكَندَرِ: «أَيُّهَا الْمَلِكُ أَرِذْ حَيَاتَكَ لِرَجَالِكَ، وَلَا تُرِذْ رَجَالَكَ لِحَيَاتِكَ»؛ وَلَوْ قَلَبَ عَلَيْهِ قَالِبٌ فَقَالَ: لَا: «وَلَكِنْ أَرِذْ رَجَالَكَ لِحَيَاتِكَ، وَلَا تُرِذْ حَيَاتَكَ لِرَجَالِكَ»، لَكَانَ الْفَضْلُ وَإِقْعَاءُ، وَالِدَّغْوَى قَائِمَةً.

وَكَانَ يُحْكِي عَنْ أَعْرَابِيٍّ حَدِيثٌ مُضْحِكٌ: قِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَتُرِيدُ أَنْ تُصْلَبَ فِي مَصْلَحَةِ الْأُمَّةِ؟ فَقَالَ: لَا، وَلَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ تُصْلَبَ الْأُمَّةُ فِي مَصْلَحَتِي.

قال: وَلَيْسَ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ مُخْتَلِفِينَ فِي ظَاهِرِهِمْ بِالصُّوَرِ وَالْحُلَى حَتَّى يُعْرِفَ بِهَا زَيْدٌ مِنْ عَمْرٍو، وَبَكْرٌ مِنْ خَالِدٍ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي بَاطِنِهِمْ حَتَّى يَكُونَ هَذَا مَطْبُوعاً عَلَى الشَّحِّ وَإِنْ مَدَحَ الْجُودَ، وَهَذَا مَجْبُولاً عَلَى الْجُبْنِ، وَإِنْ تَشَبَّعَ لِلشَّجَاعَةِ؛ وَلَيْسَ يَجُوزُ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ يَكْثُرُوا وَلَا يَخْتَلِفُوا، وَلَيْسَ يَجُوزُ أَيْضاً أَنْ يُضَمَّ الْجِنْسُ وَالتَّنَوُّعُ وَلَا يَأْتَلِفُوا؛ وَكُلُّ مَا أَسَاعَتْهُ الْحِكْمَةُ أَبْرَزَتْهُ الْقُدْرَةُ، وَكُلُّ مَا جَادَتْ بِهِ الْقُدْرَةُ شَهِدَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ؛ فَسَبْحَانَ مَنْ لَهُ هَذَا التَّدْبِيرُ اللَّطِيفُ، وَهَذَا الْعِزُّ الْغَالِبُ، وَهَذَا السِّرُّ الْخَافِي، وَهَذِهِ الْعَلَانِيَةُ الْبَادِيَةُ، وَهَذَا الْفِعْلُ الْمُحْكَمُ، وَهَذَا النَّعْتُ الْمُسْتَعْظَمُ.

وَحَكِيْتُ أَيْضاً فِي شَيْءٍ جَرَى، قَالَ حَكَمَاءُ فَارَسَ: قَدْ جَرَّبْنَا الْمُلُوكَ، فَإِذَا مَلَكْنَا السَّمْحَ الْجَوَادُ جَادَتْ عَلَيْنَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ، وَإِذَا مَلَكْنَا الْبَخِيلَ بَخِلَتْ عَلَيْنَا السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ.

قال أبو سليمان: هذا إِذَا صَحَّ فَهُوَ شَاهِدُ الْفَيْضِ الْإِلَهِيِّ الْمُتَّصِلِ بِالْمَلِكِ السَّمْحِ، وَنُضُوبِهِ عَنِ الْمَلِكِ الْبَخِيلِ لِأَنَّ الْمَلِكَ إِلَهَ بَشَرِي.

وقال مرة: مَا التَّمَنِّي؟ - وَقَدْ كَانَ جَرَى مَا افْتَضَى السُّؤَالَ عَنْهُ -.

فقلت: أَعْظَمُ نَصَبًا لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: إِنَّ التَّمَنِّيَ فَضْلُ حَرَكَةِ النَّفْسِ. فقال: جَوَابُ رَشِيقٍ وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا إِلَى الْبَسْطِ. فقال: هَاتِ مِنْ حَدِيثِ يُونَانَ شَيْئًا آخَرَ.

فقلت: قَالَ أَرِسْطُوطَالِيْس: لَوْ كُنَّا نَطْلُبُ الْعِلْمَ لِنَبْلُغَ غَايَتِهِ كُنَّا قَدْ بَدَأْنَا الْعِلْمَ بِنَقِيضِهِ، وَلَكِنَّا نَطْلُبُهُ لِنَنْقُصَ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْجَهْلِ، وَتَزْدَادَ كُلَّ يَوْمٍ مِنَ الْعِلْمِ.

قال: حَدَّثَنِي بِشَيْءٍ فِيهِ جَوَابٌ حَاضِرٌ، وَلِلْبَدِيَّةِ فِيهِ تَوْقُدٌ ظَاهِرٌ.

فَحَدَّثْتُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى الزُّهْرِيَّ فَسَأَلَهُ أَنْ يَحْدِثَهُ وَيَرْوِيَّ لَهُ؛ فَأَبَى عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَأْخُذْ الْمِيثَاقَ عَلَى الْجُهَالِ أَنْ يَتَعَلَّمُوا حَتَّى أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى الْعُلَمَاءِ أَنْ يُعَلِّمُوا؛ فَقَالَ: صَدَقْتَ، وَحَدَّثَهُ.

وَحَدَّثَنَا الْقَاضِي أَبُو حَامِدٍ الْمَرْوُزِيُّ؛ قَالَ: وَقَفَ سَائِلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَنْكَادِ عَلَيْنَا فِي جَامِعِ الْبَصْرَةِ وَفِي الْمَجْلِسِ ابْنُ عَبْدِ الْمُنْصُورِيِّ، وَابْنُ مَعْرُوفٍ، وَأَبُو تَمَّامِ الزَّيْنَبِيِّ، فَسَأَلَ وَالْحَ؛ فَقُلْتُ لَهُ مِنْ بَيْنِ الْجَمَاعَةِ - وَقَدْ ضَجَرْتُ مِنْ إِحَاحِهِ وَصَفَاقَةِ وَجْهِهِ -: يَا هَذَا: نَزَلَتْ بَوَادٍ غَيْرُ ذِي رَزَعٍ. قَالَ: صَدَقْتَ، وَلَكِنْ يُجِبُنِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ. فَضَجَّكَتِ الْجَمَاعَةُ، وَوَهَبْنَا لَهُ دُرَاهِمَ.

وَمِنَ الْجَوَابِ الْحَاضِرِ الْمُسْكِتِ الَّذِي حَزَّ الْكَبَدَ وَنَقَبَ الْفُؤَادَ مَا جَرَى لِأَبِي الْحُسَيْنِ الْبَتِّيِّ مَعَ الشَّرِيفِ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍ، فَإِنَّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ لِلْبَتِّيِّ: أَنْتَ وَاللَّهِ شَمَامَةٌ وَلَكِنَّهَا مَسْمُومَةٌ. فَقَالَ الْبَتِّيُّ عَلَى النَّفْسِ: لَكِنَّكَ أَيُّهَا الشَّرِيفُ شَمَامَةٌ مَسْمُومَةٌ، عَطَّرْتَ الْأَرْضَ بِهَا، وَسَارَتْ الْبُرْدُ بِذِكْرِهَا.

وَقَالَ نَصْرُ بْنُ سَيَّارٍ بِخُرَاسَانَ لِأَعْرَابِيٍّ: هَلْ أَتَخِمْتَ قَطُّ. قَالَ: أَمَّا مِنْ طَعَامِكَ وَطَعَامِ أَيْبِكَ فَلَا. فَيُقَالُ: إِنَّ نَصْرًا حُمَ مِنْ هَذَا الْجَوَابِ أَيَّامًا؛ وَقَالَ: لَيْتَنِي خَرِسْتُ وَلَمْ أَقْهَ بِسُؤَالِ هَذَا الشَّيْطَانِ.

وَجَرَى حَدِيثُ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ، فَقَالَ الْوَزِيرُ: قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ الْإِنَاثَ بِتَقْدِيمِ ذِكْرِهِنَّ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩] فقلت: فِي هَذَا نَظَرٌ؛ فَقَالَ: مَا هُوَ؟

قلت: قَدَّمَ الْإِنَاثَ - كَمَا قُلْتُ - وَلَكِنْ نَكَّرَ، وَأَخَّرَ الذُّكُورَ وَلَكِنْ عَرَّفَ، وَالتَّعْرِيفُ بِالتَّأْخِيرِ أَشْرَفُ مِنَ التَّكْرَةِ بِالتَّقْدِيمِ. ثُمَّ قَالَ: هَذَا حَسَنٌ. قلت: وَلَمْ يَتْرُكْ هَذَا أَيْضًا حَتَّى قَالَ: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ [الشورى: ٥٠] فَجَمَعَ الْجِنْسَيْنِ بِالتَّنْكِيرِ مَعَ تَقْدِيمِ الذُّكْرَانِ، فَقَالَ: هَذَا مُسْتَوْفَى.

وقال: مَا مَعْنَى كَأْسٍ أَنْفٍ؟

فَكَانَ مِنَ الْجَوَابِ أَنْ يَعْقُوبَ قَالَ: يَقَالُ كَأْسٌ أَنْفٌ، أَيُّ لَمْ يُشْرَبَ مِنْهَا قَبْلَ ذَلِكَ؛ وَكَذَلِكَ يَقَالُ: رَوْضَةٌ أَنْفٌ، إِذَا لَمْ يَكُنْ رَعَاهَا أَحَدٌ.

وقال لقيط :

إِنَّ الشَّوَاءَ وَالنَّشِيلَ وَالرُّغْفَ وَالْقَيْنَةَ الْحَسَنَاءَ وَالْكَأْسَ الْأَثْفَ
لِلطَّاعِنِينَ الْخَيْلَ وَالْخَيْلُ قُطْفَ

قال : ما النَّشِيلُ ؟ فَإِنَّ الشَّوَاءَ وَالرُّغْفَ مَعْرُوفَانِ .

قلت : ما ضَمَّتْهُ الْقِدْرُ مِنَ اللَّحْمِ وَغَيْرِهِ ، لَأَنَّهُ يُنْشَلُ وَيَغْرَفُ ؛ فقال : هذا بَابٌ إِنَّ
الْحَحْنَ عَلَيْهِ جَوْعٌ .

قال : ما تَحْفَظُ فِي حَدِيثِ الْأَكْلِ ؟ قلتُ : الْأَكْلُ وَالذَّمُّ . وَمِنْ مَلِيحِهِ مَا
حَضَرَنِي : قِيلَ لَجَمِيزٍ : ما تَشْتَهِي ؟ قال : بَسِيسٌ مَقْلِيٌّ بَيْنَ غَلْيَانِ قُدُورٍ ، عَلَى رَائِحَةِ
شَوَاءٍ ، بِجَنْبِ خَبِيسٍ .

فضحك - أَضْحَكَ اللَّهُ سِنَّهُ بِالْفَرَحِ وَالسُّرُورِ ، وَانْتِظَامِ الْأَحْوَالِ وَاتِّساقِ الْأُمُورِ - .
وقال : هَاتِ حَدِيثًا تَخْرُجُ بِهِ مِمَّا كُنَّا فِيهِ .

فقلتُ : كَتَبَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ إِلَى رُسْتَمَ صَاحِبِ الْأَعَاجِمِ : إِسْلَامُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا
مِنْ غَنَائِكُمْ ؛ وَقِتَالُكُمْ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَلَاحِكُمْ . فَبِعَثَ إِلَيْهِ رُسْتَمُ : أَنْتُمْ كَالدُّبَابِ إِذْ نَظَرَ إِلَى
الْعَسَلِ فَقَالَ : مَنْ يُوصِلُنِي إِلَيْهِ بِدَرْهَمَيْنِ ، فَإِذَا نَشِبَ فِيهِ قَالَ : مَنْ يُخْرِجُنِي مِنْهُ بِأَرْبَعَةٍ ،
وَأَنْتَ طَامِعٌ ، وَالطَّمْعُ سَيْرٌ دِيكٌ . فَأَجَابَهُ سَعْدُ : أَنْتُمْ قَوْمٌ تُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَتُعَانِدُونَ أَنْفُسَكُمْ ،
لَأَنَّكُمْ قَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ أَنْ يَحُولَ الْمُلْكُ عَنْكُمْ إِلَى غَيْرِكُمْ ، وَقَدْ أَخْبَرَكُمْ بِذَلِكَ
حُكَمَاؤُكُمْ وَعُلَمَاؤُكُمْ ، وَتَقَرَّرَ ذَلِكَ عِنْدَكُمْ ، وَأَنْتُمْ دَائِمًا تُدْفَعُونَ الْقَضَاءَ بِنُحُورِكُمْ ، وَتَتَلَقَّوْنَ
عِقَابَهُ بِصُدُورِكُمْ ، هَذِهِ جُرْأَةٌ مِنْكُمْ وَجَهْلٌ فِيكُمْ ، وَلَوْ نَظَرْتُمْ لِأَبْصَرْتُمْ ، وَلَوْ أَبْصَرْتُمْ
لَسَلِمْتُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ ، وَلَمَّا كَانَ اللَّهُ مَعَكُمْ كَانَتْ عَلَيْنَا رِيحُكُمْ ، وَالْآنَ لَمَّا
صَارَ اللَّهُ مَعَنَا صَارَتْ رِيحُنَا عَلَيْكُمْ ، فَانْجُوا بِأَنْفُسِكُمْ ، وَاغْتَنِمُوا أَرْوَاحَكُمْ ، وَإِلَّا فَاصْبِرُوا
لِحَرِّ السِّلَاحِ وَالْمِ الْجِرَاحِ ، وَخِزْيِ الْاِفْتِضَاحِ ، وَالسَّلَامِ .

كَتَبَ حُذَيْفَةُ إِلَى عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : إِنَّ الْعَرَبَ قَدْ تَغَيَّرَتْ
أَلْوَانُهَا وَلُحُومُهَا . فَكَتَبَ عُمَرُ إِلَى سَعْدٍ : ارْتَدَّ لِلْعَرَبِ مَثَرٌ لَا مَرَّاحًا . فَارْتَادَ لَهُمُ الْكُوفَةُ ،
وَهِيَ بُقْعَةٌ حَضَبَاءُ ، وَزَمَلَةٌ حَمْرَاءُ ، فَقَالَ سَعْدُ : اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاءِ وَمَا أَظْلَلْتُ ، وَالْأَرْضِ
وَمَا أَقْلَلْتُ ، وَالرَّيْحِ وَمَا دَرَّتْ ، بَارِكْ لَنَا فِي هَذِهِ الْكُوفَةِ .

وَسَمِعَ عُمَرُ مُنْشِدًا يُنْشِدُ :

مَا سَأَسْنَا مِثْلَكَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ أَبَرَّ بِالْأَقْصَى وَبِالْأَصْحَابِ

بعد النبي صاحب الكتاب

فَتَحَسَّهُ عُمَرُ وَقَالَ : أَيْنَ أَبُو بَكْرٍ وَبَيْتُكَ .

قال عُمَرُ وَهُوَ بِمَكَّةَ : لَقَدْ كُنْتُ أَرْغَى إِبِلَ الْخَطَّابِ بِهَذَا الْوَادِي فِي مُدْرَعَةٍ

صُوف، وكانَ فظاً يَتَعَبَّنِي إِذَا عَمِلْتُ، وَيَضْرِبُنِي إِذَا قَصَّرْتُ، وَقَدْ أَمْسَيْتُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ أَحَدٌ، ثُمَّ تَمَثَّلَ :

لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ يَبْقَى إِلَهُهُ وَيُودِي الْمَالُ وَالْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَن هُزْمِزِ يَوْمٍ خَزَائِنُهُ وَالْخُلْدُ قَدْ حَاوَلْتُ عَادَ فَمَا خَلَدُوا
وَلَا سَلِيمَانَ إِذْ تَسْرِي الرِّيحُ بِهِ وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ فِيمَا كُلفُوا عُبْدُ
أَيْنَ الْمُلُوكِ الَّتِي كَانَتْ نَوَافِلُهَا مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ
حَوْضُ هُنَالِكَ مَوْزُودٌ بِلا كَذِبٍ لَا بَدَّ مِنْ وَرْدِنَا يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

وقال عمر: خَيْرُ الدَّوَابِّ الْحَدِيدُ الْفَوَادِ، الصَّحِيحُ الْأَوْتَادُ.

وقال عمر: كَانَتِ الْعَرَبُ أَسَدًا فِي جَزِيرَتِهَا يَأْكُلُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَمَّا جَمَعَهُمُ اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ لَمْ يَقُمْ لَهُمْ شَيْءٌ.

رَأَى رُسْتَمُ فِي النَّوْمِ أَنَّ النَّبِيَّ - ﷺ - أَخَذَ سِلَاحَ فَارِسَ وَخَتَمَ عَلَيْهِ وَدَفَعَهُ إِلَى عُمَرَ، فَارْتَاعَ رُسْتَمُ مِنْ ذَلِكَ وَأَيَّقَنَ أَنَّهُ هَالِكٌ.

وقال: أَنَشِدْنِي شَيْئًا، فَأَنَشِدْتُهُ لِبَعْضِ آلِ أَبِي طَالِبٍ:

وَلَسْتُ بِمُذْعِنٍ يَوْمًا مُطِيعًا إِلَى مَنْ لَسْتُ أَمَنُ أَنْ يَجُورَا
وَلَكِنِّي مَتَى مَا أَخَشَ مِنْهُ أَحَالِفُ صَارِمًا عَضْبًا تُورَا
وَأَنْزِلُ كُلَّ رَابِيَةٍ بَرَاحٍ أَكُونُ عَلَى الْأَمِيرِ بِهَا أَمِيرَا
وَأَنَشِدْنِي لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْبِرِ، وَلَقَدْ تُمَثَّلَ بِهِ:

إِنِّي لِمَنْ نَبَعَةٍ صُمِّمَ مَكَايِدُهَا إِذَا تَقَادَحَتِ الْقَضَبَاءُ وَالْعُشُرُ
وَلَا أَلَيْنَ لَغَيْرِ الْحَقِّ أَتْبَعُهُ حَتَّى يَلِينَ لِضِرْسِ الْمَاضِغِ الْحَجَرُ

وَحَدَّثْتُهُ أَنَّ الْمَأْمُونَ قَالَ: قَلِيلُ السَّفَهَةِ يَمْحُو كَثِيرَ الْحِلْمِ، وَأَذْنَى الْإِنْتِصَارِ يُخْرِجُ مِنَ فَضْلِ الْإِغْتِفَارِ، وَعَلَى طَالِبِ الْمَعْرُوفِ الْمَعْذِرَةُ عِنْدَ الْإِمْتِنَاعِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ الْإِصْطِنَاعِ، وَعَلَى الْمَطْلُوبِ إِلَيْهِ تَعْجِيلُ الْمَوْعُودِ، وَالْإِسْعَافُ بِالْمَوْجُودِ.

فَقَالَ: مَنْ أَفْضَلُ هَؤُلَاءِ؟ يَغْنِي بَنِي الْعَبَّاسِ.

فَكَانَ الْجَوَابُ أَنَّ الْمَنْصُورَ أَنْقَذَهُمُ، وَالْمَأْمُونَ أَمَجَّدَهُمُ، وَالْمَعْتَصِمَ أَنْجَدَهُمُ، وَالْمَعْتَصِدَ أَقْصَدَهُمُ. فَقَالَ: كَذَلِكَ هُوَ. وَقَالَ: فَالْبَاقُونَ؟ قُلْتُ لَيْسَ فِيهِمْ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مَنْ يُوحَدُّ بِالذِّكْرِ، لِأَنَّهُ فِي نَقْصِهِ وَزِيَادَتِهِ مُشَاكِلٌ لْغَيْرِهِ. فَقَالَ: لِلَّهِ دَرْكٌ.

الليلة الخامسة والثلاثون

وقال ليلة: ما الفرق بين الإرادة والاختيار؟

فكان من الجواب أن كلُّ مُرادٍ مُختارٍ، وليس كلُّ مختارٍ مُراداً، لأنَّ الإنسانَ يَخْتَارُ شُرْبَ الدواءِ الكَرِيهِ وضَرْبَ الولَدِ التَّجِيبِ وهو لا يريد، وَيَخْتَارُ طَرْحَ مَتَاعِهِ فِي الْبَحْرِ إِذَا أُلْجِئَ وهو لا يريد، وهما وإن كانا انفعالين فأحدهما - وهو الاختيار - لا يَخْذُلُ إِلَّا عَنْ جَوَلَانٍ وَتَنْقِيرٍ وَتَمْيِيزٍ، وَالْآخَرُ - وهو الإرادة - يَفْجَأُ وَيَنْبَغِتُ وَرَبَّمَا حَمَلَ عَلَى طَلَبِ الْمَرَادِ بِالْكُرْهِ الشَّدِيدِ؛ وَفِي غُرُضِ الْاِخْتِيَارِ سَعَةٌ لِلتَّمَكُّنِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي غُرُضِ الْإِرَادَةِ. وَالْعَرَبُ تَسْتَعْمَلُ الْإِرَاغَةَ فِي مَوْضِعِ الْإِرَادَةِ، وَالْأَوَّلُ مِنْ رَاغٍ يَرُوعُ، وَالثَّانِي مِنْ رَادٍ يَرُودُ، وَالْهَمْزَةُ مُجْتَلِبَةٌ لِلتَّعَدِّي.

قال: فما الفرق بين المحبة والشهوة؟

فكان الجواب أن الشهوة أَلْصَقُ بِالطَّبِيعَةِ، وَالْمَحَبَّةُ أَصْدَرُ عَنِ النَّفْسِ الْفَاضِلَةِ، وَهُمَا انفعالان، إِلَّا أَنَّ أَحَدَ الْانْفِعَالَيْنِ أَشَدُّ تَأَثُّراً، وَهُوَ انفعالُ الشَّهْوَةِ، وَأَنَّهُ يَقَالُ: شَهِيَّ وَأَشْهَى، وَيَقَالُ فِي الْآخَرِ: حَبٌّ وَأَحَبُّ، وَيَتَذَاخَلَانِ كَثِيراً بِالِاسْتِعْمَالِ، لِأَنَّ اللَّغَةَ جَارِيَةً عَلَى التَّوَسُّعِ، كَمَا هِيَ جَارِيَةٌ عَلَى التَّضْيِيقِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ التَّضْيِيقِ فُزِعَ إِلَى التَّحْدِيدِ وَالتَّشْدِيدِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ التَّوَسُّعِ جُرِيَ عَلَى الْاِقْتِدَارِ وَالِاخْتِيَارِ، وَفِي غُرُضِ هَذَيْنِ بَلَاءٌ آخَرٌ، لِأَنَّهُ بَيْنَ الْإِيجَازِ وَالْإِطْنَابِ، وَبَيْنَ الْكِنَايَةِ، وَالتَّصْرِيحِ، وَبَيْنَ الْإِنْجَازِ وَالْإِبْطَاءِ. فَقَالَ: هَذَا بَابٌ.

ثم ناولني رقعةً بخطه فيها مَطَالِبُ نَفِيسَةٍ تَأْتِي عَلَى عِلْمٍ عَظِيمٍ، وَقَالَ: بَاحِثْ عَنْهَا أَبَا سَلِيمَانَ وَأَبَا الْخَيْرِ وَمَنْ تَعَلَّمَ أَنَّ فِي مُجَارَاتِهِ فَائِدَةً مِّنْ عَالِمٍ كَبِيرٍ، وَمُتَعَلِّمٌ صَغِيرٌ، فَقَدْ يُوْجَدُ عِنْدَ الْفَقِيرِ بَعْضُ مَا لَا يُوْجَدُ عِنْدَ الْغَنِيِّ، وَلَا تَخْفِرُ أَحَدًا فَاهٌ بِكَلِمَةٍ مِنَ الْعِلْمِ، أَوْ أَطَافَ بِجَانِبٍ مِنَ الْحِكْمَةِ، أَوْ حَكَمَ بِحَالٍ مِنَ الْفَضْلِ؛ فَالْثَّقُوسُ مُعَادِنٌ، وَحَصُلُ ذَلِكَ كُلُّهُ وَحَرَزُهُ فِي شَيْءٍ وَجِئَنِي بِهِ، وَكَانَ فِي الرُّقْعَةِ:

مَا النَّفْسُ؟ وَمَا كِمَالُهَا؟ وَمَا الَّذِي اسْتَفَادَتْ فِي هَذَا الْمَكَانِ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ بَايَنْتَ الرُّوحَ؟ وَمَا الرُّوحُ؟ وَمَا صِفَتُهُ؟ وَمَا مَنَفَعَتُهُ؟ وَمَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ تَكُونَ النَّفْسُ جِسْماً أَوْ عَرَضاً أَوْ هُماً؟ وَهَلْ تَبْقَى؟ وَإِنْ كَانَتْ تَبْقَى فَهَلْ تَعْلَمُ مَا كَانَ الْإِنْسَانُ فِيهِ هَاهُنَا؟ وَمَا الْإِنْسَانُ؟ وَمَا حَدُّهُ؟ وَهَلِ الْحَدُّ هُوَ الْحَقِيقَةُ، أَمْ بَيْنَهُمَا بَوْنٌ؟ وَمَا الطَّبِيعَةُ؟ وَهَلَّا أَعْنَى

الرُّوحُ عن النَّفْسِ، أو هَلَا أَغْتَتِ النَّفْسُ عن الرُّوحِ؟ وهَلَا كَفَتِ الطَّبِيعَةُ؟ وما العقلُ؟ وما أنحاؤه؟ وما صَنِيعُهُ؟ وهل يُعْقِلُ الْعَقْلُ؟ وهل تَتَنَفَّسُ النَّفْسُ! وما مَرَبَّتُهُ (اغْيِي العقلَ) عند الإله؟ وهل يَفْعَلُ؟ وهل يَفْعَلُ؟ وإن كان يَفْعَلُ فَيَقْسُطُ الْفِعْلُ فيه أَكْثَرُ مِنْ قِسْطِ الْإِنْفَعَالِ؟ وما الْمَعَادُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ؟ أهو للإنسان؟ أم لِنَفْسِهِ؟ أم لهما؟ وما الْفَرْقُ بين الأنفُسِ، أعني نَفْسَ عَمْرُو وَزَيْدٍ وَبَكْرٍ وَخَالِدٍ؟ ثم ما الْفَرْقُ بين أنفُسِ أصنافِ الْحَيَوَانِ؟ وهل الْمَلَكُ حَيَوَانٌ؟ فقد علمتَ أَنَّهُ يقالُ له: حَيٌّ، وهل فيه حياة؟ وعلى أَيِّ وَجْهِ يُقَالُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَيٌّ وَالْمَلَكُ حَيٌّ وَالْإِنْسَانُ حَيٌّ وَالْفَرَسُ حَيٌّ؟ وهل يقالُ: الطَّبِيعَةُ حَيَّةٌ، والنَّفْسُ حَيَّةٌ، والعَقْلُ حَيٌّ؟ فَإِنَّ هَذَا وما أَشَبَّهُهُ شَاغِلٌ لِقَلْبِي، وَجَائِثٌ فِي صَدْرِي، وَمُعْتَرِضٌ بَيْنَ نَفْسِي وَفِكْرِي؛ وما أَحَبُّ أَنْ أَبُوحَ بِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَقَدْ بَيَّنَّتُهُ فِي هَذِهِ الرَّقْعَةِ، فَإِنْ أَحْبَبْتَ أَنْ تَعْرِضَهَا عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ فافْعَلْ، وَلَكِنْ لَا تَدْعَ خَطِيئَتَهُ، بَلْ انْسَخْهُ لَهُ، وَحَصِّلْ مَا يُحْيِيكَ بِهِ، وَيَصْدَعُ لَكَ بِحَقِيقَتِهِ، وَلَخْصُهُ، وَزِنْتُهُ بِلَفْظِكَ السَّهْلِ، وَإِفْصَاحِكَ الْبَيِّنِ، وَإِنْ وَجَبَ أَنْ تُبَاحِثَ غَيْرَهُ فافْعَلْ؛ فهذا هَذَا؛ وَإِنْ كَانَ الرَّجُوعُ فِيهِ إِلَى الْكُتُبِ الْمَوْضُوعَةِ مِنْ أَجْلِهِ كَافِيًا، فَلَيْسَ ذَلِكَ مِثْلَ الْبَحْثِ عَنْهُ بِاللَّسَانِ، وَأَخِذْ الْجَوَابَ عَنْهُ بِالْبَيَانِ، وَالْكِتَابَ مَوَاتٍ، وَنَصِيبُ النَّازِرِ فِيهِ مَنَزُورٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْمَذَاكِرَةُ وَالْمُنَاطَرَةُ وَالْمَوَاتَاةُ، فَإِنَّ مَا يُنَالُ مِنْ هَذِهِ أَعْصَى وَأَطْرَأَ، وَأَهْنَأُ وَأَمْرَأَ، وَاجْعَلْ هَذِهِ الْخِدْمَةَ مُقَدِّمَةً عَلَى كُلِّ مُهِمٍّ لَكَ، فَإِنِّي نَاطِرُكَ، طَامِعاً فِي الْجَوَابِ الْمُقْنِعِ الشَّافِي.

فَعَرَضْتُهَا كَمَا رَسَمَ عَلَى أَبِي سُلَيْمَانَ وَقَرَأْتُهَا عَلَيْهِ، وَتَمَهَّلْتُ فِي إِبْرَادِهَا بِحَضْرَتِهِ، فَلَمَّا فَهِمَهَا وَوَقَفَ عَلَيْهَا عَجِبَ وَقَالَ: هَذِهِ مَسَائِلُ الْمُتَحَكِّمِينَ، وَطَلَبَاتُ الْمُدْلِينَ، وَاقْتِرَاحَاتُ الْمُقْتَدِرِينَ، وَمُنِيَّةُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

قُلْتُ: هُوَ كَمَا قُلْتُ أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَلَا بَدَّ مِنْ جَوَابٍ يُعْرَضُ عَلَيْهِ يَأْتِي عَلَى بَعْضِ مَآرِبِ النَّفْسِ، وَإِنْ لَمْ يَأْتِ عَلَى قَاصِيَةٍ فِي الْمَطْلُوبِ. فَقَالَ كَلَامًا كَثِيرًا وَاسِعًا أَنَا أَخْكِيهِ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ طَرِيقِ الْمَعْنَى، وَإِنْ انْحَرَفْتُ عَنْ أَعْيَانِ لَفْظِهِ، وَأَسْبَابِ نَظْمِهِ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِمْلَاءً وَلَا نَسْخًا، وَاجْتِهَدُ أَنْ أَلْزِمَ مَتْنَ الْمُرَادِ، وَسَمْتُ الْمَقْصُودَ - إِنَّ شَاءَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ -.

قَالَ: أَمَّا قَوْلُهُ: مَا النَّفْسُ؟ فَإِنَّ التَّحْدِيدَ يُغَوِّزُ، وَالرَّسْمَ لَا يَشْفِي، وَالْوَصْفَ مُقَصِّرٌ عَنِ الْغَايَةِ، لِأَنَّهَا لَيْسَ لَهَا جِنْسٌ وَلَا فَضْلٌ فَيَنْشَأُ الْحَدُّ بِهِمَا وَمِنْهُمَا؛ وَالْإِسْمُ الشَّائِعُ - أعني النَّفْسَ - أَخْلَصَ إِلَى الْمَطْلُوبِ، وَأَخْضَرَ لِلْمَقْصُودِ مِنَ التَّحْدِيدِ، وَلِهَذَا مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي حَدِّهَا؛ فَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ مِزَاجُ الْأَرْكَانِ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ تَأَلَّفُ الْأُسْطَقْسَاتِ؛ وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ عَرَضٌ مُحَرِّكٌ بِذَاتِهِ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ هَوَائِيَّةٌ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ رُوحٌ حَارَّةٌ. وَقَالَ قَائِلٌ: النَّفْسُ طَبِيعَةٌ دَائِمَةٌ

الْحَرَكَةُ. وقال قائل: النفسُ تَمَامٌ لجسْمٍ طبيعيٍّ ذي حياة. وقال قائل: النفسُ جَوْهَرٌ ليس بجسمٍ محرَّكٍ للبدن. وعلى هذا؛ ولعلَّ آخَرِينَ يقولون في تَحْدِيدِهَا وَنَعْتِهَا أَقْوَالًا أُخَر، لأنَّ الْمَلْحُوظَ بسيط، والمَذْرُوكَ بعيد، والناظرين كثيرون، والباحِثِينَ مَخْتَلِفِينَ، والكثيرةُ فَاتِحَةُ الاختلاف، والاختلافُ جَالِبٌ لِلْحَيْرَةِ، والحَيْرَةُ خَانِقَةٌ لِلْإِنْسَانِ، وَالْإِنْسَانُ ضَعِيفُ الْأَسْرِ، محدودُ الْجُمْلَةِ، مَخْصُورُ التَّفْصِيلِ، مقْصُورُ السَّعْيِ، مَمْلُوكُ الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ، غَشَاؤُهُ كَثِيفٌ، وباعُهُ قَصِيرٌ، وفائِئُهُ أَكْثَرُ مِنْ مُدْرِكِهِ، ودَعْوَاهُ أَخْصَرُ مِنْ بُرْهَانِهِ، وَخَطْوُهُ أَكْثَرُ مِنْ صَوَائِهِ، وَسُؤَالُهُ أَظْهَرُ مِنْ جَوَابِهِ، فعَلَى هَذَا كُلِّهِ الاعْتِرَافُ بِهَا - أَعْنِي بِالنَّفْسِ وَبِوُجْدَانِهَا - أَسْهَلُ مِنَ الْفَخْصِ عَنْ كُنْهَيْهَا وَبُرْهَانِهَا.

قال: وإنما صَعِبَ هذا لأنَّ الْإِنْسَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ النَّفْسَ وهو لَا يَعْرِفُ النَّفْسَ إِلَّا بِالنَّفْسِ، وهو مَحْجُوبٌ عَنْ نَفْسِهِ بِنَفْسِهِ؛ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَلَا مَرَّ أَنْ كُلٌّ مِنْ كَانَتْ نَفْسُهُ أَصْفَى، وَنُورُهُ أَشْعَى، وَنَظَرُهُ أَعْلَى، وَفِكْرُهُ أَثْقَبَ، وَلَحْظُهُ أَبْعَدَ، كَانَ مِنَ الشَّكِّ أُنَجَّى، وَعَنِ الشُّبْهَةِ أُنْأَى، وَإِلَى الْيَقِينِ أَقْرَبَ؛ وَالْإِنْسَانُ ذُو أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ، مِنْ جُمْلَتِهَا نَفْسُهُ، فَلِكثَرَتِهَا مَا هُوَ بِهِ كَثِيرٌ يَعْجَزُ عَنْ إِدْرَاكِ مَا هُوَ بِهِ وَاحِدٌ، أَيْ إِنْسَانٌ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ هَذَا التَّعْتُّ حَقًّا، وَهَذَا الْمَقُولُ صِدْقًا، وَهُوَ مُرَكَّبٌ فِي مُرَكَّبٍ، وَالنَّفْسُ مَبْسُوطَةٌ، وَإِنَّمَا فِيهِ جُزْءٌ يَسِيرُ وَنَصِيبٌ قَلِيلٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَسِيطِ، فَكَيْفَ يُدْرِكُ بجزءٍ منها كُلَّهَا وَبِقَلِيلٍ منها جَمِيعُهَا؟ هَذَا مُتَعَذِّرٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ مُحَالًا، وَبَعِيدٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعْدُومًا؛ وَيَكْفِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ النَّفْسَ قُوَّةٌ إِلَهِيَّةٌ وَاسْطَةٌ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ الْمُصْرِفَةِ لِلْأَسْطَقُوسَاتِ وَالْعُنَاصِرِ الْمُتَهَيِّئَةِ، وَبَيْنَ الْعَقْلِ الْمُنِيرِ لَهَا، الطَّالِعِ عَلَيْهَا، الشَّائِعِ فِيهَا، الْمَحِيطِ بِهَا؛ وَكَمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ ذُو طَبِيعَةٍ لَا تَارِهَا الظَّاهِرَةِ فِي بَدَنِهِ كَذَلِكَ هُوَ ذُو نَفْسٍ، لَا تَارِهَا الظَّاهِرَةِ فِي آرَائِهِ وَأَبْحَائِهِ، وَمَطَالِبِهِ وَمَآرِبِهِ؛ وَكَذَلِكَ هُوَ ذُو عَقْلٍ لِمُتَمَيِّزِهِ وَتَصَفِّحِهِ، وَاخْتِبَارِهِ وَفَخْصِهِ وَاسْتِنْبَاطِهِ، وَيَقِينِهِ وَشَكِّهِ، وَعِلْمِهِ وَظَنِّهِ، وَفَهْمِهِ وَرَوِيَّتِهِ وَبَدِيهَتِهِ وَذِكْرِهِ، وَذَهْنِهِ وَحِفْظِهِ وَفِكْرِهِ، وَجَحْمَتِهِ وَثِقَتِهِ وَطَمَآئِنَتِهِ؛ وَكَذَلِكَ هُوَ ذُو اعْتِرَافٍ بِالْأَحَدِ الَّذِي لَا سَبِيلَ إِلَى جَحْدِهِ، وَالْبَرَاءِ مِنْ هُوِيَّتِهِ، وَكَيْفَ يَجِدُ أَثَرَ الْجَحْدِ، أَوْ يُحْسِنُ بِلَمْسَةِ مِنَ الشَّكِّ؟ وَسِنْخُهُ يَنْبُو عَنْ ذَلِكَ، وَفِطْرَتُهُ تَأْبَاهُ، وَلِهَذَا الثَّبُوتُ وَالْإِبَاءُ يَفْرَعُ إِلَيْهِ، وَيَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَيَطْلُبُ الْفَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ، وَيَلْتَمِسُ الْخَيْرَ مِنْ لَدُنْهِ، فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ السُّلْسِلَةِ الْوَثِيقَةِ الَّتِي لَا يَفْصِمُهَا شَيْءٌ لَا فِي زَمَانٍ وَلَا فِي مَكَانٍ، وَلَا فِي يَقْظَةٍ وَلَا فِي مَنَامٍ؛ فَهَذَا هَذَا؟ وَفِيهِ مَقْنَعٌ.

وَأَمَّا فِعْلُ النَّفْسِ، فَقَدْ وَضَحَ أَنَّهُ إِثَارَةُ الْعِلْمِ مِنْ مَظَانِّهِ؛ وَاسْتِخْلَاصُهُ مِنَ الْعَقْلِ بِشَهَادَتِهِ، مَعَ إِفَاضَاتٍ لَهَا أُخَر، وَإِنَالَاتٍ مِنْهَا جَلِيلَةٍ عِنْدَ الْإِنْسَانِ، بِهَا يَنَالُ مَا يَكْمُلُ بِهِ، وَبِكَمَالِهِ يَجِدُ السَّعَادَةَ، وَبِسَعَادَتِهِ يَنْجُو مِنْ شِقْوَتِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: مَا الَّذِي اسْتَفَادَتْ فِي هَذَا الْمَكَانِ؟ فَإِنَّهَا أَفَادَتْ وَمَا اسْتَفَادَتْ، إِلَّا أَنْ

تُجْعَلَ إفادتها للقبائل منها استفادة لها؛ وفي هذا تجوُّزٌ ظاهر، ولا يقال للشمس إذا طَلَعَتْ على بَسِيطِ الأرض والعالم: ما الذي استفادت. ولكن يقال: ما الذي أفادت: فيُعَلِّمُ حِينَئِذٍ بالعيان أنها أفادت أشياء كثيرة، صوراً مختلفة، ومنافع جَمَّةٌ بالقصد الأول؛ وأمَّا القصد الثاني فأضداد هذه، وهذا القصد مفروض باللفظ ليكون مُعِيناً على تبليغ الحكمة إلى أهلها.

وأما قوله: بأي شيء باينت النفسُ الروحَ؟ فهو ظاهر، وذلك أن الروحَ جسمٌ يَضَعُفُ وَيَقْوَى، وَيَضْلُحُ وَيَفْسُدُ، وهو واسطةٌ بين البدن والنفس، وبه تُفِيضُ النفسُ قُوَاهَا على البدن، وقد يُحْسِنُ ويتحرَّك، ويلدُّ ويتألم؛ والنفس شيءٌ بسيطٌ على الرتبة، بعيدٌ عن الفساد، منزَّهٌ عن الاستحالة.

وأما المانع أن تكون النفسُ جسماً فللبساطة التي وُجدت للنفس ولم تُوجد للجسم، وبيانُ هذا أن كلَّ نعتٍ أُطْلِقَ على الجسم تُزْهِتُ عنه النفس، وكلَّ نعتٍ أُطْلِقَ على النفس نبا عنه الجسم؛ فذاك كان المانع من ذلك، وقد أتت مذاكرة في النفس منذ ليالٍ بشرح مُعْجَن، وبيان تام، إلا أن هذا المكان أحوَجُ إلى الإلمام، ولم يأت على ما في النفس. وإذا بطل أن تكون النفسُ جسماً فهي بالألّا تكون عَرَضاً أَقْمَنُ وأَخْلَقُ، لأنَّه لا قِوَامَ للعَرَضِ بِنَفْسِهِ.

وأما قوله: وهل تَبْقَى؟ فكيف لا تَبْقَى وهي مَبْسُوطَةٌ لا يَدْخُلُ عليها ضِدٌّ، ولا يدبُّ إليها فساد، ولا يَصِلُ إلى شيء منها بِلَى، والإنسان إنما يَبْلَى وَيَفْسُدُ وَيَخْلُقُ وَيَبْطُلُ وَيَمُوتُ وَيَقْفَدُ، لأنَّه يفارق النفس، والنفس تُفَارِقُ ماذا حتَّى تُكُونَ في حُكْمِ الإنسان بِشَكْلِهِ؟ ولو كانت كذلك كَانَتْ لَعَمْرِي تموتُ وتَبْلَى، فأما والإنسان بها كان حياً وَجَبَ ألا يكون حُكْمُهَا حُكْمَ الإنسان.

وأما قوله: أو هما؟ فقد بان أن النفس متى لم تكن جسماً، ولا عَرَضاً على حِدَةٍ أنها لا تكون أيضاً بهما نفساً، لأنَّ البَيِّنُونَةَ التي مَنَعَتْ في الأول هي التي تَمْنَعُ في الثاني، وليست النفس والعَرَضُ كالخَلِّ والسُّكَّرِ حتَّى إذا جُمِعَ بينهما كان منهما شيء آخر، لأنَّ الجسمَ والجسم إذا اختلطا كان منهما شيء ما، له قِوَامٌ، وإنَّ ذلك القِوَامُ مُسْتَلٌّ منهما، وليس كذلك البسيط وغيرُ البسيط، فهذا هذا.

وأما قوله: وهل تَقْنَى؟ فقد بان أنَّها تَبْقَى ولا تَقْنَى، وليس يطرأ عليها ما يُفْنِيهَا، لبساطتها وبُعْدِهَا من التَّركِيبِ العجيب المُعَرَّضِ للتَحُلُّلِ.

وأما قوله: وهل تعلم ما كان فيه الإنسان هاهنا؟ فإنَّ هذا بعيد من الحقِّ لأنَّها قد وَصَلَتْ إلى مَعْدِنِ الكَرَامَةِ وَجَنَةِ الخُلْدِ، فلا حاجةَ بها إلى عِلْمِ العَالَمِ السُّفْلِيِّ الَّذِي لا ثَبَاتَ له ولا صُورَةَ، لَعَلَّةَ الحَيَلُولَةِ عليه، وتَذَكُّرَ الحَيَلُولَةِ حَيَلُولَةَ،

وذلك دليلُ النقص، واعتراضُ الألم، ولو أن إنساناً نُقِلَ من كَرْبِ حَبْسٍ ضَيِّقٍ إلى رَوْضِ بُسْتَانٍ ناضر بهيج مُونِقٍ، ثم تذكَّرَ ما كان فيه في حال ما هُوَ عليه لكان ذلك مُؤْذِياً لِنَفْسِهِ، وكارِباً لِقَلْبِهِ، وقادِحاً في رَوْحِهِ، وأخذاً من حُبُورِهِ وَغِبْطَتِهِ، ومُذْخِلاً للتَنَغِيصِ عَلَيْهِ في نَشْوَتِهِ.

وأما قوله: وما الإنسان؟ فالإنسانُ هو الشيءُ المَنْظُومُ بِتَدْبِيرِ الطَّبِيعَةِ للمادَّةِ المخصوصة بالصُّورِ البَشَرِيَّةِ، المؤيَّدُ بِنُورِ العَقْلِ من قِبَلِ الإله؛ وهذا وصفٌ يأتي على القَوْلِ الشائع عن الأولين إِنَّهُ حَيٌّ ناطِقٌ مائتٌ أي حَيٌّ من قِبَلِ الحِسِّ والحركة، ناطِقٌ من قِبَلِ الفِكرِ والتمييز، مائتٌ من قِبَلِ السَّيْلانِ والاستحالة، فمن حيث هو حَيٌّ شريكُ الحيوانِ الَّذِي هو جنسُهُ، ومن حيث هو مائتٌ هو شريكٌ ما يَتَبَدَّلُ ويتحلَّلُ، ومن حيث هو ناطِقٌ هو إنسانٌ عاقلٌ حَصِيفٌ، ومن حيث يبلغُ إلى مُشاكهةِ المَلِكِ بقوة الاختيارِ البَشَرِيِّ، والنورِ الإلهي - أعني يُنَعَتُ في حياته هذه التي وَهَبَتْ له بدءاً، بصحَّةِ العقيدة وصلاحِ العملِ وصدقِ القول - هو مَلَكٌ، فإن لم يكن مَلَكاً فهو جامع لصفائِهِ، ومالكٌ لِحِيلَتِهِ، ولَمَّا كان جنسُهُ مشتَمِلاً على التفاوتِ الطويلِ العريضِ، كان نوعُهُ مشتَمِلاً على التفاوتِ الطويلِ العريضِ؛ ومن كان نوعُهُ كذلك كانت آحادُهُ كذلك، وكما أن الجنسَ يَرْتَقِي إلى نوعٍ كاملٍ، كذلك النوعُ يَرْتَقِي إلى شَخْصٍ كاملٍ.

وأما قوله: هل الحدُّ هو الحقيقة، أو بينهما بَوْنٌ؟ فَإِنَّ الحدَّ راجعٌ إلى واضِعِهِ ومُتَقَصِّصِهِ بدلالةِ أَنَّهُ يَضَعُهُ وَيُفَصِّلُهُ، وَيُخَلِّصُهُ وَيُسَوِّيهِ وَيُضْلِحُهُ. فأما الحقيقة فهي الشيء وبها هُوَ ما هُوَ، حَدَّهُ صَاحِبُهُ أَمْ لَمْ يَحُدَّهُ، رَسَمَهُ قَاصِدُهُ أَمْ لَمْ يَرَسُمْهُ، فملحوظ الحقيقة عَيْنُ الشيء وموضوع الحدِّ ليس هو عين الشيء.

وأما قوله: وما الطبيعة؟ فهي أيضاً قوةٌ نفسيةٌ، فإن قلتَ عَقْلِيَّةٌ لَمْ تُبْعِدْ، وإن قلتَ إلهية لَمْ تُبْعِدْ، وهي التي تسري في أثناء هذا العالمِ مُحَرِّكَةً وَمُسَكِّنَةً، وَمُجَدِّدَةً وَمُبْلِيَّةً، وَمُنْشِئَةً وَمُمِيدَةً، وَمُخَيِّئَةً وَمُمِيتَةً، وتنصاريها ظاهِرةٌ للحسَّائِسِ، وهي آخِرُ الخلفاء في هذا العالمِ، وهي بالموادِّ أَغْلَقَتْ، والموادُّ لها أَغْشَقَتْ؛ وليس لها تَرْقِي النَّفْسِ في الثاني إلى عالمِ الرُّوحِ، لأنَّهُ لا كَوْنَ هُنَاكَ ولا فَسادَ، فلو رَقِيتَ إلى هُنَاكَ لَبَقِيتَ عاطِلةً، وليس كذلك النفسُ، فَإِنَّ لها في عالمِها البَهْجَةِ والغِبْطَةِ، والحُبُورِ والسُّرُورِ، وهذا هُنَاكَ في مُقَابَلَةِ ما كان لها هَاهُنَا من الفضائلِ التي لا يأتي عليها إحصاءٌ، ولا يحصِّلُها استقصاءٌ.

وأما قوله: وهَلَا أَغْنَى الرُّوحُ عن النَّفْسِ؟ فهو يُغْنِي عنها، ولكن في جنسِ الحَيَوانِ الَّذِي لَمْ يَكْمُلْ فيكونَ إنساناً. فأما في الإنسانِ فلا، لأنَّ الإنسانَ بالنَّفْسِ هو إنسانٌ لا بالرُّوحِ، وإنما هو بالرُّوحِ حَيٌّ فَحَسْبُ.

وأما قوله: وهَلَّا أَعْنَتَ النفسُ عن الروح؟ فَإِنَّ الروحَ كآلَاةٍ للنفسِ حتى يَنْقُذَ تدبيرُها بوساطته في صاحب الروح، وليس ذلك لَعَجْزِ النفسِ، ولكن لَعَجْزِ ما يَنْقُذُ فيه التدبير، وإذا حَقَّقَ هذا الرَّمْزُ لم يَكُنْ هُنَاكَ عَجْزٌ لَأَنَّهُ نِظَامٌ موجودٌ على هذه الصورة، وصورةٌ قائمةٌ على هذا النظام، فليس لأحد أن يُعَلِّلَ ذلك بِلَمِّ ولا بِكَيْفٍ إِلَّا من طريق الإقناع.

وأما قوله: هَلَّا كَفَّتِ الطبيعة؟ فقد كَفَّتْ في مواضعها التي لها الولاية عليها مِنْ قَبْلِ النَّفْسِ، كما كَفَّتِ النفسُ في الأشياءِ التي لها عليها الولاية مِنْ قَبْلِ الْعَقْلِ، كما كَفَّى الْعَقْلُ في الأمور التي له الولاية عليها مِنْ قَبْلِ الْإِلَهِ؛ وَإِنْ كَانَ مَجْمُوعُ هَذَا رَاجِعاً إِلَى الْإِلَهِ، فَإِنَّهُ فِي التَّفْصِيلِ مُحْفُوظُ الْحُدُودِ عَلَى أَرْبَابِهَا؛ وَهَذَا كَالْمَلِكِ الَّذِي لَهُ فِي بِلَادِهِ جَمَاعَةٌ فَيَصُدُّونَ عَنْ رَأْيِهِ، وَيَنْتَهُونَ إِلَى أَمْرِهِ، وَيَتَوَخَّوْنَ فِي كُلِّ مَا يَعْقُدُونَهُ وَيَحْلُوتُهُ، وَيَنْقُضُونَهُ وَيُبْرِمُونَ؛ مَا يَرْجِعُ إِلَى وَفَاقِهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْهُ وَلَهُ بِأَمْرِهِ، وَقَدْ كَفَاهُ أُولَئِكَ الْقَوْمُ ذَلِكَ كُلَّهُ.

فإن قال قائل: فكيف مثلت سياسة إلهية بسياسة بشرية، وأين هذه من تلك؟

فالجواب: أَنَّ الْبَشَرَ الْمَسْكِينِ لَمْ يُجِدْ هذه السياسة مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ، وَلَا بِمَا هُوَ بِهِ مَهِينٌ ضَعِيفٌ عاجزٌ مَسْكِينٌ؛ بَلْ بِمَا فَاضَ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ الْقُوَى وَتِلْكَ الصُّورِ، فَهُوَ إِذَا أَبْرَزَ شَيْئاً أَبْرَزَ عَلَى مِثَالِ تِلْكَ، لِأَنَّهُ قَدْ أُعْطِيَ الْقَالَِبَ، فَقَدْ سَهَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يُفْرِغَ فِيهِ، وَوُهِبَ لَهُ الطَّابِعُ، فَهُوَ يَخْتِمُ بِهِ؛ وَهَيْئٌ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ يَجْرِي عَلَيْهِ، وَهَذَا سَوَقٌ إِلَهِيٌّ وَإِنْ كَانَ الْإِنْسِياقُ بَشَرِيّاً، وَنَظْمٌ رُبُوبِيٌّ وَإِنْ كَانَ الْإِنْتِظَامُ إِنْسِيّاً؛ وَفِي الْجُمْلَةِ؛ إِحْدَى السِّيَاسَتَيْنِ، أَعْنِي الْبَشَرِيَّ هِيَ ظِلٌّ لِلْآخَرَى، أَعْنِي الْإِلَهِيَّةَ، وَالسُّفُلِيَّاتِ مُنْقَادَةٌ مُنْقَعِدَةٌ لِلْعُلُويَّاتِ، وَالْعُلُويَّاتِ مُسْتَوَلِيَّاتٌ عَلَى السُّفُلِيَّاتِ، بِحَقِّ الْعَدْلِ وَمَا هُوَ مُقْتَضَاهَا، وَلِأَنَّ هَذِهِ فَوَاعِلُ، أَعْنِي الْعُلُويَّاتِ، وَتِلْكَ قَوَابِلُ، أَعْنِي الْمُنْفَعِلَاتِ، وَوَجَبَ ذَلِكَ لِأَنَّ الصُّورَةَ فِي الْفَاعِلِ أَغْلَبَ، وَالْهَيْوَلَى فِي الْقَابِلِ أَغْلَبَ، وَالْعَالَمَانِ مُتَوَاصِلَانِ، وَالسِّيَاسَتَانِ مُتِمَّائِلَتَانِ، وَالسَّيْرَتَانِ مُتَعَادِلَتَانِ، وَالتَّدْبِيرَانِ مُتَقَابِلَانِ، وَلَكِنْ التَّدْبِيرُ إِذَا نَقَذَ فِي السُّفُلِيِّ يُسَمَّى بَشَرِيّاً، وَإِذَا نَقَذَ فِي الْعُلُويِّ يُسَمَّى إِلَهِيّاً، وَأَنْ كَانَ فِي التَّحْقِيقِ إِلَهِيَّيْنِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَا بِحَسَبِ الصُّدُورِ وَالْوُرُودِ، وَالْفُصُولِ وَالْوُصُولِ، وَالشُّخُوصِ وَالْبُلُوغِ؛ وَالْعَادَةُ جَارِيَةٌ بِأَنَّ يُشَبَّهَ الْإِنْسَانُ شَيْئاً مِنَ الْأَشْيَاءِ بِالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ، وَلَا يُشَبَّهُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِشَيْءٍ آخَرَ، لِأَنَّ لِلْأَعْلَى النَّعْتَ الْأَوَّلَ، وَلِلْأَسْفَلِ النَّعْتَ الْأَرْذَلَ؛ فَهَذَا كَمَا تَرَى.

وأما قوله: وما الْعَقْلُ، وما أَنْحَاؤُهُ، وما صَنِيعُهُ؟ فَإِنَّ الْجَوَابَ عَنْ هَذَا لَوْ وَقَعَ فِي خَلَدٍ كَثِيرٍ، لَكَانَ مَحْمُولاً عَلَى التَّقْصِيرِ، وَكَذَلِكَ فِيمَا تَقَدَّمَ؛ وَلَكِنْ هَذَا مَكَانٌ قَدْ اقْتَرَحَ فِيهِ الْإِيجَازُ وَالتَّقْرِيبُ، وَهَذَانِ لَا يَكُونَانِ إِلَّا بِحَذْفِ الزَّوَائِدِ الْمُفِيدَةِ، وَإِلَّا بِتَفْطِيرِ الْعَلَائِقِ الْمَوْضُحَةِ. وَبَعْدَ، فَالْعَقْلُ أَيْضاً قُوَّةٌ إِلَهِيَّةٌ أَبْسَطُ مِنَ الطَّبِيعَةِ، كَمَا أَنَّ الطَّبِيعَةَ

قُوَّةُ إِلَهِيَّةٍ أَبْسَطُ مِنَ الْأَسْطَقُفَسَاتِ، وكما أن الْأَسْطَقُفَسَاتِ أَبْسَطُ مِنَ الْمَرْكَبَاتِ؛ وعلى هذا حتَّى تنتهي المركَّباتُ إلى مُرْكَبٍ في الغاية، كما بلغت المبسوطات إلى مَبْسُوطٍ في النهاية؛ فالتَقَى الطَّرَفَانِ على ما يقال له: كُلٌّ، فلم يكن بعد ذلك مَطْلَبٌ لا في هذا الطَّرَفِ ولا في هذا الطَّرَفِ؛ والعَقْلُ هو خليفة الله، وهو القابل للفيض الخالص الذي لا شَوْبَ فيه ولا قَذَى؛ وإن قيل: هو نُورٌ في الغاية، لم يكن ببعيد، وإن قيل بأنَّ اسمه مُعْنٍ عن نَعْتِهِ، لم يكن بْمُنْكَرٍ؛ وإنما عَجَزْنَا عن تَحْدِيدِ هَذِهِ الْبَسَائِطِ لَأَنَّا حَاوَلْنَا عِنْدَ عِلْمِهَا أَنْ تَكُونَ فِي صُورَةِ الْمَرْكَبَاتِ أَوْ قَرِيَّةٍ مِنْهَا، وَأَنْ تَصِيرَ لَنَا أَصْنَامًا نَتَمَثَّلُهَا وَنُوكِّلُ بِهَا؛ وَهَذَا مِنَّا تَعَجُّرٌ مَزْدُودٌ عَلَيْنَا، وَخَطَأٌ يَلْزُمُنَا الْاِغْتِدَارُ مِنْهُ إِلَى كُلِّ مَنْ أَحْسَنَ بِهِ مِنَّا؛ وَيَنْبَغِي أَنْ نَتُوبَ إِلَى اللَّهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ وَضْعِهِ بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ، وَمِنْ طَرَحِ الْوَهْمِ عَلَى شَيْءٍ قَدْ حَجَبَهُ عَنْ مَعَارِفِنَا، وَرَفَعَهُ عَنْ عُقُولِنَا، وَقَصَرْنَا عَلَى حُدُودِهَا الْإِلَازِمَةِ لَنَا، وَأَشْكَالِنَا الْمَشْتَمِلَةِ عَلَيْنَا.

هذا حَدِيثُ الْعَقْلِ إِذَا لَحِظَ فِي ذُرْوَتِهِ.

فأما إِذَا فُحِصَ عَنْ أَثَارِهِ فِي حَضِيضِهِ فَإِنَّهُ تَمَيِّزٌ وَتَحْصِيلٌ وَتَصَفُّحٌ وَحُكْمٌ وَتَصْوِيبٌ وَتَخْطِئَةٌ، وَإِجَارَةٌ وَإِجَابٌ وَإِبَاحَةٌ؛ وَإِيَّاكَ أَيُّهَا السَّامِعُ أَنْ يَكُونَ مَفْهُومُكَ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَفْعَالِ وَالْحُرُوفِ أَشْيَاءَ مُتَمَازِيَةً فَتَجْعَلَ شَيْئًا وَاحِدًا أَشْيَاءَ، وَمَنْ كَثُرَ الْوَاحِدُ فَهُوَ أَشَدُّ خَطَأً مِمَّنْ وَحَدَّ الْكَثِيرِ، لِأَنَّ تَكْثِيرَ الْوَاحِدِ انْحِطَاطٌ إِلَى الْمَرْكَزِ؛ وَتَوْحِيدَ الْكَثِيرِ اسْتِغْلَاءٌ إِلَى الْمُحِيطِ، بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَحْصُولُكَ مِنْهَا شَيْئًا وَاحِدًا لَمْ تَصِلْ إِلَيْهِ إِلَّا بِتَرَادُفِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، وَتَصَاحِبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ.

وأما أُنْحَاؤُهُ، فعلى قَدَرِ مَا يَقَالُ: فَلَانٍ عَاقِلٍ وَفَلَانٌ أَغْقَلَ مِنْ فَلَانٍ، وَفَلَانٌ فِي عَقْلِهِ لُوثَةٌ، وَفَلَانٌ لَيْسَ بِعَاقِلٍ؛ وَأَصْحَابُ الْعَقْلِ أَنْصِبَاؤُهُمْ مِنْهُ مُخْتَلَفَةٌ بِالْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ، وَالصِّفَاءِ وَالْكَدَرِ، وَالْإِنَارَةِ وَالظُّلْمَةِ، وَاللِّطَافَةِ وَالْكَثَافَةِ، وَالْخِفَّةِ وَالْخَصَافَةِ، كَمَا تَجِدُهُمْ مُخْتَلِفِينَ فِي الصُّورِ وَالْأَلْوَانِ وَالْخَلْقِ بِالطُّولِ وَالْقِصَرِ، وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ، وَالْإِعْتِدَالِ وَالْإِنْحِرَافِ، وَالرَّذَةِ وَالْقُبُولِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْقَبِيلَ يُدْرِكُ بِالْحَسَنِ، وَيُشْهَدُ بِالْعِيَانِ، وَيُعَايَنُ بِالْحُضُورِ، وَذَلِكَ الْقَبِيلُ مَخْجُوبٌ عَنْ هَذَا كُلِّهِ، فَلَمْ يَجْزَ أَنْ تَكُونَ الْإِحَاطَةُ بِتَفَاوُتِ مَا غَابَ عَنَّْا فِي وَزْنِ الْإِحَاطَةِ بِتَفَاوُتِ مَا حَضَرَ، فَإِنَّهُمَا مَا تَبَايَنَا لِيَأْتِلِفَا، بَلْ لِيَخْتَلِفَا، وَهَذَا التَّفَاوُتُ مُعْتَرَفٌ بِهِ إِذَا اعْتَبِرَ مِنْ خَارِجٍ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَجِدُ أَصْحَابَ الْمَالِ أَيْضًا يَتَبَايَنُونَ فِي مَقَادِيرِ مَا يَمْلِكُونَ مِنَ الْمَالِ، وَلَا يَتَفَقَّهُونَ عَلَى مِقْدَارِ وَاحِدٍ مِنْهُ عِنْدَ جَمَاعَتِهِمْ، وَلَا يَتَفَقَّهُونَ عَلَى نَوْعٍ وَاحِدٍ أَيْضًا مِنْ أَغْيَانِ الْمَالِ، لِأَنَّ هَذَا يَمْلِكُ الصَّامِتَ، وَذَاكَ يَمْلِكُ النَّاطِقَ، وَهَذَا يُمَارِسُ الْقَرْءَ، وَهَذَا يُمَارِسُ الصُّوفَ، وَهَذَا يَنْظُرُ فِي الصَّرْفِ، وَهَذَا يَبِيعُ الْحَيَوَانَ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ صَاحِبُ مَالٍ وَمُبَاشِرٌ لَهُ؛ وَعَلَى هَذَا الْمَثَالِ اخْتَدَى أَهْلُ الْعَقْلِ فِي مَطَالِبِهِمْ، فَصَارَ هَذَا يَمْلِكُ بِعَقْلِهِ غَيْرَ مَا يَمْلِكُ الْآخَرُ،

أَعْنِي أَنَّ هَذَا يَنْظُرُ فِي الْهَنْدَسَةِ، وَهَذَا فِي الطَّبِّ، وَهَذَا فِي التَّحْوِ، وَهَذَا فِي الْفَقْهِ؛ وَالْعِبَارَةُ تَمْنَعُ مِنْ إِشْبَاعِ هَذَا الْمَعْنَى، وَخَضِرَ هَذَا الْفَنِّ، فَعَلَى هَذَا أَنْحَاؤُهُ، وَإِنِهَا لَكَثِيرَةٌ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِلَا نِهَايَةٍ.

وَأَمَّا صَنِيعُهُ، فَهُوَ الْحُكْمُ بِقَبُولِ الشَّيْءِ وَرَدِّهِ، وَتَحْسِينِهِ وَتَقْبِيحِهِ، إِذَا كَانَ الْمَعْرُوضُ عَلَيْهِ عَلَى جِهَتِهِ غَيْرَ مَمُوءٍ وَلَا مَغْشُوشٍ، وَلَا مُشْتَبِهٍ فِيهِ وَلَا مَلْبُوسٍ، فَإِنْ كَانَ مَمُوءًا اخْتَلَفَ حُكْمُهُ، لِأَنَّ الْعَقْلَ يَرَى الْبَاطِلَ حَقًّا فِي وَقْتٍ، وَيَرَى الْحَقَّ بَاطِلًا فِي وَقْتٍ، مَعَاذَ اللَّهِ مِنْ هَذَا، ذَلِكَ لِلْحِسِّ الْمَثْنُوصِ، وَالذَّهْنِ الْمَلْبُوسِ، لِأَنَّ الْعَارِضَ مَمُوءَ مَعْرُوضِهِ عَلَى الْعَقْلِ، فَحَكَمَ لَهُ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ الْعَارِضُ لَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ التَّمْوِيهِ، وَلَمْ يَقْطُنْ لِذَلِكَ الْغَشِّ، فَحِينَئِذٍ يَهْدِيهِ الْعَقْلُ وَيُرْشِدُهُ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ، وَيَنْصَحُ لَهُ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَلْ يُعْقَلُ الْعَقْلُ؟ فَإِنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يَقَالَ: الْعَاقِلُ يَعْقِلُ بِالْعَقْلِ مَعْقُولَهُ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ يَقَالَ: السَّرَاجُ أَضَاءَ الْبَيْتِ، وَيَبْعُدُ أَنْ يَقَالَ: أَضَاءَ نَفْسِهِ، لِأَنَّهُ مُضِيٌّ بِنَفْسِهِ، فَلَيْسَ بِهِ فَقْرٌ إِلَى أَنْ يُضِيَّ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا أَضَاءَ غَيْرِهِ... وَلَوْ عَقَلَ الْعَقْلُ لِعَقَلَ بِالْعَقْلِ، وَهَذَا إِذَا اسْتَمَرَّ كَانَ مَزْدُودًا، وَنَحْنُ إِذَا قُلْنَا: عَقَلَ الْعَاقِلُ مَعْقُولَهُ، فَإِنَّمَا نَصِفُهُ بِأَنَّهُ أَنْفَعَلَ أَنْفِعَالَ كِمَالٍ، وَالْعَقْلُ يَرَى مِنْ هَذَا الْأَنْفِعَالِ أَلَّا يَتَوَخَّى أَنَّهُ يَعْقِلُ الْإِلَهَ الَّذِي هُوَ بِهِ مَا هُوَ، فَإِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَضُرَّ بِهِ أَنْفِعَالٌ لَائِقٌ بِهِ يَكُونُ عِبَارَةً عَنْ شَوْقِهِ إِلَيْهِ، وَكِمَالِهِ بِهِ، وَاقْتِبَاسِهِ مِنْهُ، وَهَذَا صِرَاطٌ حَدِيدٌ، وَالوَاطِئُ عَلَيْهِ عَلَى خَطَرٍ شَدِيدٍ، وَالْوَقُوفُ دُونَهُ أَضْدَعُ بِالْحُجَّةِ، وَأَوْضَحُ لِلْعَذْرِ، لِأَنَّ الْإِنْسَانَ خَوَّارٌ بِالطَّبْعِ، وَإِنْ كَانَ جَسُورًا بِالنَّفْسِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَلْ تَتَنَفَّسُ النَّفْسُ؟ فَإِنْ أُريدَ بِذَلِكَ النَّفْسُ النَّامِيَّةُ وَالْحَيَوَانِيَّةُ فَهُوَ قَرِيبٌ، وَأَمَّا النَّاطِقَةُ فَإِنَّ ذَلِكَ يَبْعُدُ مِنْهَا لِأَنَّ ذَلِكَ التَّنَفُّسَ اسْتِمْدَادُ شَيْءٍ بِهِ يَكُونُ الشَّيْءُ حَيًّا أَوْ كَالْحَيِّ؛ وَالنَّاطِقَةُ غَيِّةٌ عَنْ ذَلِكَ.

فَإِنْ قِيلَ: فَهَلْ تَقْتَنِسُ مِنَ الْعَقْلِ وَتَسْتَمِدُّ؟ قِيلَ: هَذَا لَا يُسَمَّى تَنَفُّسًا، وَلَيْسَ اللَّفْظُ يُبْعِدُهُ عَنِ الْحَقِيقَةِ تَأْوِيلٌ فِي الْوَضْعِ؛ وَلَا وَجْهٌ فِي الْاعْتِمَالِ وَإِدْخَالِ الْعَوِيصِ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى رَفْعِ اللَّبْسِ وَزَوَالِ الْإِشْكَالِ، مُدَاجَاةً فِي الْعِلْمِ وَخِيَانَةً لِلْحِكْمَةِ وَجِنَايَةً عَلَى الْمُسْتَنْصَحِ.

وَأَمَّا مَرْتَبَتُهُ عِنْدَ الْإِلَهِ فَقَدْ وَضَحَ بِأَنَّهُ كَالشَّمْسِ تَطْلُعُ فَتُخَيِّ، وَتَضِيءُ فَتَنْفَعُ.

فَإِنْ قِيلَ: فَالْعَقْلُ أَيْضًا هَكَذَا، قِيلَ: الْعَقْلُ أَيْضًا شَمْسٌ أُخْرَى، وَلَكِنَّهَا تَطْلُعُ عَلَى النَّفْسِ الَّتِي لَيْسَتْ حَاوِيَةً لِجِدَارٍ وَسَطْحٍ، وَبَرٍّ وَبَحْرٍ، وَجَبَلٍ وَسَهْلٍ، لِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الْعَقْلُ أَشْرَقَ مِنَ النَّفْسِ - لِأَنَّهُ مُسْتَخْلِفٌ لِلنَّفْسِ، وَالنَّفْسُ خَلِيفَتُهُ - كَانَ إِشْرَاقُهُ أَلْطَفَ، وَمَنَافِعُهُ فِي إِشْرَاقِهِ أَشْرَفَ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الشَّمْسَ تَجِدُّهَا بِالْحِسِّ لَهَا غُرُوبٌ وَطُلُوعٌ، وَتَجَلُّ وَكُسُوفٌ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْعَقْلُ، لِأَنَّ إِشْرَاقَهُ دَائِمٌ، وَنُورُهُ مُنْتَشِرٌ، وَطُلُوعُهُ سَرْمَدٌ، وَكُسُوفُهُ مَعْدُومٌ، وَتَجَلُّيهِ غَيْرُ مَتَوَقَّفٍ.

فإن قيل: نرى العقل يَغْزُبُ عن الإنسان في وقتٍ ويثوبُ إليه في وقتٍ. فالجواب أن الوصف الذي كنا ننتع به ونصدع ببيانه لم يكن لعقل زيد وعمرو، وبكر وخالد، لأن ذلك يُنعت بالطلوع والغروب، وبالحضور والغيب، لأنه هاهنا مضاف ومنحاز، أو كالمُنحاز، وليس كذلك هو، فإنه هناك على بهجته التامة، وسلطانهِ القاهرة، وملكوته الأفح، وبسيطه الفائق، وفضائه العريض.

وأما قوله: وهل يتفعل؟ فقد مرَّ الكلام عليه في طي ما مرَّ، وليس للتكرار وجه، ولا في التطويل عذر.

وأما قوله: فقسطُ الفعل أكثر، أم قسطُ الانفعال؟ فإن هذا يلحظ من وجهين، إذا لحظ قبوله من فيض الإله فقسطُ الانفعال أظهر، وإذا لحظ فيضه على النفس فقسطُ الفعل فيه أكثر، لأنه بجوده على غيره يُشاركه من جاد عليه بجوده، وهذا لطيف جداً.

وأما قوله: وما المعاد؟ فما أسهل مطالبة السائل بهذا الأمر الصعب الهائل الذي كلُّ أمر متعلق به، وكلُّ رجاء حائم حوله، وكلُّ طمع متوجه إليه، وكلُّ شيء مقصور عليه، وكلُّ إنسان به يهيم، وكلُّ مُصرّح عنه يُصرّح، وكلُّ كان عنه يَكْنِي، وكلُّ مترنم به يحدو، وكلُّ لحنٍ إليه يُشير، وكلُّ سامعٍ إليه يَطْرَب، وترجع فنقول - على العي والبيان، وعلى الزحف والعدوان: - إن عود النفس إنما هو تخلّيتها للبدن إذا حان وقتُ التخلية، إما لأن البدن غير مُحتمل لمادة الحياة، وإما لأن النفس قد أزمعت أمراً آخر، ولا يتم لها ذلك إلا بتخلية هذا؛ وإما لهما.

فإن قال قائل: فما نصيب الإنسان من عود النفس الذي هو تخلّيتها للبدن وخروجها عنه، وترك استعمالها له؟ فالجواب من طريق التمثيل، والرّضا بالرأي الأضوب، والحكم الأجلّي أن يقال: لو قيل لرجل من غرض الناس وافر أو ناقص: إنك إذا فارقت هذا العالم بقيت عينك الباصرة، وأذنك السامعة، هل ترى ذلك نعمة عليك، وإحساناً إليك، فإن عينك إذا بقيت أبصرت العالم بعدك كما كنت تبصره وهي معك، بل تبصر أحسن من ذاك الإبصار، لأنها كانت معك ترمد بسببك، وتعشى من أجلك، وربما عرض لها سوء بسوء تدبيرك، أو باتفاق رديء عليك، من عشى أو عمى وخفش وعمش وعور وآفات كثيرة، وهي آمنة بعدك من هذه الأغراض المكروهة، والأحوال الداهية، فإننا نعلم حقاً وعياناً أنه يقول: قد رَضِيتُ بل أتممتُ هذا، ومن لي به، أي إن أعطيتُ هذا فَمَنْ مَنِي أسمع وأبصر، وإذا كنت أكره الدنيا في حياتي إذا فقدتهما فكيف لا أحب الدنيا إذا وجدتهما، فإن كان هذا التمثيل واقعاً، وهذا التقريب نافعاً، والحق في تضاعيفه واضحاً، فليكن ذلك مطرداً في بقاء نفس الإنسان التي بها كان إنساناً، وبها كان يتنعم في هذا العالم، وبها كان يعلم ويعرف ويحكم ويصيب، ويجد لذة اللذيدة من ناحية العقل والجس، وبها كان يتمنى البقاء

والدَّوامَ والخُلُودَ، وإنَّما استحال ذلك التَّمَيُّ من أَجْلِ كَوْنِهِ وَقَسَادِهِ اللَّذَيْنِ لَمْ يَكُنْ بُدٌّ مِنْ انْتِهائيهما إِلَى الْفَنَاءِ الَّذِي هُوَ مُفَارَقَةُ النَّفْسِ الْجَسَدِ وَتَخْلِيَّتُهَا لِلْبَدَنِ، وَنِسْبَةُ نَفْسِ الْإِنْسَانِ إِلَى الْإِنْسَانِ أَوْكَدَ وَالصَّقُّ مِنْ نِسْبَةِ الْعَيْنِ إِلَيْهِ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ بِالنَّفْسِ إِنْسَانٌ، وَبِالْبَدَنِ حَافِظٌ لَشَكْلِ الْإِنْسَانِ؛ فَإِذَا كَانَ لِلْإِنْسَانِ فِي هَذَا التَّمَثِيلِ فَائِدَةٌ مَتَمَّنَّةٌ، وَحَالَةٌ مَحْبُوبَةٌ هَنِيئَةٌ، أَعْنِي فِي بَقَاءِ الْعَيْنِ وَالْأُذُنِ حَتَّى يُنْصَرَّ بِإِخْدَاهُمَا هَذَا الْعَالَمَ الْمَحْشُوءَ بِالْآفَاتِ، وَيَسْمَعَ بِالْآخِرَى مَا يَجْرِي فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الاستِحَالَاتِ، فَبِالْحَرِيِّ أَنْ يَكُونَ رِضَاهُ بِبَقَاءِ النَّفْسِ فِي مَحَلِّ الرُّوحِ وَالْأَمْنِ، وَمَقَامِ الْكِرَامَةِ وَالسَّكِينَةِ عَلَى حَالِ الْخُلُودِ وَالطَّمَأْنِينَةِ، إِنَّ هَذَا لَعَجِيبٌ؛ وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا الْعَجِيبِ عَقْلٌ لَا يَغْلُقُ بِهِ، وَرُوحٌ لَا يَهْشُ لِسَمَاعِهِ، وَنَفْسٌ لَا تَجِدُ حَلَاوَتَهُ، وَصَدْرٌ لَا يَتَصَدَّعُ طَرَباً عَلَيْهِ، وَالتَّيَاحَا إِلَى اللَّهِ، فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَشْعُرْ بِهَذِهِ الْفَائِدَةِ، وَلَمْ يَحْمَدِ اللَّهَ عَلَى هَذِهِ النُّعْمَةِ، لِعَازَبِ الرَّأْيِ، ضَعِيفُ الْعَقْلِ، خَفِيفُ الْمِثْقَالِ، رَدِيءُ الْاِخْتِيَارِ، قَلِيلُ الْحَصَافَةِ، سَيِّئُ النَّظَرِ، حَيَوَانٌ خَسِيسٌ، فِي مَسْكِ إِنْسَانٍ رَئِيسٍ؛ فَقَدْ بَانَ - عَلَى مَذْهَبِ التَّقْرِيبِ - مَا الْمَعَادُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ، وَمَا الْإِنْسَانُ مِنْهُ، وَمَا لِنَفْسِهِ بِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْأَنْفُسِ، أَيِ نَفْسِ زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ وَخَالِدٍ، وَمَا الْفَرْقُ أَيْضاً بَيْنَ أَنْفُسِ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ. فَإِنَّمَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذِهِ الْأَنْفُسِ بِقَدْرِ قَسْطِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِنْهَا، وَهَذِهِ الْأَقْسَاطُ إِذَا اجْتَمَعَتْ تَفَاوَتْ، وَإِذَا تَفَاوَتْ كَانَتْ مِنْهَا نَفْسٌ بَاقِيَةٌ حَيَّةٌ، وَنَفْسٌ فَانِيَةٌ مَيِّتَةٌ، أَلَا تَرَى الشَّمْسَ كَيْفَ تَطْلُعُ عَلَى هَذِهِ الْمَوَاضِعِ الْمُخْتَلِفَةِ بِالْعُلُوِّ وَالسُّفْلِ، وَبِالتَّغْرِيجِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَالْأَشْكَالِ الْكَثِيرَةِ، فَيَقُولُ كُلُّ إِنْسَانٍ: مَشْرِقَتِي أَطْيَبُ مِنْ مَشْرِقَةِ فُلَانٍ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا الْكَلَامِ، وَطُلُوعُ الشَّمْسِ عَلَى جَمِيعِهَا طُلُوعٌ وَاحِدٌ، وَلَكِنْ حُظُوظُ الْبِقَاعِ مِنْهَا مُخْتَلِفَةٌ؛ فَلَيْسَ بِمُنْكَرٍ أَنْ تَكُونَ نَفْسُ زَيْدٍ أُنَجَّى مِنَ الْكَدَرِ، وَأَخْلَصَ مِنَ الْآفَةِ، وَأَوْصَلَ إِلَى السَّعَادَةِ؛ وَنَفْسُ بَكْرٍ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ، وَمَرَاتِبُ هَذِهِ الْأَنْفُسِ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الْإِضَافَاتِ الْحَاصِلَةِ لَهَا بِأَصْحَابِهَا، وَالْأَنْصِبَاءِ الْمَذْخُورَةِ لَهَا بِكَتْسَابِهَا.

فَأَمَّا أَنْفُسُ أَصْنَافِ الْحَيَوَانِ كَالْفَرَسِ وَالْجِمَارِ فَإِنَّهَا أَنْفُسٌ نَاقِصَةٌ غَيْرُ كَامِلَةٍ، وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، لِأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ إِلَّا الْإِحْسَاسَ وَالْحَرَكَاتِ، لَمْ يَشَعْ فِيهَا نُورُ النَّفْسِ الشَّرِيفَةِ، وَلَمْ يَنْبُتْ فِيهَا شُعَاعُ الْعَقْلِ الْكَرِيمِ؛ فَوَجَبَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ أَنْ تَكُونَ تَابِعَةٌ لِأَبْدَانِهَا، جَارِيَةٌ عَلَى قَسَادِهَا وَبُطْلَانِهَا، لِأَنَّ الْحِكْمَةَ انْتَهَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحَدِّ فِي كَوْنِهَا حَشْوَاً لِهَذَا الْعَالَمِ وَزِينَةً وَمَنَافِعَ وَمَبَالِغَ إِلَى غَايَاتٍ وَأَعْرَاضٍ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: وَهَلِ الْمَلَكُ حَيَوَانٌ؟ فَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّهُ يَقَالُ لَهُ حَيٌّ، وَهَذَا وَقَفَّ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْجَارِيَةِ، وَالْعَادَاتِ الْقَائِمَةِ، وَكَأَنَّ الْحَيَوَانَ إِنَّمَا شَاعَ فِي غَيْرِ الْمَلَكِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْحَسِّ وَالْحَرَكَةِ وَالِاهْتِدَاءِ وَالتَّصَرُّفِ عَلَى مَا لَاقَ بِجِنْسِهِ وَنَوْعِهِ وَشَخْصِهِ؛ فَأَمَّا مَا يَغْلُو

وَيُنَزَّهُ عَنْ الصِّفَاتِ فَلَمْ يُطْلَقْ عَلَيْهِ حَيَوَانٌ، وَلَكِنْ يُقَالُ: حَيٌّ لِأَنَّهُ أَقْرَبُ الْأَسْمَاءِ إِلَى الْمَعْنَى الْمُشَارِ إِلَيْهِ، وَبِهَذَا التَّقْرِيبِ قِيلَ أَيْضاً لِلَّهِ: إِنَّهُ حَيٌّ، وَأَنْتَ إِذَا حَدَدْتَ الْحَيَّ أَوْ الْحَيَاةَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَى أَنْ تَصِفَ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ. . . وَفِي الْجُمْلَةِ كُلُّ مَا كَانَ أَذْخَلَ فِي الْبَسَاطَةِ كَانَ أَخْرَجَ مِنَ التَّرْكِيبِ، وَكُلُّ مَا كَانَ أَخْرَجَ مِنَ الْبَسَاطَةِ كَانَ أَذْخَلَ فِي التَّرْكِيبِ.

فَأَمَّا الْمُرَكَّبُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنَ الْبَسِيطِ إِلَّا النَّصِيبُ النَّزَرُ، وَإِلَّا طَيَّفَ الْخَيَالَ، فَاسْمُهُ وَاضِحٌ وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهِ سَهْلَةٌ، وَالْعِيَانُ لَهُ مُدْرِكٌ، لِأَنَّهُ مُحَاطٌ بِحُدُودِهِ فِي طَوْلِهِ وَعَرْضِهِ وَعُمُقِهِ.

وَأَمَّا الْمُرَكَّبُ الْبَسِيطُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مِنَ التَّرْكِيبِ إِلَّا النَّصِيبُ الْيَسِيرُ، فَاسْمُهُ غَامِضٌ، وَالْإِشَارَةُ إِلَيْهِ عَسِيرَةٌ، وَالْعِيَانُ عَنْهُ مَكْفُوفٌ؛ وَهَذَا بَابٌ إِذَا حُفِظَ فَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ كَثِيرٌ مِمَّا يَقَعُ فِيهِ الْغَلَطُ مِنَ الْإِنْسَانِ بِفِكْرِهِ الرَّدِيِّ؛ وَيَنْتَفِعُ أَيْضاً نَفْعاً يَبِينُ فِي التَّغَالُطِ الْعَارِضِ بَيْنَ الْمُتَنَاطِرِينَ عَلَى جِهَةِ التَّنَافُسِ وَالتَّنَاصُفِ.

قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ: مَنْ حَرَسَ هَذَا الثُّغْرَ آمِنَ مِنْ جَمِيعِ الْأَعْدَاءِ، وَمَنْ أَهْمَلَهُ كَانَتْ جِنَايَتُهُ عَلَى نَفْسِهِ بِيَدِهِ أَعْظَمَ مِنْ جِنَايَةِ عَدُوِّهِ الثَّائِرِ مِنْ ثُغْرِهِ.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: عَلَى أَيِّ وَجْهِ يُقَالُ لِلَّهِ حَيٌّ وَالْمَلَكِ حَيٌّ وَالْفَرَسِ حَيٌّ؟ فَقَدْ دَخَلَ الْجَوَابُ عَنْهُ فِي ضِمْنِ مَا تَشَقَّقُ الْقَوْلُ بِهِ، وَتَحَقَّقَ الْمَعْنَى عَلَيْهِ فِي حَدِيثِ الْمُرَكَّبِ وَالْبَسِيطِ؛ وَتَزِيدُ هَاهُنَا حَرْفًا يَكُونُ رَدِيفًا لِمَا تَقَدَّمَ، فنقول: أَمَّا الْإِنْسَانُ فَإِنَّهُ يُقَالُ لَهُ: حَيٌّ، بِسَبَبِ الْجِسِّ وَالْحَرَكَةِ وَمَا يَتَّبَعُهُمَا مَا هُوَ كَمَالُ الْحَيِّ، وَكَذَلِكَ الْفَرَسُ وَمَا أَشْبَهَهُ. وَأَمَّا الْمَلَكُ فَلَمَّا كَانَ مَا يَسْتَحِقُّهُ بَسَاطَتُهُ مَعْدُومًا عِنْدَنَا، لَمْ تَقْدِرْ عَلَى شَيْءٍ نَصِفُهُ بِهِ إِلَّا مَا نَصِفُ بِهِ أَنْفُسَنَا بَيْنَنَا، وَلَوْ كُنَّا فِي عَالَمِ الْمَلِكِ لَعَلَّنَا كُنَّا نَذَرِي بِأَيِّ شَيْءٍ يَنْبَغِي أَنْ يُنْعَتَ وَيُسَمَّى وَيُذَكَّرَ وَيُحْكَى، فَإِنْ مَنْ كَانَ مِنَّْا فِي بِلَادِ الصِّينِ فَإِنَّهُ يُسَمَّى الْإِنْسَانُ وَالْفَرَسُ وَالْحِمَارُ وَالْبَقَرُ بِهَا يَتَعَالَمُ أَهْلُهَا بَيْنَهُمْ، وَإِذَا كَانَ هَذَا مُعْزِزًا عَلَى مَا تَرَى فِي الْمَلِكِ، أَغْنَى تَسْمِيَتَهُ الْحَيِّ، وَنَعْتَهُ بِالْحَيَاةِ، فَاللَّهُ الَّذِي لَا سَبِيلَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُذَرِّكَ أَوْ يُحِيطَ بِهِ أَوْ يَجِدَهُ وَجَدَانًا أَوْ لَى وَأُخْرَى أَنْ يُمَسِّكَ عَنْهُ عَجْزًا وَاسْتِخْدَاءً، وَتَضَاوُلًا وَاسْتِغْفَاءً، إِلَّا بِمَا وَقَعَ الْإِذْنُ بِهِ مِنْ جِهَةِ صَاحِبِ الدِّينِ الَّذِي هُوَ مَالِكُ أَرْمَةِ الْعُقُولِ وَمُرْشِدُهَا إِلَى السَّعَادَاتِ، وَوَاقِفُهَا عِنْدَ الْحُدُودِ، وَزَاجِرُهَا عَنِ التَّخْطِئِ إِلَى مَا لَا يَجُوزُ. فَعَلَى هَذَا قَدْ وَضَحَ أَنَّ الصَّمْتَ فِي هَذَا الْمَكَانِ أَعُوذُ عَلَى صَاحِبِهِ مِنَ الثُّطُقِ، لِأَنَّ الصَّمْتَ عَنِ الْمَجْهُولِ أَنْفَعُ مِنَ الْجَهْلِ بِالْمَعْلُومِ، وَالتَّظَاهَرُ بِالْعَجْزِ فِي مَوْضِعِهِ كَالِاسْتِطَالَةِ بِالْقُدْرَةِ فِي مَوْضِعِهَا، وَلَيْسَ لِلْخَلْقِ مِنْ هَذَا الْوَاحِدِ الْأَحَدِ إِلَّا الْإِنِّيَّةُ وَالْهُوِيَّةُ، فَأَمَّا كَيْفَ وَلِمَ هُوَ فَإِنَّهَا طَائِرٌ فِي الرِّيَّاحِ كَمَا تَسْمَعُ وَتَرَى.

ولما حَرَزْتُ هذه الجُمْلَةَ وَحَمَلْتُهَا إِلَى الْوَزِيرِ وَقَرَأْتُهَا عَلَيْهِ قَالَ لِي : هَذَا وَاللَّهِ جُهْدُ الْمُقِلِّ ، وَفِي غَلِيلِي بَقِيَّةٌ مِنَ اللَّهَبِ .

قُلْتُ : أَيُّهَا الْوَزِيرُ ، قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ : سَنَقُولُ لَكَ كَلَاماً لَا يَكُونُ فِيهِ كُلُّ الرِّضَا ، فَقُلْ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ : إِنَّكَ سَأَلْتَ عَنِ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ ، فَلَا طَاقَةَ لِأَحَدٍ أَنْ يَغْرِضَ عَلَيْكَ الْعَالَمَ بِأَسْرِهِ ، وَلَوْلَا عَجَلَةُ رَسُولِكَ فِي الْمُطَالَبَةِ ، وَإِذْلَالُهُ بِالْإِلْحَاحِ ، وَقَوْلُهُ : الْمُرَادُ التَّقْرِيبُ وَالْإِيْجَازُ ، لَا التَّطْوِيلُ وَالْإِسْهَابُ ، لَكَانَ النَّسْجُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْمِنْوَالِ ، وَالْعَمَلُ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَشْيِ .

قَالَ : وَمِنَ الْمَعَالِمِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا نَاضِرٌ ، وَلَا بِهَا خَابِرٌ ، أَنَّ السَّائِلَ يَحْضُرُ عَلَى التَّلْخِيصِ الْمَفْهُومِ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ يَزِيدُ الشَّيْءَ إِغْلَاقاً ، فَإِذَا امْتَثِلَ مَا يَرْسُمُ قَالَ : مَا شَفَانِي الْقَوْلُ ؛ وَإِنْ زِيدَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ : غَرِقَ الْمُرَادُ فِي حَوَاشِي التَّكْثِيرِ ؛ فَلَيْسَ لِلْعَالِمِ تَخْلُصٌ مِنْ اسْتِزَادَةِ الْمُتَعَلِّمِ ، وَلَا عِنْدَ الْمُتَعَلِّمِ شُكْرٌ عَلَى مَبْدُولِ جُهْدِ الْعَالِمِ ، وَهَذَا أَمْرٌ قَدْ تَقَدَّمَتِ الاسْتِغَاثَةُ مِنْهُ عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ ، وَالْأَوَّلَى فِيمَا لَا حِيلَةَ فِيهِ الرِّضَا بِالْمَيْسُورِ مِنْهُ .

ثُمَّ قَالَ : وَإِنْ أَطَالَ اللَّهُ أَيَّامَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ ، وَحَرَسَ عَلَى هَذِهِ الْجَمَاعَةِ الْقَلِيلَةَ النُّعْمَةَ ، اسْتَأْنَفْنَا نَظْراً أَبْلَغَ مِنْ هَذَا النَّظَرِ ، بَبَيَانِ أَشْفَى مِنْ هَذَا الْبَيَانِ ، وَطَرِيقِ أَوْضَحَ مِنْ هَذَا الطَّرِيقِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

قَالَ الْوَزِيرُ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ قَوْلِي ذَاكَ ، لِأَنَّ هَذَا الْكَلَامَ سَهْلٌ ، وَهَذَا الْمُتَنَاوَلُ قَرِيبٌ ، وَهَذَا الْمَرْمَى كَثَبٌ ، كَلَّأً ، وَإِنِّي لِأُظُنُّ بَلَّ أَحَقُّ أَنَّهُ لَيْسَ فِي بَضَائِعِ أَصْحَابِنَا الَّذِينَ حَوْلِي مَنْ يُدْرِكُ هَذِهِ الْمَعَانِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ إِذَا قُرِئَتْ عَلَيْهِ ، فَكَيْفَ مَنْ يُفْزَعُ فِي شَرْحِهَا وَتَهْذِيبِهَا إِلَيْهِ .

ثُمَّ تَمَطَّى وَقَالَ : وَانْعَاسَاهُ ، وَاضْغَفَ مُتَتَّاهٍ ؛ ثُمَّ فَارَقْتُ الْمَجْلِسَ .

الليلة السادسة والثلاثون

وقال - دامت أيامه - : كيف تقول عند مهل الشهر شيئاً آخر من لفظه؟
فكان من الجواب: حكى العالم: عند هلول الشهر ومُسْتَهْلَه وهِلْه وإِهْلَالِه واستِهْلَالِه.

قال: ورأيت الحاتمي يقول: عشر كلمات جاءت وعينها عينٌ ولأمها واوٌ، ولم أوثر شرخه لها ليقل روجه، ومغالاته بنفسه، وكأنه لا علم إلا عنده، ولا فائدة إلا هي معه، فهل في حفظك هذه الكلمات؟

قلت: لا إله إلا الله، اليوم ذكر الأندلسي هذه الكلمات وعدّها، وقد حفظتها، فقال: هات يا مبارك؛ فكان الجواب: منها البَعُو، وهو الجناية، والجَعُو، وهو الطين، والدَّعُو، مَصْدَرُ دَعَا دَعَواً، والسَّعُو: السَّمْع، والشَّعُو: هو انتفاش الشعر، والصَّعُو: الرجل الضعيف، وهو أيضاً طائر أصغر من العصفور، والقَعُو: من البكرة، واللَّعُو: الحريص. والدَّثْبُ في بَعْضِ اللُّغَاتِ، والمَعُو: الجني من الرطب، والنَّعُو: الشَّقُّ في مشقِّ البعير.

قال: هذا حسن، لو أتى به الحاتمي لملوي شدقه، وقال: تَنَحَّ فقد جاء الأسد وغلب الطوفان وخرَج الدَّجَال وطلعت الشمس من المغرب، ما بال أصحابنا تغتريهم هذه الخيلاء، ويغلب عليهم التقص، ويستمكن منهم الشيطان.

قلت: قال أبو سليمان: كل من غلب عليه حفظ اللفظ وتصريفه وأمثله وأشكاله بعد من معاني اللفظ؛ والمعاني صوغ العقل، واللفظ صوغ اللسان، ومن بعد من المعاني قل نصيبه من العقل، ومن قل نصيبه من العقل كثير نصيبه من الحمق، ومن كثير نصيبه من الحمق خفي عليه فُبح الذكر.

الليلة السابعة والثلاثون

وقال الوزير ليلة: ما أحوَجَ الجَبَانِ إلى أَنْ يَسْمَعَ أَحَادِيثَ الشُّجْعَانِ! وما أَشَدَّ انتِفَاعَ الضَّيِّقِ النَّفْسِ باستماع أخبار الكِرامِ، لأنَّ الأخلاقَ في الخَلْقِ أغراضُ، والأعراضُ منها لازمٌ ومنها لاصِقٌ.

قال: وكان عيسى بن زُرْعَةَ سرَدَ عليَّ سَنَةَ سَبْعِينَ، لياليَ كَانَتْ الأشغالَ خفيفةً، والسياسةَ بالماضي - نَوَّرَ اللَّهُ قَبْرَهُ وَضَرِيحَهُ - عامَّةً، والنَّظَرُ بالحُسْنَى، شامِلاً - أَشْيَاءَ فِي الخَلْقِ أَتَى بِهَا عَلَى عَمُودٍ مَا كَانَ فِي نَفْسِي، وَذَلِكَ أَنَّهُ ذَكَرَ العَقْلَ والحُكْمَ، والعِلْمَ والجَهْلَ، والجِلْمَ والسُّخْفَ، والقَنَاعَةَ والشَّرَّهَ، والحيَاءَ والقِيحَةَ، والرَّحْمَةَ والقَسْوَةَ، والأَمَانَةَ والخِيَانَةَ، والتَّيَقُّظَ والعَفْلَةَ، والثَّقَى والفُجُورَ، والجُرْأَةَ والجُبْنَ، والتَّوَاضُعَ والكِبَرَ، والوَفَاءَ والعَدْرَ، والنَّصِيحَةَ والغِيثَ، والصَّدْقَ والكَذِبَ، والسَّخَاءَ والبُخْلَ، والأَنَاءَ والبَطْشَ، والعَدَلَ والجَوْرَ، والنَّسَاطَ والكَسَلَ، والشُّسْكَ والفَتْكَ، والجَفْدَ والصَّفْحَ، وَيَنْبَغِي أَنْ تَزُورَ عَيْسَى وَتَذْكُرَ لَهُ هَذِهِ الْجُمْلَةَ، وَتَبْنِيَهُ عَلَى إِعَادَةِ حُدُودِهَا، وَإِشْبَاعِ الْقَوْلِ فِيهَا، مَعَ إِيجَازٍ لَا يَكُونُ بِهِ مَدْخَلٌ لِلْخَلَلِ، وَلَا تَقْصِيرٌ عَنِ إِصَالِ الْآخِرِ بِالْأَوَّلِ.

فَلَقِيتُ عَيْسَى وَعَرَفْتُهُ الْحَدِيثَ، وَأَمْلَى مَا رَسَمْتُهُ فِي هَذَا الْجُزْءِ، وَعَرَضْتُهُ عَلَى أَبِي سَلِيمَانَ، فَرَضِيهِ بَعْضَ الرِّضَا، وَلَمْ يَنْسَخْ كُلَّ الشُّخْطِ، وَقَالَ: تَحْدِيدُ الْأَخْلَاقِ لَا يَصِحُّ إِلَّا بِضَرْبٍ مِنَ التَّجَوُّزِ وَالتَّسَمُّحِ، وَذَلِكَ أَنَّهَا مُتَلَابِسَةٌ تَلَابُسًا، وَمُتَدَاخِلَةٌ تَدَاخُلًا، وَالشَّيْءُ لَا يَتَمَيَّزُ عَنْ غَيْرِهِ إِلَّا بِبَيِّنَوْنَةٍ وَاقِعَةٍ تَظْهَرُ لِلْحَسِّ اللَّطِيفِ، أَوْ تَتَضَيَّحُ لِلْعَقْلِ الشَّرِيفِ.

ثُمَّ قَالَ: أَلَا تَرَى أَنَّ الْفِكْرَ مَشُوبٌ بِالرَّوِيَّةِ، وَالظَّنَّ مَخْلُوطٌ بِالْوَهْمِ، وَالدُّكْرَ مَعْنِيًى بِالتَّخِيلِ، وَالبَدِيهَةَ جَانِحَةً إِلَى الْحِسِّ، وَالاسْتِنْبَاطَ مَوْصُوفٌ بِالْعَوْصِ، وَمَا هَذَا الْمَعْنَى الَّذِي مَيَّزَ التَّوَاضُعَ مِنْ شُوبِ الضَّعَةِ، أَوْ خَلَصَ عُلوُّ الْهِمَّةِ مِنْ شُوبِ الْكِبَرِ، أَوْ فَرَزَ عِزَّةَ النَّفْسِ مِنْ نَقْصِ الْعُجْبِ، أَوْ أَبَانَ الْجِلْمَ عَنْ بَغْضِ الضَّعْفِ؟! هَذَا بِالْقَوْلِ رُبَّمَا سَهْلٌ وَانْقَادٌ، وَلَكِنْ بِالْعَقْلِ رُبَّمَا عَزٌّ وَاعْتِصَافٌ، وَالْأَخْلَاقُ وَالْخِلْقُ مُخْتَلِطَةٌ، فَمِنْهَا مَا اخْتَلَطَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ، وَمِنْهَا مَا اخْتَلَطَ ضَعِيفٌ سَهْلٌ، وَمِنْهَا مَا اخْتَلَطَ نَصَفٌ بَيْنَ اللَّيْنِ وَالشَّدَّةِ، وَهَذِهِ يَنْفَعُ الْعِلَاجُ فِي بَعْضِهَا، وَيَنْبُو الْعِلَاجُ عَنْ بَعْضِهَا؛ وَالْحَزْمُ يَقْضِي بَالًا يَتَهَاوَنَ بِمَا يَقْبَلُ الْعِلَاجُ لِأَجْلِ مَا لَا يَقْبَلُ الْعِلَاجَ.

قال: وهذا أيضاً يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْمِزَاجِ وَالْمِزَاجِ، وَالْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَوْ رُمْتَ تَحْوِيلَ الْبَخِيلِ مِنَ الْعَرَبِ إِلَى الْجُودِ كَانَ أَسْهَلَ عَلَيْكَ مِنْ تَحْوِيلِ الْبَخِيلِ مِنَ الرُّومِ إِلَى الْجُودِ، وَالطَّمَعِ فِي جَبَانِ الثُّرُكِ أَنْ يَتَحَوَّلَ شُجَاعاً أَقْوَى مِنَ الطَّمَعِ فِي جَبَانِ الْكُرْدِ أَنْ يَصِيرَ بَطْلاً.

قال: ومع هذا فَوَضَّفُ الْأَخْلَاقِ بِالْحُدُودِ - وَإِنْ كَانَ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ - نَافِعٌ جِداً، وَإِضْمَارُهَا فِي النَّفْسِ مُثْمِرٌ أَبَداً، فَهَذَا هَذَا.

وَأَمَّا مَا قَالَ أَبُو عَلِيٍّ فَإِنَّهُ هَذَا.

قيل: ما الحلم؟ قال: ضَبْطُ الْفِكْرِ بِكَفِّ الْغَضَبِ.

وقال شيخنا أَبُو سَعِيدٍ السَّيْرَافِيُّ: اعْتَبَارُهُ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَسْمِ تَغْطِيلُ لِبَطْنِهِ وَذَلِكَ أَنَّ الْحِلْمَ شَرِيكَ التَّحَلُّمِ، «فَكَانَ الْحَلِيمُ الَّذِي يُعَدُّ فِيمَنْ يَحْلُمُ» فِي غُرُضِ الْحَلِيمِ الَّذِي لَا يُعَاجُ عَلَيْهِ وَلَا يُكْتَرِثُ لَهُ. قال: وَالتَّحَلُّمُ نَافِعٌ أَيْضاً، وَهُوَ أَحْمَدُ مِنَ التَّحَالُمِ، لِأَنَّ الثَّانِي أَقْرَبُ إِلَى الثَّانِي، كَمَا أَنَّ الْأَوَّلَ أَقْرَبُ إِلَى الْحَقِيقَةِ.

وقيل لعيسى: ما الْعَدْلُ؟ فَقَالَ: الْقِسْطُ الْقَائِمُ عَلَى التَّسَاوِي.

وَحَكَى جَالِينُوسُ قَالَ: إِنْ النَّاسَ لَشِدَّةٌ حُبِّهِمْ لَأَنْفُسِهِمْ يَظُنُّونَ أَنَّ لَهُمْ مَا يُحِبُّونَ، فَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ وَقَعُوا فِي الْعُجْبِ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ مَحَبَّتُكَ لِنَفْسِكَ حَقِيقَةً، وَيَتِمُّ ذَلِكَ لَكَ إِذَا أَنْتَ صَبَرْتَ نَفْسَكَ عَلَى الْحَالِ الَّتِي يَرَى مِنْ يَرَى أَنَّكَ عَلَيْهَا.

وقال: الْمُعْجَبُ يُحِبُّ نَفْسَهُ أَكْثَرَ مِمَّا يَحِقُّ لَهَا؛ وَمَا أَحْسَنَ بِالْإِنْسَانِ أَنْ يُحِبَّ نَفْسَهُ، وَلَكِنْ بِالْعَدْلِ، فَإِنْ أَرَادَ أَنْ يُحِبَّهَا جِداً فَيَجِبُ أَنْ يَجْعَلَهَا مِنْ أَهْلِ الْمَحَبَّةِ، ثُمَّ يُحِبُّهَا مِنْ بَعْدِ.

قيل: فَمَا الْحَسَدُ؟ قَالَ: شِدَّةُ الْأَسَى عَلَى شَيْءٍ يَكُونُ لغيرِهِ.

قيل: فَمَا الْكَآبَةُ؟ قَالَ: إِفْرَاطُ الْحُزَنِ.

قال أَبُو سَلِيمَانَ: الْحُزْنُ وَالْغَمُّ وَالْهَمُّ وَالْأَسَى وَالْجَزَعُ وَالْخَوَرُ مِنْ شَجَرَةٍ وَاحِدَةٍ، وَمَنْ تَعَاطَى وَصَفَ أَغْصَانِ شَجَرَةٍ طَالَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَخْطُ بِطَائِلٍ، وَيَكْفِي أَنْ نَعْرِفَ شَجَرَةَ التُّفَّاحِ مِنْ شَجَرَةِ الْمُشْمُسِ، وَشَجَرَةَ الْكُمَثَرِيِّ مِنْ شَجَرَةِ السَّفَرَجَلِ؛ فَإِنْ عَوَاقِبَ الْمَعَارِفِ نَكَرَاتٍ، كَمَا أَنَّ فَوَاتِحَ الْمَعَارِفِ جَهَالَاتٍ.

قيل: فَمَا الشَّجَاعَةُ؟ قَالَ: الْإِقْدَامُ فِي مَوْضِعِ الْفُرْصَةِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمُورِ.

قال أَبُو سَلِيمَانَ: الشَّجَاعَةُ إِذَا كَانَتْ نُطْقِيَّةً كَانَتْ فُرْصَتُهَا تَعَاطِي الْحِكْمَةِ وَالِدُؤُوبَ فِي بُلُوغِ الْغَايَةِ، وَبَذَلَ الْقُوَّةَ فِي تَيْلِ الْبَغْيَةِ؛ وَإِذَا كَانَتْ غَضَبِيَّةً كَانَتْ فُرْصَتُهَا شِفَاءَ الْغَيْظِ إِمَّا مِنْ مُسْتَحَقٍّ، وَإِمَّا مِنْ غَيْرِ مُسْتَحَقٍّ، وَإِذَا كَانَتْ شَهْوِيَّةً كَانَتْ فُرْصَتُهَا التَّحَلِّيَ بِالْعَقَّةِ التَّامَّةِ، أَعْنِي فِي الْخُلُوةِ وَالْحَفْلِ.

قال لَنَا أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى الرُّمَانِيُّ الشَّيْخُ الصَّالِحُ: الْعَقَّةُ وَاسِطَةٌ بَيْنَ الْمُقَارَفَةِ وَالْعِصْمَةِ، وَالْعِصْمَةُ وَاسِطَةٌ بَيْنَ الْبَشَرِيَّةِ وَالْمَلَكِيَّةِ.

وَحَكَى عِيسَى بْنُ زُرْعَةَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ - عِنْدَ تَدَافُعِ الْحَدِيثِ - أَنَّ أُمُورَسَ قَالَ: إِنِّي لِأَعْجَبُ مِنْ نَاسٍ يَقُولُونَ: كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ النَّاسُ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ، وَمَنْ هَاجَ وَاحِدٌ، وَهَذَا مَا لَا يَسْتَقِيمُ وَلَا يَقَعُ بِهِ نِظَامٌ.

قَالَ: وَهَبْ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَلِكًا يَأْمُرُ وَيَنْهَى وَيُسْتَمَعَ لَهُ وَيُطَاعُ، فَمَنْ كَانَ الْمَأْمُورُ الْمُؤْتَمِرُ، وَالْمَنْهَى الْمُتَنَهِّي؛ وَالْعَاقِلُ الْحَصِيفُ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بَدْءَ مِنَ التَّفَاوُتِ الَّذِي بِهِ يَكُونُ التَّصَالُحُ، كَالْعَالِمِ وَالْمُتَعَلِّمِ، وَالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ وَالصَّانِعِ وَالْمَصْنُوعِ لَهُ.

ثُمَّ قَالَ عِيسَى: مِنْ تَوَابِعِ الْأَخْلَاقِ الْمَذْمُومَةِ الْغَضَبُ وَالْكَذِبُ وَالْجَهْلُ وَالْجَوْرُ وَالذَّنَاءَةُ.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: أَمَّا الْغَضَبُ فَلَا يَكُونُ مَذْمُومًا إِلَّا إِذَا أُعْمِلَ فِي غَيْرِ أَوَانِهِ، وَعَلَى غَيْرِ مَا يَأْذُنُ النَّامُوسُ الْحَقُّ بِهِ؛ وَأَمَّا الْكَذِبُ فَبِهِ أَيْضًا مَصَالِحُ، كَمَا أَنَّ الصَّدْقَ رَبَّمَا أَفْضَى إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمَفَاسِدِ - وَإِنْ كَانَ الصَّدْقُ قَدْ فَازَ بِالْوَصْفِ الْأَحْسَنِ، وَالْكَذِبُ قَدْ وُصِفَ بِالنِّعَةِ الْأَفْبَحِ - فَكَمْ كَذِبٌ نَجَى مِنْ شَرٍّ، وَكَمْ صِدْقٌ أَوْقَعَ فِي هَوَاةٍ، وَبَقِيَ الْآنَ أَنْ نَعْرِفَ الصَّدْقَ مَعَ أَوَانِهِ وَمَكَانِهِ، فَيُؤْتَى بِهِ أَوْ يُنْهَى عَنْهُ، وَكَذَلِكَ الْكَذِبُ عَلَى حَدِّهِ وَمِثَالِهِ.

قَالَ: وَأَمَّا الْجَهْلُ وَالْجَوْرُ وَالذَّنَاءَةُ فَإِنَّهَا أَثَافِي الرِّذَائِلِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُتَّقَى مِنْهَا جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا، وَلَا يَسْلُكُ أَحَدٌ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا سَبِيلًا، فَإِنَّهَا أَعْدَامٌ؛ - هَكَذَا قَالَ -؛ وَالْعَدَمُ كَرِيهٌ وَمَهْرُوبٌ مِنْهُ، وَالْوُجُودُ عَلَى أَنْقَصِ الثُّعُوبِ أَتَمُّ وَأَشْرَفُ مِنَ الْعَدَمِ عَلَى أَزِيدِ الصِّفَاتِ، وَإِنْ كَانَ لَا زِيَادَةَ فِي الْعَدَمِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْوَهْمِ الْعَارِضِ مَا يَصِحُّ وَمَا لَا يَصِحُّ.

قِيلَ: فَمَا الْعُجْبُ؟ قَالَ: وَزَنَ النَّفْسِ بِأَكْثَرِ مِنْ مِثْقَالِهَا.

وَقَالَ أَيْضًا: الْعُجْبُ هُوَ النَّظَرُ فِي النَّفْسِ بَعَيْنٍ تَرَى الْقَبِيحَ جَمِيلًا.

وَيُقَالُ: الْمَعْجَبُ يَدَّعِي أَنَّ مَا يُعْجَبُ مِنْهُ قَدْ حَصَلَ لَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ؛ فَأَمَّا إِذَا كَانَ ذَلِكَ حَاصِلًا فَالْعُجْبُ لَيْسَ بِعُجْبٍ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْأَسْمِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ إِخْسَاسٌ بِالْفَضْلِ الْمَعْشُوقِ، وَشُعُورٌ بِالْكَمَالِ الْمُؤْمُوقِ، وَاسْتِدْعَاءٌ لِلزِّيَادَةِ مِمَّا صَارَ بِهِ هَكَذَا، وَاسْتِعْدَادٌ لِقَبُولِ الْفَيْضِ مِنْ مَعْدِنِهِ بِالِاخْتِيَارِ الثَّانِي وَالِاعْتِيَادِ الْأَوَّلِ.

قِيلَ: فَمَا الْوَفَاءُ؟ قَالَ: قَضَاءُ حَقٍّ وَاجِبٍ، وَإِيجَابُ حَقٍّ غَيْرِ وَاجِبٍ، مَعَ رِقَّةٍ أُنْسِيَّةٍ، وَحَفِظَةٍ مَرْعِيَّةٍ.

قِيلَ: فَمَا الرَّغْبَةُ؟ قَالَ: حَرَكَةٌ تَكُونُ مِنْ شَهْوَةٍ يُرْجَى بِهَا مَنَفَعَةٌ.

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ: الرَّغْبَةُ إِذَا كَانَتْ نُطْقِيَّةً كَانَتْ مَبْعَثَةً عَلَى التَّحَلِّيِ بِالْفَضَائِلِ، وَإِذَا كَانَتْ سَبْعِيَّةً أَوْ بَهِيمِيَّةً كَانَتْ مُلْهِجَةً بِمُوَاقَعَةٍ أَضْدَادِهَا مِنَ الرِّذَائِلِ.

وقيل: ما المِهْنَةُ؟ فقال: حركةٌ يَتَعَاظَهَا الإنسانُ بلا حَفْزٍ ولا اسْتِكْرَاهٍ. قال عليُّ بنُ عيسى: المِهْنَةُ صِنَاعَةٌ، ولكنها إلى الذَّلِّ أقرب، وفي الضَّعَةِ أدخل، والصناعة مِهْنَةٌ، ولكنها تَرْتَفِعُ عن تَوَابِعِ المِهْنَةِ، وفي الصَّنَاعَاتِ ما يَتَّصِلُ بِهِ الذَّلُّ أيضاً، ولكن ذُلٌّ ليس من جهةِ حَقِيقَةِ الصَّنَاعَةِ؛ ولكن مِنْ جِهَةِ العَرَضِ الذي بين الصَّنَاعَةِ والصناعة، والمرتبة والمرتبة.

قيل: فما العادة؟ قال: حالٌ يأخذُ بها المرءُ نفسه من غَيْرِ أَنْ تَكُونَ مَسْنُونَةً يَجْرِي عليها مَجْرَى ما هو مَأْلُوفٌ طَبِيعِيٌّ.

قال أبو سليمان: كأنَّ هذا الاسمَ ليس يَخْلُصُ إِلَّا لِمَنْ أَتَى شَيْئاً مِرَاراً، فأما في أوَّلِ ذلكَ فليسَ له هذا النعت، وإنَّما يَصِيرُ مَأْلُوفاً بالتكرار، ولهذا ما صِيغَتِ الكلمةُ مِنْ عادَ يَعُودُ واعتادَ يَغْتَادُ.

وأما قوله: طَبِيعِيٌّ، فعَلَى وَجْهِ التَّشْبِيهِ، لأنَّ الطَّبِيعِيَّ أَشَدُّ رُسُوحاً وَأَثْبَتَ عِرْقاً، وَأَبْعَدُ مِنَ الانْتِفَاضِ؛ فأما العادةُ فكلُّ ذلكَ جائزٌ عليها، وغيرُ مَأْمُونٍ مِنَ الوُقُوعِ فيه.

قيل: كم الحركات؟ قال: ستَّةُ أصنافٍ، أولُها حركةُ الانتقال، وهي ضَرْبان: إمَّا حَرَكَةُ الجِسْمِ بَكُلِّهِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ، وإمَّا حَرَكَتُهُ بِأَجْزَائِهِ كَالْفَلَكَ وَالرَّحَى، والثاني حَرَكَةُ الكَوْنِ، والثالث حَرَكَةُ الفَسَادِ، والرابع حَرَكَةُ الرُّبُوبِ، والخامس حَرَكَةُ النِّقْضِ والبَلَى، والسادس حَرَكَةُ الاستِحَالَةِ، وهي ضَرْبان: أمَّا فِي الجِسْمِ فَمِثْلُ اللَّوْنِ، وأمَّا فِي النَّفْسِ فَمِثْلُ الغَضَبِ والرِّضَا، والعِلْمِ والجَهْلِ.

والثَّقَلَةُ مَكَانِيَّةٌ، والكَوْنُ والفَسَادُ جَوْهَرِيَّانِ، والاستِحَالَةُ هَيْئِيَّةٌ، والنَّمُوُّ والاضْمِحْلالُ مَكَانِيَّانِ.

قال الكِنْدِيُّ: وهاتان حَرَكَتَانِ أُخْرَى، وهي حَرَكَةُ الإِبْدَاعِ، إِلَّا أَنْ يَنْتَهَا وَبَيْنَ حَرَكَةِ الكَوْنِ فَرْقاً، لِأَنَّ هَذِهِ لَا مِنْ مَوْضِعٍ، وحركة الكَوْنِ مِنْ فسادِ جَوْهَرٍ قَبْلَهُ بِحُدُوثِهِ، وَلِذَلِكَ قِيلَ: إِنَّ الكَوْنَ خُرُوجٌ مِنْ حَالٍ خَاسِيَةٍ إِلَى حَالٍ نَفِيسَةٍ.

قال أبو سليمان: حَرَكَةُ الإِبْدَاعِ عِبَارَةٌ بِسَيِّطَةٍ لَا يَجِبُ أَنْ يُفْهَمَ مِنْهَا مَعْنَى مُرَكَّبٍ. قال: وإنَّما قُلْتُ هَذَا لِأَنَّ اللَّفْظَ نَظِيرُ اللَّفْظِ فِي أَغْلَبِ الْأَمْرِ وَلَيْسَ الْمَعْنَى نَظِيرَ الْمَعْنَى فِي أَغْلَبِ الْأَمْرِ، وَاللَّفْظُ كُلُّهُ مِنْ وَادٍ وَاحِدٍ فِي التَّرَكُّبِ بِلُغَةِ كُلِّ أُمَّةٍ، وَالْمَعْنَى تَخْتَلِفُ فِي الْبَسَاطَةِ عَلَى قَدْرِ الْعَقْلِ وَالْعَقْلِ، وَالْعَاقِلِ وَالْعَاقِلِ، وَإِنَّمَا حَرَكَةُ الإِبْدَاعِ مُشَارٌ بِهَا إِلَى مَقْوَمِ الْأَشْيَاءِ بِلا كُلْفَةٍ فَاعِلٍ، وَلَا مُعَانَاةٍ صَانِعٍ، وَإِنَّهَا بَدَتْ بِالْمُبْدِعِ مِنَ الْمُبْدِعِ لِلْمُبْدِعِ لَا عَلَى أَنَّ الْبَاءَ أُلْصِقَتْ بِهِ شَيْئاً، وَلَا عَلَى أَنَّ مِنْ فَصَلَتْ مِنْهُ شَيْئاً، وَلَا عَلَى أَنَّ اللَّامَ أَضَافَتْ إِلَيْهِ شَيْئاً، فَإِنَّ هَذِهِ الْعَلَامَاتِ وَالْأَمَارَاتِ كُلَّهَا مَوْجُودَةٌ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِالْإِبْدَاعِ، فَلَمْ يَجْزُ أَنْ يُنْعَتَ بِهَا الْمُبْدِعُ، وَلَوْ جازَ هَذَا لَكَانَ

داخلاً فيها، وموجوداً بها، وهذا بعيدٌ جداً. فلما جَلَّ عن هذه الصفات بالتحقيق في الاختيار وُصِفَ بها بالاستِعَارَةَ على الاضطرار، لأنَّه لا بدَّ لنا من أن نذكرَه ونُصِفَه ونُدعوه ونُعْبِده ونُقصدَه ونَرْجُوَه ونَخَافَه ونَعْرِفَه ونَنحُوَه ونُطَلِّبُ ما عِنْدَه ونُؤَاجِهَه ونُكَافِئَه؛ وهذه نعمةٌ منه عَلَيْنَا، ولُطْفٌ منه بِنَا، وحكمةٌ بَيْنَه وَبَيْنَنَا وإلا كانت العِصْمَةُ تَنْبَتِرُ، والطَّمَعُ يَنْقَطِعُ، والأَمَلُ يَضْعُفُ، والرَّجَاءُ يَخِيبُ، والأَرْكَانُ تَتَخَلَّلُ، والذَّرَائِعُ تَرْتَفِعُ، والوَسَائِلُ تَمْتَنِعُ، والقَوَاعِدُ تَسِيحُ، والرَّغَبَاتُ تَسْقُطُ، والجود والكَرَمُ والحِكْمَةُ والقُدْرَةُ والجَبَرُوتُ والمَلَكُوتُ تَأْبَى ذلك؛ فصَارَتْ هذه الأَسْمَاءُ والصفاتُ سَلَالِمَ لَنَا إِلَيْه، لا حَقَائِقَ يَجُوزُ أَنْ يُظَنَّ بِهِ شَيْءٌ مِنْهَا، على سبيل السَّيَاحِ المَمْدُودِ والمِنْهَاجِ المَخْدُودِ.

سُقْتُ كَلَامَ عِيسَى فِي تَصْنِيفِ الحَرَكَاتِ مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الْفِقْرَةِ الَّتِي كَانَتْ مَحْفُوظَةً فِي حَرَكَةِ الإِبْدَاعِ، فَإِنِّي قَدْ وَجَدْتُ لِلْقَوْمِ فِي هَذَا الْبَابِ حَيْرَةً عَارِضَةً أَوْ رَاكِدَةً، لَا يَسْتَطِيعُونَ التَّفْصِيْلَ عَنْهَا، وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الْبَرَاءَةِ مِنْهَا، لِلضَّلَالِ الَّذِي قَدْ لَزِمَهُمْ، وَالْأَصْنَافُ الَّتِي قَدْ تَرَبَّعَتْ فِي نُفُوسِهِمْ، وَالْأَمْثِلَةُ الَّتِي قَدْ خَالَطَتْ عُقُولَهُمْ، وَالْأَفْيَاءُ الَّتِي اسْتَضْحَبُوهَا مِنْ إِحْسَاسِهِمْ؛ وَالْقَائِلُ هَذَا يَنْبَغِي أَنْ يَتَحَرَّى وَيَتَلَبَّثَ حَتَّى يَغْرَى مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَيَتَرَيَّثَ؛ فَحِينَئِذٍ أَضْمَنُ لَهُ أَنْ يَصِحَّ تَوْحِيدُهُ، وَيَتِمَّ تَجْرِيدُهُ، وَإِلَى التَّوْحِيدِ تَنْتَهِي الْفَلَسَفَةُ بِأَجْزَائِهَا الْكَثِيرَةِ، وَأَبْوَابِهَا الْمُخْتَلِفَةِ، وَطُرُقِهَا الْمُتَشَعِّبَةِ.

وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ صِنَاعَةِ لَا تُحَقِّقُ التَّوْحِيدَ وَلَا تَدَلُّ عَلَى الْوَاحِدِ وَلَا تَدْعُو إِلَى عِبَادَتِهِ، وَالاعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهِ، وَالْمَصِيرِ إِلَى كَنَفِهِ، وَالصَّبْرِ عَلَى قَضَائِهِ، وَالتَّسْلِيمِ لِأَمْرِهِ؛ وَوَجَدْتُ أَرْبَابَ هَذِهِ الصَّنَاعَاتِ، أَعْيَنِي الْهَنْدَسَةُ وَالطَّبُّ وَالْحِسَابُ وَالْمُوسِيقَى وَالْمَنْطِقُ وَالتَّنْجِيمُ مُغْرَضِينَ عَنْ تَجَشُّمِ هَذِهِ الْغَايَاتِ، بَلْ وَجَدْتُهُمْ تَارِكِينَ الْإِلْمَامَ بِهَذِهِ الْحَالَاتِ، وَهَذِهِ آفَةٌ نَسْأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ مِنْهَا، وَالْعَافِيَةَ مِنْ عَوَاقِبِهَا؛ وَالسَّلَامَ.

قِيلَ: مَا التَّمَامُ؟ قَالَ: بَلُوْغُ الشَّيْءِ الْحَدِّ الَّذِي مَا فَوْقَهُ إِفْرَاطٌ، وَمَا دُونَهُ تَقْصِيرٌ.

قَالَ أَبُو سَلِيمَانَ: التَّمَامُ أَلِيْقُ بِالْمَخْسُوسَاتِ، وَالْكَمَالُ أَلِيْقُ بِالْأَشْيَاءِ الْمَغْثُولَةِ.

قَالَ: وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْفُتْيَا مِثْلِي جَازِمَةً، وَلَا عَنِ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ مَرْوِيَّةً، وَلَكِنْ إِذَا لَحَظْنَا الْمَعَانِي مُخْتَلِفَةً، طَلَبْنَا لَهَا أَسْمَاءً مُخْتَلِفَةً، لِيَكُونَ ذَلِكَ مَعُونَةً لَنَا فِي تَحْدِيدِ الْأَشْيَاءِ أَوْ فِي وَصْفِ الْأَشْيَاءِ مِنْ طَرِيقِ الْإِقْنَاعِ الْكَافِ لِلْجَدَلِ وَالتَّهْمَةِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِ الْبُرْهَانِ الْقَاطِعِ بِالْحُجَّةِ، الرَّافِعِ لِلشُّبْهَةِ، أَوْ مِنْ طَرِيقِ التَّقْلِيدِ الْجَارِي عَلَى السَّنَنِ وَالْعَادَةِ.

قَالَ: وَلِهَذَا إِذَا قِيلَ: مَا أَتَمَّ قَامَتَهُ! كَانَ أَحْسَنَ، وَإِذَا قِيلَ: مَا أَكْمَلَ نَفْسَهُ! كَانَ أَجْمَلَ.

قيل له: هل يتساوى الكَوْنُ والفساد فَيَنْقَى الشيء على ما هو به؟ فقال: أما على الحقيقة فلا؛ ولكن على السَّعة، لأنَّ الكَوْنَ متصل بالفساد، إلا أنهما يخفيان في مَبَادِئهما حتى إذا امتدَّ الآنان فصَارَ آناً واحداً فحينئذٍ بَانَ الكَوْنُ مِنَ الفساد، وبَانَ الفسادُ مِنَ الكَوْنِ، وهذا بالاعتبار الحِسِّي؛ فأما العقل فَيَرْتَفِعُ عن هذا، لأنه يعلم حقيقة الشيء على ما هو عليه، ولا يقبل من الحِسِّ حُكماً، ولا يَخْتَكِمُ إليه أبداً.

وإنما الحِسُّ عامِلٌ من عَمَالِ العقل. والعامِلُ يَجُورُ مَرَّةً وَيَعْدِلُ مَرَّةً، فأما الذي هذا هو عامِلُهُ فهو الذي يتعقَّبُهُ، فإنَّ وَجَدَهُ جائراً أَبْطَلَ قِضَاءَهُ، وإنَّ وَجَدَهُ عادِلاً أَمْضَى حُكْمَهُ، ومتى استشِيرَ الحِسُّ في قضايا العقل فقد وُضِعَ الشيء في غير موضِعِهِ، ومتى استشِيرَ العقلُ في أحكام الحِسِّ فقد وُضِعَ الشيء في موضِعِهِ.

قيل: فما الصورة؟ قال: التي بها يَخْرُجُ الجَوْهَرُ إلى الظَّهْرِ عند اعتِقَابِ الصُّورِ إِيَّاه. قال أبو سليمان: هذه الفُتْيَا جُزْأِيَّةُ الصُّورِ أصناف: إلهية وعقلية، وفلكية وطبيعية، وأسطُفُسيَّة وصناعية، ونَفْسِيَّة وَلَفْظِيَّة، وبَسِيطَةٌ ومُرَكَّبَةٌ، ومَمْرُوجَةٌ وصَافِيَّةٌ، وَيَقْظِيَّةٌ ونُومِيَّةٌ وغَائِيَّةٌ وشَاهِدِيَّةٌ.

ثم اندفع فقال: أما الصُّورَةُ الإلهيَّةُ - وهي أعلاها في الرُّتَبَةِ والحقيقة. وهي أَبْعَدُ مَنَّا في التَّخْصِيلِ إِلَّا بِمَعُونَةِ اللَّهِ تعالى - فلا طَرِيقَ إِلَى وَصْفِهَا وَتَحْدِيدِهَا إِلَّا عَلَى التَّقْرِيبِ، وذلك أَنَّ البَسَاطَةَ تَغْلِبُ عَلَيْهَا، إِلَّا أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ تُرَسِّمُ بَأَن يُقَالَ: هي التي تَجَلَّتْ بِالْوَحْدَةِ، وَتَبَتَّتْ بِالْإِدَامِ، وَدَامَتْ بِالْوُجُودِ.

وأما الصُّورَةُ الْعَقْلِيَّةُ فهي شَقِيقَةُ تِلْكَ، إِلَّا أَنَّهَا دُونُهَا بِالْإِنْحِطَاطِ الْحِسِّي، ولكن بِالْمُرْتَبَةِ اللَّفْظِيَّةِ، وليس بَيْنَ الصُّورَتَيْنِ فَضْلٌ إِلَّا مِنْ نَاحِيَةِ التَّعْتِ، وَإِلَّا فَالْوَحْدَةُ شَائِعَةٌ وَغَالِبَةٌ وَشَامِلَةٌ، لَكِنِ الصُّورَةُ الإلهيَّةُ تُلَحِظُ لَحْظاً، وَلَا يُلْفَظُ بِوَصْفِهَا لَفْظاً، لِمُشَاكَلَتِهَا الصُّورَةُ النَّفْسِيَّةُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ أَمَكْنَ أَنَّ تُرَسِّمَ فَيُقَالُ: هي التي تُهْدِي إِلَى الْعَاقِلِ تَلْجَأُ فِي الْحُكْمِ، وَثِقَةٌ بِالْقِضَاءِ، وَطُمَآئِنَةٌ لِلْعَاقِبَةِ، وَجُزْأً بِالْأَمْرِ، وَدُخُوضاً لِلْبَاطِلِ، وَبَهْجَةً لِلْحَقِّ وَنُوراً لِلصِّدْقِ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَ الصُّورَةِ الإلهيَّةِ وَالصُّورَةِ الْعَقْلِيَّةِ أَنَّ الصُّورَةَ تَرُدُّ عَلَيْكَ وَتَأْخُذُ مِنْكَ، وَالصُّورَةُ الْعَقْلِيَّةُ تَصِلُ إِلَيْكَ فَتُعْطِيكَ، فَالْأَوَّلَى بِقَهْرٍ وَقُدْرَةٍ، وَالثَّانِيَّةُ بِرَفَقٍ وَلَطَافَةٍ؛ وَتِلْكَ تَحْجُبُكَ عَنْ لِمَ وَكَيْفَ، وَهَذِهِ تَفْتَحُ عَلَيْكَ لِمَ وَكَيْفَ، وَتِلْكَ لَا تُشْحَى وَلَا تُطْلَبُ، وَهَذِهِ يُسَعَى إِلَيْهَا، وَيُسْأَلُ عَنْهَا وَتُوجَدُ، وَأَنْوَارُ الصُّورَةِ الْعَقْلِيَّةِ الإلهيَّةِ بُرُوقٌ تَمُرُّ، وَأَنْوَارُ الصُّورَةِ شُمُوسٌ تَسْتَنِيرُ؛ وَتِلْكَ إِذَا حَصَلَتْ لَكَ بِالْخُصُوصِيَّةِ لَا نَصِيبَ لِأَحَدٍ مِنْهَا، وَهَذِهِ إِذَا حَصَلَتْ لَكَ فَأَنْتَ وَغَيْرُكَ شَرَعٌ فِيهَا؛ وَتِلْكَ لِلصَّوْنِ وَالْحِفْظِ، وَهَذِهِ لِلْبَذْلِ وَالْإِفَاضَةِ.

وَأَمَّا الصُّورَةُ الْفَلَكَيَّةُ فَدَاخِلَةٌ تَحْتَ الرَّسْمِ بِالْعَرَضِ، وَلِلْوَهْمِ فِيهَا أَثَرٌ كَثِيرٌ،

ولأنّها مأخوذة من الجسم الأعظم صارت مشاكستها مفسومة بين البسيط الذي لا تركيب فيه البتّة، وبين المركّب الذي لا يخلو من التركيب البتّة؛ ولهذا صار تأثير الفلك في المتحرّكات عنه أشدّ من تأثر الفلك عن المُحرّك له، وكأنّه أولُ مُحركٍ متحرّك؛ وليس هكذا ما علّا عنه.

والفلك بما هو جسمٌ مَنقُوصُ الصُورة، وبما هو دائمُ الحَرَكَة شريفُ الجَوْهر. وأمّا الصُورة الطَبيعيّة فتعلّقها بالمادّة القابلة لآثارها بحسب استعدادها لها، فلذلك ما هي مُزخزحة عن الدَرَجَة العُلَيّا، وعشّقها للقابِل منها أشدّ من عشّقها للمُفَيض عليها، ولهذا أيضاً كانت منافعها ممزوجة، ومضارّها بختة، وهي تتجمّع بين الحِكْمَة والبلّه، وبين الجيد والرديء، ولو سألتها لِمَ أنتِ ضارّة نافعة؟ لقلت: بُعدت، فلما بُعدت صوّتت وصعدت.

وسمعتُ أبا التّقيس يقول في وصف الطّبيعة كلاماً له رَوّث في النّفس وأنا أصلُ هذه الجُمْلَة به.

قال: أثبتّها الطّبيعة، ما الذي أقولُ لك، وبأيّ شيءٍ أواخذك، وكيف أوجّه العُتبَ عَلَيْكَ؟! فإنّك قد جمعتُ أموراً مُنكَرةً، وأحوالاً عسيرةً، لا يفي نظامك فيها بانبثارك عليها، ولكِ بوادرُ ضارّة، وغوائلُ خفيّة تَبْدُو مِنْكَ، وتُغَوِّرُ فِيكَ، وتزجّع إليك، حتى إذا قلنا في بعضِها: إنك حكيمة، قلنا في بعضِها: إنك سفيهة، فالبَلّه منك مخلوطٌ باليقظة، والاستقامة فيك عائدةٌ بالاغوجاج، وفيك فظائعٌ ونزاع، وقوارعٌ وبدائع، لأنّ حركاتك تستنّ مرّةً استيناناً تُعشّقين عليه، وتُحَيِّنُ من أجله، وتزيغُ أخرى زِيغاً تُمقّتِينَ عليه، وتُبغضين بسببه، وربما كانت حركاتك نقضاً للبناء المحكم والصورة الرائعة، والنظام البهيّ، وربما كانت بناءً للمُنقُص، وتَجْدِيداً للبالِ وإصلاحاً للفساد، حتى كأنّك عابثةٌ بلا قُصد، عاثّةٌ على عَمَد، وعلى جميع صفاتك من الواصفين لك لِمَ يَعلَمُ مَنْ ظَنّ، ولا رأى مَنْ تَحَيَّل، ولا بُعدَ لَفْظٍ مِنْ تَأْوِيل، ولا حالَ مَعْنَى عَنْ تَوْهَم، ولا أسفَرَ حَقٍّ عَنْ باطل، ولا تَمَيِّزَ بَيَانٍ عَنْ تَمْويه، ولا وَضَحَ نُصْحٍ مِنْ غِشٍّ، ولا سَلَمَ ظَاهِرٍ مِنْ تَنَاقُض، ولا خَلَّتْ دَعْوَى مِنْ مُعَارِض، فلهذا وأشباهه واجهتُك بخطابي، وعرضتُ عَلَيْكَ ما في نَفْسي، فبالذي أنتِ به قائمة، وبالذي أنتِ به موجودة، وبالذي أنتِ له مُنْقَلِبة، وإليه مُنْسَاقَة، إلّا خَبَرْتَنِي عَنْكَ، وشَفَيْتَ غَلِيلِي مِنْكَ، ونَعَتَ لِي غَيْبَ شَأْنِكَ، وجَعَلْتَ الْخَبَرَ عَنْكَ كَعِيَانِكَ، وإنما ضَرَعْتَ إِلَيْكَ هَذَا الضَّرْعَ، وعَرَضْتَ عَلَيْكَ هَذَا الْوَجْعَ، لأنّك جازتني وصاحبتي، وليس بَيْنِي وَبَيْنَكَ حِجَابٌ إلّا ما هو عَدُوٌّ مِنْكَ أَوْ مُنِي، أغني بما هو مِنْكَ لُطْفٌ سِخْرِي، وخَفَاءٌ سِرِّي، وأغني بما هو مُنِي ما أعجزُ عن استينائه واستيضاحه إلّا بقوة الإله الذي هو سَبَبٌ لِحَرَكَتِكَ فِي أَقَانِينِ تَصَرُّفِكَ، وأعاجيب عَدْلِكَ وَتَحْيِيلِكَ.

وكان إذا بَلَغَ هذا الحَدَّ وما شَاكَلَهُ أَخَذَ في كلام كالجوابِ عَلَى طريق التَّائِيسِ والتَّسْلِيَةِ والاستِرَاحَةِ، وهذا بالواجب، لأنَّ الإنسانَ بسببِ أغراضه المَجْهُولَةِ، وعَوَارِضه الفَاجِئَةِ البَاعِثَةِ مِنَ الْعَيْبِ والشَّهَادَةِ يَفْتَقِرُ افتقاراً شَدِيداً إلى هذه التُّعَوُّتِ التي تَقْدَمُ ذِكْرُهَا؛ وهذا كالدَّاءِ والدَّوَاءِ! وليس لأحد أن يتهكَّم فيقول: هَلَّا ارتَفَعَ الدَّاءُ أَضْلاً فَيُسْتَعْنَى عن الدَّوَاءِ جُمْلَةً، وهَلَّا وَقَعَ الدَّوَاءُ أبداً عَلَى الدَّاءِ وَنَفَاةً وَصَرَفَهُ. فَإِنَّ هذا كَلَامَ مَذْخُولٍ، من عَقْلٍ كَلِيلٍ، وَلَعَمْرِي إِنَّ مَنْ جَهِلَ الْقِسْمَةَ الإِلَهِيَّةَ في الْأَزَلِّ بحسبِ شَهادَةِ الْعَقْلِ لَعِبَ به الوَسْوَاسُ في هَذِهِ الْمَوَاضِعِ، وَظَنَّ أَنَّ الْأَمْرَ لو كَانَ بِخِلَافِ ما هُوَ عَلَيْهِ كَانَ أَوْلَى وَأَتَمَّ وَأَوْثَقَ وَأَحْكَمَ، يا وَيْحَهُ! من أَيْنَ يُوجِبُ هذا الْحُكْمُ؟ وبأيِّ شَيْءٍ يَثْبُتُ هذا الْقَضَاءُ؟ وكيف يَثْبُتُ بهذا الْوَهْمُ؟

وكان يقول أيضاً: إِنَّ الطَّبِيعَةَ تقول: أنا قُوَّةٌ من قُوَى الْبَارِئِ، مُوَكَّلَةٌ بهذه الْأَجْسَامِ الْمُسَخَّرَةِ حَتَّى أَتَصَرَّفَ فيها بِغَايَةِ ما عِنْدِي مِنَ النَّفْسِ وَالتَّصَوُّيرِ وَالْإِضْلَاحِ وَالْإِفْسَادِ اللَّذِينَ لَوْلَاهُمَا لَمْ يَكُنْ لِي أَثَرٌ في شَيْءٍ، ولا لَشَيْءٍ أَثَرٌ مِنِّي، وكان وَجُودِي وَعَدَمِي سَوَاءً، وَخُضُورِي وَغِيَابِي واحداً، ولو بَطَلْتُ بَطَلَ بِطُلَانِي ما أنا به؛ وهذا زَائِفٌ مِنَ الْقَوْلِ، وَخَطَلٌ مِنَ الرَّأْيِ، وَتَحَكُّمٌ مِنَ الظَّنِّ.

ولو اخْتُمِلَ إيرادُ كُلِّ ما كان يَتَنَفَّسُ به هذا الشَّيْخُ في حالِ نَشَاطِهِ واثْقَبَاضِهِ، لكان ذلك مَرَاداً فسيحاً، وَمَشْرَعاً واسِعاً، وَلَكِنْ ذلك مُتَعَذِّرٌ لِعَجْزِي عن الْوَفَاءِ به، ولأنَّ هذه الرِّسَالَةَ تَتَقَلَّصُ عنه، وإنما أَجُولُ في هذه الْأَكْنافِ لِكَلْفِي بِالْحِكْمَةِ كيف دَارَتِ الْعِبَارَةُ بها، وَأُمَكِّنَتِ الْإِشَارَةُ إِلَيْهَا، لا عَلَى التَّقْصِي لَهَا وَبُلُوغِ الْغَايَةِ مِنْهَا، وَمَنْ يَقْدِرُ عَلَى ذلك؟ وَمَنْ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِذلك؟ الْعَالَمُ أَبْعَدُ غَوَراً وَأَعْلَى قُلَّةً وَأَثْقَلُ وَزْناً وَأَحَدُ غَرْباً وَأَلْطَفُ أَغْرَاضاً وَأَكْشَفُ أَجْزَاماً وَأَعْجَبُ تَرْكِيباً وَأَغْرَبُ بَسَاطَةً؛ مَنْ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيْهِ إنسانٌ واحدٌ، وَكُلُّ مَنْ كانَ في مَسْكِهِ، وإنْ بَلَغَ الْغَايَةَ في دِقَّةِ الدَّهْنِ وَحُسْنِ الْبَيَانِ وَبَلَاغَةِ اللَّفْظِ، واسْتِنْبَاطِ الْعَامِضِ في حَاضِرِهِ وَغَائِبِهِ؛ هذا ما لا يَتَوَهَّمُهُ الْعَقْلُ.

وَأَنَا أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَى، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُلْهِمَنِي الشُّكْرَ عَلَى ما فَتَحَ وَشَرَحَ، وَهَدَى إِلَيْهِ وَمَنَحَ، وَأَطْلَعَ عَلَيْهِ وَنَدَحَ، فَإِنَّ الشُّكْرَ قَرْعُ بَابِ الْمَزِيدِ، وَالْمَزِيدُ بَاعِثٌ عَلَى الشُّكْرِ الْجَدِيدِ، وَالشُّكْرُ - وإنْ خَلَصَ بِالْعِرْفَانِ، وَجَرَى بِضُرُوبِ الْبَيَانِ عَلَى اللِّسَانِ - فَإِنَّهُ يَقْصُرُ عن تَوَاتُرِ النُّعْمَةِ بعد النُّعْمَةِ، وتَظَاهُرِ الْفَائِدَةِ بعد الْفَائِدَةِ.

وأما الصُّورَةُ الْأُسْطَقْسِيَّةُ، فهي لائِحَةٌ لِكُلِّ ذِي جِسٍّ بِالتَّنَازُمِ الْمَوْجُودِ فيها، وَالتَّبَايُنِ الْآخِذِ بِنَصِيبِهِ مِنْهَا، وَلِهَا انْقِسَامٌ إِلَى آحَادِهَا، أَعْنِي أَنَّ صُورَةَ الْمَاءِ مُبَايِنَةٌ لَصُورَةِ الْهَوَاءِ، وَكَذَلِكَ صُورَةُ الْأَرْضِ مُخَالِفَةٌ لَصُورَةِ النَّارِ، فَتَحْدِيدُهَا بِما يُقَرَّرُهَا معَ غَوْصِهَا في كُلِّ أُسْطَقْسٍ شَدِيدٍ، وَاللَّفْظُ لا يَصْفُو، وَالْمُرَادُ لا يَنْمَازُ.

وأما الصورة الصنّاعية فهي أبين من ذلك، لأنّها مع غوصها في مادّتها بارزة للبصر والسَّمع ولجميع الأحساس، كصورة السّرير والكُرسيّ والباب والخاتم وما أشبه ذلك. وأما الصورة النّفسية فهي راجعة إلى العِلْم والمعرفة وتَوابعهما فيما يُحقّقهما أو يخدمهما وهي شقيقة للصورة العقلية بالحق.

وأما الصورة البسيطة فالاختلاف مراتب البسيط ما يعزّز رسمها إلا بالإيماء إليها، فإن لحق هذا الإيماء سامعه فذاك، وإلا فلا طمع في عبارة شافية عنها.

وأما الصورة المركّبة فهي بادية للحسّ بآثار الطبيعة في مادّتها، وبادية أيضاً للنفس بآثار العقل في سيّحه عليها، وكما أنّ بين البسيط والبسيط فرقاً يكاد البسيط يكون به مُركّباً، كذلك بين المركّب والمركّب فرقٌ يكاد المركّب يكون به بسيطاً؛ وهذه جملة تفسيرها معزوز.

وأما الصورة الممزوجة فهي أخت الصورة المركّبة، وكذلك الصورة الصافية أخت الصورة البسيطة، وليس هذا تمايزاً في اللفظ واللفظ، إذ كانتا متصاحبتين ولم تكونا متعاندين.

وأما الصورة اليقظية فهي مجموعة من الأحساس، لجريانها على وجدان المشاعر كلّها، وما لها وبها.

وأما الصورة التّومية فهي أيضاً مميزة عن أختها، أعني اليقظية، لأنها إغضاء عينٍ وفَتْحُ عَيْنٍ، أعني أنّ النائم قد حِيلَ بينه وبين مثالات الإحساس وعوارض الكون والفساد، وفَتْحَ عليه بابٌ إلى وجدان شيء آخر يجري كظلّ الشخص من الشخص، فإن كان ذلك من وادي الطبيعة أوماً إلى آثار الأخلاط، وإن كان من وادي النفس أوماً إلى نضب التماثيل، وإن كان من وادي العقل صرّح بحقائق الغيب في عالم الشهادة إمّا بالتقريب وإمّا بالتهذيب أعني إمّا بوقوعه عقيب ذلك، وإمّا بعد مُهلة.

وأما الصورة الغائبية والشاهدية فقد اتصل الكلام في شرحها بما تقدّم من حديث الصورة اليقظية والتّومية، والعبارة عن الشاهد مقصورة على وجدان المشاعر، والعبارة عن الغائب مقصورة على ما تعلّق على المشاعر، وفي الغائب شاهد هو الملحوظ من الغائب، وفي الشاهد غائب هو المبحوث عنه في الشاهد، فالشاهد غائب بوجه، والغائب شاهد بوجه، حتى إذا استجمعا لك كنت بهما في شعارهما. والإلهيون من الفلاسفة هم الذين جمّعوا بين هذين النّعتين وعَلَوْا هاتين الذّورتين، فتوحّدا عند ذلك بخصائصهم، وانسلخوا عن نقائصهم، فلو قلت: ما هؤلاء بشرٌ كنت صادقاً.

ولقد أحسن الذي قال في وصف العصابة حيث وصف فقال:

فينا وفيك طبيعة أَرْضِيَّة تَهْوِي بنا أبداً لِشَرِّ قَرَار

لَكُنْهَا مَفْسُورَةٌ مَأْسُورَةٌ مَغْلُوبَةٌ السُّلْطَانِ فِي الْأَخْرَارِ
فَجَسُومُهُمْ مِنْ أَجْلِهَا تَهْوِي بِهِمْ وَنُفُوسُهُمْ تَسْمُو سُمُو النَّارِ
لَوْلَا مُنَارَعَةُ الْجُسُومِ نُفُوسُهُمْ نَفَذَتْ بِسُورَتِهَا مِنَ الْأَقْطَارِ
عَرَفُوا لِرُوحِ اللَّهِ فِيهِ فَضْلَ مَا قَدْ آثَرُوا مِنْ صَالِحِ الْأَثَارِ
فَتَنَزَّهُوا وَتَكَرَّمُوا وَتَعَظَّمُوا عَنْ لُؤْمِ طَبْعِ الطَّيْنِ وَالْأَخْجَارِ
نَزَعُوا إِلَى الْبَحْرِ الَّذِي مِنْهُ أَتَتْ أَزْوَاحُهُمْ وَسَمَوْا عَنْ الْأَغْوَارِ

وهذا وَصَفٌ بليغٌ بالإضافة إلى القوم .

فأما ما وراء هذا فهناك خبرٌ ثقةٌ بما قرَّرَ وقال :

وأما الصورة اللفظية فهي مسموعةٌ بالآلة التي هي الأذن، فإن كانت عجماء فلها حكم، وإن كانت ناطقةً فلها حكم، وعلى الحالين فهي بين مراتب ثلاث : إما أن يكون المرادُ بها تحسينَ الإفهام، وإما أن يكون المرادُ بها تحقيقَ الإفهام، وعلى الجميع فهي موقوفةٌ على خاصٍّ مألها في بُروزها من نفس القائل، ووصولها إلى نفس السامع ؛ ولهذه الصورة بعدُ هذا كله مرتبةٌ أخرى إذا مازجها اللحن والإيقاعُ بصناعة الموسيقار، فإنها حينئذٍ تُعطي أموراً ظريفة، أعني أنها تُلدُّ الأحساس، وتُلهبُ الأنفاس، وتُسندعي الكاس والطاس، وتروِّجُ الطَّبع، وتُنعمُ البال، وتذكرُ بالعالمَ المَشوقَ إليه، المُتلهِّفَ عليه .

هذا منتهى كلامه على ما علقه الحِفظ، ولقِنه الذَّهن ؛ ولو كان مأخوذاً عنه بالإملاء لكان أقومٌ وأحكم، ولكنَّ السَّرْدَ باللسان، لا يأتي على جميع الإمكان في كلِّ مكان، فهذا هذا .

قال الوزير : هذا بابٌ في غاية الإيفاء والاستيفاء، ومن يتحكَّك بالاعتراض عليه فقد صَغَى، وأبدى صَفْحَتَهُ بِالْبُهْتِ، ودَلَّ مِنْ عَقْلِهِ عَلَى الدَّخْلِ، ومن أخلاقه على الخَلَل ؛ لقد وَهَبَ اللَّهُ لهذا الرجل مقاماً عالياً، ولا عجب فإنه مُعَوِّضٌ بهذا عما فاتهُ .

وقال : أنشدني في الخمر شيئاً غريباً، فَأُنْشِدْتُهُ :

وَمُورِدُ الْوَجَنَاتِ يَخُ طَرُ حِينَ يَخْطُرُ فِي مُورِدِ
يَسْقِيكَ مِنْ جَفْنِ اللَّجِينِ إِذَا سَقَاكَ دُمُوعَ عَشَجِدِ
حَتَّى تَظُنَّ الشَّمْسَ تَنُ زِلْ أَوْ تَظُنَّ الْأَرْضَ تَضَعِدِ
فَإِذَا سَقَاكَ بَعَيْنِهِ وَبِفِيهِ ثَمَّ سَقَاكَ بِالْيَدِ
حَيَّاكَ بِالْيَاقُوتِ تَحُ سَتِ الدَّرُّ مِنْ فَوْقِ الزَّبَرْجَدِ

قال : أَحَسَّنْتَ وَاللَّهِ ؛ هَاتِ زِيَادَةً . فَقُلْتُ :

وَعَذْرَاءُ تَزْغُو حِينَ يَضْرِبُهَا الْفَحْلُ كَذَا الْبِكْرُ تَنْزُو حِينَ يَفْتَضُّهَا الْبَعْلُ

تُديرُ عيوناً في جُفونٍ كأنما
كأن حبابَ الماءِ حَوْلَ إنائها
تَوَهَّمْتُهَا في كأسِها فكأنما
إذا اشتبكت رجلاي من سورة الكرى
وَأُنْشَدْتُ لآخر:

وكم عائبٍ للخمرِ لو أن أمه
ولآخر:

خَلِيلِي لُومَانِي عَلَى الْخَمْرِ أَوْ دَعَا
وَشَبًّا سَنَا نَارَ لَعْلٍ نَدِيمَنَا
فَمَا رَاعَنَا إِذْ أُوقِدَتْ فَوْقَ رُبُوءِ
فَهَشًّا إِلَيْنَا ثُمَّ قَالَ: أَلَا انْعِمَا
وَأُنْشَدْتُ لآخر:

سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تَغْنُ وَلَوْ سَقَوْا
وَأُنْشَدْتُ أيضاً:

الكَأْسُ لَا تَذْري وَلَا الْخَمْرُ
أَسْكَرَنِي مِنْ قَبْلِ شُرْبِي لَهَا
قُلْتُ لَهُ وَالْخَمْرُ فِي كَأْسِهِ
أَنْتَ لَعْمَرِي الْخَمْرُ يَا سَيِّدِي
آخر:

تركت النبيذ لأهل النبيذ
وقد كنت قديماً به مُعْجَباً

فقال: قد جرى هذا أيضاً على التمام. اختتم مجلسنا بدعاء الصوفية.

فقلت: سَمِعْتُ ابْنَ سَمْعُونَ يَدْعُو فِي الْجَامِعِ فِي آخِرِ مَجْلِسِهِ وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ قَوْلَنَا مَوْضُوعاً بِالْعَمَلِ، وَعَمَلَنَا مُحَقَّقاً لِلْأَمَلِ، وَلَا تُضَايِقْنَا فِيْمَا نَتَحَوَّلُ بِهِ، وَنَتَقَلَّبُ لَكَ فِيهِ، وَكُنْفَ عَلَيْنَا بِسِتْرِكَ، وَسَوْغْنَا بِرِّكَ، وَالْهَمْنَا شُكْرَكَ، وَخَفَّفْ عَلَيَّ أَفْوَاحِنَا ذِكْرَكَ، وَاخْصُصْنَا بَعْدَ ذَلِكَ بِمَا هُوَ أَلْيَقُ بِذَلِكَ؛ اللَّهُمَّ اسْمَعْ وَاسْتَجِبْ وَقَرِّبْ. وانصرفت.

الليلة الثامنة والثلاثون

وَجَرَى لَيْلَةً بِحَضْرَةِ الْوَزِيرِ - أَغْلَى اللَّهُ كَلِمَتَهُ، وَأَدَامَ غِبْطَتَهُ، وَوَالَى نِعْمَتَهُ - أَحَقُّ مَنْ دُعِيَ لَهُ، وَأَشْرَفُ مَنْ بُوْهِيَ بِهِ، وَأَكْمَلُ مَنْ شُوْهِدَ فِي عَصْرِهِ - حَدِيثُ ابْنِ يَوْسُفَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ غَنَائَتِهِ وَرِثَاتِهِ، وَعِيَارَتِهِ وَخَسَاسَتِهِ.

فَقُلْتُ لَهُ: عِنْدِي حَدِيثٌ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْوَزِيرَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ، عَارِفٌ بِهِ. قَالَ: مَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنِي أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ الْقَاضِي التُّوْخِيُّ قَالَ: كُنْتُ فِي الصُّحْبَةِ إِلَى هَمْدَانَ سَنَةَ تِسْعٍ وَسِتِّينَ، وَكُنَّا جَمَاعَةً وَفِينَا ابْنُ حَرْنَبَارٍ أَبُو مُحَمَّدٍ، وَكَانَ فِي جَنْبِهِ ابْنُ يَوْسُفَ، فَاتَّفَقَ أَنَّ عَصْدَ الدَّوْلَةِ - بَرَدَ اللَّهُ مَضْجَعَهُ - قَالَ لابْنِ شَاهُوِيَه: سِرْ إِلَى ابْنِ حَرْنَبَارٍ وَقُلْ لَهُ: يَنْبَغِي أَنْ تَسِيرَ إِلَى الْبَصْرَةِ وَإِنَّا نَجْعَلُ لَكَ فِيهَا مَعُونَةً، فَقَدْ طَالَ مُقَامُكَ عِنْدَنَا، وَتَوَالَى تَبَرُّمُنَا بِكَ، وَتَبَرُّمُكَ بِنَا، وَلَيْسَ لَكَ بِحَضْرَتِنَا مَا تُحِبُّهُ وَتَقْتَرِحُهُ، وَالسَّلَامَةُ لَكَ فِي بُعْدِكَ عَنَّا قَبْلَ أَنْ يُفْضِيَ ذَلِكَ إِلَى تَغْيِيرِنَا. وَكَلَاماً فِي هَذَا النَّوعِ.

قَالَ: وَنَفَذَ أَبُو بَكْرٍ وَمَعَهُ آخَرُ مِنَ الْمَجْلِسِ يَشْهَدُ التَّبْلِيغَ وَالْأَدَاءَ، وَيَسْمَعُ الْجَوَابَ وَالْإِبْتِدَاءَ - عَلَى رَسْمٍ كَانَ مَعَهُوداً فِي مِثْلِ هَذَا الْبَابِ - فَلَقِيَ ابْنَ حَرْنَبَارٍ وَشَافَهُهُ بِالرُّسَالَةِ عَلَى التَّمَامِ؛ فَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ لَمَّا سَمِعَ: الْأَمْرُ لِلْمَلِكِ، وَلَا خِلَافَ عَلَيْهِ؛ وَلَعَمْرِي إِنَّ النَّاسَ بِجُدُودِهِمْ يَنَالُونَ حُطُوظَهُمْ، وَبِحُطُوظِهِمْ يَسْتَنْدِيمُونَ جُدُودَهُمْ؛ وَلَوْ وُقِفْتُ مَا كَانَ عَجِيباً، فَقَدْ نَالَ مَنْ هُوَ أَنْقَضَ مِنِّي، وَبَلَغَ الْمَنَى مِنْ أَنَا أَشْرَفُ مِنْهُ، وَلَكِنَّ الْمَقَادِيرَ غَالِبَةٌ، وَلَيْسَ لِلْإِنْسَانِ عَنْهَا مُرْتَحِلٌ؛ وَقَدْ قِيلَ: مَنْ سَاوَرَ الدَّهْرَ غُلِبَ، وَلَكِنْ أَيُّهَا الشَّيْخُ لِي حَاجَةٌ: أَحِبَّ أَنْ تُبَلِّغَ الْمَلِكَ كَلِمَةً عَنِّي. قَالَ: هَاتِيهَا؛ قَالَ: تَقُولُ لَهُ: أَنَا صَائِرٌ إِلَى مَا رَسَمْتَ، وَمُمْتَمِلٌ مَا أَمَرْتَ، بَعْدَ أَنْ تُقْضِيَ لِي وَطْراً فِي نَفْسِي، قَدْ تَقَطَّعَ عَلَيْهِ نَفْسِي، وَذَاكَ أَنْ تَتَقَدَّمَ فَيَقَامَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ يَوْسُفَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَيُضْفَعَانِهِ مَائَتَيْنِ، وَيَقُولَانِ لَهُ: إِذَا لَمْ تَبْذُلْ جَاهَكَ لِمَتَلَهِّفَ، وَلَا عِنْدَكَ فَرَجٌ لِمَكْرُوبٍ، وَلَا بَرٌّ لَضَعِيفٍ، وَلَا عَطَاءٌ لِسَائِلٍ، وَلَا جَائِزَةٌ لَشَاعِرٍ، وَلَا مَرْعَى لِمُتَنَجِّعٍ، وَلَا مَأْوَى لَضَيْفٍ، فَلِمَ تُخَاطَبُ بِسَيِّدِنَا، وَتُقْبَلُ لَكَ الْيَدُ، وَيَقَامُ لَكَ إِذَا طَلَعْتَ؟

قَالَ ابْنُ شَاهُوِيَه: فَقَبِلَ أَنْ لَقِيْتُ الْمَلِكَ أَفْصَحَ لَهُ الَّذِي كَانَ مَعِيَ مُشْرِفاً عَلَيَّ. فَلَمَّا دَخَلْتُ الدَّارَ عَرَفَ، فَقَالَ: عَلَيَّ بِهِ، فَحَضَرْتُهُ وَابْنُ يَوْسُفَ قَاعِدٌ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى رِسْمِهِ. فَقَالَ لِي: هَاتِ الْجَوَابَ عَمَّا نَفَذْتَ فِيهِ؛ فَقُلْتُ: الْجَوَابُ عِنْدَكَ، فَقَالَ: مَا

أَعَجِبَ هذا! أَنْتَ حُمِلْتَ الرسالةَ وأطالبُ غيرَكَ بالجواب؟ قال: فتَلَوْتُ حَيَاءً من ابنِ يوسفَ، فقال: هاتِ يا هذا الحديثَ بفصِّه، فواللَّهِ لا أَقْنَعُ إِلَّا به، ما هذا التَّوَانِي والتَّكاسُلُ، فكرهتُ اللَّجَاجَ، فسرَدْتُه على وَجْهِه، ولم أَغادِرْ منه حَرْفًا، وابنِ يوسفَ يتَقَدَّدُ في إهابه، ويتَغَيَّرُ وَجْهُه عندَ كُلِّ لَفْظَةٍ تَمُرُّ به، فأَقْبَلَ عليه المَلِكُ وقال: كَيْفَ ترى يا أبا القاسمِ الكَيِّسَ؟ فقال: يا مولانا، إنما أَنَا أَقْضِي الحاجةَ بك، فإذا لم تَقْضِها كيف أَكون؟ فَإِنَّ الحوائِجَ كُلَّها إِلَيْكَ.

قال: صَدَقْتَ، أَنَا لا أَقْضِي حاجةَ لك، لأنَّكَ لا تَقْصِدُ بها وَجْهَ اللَّهِ، ولا تَبْغِي بها مَكْرَمَةً، ولا تَحْفَظُ بها مَرْوَةً، وَإِنَّمَا تَرْتَشِي عليها، وتُصَانِعُ بها، وتَجْعَلُنِي بَابًا من أَبْوابِ تِجَارَتِكَ وأَرْبَاحِكَ، ولو كُنْتُ أَغْلَمُ أَنَّكَ تَقْضِي حاجةَ اللَّهِ أوْ لِمَكْرَمَةٍ أوْ لِرَحْمَةٍ وَرِقَّةٍ لَكَانَ ذَلِكَ سَهْلًا عَلَيَّ، وخَفِيفًا عِنْدِي، لَكِنَّكَ مَعْرُوفُ المَذْهَبِ فِي الطَّمَعِ والحِيلَةِ، وَجَرَّ النَّارِ إِلَى قُرْصِكَ، وَشَرَّهَكَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ؛ وَلَيْسَ الذَّنْبُ لَكَ، وَلَكِنْ لِمَنْ رَأَى إِنْسَانًا وَأَنْتَ كَلْبٌ.

وَصَدَقَ - صَدَقَ اللَّهُ قَوْلَهُ - فَإِنَّهُ كَانَ أَحْسَنَ خَلْقِ اللَّهِ، وَأَتَمَّنَ النَّاسَ، وَأَقْدَرَ النَّاسَ، لا مَنَظَرَ ولا مَخْبَرَ.

وكانت أُمُّهُ مُعْنِيَّةً مِنْ أَهْلِ البَيْضَاءِ، وَأَبُوهُ مِنْ أَسْقَاطِ النَّاسِ، وَنَشَأَ مع أَشْكَالِهِ، وكان في مَكْتَبِ الرِّبْضِيِّ على أَحْوَالٍ فاحِشَةٍ، وَوَرَقَ زَمَانًا، ثُمَّ إِنَّ الزَّمانَ نَوَّهَ به، وَنَبَّهَ عليه، وَمِثْلُ هذا يَكُونُ، والأَيَّامُ ظُهُورٌ وَبُطُونٌ؛ وَكَمَا يَنْسَقُطُ الفاضِلُ إِذا عانَدَهُ الجَدُّ، كَذَلِكَ يَرْتَفِعُ السَّاقِطُ إِذا ساعَدَهُ الجَدُّ فهذا هذا.

فقال: ما كان هذا الحديثُ عِنْدِي، وإِنَّهُ لَمِنْ الغَرِيبِ.

ثم قال: كيف خَبَرُكَ في الفِتْنَةِ التي عَرَضَتْ وانشَثَرَتْ، وتَفَاقَمَتْ وتَعَاظَمَتْ؟

فكان مِنَ الجوابِ: خَبَرُ مَنْ شَهِدَ أَوَّلَها، وَغَرِقَ في وَسْطِها، وَنَجَا في آخِرِها.

قال: حَدَّثَنِي فَإِنَّ في رِوَايَتِهِ وَسَماعِهِ تَبَصُّرَةً وَتَعْجَبًا، وَزِيادَةً في التَّجَرِبَةِ. وَقَدْ

قِيلَ: تِجَارِبُ المَتَقَدِّمِينَ، مَرَايَا المَتَأَخِّرِينَ، كَمَا يُبْصَرُ فِيها ما كان، يُتَبَصَّرُ بها فيما سَيَكُونُ، والشاعِرُ قد قال:

والدَّهْرُ آخِرُهُ شِبْهُهْ بِأَوَّلِهِ ناسٌ كناسٍ وأَيَّامٌ كأَيَّامِ

وليس من حادِثَةٍ ماضِيَةٍ إِلَّا وهي تُعَرِّفُكَ الخِطَأَ والصَّوابَ مِنْها لِتَكُونَ على أَهْبَةٍ في أَخْذِكَ وتَرْكِكَ، وإِقْدَامِكَ ونُكُولِكَ، وَقَبْضِكَ وَبَسْطِكَ، وهذا وَإِنْ كانَ لا يَبْقَى كُلُّ الوِقايةِ، فَإِنَّهُ لا يُلْقَى في التَّهْلُكَةِ كُلِّ الإلْقاءِ.

كان أَوَّلُ هذه الحادِثَةِ الفُظيعةِ البَشِيعَةِ الَّتِي حَيَّرَتِ العقولَ وولَّهَتِ الألبابَ،

وسافَرَ عنها التوفيقُ، واستولَى عليها الخِذْلانُ، وَغَدِمَتْ فِيهِ البَصائرُ، شَيْءٌ كَلا شَيْءٍ،

وإذا أراد الله [تعالى ذكره] أن يُعْظِمَ صغيراً فَعَلَّ، وإذا شاء أن يُصَغِّرَ عظيماً قَدَرَ، لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ، ولا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، ولا رَادَّ لِقَضَائِهِ، ولا صَارِفَ لِقَدَرِهِ؛ وَقُدْرَةُ الإنسان محدودة، واستطاعته مُتَنَاهِيَةٌ، واختياره قَصِيرٌ، وطاقته مَعْرُوفَةٌ؛ وكلُّ ما جاوز هذا الحَدَّ وهذا التَّنَاهِي فهو الذي يَجْرِي على الإنسان شاء أو أبى، كَرِهَ أو رَضِيَ، وهاهنا يُفْرَعُ إلى الله مِن نَازِلِ المَكْرُوهِ، وحَادِثِ المَحْذُورِ.

وَذَلِكَ أَنَّ الرُّومَ تَهَاجَتْ على المُسْلِمِينَ، فَسَارَتْ إلى نَصِيبِينَ بِجَمْعِ عَظِيمٍ زَائِدٍ على ما عُهِدَ على مَرِّ السِّنِينَ، وَكَانَ هذا في آخِرِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ، فَخَافَ النَّاسُ بِالمُوصِلِ وما حَوْلَهَا، وَأَخَذُوا في الانْحِدَارِ على رُغْبٍ قُذِفَ في قُلُوبِهِمْ، لِيَكُونَ سَبَباً لِمَا صَارَ إِلَيْهِ الأَمْرُ؛ وَمَاجَ النَّاسُ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ واضْطَرَبُوا، وَتَقَسَّمَ هذا المَوْجُ والاضْطِرَابُ بين الخاصَّةِ والعامةِ؛ وَصَارَتِ العامَّةُ طَائِفَتَيْنِ، طَائِفَةٌ تَرَقُّ لِلدِّينِ ولِما دَهَمَ المُسْلِمِينَ، وَتَسْتَغْظِمُ ذَلِكَ فَرَقاً مِمَّا يَنْتَهَ إِلَيْهِ، بعد ما يُؤْتَى عَلَيْهِ؛ وَطَائِفَةٌ وَجَدَتْ فُرْصَتَهَا في العَيْثِ والفَسَادِ، وَالتَّهَبُّ والعَارَةَ بِوَسَاطَةِ التَّعَصُّبِ لِلْمَذْهَبِ.

وافتَرَقَتِ الخاصَّةُ أيضاً فَرَقَتَيْنِ: فَرَقَةٌ أَحَبَّتْ أن تَكُونَ لِلنَّاسِ حَمِيَّةً للإسلامِ، ونَهَوُصٌ إلى العَزْوِ، وَاتَّبَعَتْ في نُصْرَةِ المُسْلِمِينَ، إِذْ قد أَضْرَبَ السُّلْطَانُ عن هذا الحديثِ، لَانْهَمَاكِه في القُصْفِ والعَزْفِ، وإِغْرَاضِهِ عن المصالحِ الدِّينِيَّةِ، والخِيراتِ السِّيَاسِيَّةِ؛ وَطَائِفَةٌ اخْتَارَتِ السَّكُونَ والإِقْبَالَ على ما هُوَ أَحْسَمُ لِمَادَةِ الوُثُوبِ والهَنْجِ، وَأَقْطَعَ لَشَعْبِ الشَّاعِبِ، وَأَقَمَعَ لَخِلافِ المَتَّهَمِ، فَإِنَّ الاختلافَ إِذَا عَرَضَ خَفِيَ مَوْضِعُ الاتِّفَاقِ، وَالتَّبَسُّسِ الأَمْرُ على الصَّغَارِ والكِبَارِ؛ وَبِمِثْلِ هذا فُتِحَتِ البلادُ، وَمُكِّتَتِ الحُصُونُ، وَأُزِيلَتِ النُّعَمُ، وَأُرِيقَتِ الدِّمَاءُ، وَهَتِكَتِ المحَارِمُ، وَأُبِيدَتِ الأُمَمُ؛ وَنَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ وَمِمَّا قَرَّبَ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ؛ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا كَثُرَ بَوَاعِثُهُ، وَفَرَّقَ نَوَائِثُهُ^(١).

وَلَمَّا اشْتَغَلَتِ النَّائِرَةُ، وَاشْتَغَلَتِ الثَّائِرَةُ، صَاحَ النَّاسُ: التَّغْيِيرُ التَّغْيِيرُ، وَإِسْلَامُهُ، وَأُمُحَمَّدَاهُ، وَاصْوَاقَاهُ، وَاصْلَاتَاهُ، وَاحْجَاهُ، وَاعْزَوَاهُ، وَأَسْرَاهُ، فِي أَيْدِي الرُّومِ وَالطُّغَاةِ. وَكَانَ عِزُّ الدَّوْلَةِ قد خَرَجَ في ذَلِكَ الأَوَانِ إِلَى الكُوفَةِ لِلصَّيْدِ، وَلَاغْرَاضٍ غَيْرِ ذَلِكَ؛ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عِنْدَ الشُّيُوخِ والأُمَاثِلِ والوُجُوهِ والأَشْرَافِ والعُلَمَاءِ، وَكَانَتِ النِّيَّةُ بَعْدَ حَسَنَةٍ، وَلِلنَّاسِ فِي ظِلِّ السُّلْطَانِ مَبِيتٌ وَمَقِيلٌ، يَسْتَعْذِبُونَ وَرَدَهُ، وَيَسْتَسْهِلُونَ صَدْرَهُ، وَعَجُّوا وَضَجُّوا، وَقَالُوا: اللَّهُ اللَّهُ، انْظُرُوا فِي أَمْرِ الضُّعَفَاءِ وَأَحْوَالِ الْفُقَرَاءِ؛ وَاعْضُبُوا لِلَّهِ وَلِدِينِهِ؛ فَإِنَّ هَذَا الأَمْرَ إِذَا تَفَاقَمَ تَعَدَّى ضَعْفَاءَنَا إِلَى أَقْوِيَانَا، وَبَطَلَ رَأْيُ كِبَرَانَا فِي تَذْيِيرِ ضَعْفَرَانِنَا؛ وَالتَّدَارُكُ وَاجِبٌ، وَهُوَ الإِسْلَامُ، إِنْ لَمْ تَذُبْ عَنْهُ غَلَبَ الْكُفْرُ، وَهُوَ الأَمْنُ وَالسَّكُونُ إِنْ لَمْ يُحْفَظْ، فَهُوَ الخَوْفُ والبَلَاءُ وَذَهَابُ الْحَزْثِ

(١) نوابث الأمر: مثيرات دنيئة ومظاهرات خفيفة.

والتسل، وفَضِيحَةُ الْوَلَدِ وَالْأَهْلِ. فَسَكَّنَ الْمَشَايخُ مِنْهُمْ، وَطَيَّبُوا أَنْفُسَهُمْ، وَقَوَّوْا مُنْتَهُمَ وَوَعَدُوهُمْ أَنْ يَزْتَنُوا فِيهِ مُتَّفِقِينَ، وَيَجْتَمِعُوا عَلَيْهِ مُجْتَهِدِينَ، وَيَسْتَخِيرُوا اللَّهَ ضَارِعِينَ؛ وَانصَرَفَ النَّاسُ عَنْهُمْ.

وَاجْتَمَعَ الْقَوْمُ: أَبُو تَمَّامُ الزَّيْنَبِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ صَالِحِ بْنِ شَيْبَانَ، وَابْنُ مَعْرُوفٍ الْقَاضِي، وَابْنُ غَسَّانِ الْقَاضِي، وَابْنُ مُكْرَمٍ - وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الشُّهُودِ فِي سُوقِ يَحْيَى - وَابْنُ أَيُّوبَ الْقَطَّانِ الْعَدْلُ وَأَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ الْفَقِيهَ، وَعَلِيُّ بْنُ عِيسَى وَالْعَوَّامِيُّ صَاحِبَ الزَّبِيرِيِّ، وَابْنُ رَبَاطِ شَيْخِ الْكَرْخِ، وَنَائِبُ الشَّيْعَةِ وَلِسَانُ الْجَمَاعَةِ، وَابْنُ آدَمَ التَّاجِرِ، وَالشَّالُوسِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ، وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَطُولُ ذِكْرُهُمْ؛ وَتَشَاوَرُوا وَتَفَاوَضُوا، وَقَلَّبُوا الْأُمْرَ، وَشَعَّبُوا الْقَوْلَ؛ وَصَوَّبُوا وَصَعَّدُوا، وَقَرَّبُوا وَبَعَّدُوا وَالتَّامَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَخْرُجَ طَائِفَةٌ وَرَاءَ الْأَمِيرِ بِخِتَارٍ إِلَى الْكُوفَةِ وَتَلْقَاهُ وَتَعْرِفَهُ مَا قَدْ شَمِلَ مَدِينَةَ السَّلَامِ مِنَ الْإِهْتِمَامِ؛ وَأَنَّ الْخَوْفَ قَدْ غَلَبَهُمْ، وَأَنَّ الدُّعْرَ قَدْ مَلَكَهُمْ؛ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: لَوْ كَانَ لَنَا خَلِيفَةٌ أَوْ أَمِيرٌ أَوْ نَاطِرٌ سَائِسٌ لَمْ يُفْضَ الْأَمْرُ إِلَى هَذِهِ الشَّنَاعَةِ؛ وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُطِيعَ لِلَّهِ إِنَّمَا وَلَاهُ مَا وَرَاءَ بَابِهِ لِيَتَّقِظَ فِي لَيْلِهِ، مُتَفَكِّراً فِي مَصَالِحِ الرِّعَايَا، وَيُتَّقِذَ فِي نَهَارِهِ أَمراً وَنَاهياً مَا يَعُودُ بِمَرَاثِدِ الدِّينِ، وَمَنَافِعِ الدَّانِينَ وَالْقَاصِينَ وَإِلَّا فَلَا طَاعَةَ؛ وَكَلَاماً عَلَى هَذَا الطَّابِعِ، وَفِي هَذَا النَّسِجِ؛ فَاتَّفَقَ جَمَاعَةٌ عَلَى صَرِيمةِ الرَّأْيِ فِي الْحَرَكَةِ إِلَى الْكُوفَةِ، مِنْهُمْ أَبُو كَعْبٍ الْأَنْصَارِيُّ، وَأَبُو الْحَسَنِ مِذْرَةَ الْقَوْمِ، وَعَلِيُّ بْنُ عِيسَى، وَالْعَوَّامِيُّ، وَابْنُ حَسَّانِ الْقَاضِي صَاحِبُ الْوُقُوفِ، وَأَبُو أَحْمَدَ الْجُرْجَانِيُّ الْقَاضِي الْبَلِيعُ، وَابْنُ سَيَّارٍ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَبُو بَكْرٍ الرَّازِيُّ.

وَأَمَا جَعَلَ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ مَا بِهِ مِنْ وَجَعِ الثُّقْرِسِ، وَاسْتَعْفَى.

وَأَمَا أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيُّ، فَإِنَّهُ ذَكَرَ ضَعْفاً وَسِئاً، وَقَالَ: أَنَا أَعِينُ فِي هَذِهِ النَّائِبَةِ بِإِقَامَةِ رَجُلٍ جَلْدٍ مُزَاحٍ الْعِلَّةَ بِالْفَرَسِ وَالسَّلَاحِ، وَقَعَدَ الْجَمْعَ الْعَفِيرَ، وَسَارَتِ الْجَمَاعَةُ إِلَى الْكُوفَةِ، وَلَحَقَتْ عِزَّ الدَّوْلَةِ فِي التَّصِيدِ، وَانْتَظَرَتْهُ؛ فَلَمَّا عَادَ قَامَتْ فِي وَجْهِهِ وَاسْتَأْذَنْتْ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ عَلَى خَلْوَةٍ وَسُكُونٍ بِالْوَاقِلَةِ شُغْلٍ؛ فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِمْ، وَلَا عَاجَ عَلَيْهِمْ - وَكَانَ وَافِرَ الْحِظِّ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ، قَلِيلَ التَّحَاشِي مِنْ أَهْلِ الْفَضْلِ وَالْحِكْمَةِ - ثُمَّ قِيلَ لَهُ: إِنَّ الْقَوْمَ وَرَدُوا فِي مُهَمٍّ لَا يَجُوزُ التَّغَافُلُ عَنْهُ، وَالْإِمْسَاكُ دُونَهُ، فَأَذِنَ لَهُمْ بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعَتَمَةِ، فَجَلَسُوا بِحَضْرَتِهِ كَمَا اتَّفَقَ مِنْ غَيْرِ تَرْتِيبٍ، فَقَالَ: تَكَلَّمُوا.

فَقَالَ أَبُو الْوَفَاءِ الْمُهَنْدِسُ لِأَبِي بَكْرٍ الرَّازِيِّ: تَكَلَّمْ أَيُّهَا الشَّيْخُ، فَإِنَّكَ رِضَا الْجَمَاعَةِ، وَمَقْنَعُ الْعَصَابَةِ.

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا مَوْهَبَةَ إِلَّا مِنْهُ، وَلَا بَلَوَى إِلَّا بِقَضَائِهِ، وَلَا مَفْزَعَ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُسْرَ إِلَّا فِيمَا يَسَّرَهُ، وَلَا مَصْلَحَةَ إِلَّا فِيمَا قَدَّرَهُ؛ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ

المَصِير، وصَلَّى اللّٰهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُوْلِهِ الْمَبْعُوْث، إِلَى الْوَارِثِ وَالْمَوْرُوْث؛ أَمَا بَعْدَ، فَإِنَّ اللّٰهَ تَعَالَى قَدْ حَصَّ عَلَى الْجِهَادِ، وَأَمَرَ بِإِعْزَازِ الدِّينِ، وَالذَّبِّ عَنِ الْحَرَمِ وَالْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي الدَّهْرِ الصَّالِحِ، وَالزَّمَانِ الْمَطْمَئِنِّ؛ فَكَيْفَ إِذَا اضْطَرَبَ الْحَبْلُ وَانْتَكَشَتْ مَرِيرَتُهُ، وَأُبْرِرَ مَصُوْنُهُ، وَغُرِّيَ حَرِيْمُهُ بِالِاسْتِبَاحَةِ؛ وَنِيلَ جَانِبُهُ بِالضَّيْمِ، وَضُعُضِعَ مَنَارُهُ بِالرَّغَمِ، وَقَصِدَ رُكْنُهُ بِالْهَذْمِ، وَأَنْتَ أَيُّهَا الْمَوْلَى مِنْ وَرَاءِ سُدَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَطِيْعِ لِلّٰهِ، وَالْحَامِلِ لِأَعْيَابِ مُهْمَاتِهِ، وَالنَّاهِضِ بِأَثْقَالِ نَوَائِبِهِ وَأَحْدَانِهِ؛ وَالْمَفْرَعُ إِلَيْكَ، وَالْمَعْوَلُ عَلَيْكَ فَإِنْ كَانَ مِنْكَ جِدٌّ وَتَشْمِيرٌ فَمَا أَقْرَبَ الْفَرَجَ مِمَّا قَدْ أَظْلَلَ وَأَزْعَجَ، وَإِنْ كَانَ مِنْكَ تَوَانٍ وَتَقْصِيرٌ فَمَا أَضْعَبَهُ مِنْ خَطْبٍ؟ وَمَا أَبْعَدَهُ مِنْ شَعْبٍ!! وَقَدْ جِئْنَاكَ نَحْقُقُ عِنْدَكَ مَا بَلَغَكَ مِنْ تَوَسُّطِ هَذِهِ الطَّاعِيَةِ أَطْرَافِ الْمَوْصِلِ وَمَا وَالَاهَا، وَأَنَّ النَّاسَ قَدْ جَلَوْا عَنْ أَوْطَانِهِمْ، وَفَتَنُوا فِي أَذْيَانِهِمْ وَضَعُفُوا عَنْ حَقِيقَةِ إِيْمَانِهِمْ؛ لِلرُّغْبِ الَّذِي أَذْهَلَهُمْ، وَالْخَوْفِ الَّذِي وَهَلَهُمْ؛ وَإِنَّمَا هُمْ بَيْنَ أَطْفَالٍ صِغَارٍ، وَنِسَاءٍ ضِعَافٍ، وَشِيُوخٍ قَدْ أَخَذَ الزَّمَانُ مِنْهُمْ، فَهُمْ أَرْضٌ لِّكُلِّ وَاطِئٍ، وَنَهْبٌ لِّكُلِّ يَدٍ؛ وَشَبَابٌ لَا يَقْفُونَ لَعْدُوهُمْ لِقَلَّةِ سِلَاحِهِمْ، وَسُوءِ تَأْتِيهِمْ فِي الْقِرَاعِ وَالِدَّفَاعِ؛ وَنَحْنُ نَسْأَلُكَ أَنْ تَتَوَخَّى فِي أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ مَا يُزِلُّكَ عَنْهُ، وَيَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ ذُخْرٌ مِنْ شِفَاعَتِهِ. وَبِخِيَارِ مُطَرِّقٍ.

ثم اندفع علي بن عيسى فقال: أيها الأمير، إن الصغير يتدارك قبل أن يكبر، فكيف يجوز ألا يستقبل بالجد والاجتهاد وهو قد عسا وكبر. واللّه إن بنا إلا أن يظن أهل الجبل وأذربيجان وخراسان أنه ليس لنا ذاب عن حريمنا، ولا ناصر لديننا، ولا حافظ لبيصتنا، ولا مفرج لكربتنا، ولا من يهّمه شيء من أمورنا، فالله الله، لا تجرّن علينا سماتتهم بنا، وخذ بأيدينا بقوّتك، وحسن نيّتك، وحميد طويّتك، وعزك وسلطانك، وأوليائك وأغوانك، واكتب قبل هذا إلى عدّة الدّولة بما ينبعثه على حفظ أطرافه، وجراسته أكنافه، مع استطلاع الرأي من جهتك، ومطالعة أمير المؤمنين برأيك ومشورتك.

ثم رفع الأنصاري رأسه وقال: ليس في تكرير الكلام - أطل الله بقاء الأمير - فائدة كبيرة، ولئن كان الإيجاز في هذا الباب لا يكفي، فالإطناب فيه أيضاً لا يغني، واللّه لو نهضت بنا ونحن أخراض كما ترى لا نقلب مخصرة بكف، ولا نرمي دخروجة بيد، ولا نعرف سلاحاً إلا بالاسم، لنهضنا وسرنا تحت رايّتك، وتصرفنا بين أمرك ونهيك، وقدّيناك بأزواجنا ضناً بك، وبعثنا على مثل ذلك أحداثنا وأولادنا الذين ربّيناهم ببغمتك، وخرّجناهم في أيامك، وادخّرناهم للتوازل إذا قامت، والحوادث إذا ترامت، فإن كان في المال قلة فخذ من موبسنا وممن له فضل في حاله، فإنه يفرج عنه طاعة لك، وطمعاً فيما عند الله من الثواب.

وقال العَوَامِي: واللَّهُ ما سُمِّيَتْ لِلدَّوْلَةِ عِزًّا، إِلَّا لِأَنَّ اللَّهَ - تعالى - قد ذَخَرَكَ لِلْمُسْلِمِينَ كَنْزًا، وجعل لهم على يَدَيْكَ وبتدبيرك راحةً وفَوْزًا، ولم يُعَرِّضْكَ لِهَذِهِ الْفَادِحَةِ إِلَّا لِيُخَصِّصَكَ بِانْفِرَاجِهَا عَلَى يَدِكَ وَيُبْقِيَ لَكَ بِهَا ذِكْرًا يَطْبُقُ الْأَرْضَ وَيَبْلُغُ أَمْرَاءَ خُرَاسَانَ وَمِصْرَ وَالْحِجَازِ وَالْيَمَنِ فَيُصِيبَهُمُ الْحَسَدُ عَلَى مَا هَيَّأَ اللَّهُ لَكَ مِنْهَا.

وَنَظَرَ بِخِيَارٍ إِلَى ابْنِ حَسَّانِ الْقَاضِي - وكان مُنْبَسِطًا مَعَهُ لِقَدِيمِ خِدْمَتِهِ - فقال: أَيُّهَا الْقَاضِي، أَنْتَ لَا تَقُولُ شَيْئًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، وَمَا الْقَوْلُ وَعِنْدَكَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءُ، وَالْمَصَافِقُ الْأَبْيَاءُ؛ وَإِنْ سِرَّاجِي لَا يَزْدَهْرُ فِي شَمْسِهِمْ، وَإِنْ سَحَابَتِي لَا تَبُلُّ عَلَى بُلَالِهِمْ، وَقَدْ قَالُوا فَانْعَمُوا، وَجَرَوْا فَامْعَنُوا، وَلَيْسَ قُدَّامَهُمْ إِمَامٌ، وَلَا وَرَاءَهُمْ أَمَامٌ؛ لَكِنِّي أَقُولُ: مَا جَسَمْنَا إِلَيْكَ هَذِهِ الْكُلْفَ إِلَّا لَتَنْظُرَ عَلَى ضَعْفِ أَرْكَانِنَا، وَعُلُوِّ أَسْنَانِنَا وَقَلَّةِ أَغْوَانِنَا، لِأَنَّ رَأْيَنَّاكَ أَهْلًا لِلنَّظَرِ فِي أَمْرِنَا، وَالْاهْتِمَامِ بِحَالِنَا، وَبِمَا يَعُودُ نَفْعُهُ عَلَى صَغِيرِنَا وَكَبِيرِنَا.

فَقَالَ عِزُّ الدَّوْلَةِ: مَا زُويَ عَنِّي مَا طَرَقَ هَذِهِ الْبِلَادَ، وَلَقَدْ أَشْرَفْتُ عَلَيْهِ، وَفَكَّرْتُ فِيهِ، وَمَا أَحْبَبْتُ تَجَسُّمَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ عَلَى الْوَجْهِ. وَمَا أَعْجَبَنِي هَذَا التَّقْرِيعُ مِنَ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَمَا كَانَ يَجُوزُ لِي أَنْ أَنْعَسَ عَلَى هَذِهِ الْكَارِثَةِ، وَأَنْعَمَ بِالْعَيْشِ مَعَهَا، وَلَعَمْرِي إِنَّ الْعُقْلَةَ عَلَيْنَا أَغْلَبَ، وَالسَّهْوُ فِينَا أَعْمَلَ، وَلَكِنْ فِيمَا رَكِبْتُمُوهُ مِنِّي تَهْجِينٌ شَدِيدٌ، وَتَوْبِيخٌ فَاحِشٌ، وَإِنَّ هَذَا الْمَجْلِسَ لِمِمَّا يُتَهَادَى حَدِيثُهُ بِالزَّائِدِ وَالنَّاقِصِ، وَالْحَسَنِ وَالْقَبِيحِ، وَإِنَّكُمْ لَتَنْظُرُونَ أَنْكُمْ مَظْلُومُونَ بِسُلْطَانِي عَلَيْكُمْ، وَوَلَايَتِي لِأُمُورِكُمْ؛ كَلًّا، وَلَكِنْ كَمَا تَكُونُونَ يُؤَلَّى عَلَيْكُمْ؛ هَكَذَا قَوْلُ صَاحِبِ الشَّرِيعَةِ فِينَا وَفِيكُمْ؛ وَاللَّهُ لَوْ لَمْ تَكُونُوا أَشْبَاهِي لَمَّا وَلَيْتُكُمْ، وَلَوْ لَا أَنِّي كَوَاحِدٍ مِنْكُمْ، لَمَّا جُعِلْتُ قِيمًا عَلَيْكُمْ؛ وَلَوْ خَلَا كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بَعِيبَ نَفْسِهِ لَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَسْعُهُ وَعْظُ غَيْرِهِ، وَتَهْجِينُ سُلْطَانِهِ؛ أَيْظُنُّ هَذَا الشَّيْخُ أَبُو بَكْرٍ الرَّازِي أَنَّنِي غَيْرُ عَالِمٍ بِنِفَاقِهِ، وَلَا عَارِفٍ بِمَا يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ يَلْقَانِي بِوَجْهِ صُلْبٍ، وَلِسَانٍ هَذَّارٍ يُرِي مِنْ نَفْسِهِ أَنَّهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَعْظُ الْحَجَّاجَ بْنَ يُونُسَ، أَوْ وَاصِلُ بْنُ عَطَاءٍ يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، أَوْ ابْنُ السَّمَكِ يُرْهِبُ الْفُجَّارَ؛ هَذَا قَبِيحٌ، وَلَوْ سَكَتُ عَنْ هَذَا لَكَانَ عِيًّا وَعَجْزًا؛ جَزَى اللَّهُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ شَيْخَنَا خَيْرًا حِينَ جَلَسَ، وَكَذَلِكَ أَحْسَنَ اللَّهُ عَنَّا مَكَافَأَةَ أَبِي سَعِيدِ السَّيرَافِيِّ، فَإِنَّهُ لَوْ عَلِمَ أَنَّ فِي مُسَاعَدَتِكُمْ رُشْدًا لَمَّا تَوَقَّفَ؛ وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا الْحَسَنِ - يُرِيدُ عَلِيَّ بْنَ عِيسَى - فَوَاحِقُ أَبِي إِبْنِي لِأَجْبُ لِقَاءَكَ، وَأَوْثَرُ قُرْبِكَ، وَلَوْ لَا مَا يَبْلُغُنِي مِنْ مُلَازِمَتِكَ لِمَجْلِسِكَ، وَتَذَرِيسِكَ لِمُخْتَلِفَتِكَ، وَإِكْبَابِكَ عَلَى كِتَابِكَ فِي الْقُرْآنِ، لَعَلَّبْتُكَ عَلَى زَمَانِكَ، وَلَا اسْتَكْثَرْتُ مِمَّا قَلَّ حَظِّي مِنْهُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي أَنَا مَذْفُوعٌ إِلَيْهَا، فَإِنَّهَا وَازِعَةٌ عَلَى هَوَى النَّفْسِ، وَطَاعَةِ الشَّيْطَانِ، وَمُنَازَعَةٌ الْأَكْفَاءِ، وَجَمْعُ الْمَالِ، وَأَخْذُهُ مِنْ حَيْثُ يَجِبُ أَوْ لَا يَجِبُ، وَتَفَرُّقَتُهُ فِيمَنْ يَسْتَحِقُّ وَمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ، وَإِلَى اللَّهِ أَفْزَعُ فِي قَلِيلِ أَمْرِي وَكَثِيرِهِ، إِذَا شِئْتُمْ.

قال لي أبو الوفاء - وهو الذي شَرَحَ لي المجلسَ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ -: لقد شاهدتُ من عِزِّ الدولة في ذلك المجلس؛ المنصور^(١) في جِدِّهِ وشَهَامَتِهِ، وثباتِ قَلْبِهِ وقُوَّةِ لِسَانِهِ، مع بَحْجٍ لَذِيذٍ ولُثْغَةٍ خُلوةٍ.

قال: لو قد قُلْتُ له بعد ذلك: أَيُّهَا الأمير، ما ظننتُ أنك إذا خَلَعْتَ رِدَاءَكَ وَنَزَعْتَ جِذَاءَكَ تَقُولُ ذلك المَقال، وَتَجُولُ ذلك المَجال، وَتَنالُ ذَلِكَ المَنال، لقد انصَرَفَ ذَلِكَ الرَّهْطُ عَلَى هَيْبَةٍ لَكَ شَدِيدَةٍ، وَتَعْظِيمٍ بِالْغ، وَلَقَدْ تَدَاوَلُوا لَفْظَكَ، وَتَتَبَعُوا مَعَانِيكَ، وَتَشَاحُوا عَلَى نَظْمِكَ، وَقَالُوا: مَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يُسِيءَ ظَنَّهُ بِأَحَدٍ إِلَّا بَعْدَ الْخِبْرَةِ وَالْعِيَانِ، وَإِلَّا بَعْدَ الشَّهَادَةِ وَالْبَيَانِ؛ أَهَذَا يُقَالُ لَهُ مُتَخَلِّفٌ أَوْ نَاقِصٌ؟ لِلَّهِ دَرَهُ مِنْ شَخْصٍ! وَلِلَّهِ أَبَوُهُ مِنْ فَتَى مِذْرَه!

ولما بَلَغَ هذا المجلسُ الَّذِي قَعَدُوا عَنْ الْمَسِيرِ إِلَيْهِ - أَغْنِي عِزُّ الدَّوْلَةِ - حَمِدُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَعَلِمُوا أَنَّ الْخَيْرَةَ كَانَتْ قَرِينَةً اخْتِيَارَهُمْ.

قال الوزير: قرأتُ ما دَوَّنَهُ الصَّابِي أَبُو إِسْحَاقَ فِي (التَّاجِي) فما وَجَدْتُ هذا الْحَدِيثَ فِيهِ.

قُلْتُ: لَعَلَّهُ لَمْ يَقَعْ إِلَيْهِ، أَوْ لَعَلَّهُ لَمْ يَرِ التَّطْوِيلَ بِهِ، أَوْ لَعَلَّهُ لَمْ يَسْتَخِفَّ ذِكْرَ عِزِّ الدَّوْلَةِ عَلَى هَذَا الْوَجْهِ.

قال: هذا مُمَكِّنٌ؛ فَهَلْ سَمِعْتَ فِي أَيَّامِ الْفِتْنَةِ بِغَرِيبَةٍ؟

قُلْتُ: كُلُّ مَا كُتِبَ فِيهِ كَانَ غَرِيباً بَدِيعاً، عَجِيباً شَنِيعاً، حَصَلَ لَنَا مِنَ الْعِيَّارِينَ قُوَاد، وَأَشْهَرُهُمْ، ابْنُ كَبْرِيَّهِ، وَأَبُو الدُّودِ، وَأَبُو الذُّبَابِ، وَأَسْوَدُ الزُّبْدِ، وَأَبُو الْأَرْضَةِ، وَأَبُو التَّوَابِجِ، وَشُنَّتِ الْغَارَةُ، وَاتَّصَلَ النَّهَبُ، وَتَوَالَى الْحَرِيقُ حَتَّى لَمْ يَصِلْ إِلَيْنَا الْمَاءُ مِنْ دِجْلَةٍ، أَغْنِي الْكَرْخَ.

فَمِنْ غَرِيبٍ مَا جَرَى أَنَّ أَسْوَدَ الزُّبْدِ كَانَ عَبْدًا يَأْوِي إِلَى قَنْطَرَةِ الزُّبْدِ وَيَلْتَقِطُ النَّوَى وَيَسْتَطْعِمُ مَنْ حَضَرَ ذَلِكَ الْمَكَانَ بِلَهْوٍ وَلَعِبٍ، وَهُوَ غُرْيَانٌ لَا يَتَوَارَى إِلَّا بِخُرْقَةٍ، وَلَا يُؤْبَهُ لَهُ، وَلَا يَبَالِي بِهِ، وَمَضَى عَلَى هَذَا دَهْرٍ، فَلَمَّا حَلَّتِ النَّفْثَةُ أَغْنِي لَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ، وَفَشَا الْهَرْجُ وَالْمَرْجُ، وَرَأَى هَذَا الْأَسْوَدُ مِنْ هُوِ أَضْعَفَ مِنْهُ قَدْ أَخَذَ السَّيْفَ وَأَغْمَلَهُ، طَلَبَ سَيْفًا وَشَحَذَهُ، وَنَهَبَ وَأَغَارَ وَسَلَبَ، وَظَهَرَ مِنْهُ شَيْطَانٌ فِي مَسْكِ إِنْسَانٍ، وَضَبِحَ وَجْهَهُ، وَعَذَّبَ لَفْظَهُ، وَحَسَنَ جِسْمَهُ، وَعُشِقَ وَعُشِقَ، وَالْأَيَّامُ تَأْتِي بِالْغَرَائِبِ وَالْعَجَائِبِ، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَقُولُ فِي مَوَاعِظِهِ: الْمَعْتَبَرُ كَثِيرٌ، وَالْمَعْتَبِرُ

قليل . فلما دُعِيَ قَائِداً وَأَطَاعَهُ رِجَالٌ وَأَعْطَاهُمْ وَفَرَّقَ فِيهِمْ ، وَطَلَبَ الرَّأْسَةَ عَلَيْهِمْ ، صَارَ جَانِبُهُ لَا يُرَامُ ، وَحِمَاهُ لَا يُضَامُ .

فَمِمَّا ظَهَرَ مِنْ حُسْنِ خُلُقِهِ - مَعَ شَرِّهِ وَلَعَنَتِهِ ، وَسَفْكِهِ لِلدَّمِ ، وَهَتْكِهِ لِلْحُرْمَةِ ، وَرُكُوبِهِ لِلْفَاحِشَةِ ، وَتَمَرُّدِهِ عَلَى رَبِّهِ الْقَائِدِ ، وَمَالِكِهِ الْقَاهِرِ - أَنَّهُ اشْتَرَى جَارِيَةً كَانَتْ فِي النَّخَّاسِينَ عِنْدَ الْمُوصِلِيِّ بِأَلْفِ دِينَارٍ ، وَكَانَتْ حَسَنَاءَ جَمِيلَةٍ ، فَلَمَّا حَصَلَتْ عِنْدَهُ حَاوَلَ مِنْهَا حَاجَتَهُ ، فَاْمْتَنَعَتْ عَلَيْهِ ، فَقَالَ لَهَا : مَا تَكْرَهِينَ مِنِّي ؟ قَالَتْ : أَكْرَهُكَ كَمَا أَنْتَ . فَقَالَ لَهَا : فَمَا تُحِبِّينَ ؟ قَالَتْ : أَنْ تَتَّبِعَنِي ، قَالَ لَهَا : أَوْ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ أَغْتَقُكَ وَأَهْبُ لَكَ أَلْفَ دِينَارٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَأَغْتَقَهَا وَأَعْطَاهَا أَلْفَ دِينَارٍ بِحَضْرَةِ الْقَاضِي ابْنِ الدَّقَاقِ عِنْدَ مَسْجِدِ ابْنِ رَغْبَانَ ، فَعَجِبَ النَّاسُ مِنْ نَفْسِهِ وَهِمَّتِهِ وَسَمَاحَتِهِ ، وَمِنْ صَبْرِهِ عَلَى كَلَامِهَا ، وَتَرَكَ مُكَافَأَتَهَا عَلَى كَرَاهَتِهَا ، فَلَوْ قَتَلَهَا مَا كَانَ أَتَى مَا لَيْسَ مِنْ فِعْلِهِ فِي مِثْلِهَا .

قال الوزير : هذا والله طَريف ، فما كان آخِرُ أَمْرِهِ ؟ قُلْتُ : صَارَ فِي جَانِبِ أَبِي أَحْمَدَ الْمُوسَوِيِّ وَحِمَاهُ ، ثُمَّ سَيَّرَهُ إِلَى الشَّامِ فَهَلَكَ بِهَا .

قال : وكيف سَلِمْتَ فِي هَذِهِ الْحَالَاتِ ؟

قُلْتُ : وَمَتَى سَلِمْتُ ؟ جَاءَتِ النِّهَابَةُ إِلَى بَيْنِ السُّورَيْنِ وَشَتُّوا الْغَارَةَ وَاكْتَسَحُوا مَا وَجَدُوا فِي مَنْزِلِي مِنْ ذَهَبٍ وَثِيَابٍ وَأَثَاثٍ ، وَمَا كُنْتُ ذَخَرْتُهُ مِنْ تَرَاثِ الْعُمَرِ ؛ وَجَرَدُوا السَّكَاكِينَ عَلَى الْجَارِيَةِ فِي الدَّارِ يَطَالِبُونَهَا بِالْمَالِ ، فَانْشَقَّتْ مَرَارَتُهَا ، وَدُفِنْتُ فِي يَوْمِهَا ، وَأَمْسَيْتُ وَمَا أَمْلِكُ مَعَ الشَّيْطَانِ فَجْرَةَ ، وَلَا مَعَ الْغُرَابِ نَقْرَةَ .

أَيُّهَا الشَّيْخُ - وَقَفَّكَ اللَّهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِكَ ، وَكَانَ لَكَ فِي كُلِّ مَقَالِكَ وَفَعَالِكَ - إِنَّمَا نَشَرْتُ بِالْقَلَمِ مَا لَاقَ بِهِ ؛ فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي كَانَ يَجْرِي بَيْنِي وَبَيْنَ الْوَزِيرِ فَكَانَ عَلَى قَدَرِ الْحَالِ وَالْوَقْتِ وَالْوَاجِبِ ؛ وَالْإِتْسَاعُ يَتَّبِعُ الْقَلَمَ مَا لَا يَتَّبِعُ اللِّسَانَ ، وَالرَّوْيَةُ تَتَّبِعُ الْخَطَّ مَا لَا تَتَّبِعُ الْعِبَارَةَ ، وَلَمَّا كَانَ قَصْدِي فِيمَا أَعْرَضَهُ عَلَيْكَ ، وَأَلْقِيهِ إِلَيْكَ ، أَنْ يَبْقَى الْحَدِيثُ بَعْدِي وَبَعْدَكَ ، لَمْ أَجِدْ بُدًّا مِنْ تَنْمِيقِ يَزْدَانُ بِهِ الْحَدِيثَ ، وَإِضْلَاحِ يَحْسُنُ مَعَهُ الْمَعْرَى ، وَتَكْلِيفِ يَتْلُغُ بِالْمُرَادِ الْغَايَةَ ، فَلْيَقُمْ الْعُذْرُ عِنْدَكَ عَلَى هَذَا الْوَصْفِ ، حَتَّى يَزُولَ الْعُتْبُ ، وَيُسْتَحَقَّ الْحَمْدُ وَالشُّكْرُ .

الليلة التاسعة والثلاثون

وقال الوزير ليلة: يعجبني الجواب الحاضر، واللفظ النادر، والإشارة الحُلوة، والحركة الرضيّة، والتَّعْمَةُ المُتَوَسِّطَةُ، لا نازلةً إلى قَعْرِ الحَلْق، ولا طافِحَةً على الشفة. فكان من الجواب: أَقْتَرَّاحُ الشَّيْءِ عَلَى الكَمَالِ سَهْلٌ، وَلَكِنْ وَجَدَانَهُ عَلَى ذَلِكَ صَعْبٌ، لِأَنَّ التَّمَنِّيَّ صَفْوُ النَّفْسِ الحَسْبِيَّةِ، وَنَيْلُ المَتَمَنَّى فِي الفُرْصَةِ المَحْشُوءَةِ بِالحِيلِوَلَةِ. وقد قال المدائني: أَحْسَنُ الجَوَابِ مَا كَانَ حَاضِراً مَعَ إِصَابَةِ المَعْنَى وَإِيجَازِ اللَّفْظِ وَبُلُوغِ الحِجَّةِ.

وقال أبو سليمان شارحاً لهذا: أَمَّا حُضُورُ الجَوَابِ فَلْيَكُنْ الظَّفَرُ عِنْدَ الحَاجَةِ، وَأَمَّا إِيجَازُ اللَّفْظِ فَلْيَكُنْ صَافِياً مِنَ الحَشْوِ، وَأَمَّا بُلُوغُ الحِجَّةِ فَلْيَكُنْ حَسْماً لِلْمُعَارِضَةِ. قال: مَا أَحْسَنَ مَا وَشَّحَ هَذِهِ الفَقْرَةَ بِهَذِهِ الشُّذْرَةِ!

وَحَكَى المَدَائِنِيُّ قَالَ: قَالَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ: مَا مِنْ شَيْءٍ يُوْتَاهُ العَبْدُ بَعْدَ الإِيْمَانِ بِاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَوَابٍ حَاضِرٍ، فَإِنَّ الجَوَابَ إِذَا تُعَقِّبَ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَقَعٌ. وَحَكَى المَدَائِنِيُّ بِإِسْنَادِهِ عَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَوْشَبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِعَمْرُو بْنِ الأَهْتَمِ التَّمِيمِيِّ: أَخْبِرْنِي عَنِ الزُّبْرِقَانِ بْنِ بَذْرٍ، فَقَالَ: مُطَاعٌ فِي أَذْنِيهِ، شَدِيدُ العَارِضَةِ، مَانِعٌ لِمَا وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَقَالَ الزُّبْرِقَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ لَيَعْلَمُ مِنِّي أَكْثَرَ مِنْ هَذَا، وَلَكِنَّهُ حَسَدَنِي، فَقَالَ عَمْرُو: أَمَّا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ لَزِمَرُ المَرْوَةِ، ضَيِّقُ العَطَنِ، لَثِيمُ الخَالِ، أَحْمَقُ الوَالِدِ، وَمَا كَذَبْتُ فِي الأَوَّلِ، وَلَقَدْ صَدَقْتُ فِي الأُخْرَى، وَلَقَدْ رَضِيتُ فَقُلْتُ أَحْسَنَ مَا عَلِمْتُ، وَسَخِطْتُ فَقُلْتُ أَسْوَأَ مَا عَلِمْتُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنَ البَيَّانِ لَسِحْراً وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْماً»^(١).

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال، باب الشعر المحمود حديث رقم ٨٩٦٨ - عن أحمد بن بكر الأسدي: حدثنا أبي أنه أتى رسول الله ﷺ، فلما رأى فصاحته قال له: ويحك يا أسدي هل قرأت القرآن مع ما أرى من فصاحتك؟ قال: لا ولكني قلت شعراً، فأسمعه مني، قال: فقل قال:

وحي ذوي الأضغان تسب قلوبهم	تحيتك الأدنى فقد يرفع النغل
فإن عالنوا بالشرفاعلن بمثله	وإن دحسوا عنك الحديث فلا تسل
وإن الذي يؤذيك منه سماعه	كأن الذي قالوه بعدك لم يقل

وقال أبو سليمان: السَّحَرُ بالقَوْلِ الأَعْمِ والرَّسْمِ المُفِيدِ على أَرْبَعَةِ أَصْرُب: سِحْرٌ عَقْلِيّ، وهو ما يَدْرُ من الكلامِ المُشْتَمِلِ على غريبِ المَعْنَى في أيِّ فنٍّ كان؛ وسِحْرٌ طَبِيعِيّ، وهو ما يَظْهَرُ من آثارِ الطَّبِيعَةِ في العَنَاصِرِ المُتَهَيِّئَةِ والموادِّ المُسْتَجِيبَةِ، وسِحْرٌ صِنَاعِيّ، وهو ما يوجَدُ بِخِفَّةِ الحركاتِ المباشِرَةِ، وتصريفها في الوُجُوهِ الخَفِيَّةِ عن الأبصارِ المُحَدَّقَةِ، وسِحْرٌ إلهي وهو ما يَبْدُو من الأَنفُسِ الكَرِيمَةِ الطَّاهِرَةِ بِاللَّفْظِ مرّةً، وبالفِعْلِ مرّةً. وعَرَضَ كُلُّ واحدٍ من هذه الصُّرُوبِ واسع، وكلُّ حِذْقٍ ومهارةٍ وبلوغٍ قاصِيَةٍ في كُلِّ أمرٍ هو سِحْرٌ، وصاحبُه ساجِرٌ.

وقال المدائني: نظرَ ثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْرِ إلى أهل الشام فَشَتَمَهُمْ، فقال له سعيد بن عُثْمَانَ بن عَقَّان: أَتَشْتُمُهُمْ لَأَنَّهُمْ قَتَلُوا أَبَاكَ؟ فقال: صَدَقْتَ، ولكنَّ المُهاجِرِينَ والأَنْصَارَ قَتَلُوا أَبَاكَ.

وقال عبد الملك بن مَرْوَانَ لثابت بن عبد الله بن الزُّبَيْرِ: أَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِكَ حينَ شَتَمَكَ، فقال: يا أمير المؤمنين، أَتَدْرِي لِمَ كَانَ يَشْتُمُنِي؟ إِنِّي نَهَيْتُهُ أَنْ يُقَاتِلَ بِأَهْلِ مَكَّةَ وَأَهْلَ الْمَدِينَةِ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَنْصُرُهُ بِهِمَا، وَقُلْتُ لَهُ، أَمَّا أَهْلُ مَكَّةَ فَأَخْرَجُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَخَافُوهُ، ثُمَّ جَاءُوا إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَخْرَجَهُمْ مِنْهَا وَشَرَّدَهُمْ. - فَعَرَّضَ بِالْحَكَمِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ - وَهُوَ جَدُّ عَبْدِ الْمَلِكِ - وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ نَفَاهُ. - وَأَمَّا أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَخَذَلُوا عُثْمَانَ حَتَّى قُتِلَ بَيْنَهُمْ، لَمْ يَرَوْا أَنْ يَدْفَعُوا عَنْهُ. فقال له عبدُ الْمَلِكِ: لَحَاكَ اللَّهُ.

وقال عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ خَالِدِ بنِ الْوَلِيدِ لِمُعَاوِيَةَ: أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ بِمَكَّةَ لَعَلِمْتُ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: كُنْتُ أَكُونُ ابْنَ أَبِي سُفْيَانَ يَنْشُقُّ عَنِي الْأَبْطَحَ، وَكُنْتُ أَنْتَ ابْنَ خَالِدِ مَنَزِلِكَ أَجْيَادَ، أَعْلَاهُ مَدْرَةٌ، وَأَسْفَلُهُ عَذْرَةٌ.

وقال المَدَائِنِيُّ: قَالَ ابْنُ الضُّحَّاكِ بن قيس الفِهْرِيُّ لَهْشَامِ بن عبد الْمَلِكِ قَبْلَ أَنْ يَمْلِكَ - وَهُوَ يَوْمُئِذٍ غُلَامٌ شَابٌ -: يَا بن الخَلَائِفِ، لَمْ تُطِيلْ شَعْرَكَ وَقَمِيصَكَ؟ قَالَ أَكْرَهُ أَنْ أَكُونَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

قَصِيرُ الْقَمِيصِ فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ وَشَرُّ غِرَاسٍ فِي قُرْنِشٍ مُرَكَّبَا

قال: وهذا الشعرُ لأبي خَالِدٍ مَرْوَانَ بنِ الْحَكَمِ، هَجَا بِهِ الضُّحَّاكُ بن قيس.

وَحَكَى أَيْضاً، قَالَ: مَرَّ عَطَاءُ بنُ أَبِي صَيْفِيٍّ بِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ وَعَطَاءٌ عَلَى فَرَسٍ لَهُ؛ فَقَالَ لَهُ بَعْدَ الرَّحْمَنِ: يَا عَطَاءُ، لَوْ وَجَدْتَ زِمَامَ زِقِّ الْخَمْرِ

= فقال النبي ﷺ: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً، وَإِنْ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ» ثُمَّ أَقْرَأَهُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدُ اللَّهِ الصَّمَدُ﴾ فزاد فيها قائم على الرصد لا يفوته أحد، فقال النبي ﷺ: دعها فإنها شافية كافية مر برقم ٨٩٥١.

خالياً ما كنتَ تَصْنَعُ به؟ قال: كنت آتي به دُورَ بَنِي النَّجَّارِ فَأَعْرِفُهُ فَإِنَّهُ ضَالَّةٌ مِنْ ضَوَالِهِمْ، فَإِنْ عَرَفُوهُ وَإِلَّا فَهُوَ لَكَ لَمْ يَعُدَّكَ، وَلَكِنْ أَخْبِرْنِي أَيُّ جَدِّكَ أَكْبَرُ، أَفُرَيْعَةُ أَمْ ثَابِتٌ؟ قال: لا أَذْرِي. قال: فَلِمَ يَعْنيكَ ما في كَنَائِنِ الرُّجَالِ وَأَنْتَ لا تَذَرِي أَيُّ جَدِّكَ أَكْبَرُ؟ بل فُرَيْعَةُ أَكْبَرُ مِنْ ثَابِتٍ، وَقَدْ تَزَوَّجَهَا قَبْلَهُ أَرْبَعَةُ كُلُّهُمْ يَلْقَاهَا بِمِثْلِ ذِرَاعِ الْبَكْرِ، ثُمَّ يُطَلِّقُهَا عَنْ قَلْبِي؟ فَقَالَ لَهَا نِسْؤُهُ مِنْ قَوْمِهَا: وَاللَّهِ يَا فُرَيْعَةُ إِنَّكَ لَجَمِيلَةٌ، فَمَا بَالُ أَرْوَاجِكَ يُطَلِّقُونَكَ؟ قالت: يُرِيدُونَ الضِّيقَ ضَيْقَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

وَحَكَى أَيْضاً قَالَ: قَالَ أَبُو السَّفَرِ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسِيرُ إِذْ رُفِعَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ قَبْرُ أَبِي سَعِيدٍ بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لَعَنَ اللَّهُ صَاحِبَ هَذَا الْقَبْرِ، فَإِنَّهُ كَانَ يُكَذِّبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَقَالَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ - وَهُوَ فِي الْقَوْمِ -: لا بَلْ لَعَنَ اللَّهُ أَبَا قُحَافَةَ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَقْرِي الضَّيْفَ، وَلَا يَمْنَعُ الضَّيْمَ، وَلَا يُقَاتِلُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا سَبَّيَ الْمُشْرِكُونَ فَعُمُّوهُمْ بِالسَّبِّ، وَلَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّ سَبَّ الْأَمْوَاتِ يُغْضِبُ الْأَحْيَاءَ»؟.

قال محمد بن عُمارة: فذاكرت بهذا الحديث رجلاً من أصحاب الحديث من وَلَدِ سَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ، فَعَرَفَهُ، فَقَالَ: فِيهِ زِيَادَةٌ لَيْسَتْ عِنْدَكُمْ، قُلْتُ: وَمَا هِيَ؟ فَقَالَ: قَالَ خَالِدُ بْنُ أَسِيدٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا يَسُرُّنِي أَنَّهُ فِي أَعْلَى عِلِّيْنِ وَأَنَّ أَبَا قُحَافَةَ وَلَدُهُ. فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، وَقَالَ: «لَا تَسُبُّوا الْأَمْوَاتَ فَإِنَّ سَبَّهُمْ يُغْضِبُ الْأَحْيَاءَ».

وَحَكَى قَالَ: رَمَى عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيُّ إِلَى عُرَامَ بْنِ شُتَيْرٍ بِخَاتَمٍ لَهُ فُضَّةٌ - وَقَدْ زُوِّجَ - فَعَقَدَ عَلَيْهِ عُرَامَ سَيْراً وَرَدَّهُ إِلَى ابْنِ هُبَيْرَةَ. أَرَادَ ابْنُ هُبَيْرَةَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

لَقَدْ زَرِقْتَ عَيْنَاكَ يَا بَنَ مُلْعَنِ كَمَا كُلُّ ضَبِّي مِنَ اللَّوْمِ أَزْرَقُ
وعرَّضَ له عُرَامُ بِقَوْلِ ابْنِ دَاوُدَ:

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيّاً خَلَوْتُ بِهِ عَلَى قَلْوَصِكَ وَاکْتُئِبَهَا بِأَسْيَارِ

وقال المدائني: وكان ابنُ هُبَيْرَةَ يُسَايِرُ هَلَالَ بْنَ مُكَّمَلِ الثُّمَيْرِيِّ، فَتَقَدَّمَتْ بَغْلَةُ الثُّمَيْرِيِّ بَغْلَةُ ابْنِ هُبَيْرَةَ. فَقَالَ: غَضُّ مِنْ بَغْلَتِكَ. فَالْتَمَتَ إِلَيْهِ الثُّمَيْرِيُّ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ، إِنَّهَا مَكْتُوبَةٌ. وَإِنَّمَا أَرَادَ ابْنُ هُبَيْرَةَ:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فَلَا كَغِبَابٍ بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَأَرَادَ الثُّمَيْرِيُّ قَوْلَ سَالِمِ بْنِ دَاوُدَ:

لَا تَأْمَنَنَّ فَزَارِيّاً خَلَوْتُ بِهِ عَلَى قَلْوَصِكَ وَاکْتُئِبَهَا بِأَسْيَارِ

وقال الوليد العنبري: مرَّت امرأةٌ مِنْ بَنِي نُمَيْرٍ عَلَى مَجْلِسٍ لَهُمْ، فَقَالَ رَجُلٌ

منهم: أيتها الرسحاء. فقالت المرأة: يا بني نُمَيْر، واللّه ما أطعتم الله ولا أطعتم الشاعر، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصَرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]. وقال الشاعر:

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ فلا كَغِبَابٍ بَلَغْتَ ولا كِلَابَا

وقال: مرّ الفرزدقُ بخالد بن صَفْوَان بن الأَهم، فقال له خالد: يا أبا فِرَاس، ما أنت الذي لَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتُهُ وَقَطَعْتَ أَيْدِيَهُنَّ، فقال له الفرزدق: ولا أنت الذي قالت الفتاة لأبيها فيه: ﴿يَتَأَبَّتْ أَسْتَجِرُّهُ إِنَّكَ خَيْرَ مَنْ أَسْتَجَرَّتْ أَلْفُؤُ الْآمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

قال: ودخل يزيد بن مُسْلِم على سُلَيْمَان بن عبد المَلِك، وكان مُصَفَّرًا نحيفًا، فقال سُلَيْمَان: على رَجُلٍ أَجْرَكَ رَسَنَكَ وَسَلَطَكَ على المُسلمين لَعْنَةُ اللَّهِ. فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرُ عَنِّي مَدِيرٌ، فلو رَأَيْتَنِي وهو عَلَيَّ مُقْبِلٌ لَأَسْتَغْظَمْتُ مَتْنِي يَوْمَئِذٍ مَا اسْتَغْضَرْتُ الْيَوْمَ. قال: فَأَيْنَ الْحَجَّاج؟ قال: يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ أَبِيكَ وَأَخِيكَ، فَضَعَهُ حَيْثُ شِئْتَ.

وقال عُبَاد بن زياد: كنتُ عند عبد المَلِك بن مروان إذ أتاه أبو يوسف حاجِبُهُ، فقال: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هذه بُثَيْنَةُ. قال: أَبُثَيْنَةُ جَمِيلٌ؟ قال: نعم، قال أَدْخِلْهَا، فَدَخَلَتْ امْرَأَةً أَدْمَاءَ طَوِيلَةً يُعْلَمُ أَنَّهَا كَانَتْ جَمِيلَةً، فقال له: يا أبا يوسف أَلْقِ لَهَا كُرْسِيًا، فَأَلْقَاهُ لَهَا، فقال لها عَبْدُ المَلِك: وَيْحَكَ مَا رَجَا مِنْكَ جَمِيلٌ، قالت: الذي رَجَتْ مِنْكَ الْأُمَةُ حِينَ وَلَدْتَ أَمْرَهَا.

وقال سَعِيدُ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن حَسَّان: إِنَّ رَهْطًا مِنَ الْأَنْصَارِ دَخَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ، فقال: يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، قُرَيْشٌ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْكُمْ لَهُمْ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ لِقَتْلِي أَحَدٌ، فَقَدْ قَتَلْتُمْ يَوْمَ بَذْرِ مِثْلَهُمْ؛ وَإِنْ يَكُنْ لِإِمْرَةٍ فَوَاللَّهِ مَا جَعَلْتُمْ لِي إِلَى صَلَاتِكُمْ سَبِيلًا؛ خَذَلْتُمْ عُثْمَانَ يَوْمَ الدَّارِ، وَقَتَلْتُمْ أَنْصَارَهُ يَوْمَ الْجَمَلِ، وَصَلَيْتُمْ بِالْأَمْرِ يَوْمَ صِفِّينَ. فَتَكَلَّمَ رَجُلٌ مِنْهُمْ، فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَمَّا قَوْلُكَ: «إِنْ يَكُنْ لِقَتْلِي أَحَدٌ» فَإِنْ قَتَلْنَا شَهِيدَ وَحْيِنَا تَائِقٌ، وَأَمَّا ذِكْرُكَ الْإِمْرَةَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَ بِالصَّبْرِ عَلَيْهَا. وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا خَذَلْنَا عُثْمَانَ، فَإِنَّ الْأَمْرَ فِي عُثْمَانَ إِلَى قَتْلَتِهِ؛ وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا قَتَلْنَا أَنْصَارَهُ يَوْمَ الْجَمَلِ فَذَلِكَ مَا لَا نَعْتَذِرُ مِنْهُ، وَأَمَّا قَوْلُكَ إِنَّا صَلَّيْنَا بِالْأَمْرِ يَوْمَ صِفِّينَ، فَإِنَّمَا كُنَّا مَعَ رَجُلٍ لَمْ نَأْلِهِ خُبْرًا، فَإِنْ لُمْتَنَا فَرُبَّ مَلُومٍ لَا دَنْبَ لَهُ.

ثم قام هو وأصحابه يَجِرُّ ثَوْبَهُ مُغْضِبًا، فقال معاوية: رُدُّوهُمْ، فَرُدُّوا فَرَضَابَهُمْ حَتَّى رَضُوا، ثُمَّ أَنْصَرَفُوا. وَأَقْبَلَ مُعَاوِيَةُ عَلَى رَهْطٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فقال: وَاللَّهِ مَا فَرَّغَ مِنْ مَنْطِقِهِ حَتَّى ضَاقَ بِي مَجْلِسِي.

قال سَعِيدُ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن حَسَّان: دَخَلَ قَيْسُ بنُ سَعْدِ بنِ عُبَادَةَ مَعَ قَوْمٍ

من الأنصار على معاوية. فقال معاوية: يا معشر الأنصار، لِمَ تَطْلُبُونَ ما قِبَلِي، فوالله لقد كنتم قليلاً معي، كثيراً عليّ، ولقد قَتَلْتُمْ جُنْدِي يوم صِفِّين حتى رَأَيْتُ المَنَيا تَلْطَئُ في أَسِنَّتِكُمْ، وَهَجَوْتُمُونِي بِأَشَدِّ من وَخْزِ الأَشافي حتى إِذا أَقَامَ اللهُ ما حَاولْتُمْ مِثْلَهُ، قَلْتُمْ: ازْعَ فِينا وَصِيَّةَ رَسولِ اللهِ ﷺ، هِيَهات، «أَبى الحَقِيقِ العِذْرَةَ»^(١)، فقال قيس: نَظْلُبُ ما قِبَلَكِ بالإسلام الكافي به اللهُ لا سِواه، لا بما تَمُتُّ به إِلَيْكَ الأَحزاب، وأما عداؤنا لك فلو شئت كَفَفْنَا عَنْكَ؛ وأما هِجَاؤُنا إِيَّاكَ فَقولُ يَزُولُ باطلُهُ، وَيَثْبُتُ حَقُّهُ، وَأما قَتْلُنا جُنْدَكَ يومَ صِفِّينَ فَإِنا كُنا مَعَ رَجُلٍ نَرى أَنَّ طاعَتَهُ طاعةُ اللهِ؛ وأما استقامة الأمرِ لك فَعلَى كُرْهِه كان مِثًّا، وأما وَصِيَّةُ رَسولِ اللهِ ﷺ فِينا، فَمَنْ آمَنَ به رعاها؛ وأما قولك «أَبى الحَقِيقِ العِذْرَةَ»، فليس ذُوْنَ اللهِ يَدُ تَحْجُزُكَ، فَشَأْنُكَ. فَقامَ مُعاويةُ فَدَخَلَ، وَخَرَجَ قَيْسٌ وَمَنْ كان مَعَهُ.

وقال محمد بنُ خالد القُرشي: دَخَلَ زُفَرُ بْنُ الحارِثِ الكِلَابيُّ على عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ وعندهُ خالِدُ بْنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أسيدٍ وأُمَيَّةُ بْنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدٍ، فقال زُفَرُ: لو كان لعبدِ اللهِ سَخاءٌ مُصْعَبٌ وكان لمصعبِ عِبادَةُ عبدِ اللهِ لكانا ما شاء المُتَمَتِّي. فقال عبدُ المَلِكِ: ما كان سَخاءٌ مُصْعَبٌ إِلا لِعِبا، ولا كانت عِبادَةُ عبدِ اللهِ إِلا عِبا، ولكن لو كان لِلضَّحَّاكِ بْنِ قَيْسٍ مِثْلُ رِجالِ مَرْوانَ لكانت قِيسُ أَرِباباً بِالشَّامِ، فقال زُفَرُ: لو كانت لِمروانَ صُحْبَةُ الضَّحَّاكِ لكان؛ فقال عبدُ المَلِكِ: والله ما أَجِبُّ لَه مِثْلَ صُحْبَتِهِ وَمَضَرَّعِهِ، فقال خالد: لولا أَنَّ أَميرَ المؤمنين لا يُبْصِرُ مَرَعى لَمَّا تَرَكْناكَ والكلام. فقال زُفَرُ: ازْبَعَا على أَنْفُسِكُما ودعانا وَخَلِيفَتُنا واسحبا ذُيولَكُما على خِيانةِ خُرَاسانَ وَسِجِسْتانَ والبَصْرةِ.

وقال المدائني: غابَ مَوْلى لِلزُّبَيْرِ عن المدينة حيناً، فقال له رجل من قريش لَمَّا رَجَعَ: أَمَّا والله لقد أَتَيْتَ قوماً يُبْغِضونَ طَلْعَتَكَ، وفارقتَ قوماً لا يُحِبُّونَ رَجْعَتَكَ. قال المولى: فلا أَنْعَمَ اللهُ مِمَّنْ قَدِمْتُ عَلَيْهِ عَيْناً، ولا أَخْلَفَ اللهُ على مَنْ فارقتُ بخير.

قال المدائني: كان مَرْتَدٌ بَنُ حَوْشِبٍ عند سُلَيْمانِ بْنِ عَبْدِ المَلِكِ، فَجَرى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ كَلامٌ حَتَّى تَسابَا، فقال له أبوه: والله ما أَنتَ بابِني، قال: والله لَأَنَا أَشَبُّهُ بِكَ مِنْكَ بِأَبِيكَ، ولَأَنتَ كَنتَ أَغْيَرَ على أُمِّي مِنْ أَيْبِكَ على أُمِّكَ. فقال له سليمان: قاتلَكَ اللهُ، إِنَّكَ لابَنُهُ.

وسابَ مَرْتَدٌ أَخاهُ ثُمَامَةَ، فقال له ثُمَامَةُ: يا حَلَقِي، فقال له مَرْتَدٌ: يا خَبِيثَ،

(١) الحقيق: اللبب المحقون، والعذرة: العذر. وهو مثل يضرب للكاذب الذي يعتذر ولا عذر له يقول إن اللبب المحقون لديكم يكذبكم في عذرهم.

أَتَسَابَنِي مُسَابَّةُ الصَّبِيَّانِ، فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَابْنِي، وَلَقَدْ عَلَّبَنِي حَوْشِبَ عَلَى أُمِّكَ، وَقَدْ أَلْقَحْتَهَا بِكَ.

وقال ابنُ عِيَّاشِ المَنْثُوفِ لِأَبِي شَاكِرِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ: لَوْ قَصَّرْتَ قَمِيصَكَ، قَالَ لَهُ: مَا يَضُرُّكَ مِنْ طَوِيلِهِ. قَالَ: تَدُوسُهُ فِي الطِّينِ، قَالَ وَمَا يَنْفَعُكَ مِنْ دُوسِهِ.

وَقَالَ: كَانَ عَلَى تَبَالَةٍ رَجُلٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لِرَجُلٍ مِنْ بَاهِلَةَ: مَنْ الَّذِي يَقُولُ: إِنْ كُنْتَ تَرْجُو أَنْ تَنَالَ غَنِيمَةً فِي دُورِ بَاهِلَةَ بْنِ يَعْفَرَ فَارْحَلْ قَوْمَ قَتَيْبَةَ أُمُّهُمْ وَأَبُوهُمْ لَوْلَا قُتَيْبَةُ أَصْبَحُوا فِي مَجْهَلٍ فَقَالَ الْبَاهِلِيُّ: مَا أَذْرِي غَيْرَ أَنِّي أَطْنُهُ الَّذِي يَقُولُ:

يَا شِدَّةَ مَا شَدَدْنَا غَيْرَ كَاذِبَةٍ عَلَى سَخِينَةٍ لَوْلَا اللَّيْلُ وَالْحَرَمُ قَالَ: وَتَكَلَّمَ ابْنُ ظَبْيَانَ التَّيْمِيُّ يَوْمًا فَأَكْثَرَ، فَقَالَ لَهُ مَالِكُ بْنُ مِسْمَعٍ: إِيهَ أَبَا مَطَرٍ، فَإِنَّ لِلْقَوْمِ فِي الْكَلَامِ نَصِييًّا، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا إِلَيْكَ جِئْتُ، وَلَوْ أَنَّ بَكَرَ بَنَ وَائِلٍ اجْتَمَعَتْ فِي بَيْتٍ بَقَالٍ لَأَتَيْتُهُمْ. فَقَالَ لَهُ مَالِكُ: إِنَّمَا أَنْتَ سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ كِنَانَتِي. فَقَالَ ابْنُ ظَبْيَانَ: أَنَا سَهْمٌ مِنْ سِهَامِ كِنَانَتِكَ؟ فَوَاللَّهِ لَوْ قَمْتُ فِيهَا لَطَلْتُهَا، وَلَوْ قَعَدْتُ فِيهَا لَحَرَقْتُهَا، وَإِنَّمِ اللَّهُ مَا أَزَاكَ تَنْتَهِي حَتَّى أَرْمِيكَ بِسَهْمٍ لَمْ يُرْسَ، تَذُبُّلُ بِهِ شَفَتَاكَ، وَيَجْفُ لَهُ رِيقُكَ.

وَقَالَ رَجُلٌ لِلْأَخْنَفِ: بِأَيِّ شَيْءٍ سُدَّتْ تَمِيمًا؟ فَوَاللَّهِ مَا أَنْتَ بِأَجْوَدِهِمْ وَلَا أَشَجَعِهِمْ وَلَا أَجْمَلِهِمْ وَلَا أَشْرَفِهِمْ، قَالَ: بِخِلَافٍ مَا أَنْتَ فِيهِ. قَالَ: وَمَا خِلَافٌ مَا أَنَا فِيهِ؟ قَالَ: تَرْكِي مَا لَا يَغْنِينِي مِنْ أُمُورِ النَّاسِ كَمَا عَنَّاكَ مِنْ أَمْرِي مَا لَا يَغْنِيكَ.

وَوَفَدَ عَلَيْنُمُ بْنُ خَالِدِ الْهُجَيْنِيِّ عَلَى هِشَامٍ وَعِنْدَهُ الْأَبْرَشُ الْكَلْبِيُّ، فَقَالَ لَهُ الْأَبْرَشُ الْكَلْبِيُّ: يَا أَخَا بَنِي الْهُجَيْنِ، مَنْ الْقَاتِلُ:

لَوْ يَسْمَعُونَ بِأَكْلَةٍ أَوْ شَرْبَةٍ بَعْمَانَ أَصْبَحَ جَمْعُهُمْ بِعُمَانَ أَلَكُمُ يَقُولُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَنَا يَقُولُهُ، قَالَ: وَلَكِنِّكُمْ يَا مَعْشَرَ كَلْبٍ تُعْبِرُونَ^(١) النِّسَاءَ وَتَجْزُونَ الشَّاءَ، وَتَكْدُرُونَ الْعَطَاءَ، وَتَوْخَرُونَ الْعِشَاءَ، وَتَبِيعُونَ الْمَاءَ. فَضَحِكَ هِشَامٌ، فَلَمَّا خَرَجَا قَالَ الْأَبْرَشُ: يَا أَخَا بَنِي الْهُجَيْنِ، أَمَا كَانَتْ عِنْدَكَ بَقِيَّةٌ؟ قَالَ: بَلَى، لَوْ كَانَ عِنْدَكَ بَقِيَّةٌ.

قَدِمَتْ امْرَأَةٌ زَوْجَهَا إِلَى زِيَادٍ تُنَازِعُهُ، وَقَدْ كَانَتْ سِيئُهُ أَعْلَى مِنْ سِنِّهَا فَجَعَلَتْ تَعِيبُ زَوْجَهَا وَتَقَعُ فِيهِ، فَقَالَ زَوْجُهَا: أَيُّهَا الْأَمِيرُ، إِنْ شَرَّ شَطْرِي الْمَرْأَةُ آخِرُهَا، وَخَيْرَ

(١) أي تتركون ختانهم.

شَطْرِي الرَّجُلَ آخِرُهُ. الْمَرْأَةُ إِذَا كَبِرَتْ عَقَمَتْ رَجْمُهَا، وَحَدَّ لِسَانُهَا، وَسَاءَ خُلُقُهَا، وَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَبِرَتْ سِنَتُهُ اسْتَحْكَمَ رَأْيُهُ، وَكَثُرَ حِلْمُهُ وَقَلَّ جَهْلُهُ.

وَقَالَ أَغْشَى هَمْدَانٌ لَامْرَأَتِهِ: إِنَّكَ لَسَلْسَةُ الثُّقْبَةِ، سَرِيعَةُ الْوَثْبَةِ، حَدِيدَةُ الرُّكْبَةِ، فَقَالَتْ: وَاللَّهِ إِنَّكَ لَسَرِيعُ الْإِرَاقَةِ، بَطِيءُ الْإِفَاقَةِ، قَلِيلُ الطَّاقَةِ، فَطَلَّقَهَا، وَقَالَ:

تَقَادَمَ عَنْهُ ذَلِكَ أُمُّ الْجَلَالِ وَطَاشَتْ نِبَالُكَ عِنْدَ النُّضَالِ
وَقَدُبْتُ حَبْلُكَ فَاسْتَيْقَنِي بِأَنْي طَرَحْتُكَ ذَاتَ الشُّمَالِ
وَأَنْ لَا رُجُوعَ فَلَا تُكَذِّبِي مَنْ مَا حَنَّتِ النَّيْبُ إِثْرَ الْفِصَالِ

قَالَ الْغِلَابِيُّ عَنْ غَيْرِهِ: قَالَ رَجُلٌ لَامْرَأَتِهِ: أَمَا إِنَّكَ مَا عَلِمْتُ لَسَوْلاً مُنْعَةً، جَزُوعَ هَلِيعَةٍ، تَمْشِيْنَ الدَّفْقِيَّ وَتَقْعِدِينَ الْهَبْنَقَةَ^(١)، فَقَالَتْ: أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كَانَ زَادِي مِنْكَ لَهْدِيَّةً^(٢)، وَإِنْ كَانَتْ حُطُوتِي مِنْكَ لَحَذِيَّةً^(٣)، فَإِنَّكَ لَا بِنَ خَيْبَةٍ يَهُودِيَّةٍ.

وَقَالَ الْمَدَائِنِيُّ قَبَضَ كِسْرَى أَرْضاً لِرَجُلٍ مِنَ الدَّهَاقِينَ، وَأَقْطَعَهَا الْبَحْرَجَانِ، فَقَدِمَ صَاحِبُ الْأَرْضِ مُتَظَلِّماً، فَأَقَامَ بِيَابَ كِسْرَى، فَكَبَّ كِسْرَى يَوْماً، فَقَعَدَ لَهُ الرَّجُلُ عَلَى طَرِيقِهِ يُكَلِّمُهُ، فَلَمَّا حَادَاهُ شَدَّ عَلَيْهِ حَتَّى صَكَ بِصُدْرِهِ رُكْبَتَهُ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى فَخِذِهِ؛ فَوَقَّفَ لَهُ كِسْرَى وَكَلَّمَهُ، فَقَالَ لَهُ: أَرْضٌ كَانَتْ لِأَجْدَادِي وَرَثَتُهَا مِنْ آبَائِي قَبَضْتُهَا فَأَقْطَعْتُهَا الْبَحْرَجَانِ؟ ارْذُذْهَا عَلَيَّ، فَقَالَ لَهُ كِسْرَى: مُذْ كَمْ هَذِهِ الْأَرْضُ فِي أَيْدِي أَجْدَادِكَ وَأَبَائِكَ؟ فَذَكَرَ دَهراً طويلاً، فَقَالَ لَهُ كِسْرَى: وَاللَّهِ لَقَدْ أَكَلْتُمُوهَا دَهراً طويلاً، فَمَا عَلَيْكَ فِي أَنْ تَدْعََهَا فِي يَدِ الْبَحْرَجَانِ عَارِيَةً سُنِّيَّاتٍ يَسْتَمْتِعُ بِهَا ثُمَّ يَرُدَّهَا عَلَيْكَ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ، قَدْ عَلِمْتَ حُسْنَ بِلَاءٍ بِهَرَامِ جُورٍ فِي طَاعَتِكُمْ، أَهْلَ الْبَيْتِ، وَمَا كِفَاكُمُ مِنْ حَدِّ عَدُوِّكُمْ، وَدَفَعَهُ عَنْكُمْ كَيْدَ التَّرْكِ وَحُسْنَ بِلَاءٍ أَبَائِهِ قَبْلَ ذَلِكَ فِي طَاعَةِ آبَائِكَ، فَمَا كَانَ عَلَيْكَ لَوْ أَعَزَّتْهُ مُلْكُكَ سُنِّيَّاتٍ يَسْتَمْتِعُ بِهِ ثُمَّ يَرُدُّهُ إِلَيْكَ؟ فَقَالَ كِسْرَى: يَا بَحْرَجَانِ، أَنْتَ رَمَيْتَنِي بِهَذَا السَّهْمِ، ارْذُذْ عَلَيْهِ أَرْضَهُ فَرَدَّهَا.

قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَحَاطِنَةِ لِرَجُلٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْأَعَاجِمِ: مَا يَقُولُ الشُّعْرُ مِنْكُمْ إِلَّا مِنْ كَانَتْ أُمُّهُ زَنَى بِهَا رَجُلٌ مِمَّا فَتَرَاعَ إِلَيْنَا. فَقَالَ لَهُ الثَّنَوِيُّ: وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ لَمْ يَقُلِ الشُّعْرُ مِنْكُمْ، فَإِنَّمَا زَنَى بِأُمِّهِ رَجُلٌ مِمَّا فَحَمَلَتْ بِهِ، فَتَرَاعَ إِلَيْنَا، فَمِنْ ثَمَّ لَمْ يَقُلِ الشُّعْرُ.

وَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْعَرَبِ لِرَجُلٍ مِنْ أَبْنَاءِ الْعَجَمِ: رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ كَأَنِّي دَخَلْتُ الْجَنَّةَ فَلَمْ أَرْ فِيهَا ثَنَوِيّاً. فَقَالَ لَهُ الثَّنَوِيُّ: أَصْعَدْتَ الْعُرْفَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمِنْ ثَمَّ لَمْ تَرَهُمْ، هُمْ فِي الْعُرْفِ.

(١) أي تمشين مشياً مسرعاً وجلس الهبنقة: مزهواً.

(٢) لندرتة.

(٣) أي أنه كأنه يعطيها القليل مما يغنم، فمن معاني القسمة: الخدمة.

قال ابن عِيَّاش: ما قَطَعَنِي إِلَّا رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ آلِ أَبِي مُعَيْطٍ، وَكَانَ مَا جُنَا شَارِبَ حَمْرٍ، وَذَلِكَ أَنِّي وَقَفْتُ عَلَى بَيَانِ التَّبَانِ الَّذِي أُتِيَ بِهِ ابْنُ هُبَيْرَةَ الْفَزَارِيُّ فَأَمَرَ بِصَلْبِهِ، فَقَالَ لِي: مَا وَقُوفُكَ هَاهُنَا يَا أَبَا الْجَرَّاحِ؟ قُلْتُ: أَنْظُرُ إِلَى هَذَا الشَّقِيِّ الَّذِي يَقُولُ: إِنَّهُ نَبِيٌّ؛ قَالَ: وَمَا أَتَى بِهِ فِي نَبَوِّهِ؟ قُلْتُ: بِتَحْلِيلِ الْحَمْرِ وَالزُّنَا - وَأَنَا أَعْرَضُ بِهِ - فَقَالَ: لَا، وَاللَّهِ لَا يَقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُ حَتَّى يُبْرَى الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ.

قال المدائني: ابن عِيَّاش أَبْرَصٌ.

وقال: دَخَلَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ عَلَى عبيدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ زِيَادٍ - وَهُوَ يَهْزَأُ بِهِ -: أَمْسَيْتَ يَا أَبَا الْأَسْوَدِ الْعَشِيَّةَ جَمِيلاً فَلَوْ عَلَّقْتَ تَمِيمَةً تَنْفِي بِهَا عَنْكَ الْعَيْنَ؟ فَعَرَفَ أَنَّهُ يَهْزَأُ بِهِ فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ -.

أَفَنَى الشَّبَابَ الَّذِي فَارَقْتُ بِهِجَتَهُ مَرُّ الْجَدِيدَيْنِ مِنْ آتٍ وَمُنْطَلِقٍ
لَمْ يَتْرُكْ لِي فِي طَوْلِ اخْتِلَافِهِمَا شَيْئاً تُخَافُ عَلَيْهِ لَذْعَةُ الْحَدَقِ

وقال المدائني: وَقَعَ بَيْنَ الْغُرَيَّانِ بْنِ الْهَيْثَمِ النَّخَعِيِّ وَبَيْنَ بِلَالِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ بْنِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ كَلَامٌ بَيْنَ يَدَيْ خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَخَالِدٍ يَوْمِئِذٍ عَلَى الْعِرَاقِ - وَكَانَ مُحَامِلاً عَلَى بِلَالٍ، وَكَانَ الْغُرَيَّانُ عَلَى شُرْطَةِ خَالِدٍ - فَقَالَ الْغُرَيَّانُ لِبِلَالٍ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَنَا بِأَبْيَضَ الرَّاحَتَيْنِ، وَلَا مُنْتَشِرَ الْمُنْخَرَيْنِ، وَلَا أَرْوَحَ الْقَدَمَيْنِ، وَلَا مُحَدِّدَ الْأَسْنَانِ، وَلَا جَعْدٍ قَطَطٍ، فَقَالَ بِلَالٌ: يَا غُرَيَّانُ أَتُعْنِينِي بِهَذَا؟ قَالَ: لَا وَاللَّهِ، وَلَكِنْ كَلَامٌ يَتَلَوُ بَعْضُهُ بَعْضاً. فَقَالَ بِلَالٌ: يَا غُرَيَّانُ، أَتُرِيدُ أَنْ تَشْتُمَ أَبَا بُرْدَةَ وَأَشْتُمَ أَبَاكَ، وَتَشْتُمَ أَبَا مُوسَى وَأَشْتُمَ جَدَّكَ، هَذَا وَاللَّهِ مَا لَا يَكُونُ، فَقَالَ الْغُرَيَّانُ: إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَجْعَلُ أَبَا مُوسَى فِدَاءَ الْأَسْوَدِ، وَلَا أَبَا بُرْدَةَ فِدَاءَ الْهَيْثَمِ، فَمَثَلِي وَمَثْلُكَ فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ مِسْكِينُ الدَّارِمِيِّ:

أَنَا مِسْكِينٌ لِمَنْ أَنْكَرَنِي وَلِمَنْ يَعْرِفُنِي جِدُّ نَطِقٍ
لَا أَبِيعُ النَّاسَ عِرْضِي إِنْ نِي لَوْ أَبِيعُ النَّاسَ عِرْضِي لَنَفَقُ

قال المَدَائِنِيُّ: جَرَى بَيْنَ وَكِيعِ بْنِ الْجَرَّاحِ وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ كَلَامٌ فِي مُعَاوِيَةَ وَاخْتِلَافًا، فَقَالَ الرَّجُلُ لَوَكِيْعٍ: أَلَمْ يَبْلُغْكَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ أَبَا سَفْيَانَ وَمُعَاوِيَةَ وَعَتَبَةَ فَقَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّاكِبَ وَالْقَائِدَ وَالسَّائِقَ»، فَقَالَ وَكِيعٌ: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا عَبْدٍ دَعَوْتُ عَلَيْهِ فَاجْعَلْ ذَلِكَ (لَهُ أَوْ عَلَيْهِ) رَحْمَةً»؛ فَقَالَ الرَّجُلُ: أَفَيْسَرُكَ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ وَالَّذِيكَ فَكَانَ ذَلِكَ لَهُمَا رَحْمَةً. فَلَمْ يَحِرْ إِلَيْهِ جَوَاباً.

تَكَلَّمَ صَعْصَعَةٌ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ فَعَرَقَ، فَقَالَ: وَبَهْرَكَ الْقَوْلُ يَا صَعْصَعَةُ؟ فَقَالَ: إِنْ الْجِيَادَ نَضَّاحَةً بِالماءِ.

هَكَذَا قَالَ لَنَا السَّيْرَافِيُّ، وَقَدْ قَرَأْتُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْفِقْرَ كُلَّهَا، وَإِنَّمَا جَمَعْتُهَا لِلْوَزِيرِ بَعْدَ إِحْكَامِهَا وَرِوَايَتِهَا.

قال علي بن عبد الله: شهدت الحجاج خارجاً من عند عبد الملك بن مروان، فقال له خالد بن يزيد بن معاوية: إلى متى تقتل أهل العراق يا أبا محمد! فقال: إلى أن يكفوا عن قولهم في أبيك: إنه كان يشرب الخمر.

قال المدائني: أسرّت مزينّة حسان بن ثابت - وكان قد هجاهم - قال:

مُزَيْنَّة لَا يُرَى فِيهَا خَطِيبٌ وَلَا قَلِجٌ يُطَافُ بِهِ خَضِيبٌ
أَنَاسٌ تَهْلِكُ الْأَخْسَابُ فِيهِمْ يَرَوْنَ التَّيْسَ يَغْدِلُهُ الْحَبِيبُ

فأتتهم الخزرج يفتدونه؛ فقالوا: نفاديه بتيس؛ فعضبوا وقاموا؛ فقال لهم حسان: يا إخواني خذوا أخاكم واذفعوا إليهم أخاهم.

وقال المدائني: فرق عمر بن الخطاب بين منظور بن أبان وبين امرأته - وكان خلف عليها بعد أبيه - فتزوجها طلحة بن عبد الله، فلقيه منظور، فقال له: كيف وجدت سؤري؟ فقال: كما وجدت سؤر أبيك. فأفحمه.

وقال حاطب بن أبي بلتعة: بعثني النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلى المقوقس ملك الإسكندرية، فأثبته بكتاب رسول الله - ﷺ - وأبلغته رسالته؛ فضحك ثم قال: كتب إلي صاحبك أن أتبعه على دينه، فما يمنعه - إن كان نبياً - أن يدعو الله أن يسلط علي البحر فيغرقني فيكتفي مؤونتي ويأخذ ملكي؟ قلت: فما صنع عيسى إذ أخذته اليهود فربطوه في حبل وحلقوا وسط رأسه، وجعلوا عليه إكليل شوك، وحملوا خشبته التي صلبوه عليها على عنقه، ثم أخرجوه وهو بين يدي حتى نصبوه على الخشبة، ثم طعنوه حتى مات؛ هذا على زعمكم، فما منعه أن يسأل الله فينجيه ويهلكهم فيكفي مؤونتهم ويظهر هو وأصحابه عليهم؟ وما منع يحيى بن زكريا حين سألت امرأة الملك أن يقتله فقتله، وبعت برأسه إليها حتى وضع بين يديها، أن يسأل الله تعالى أن ينجيه ويهلك الناس؟ فأقبل على جلسائه وقال: إنه والله لحكيم، وما يخرج الحكيم إلا من عند الحكماء.

قال المدائني: أبطأ على رجل من أصحاب الجند بن عبد الرحمن ما قبله - وهو على خراسان - وكان يقال للرجل: زامل بن عمرو من بني أسد بن خزيمة، فدخل على الجند يوماً فقال: أصلح الله الأمير، قد طال انتظاري، فإن رأى الأمير أن يضرب لي موعداً أصير إليه فعل. فقال: موعدك الحشر؛ فخرج زامل متوجهاً إلى أهله؛ ودخل على الجند بعد ذلك رجل من أصحابه فقال: أصلح الله الأمير:

أَرْخِني بِخَيْرٍ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ فاعِلاً وَإِلَّا فَمِيعَادٌ كَمِيعَادِ زَامِلٍ

قال: وما فعل زامل؟ قال: لحق بأهله. فأبرد الجند في أثره بريداً وبعت يعهده إلى الكورة التي يدرك بها، فأدرك بنيسابور، فترّلها.

وامتدَح رَجُلُ الحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ - عليه السلام - بِشَعْرٍ، فَأَمَرَ لَهُ بِشَيْءٍ؛ فَقِيلَ:
أَنْعِطِي عَلَى كَلَامِ الشَّيْطَانِ؟ فَقَالَ: أَبْتَغِي الْخَيْرَ لِنَفْسِي الشَّرِّ.

قال المدائني: أتى العبداني حماد بن أبي حنيفة وقد ملا عينه كُخْلاً قد ظَهَرَ مِنْ
مَحَاجِرِ عَيْنِهِ، وعند حماد جماعة. فقال له حماد: كأنك امرأة نُفَساء. قال: لا،
ولكنني تُكَلَّى. قال: على من؟ قال: على أبي حنيفة.

وقال مزوان بن الحكم ليحيى: إن ابنتك تشكو تزويجك وتزعم أنه يبول في
دثاره. قال: فهو يبول منها فيما هو أعظم من دثاره.

وقال معاوية: هذا عقيل عمه أبو لهب. فقال عقيل: هذا معاوية عمته
حمالة الحطب.

قال: ودخل معن بن زائدة على أبي جعفر فقارب في خطوه، فقال أبو جعفر:
كبرت سنك يا معن. قال: في طاعتك. قال: وإنك لجلد. قال: على أعدائك. قال:
إن فيك لبقية. قال: هي لك يا أمير المؤمنين.

قال المنصور لسفيان بن معاوية المهلبى: ما أسرع الناس إلى قومك؟ قال سفيان:

إن العرانيين تلقاها مُحَسَّدةً وَلَنْ تَرَى لِلنَّاسِ حُسَّاداً
فقال: صدقت.

قال المدائني: حضر قوم من قريش مجلس معاوية وفيهم عمرو بن العاص
وعبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام؛ فقال
عمرو: أحمدا الله يا معشر قريش إذ جعل والي أموركم من يغضي على القذى،
ويتصامم عن العوراء، ويجرؤ ذيله على الخدائع. قال عبد الله بن صفوان: لو لم يكن
هذا لمشينا إليه الضراء، ودببنا له الحمر، وقلبنا له ظهر المجن، ورجونا أن يقوم
بأمرنا من لا يطعمك مال مضر.

وقال معاوية: يا معشر قريش، حتى متى لا تُنصفون من أنفسكم؟

فقال عبد الرحمن بن الحارث: إن عمراً وذوي عمرو أفسدوك علينا وأفسدونا
عليك، ما كان لو أغضيت على هذه؟ فقال: إن عمراً لي ناصح، قال: أطعنا ممّا
أطعتمته، ثم خذنا بمثل نصيحته، إنك يا معاوية تضرب عوام قريش بأياديك في
خواصها كأنك ترى أن كرامها جازوك دون لئامها، وإيم الله: إنك لتفرغ من إناء فعم
في إناء ضخم، ولكأنك بالحزب قد حل عقالها ثم لا تنظر. فقال معاوية: يا بن
أخي ما أخوج أهلك إليك. ثم أنشد معاوية:

أغر رجلاً من قريش تشايعوا على سفيه، منا الحيا والتكرم؟

وقال المَدَائِنِيُّ: كان عروُهُ بَنُ الزُّبَيْرِ عند عبدِ الملكِ بنِ مَرْوَانَ يَحْدُثُهُ - وعنده الحَجَّاجُ بنُ يوسفَ - فقال له عُرُوهُ في بَعْضِ حديثه: قال أبو بكر - يَعْنِي عبدَ اللَّهِ بنَ الزُّبَيْرِ - فقال الحَجَّاجُ: أَعِنْدَ أميرِ المؤمنين تَكْنِي ذلكَ الفاسقَ؟ لا أَمَّ لك. فقال عُرُوهُ: أَلَيْ تَقُولُ هذا لا أَمَّ لك وأنا ابنُ عِجائزِ الجَنَّةِ خديجةَ وصَفِيَّةَ وأسماءَ وعائشةَ، بل لا أَمَّ لك أنت يا بنِ المُسْتَفْرَمَةِ بِعَجَمِ رَبِيبِ الطَّائِفِ.

وقال: لَمَّا صَنَعَ هِشَامُ بنُ عبدِ المَلِكِ بَغِيلَانَ الوَاعِظَ ما صَنَعَ، قال له رَجُلٌ: ما ظَلَمَكَ اللَّهُ ولا سَلَطَ عَلَيْكَ أميرُ المؤمنين إِلَّا وَأَنْتَ مُسْتَحِقٌّ؛ فقال غِيلَانُ: قَاتَلَكِ اللَّهُ، إِنَّكَ جاهِلٌ بأَصْحَابِ الأَخْدُودِ.

قال عمرو بنُ العاصِ: أَعْجَبَتْنِي كَلِمَةٌ مِنْ أَمَةٍ؛ قُلْتُ لَهَا ومعها طَبَقٌ: ما عليه يا جارية؟ قالت: فَلِمَ غَطَّيْنَاهُ إِذَا؟

وَقَعَ ابنُ الزُّبَيْرِ في مُعَاوِيَةَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ فَأَخْبَرَهُ مُعَاوِيَةَ بِبَعْضِهِ، فقال: أُنْثَى عَلِمْتَ ذَلِكَ؟ فقال مُعَاوِيَةُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ ظَنَّ الحَكِيمِ كِهَانَةٌ.

وقيل لِعُمَرَ بنِ عبدِ العزيز: ما تَقُولُ في عَلِيٍّ وَعُثْمَانُ وفي حربِ الجَمَلِ وَصِفَيْنِ؟ قال: تلكَ دِمَاءُ كَفَّ اللَّهُ يَدَيَّ عنها، فَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَغْمِسَ لِسَانِي فِيهَا.

وقال: طَلَّقَ أَبُو الخَنْدِفِ امْرَأَتَهُ أُمَّ الخَنْدِفِ، فقالت له: يا أبا الخَنْدِفِ طَلَّقْتَنِي بعدَ خَمْسِينَ سَنَةً، فقال: مَالِكٌ عِنْدِي ذَنْبٌ غَيْرُهُ.

وقال: لَقِيَ جَرِيرُ الأَخْطَلِ فقال: يا مَالِكُ، ما فَعَلْتَ خَنَازِيرُكَ! قال: كثيرةٌ في مَرْجٍ أَفْيَحَ، فَإِنْ شِئْتَ قَرَيْتَاكَ مِنْهَا، ثُمَّ قال الأَخْطَلُ: يا أبا حَزْرَةَ ما فَعَلْتَ أَعْنَاؤُكَ؟ قال: كثيرةٌ في وَادٍ أَرْوَحَ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْزَيْتَاكَ عَلَى بَعْضِهَا.

وقال الشَّعْبِيُّ: ذَكَرَ عَمْرُو بنُ العاصِ عَلِيًّا فقال: فِيهِ دُعَابَةٌ، فبَلَغَ ذَلِكَ عَلِيًّا فقال: رَعِمَ ابنُ النَّابِغَةِ أَنِّي تَلْعَابَةٌ تَمْرَاحَةٌ دُوْ دُعَابَةٍ أَعَافِسُ وَأَمَارِسُ؛ هَيْهَاتَ، يَمْنَعُ مِنَ العِفَاسِ والمِرَاسِ ذِكْرُ المَوْتِ وَخَوْفُ البَعْثِ والحِسابِ وَمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ فَفِي هَذَا عن هذا له وَاِعْظُ وزَاجِرُ، أما وَشَرُّ القَوْلِ الكَذِبُ - إِنَّهُ لَيَعِدُ فَيُخْلِفُ، وَيُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ، فإذا كانَ يَوْمُ البَأْسِ فَإِنَّهُ زَاجِرٌ وَآمِرٌ ما لَمْ تَأْخُذِ السَّيُوفُ بِهَامِ الرِّجَالِ، فإذا كانَ ذاكَ فَأَعْظَمُ مَكِيدَتِهِ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَمْنَحَ القَوْمَ اسْتَه.

قال المَدَائِنِيُّ: بَعَثَ المُفَضَّلُ الضُّبِّيُّ إِلَى رَجُلٍ بأَصْحِيَّةٍ، ثُمَّ لَقِيَهُ فقال: كيفَ كانتَ أَصْحِيَّتُكَ؟ فقال: قَلِيلَةُ الدَّمِّ. وأَرَادَ قَوْلَ الشَّاعِرِ:

ولو دُبِحَ الضُّبِّيُّ بالسَّيْفِ لَمْ تَجِدْ مِنَ اللُّؤْمِ لِلضُّبِّيِّ لَحْمًا ولا دَمًا

وقال المَدَائِنِيُّ: مَرَّ عَقِيلُ بنُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى أَخِيهِ عَلِيٍّ بنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ومعه تَيْسٌ، فقال له عَلِيٌّ: إِنَّ أَحَدَ ثَلَاثَتِنَا أَحْمَقُ. فقال عَقِيلُ: أَمَّا أَنَا وَتَيْسِي فَلَا.

وَكَلَّمَ عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ حُمْرَانَ يَوْمًا فِي الْمَسْجِدِ. فَقَالَ لَهُ حُمْرَانُ: لَا أَكْثَرَ اللَّهَ فِينَا مِثْلَكَ. فَقَالَ عَامِرُ: لَكِنْ أَكْثَرَ اللَّهَ فِينَا مِثْلَكَ، فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ: يَا عَامِرُ، يَقُولُ لَكَ حُمْرَانُ مَا لَا تَقُولُ مِثْلَهُ؟ فَقَالَ: نَعَمْ يَكْسَحُونَ طُرْقَنَا، وَيَحُكُونَ ثِيَابَنَا، وَيَخْرِزُونَ خِفَافَنَا. فَقِيلَ لَهُ: مَا كُنَّا نَرَى أَنَّكَ تَعْرِفُ مِثْلَ هَذَا، قَالَ: مَا أَكْثَرَ مَا نَعْرِفُ مِمَّا لَا تَنْظُرُونَ بِنَا.

وقال: مَرَّ جَرِيرُ بْنُ عَطِيَّةٍ عَلَى الْأَخْوَصِ وَهُوَ عَلَى بَغْلٍ، فَأَذَلَّى الْبَغْلُ، فَقَالَ الْأَخْوَصُ: بَغْلُكَ يَا أَبَا حَزْرَةَ عَلَى خَمْسِ قَوَائِمٍ. قَالَ جَرِيرُ: وَالْخَامِسَةُ أَحَبُّ إِلَيْكَ. وَمَرَّ جَرِيرٌ بِالْأَخْوَصِ وَهُوَ يَفْسُقُ بِامْرَأَةٍ وَيُنْشِدُ:

يَقْرِئْ بَعَيْنِي مَا يَقْرِئُ بَعَيْنَهَا وَأَحْسِنُ شَيْءَ مَا بِهِ الْعَيْنُ قَرَّتِ
فقال له جرير: فَإِنَّهُ يَقْرِئُ بَعَيْنَهَا أَنْ تَقْعُدَ عَلَى مِثْلِ ذِرَاعِ الْبُكَرِ، أَفَتَرَاكَ تَفْعَلُ ذَلِكَ؟ فقال الوزير: مَنْ رَأَيْتَ مِنَ الْكِبَارِ كَانَ يَحْفَظُ هَذَا الْفَنَّ وَلَهُ فِيهِ غَزَارَةٌ وَانْبِعَاطٌ وَجَسَارَةٌ عَلَى الْإِيرَادِ؟

قلت: ابْنُ عَبَّادٍ عَلَى هَذَا، وَيَبْلُغُ مِنْ قُوَّتِهِ أَنَّهُ يَفْتَعِلُ أَشْيَاءَ شَبِيهَةً بِهَذَا الضَّرْبِ عَلَى مَنْ حَضَرَ، فَقَالَ: الْكَذِبُ لَا خَيْرَ فِيهِ، وَلَا حَلَاوَةَ لِرَاوِيهِ، وَلَا قَبُولَ عِنْدَ سَامِعِيهِ. وقال: أَرْسَلَ بِلَالُ بْنُ أَبِي بُرْزَةَ إِلَى أَبِي عُلْقَمَةَ فَاتَاهُ، فَقَالَ: أَتَدْرِي لَأَيِّ شَيْءٍ أَرْسَلْتُ إِلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَتَضَعَّ بِي خَيْرًا. قَالَ: أَخْطَأْتُ وَلَكِنْ لَأُسَيِّءُ بِكَ. فقال: أَمَّا إِذْ قُلْتَ ذَاكَ لَقَدْ حَكَمَ الْمُسْلِمُونَ حَكْمَيْنِ، فَسَجَرَ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ. فقال الوزير: أَيْقَالَ سَجَرَ بِهِ! فَكَانَ الْجَوَابُ أَنَّ أَبَا زَيْدٍ حَكَاهُ، وَصَاحِبَ التَّضَنُّيْفِ قَدْ رَوَاهُ؛ وَسَجَرَ مِنْهُ أَيْضًا كَلَامٌ، وَإِنَّمَا يَقَالُ هُوَ أَفْصَحُ، لِأَنَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَإِلَّا فَكِلَاهُمَا جَائِزٌ.

وقال حَمْزَةُ بْنُ بَيْضِ الْحَنْفِيِّ لِلْفَرَزْدَقِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ، أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تَسْبِقَ الْخَيْرَ أَمْ يَسْبِقُكَ! قَالَ: مَا أُرِيدُ أَنْ أَسْبِقَهُ وَلَا أَنْ يَسْبِقَنِي، بَلْ نَكُونُ مَعًا. وَلَكِنْ حَدَّثَنِي أَيُّمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ: أَنْ تَدْخُلَ مَنْزِلَكَ فَتَجِدَ رَجُلًا عَلَى حِرَامِكَ، أَوْ تَجِدَهَا قَابِضَةً عَلَى قُمْدِ الرَّجُلِ. فَأَفْحَمَهُ.

فلما قَرَأْتُ الْجُزْءَ فِي ضُرُوبِ الْجَوَابِ الْمُفْجِمِ. قَالَ: مَا أَفْتَحَ هَذَا النُّوعَ مِنَ الْكَلَامِ لِأَبْوَابِ الْبَدِيعَةِ! وَأَبْنَعُهُ لِرَوَاقِدِ الذَّهْنِ! وَمَا يَتَفَاضَلُ النَّاسُ عِنْدِي بِشَيْءٍ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْفَوَائِقِ الرَّوَاقِ، مَا أَحْسَنَ مَا جَمَعْتَ وَأَتَيْتَ بِهِ.

الليلة الأربعون

وقال مرةً أخرى: حَدَّثَنِي عَنْ اعْتِقَادِكَ فِي أَبِي تَمَامِ الْبُحْتَرِيِّ .
فكان الجواب: إن هذا الباب مُخْتَلَفٌ فِيهِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى رَفْعِهِ، وَقَدْ سَبَقَ هَذَا
مِنَ النَّاسِ فِي الْفَرَزْدَقِ وَجَرِيرٍ وَمِنْ قَبْلَهُمَا فِي زُهَيْرٍ وَالنَّابِغَةِ حَتَّى تَكَلَّمَ عَلَى هَذَا الصَّدْرُ
الْأَوَّلُ، مَعَ عَلَوِّ مَرَاتِبِهِمْ فِي الدِّينِ وَالْعَقْلِ وَالْبَيَانِ، لَكِنْ حَدَّثَنَا أَبُو مُحَمَّدٍ الْعَرُوضِيُّ عَنْ
أَبِي الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدِ قَالَ: سَأَلَنِي عُيَيْدُ اللَّهِ بْنُ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي تَمَامِ الْبُحْتَرِيِّ؛ فَقُلْتُ:
أَبُو تَمَامٍ يَغْلُو غُلُوءًا رَفِيعًا، وَيَسْقُطُ سُقُوطًا قَبِيحًا، وَالْبُحْتَرِيُّ أَحْسَنُ الرَّجُلَيْنِ نَمَطًا،
وَأَعَذِبُ لَفْظًا؛ فَقَالَ عُيَيْدُ اللَّهِ:

قَدْ كَانَ ذَلِكَ ظَنِّي فَعَادَ ظَنِّي يَاقِينَا

فَقُلْتُ: وَهَذَا أَيْضًا شِعْرٌ. فَقَالَ: مَا عَلِمْتُ.

فَقَالَ: هَذِهِ حِكَايَةٌ مَفِيدَةٌ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ الْمَتَقَدِّمِ، وَحُكْمٌ يُلَوِّحُ مِنْهُ الْإِنْصَافُ،
وَقَدْ أَغْنَى هَذَا الْقَوْلُ عَنْ خَوْضٍ كَثِيرٍ.

وَدَعْ ذَا؛ مِنْ أَيْنَ دَخَلَتِ الْآفَةُ عَلَى أَصْحَابِ الْمَذَاهِبِ حَتَّى افْتَرَقُوا هَذَا الْافْتِرَاقَ،
وَتَبَايَنُوا هَذَا التَّبَايُنَ، وَخَرَجُوا إِلَى التَّكْفِيرِ وَالتَّفْسِيقِ وَإِبَاحَةِ الدَّمِ وَالْمَالِ وَرَدَّ الشَّهَادَةَ
وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِالْجَزْحِ وَبِالْقَذَعِ وَالتَّهَاجُرِ وَالتَّقَاطُعِ!

فكان الجواب: إِنَّ الْمَذَاهِبَ فُرُوعُ الْأَدْيَانِ، وَالْأَدْيَانُ أَصُولُ الْمَذَاهِبِ، فَإِذَا سَاغَ
الْاِخْتِلَافُ فِي الْأَدْيَانِ - وَهِيَ الْأَصُولُ - فَلَيْمَ لَا يَسُوءُ فِي الْمَذَاهِبِ وَهِيَ الْفُرُوعُ.

فَقَالَ: وَلَا سَوَاءَ، الْأَدْيَانُ اخْتَلَفَتْ بِالْأَنْبِيَاءِ، وَهُمْ أَزْيَابُ الصُّدُقِ وَالْوَحْيِ
الْمَوْثُوقِ بِهِ، وَالْآيَاتِ الدَّالَّةُ عَلَى الصُّدُقِ؛ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الْمَذَاهِبُ.

فَقِيلَ: هَذَا صَحِيحٌ، وَلَا دَافِعَ لَهُ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتِ الْمَذَاهِبُ نَتَائِجَ الْأَرَءِ،
وَالْأَرَءِ ثَمَرَاتِ الْعُقُولِ، وَالْعُقُولُ مَنَائِحَ اللَّهِ لِلْعِبَادِ، وَهَذِهِ النَتَائِجُ مُخْتَلِفَةٌ بِالصِّفَاءِ
وَالْكَدَرِ، وَبِالْكَمَالِ وَالنَّقْصِ، وَبِالْقِلَّةِ وَالْكَثَرَةِ، وَبِالْخِفَاءِ وَالْوُضُوحِ؛ وَجَبَ أَنْ يَجْرِيَ
الْأَمْرُ فِيهَا عَلَى مَنَهِجِ الْأَدْيَانِ فِي الْاِخْتِلَافِ وَالْاِفْتِرَاقِ وَإِنْ كَانَتْ تِلْكَ مَنُوطَةً بِالنَّبُوءَةِ؛
وَبَعْدَ، فَمَا دَامَ النَّاسُ عَلَى فِطْرٍ كَثِيرَةٍ، وَعَادَاتٍ حَسَنَةٍ وَقَبِيحَةٍ، وَمَنَاشِئَ مَحْمُودَةٍ
وَمَذْمُومَةٍ، وَمُلَاحَظَاتٍ قَرِيبَةٍ وَبَعِيدَةٍ، فَلَا بَدَّ مِنَ الْاِخْتِلَافِ فِي كُلِّ مَا يُخْتَارُ وَيُجْتَنَّبُ،

ولا يَجُوزُ في الحِكْمَةِ أَنْ يَقَعَ الاتفاقُ فيما جَرَى مَجْرَى المَذَاهِبِ والأَذْيَانِ؛ أَلَا تَرَى أَنَّ الاتفاقَ لم يَحْضُرْ في تَفْضِيلِ أُمَّةٍ على أُمَّةٍ، ولا في تَفْضِيلِ بَلَدٍ على بَلَدٍ، ولا في تَقْدِيمِ رَجُلٍ على رَجُلٍ، ولو لم يكن في هذا الأمر إلا التَّعَصُّبُ واللِّجَاجُ والهَوَى والمَحْكُ والذَّهَابُ مَعَ السَّابِقِ إلى النفس، والموافقُ لِلْمِزَاجِ، والخَفِيفُ على الطَّبَاعِ، والمَالِكُ لِلْقَلْبِ، لكان كافياً بِالْغَا بِالإنسان كُلِّ مَبْلَغٍ.

وشيخنا أبو سُلَيْمَانَ يقول كثيراً: إِنَّ الدِّينَ مَوْضُوعٌ عَلَى القَبُولِ والتَّسْلِيمِ، والمُبَالِغَةِ في التَّعْظِيمِ، وليس فيه «لِمَ» و«لَا» و«كَيْفَ» إلا بِقَدَرٍ ما يُوَكِّدُ أَضْلَهُ وَيَشُدُّ أَرْزَهُ، وَيَنْفِي عَارِضَ السُّوءِ عنه، لأن ما زَادَ على هذا يُوهِنُ الأَضْلَ بِالشَّكِّ، وَيَقْدَحُ في الفِرْعِ بِالتَّهْمَةِ.

قال: وهذا لا يَخْصُ دِيناً دُونَ دِينٍ، ولا مَقَالََةً دُونَ مَقَالََةٍ، ولا نِخْلَةً دُونَ نِخْلَةٍ، بل هو سَارٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ فِي كُلِّ حَالٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ، وَكُلٌّ مِّنْ حَاوَلٍ رَفَعَ هَذَا فَقَدْ حَاوَلَ رَفْعَ الْفِطْرَةِ وَنَفَى الطَّبَاعِ وَقَلْبِ الْأَضْلِ، وَعَكَسَ الْأَمْرَ؛ وَهَذَا غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ وَلَا مُمَكِّنٍ؛ وَقَدْ قِيلَ: «إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَأَرِدْ مَا يَكُونُ».

وقال لنا القاضي أبو حَامِدِ المَرْوُزِيُّ: أَنَا مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً أَجْتَهِدُ مَعَ أَصْحَابِنَا البَصْرِيِّينَ فِي أَنْ أَصَحِّحَ عِنْدَهُمْ أَنَّ بَغْدَادَ أَطْيَبُ مِنَ البَصْرَةِ، وَأَنَا الْيَوْمَ فِي كَلَامِي مَعَهُمْ كَمَا كُنْتُ فِي أَوَّلِ كَلَامِي لَهُمْ، وَكَذَلِكَ حَالُهُمْ مَعِي، فَهَذَا هَذَا. أَنْظِرْ إِلَى فَضْلِ وَمَرْغُوشٍ - وَهُمَا مِنْ سَقَطِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ - كَيْفَ لَهَجَ النَّاسُ بِهِمَا وَبِالتَّعَصُّبِ لِهَما حَتَّى صَارَ جَمِيعُ مَنْ بِبَغْدَادٍ إِمَّا مَرْغُوشِيًّا وَإِمَّا فَضْلِيًّا.

ولقد اجْتَنَزَأَ ابْنُ مَرْوُوفٍ وَهُوَ عَلَى قَضَاءِ الْقَضَا بَابَ الطَّاقِ فَتَعَلَّقَ بَعْضُ هَؤُلَاءِ الْمُجْتَنِّانِ بِلِجَامِ بَغْلَتِهِ، وَقَالَ: أَيُّهَا الْقَاضِي، عَرَفْنَا، أَنْتَ مَرْغُوشِيٌّ أَمْ فَضْلِيٌّ، فَتَحْتَرِ وَعَرَفَ مَا تَحْتَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ مِنَ السَّفَهِّ وَالفِتْنَةِ، وَأَنَّ التَّخْلُصَ بِالْجَوَابِ الرَّفِيقِ أَجْدَى عَلَيْهِ مِنَ الْعُنْفِ وَالْخُرْقِ وَإِظْهَارِ السَّطْوَةِ؛ فَالْتَفَتَ إِلَى الْحَرَانِيِّ - وَكَانَ مَعَهُ وَهُوَ مِنَ الشُّهُودِ - فَقَالَ: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، نَحْنُ فِي مَحَلَّةٍ مَنْ؟ قَالَ: فِي مَحَلَّةٍ مَرْغُوشٍ؛ فَقَالَ ابْنُ مَعْرُوفٍ: كَذَلِكَ نَحْنُ - عَافَاكَ اللَّهُ - مِنْ أَصْحَابِ مَحَلَّتِنَا لَا نَخْتَارُ عَلَى اخْتِيَارِهِمْ؛ وَلَا نَتَمَيَّزُ فِيهِمْ. فَقَالَ الْعِيَّارُ: امْشِ أَيُّهَا الْقَاضِي فِي سِتْرِ اللَّهِ؛ مِثْلُكَ مَنْ تَعَصَّبَ لِلْجِيرَانِ.

فقال الوزير - أَحْسَنَ اللَّهُ تَوْفِيقَهُ -: هَذَا كُلُّهُ تَعَصُّبٌ وَهَوَىٌّ وَتَمَاحُكٌ وَتَكَلُّفٌ. قِيلَ: هَذَا وَإِنْ كَانَ هَكَذَا فَهُوَ دَاخِلٌ فِي مَا عَدَاهُ مِنَ حَدِيثِ الدِّينِ وَالمَذْهَبِ وَالصَّنَاعَةِ وَالبَلَدِ.

قال أبو سليمان: وَلِمَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ نُهِيَ عَنِ الْمِرَاءِ وَالجَدَلِ فِي الدِّينِ عَلَى عَادَةِ الْمُتَكَلِّمِينَ، الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَنْصُرُونَ الدِّينَ، وَهُمْ فِي غَايَةِ الْعَدَاوَةِ لِلْإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ، وَأَبْعَدُ النَّاسِ مِنَ الطَّمَأْنِينَةِ وَاليَقِينِ.

ثم حَدَّث فقال:

اجتمع رَجُلَان: أحدهما يقول بِقَوْلِ هِشَام، وَالْآخَرُ يَقُولُ بِقَوْلِ الْجَوَالِيقِيِّ، فقال صَاحِبُ الْجَوَالِيقِيِّ لصاحب هِشَام: صِفْ لي رَبِّكَ الَّذِي تَغْبِده، فَوَصَفَهُ بأنه لَا يَدُ له وَلَا جَارِحَةٌ وَلَا آلَةٌ وَلَا لِسَان، فقال الْجَوَالِيقِيُّ: أيسرُكَ أَنْ يكونَ لَكَ وَلَدٌ بهذا الوصف! قال: لا، قال: أَمَا تَسْتَحِي أن تصفَ رَبَّكَ بصفةٍ لَا تَرْضَاهَا لَوْلِكَ! فقال صَاحِبُ هِشَام: إِنَّكَ قَدْ سَمِعْتَ مَا نَقُول، صِفْ لي أَنْتَ رَبَّكَ. فقال: إنه جَعْدٌ قَطَطٌ فِي أَتَمِ الْقَامَاتِ وَأَحْسَنِ الصُّورِ وَالْقَوَامِ. فقال صَاحِبُ هِشَام: أيسرُكَ أَنْ تكونَ لَكَ جَارِيَةٌ بهذه الصِّفَةِ تَطْوُّهَا؟! قال: نعم، قال: أَمَا تستحي من عِبَادَةِ مَنْ تُحِبُّ مُبَاضِعَةً مِثْلِهِ!! وذلكَ لِأَنَّ مَنْ أَحَبَّ مُبَاضِعَتَهُ فَقَدْ أَوْقَعَ الشَّهْوَةَ عَلَيْهِ.

فقال: هذا من سُؤْمِ الْكَلَامِ وَنَكَدِ الْجَدَلِ، فلو كان هُنَاكَ دِينٌ لكان لَا يَدُورُ هذا فِي وَهْمٍ وَلَا يَنْطِقُ بِهِ لِسَان.

وَحَكَى أَيْضاً قال: ابْتُلِيَ غُلَامٌ أَعْجَمِيٌّ بِوَجَعٍ شَدِيدٍ، فَجَعَلَ يَتَأَوَّهُ وَيَتَلَوَّى وَيَصِيحُ. فقال له أبوه: يا بُنَيَّ اصْبِرْ واحمِدِ اللَّهَ تَعَالَى. فقال: ولماذا أحمده! قال: لِأَنَّهُ ابْتَلَاكَ بهذا؛ فَاشْتَدَّ وَجَعُ الْغُلَامِ وَرَفَعَ صَوْتُهُ بِالتَّأَوُّهِ أَشَدَّ مِمَّا كَانَ، فقال له أبوه: وَلِمَ جَزَعُكَ! فقال: كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ ابْتَلَانِي بهذا فَكُنْتُ أَرْجُوهُ أَنْ يُعَافِيَنِي مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ وَيَصْرِفَهُ عَنِّي، فَأَمَّا إِذْ كَانَ هُوَ الَّذِي ابْتَلَانِي بِهِ فَمِنْ أَرْجُو أَنْ يُعَافِيَنِي! فَالآنَ اشْتَدَّ جَزَعِي، وَعَظُمَتْ مُصِيبَتِي. قال: وَلَوْ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي ابْتَلَاهُ هُوَ الَّذِي اسْتَضْلَحَهُ بِالْبَلَاءِ لَيَكُونُ إِذَا وَهَبَ لَهُ الْعَافِيَةَ شَاكِراً لَهُ عَلَيْهَا بِحَسْبِ صَحِيحٍ وَعِلْمٍ تَامٍ؛ لَكَانَ لَا يَرَى مَا قَالَهُ وَتَوَهَّمَهُ لِازِمًا.

وَحَكَى أَيْضاً أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْعَجَمِ حَجَّ وَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَطَفِقَ يَدْعُو وَيَقُولُ: يَا مَنْ خَلَقَ السَّبَاعَ الضَّارِيَةَ، وَالْهَوَامَّ الْعَادِيَةَ، وَسَلَّطَهَا عَلَى النَّاسِ، وَضَرَبَهُمْ بِالزَّمَانَةِ وَالْعَمَى وَالْفَقْرَ وَالْحَاجَةَ؛ فَوُثِبَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَسَبُّهُ وَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: ادْعِ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى. فَأَظْهَرَ لَهُمُ النَّدَامَةَ، وَالتَّقَارِفَ فَخَلَّوْا عَنْهُ بَعْدَ مَا أَرَادُوا الْوَقِيعَةَ بِهِ، فَرَجَعَ وَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَجَعَلَ يُنَادِي: يَا مَنْ لَمْ يَخْلُقِ السَّبَاعَ الضَّارِيَةَ، وَلَا الْهَوَامَّ، وَلَا سَلَّطَهَا عَلَى النَّاسِ، وَلَمْ يَضْرِبِ النَّاسَ بِالْأَوْجَاعِ وَالْأَسْقَامِ. فَوُثِبُوا عَلَيْهِ أَيْضاً وَقَالُوا لَهُ: لَا تَقُلْ هَذَا فَإِنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؛ فقال: مَا أَذْرِي كَيْفَ أَعْمَلُ؟ إِنْ قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ خَالِقُ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ وَثُبْتُمْ عَلَيَّ، وَإِنْ قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَخْلُقْهَا وَثُبْتُمْ عَلَيَّ. فقالوا: هَذَا يَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَهُ بِقَلْبِكَ وَلَا تَدْعُ اللَّهَ بِهِ.

قال أَبُو سُلَيْمَانَ: وَهَذَا أَيْضاً مِنْ سُؤْمِ الْكَلَامِ وَشَبَّهَ الْمُتَكَلِّمِينَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْتَقَدَ شَيْءٌ بِالتَّقْلِيدِ، وَلَا بُدَّ مِنْ دَلِيلٍ، ثُمَّ يُدَلِّلُونَ وَيَحْتَلِفُونَ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْأَوَّلَةَ مُتَكَافِئَةً.

وكان ابنُ البَقَالِ يَجْهَرُ بهذا القول، فقلتُ له مرَّة: لِمَ مِلْتَ إلى هذا المَذْهَبِ؟ فقال: لأنِّي وَجَدْتُ الأدِلَّةَ مُتَدافِعَةً في أنْفُسِهَا، ورَأَيْتُ أصحابَهَا يُزْخَرِفُونَهَا وَيُمَوِّهُونَهَا لِتُقْبَلَ مِنْهُمْ، وكانُوا كأَصْحَابِ الزُّيُوفِ الَّذِينَ يَعْشُونَ التَّقْدَّ لِيَنْفُقَ عَنْهُمْ، وتَدُورُ الْمُعَالَطَةُ بَيْنَهُمْ. فقلتُ له: أَمَا تَعْرِفُ أَنَّ الْحَقَّ حَقٌّ وَالْبَاطِلَ باطلٌ؟ قال: بلى، ولكن لا يَتَبَيَّنُ أَحَدُهُمَا مِنَ الْآخَرِ. قلتُ: أَفَلَا تَهْ لَّا يَتَبَيَّنُ لَكَ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ تَعْتَقِدُ أَنَّ الْحَقَّ باطلٌ وَأَنَّ الْبَاطِلَ حَقٌّ؟ قال: لا أَجِيءُ إِلَى حَقٍّ أَعْرِفُهُ بَعِيْنَهُ فَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ باطلٌ، ولا أَجِيءُ أَيْضاً إِلَى باطلٍ أَعْرِفُهُ بَعِيْنَهُ فَأَعْتَقِدُ أَنَّهُ حَقٌّ، ولكنَّ لَمَّا التَّبَسَّ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ وَالْبَاطِلُ بِالْحَقِّ قُلْتُ إِنَّ الأدِلَّةَ عَلَيْهِمَا وَلَهُمَا مُتَكَافِئَةٌ، وإنَّهَا مَوْقُوفَةٌ عَلَى حِذْقِ الْحَاقِيقِ فِي نُصْرَتِهِ، وَضَعْفِ الضَّعِيفِ فِي الذَّبِّ عَنْهُ. قلتُ: فَكأنَّكَ قد رَجَعْتَ عَنْ اعْتِرَافِكَ بِالْحَقِّ أَنَّهُ حَقٌّ، وبِالْبَاطِلِ أَنَّهُ باطلٌ. قال: مَا رَجَعْتُ. قلتُ: فَكأنَّكَ تَدْعِي الْحَقَّ حَقًّا جُمْلَةً وَالْبَاطِلَ باطلاً جُمْلَةً مِنْ غَيْرِ أَنْ تُمَيِّزَ بِالتَّفْصِيلِ. قال: كَذَا هُوَ. قلتُ: فَمَا نَفْعُكَ بِالاعْتِرَافِ بِالْحَقِّ وَأَنَّهُ مُتَمَيِّزٌ عَنِ الْبَاطِلِ فِي الْأَصْلِ، وَأَنْتَ لَا تُمَيِّزُ بَيْنَهُمَا فِي التَّفْصِيلِ؟ قال: وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا نَفْعِي مِنْهُ. قلتُ: فَلِمَ لَا تَقُولُ: الرَّأْيُ أَنْ أَقْفَ فَلَا أَحْكَمَ عَلَى الأدِلَّةِ بِالتَّكَافُوفِ، لِأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُقَاوِمُ الْحَقَّ، وَالْحَقَّ لَا يَتَشَبَّهُ بِالْبَاطِلِ، إِلَى أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بَصَرِي فَأَرَى الْحَقَّ حَقًّا فِي التَّفْصِيلِ، وَالْبَاطِلَ باطلاً عَلَى التَّحْصِيلِ، كَمَا رَأَيْتُهُمَا فِي الْجُمْلَةِ، وَأَنَّ الَّذِي فَتَحَ بَصَرِي عَلَى ذَلِكَ فِي الْأَوَّلِ هُوَ الَّذِي غَضَّ بَصَرِي عَنْهُ فِي الثَّانِي؟ قال: يَنْبَغِي أَنْ أَنْظُرَ فِيمَا قُلْتُ. فقلتُ: انْظُرْ إِنْ كَانَ لَكَ نَظَرٌ، وَلَا تَتَكَلَّفُ النَّظَرَ مَا دَامَ بِكَ عَمَى أَوْ عَشَأُ أَوْ رَمَدٌ.

وحكى لنا أبو سليمان قال: وَصَفَ لَنَا بَعْضُ النَّصَارَى الْجَنَّةَ فقال: لَيْسَ فِيهَا أَكْلٌ وَلَا شَرْبٌ وَلَا نِكَاحٌ. فَسَمِعَ ذَلِكَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ فقال: مَا تَصِفُ إِلَّا الْحُزْنَ وَالْأَسْفَ وَالْبَلَاءَ.

وقال أبو عيسى الوراق - وكان مِنْ حُذَّاقِ الْمُتَكَلِّمِينَ -: إِنْ الْأَمْرُ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّ الْمَأْمُورَ لَا يَفْعَلُهُ سَفِيْهِهِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مِنَ الْكُفَّارِ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، فَلَيْسَ لِأَمْرِهِمْ بِالْإِيمَانِ وَجْهٌ فِي الْحِكْمَةِ.

قال أبو سليمان: انْظُرْ كَيْفَ ذَهَبَ عَلَيْهِ السُّرُّ فِي هَذِهِ الْحَالِ، مِنْ أَيْنَ أَتَوْا، وَكَيْفَ لَزِمَتْهُمْ الْحِجَّةُ.

وقال أبو عيسى أَيْضاً: الْمُعَاقِبُ الَّذِي لَا يَسْتَصْلِحُ بِعُقُوبَتِهِ مِنْ عَاقِبَتِهِ، وَلَا يَسْتَصْلِحُ بِهِ غَيْرِهِ، وَلَا يَشْفِي غَيْظَهُ بِعُقُوبَتِهِ جَائِرٌ، لِأَنَّهُ قَدْ وَضَعَ الْعُقُوبَةَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا. قال: لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْتَصْلِحُ أَهْلَ النَّارِ وَلَا غَيْرَهُمْ، وَلَا يَشْفِي غَيْظَهُ بِعُقُوبَتِهِمْ، فَلَيْسَ لِلْعُقُوبَةِ وَجْهٌ فِي الْحِكْمَةِ. هَذَا غَرَضُ كِتَابِهِ الَّذِي نَسَبَهُ إِلَى الْغَرِيبِ الْمَشْرِقِيِّ.

وقال أبو سعيد الحَضْرَمِيّ - وكان من حُذاقِ الْمُتَكَلِّمينِ بِبُعْدَادٍ، وهو الذي تَظَاهَرَ بالقَوْلِ بتَكاوُفِ الأدلّةِ - : إن كان اللهَ عَذْلاً كريماً جَوَاداً عَلِيماً رَوْوفاً رَحِيماً فَإِنَّهُ سَيَصِيرُ جميعَ خَلْقِهِ إلى جَنَّتِهِ، وذلك أَنَّهُم جميعاً على اختلافهم يجتهدون في طَلَبِ مَرْضَاتِهِ، فيَهْرُبُونَ مِنْ وَقَعِ سُخْطِهِ بِقَدْرِ عِلْمِهِمْ وَمَبْلَغِ عُقُولِهِمْ، وَإِنَّمَا تَرَكُوا اتِّبَاعَ أَمْرِهِ لِأَنَّهُمْ خُذِعُوا، وَزَيَّنَ لَهُمُ الْبَاطِلُ بِاسْمِ الْحَقِّ؛ وَمَثَلُهُمْ فِي ذَلِكَ مَثَلُ رَجُلٍ حَمَلَ هَدِيَّةً إِلَى مَلِكٍ، فَعَرَضَ لَهُ فِي الطَّرِيقِ قَوْمٌ شَأْنُهُمُ الْخِدَاعُ وَالْمَكْرُ وَالِاسْتِلَالُ، فَتَصَبَّوْا لَهُ رَجُلًا، وَسَمَّوْهُ بِاسْمِ الْمَلِكِ الَّذِي كَانَ قَصْدَهُ، فَسَلَّمَ الْهَدِيَّةَ إِلَيْهِمْ؛ فَالْمَلِكُ الَّذِي قَصْدَهُ إِنْ كَانَ كَرِيماً فَإِنَّهُ يَعْذِرُهُ وَيَرْحَمُهُ وَيَزِيدُ فِي كَرَامَتِهِ وَبِرِّهِ حِينَ يَقِفُ عَلَى قِصَّتِهِ، وَهَذَا أَوْلَى بِهِ مِنْ أَنْ يَغْضَبَ عَلَيْهِ وَيُعَاقِبَهُ.

وقال أبو سليمان: ذَكَرُوا أَنَّ رَجُلًا رَأَى قَوْمًا يَتَنَاطَرُونَ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ فَرَأَاهُمْ مُخْتَلِفِينَ، فَأَقْبَلَ عَلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ فَقَالَ: أَتُلْزِمُنِي أَنْ أَقُولَ بِقَوْلِكَ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ أَنَّكَ مُحِقٌّ؟ فَإِنْ قُلْتَ: نَعَمْ، قُلْتَ لَكَ: إِنَّ بَعْضَ جُلُوسَاتِكَ يَدْعُونِي إِلَى مَخَالَفَتِكَ وَاتِّبَاعِهِ، وَلَيْسَ عِنْدِي عِلْمٌ بِالْمُحِقِّ مِنْكُمْ؛ وَإِنْ أَلْزَمْتَنِي أَنْ أَتَّبِعَ كُلَّكُمْ فَهَذَا مُحَالٌ، وَإِنْ قُلْتَ: لَا يَلْزِمُكَ أَنْ تَتَّبِعَنِي وَلَا غَيْرِي إِلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِالْمُحِقِّ مِنْكُمْ، لَمْ يَخُلْ الْعِلْمُ بِذَلِكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ فِعْلِي أَوْ فِعْلَ غَيْرِي، فَإِنْ كَانَ الْعِلْمُ فِعْلاً لَغَيْرِي فَقَدْ صِرْتُ مُضْطَرّاً، وَلَا أَسْتَوْجِبُ عَلَيْهِ حَمْدًا وَلَا ذَمًّا وَإِنْ كَانَ الْفِعْلُ لِي فَمَنْ أَعْظَمُ جَهَالَةٍ مِمَّنْ يَفْعَلُ مَا يَلْزِمُهُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ بِهِ، وَإِنْ قَصَرَ صَبْرُهُ ذَلِكَ إِلَى الْعَطَبِ وَالْهَلَاكِ، مَعَ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يُؤَدِّي إِلَى أَنْ أَكُونَ أَنَا الْمَعْتَرِضُ عَلَى نَفْسِي، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَلْزِمُنِي ذَلِكَ إِذَا عَلِمْتُ أَنِّي أَقْدِرُ أَنْ أَعْلَمَ وَأَلَّا أَعْلَمَ.

وحكى لنا أيضاً قال: سئل عندنا رَجُلٌ مِنَ الْمُتَحَيِّرِينَ بِسِجِسْتَانَ فَقِيلَ لَهُ: مَا دَلِيلُكَ عَلَى صَحَّةِ مَقَالَتِكَ؟ فَقَالَ لَا دَلِيلَ وَلَا حُجَّةَ. فَقِيلَ لَهُ: وَمَا الَّذِي أَخَوَجَكَ إِلَى هَذَا؟ قَالَ: لِأَنِّي رَأَيْتُ الدَّلِيلَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ وَجْهِ ثَلَاثَةِ:

إِمَّا مِنْ طَرِيقِ النُّبُوَّةِ وَالْآيَاتِ، فَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يَثْبُتُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ فَلَمْ أَشَاهِدْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ ثَبَّتَ عِنْدِي مَقَالَتَهُ.

وإِمَّا أَنْ يَكُونَ يَنْبَتُ بِالْكَلَامِ وَالْقِيَاسِ فَإِنْ كَانَ إِنَّمَا يَثْبُتُ بِذَلِكَ فَقَدْ رَأَيْتُنِي مَرَّةً أَخْصِمُ وَمَرَّةً أُخْصَمُ، وَرَأَيْتُنِي أَعْجِزُ عَنِ الْحُجَّةِ فَأَجْذُهَا عِنْدَ غَيْرِي، وَأَتَنَبَّهُ إِلَيْهَا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَصِحُّ عِنْدِي مَا كَانَ بَاطِلاً، وَيَفْسُدُ عِنْدِي مَا كَانَ صَحِيحاً؛ فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْوَصْفُ عَلَى مَا وَصَفْتُ لَمْ يَكُنْ لِي أَنْ أَقْضِيَ لَشَيْءٍ بِصَحَّةٍ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ، وَلَا أَقْضِي عَلَى شَيْءٍ بِفَسَادٍ لِعَدَمِ الْحُجَّةِ.

وإِمَّا أَنْ تَكُونَ ثَبَّتَتْ بِالْأَخْبَارِ عَنِ الْكُتُبِ فَلَمْ أَجِدْ أَهْلَ مِلَّةٍ أَوْلَى بِذَلِكَ مِنْ

غيرهم، ولم أجد إلى تصديق كلهم سبيلاً. وكان تصديق الفرقة الواحدة دون ما سواها جوراً، لأن الفرقة متساوية في الدعوى والحجة والذنب والنصرة.

ف قيل له: فلم تدب بدينك هذا الذي أنت على شعاره وحليته، وهذيه وهيئته؟ فقال: لأن له حرمة ليست لغيره، وذلك أنني ولدت فيه، ونشأت عليه، وتشربت حلاوته، وألفت عادة أهله، فكان مثلي كمثل رجل دخل خاناً يستظل فيه ساعة من نهار والسماء مضججة، فأدخله صاحب الخان بيتاً من البيوت من غير تحبير ولا معرفة بصلاجه، فبينما هو كذلك إذ نشأت سحابة فمطرت جوداً، ووكف البيت، فنظر إلى البيوت التي في الفندق فرأها أيضاً تكف، ورأى في صحن الدار رذعة، ففكر أن يقيم مكانه ولا يتنقل إلى بيت آخر ويربح الراحة، ولا يلطخ رجله بالرذعة والوحل اللذين في الصحن؛ ومال إلى الصبر في بيته، والمقام على ما هو عليه، وكان هذا مثلي، ولدت ولا عقل لي، ثم أدخلني أبوي في هذا الدين من غير خبرة مني، فلما فتشت عنه رأيت سبيله سبيل غيره، ورأيتني في صبري عليه أعز مني في تركه، إذ كنت لا أدعه وأميل إلى غيره إلا باختيار مني لذلك، وأثرة له عليه؛ ولست أجد له حجة إلا وأجد لغيره عليه مثلها.

وحكى لنا ابن البقال - وكان من دهاة الناس - قال: قال ابن الهيثم: جمع بيني وبين عثمان بن خالد، فقال لي: أحب أن أناظرك في الإمامة؛ فقلت: إنك لا تناظرني، وإنما تشير علي؛ فقال: ما أفعل ذلك، ولا هذا موضع مشورة، وإنما اجتمعنا للمناظرة؛ فقلت له: فإننا قد أجمعنا على أن أولى الناس بالإمامة أفضلهم، وقد سبقنا القوم الذين يتنازع في فضلهم، وإنما يعرف فضلهم بالثقل والخبر؛ فإن أحببت سلمت لك ما تزويه أنت وأهل مذهبك في صاحبك، وتسلم لي ما أزويه أنا وفريقي في صاحبي، ثم أناظرك في أي الفضائل أعلى وأشرف؛ قال: لا أريد هذا، وذلك أنني أزوي مع أصحابي أن صاحبي رجل من المسلمين يصيب ويخطئ، ويعلم ويجهل؛ وأنت تقول في صاحبك: إنه معصوم من الخطأ، عالم بما يحتاج إليه. فكيف أرضى هذه الجملة؟ قلت: فأقبل كل شيء تزويه أنت وأصحابك في صاحبي من حمد أو ذم، وتقبل أنت كل شيء أزويه أنا وأصحابي في صاحبك من حمد أو ذم؛ قال: هذا أقبح من الأول، وذلك أنني وأصحابي نروي أن صاحبك مؤمن خير فاضل، وأنت وأصحابك تزوون أن صاحبي كافر منافق؛ فكيف أقبل هذا منك وأناظرك عليه؟

قال ابن الهيثم: فلم يبق إلا أن أقول: دغ قولك وقول أصحابك، واقبل قولي وقول أصحابي؛ قال: ما هو إلا ذاك؛ قلت: هذه مشورة، وليست مناظرة. قال: صدقت.

وَحَكَى لَنَا الزُّهَيْرِيُّ قَالَ: سَأَلَ رَجُلٌ آخَرَ فَقَالَ: أَتَقُولُ إِنَّ اللَّهَ نَهَانَا أَنْ نَعْبُدَ إِلَهَيْنِ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: وَأَمَرْنَا أَنْ نَعْبُدَ إِلَهًا وَاحِدًا؟ قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: فَلَا تُثَانِ اللَّذَانِ نَهَانَا عَنْ عِبَادَتِهِمَا مَعْقُولَانِ هَكَذَا؟ وَأَشَارَ بِإصْبَعَيْهِ، قَالَ: نَعَمْ؛ قَالَ: فَالوَاحِدُ الَّذِي أَمَرْنَا بِعِبَادَتِهِ مَعْقُولٌ هَكَذَا؟ وَأَشَارَ بِإصْبَعٍ وَاحِدَةٍ؛ قَالَ: لَا؛ قَالَ: فَقَدْ نَهَانَا عَمَّا يُعْقَلُ وَأَمَرْنَا بِمَا لَا يُعْقَلُ، وَهَذَا يُعْلَمُ مَا فِيهِ فَانْظُرْ حَسَنًا.

وَحَكَى لَنَا الزُّهَيْرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْأَخْشَادِ قَالَ: تَنَاظَرَ رَجُلَانِ فِي وَصْفِ الْبَارِي سُبْحَانَهُ، وَاشْتَدَّ بَيْنَهُمَا الْجِدَالُ، فَتَرَاضِيَا بِأَوَّلِ مَنْ يَطْلُعُ عَلَيْهِمَا وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمَا، فَطَلَعَ أَعْرَابِيٌّ، فَأَجْلَسَاهُ وَقَصَّاهُ قِصَّتَهُمَا، وَوَصَفَا لَهُ مَذْهَبَيْهِمَا؛ فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ لِأَحَدِهِمَا - وَكَانَ مُشَبَّهًا -: أَمَّا أَنْتَ فَتَصِفُ صَنَمًا، وَقَالَ لِلثَّانِي: وَأَمَّا أَنْتَ فَتَصِفُ عَدَمًا، وَكِلَاكُمَا تَقُولَانِ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ تَعْلَمَا.

وَقَالَ لَنَا الْأَنْصَارِيُّ أَبُو كَعْبٍ: قَالَ ابْنُ الطَّحَّانِ الضَّرِيرُ الْبَصْرِيُّ - وَكَانَ يَقُولُ بِقَوْلِ جَهْمٍ -: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ الْمُؤْمِنِينَ حَسَنَاتٍ، فَيَنْدُمُونَ عَلَى مَا قَصَرُوا فِيهِ مِنْ تَنَاوُلِ اللَّذَاتِ، وَقَضَاءِ الْأَوْطَارِ بِالشَّهَوَاتِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَوَقَّعُونَ الْعِقَابَ، فَنَالُوا الثَّوَابَ؛ وَكَانَ يَتْلُو عِنْدَ هَذَا الْحَدِيثِ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأُولَئِكَ يَدِدُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وَحَكَى لَنَا ابْنُ الثَّلَاجِ قَالَ، قَالَ أَبُو عُثْمَانَ الْأَدَمِيُّ: إِنَّ الْجَنَّةَ لَا سَاتِرَ فِيهَا، وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ سَاتِرٍ مَانِعٌ، وَكُلُّ مَانِعٍ آفَةٌ، وَلَيْسَتْ فِي الْجَنَّةِ آفَةٌ، وَلِهَذَا رُوِيَ فِي الْحَدِيثِ: إِنَّ الْحَوْرَ يَرَى مَخْ سَاقِهَا مِنْ وَرَاءِ سَبْعِينَ حُلَّةً سِوَى مَا تَحْتَ ذَلِكَ مِنَ اللَّحْمِ وَالْعَظْمِ، كَالسُّلُكِ فِي الْيَاقُوتِ؛ فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: الْجَنَّةُ إِذَا أُولَى مِنَ الْحَمَامِ، إِذْ قِيلَ: بِشَرِّ الْبَيْتِ الْحَمَامِ، يُذْهِبُ الْحَيَاءَ، وَيُبْدِي الْعَوْرَةَ.

وَحَكَى لَنَا ابْنُ رَبَاطٍ الْكُوفِيُّ - وَكَانَ رَئِيسَ الشَّيْعَةِ بِبَغْدَادَ، وَلَمْ أَرَأْ أَنْطَقَ مِنْهُ - قَالَ: قِيلَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ -: مِنْ أَيْنَ جَاءَ اخْتِلَافُ النَّاسِ فِي الْحَدِيثِ؟ فَقَالَ: النَّاسُ أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ مُنَافِقٌ كَذَبَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَتَعَمِّدًا، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ مُنَافِقٌ مَا صَدَّقَ وَلَا أَخَذَ عَنْهُ. وَرَجُلٌ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَوْلًا أَوْ رَأَاهُ يَفْعَلُ فَعَلًا ثُمَّ غَابَ وَنُسِخَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ أَوْ فِعْلِهِ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ نُسِخَ مَا حَدَّثَ وَلَا عَمَلٌ بِهِ، وَلَوْ عَلِمَ النَّاسُ أَنَّهُ نُسِخَ مَا قَبِلُوا مِنْهُ وَلَا أَخَذُوا عَنْهُ. وَرَجُلٌ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَوْلًا فَوَهَّمَهُ فِيهِ، فَلَوْ عَلِمَ أَنَّهُ وَهَمٌ مَا حَدَّثَ وَلَا عَمَلٌ بِهِ. وَرَجُلٌ لَمْ يَكْذِبْ وَلَمْ يَهْمُ، وَشَهِدَ وَلَمْ يَغِبْ.

قَالَ: وَإِنَّمَا ذَلَّ بِهَذَا عَلَى نَفْسِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: كُنْتُ إِذَا سُئِلْتُ أَجَبْتُ، وَإِذَا سَكَتُ ابْتَدَيْتُ.

وَحَكَى لَنَا ابْنُ زُرْعَةَ النَّصْرَانِيُّ قَالَ: قِيلَ لِلْمَسِيحِ؛ مَا بَالُ الرَّجُلَيْنِ يَسْمَعَانِ الْحَقَّ فَيَقْبَلُهُ أَحَدُهُمَا وَلَا يَقْبَلُهُ الْآخَرُ؟ فَقَالَ: مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ الرَّاعِي الَّذِي يَصُوتُ بَعْنَمِهِ فَتَأْتِيهِ هَذِهِ الشَّاةُ بِنِدَائِهِ، وَلَا تَأْتِيهِ هَذِهِ.

قال أبو سليمان: هذا جوابٌ مَبْتُور، وليس له سَنَن، ولعلَّ الترجمة قد حافت عليه، والمعنى انحرف عن الغاية؛ وليس يَجُوزُ أن يكون حال الإنسان كيف كان، حال الشاة في إجابة الداعي وإبائها، فإنَّ له دَوَاعِيَّ وَمَوَانِعَ عَقْلِيَّةً وَحِسِّيَّةً.

فقال الوزير: هذا أيضاً بابٌ قد مَضَى مُسْتَوْفَى، ما الذي سمعتَ اليوم؟ فقلتُ: رأيتُ ابنَ برمويه في دَعْوَةٍ، وَتَرَامَى الْحَدِيثُ فَقَالَ: رَأَيْتُ الْيَوْمَ الْوَزِيرَ شَدِيدَ الْعُبُوسِ، أَهْوَى هَكَذَا أَبَدًا، أَمْ عَرَضَ لَهُ هَذَا عَلَى بَخْتِي؟ فَقَالَ ابْنُ جَبَلَةَ: لَعَلَّهُ كَانَ ذَاكَ لِسَبَبٍ، وَإِلَّا فَالْبِشْرُ غَالِبٌ عَلَى وَجْهِهِ، وَالْبَشَاشَةُ مَأْلُوفَةٌ مِنْهُ. فَقَالَ ابْنُ بَرْمُوِيهِ: مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ الشَّاعِرُ:

أَخُو الْبِشْرِ مُحَمَّدٌ عَلَى حُسْنِ بَشَرِهِ وَلَنْ يَغْدَمَ الْبَغْضَاءُ مَنْ كَانَ عَائِسًا
فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ - رَسُولُ سِجِسْتَانَ -: مَا أَذْرِي مَا أَنْثَمَا فِيهِ، وَلَكِنْ يُقَالُ: مَا
أَرْضَى الْغَضْبَانَ، وَلَا اسْتَعَطَفَ السُّلْطَانَ، وَلَا مَلَكَ الْإِخْوَانَ؛ وَلَا اسْتَلَّتْ الشُّخْنَاءُ،
وَلَا رُفِعَتِ الْبَغْضَاءُ؛ وَلَا تَوَقَّى الْمَحْذُورَ، وَلَا اجْتَلَبَ السَّرُورَ؛ بِمِثْلِ الْبَشْرِ وَالْبَرِّ،
وَالْهَدْيَةِ وَالْعَطِيَّةِ.

وقال الوزير: هَاتِ مُلَحَّةَ الْمَجْلِسِ.
فكان الجواب: قال أبو هَمَّامُ ذَاتَ يَوْمٍ: لَوْ كَانَ النَّخْلُ لَا يَحْمِلُ بَعْضُهُ إِلَّا
الرُّطْبَ، وَبَعْضُهُ إِلَّا الْبُسْرَ، وَبَعْضُهُ إِلَّا الْخَلَالَ، وَكُنَّا مَتَى تَنَاوَلْنَا مِنَ الشُّمْرَاخِ بُسْرَةً
خَلَقَ اللَّهُ مَكَانَهَا بُسْرَتَيْنِ، مَا كَانَ بِذَلِكَ بَأْسٌ.

ثم قال: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، لَوْ كُنْتُ تَمَنَيْتُ بَدَلَ نَوَاةِ الثَّمَرِ زُبْدَةً كَانَ أَضَوَّبُ.
وسألَ الوزيرُ: هَلْ يُقَالُ فِي النِّسَاءِ رَجُلَةٌ؟
فكان الجواب: حَدَّثَنَا أَبُو سَعِيدٍ السَّيرَافِيُّ قَالَ: كَانَ يُقَالُ فِي عَائِشَةَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ
الصَّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كَانَتْ رَجُلَةً الْعَرَبِ»، وَإِنَّمَا ضَاعَتْ هَذِهِ الصِّفَةُ عَلَى مَرِّ
الْأَيَّامِ بَغْلَبَةِ الْعُجْمَانِ.

فقال: إِنَّهَا وَاللَّهِ لكَذَلِكَ، لَقَدْ سَمِعْتُ مَنْ يَقُولُ: كَانَ يُقَالُ: لَوْ كَانَ لِأَبِيهَا ذَكَرٌ
مِثْلُهَا لَمَا خَرَجَ الْأَمْرُ مِنْهُ.

قال: هَلْ تَخْفَظُ مِنْ كَلَامِهَا شَيْئًا؟

فقلتُ: لَهَا كَلَامٌ كَثِيرٌ فِي الشَّرِيعَةِ، وَالرَّوَايَةِ عَنْهَا شَائِعَةٌ فِي الْأَحْكَامِ، وَلَقَدْ
نَطَقَتْ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهَا بِمَا خُفِظَ وَأُذِيعَ، لَكِنِّي أَخْفَظُ لَهَا مَا قَالَتْهُ لَمَّا قُتِلَ عُثْمَانُ:

خَرَجْتُ وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ، وَعَلَيَّ فِيهِمْ، فَقَالَتْ: أَقْتِلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِثْمَانَ؟
 قَالُوا: نَعَمْ، قَالَتْ: أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ إِلَى تَسْدِيدِ الْحَقِّ وَتَأْكِيدِهِ أَخَوَجَ مِنْكُمْ إِلَى مَا
 نَهَضْتُمْ إِلَيْهِ، مِنْ طَاعَةِ مَنْ خَالَفَ عَلَيْهِ؛ وَلَكِنْ كَلَّمَا زَادَكُمْ اللَّهُ صَحَّةً فِي دِينِهِ، ارْزَدَدْتُمْ
 تَنَاقُلًا عَنْ نُصْرَتِهِ طَمَعًا فِي دُنْيَاكُمْ، أَمَّا وَاللَّهِ لَهْذُمُ النُّعْمَةِ أَيْسَرُ مِنْ بُنْيَانِهَا، وَمَا الزِّيَادَةُ
 إِلَيْكُمْ بِالشُّكْرِ، بِأَسْرَعَ مِنْ زَوَالِ النُّعْمَةِ عَنْكُمْ بِالْكَفْرِ؛ أَمَّا لَنْ كَانَ فَنِي أَكُلُهُ، وَاخْتَرَمَ
 أَجَلُهُ، إِنَّهُ لَصِهْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ مَرَّتَيْنِ، وَمَا عَلَّمْنَا خَلْقًا
 تَرْوِجَ ابْنَتِي نَبِيَّ غَيْرِهِ؛ وَلَوْ غَيْرَ أَيْدِيكُمْ قَرَعَتْ صَفَاتِهِ لَوُجِدَ عِنْدَ تَلَطُّي الْحَرْبِ مَتَجَرِّدًا،
 وَلِسُيُوفِ النَّصْرِ مَتَقَلَّدًا، وَلَكِنِّهَا فِتْنَةٌ قُدِحَتْ بِأَيْدِي الظُّلْمَةِ؛ أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ حَاطَ الْإِسْلَامَ
 وَأَكَدَهُ، وَعَضَّدَ الدِّينَ وَأَيَّدَهُ؛ وَلَقَدْ هَدَمَ اللَّهُ بِهِ صِيَاصِي أَهْلِ الشُّرْكِ، وَوَقَمَ^(١) أَرْكَانَ
 الْكُفْرِ؛ لِلَّهِ الْمُصِيبَةُ بِهِ، مَا أَفْجَعَهَا! وَالْفَجِيعَةُ بِهِ مَا أَوْجَعَهَا! صَدَعُ وَاللَّهِ مَقْتَلُهُ صَفَاةَ
 الدِّينِ، وَتَلَمَّتْ مُصِيبَتُهُ ذِرْوَةَ الْإِسْلَامِ، تَبًّا لِقَاتِلِهِ، أَعَاذَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ مِنَ التَّلَبُّسِ بِدَمِهِ،
 وَالرَّضَا بِقَتْلِهِ.

فَقَالَ الْوَزِيرُ: مَا أَفْصَحَ لِسَانُهَا، وَأَشْجَعَ جَنَانُهَا، فِي ذَلِكَ الْمُخْفِلِ الَّذِي يَتَبَلَّلُ
 فِيهِ كُلُّ قُلْفُلٍ!

وَرَوَيْتُ أَيْضًا أَنَّهَا قَالَتْ: مَكَارِمُ الْأَخْلَاقِ عَشْرٌ: صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَصِدْقُ
 الْبَأْسِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ، وَبَذْلُ الْمَغْرُوفِ، وَالتَّذَمُّمُ لِلجَّارِ، وَالتَّذَمُّمُ
 لِلصَّاحِبِ، وَالْمُكَافَأَةُ بِالصَّنَائِعِ، وَقِرَى الضَّيْفِ، وَرَأْسُهُنَّ الْحَيَاءُ.

فَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّهَا نَعَمَاتُ النَّبِيِّ ﷺ، مَا كَانَ أَشْهَمَهَا، وَأَعْلَى نَظَرُهَا، وَأَبْيَنَ
 جَوَابِهَا!!

وَحَدَّثَنِي أَنَّ امْرَأَةً تَطَلَّمَتْ إِلَى مُسْلِمٍ بْنِ قُتَيْبَةَ بِخُرَاسَانَ، فَزَبَرَهَا، وَلَمْ يَنْظُرْ فِي
 قِصَّتِهَا؛ فَقَالَتْ لَهُ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَعَثَكَ إِلَى خُرَاسَانَ لِيَنْظُرَ هَلْ تَثْبُتُ خُرَاسَانُ بِلا
 عَامِلٍ أَمْ لَا؛ فَقَالَ لَهَا مُسْلِمٌ: اسْكُتِي وَيْلَكَ، فَظَلَامَتُكَ مَسْمُوعَةٌ، وَحَاجَتُكَ مَقْضِيَّةٌ.
 وَقَالَ مُسْلِمٌ: مَا وَخَزَ قَلْبِي قَطُّ شَيْءٌ مِثْلُ قَوْلِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ، وَلَقَدْ آلَيْتُ أَلَّا أَسْتَهِينَ
 بِأَحَدٍ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى.

وَشَبِيهَةٌ بِهَذَا قَوْلُ الْمُعَلَّى بْنِ أَيُّوبَ: رَأَيْتُ فِي دَارِ الْمَأْمُونِ إِنْسَانًا فَارْدَرَيْتُهُ،
 فَقُلْتُ: لِأَيِّ شَيْءٍ تَصْلُحُ أَنْتِ؟ عَلَى غَيْظٍ مِنِّي وَتَعْظُبٍ؛ فَقَالَ: أَنَا أَصْلُحُ لِأَنِّي يُقَالُ
 لِي: هَلْ يَصْلُحُ مِثْلُكَ لِمَا أَنْتَ فِيهِ أَوْ لَا. قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا وَقَرْتُ كَلِمَتُهُ فِي أُذُنِي حَتَّى
 أَظْلَمَ عَلَيَّ الْجَوْ وَنَكِرَتْ نَفْسِي.

وكان عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ إِذَا كَانَ لَهُ خَصِيٌّ وَضِيءٌ أَمَرَ أَنْ يُحَجَّبَ عَنْ نِسَائِهِ، وَقَالَ: هُوَ رَجُلٌ وَإِنْ قُطِعَ مِنْهُ مَا قُطِعَ، وَرَبِّمَا اجْتَزَّاتِ امْرَأَةٌ بِمِثْلِهَا، وَلِلْعَيْنِ حَظُّهَا.

قال عبد الرحمن بن سعيد القرشي: كان لهشام بن عبد الملك خَصِيٌّ يُقَالُ لَهُ خَالِدٌ، وَكَانَ وَضِيئًا تَأْخُذُهُ الْعَيْنُ، مَدِيدُ الْقَامَةِ، فَخَمًا أُبْيَضُ، فَأَمَرَ هِشَامٌ مَسْلَمَةَ بِالْعُدُوِّ عَلَيْهِ، فَعَدَا، فَقِيلَ: اسْتَأْذِنْ لِأَخِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ، فَاسْتَحَفَّ وَقَالَ كَلِمَةً سَمِعَهَا مَسْلَمَةُ، فَحَقَّقَهَا عَلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلَ مَسْلَمَةُ إِلَى هِشَامٍ لَمْ يَزَلْ يَذْكُرُهُ شَيْئًا، وَيُشِيرُ عَلَيْهِ حَتَّى حُطَّ عَنْ فُرْشِهِ وَجَلَسَا عَلَى الْبِسَاطِ وَمَسْلَمَةُ فِي ذَلِكَ يَزُمُّ الْخَصِيَّ مَتَى يَمُرُّ بِهِ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَرَّ مُعَمَّمًا بِعِمَامَةٍ وَشِيءٍ؛ فَقَالَ مَسْلَمَةُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَيُّ فِتْيَانِنَا هَذَا؟ قَالَ: غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يَا أَبَا سَعْدٍ، هَذَا خَالِدُ الْخَصِيِّ؛ قَالَ: فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَصَمَّةٌ مِنْ هَذَا خَيْرٌ مِنْ مُجَامَعَةِ رَجُلٍ، فَقَلِقَ هِشَامٌ وَجَعَلَ يَتَضَوَّرُ حَتَّى قَامَ مَسْلَمَةُ، ثُمَّ أَمَرَ بِالْخَادِمِ فَأَخْرَجَ مِنَ الرُّصَافَةِ، فَاتَّصَلَ بِبَعْضِ بَنِيهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ هِشَامٌ: إِنِّي نَحْنِيتهُ لِمَا بَلَغَكَ، فَجَفَاهُ، فَلَحِقَ الْخَادِمُ بِالثَّغْرِ.

وَجَزَى حَدِيثُ النَّفْسِ وَأَنَّهَا كَيْفَ تَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ.

فَقِيلَ: النَّفْسُ فِي الْأَصْلِ عَلَامَةٌ، وَالْعِلْمُ صُورَتُهَا؛ لَكُنْهَا لِمَا لَا بَسَتْ الْبَدَنُ، وَصَارَ الْبَدَنُ بِهَا إِنْسَانًا، اعْتَرَضَتْ حُجُبٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ صُورَتِهَا كَثِيفَةٌ وَلَطِيفَةٌ، فَصَارَتْ تَخْرِقُ الْحُجُبَ بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعَتْ لِتَصِلَ إِلَى مَا لَهَا مِنْ غَيْبِهَا، فَصَارَتْ تَعْلَمُ الْمَاضِيَّ بِالِاسْتِخْبَارِ وَالتَّعْرِفِ وَالبَحْثِ وَالمَسْأَلَةِ وَالتَّنْقِيرِ، وَتَعْلَمُ الْآتِيَّ بِالتَّلَقِّيِ وَالتَّوَكُّفِ وَالتَّبَشِيرِ وَالْإِنْذَارِ، وَتَعْلَمُ الْحَاضِرَ بِالتَّعَارُفِ وَالمُشَاهَدَةِ وَمَجَالِ الْحِسِّ؛ وَهَذِهِ الْمَعْلُومَاتُ كُلُّهَا زَمَانِيَّةٌ، وَلِهَذَا انْقَسَمَ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْآتِي وَالْحَاضِرِ.

فَأَمَّا مَا هُوَ فَوْقَ الزَّمَانِ فَإِنَّهَا تَعْلَمُهُ بِالمَصَادِفَةِ الْخَارِجَةِ مِنَ الزَّمَانِ، الْعَالِيَةِ عَلَى حَضَرِ الدَّهْرِ، وَهَذِهِ عِبَارَةٌ عَنْ وَجْدَانِهَا، لِمَا لَهَا فِي غَيْبِهَا بِالحَرَكَةِ اللَّائِقَةِ بِهَا، أَعْنِي الْحَرَكَةَ الَّتِي هِيَ فِي نَوْعِ السُّكُونِ، وَأَعْنِي بِهَذَا السُّكُونِ الَّذِي هُوَ فِي نَوْعِ الْحَرَكَةِ؛ وَلَمَّا فَقِدَ الْأِسْمُ الْخَاصُّ بِهَذَا الْمَعْنَى، وَلَمْ يُعْرَفْ فِي الْإِخْبَارِ وَالِاسْتِخْبَارِ إِلَّا مَا كَانَ مَأْلُوفًا بِالزَّمَانِ، التَّبَسَّتِ الْعِبَارَةُ عَنْهُ بِاعْتِمَادِ السُّكُونِ فِيمَا يُلْحَظُ مِنْهُ الْحَرَكَةُ، وَاعْتِمَادِ الْحَرَكَةِ فِيمَا يُلْحَظُ مِنْهُ السُّكُونِ، فَصَارَ هَذَا الْجُزْءُ كَأَنَّهُ نَاقِضٌ وَمُنْقُوضٌ، وَهَذَا لِيَجْذِبَ مَحَلَّ الْحِسِّ مِنْ ثَبَتِ الْعَقْلِ، وَخِضْبِ مَرَادِ الْعَقْلِ بِكُلِّ مَا عَلِقَ بِالمَوْجُودِ الْحَقِّ.

فَقَالَ الْوَزِيرُ: مَا أَعْلَى نَجْدِ هَذَا الْكَلَامِ! وَمَا أَعَمَّقَ غَوْرَهُ! وَإِنِّي لِأَعْدِرُ كُلَّ مَنْ قَابَلَ هَذَا الْمَسْمُوعَ بِالرَّدِّ، وَاعْتَرَضَ عَلَى قَائِلِهِ بِالتَّكْبُرِ؛ وَلَعَمْرِي إِذَا تَعَايَتِ الْأَشْيَاءُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَعَرَضَ الْعَجْزُ عَنْ إِبَانَتِهَا بِحَقَائِقِ الْأَلْقَابِ، حَارَ الْعَقْلُ الْإِنْسَانِي، وَحِيرَ الْفَهْمُ الْحِسِّيُّ، وَاسْتَحَالَ الْمِزَاجُ الْبَشَرِيُّ وَتَهَافَّتَ التَّرَكِيبُ الطِّينِي، وَقَدَّرَ النَّاطِرُ

في هذا الفن، والباحث عن هذا المستكن، أنه حالم، وأن الحلم لا ثمرة له، ولا جدوى منه.

وهذا كله هكذا ما دام مقيساً إلى الأمور القائمة بشهادة الإحساس؛ فأما إذا صفا الناظر - أعني ناظر العقل - من قذى الحس، فإن المطلوب يكون حاضراً أكثر مما يكون غيره ظاهراً مستباناً؛ وليست شهادة العبد كشهادة المولى، ولا نور السهى كنور القمر.

قال: أنشدني أبياتاً غريبة جزلة.

فأنشدت لهذبة العذري:

سأوي إلى خير فقد فاتني الصبا
أمور وألوان وحال تقلبت
أصبت بما لو أن سلمى أصابه
وإن نتج من أهوال ما خاف قومنا
وإن غالنا دهر فقد عال قبلنا
وذي نيرب قد عابني لينالني
فإن يك دهر نالني فأصابني
فلست إذا الضراء نابت بجباً
ف قيل: ما الجب؟ فقال: الجبان.

قال أبو سعيد: حكى العلماء أن فلاناً جباً، إذا نكل.

فقال: ما أمتن هذا الكلام، وألطف هذا الجدد! وما أبعدته من تليق الضرورة، وهجنة التكلف، لولا أن سامعه ربما تطير به، وانكسر عليه.

فكان الجواب: قد مر في القال والزجر والطيرة والاعتياف ما إذا تحقق لم يعج على مثل هذا الاستشعار؛ ولعمري إن المذكور والمسموع إذا كان حسناً وجميلاً ومحبوباً ومتمنى، كان أخف على القلب، وأخلط بالنفس، وأغبت بالروح؛ وكذلك إذا كان ذلك على الضد، فإنه يكون أزوى للوجه، وأكثر للنفس؛ ولكن الأمور في الخيرات والشُرور ليست فاشية من الطيرة والعيافة، ولا جارية على هذه الحدود المعروفة، وهي على مقاصدها التي هي غاياتها، ومتوجهاً التي هي نهاياتها؛ وإنما هذه الأخلاق عارضة للنساء وأشباه النساء، ومن بينهن ضعيفة، ومادته من العقل طفيفة، وعادته الجارية سخيفة؛ وإلا فبأي برهان صح أن الكلام الطيب يجلب المحبوب ويكون علة له؟! وأن اللفظ الخبيث يجلب المكروه ويكون علة له؟! هذا خور في طباع قائله، وتأنت في عنصر مستشعره؛ ولو سلك العلماء والبصراء هذا الطريق في كل حال وفي كل أمر لأدى ذلك إلى فساد عام؛ وآثر ما في هذه القصّة أن

الإنسانَ إِنَّ أَعْجَبَهُ شَيْءٌ مِنْ هَذَا لَا يُعَوَّلُ عَلَيْهِ، وَإِنْ سَاءَ مِنْهُ شَيْءٌ لَا يَحْطُ إِلَى، بَلْ يَكُونُ تَوَكُّلُهُ عَلَى رَبِّهِ فِي مَسَرَّتِهِ وَمَسَاءَتِهِ، أَكْثَرَ مِنْ تَفَرُّدِهِ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ، فِي اخْتِيَارِهِ وَتَكْرُّمِهِ، وَهَذَا يَخْتِاجُ إِلَى عَقْلِ رَاصٍ، وَهَمَّةٍ صَاعِدَةٍ، وَشَكِيمَةٍ شَدِيدَةٍ، وَلَيْسَ يَوْجَدُ هَذَا عِنْدَ كُلِّ أَحَدٍ، وَلَا يُصَابُ مَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ.

فقال الوزير: قد أخذت المسألة بحَقِّها، والمستزيد منها ظالم، والزائد عليها متكلف.

وقال أيضاً: أريدُ أن أسألك عن ابن فارس أبي الفتح - فقد كنتَ عنده بقرميسين أياماً - وما وضح لك من تقدمه وتأخره في صناعته وبضاعته؟

فكان من الجواب: إنه شيخٌ فيه محاسنٌ ومساوئٌ، إلا أنَّ الرَّجَحَانَ لما يَدُمُّ به لا لِمَا يُحْمَدُ عليه، فمن ذلك أنَّ له خبرةً بالتصرف، وهناك أيضاً قسْطٌ مِنَ الْعِلْمِ بأوائل الهندسة، وتشبُّه بأصحابِ البلاغة، ومُذَاكَرَةٌ فِي الْمَحَافِلِ صَالِحَةٌ؛ إِلَّا أَنَّ هَذَا كُلَّهُ مَزْدُودٌ بِالرَّعُونَةِ وَالْمَكْرِ وَالْإِبْهَامِ وَالْخِسَّةِ وَالْكَذْبِ وَالْغِيَةِ؛ وَقَدْ كَانَ قَرِيْنُهُ بِقَرْمِيسِينَ يَظُنُّ بِهِ خَيْرًا، وَيَلْحَظُهُ بَعِيْنٌ مَا؛ فَلَمَّا سَبَّرَهُ ذَمُّهُ وَكَرِهَ أَنْ يُعَاجِلَهُ بِالصَّرْفِ لثَلَا يُحْكَمَ عَلَى اخْتِيَارِهِ بِالْخَطَا، وَعَلَى تَصَرُّفِهِ بِالْهَوَى. وَلِلْكَبَرَاءِ وَذَوِي الْقُدْرَةِ زَلَّاتٌ فَاحِشَةٌ، وَقَعَلَاتٌ مُوْجِشَةٌ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ عَلَيْهَا مَعِيْرٌ لِلْخَوْفِ مِنْهُمْ؛ فَلَمَّا تَمَادَى قَلِيْلًا وَجَّهَ ابْنَ وَصِيْفٍ حَتَّى صَرَفَهُ وَقَيَّدَهُ بَعْدَ مَا وَبَّخَهُ وَقَيَّدَهُ وَهِيَ هَذِهِ هُنَا لَا يُقْبَلُ بِقَبْضَةٍ، وَلَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهِ بِلَحْظَةٍ، وَمَعَ ذَلِكَ يَظُنُّ أَنَّ قَفَرَ الدَّوْلَةِ إِلَى نَظَرِهِ كَقَفْرِ الْمُدَنَّبِ إِلَى عَافِيَّتِهِ.

وله مع طاهر بن محمد بن إبراهيم شِرَارٌ وَقَبَبَةٌ، وَتَنْذِيْدٌ وَشُنْعَةٌ. وَحَدَّثَنِي ابْنُ أَحْمَدَ أَمْسَى أَنَّ ابْنَ فَارِسَ شَارَعَ فِي أُمُورِ خَبِيْثَةٍ، وَعَازَمَ عَلَى أَشْيَاءَ قَبِيْحَةٍ، وَمُضَرَّبٌ بَيْنَ أَقْوَامٍ ضَمَّنْتَهُمُ الْأُلْفَةَ، وَاسْتَحْكَمَتْ بَيْنَهُمُ الثَّقَّةُ، وَخَلَصُوا حَقْفَةً لِلدَّوْلَةِ، وَحَرَسُوا لِلنَّعْمَةِ، وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ، وَمَا أَخَوْفَنِي عَلَى إِخْوَانِنَا الَّذِينَ بِهِمْ عَذَبَ شُرْبُنَا، وَأَمِنْ سِرْبُنَا، كَفَانَا اللَّهُ فِيهِمْ وَكَفَاهُمْ فِينَا كُلَّ مَكْرُوهِ.

فقال: هو أَضْيَقُ مَبْعَرًا، وَأَقْصَا مَنْظَرًا، وَأَذَلُّ نَاصِرًا مِنْ ذَاكَ؛ وَاللَّهِ لَوْ نَفَخْتُ عَلَيْهِ لَطَارَ، وَلَوْ هَمَمْتُ بِهِ لَبَارَ.

وَأَمَّا مَا قُلْتُ لِي أَيُّهَا الشَّيْخُ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ تَكْتُبَ رِسَالَتَكَ إِلَى الْوَزِيرِ، حَتَّى أَقِفَ عَلَى مَقَاصِدِكَ فِيهَا، وَأَسْتَبِيْنَ بِرَاعَتِكَ وَتَرْتِيْبِكَ بِهَا؛ فَأَنَا أَفْعَلُ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْوَرَقَاتِ، وَلَمْ أَكْتُبْ فِي طَوْلِ هَذِهِ الْمُدَّةِ مَعَ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الْعَجِيْبَةِ إِلَّا رُقْعَتَيْنِ وَرِسَالَتَيْنِ؛ فَأَمَّا الرُّقْعَةُ الْوَاحِدَةُ فَإِنَّهَا تَضَمَّنَتْ حَدِيثَ الْخَادِمِ وَمَا عَزَمَ عَلَيْهِ، وَقَدْ شَافَهُتْكَ بِهِ؛ وَأَمَّا الْآخَرَى فَحَوَّثَ حَدِيثَ ابْنِ طَاهِرٍ وَصَاحِبِ الرُّصَافَةِ، وَقَدْ سَمِعْتَهُ مِنِّي.

رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

أما الرسالة الأولى :

بسم الله الرحمن الرحيم: اللهم خلّني بالتوفيق، وأيّدني بالنصرة، واقرن منطقي بالسداد، واجعل لي من الوزير وزير الممالك عُقبى فارجة من الغم، وخاتمة موصولة بالنجاح، فإنك على ذلك قدير، وبالإجابة جدير.

كنت وصلت إلى مجلس الوزير، وفُزْتُ بالشرف منه، وخدمت دولته، وعلاه من صدري بخبيثته، ومن فؤادي بمحيضته، وتصرفت من الحديث بإذنه في شجونه وفؤونه، كل ذلك آملاً في جدوى أخذها، وحظوة أخطى بها، وزُلّقى أميس معها، ومثالة أخسد عليها؛ فتقبل ذلك كله، ووعد عليه خيراً ولم يزل أهله، وانقلبت إلى أهلي مسروراً بوجهه مسفر، ومُحياً طلق، وطُرف عازم، وأمل قد سد ما بين أفي العراق إلى صنعاء اليمن، حتى إذا قلت للنفس: هذا معان الوزير ومعمره، وجنابه ومحضره، فانشرحي مستفتحة، وتيمني مقترحة، واطمئني راضية مرضية، لا كدرة الشرب، ولا مذعورة السرب، حصلت من ذلك الوعد والضمان، على بعض فعلات الزمان؛ ولا عجب في ذلك من الزمان فهو بمثله مليء، وله فَعُول. وبقيت محمولاً بيني وبين إذكاره - قرّن الله ساعاته بسعادته، ووصل عز يومه بسعادة غده؛ وغده بامتداد يده - حيران لا أريش ولا أبري، ثم رفعت ناظري، وسدذت خاطري، وفصلت الحساب لي وعليّ؛ فوضّح العذر المبين، المانع من استزادة المستزيدين، وذلك أني رأيت أعباء الوزارة تؤود سره، وتثعب باله، والمملكة تفرع ولهي عليه، وتلقي بجرانها له بين يديه، والدولة تستمدّه التدبير الثاقب، والرأي الصائب، سوى أمور في خلاف ذلك لا يحزرها رسم راسم، ولا يقررها قسم قاسم، ولا يخويها وهم واهم، ولا يفوز بها سهم مساهم، وهو يخطر في حواشي هذه الأحوال، متأبطاً بواهب الأنقال، مفتتحاً عويص الأقال، سامي الطرف، فسيح الصدر، بساماً على العلات، غير مكترث بهاك وهات، يتلقّى ما أغيا من ذلك بالليّ، وما أشكل بالإيضاح، وما عسر بالتدبير، وما فسد بالإصلاح، وما أرق بالعنق، وما خرق بالرثق، وما خفي بالتكشيف، وما بدا بالتصريف، وما أود بالثقيف، وما لبس

بالتعريف، حتى أَجْمَعَ على هَوَاهُ قاصيها ودانيها، وَجَرَى عَلَى مُرَادِهِ خَافِيهَا وَبَادِيهَا، وَاسْتَجَابَ لِأَمْرِهِ أَبْيُهَا وَمُقَادَاهَا، وَأَتْلَفَ بِلَفْظِهِ نَادِرُهَا وَمُعْتَادَهَا؛ فَلَمَّا تَيَقَّنْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَقَتَّلْتُهُ خُبْرًا، أَمْسَكَتْ عَنْ إِذْكَارِهِ - نَفْسَ اللَّهِ مُدَّتَهُ - سَالِفَ عَهْدِهِ، وَامْتَقَدَّمْ وَعْدِهِ، عَالِمًا بِأَنْ أَسْرَهُمَا مَرْعِيٌّ عِنْدَهُ فِي صَدْرِ الْكَرَمِ، وَمَكْتُوبٌ لَدَيْهِ فِي صَحِيفَةِ الْمَجْدِ، وَثَابِتٌ قِبَلَهُ فِي دِيْوَانِ الْحُسْنَى.

ولكنْ كَانَ ذَلِكَ الْامْتِنَانُ عَلَى رَغْمِ مَتِي، لِأَنِّي قَتَلْتُ فِي أَثْنَائِهِ بَيْنَ جَنْبَيَّ قَلْبًا مَغْرُورَ الرَّجَاءِ، وَمَتَزُورَ الْعَزَاءِ، عَلَى عَوَارِضَ لَمْ تَسْنَحْ فِي خَلْدِي، وَلَمْ أَعْقِدْ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا يَدِي.

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ مَعَاذِي إِلَى الْوَزِيرِ الْكَرِيمِ، الْبَرِّ الرَّحِيمِ، وَالْمَنَّةَ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي مِنْ عَفَاةِ جُودِهِ، وَنَاشِئَةِ عُرْفِهِ، وَوَارِدِ عِدَّةٍ، وَقَادِحِي زَنْدِهِ، وَمُقْتَبِسِي نُورِهِ، وَمُضْطَلِّي نَارِهِ، وَحَامِلِي نِعْمَتِهِ، وَطَالِبِي خِدْمَتِهِ، وَجَعَلَ خَاصَّتِي وَخَالِصَتِي مِنْ بَيْنِهِمْ رَاوِيَةً مَنَاقِبِهِ بِاللِّسَانِ الْأَبِينِ، وَنَشَرَ فُضَائِلِهِ بِالثَّنَاءِ الْأَخْسَنِ، وَذَكَرَ آيَاتِهِ بِاللَّفْظِ الْأَفْصَحِ، وَالْاِحْتِيَاجَ لِسَدَادِ آرَائِهِ بِالْمَعْنَى الْأَوْضَحِ؛ فَلَا زَالَ الْوَزِيرُ - وَزِيرُ الْمَمَالِكِ - مَمْدُوحًا فِي أَطْوَارِ الْأَرْضِ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَدْبَاءِ وَالْحُكَمَاءِ، وَفِي نَوَادِي الرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ، مَا آتَبَ آتَبَ، وَغَابَ غَائِبَ، بِمَنْتِهِ وَلُطْفِهِ.

قَدْ نَادَيْتُ الْوَزِيرَ حَيًّا سَامِعًا، وَخَيْرًا جَامِعًا، وَهَزَزْتُ مِنْهُ صَارِمًا قَاطِعًا وَشِهَابًا سَاطِعًا، وَاسْتَسْقَيْتُ مِنْ كَرَمِهِ سَحَابًا هَاطِلًا، وَنُقَاخًا سَائِلًا، وَأَسْأَلُهُ أَنْ يُجَنِّبَنِي مَرَارَةَ الْخَبِيَّةِ، وَحَسْرَةَ الْإِخْفَاقِ، وَعَذَابَ التَّسْوِيفِ، فَقَدْ تَلَطَّفْتُ بِالسَّخْرِ الْحَلَالِ، وَالْعَذَبِ الزُّلَالِ، جُهْدَ الْمُقِلِّ الْمُحْتَالِ، وَهُوَ أَوْلَى بِمَجْدِهِ، فِي تَذْيِيرِ عَبْدِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. هَذَا آخِرُ الرِّسَالَةِ الْأُولَى.

وَحَضَرَ وَضُولُهَا إِلَيْهِ بِهَرَامٍ - لَعْنَهُ اللَّهُ - وَتَكَلَّمَ بِمَا يَشْبَهُ نِدَائِهِ وَخِسَّتَهُ وَتَنَنِيَّتَهُ، فَمَا كُنْتُ أَمَنُّهُ؛ وَمَا أَشَدَّ إِشْفَاقِي عَلَى هَذَا الْوَزِيرِ الْخَطِيرِ مِنْ شَوْمِ نَاصِيَةِ بِهَرَامٍ، وَغِلِّ صَدْرِهِ، وَقَلَّةِ نَصِيحَتِهِ، وَلَوْمْ طَبِيعِهِ، وَخُبْثِ أَصْلِهِ، وَسُقُوطِ قَرْعِهِ، وَدِمَامَةِ مَنْظَرِهِ، وَلَآمَةِ مَخْبَرِهِ؛ حَرَسَ اللَّهُ الْعِبَادَ مِنْ شَرِّهِ، وَطَهَّرَ الْبِلَادَ مِنْ غَرِّهِ وَضُرِّهِ.

وَأَمَّا الرِّسَالَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ الَّتِي كَانَتْ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ بَعْدَ اسْتِثْنَانِي إِيَّاهُ فِي الْمَخَاطَبَةِ بِالْكَافِ، حَتَّى يَجْرِيَ الْكَلَامُ عَلَى سَنَنِ الْاسْتِزْسَالِ، وَلَا يُعْتَرَفُ فِي طَرِيقِ الْكِتَابَةِ بِمَا يُزَاحَمُ عَلَيْهِ مِنَ اللَّفْظِ وَاللَّفْظِ؛ وَهِيَ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أَيُّهَا الْوَزِيرُ، جَعَلَ اللَّهُ أَفْذَارَ دَهْرِكَ جَارِيَةً عَلَى تَحَكُّمِ أَمَالِكَ، وَوَصَلَ تَوْفِيقَهُ بِمَبَالِغِ مُرَادِكَ فِي أَقْوَالِكَ وَأَفْعَالِكَ، وَمَكَّنَكَ مِنْ نَوَاصِي أَعْدَائِكَ، وَثَبَّتَ أَوَاحِي دَوْلَتِكَ عَلَى مَا فِي نُفُوسِ أَوْلِيَائِكَ.

يَجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ آتَاهُ اللَّهُ رَأْيًا ثَاقِبًا، وَنُضْحًا حَاضِرًا، وَتَنْهًا نَافِعًا، أَنْ يَخْدُمَكَ مُتَحَرِّيًا لِرُسُوحِ دَعَائِمِ الْمَمْلَكَةِ بِسِيَاسَتِكَ وَرِيَادَتِكَ، قَاضِيًا بِذَلِكَ حَقَّ اللَّهِ عَلَيْهِ فِي تَقْوِيَّتِكَ وَحَيَاظَتِكَ. وَإِنِّي أَرَى عَلَى بَابِكَ جَمَاعَةً لَيْسَ بِالكَثِيرَةِ - وَلَعَلَّهَا دُونَ الْعَشْرَةِ - يُؤَثِّرُونَ لِقَاءَكَ وَالْوُصُولَ إِلَيْكَ لَمَّا تُجِنُّ صُدُورُهُمْ مِنَ النَّصَائِحِ النَّافِعَةِ، وَالبَلَاغَاتِ الْمُجَدِّيَةِ، وَالدَّلَالَاتِ الْمُفِيدَةِ، وَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِذَا أَهْلَوْا لَذَلِكَ فَقَدْ قَضَوْا حَقَّكَ، وَأَدَّوْا مَا وَجَبَ عَلَيْهِمْ مِنْ حُرْمَتِكَ، وَبَلَّغُوا بِذَلِكَ مُرَادَهُمْ مِنْ تَفْضِيلِكَ وَاصْطِنَاعِكَ، وَتَقْدِيمِكَ وَتَكْرِيمِكَ؛ وَالحِجَابُ قَدْ حَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَكَ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ وَسِيلَةٌ شَافِعَةٌ، وَخِدْمَةٌ لِلْخَيْرَاتِ جَامِعَةٌ؛ مِنْهُمْ - وَهُوَ أَهْلُ الْوَفَاءِ - دَوُو كَفَايَةٍ وَأَمَانَةٍ، وَنَبَاهَةٍ وَلَبَاقَةٍ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَصْلُحُ لِلْعَمَلِ الْجَلِيلِ، وَلِرِثْقِ الْفَتْقِ الْعَظِيمِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسْتَعِجُ إِذَا نَادَمَ، وَيَشْكُرُ إِذَا اصْطُنِعَ، وَيَبْذُلُ الْمَجْهُودَ إِذَا رُفِعَ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُمُ الدُّرَّ إِذَا مَدَحَ، وَيُضْحِكُ الثُّغَرَ إِذَا مَزَحَ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ قَعَدَ بِهِ الدَّهْرُ لِسِنِّهِ الْعَالِيَةِ، وَجَلَابِيْبِهِ الْبَالِيَةِ، فَهُوَ مَوْضِعُ الْأَجْرِ الْمَذْخُورِ، وَنَاطِقُ الشُّكْرِ الْمَنْظُومِ وَالْمَثُورِ؛ وَمِنْهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى قَدْ عَكَفُوا فِي بُيُوتِهِمْ عَلَى مَا يَغْنِيهِمْ مِنْ أَحْوَالِ أَنْفُسِهِمْ، فِي تَرْجِيَةِ عَيْشِهِمْ، وَعِمَارَةِ آخِرَتِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مِنْ وَرَاءِ خَصَاصَةِ مَرَّةٍ، وَمُؤْنِ غَلِيظَةٍ، وَحَاجَاتٍ مُتَوَالِيَةٍ؛ وَلَهُمُ الْعِلْمُ وَالْحِكْمَةُ وَالْبَيَانُ وَالتَّجَرِبَةُ، وَلَوْ وَثِقُوا بِأَنَّهُمْ إِذَا عَرَضُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَيْكَ، وَجَهَّزُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَضْلِ إِلَيْكَ حَظُّوا مِنْكَ، وَاعْتَزُّوا بِكَ، لَحَضَرُوا بِابِكَ، وَجَسِمُوا الْمَشَقَّةَ إِلَيْكَ؛ لَكِنَّ الْيَأْسَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهِمْ، وَضَعُفَتْ مُنْتَهُهُمْ، وَعَكِسَ أَمْلُهُمْ، وَرَأَوْا أَنَّ سَفْ التَّرَابِ، أَخْفُ مِنَ الْوُقُوفِ عَلَى الْأَبْوَابِ، إِذَا دَنَوْا مِنْهَا دَفِعُوا عَنْهَا؛ فَلَوْ لَحَظَّتْ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ بِفَضْلِكَ، وَأَذْنَيْتَهُمْ بِسَعَةِ دَرْعِكَ وَكَرَمِ خِيَمِكَ، وَأَضْعَيْتِ إِلَى مَقَالَتِهِمْ بِسْمِعِكَ، وَقَابَلْتَهُمْ بِمِلءِ عَيْنِكَ، كَانَ فِي ذَلِكَ بَقَاءٌ لِلنُّعْمَةِ عَلَيْكَ، وَصِيَّتٌ فَاشٌ بِذِكْرِكَ، وَثَوَابٌ مُؤَجَّلٌ فِي صَحِيفَتِكَ، وَثَنَاءٌ مُعَجَّلٌ عِنْدَ قَرِيبِكَ وَبَعِيدِكَ؛ وَالْأَيَّامُ مُعْرُوفَةٌ بِالتَّقَلُّبِ، وَاللَّيَالِي مَاجِضَةٌ بِمَا يَتَعَجَّبُ مِنْهُ ذُو اللَّبِّ، وَالْمَجْدُودُ مَنْ جُدَّ فِي جَدِّهِ، أَعْنِي مَنْ كَانَ جَدُّهُ فِي الدُّنْيَا مَوْصُولًا بِحُظِّهِ مِنَ الْآخِرَةِ، وَلَأَنْ يُوَكَّلَ الْعَاقِلُ بِالْإِعْتِبَارِ بِغَيْرِهِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يُوَكَّلَ غَيْرُهُ بِالْإِعْتِبَارِ بِهِ.

أَيُّهَا الْوَزِيرُ، اصْطِنَاعُ الرِّجَالِ صِنَاعَةٌ قَائِمَةٌ بِرَأْسِهَا، قَلَّ مَنْ يَفِي بِرَبِّهَا^(١)، أَوْ يَتَأَتَّى لَهَا، أَوْ يَعْرِفُ حِلَاوَتَهَا، وَهِيَ غَيْرُ الْكِتَابَةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِالْبَلَاغَةِ وَالْحِسَابِ.

وَسَمِعْتُ ابْنَ سُورِينَ يَقُولُ: آخِرُ مَنْ شَاهَدَنَا مَمَّنْ عَرَفَ الْإِصْطِنَاعَ، وَاسْتَحْلَى الصَّنَاعَ، وَارْتَاخَ لِلذُّكْرِ الطَّيِّبِ، وَاهْتَزَّ لِلْمَدِيحِ، وَطَرَبَ عَلَى نَعْمَةِ السَّائِلِ، وَاعْتَمَمَ خَلَّةَ الْمُحْتَاجِ، وَانْتَهَبَ الْكَرَمَ انْتِهَابًا، وَالتَّهَبَ فِي عِشْقِ الثَّنَاءِ انْتِهَابًا، أَبُو مُحَمَّدٍ

(١) يقال: رب الصنعة يربها - بضم الراء - إذا نماها وتعهدها.

المُهَلَّبِي، فإنه قَدَّمَ قَوْمًا ونَوَّهَ بهم، ونَبَّهَ على فضيلهم وأخَوَّجَ الناظرين في أمرِ المُلْكِ إليهم، وإلى كفايتهم، منهم أبو الفضل العباسُ بنُ الحسين، ومنهم ابنُ معروف القاضي، ومنهم أبو عبد الله اليفرنِّي، ومنهم أبو إسحاق الصابئ، وأبو الخطاب الصابئ، ومنهم أحمد الطويل، ومنهم أبو العلاء صاعد، ومنهم أبو أحمد ابنُ الهيثم، وابنُ حَفْص صاحبُ الديوان، وفلان وفلان، هؤلاء إلى غير هؤلاء، كأبي تمام الزينبي، وأبي بكر الزهري، وابن قريعة، وأبي حامد المَرُورُوذِي، وأبي عبد الله البصري، وأبي سعيد السيرافي، وأبي محمد الفارسي، وابن دُرُسْتُويه، وابن البقال، والسري، ومن لا يُحْصَى كثرةُ من التجارِ والعُدُول.

وقال لي ابنُ سَورين: كان أبو محمد يَطْرُبُ على اصطناع الرِّجال كما يَطْرُبُ سامعُ الغناء على الشَّبابير، ويَزْتاحُ كما يَزْتاحُ مُدِيرُ الكأس على العشائر. وقال عنه: إنَّه قال: واللَّهِ لأَكُونَنَّ في دولة الدَّيلم، أولَ مَنْ يُذَكَّر، إنَّ فاتني أنْ كُنْتُ في دَوْلَةِ بني العباسِ آخِرَ مَنْ يُذَكَّر.

فلولا أنَّكَ - أدامَ اللهُ دَوْلَتَكَ - أَذِنْتَ لي أنْ أَكْتُبَ إليك كلَّ ما هَجَسَ في النفس، وطلَّعَ به الرأْيُ ممَّا فيه مَرَدٌّ على ما أنْتَ فيه من هذا الثُّقلِ الباهِظ، وتنبيهُ على ما تُبَاهِرُهُ بكاهِلِكَ الضَّخْم، لم يَكُنْ خَطَرِي يَبْلُغُ مُوَاجَهَتِكَ بلفظٍ يَثْقُلُ، وإشارةً تَغْلُظُ، وكنايةً تَحْدِشُ، لكنَّكَ - واللَّهِ يأخُذُ بيدِكَ، ويَقْرُنُ الصنْعَ الجميلَ بظاهرك وباطنك - قد رَخَّصْتَ لي في ذلك، وَخَصَّصْتَنِي به من بين غاشِيَةِ بابِكَ، وَخَدَمَ دَوْلَتِكَ، فلذلك أقولُ ما أقولُ معتمداً على حُسْنِ تَقَبُّلِكَ، وجميلِ تَكْفُّلِكَ، ومُنْتَظَرِ تَفَضُّلِكَ؛ وليس في أبوابِ السِّيَاسَةِ شيءٌ أَجْدَى وَأَنْفَع، وَأَنْفَى لِلْفَسَادِ وَأَقْمَع، من الاعتبارِ المَوْقِظِ للنفس، الباعِثِ على أَخْذِ الحَزْمِ، وتَجْرِيدِ العَزْمِ؛ فإنَّ الوِكَالَ والهَوَيْنَا قَلَمًا يُفْضِيَانِ بصاحبهما إلى ذَرَكِ مأمول، ونَيْلِ مراد، وإصابة مُتَمَتِّي. وقد قال رجلٌ كبيرُ الحِكْمَةِ، مَعْرُوفُ الحُنْكَة: المُعْتَبَرُ كثير، والمُعْتَبِرُ قليل. وَصَدَقَ هذا الرَّجُلُ الصالح، وهو الحَسَنُ البَصْرِي.

لو اعتَبَرَ من تأخَّرَ بمن تقدَّم، لم يَكُنْ من يَتَحَسَّرُ في الناسِ وَيَنْدَم، ولكنَّ اللَّهَ بَنَى هذه الدارَ على أن يكونَ أهلُها بينَ يَقْظَةٍ ونَوْمٍ، وبينَ فَرَحٍ وتَرْح، وبينَ حَيْطَةِ وَرْطَةٍ، وبينَ حَزْمٍ وغَفْلَةٍ، وبينَ نِزَاعٍ وسلْوةٍ، لكنَّ الآخِذَ بالحَزْمِ - وإن جَرَى عليه مَكْرُوه - أعْذَرُ عندَ نَفْسِهِ وعندَ كُلِّ مَنْ كانَ في مَسْكِهِ، مِنَ المُلْقِي بِيَدِهِ، والمُتَدَلِّي بِغُرُورِهِ، الساعِي في ثُبُورِهِ؛ وما وَهَبَ اللّهُ العَقْلَ لِأَحَدٍ إلَّا وقد عَرَضَهُ لِلتَّجَاةِ، ولا حَلَّاهُ بِالْعِلْمِ إلَّا وقد دَعَاهُ إلى العَمَلِ بِشَرائطِهِ، ولا هَدَاهُ الطَّرِيقَيْنِ (أَعْنِي العَيَّ والرُّشْدَ) إلَّا لِيُزَحَفَ إلى أَحَدِهِما بِحُسْنِ الاختيار.

هذا بالأُمس أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير - وهو في وزارته وبسطة أمره ونهيه - قيل له ذات يوم: هذا التركي ساسنكر تقياً بظله، واعتصم بحبله، واستسق بسجله، وارتو من سوره، ولا يبلغه عنك، ما يوحشه منك، ويخفيه عليك. وقد قيل:

اسجُدْ لِقِرْدِ السُّوءِ فِي زَمَانِهِ

وإذا لم تقدر على قطع يد جائرة، فقبلها متهمة منجدة غائرة. فلم يفعل، حتى وجد أعداؤه طريقاً إليه، فسلكوه وأوقعوه.

ثم قيل له في الوزارة الثانية: قد دُفِتَ مَرَاةُ النُّكْبَةِ، وتحرقت بنار السماتة، وتأرقت على فرطات العجز والفَسَالَةِ، وقد كان من ذلك كله ما كان، ودار لك بما تمتيت الزمان؛ فانظر أين تضع الآن قدمك، وبأي شيء تُدير لسانك وقلمك، فإنَّ مُخْلَصَك من ورطتك بالمرصاد، وقد وعدت من نفسك إن أعاد الله يدك إلى البسطة، وردَّ حالك إلى السرور والغبطة، أنك تُجمل المعاملة، وتنسى المقابلة، وتلقى وليك وعدوك بالإحسان إلى هذا، والكف عن هذا، حتى يتساويا بنظرك، ويتعبداً لك بتفضلك.

فكان من جوابه ما دلَّ على عتوه وثباته، لأنَّه قال: أَمَا سَمِعْتُمُ اللَّهَ تَعَالَى حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨].

وقال لي القومسي - ولم يعلم ما في فخوى هذا الكلام -: ما ذاك؟ قلت: فحواه ولو عادوا إلى ما نهوا عنه لعدنا إلى مقابلتهم بما استحقوا عليه.

وصدق ما قال الله عز وجل، ما لبث ذلك الإنسان بعد هذا الكلام إلا قليلاً حتى أوردته ولم يضدِّره، وأغتره ولم يُنعشه، وسلم إلى عدوه حتى استلَّ روحه من بين جنبه، شافياً به ومشتفياً منه، وكان عاقبة أمره خُسرأً، ولو اتقى الله لكان آخر أمره يسراً. والله المستعان.

وهذا بعده محمد بن بَقِيَّة طَعَى وَبَعَى، واقتحم ظلمات الظلم والعسف، وطار بجناح اللهو والعزف، والشرب والقصف، وملَّ نعمة الله عليه، وضلَّ بين إمهال الله وإملائه، فحاق به ما ذهب عليه نفسه وماله، وحرب بينه، وافتضح أهله، وكيف كان يسلم؟ أم كيف كان ينجو وقد قتل ابن السراج بلا ذنب، والجرجرائي بلا حجة، وضرب ابن مغروف بالسياط وأبا القاسم - أختاً لأبي محمد القاضي - وشهره على جمل في الجانب الشرقي؟!!

والتشقي حُلُو العَلَانِيَةِ، ولكنه مرَّ العاقبة، وكأنَّ الحفيظة إنما خلقت لتعتقد، والحق إنما وجد ليبلغ به ما يسر الشيطان.

وكأنَّ العفوَّ حرام، والكظمَ محذور، والمكافأة مأمورٌ بها.
وهذا بالأمنس عليُّ بنُ محمد ذو الكفایتین، اغترَّ بشبابه، ولَهَا عن الحزْم والأخذ به فيما كان أولى به، وظَنَّ أَنَّ كِفَايَتَهُ تَحْفَظُهُ، ونَسَبَهُ مِنْ أَبِيهِ يَكْنُفُهُ، وبرَاءَتَهُ تَحْتَجُّ لَهُ، وذُنُوبَهُ الصَّغِيرَةَ تُغْتَفَرُ؛ لِإِلَآئِهِ الْمَذْكُور، وَغَنَائِهِ الْمَشْهُور؛ وَمَشَى فَعَثَرَ، ورَابَ فَعَثَرَ، والأوَّلُ يَقُول:

مَنْ سَابَقَ الدَّهْرَ كِبَا كَبُوءَ لَمْ يَسْتَقِلَّهَا آخِرَ الدَّهْرِ
فَاخْطُ مَعَ الدَّهْرِ إِذَا مَا خَطَا واجرِ مَعَ الدَّهْرِ كَمَا يَجْرِي

وقال لي الخليل - وكان لطيفَ المَحَلِّ عنده، لِمَا كَانَ يَرَى مِنْ اخْتِصَاصِ أَبِيهِ لَهُ، وَلِمَا يَظْهَرُ مِنْ فَضْلِهِ عِنْدَهُ - قُلْتُ لَهُ يَوْمًا: يَا هَذَا، فِي أَيِّ شَيْءٍ أَنْتَ؟! وَبِأَيِّ شَيْءٍ تَعَلَّلُ؟! وَقَدْ شَجَذْتَ الْمَوَاسِي، وَحُدَّدْتَ الْأَنْيَابَ، وَفُتِلْتَ الْمَرَاثِرَ، وَنُصِبْتَ الْفِيخَاخَ، وَالْعَيُونُ مُحَدَّقَةٌ نَحْوَ الْقَطِيعَةِ، وَالْأَعْنَاقُ صُورٌ إِلَى الْفَطِيعَةِ، وَأَنْتَ لَا إِسَاءَ عَمَّا يُرَادُ بِكَ بَعْدُ؛ يَسْبِيكَ هَذَا الْمَزْرَفَنَ وَهَذَا الْمُرْخِي وَهَذَا الْمُعْرَضُ^(١)، وَهَذَا الْحَلِيقَ، وَهَذَا النَّيِّيفَ، وَهَذَا الْمَعْقَرَبَ الصَّدْعَ، وَهَذَا الْمَصْفُوفَ الطَّرَةَ، وَبِالْكَاسِ وَالطَّاسِ، وَالْغِنَاءِ وَالْقَصْفِ، وَالنَّايِ وَالْعُودِ، وَالصَّبُوحِ وَالْعَبُوقِ، وَالشَّرَابِ الْمُرَوَّقِ الْعَتِيقِ؛ وَاللَّهِ مَا أَذْرِي مَا أَصْنَعُ، إِنْ سَكَتُ عَنْكَ كَمِدْتُ، وَإِنْ نَصَحْتُكَ خِفْتُ مِنْكَ؛ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ اشْتِبَاهِ الرَّأْيِ، وَاشْتِبَاكِ الْأَمْرِ، وَقِلَّةِ الْإِحْتِرَاسِ، وَالْإِعْرَاضِ عَمَّا يَجْرِي مِنْ أَفْوَاهِ النَّاسِ.

يَا هَذَا، سُوءُ الْاسْتِمْسَاكِ خَيْرٌ مِنْ حُسْنِ الصَّرْعَةِ، وَتَلَقَّى الْأَمْرِ بِالْحَزْمِ وَالشَّهَامَةِ أَوْلَى مِنْ اسْتِدْبَارِهِ بِالْحَسْرَةِ وَالنَّدَامَةِ، وَمَنْ لَا تَجَرِبَةَ لَهُ يَفْتَسِسُ مِمَّنْ لَهُ تَجَرِبَةٌ، فَإِذَا نَقَبَ الْخُفُّ دَمِي الْأَظْلَلِ.

فَقَالَ: قَدْ فَرَعَ اللَّهُ مِمَّا هُوَ كَائِنٌ، وَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَفْدِمُونَ.

قَالَ: قُلْتُ لَهُ: مَا أَطْلَعَكَ اللَّهَ عَلَى كَائِنَاتِ الْأُمُورِ، وَلَا أَعْلَمَكَ بِعَوَاقِبِ الْأَحْوَالِ، وَإِنَّمَا عَرَفْتُكَ حَظُّكَ بَعْدَ أَنْ وَفَّرَ عَقْلُكَ، وَأَخْضَرَكَ اسْتَطَاعَتُكَ، وَأَوْضَحَ لِقَلْبِكَ مَا عَلَيْكَ وَلَكَ، حَتَّى يَسْتَشِفَّ وَيَسْتَكْشِفَ، وَمَلَكَكَ التَّوَاصِي حَتَّى تَمُنَّ وَتُرْسِلَ، وَمَا طَالَبَكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَرَاكَ عِلَّتَكَ، وَلَا عَاقِبَكَ إِلَّا بَعْدَ أَنْ أُنْذِرَكَ وَأَنْظُرَكَ، وَبِمِثْلِ هَذَا تُطَالِبُ أَنْتَ مَنْ هُوَ دُونَكَ مِنْ خَدَمِكَ وَحَشَمِكَ، وَأَوْلِيَايِكَ وَأَعْدَائِكَ، وَهَذَا الَّذِي أَغْذَلُّكَ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي بِهِ تَغْذُلُ غَيْرَكَ وَتَرَاهُ ضَالًّا فِي مَسْلَكِهِ، مَتَعَرِّضًا لِمَهْلِكِهِ.

(١) المزرفن: الذي يجعل صدغيه كالزرفين، وهي الحلقة. والمعرض: الذي نبت شعر عارضيه.

فقال: أَيُظْلِمُنِي وَلِيُّ نِعْمَتِي صُراحاً بلا ذَنْب، وَيَجْتَاحُنِي بلا جَرِيْمَةٍ؛ وَيُثْلِمُ دَوْلَتَهُ بلا حُجَّة؟ قلتُ: اللَّهُ يَقِيْكَ وَيَكْفِيْكَ، نَرَاكَ بلا ذَنْب، وَنَجِدُكَ بريئاً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَغَيْرُكَ لا يَرَاكَ بهذه العَيْنِ، ولا يَحْكُمُ لك بهذا الحُكْمِ؛ فَإِنْ كُنْتَ تَرَى فُرْصَةً فانتَهَزهَا، وَإِنْ كُنْتَ تَحْلُمُ بِغُصَّةٍ فَاحْتَرِزْ مِنْهَا؛ فَأَبْوَابُ التَّجَاةِ مُفْتَحَةٌ، وَطُرُقُ الْأَمَانِ مُتَوَجِّهَةٌ، وَالْأَخْذُ بِالاحتِيَاظِ واجبٌ، قد قَرَّبَ الشَّائِخُصُّ مِنْ هَذَا الْمَكَانِ، وَالْقِيَامَةُ قد قَامَتْ بِالْإِرْجَافِ، وَالطَّيْرَةُ قُشْغَرِيْرَةُ النَّفْسِ، كَمَا أَنَّ الْقَشْعَرِيْرَةَ طَيْرَةُ الْبَدَنِ، وَالْاِسْتِرْسَالُ كَلَالُ الْحِسِّ، وَالْفَأْلُ لِسَانُ الزَّمَانِ، وَعُنْوَانُ الْحِذْثَانِ، وَلَا يَقَعُ فِي الْأَفْوَاهِ إِلَّا مَا يُوجِبُ الْحَذَرَ، وَيَبْعَثُ عَلَى الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ، وَاسْتَقْرَاءِ الْأَثَرِ وَالْحَبَرِ.

قال: أَمَّا أَنَا بَعْدَ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ فَقَدْ اسْتَظْهَرْتُ بِمُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبِ نَيْسَابُورٍ، وَبِفَخْرِ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِهِمْذَانٍ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، وَبِعِزِّ الدَّوْلَةِ وَهُوَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ؛ وَمَتَى حَرَبٍ حَارِبٍ، وَرَأْبٍ رَائِبٍ، أَوَيْتُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ.

قال: قلتُ: هَاهُنَا مَا هُوَ أَسْهَلُ مِنْ هَذَا وَإِنْ كَانَ أَهْوَلَ، وَأَنْجَى وَإِنْ كَانَ أَشْجَى، وَأَقْرَبَ وَإِنْ كَانَ أَغْزَبَ.

قال: مَا هُوَ؟ فَرَجَّ عَنِّي وَاهْدِنِي.

قلتُ: لَمَّا يَدْخُلُ هَذَا الْوَارِدُ الدَّارَ، وَيَذْنُو مِنْ طَرَفِ الْبِسَاطِ، تُنْذِرُ رَأْسَهُ عَنْ كَاهِلِهِ، وَتُلْقِي شِلْوَهُ فِي مِزْبَلَةٍ، فَإِنَّ الْهَيْئَةَ تَقَعُ، وَالنَّائِرَةُ تَخْبُو، وَالْعَجَبُ يَغْمُرُ، وَالظُّنَّةُ تَزُولُ، وَالصُّدْرُ يَسْتَفِي، وَالْاِعْتِدَارُ يَنْتَفِي؛ وَيُكْتَبُ إِلَى مُوفِيْدِهِ بِأَنَّ الرَّأْيَ أَوْجَبُ هَذَا الْفِعْلِ، لِأَنَّهُ غَلَبَ عَلَى الظَّنِّ أَنَّهُ وَافَى لِكَيْدِ يُوصِلُهُ إِلَيَّ، وَبَلَاءٌ يُفْرِغُهُ عَلَيَّ، فَأَزَلْتُ هَذَا الظَّنَّ بِالْيَقِيْنِ، وَدَفَعْتُ الشُّبْهَةَ بِالْجَلَاءِ، وَاسْتَخْلَصْتُ النُّورَ مِنَ الظَّلَامِ؛ وَلِأَنَّ تَبْعِدَ سَاقِطاً مِنْ خَدَمِكَ، يَسُوءُ ظَنِّي بِهِ مِنْ جِهَتِكَ، وَيَقْدَحُ فِي طَاعَتِي لَكَ، وَيُضَرِّمُ فِي نَارِ التُّهْمَةِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ؛ خَيْرٌ لِي فِي نَصِيْحَتِي لِدَوْلَتِكَ، وَخَيْرٌ لَكَ فِي بَقَائِي عَلَى أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ، مِنْ أَنْ يَلْتَأَتِ ضَمِيرِي فِي سِيَاسَةِ دَوْلَتِكَ، وَتَحُولَ يَتِّي عَمَّا عَهَدْتَ مِنَ الْقِيَامِ بِحَقِّ جُنْدِكَ وَرَعِيَّتِكَ، وَحِفْظِ قَاصِيَّتِكَ وَدَانِيَّتِكَ.

فقال: هَذَا أَعْظَمُ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَلَبَّيْتَنِي أَصَبْتُ بِهَذَا الرَّأْيِ أَمراً عَلَا عَقْلُهُ، فَيَقْبَلُهُ بَيَّانٌ، أَوْ يَرُدُّهُ بِبُرْهَانٍ، فَكَانَ يَقْوَى أَوْ يَضْعُفُ، وَيُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَوْ يُخْجِمُ عَنْهُ، فَإِنَّ الْمُبْرَمَ أَقْوَى مِنَ السَّحِيلِ، وَالسِّمِينِ أَحْمَدُ مِنَ التَّحِيلِ؛ ثُمَّ كَانَ مَا كَانَ. وَكَانَ مَشَايِخُ الْعِرَاقِ وَالْجَبَلِ يَرَوْنَ مَا حَدَّثَ بِذَلِكَ الْفَتَى أَمراً قَرِيْاً، وَظُلْماً عَبْقَرِيْاً.

وَحَدَّثَنِي الْقَوْمَسِيُّ أَنَّهُ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِذَلِكَ أَمْرٌ، وَلَا سَبَقَ بِهِ إِذْنٌ، وَلَكِنْ لَمَّا حَدَّثَ مَا حَدَّثَ، وَقَعَ عَنْهُ إِمْسَاكٌ، وَسُتِرَتْ الْكِرَاهِيَّةُ وَالْإِنْكَارُ.

وللأمر أيها الوزير ظهورٌ وبُطون، وهَوَادٍ وأعجاز، وأوائل وأواخر؛ وليس على الإنسان أن يدرك النجاح في العواقب، وإنما عليه أن يتحرَّزَ في المبادئ؛ ولهذا قال القائل:

لأمرٍ عليهم أن تَتِمَّ ضُورُهُ وليس عليهم أن تَتِمَّ عَوَاقِبُهُ
وقال سليمان بن عبد الملك أو غيره من أهل بيته: ما لُمتُ نفسي على قوتِ
أمرٍ بدَّأته بحَزْمٍ، ولا حَمَدْتُها على دَرَكٍ أمرٍ بدَّأته بعَجْزٍ.

هاهنا ناسٌ إذا تَلَاقَوْا يَنْفُثُ بعضهم إلى بعض بما هو صريح وكناية، ويحتاج الأمر إلى ابن يوسف، ويستملِّي الحبيث من الجالس فوق مشرعة مكان الروايا.

وليس يصحُّ كلُّ ما يقال فيزوي على وجهه، وليس يخفى أيضاً كلُّ ما يجري فيمسك عنه؛ والأمور مَرَجَّةٌ، والصدور حَرَجَةٌ، والاحتراش واجب، النصح مقبول، والرأي مُشْتَرَكٌ، والثقة بالله من اللوازم على مَنْ عَرَفَهُ وآمَنَ به، وليس مِنَ الله عزَّ وجلَّ بُدٌّ على كلِّ حال.

والله أسأل الدفاع عنك، والوقاية لك، في مُضْبِحِكَ ومُفساك، وفي مَبييتِكَ ومَقِيلِكَ، وشهادتِكَ وغَيْبَتِكَ، ولذوي مليحا في هذا الباب نَفْخٌ وإيقاد، وتناقلٌ وائتمار، ومسألةٌ وجواب.

وعند الشيخ أبي الوفاء من هذا الحديث ومن غيره ممَّا يتصل به من ناحية ابن الزبيدي ما يجب أن يُصَاحَّ له بالأذن الواعية، ويُقابَل بالثُّقْسِ الراعية، ويُداوَى بالدَّواءِ الناجع، وتُخَسِّمَ مادته من الأصل، فإنَّ الفساد إذا زال حَصَلَ مكانه الصلاح. وليس بعدَ المَرَضِ إلَّا الإفراق، ولا بعدَ التَّزَعِ إلَّا الإغراق.

إلى هاهنا انتهى نَفْسِي بالثُّضَحِ وإن كانت شفقتي تتجاوزُه، وحِرْصِي يَسْتَعْلِي عليه، لكنِّي خادم، وكما يجب علي أن أَخْدُمَ بِنِيَّاتِ الصدر، فينبغي أن أَلْزَمَ الحَدَّ بحُسْنِ الأدب.

والله إني لوأدُّ مُخلَصً، وعَبْدٌ طائع، ورجائي اليوم أفْوَى من رجائي أمس، وأَمَلِي غَدًا أَبْسَطُ من أَمَلِي اليوم؛ أشكو إليك الأرقَّ بالليل فِكْراً فيما يقال، وتَحَفُّظاً ممَّا يُنال، وتَوْهُماً لِمَا لا يكون إن كان، وشرُّ العَدَا، الذين يَتَمَنُّونَ لأولي نِعْمَتهم الرَّذَى، ويبَيِّتون النِّكائِثَ، ويَكْسِرُونَ الأَجْفَانَ، ويتَخَازِرُونَ بالأعين، ويتَجَاهَرُونَ بالأذى إذا تَلَاقَوْا، ويتَهَامَسُونَ بالألْسُنِ إذا تَدَانَوْا، والله يَضْرَعُ جُدودَهُم، ويَضْرَعُ خُدودَهُم بين يديك؛ وهذه الرِّقَّةُ مِنِّي والحَفَاوَةُ، وهذه الرُّعْشَةُ والقَلَقُ، وهذا التَّقْبُعُ والتَفَرُّعُ كُلُّهُ، لأنِّي ما رأيتُ مثْلَكَ، ولا شَاهَدْتُ شِبْهَكَ، كَرَمَ خِيَمٍ، ولينَ عَرِيكَةٍ، وجُودَ بَنَانٍ، وحُضُورَ بَشَرٍ، وتهلَّلَ وَجْهَهُ، وحُسْنَ وَعْدِهِ، وقربَ إِنْجَازِهِ، وبَذَلَ مالٍ، وحُبَّ حِكْمَةٍ.

قد شاهدتُ ناساً في السَّفر والحَضَر، صِغاراً وكِبَاراً وأَوْساطاً، فما شاهدتُ مَنْ يَدِينُ بِالْمَجْدِ، وَيَتَحَلَّى بِالْجُودِ، وَيَزَنِّدِي بِالْعَفْوِ، وَيَتَأَزَّرُ بِالْحِلْمِ؛ وَيُعْطِي بِالْجُزَافِ، وَيَفْرَحُ بِالْأُضْيَافِ، وَيَصِلُ الْإِسْعَافَ بِالْإِسْعَافِ، وَالْإِتْحَافَ بِالْإِتْحَافِ، غَيْرَكَ.

وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَهَبُ الدَّرْهَمَ وَالدينَارَ وَكَأَنَّكَ غَضْبَانٌ عَلَيْهِمَا، وَتُطْعِمُ الصَّادِرَ وَالوَارِدَ كَأَنَّ اللَّهَ قد اسْتَحْلَفَكَ عَلَى رِزْقِهِمَا؛ ثُمَّ تَتَجَاوَزُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ إِلَى الثِّيَابِ الْعَزِيزَةِ، وَالخِلْعِ النَفِيسَةِ، وَالْحَيْلِ الْعِثَاقِ، وَالْمَرَائِبِ الثَّقَالِ، وَالْعِلْمَانِ الْجَوَارِي، حَتَّى الْكُتُبِ وَالِدَفَاتِرِ وَمَا يَصْنُ بِهِ كُلُّ جَوَادٍ؛ وَمَا هَذَا مِنْ سَجَايَا الْبَشَرِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ فَاعِلٌ هَذَا نَبِيّاً صَادِقاً، وَوَلِيّاً لِلَّهِ مُجْتَبِىً، فَإِنَّ اللَّهَ قد أَمَّنَ هَذَا الصَّنْفَ مِنَ الْفَقْرِ، وَرَفَعَ مِنْ قُلُوبِهِمْ عِزَّ الْمَالِ، وَهَوْنَ عَلَيْهِمُ الْإِفْرَاجَ عَنْ كُلِّ مُنْفَسٍ، يَاقُوتاً كَانَ أَوْ ذُرّاً ذَهَباً كَانَ أَوْ فِضَّةً؛ كَفَاكَ اللَّهُ عَيْنَ الْحَاسِدِينَ، وَوَقَاكَ كَيْدَ الْمُفْسِدِينَ، الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمُ بِالْأَمْسِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، وَكَانُوا كَحَصَى فَجَعَلْتَهُمْ كَالْأَطْوَادِ؛ وَهُمْ يَكْفُرُونَ أَيَادِيكَ، وَيَوَالُونَ أَعَادِيكَ، وَيَتَمَنُّونَ لَكَ مَا أَرْجُو أَنْ اللَّهَ يَغْصِبُهُ بِرُؤُوسِهِمْ، وَيُنْزِلُهُ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ، وَيُذِيقُهُمْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ، وَيَجْعَلُهُمْ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ يَرَاهُمْ وَيَسْمَعُ بِهِمْ، كَانَ اللَّهُ لَكَ وَمَعَكَ، وَحَافِظَكَ وَنَاصِرَكَ.

أَطْلُتُ الْحَدِيثَ تِلْذِذاً بِمَوَاجِهَتِكَ، وَوَصَلْتُهُ خِدْمَةً لِدَوْلَتِكَ، وَكَرَّرْتُهُ تَوْقِعاً لِحُسْنِ مَوْقِعِهِ عِنْدَكَ، وَأَعَدْتُهُ وَأَبْدَيْتُهُ طَلَباً لِمَكَانَةٍ فِي نَفْسِكَ.

وَأَرْجُو إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَلَّا أُخْرِمَ هَبَّةً مِنْ رِيحِكَ، وَنَسِيماً مِنْ سَحَرِكَ، وَخَيْرَةً بِنَظَرِكَ. لَمْ أَوْقُ فِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْآخِرَةِ، وَاللَّهُ مَا يَمُرُّ بِي يَأْسٌ مِنْ إِنْعَامِكَ فَأَقْوِيهِ بِالرَّجَاءِ، وَلَا يَغْتَرِبْنِي وَهُمْ فِي الْخَيَبَةِ لَدَيْكَ فَاتَّلاَفَاهُ بِالْأَمَلِ. إِنَّمَا فَصَارِي أُمْنِيَّتِي إِذَا حُكِمْتُ أَنْ أُعْطَى فِيكَ سُؤْلِي بِالْبَقَاءِ الْمَدِيدِ، وَالْأَمْرِ الرَّشِيدِ، وَالْعَدْوِ الصَّرِيعِ، وَالْوَلِيِّ الرَّفِيعِ، وَالْدَوْلَةِ الْمُسْتَبْتَةِ، وَالْأَحْوَالِ الْمُسْتَحَبَّةِ، وَالْأَمَالِ الْمَبْلُوغَةِ، وَالْأَمَانِيِّ الْمُدْرَكَةِ، مَعَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ النَّافِذِينَ، بَيْنَ أَهْلِ الْخَافِقِينَ؛ وَاللَّهُ يُبْلِغُنِي ذَلِكَ بِطَوْلِهِ وَمَنَّةٍ.

وَأَخِرُ مَا أَقُولُ، أَيُّهَا الْوَزِيرُ: مُرْ بِالصَّدَقَاتِ، فَإِنَّهَا مَجْلِبَةُ السَّلَامَاتِ وَالْكَرَامَاتِ، مَدْفَعَةٌ لِلْمَكَارِهِ وَالْآفَاتِ؛ وَاهْجُرِ الشَّرَابَ، وَأَدِمِ النَّظَرَ فِي الْمُضْحَفِ، وَافْرَغْ إِلَى اللَّهِ فِي الاسْتِخَارَةِ، وَإِلَى الثَّقَاتِ بِالاسْتِشَارَةِ؛ وَلَا تَبْخُلْ عَلَى نَفْسِكَ بِرَأْيٍ غَيْرِكَ، وَإِنْ كَانَ خَافِلاً فِي نَفْسِكَ، قَلِيلاً فِي عَيْنِكَ، فَإِنَّ الرَّأْيَ كَالدُّرَّةِ الَّتِي رُبَّمَا وُجِدَتْ فِي الطَّرِيقِ وَفِي الْمَزْبَلَةِ، وَقَلَّ مَنْ فَرَّغَ إِلَى اللَّهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَإِلَى الصَّدِيقِ بِالْإِسْعَادِ مِنْهُ، إِلَّا أَرَاهُ اللَّهَ التَّجَاحَ فِي مَسْأَلَتِهِ، وَالْقَضَاءَ لِحَاجَتِهِ؛ وَالسَّلَامَ.

فَقَالَ لِي الْوَزِيرُ بَعْدَ مَا قَرَأَ الرِّسَالَةَ: يَا أَبَا مَزِيدَ، بَيَّضْتُهَا، وَعَجِبْتُ مِنْ تَشْقِيقِ الْقَوْلِ فِيهَا، وَمِنْ لُطْفِ إِيرَادِكَ لَهَا، وَمِنْ بَلَّةِ رِيْقِكَ بِهَا.

وَاللَّهُ يُحَقِّقُ مَا نَأْمُلُهُ لَهُ، وَنَرْجُوهُ لِأَنْفُسِنَا، وَيُنَحِّسِرُ عَنَّا هَذَا الضَّبَابُ الَّذِي رَكَدَ عَلَيْنَا، وَيَزُولُ الْغَيْمُ الَّذِي اسْتَعْرَضَ فِي أَمْرِنَا، وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

رسالة في شكوى البؤس ورجاء المعونة وجّه بها المؤلف إلى الشيخ أبي الوفاء المهندس الذي كتب له المؤلف هذا الكتاب وختم كتابه بها

أَيُّهَا الشَّيْخُ، سَلَّمَكَ اللَّهُ بِالصُّنْعِ الْجَمِيلِ، وَحَقَّقَ لَكَ وَفِيكَ وَبِكَ غَايَةَ الْمَأْمُولِ. هَذَا آخِرُ الْحَدِيثِ، وَخَتَمْتُهُ بِالرَّسَالَتَيْنِ، وَيَتَقَرَّرُ جَمِيعُ مَا جَرَى وَدَارَ عَلَى وَجْهِهِ، إِلَّا مَا لَمَمْتُ بِهِ شَعَثًا، وَزَيَّنْتُ بِهِ لَفْظًا، وَزِيدْتُ مَقْصُوصًا، وَلَمْ أَظْلِمَ مَعْنَى بِالتَّحْرِيفِ، وَلَا مِلْتُ فِيهِ إِلَى التَّخْوِيرِ؛ وَأَرْجُو أَنْ يَبْيَضَّ وَجْهِي عِنْدَكَ بِالرِّضَا عَنِّي، فَقَدْ كَادَ وَعْدُكَ فِي عَنَانِكَ يَأْتِي عَلَيَّ، وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَحْفَظَ عِنَايَتَكَ عَلَيَّ، كَسَابِقِ اهْتِمَامِكَ بِأَمْرِي، حَتَّى أُمْلِكَ بِهِمَا مَا وَعَدْتَنِيهِ مِنْ تَكْرِمَةِ هَذَا الْوَزِيرِ الَّذِي قَدْ أَشْبَعَ كُلَّ جَائِعٍ، وَكَسَا كُلَّ عَارٍ، وَتَأَلَّفَ كُلَّ شَارِدٍ، وَأَحْسَنَ إِلَى كُلِّ مُسِيءٍ، وَنَوَّهَ بِكُلِّ خَامِلٍ، وَنَفَقَ كُلَّ هَزِيلٍ، وَأَعَزَّ كُلَّ ذَلِيلٍ؛ وَلَمْ يَبْقَ فِي هَذِهِ الْجَمَاعَةِ عَلَى فَقْرِهِ وَبُؤْسِهِ، وَمُرَّه وَيَأْسِهِ، غَيْرِي؛ مَعَ خِدْمَتِي السَّالِفَةِ وَالْآتِيَةِ، وَبَذَلِي كُلِّ مَجْهُودٍ، وَنَسْخِي كُلِّ عَوِيصٍ، وَقِيَامِي بِكُلِّ صَغْبٍ؛ وَالْأُمُورُ مُقَدَّرَةٌ، وَالْخَطُوطُ أَقْسَامٌ، وَالْكَذْخُ لَا يَأْتِي بِغَيْرِ مَا فِي اللَّوْحِ.

فصل

خَلَّصْنِي أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنَ التَّكْفُفِ، أَنْقِذْنِي مِنْ لُبْسِ الْفَقْرِ، أَطْلِقْنِي مِنْ قَيْدِ الضَّرِّ، اشْتَرِنِي بِالْإِحْسَانِ، اغْتَبِذْنِي بِالشُّكْرِ، اسْتَعْمِلْ لِسَانِي بِقُنُونِ الْمَدْحِ، اكْفِنِي مُؤُونَةَ الْغَدَاءِ وَالْعِشَاءِ.

إِلَى مَتَى الْكُسِيرَةُ الْيَابَسَةُ، وَالْبُقَيْلَةُ الدَّائِيَةُ، وَالْقَمِيصُ الْمَرْقَعُ، وَبَاقِلِي دَرْبِ الْحَاجِبِ، وَسَدَابُ دَرْبِ الرَّوَاسِينِ؟

إِلَى مَتَى التَّأْدُّمُ بِالْخُبْزِ وَالزَّيْتُونِ؟ قَدْ وَاللَّهِ بَحَّ الْحَلْقُ، وَتَغَيَّرَ الْخُلُقُ؛ اللَّهُ اللَّهُ فِي أَمْرِي؛ اجْبُرْنِي فَإِنِّي مَكْسُورٌ، اسْقِنِي فَإِنِّي صَدِيدٌ، أَغْنِنِي فَإِنِّي مَلْهُوفٌ، شَهِّرْنِي فَإِنِّي غُفْلٌ، خَلِّنِي فَإِنِّي عَاطِلٌ.

قَدْ أَذَلَّنِي السَّفَرُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ، وَخَذَلَنِي الْوُقُوفُ عَلَى بَابِ بَابٍ، وَتَكْرَنِي الْعَارِفُ بِي، وَتَبَاعَدَ عَنِّي الْقَرِيبُ مِنِّي.

أَغْرَكَ مِسْكُونَهُ حِينَ قَالَ لَكَ: قَدْ لَقِيتُ أَبَا حَيَّانَ، وَقَدْ أَخْرَجْتُهُ مَعَ صَاحِبِ الْبَرِيدِ إِلَى قَرْمِيسِينَ؟!

وَاللَّهِ ثُمَّ وَحْيَاتِكَ الَّتِي هِيَ حَيَاتِي، مَا انْقَلَبْتُ مِنْ ذَلِكَ بِنَفَقَةٍ شَهْرٍ، وَاللَّهِ نَظَرَ لِي بِالْعَوْدِ، فَإِنَّ الْأَرَاخِيفَ اتَّصَلْتُ، وَالْأَرْضَ اقْشَعَرْتُ، وَالنَّفُوسَ اسْتَوْحَشْتُ، وَتَشَبَّهَ كُلُّ تَغَلَّبٍ بِأَسَدٍ، وَقَتَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ لَعْدُوهُ حَبْلًا مِنْ مَسَدٍ.

أَيُّهَا الْكَرِيمُ، ارْحَمْ؛ وَاللَّهِ مَا يَكْفِينِي مَا يَصِلُ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ هَذَا الرِّزْقِ الْمَقْتَرِ الَّذِي يَرْجِعُ بَعْدَ التَّقْتِيرِ وَالتَّنْسِيرِ إِلَى أَرْبَعِينَ دَرْهَمًا مَعَ هَذِهِ الْمَوْنَةِ الْغَلِيظَةِ، وَالسَّفَرِ الشَّاقِّ، وَالْأَبْوَابِ الْمُحَجَّجَةِ، وَالْوُجُوهِ الْمُقْطَبَةِ، وَالْأَيْدِي الْمَسْمُورَةِ، وَالنَّفُوسِ الضَّيْقَةِ، وَالْأَخْلَاقِ الذَّنِيئَةِ.

أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَقْصِرْ تَأْمِيلِي، ارْزَعْ ذِمَامَ الْمُلْحِ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَتَذَكَّرِ الْعَهْدَ فِي صُخْبَتِي، طَالِبٌ نَفْسَكَ بِمَا يَقْطَعُ حُجَّتِي، دَغْنِي مِنَ التَّعْلِيلِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ، وَالتَّسْوِيفِ الَّذِي لَا آخَرَ مَعَهُ.

ذَكَرَ الْوَزِيرُ أَمْرِي، وَكَرَّرَ عَلَى أُذُنِهِ ذِكْرِي، وَأَمَلَ عَلَيْهِ سُورَةَ مِنْ شُكْرِي، وَابْعَثْهُ عَلَى الْإِحْسَانِ إِلَيَّ.

افْتَحَ عَلَيْهِ بَاباً يُغْفِرِي الرَّاغِبَ فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ لَا يَسْتَغْنِي عَنِ الْمَرْغَبِ، وَالْفَاعِلَ لِلْخَيْرِ لَا يَسْتَوْحِشُ مِنَ الْبَاعِثِ عَلَيْهِ.

أَنْفَقْتُ جَاهَكَ فَإِنَّهُ بِحَمْدِ اللَّهِ عَرِيضٌ، وَإِذَا جُدْتَ بِالْمَالِ فَجُدْ أَيْضاً بِالْجَاهِ، فَإِنَّهُمَا أَخَوَانٌ.

سَرَّخَنِي رَسُولاً إِلَى صَاحِبِ الْبَطَائِحِ أَوْ إِلَى أَبِي السُّؤْلِ الْكُرْدِيِّ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ هُوَ فِي الْجِبَالِ، هَذَا إِنْ لَمْ تُؤْهِلْنِي بِرِسَالَةٍ إِلَى سَعْدِ الْمَعَالِمِيِّ بِأَطْرَافِ الشَّامِ، وَإِلَى الْبَصْرَةِ، فَإِنِّي أَبْلُغُ فِي تَحْمِلِ مَا أَحْمِلُ، وَأَدَاءِ مَا أُؤَدِّي؛ وَتَرْزِيْنِ مَا أُزِيْنُ، حَدّاً أَمْلِكُ بِهِ الْحَمْدَ، وَأَعْرِفُ فِيهِ بِالنَّصِيحَةِ وَأَسْتَوْفِي فِيهِ عَلَى الْغَايَةِ دَغْ هَذَا، وَدَغْ لِي أَلْفَ دَرْهَمٍ، فَإِنِّي أَتَّخِذُ رَأْسَ مَالٍ، وَأُشَارِكُ بِقَالَ الْمَحَلَّةِ فِي دَرْبِ الْحَاجِبِ، وَلَا أَقَلُّ مِنْ ذَا، تَقَدَّمْ إِلَى كَسَجِ الْبَقَالِ، حَتَّى يَسْتَعِينَ بِي لِأَبْيَعِ الدَّفَافِرِ. قُلْتُ: الْوَزِيرُ مَشْغُولٌ. فَمَا أَصْنَعُ بِهِ إِذَا قَرَعْتُ، فَالشَّاعِرُ يَقُولُ:

«تُنَاطُ بِكَ الْأَمَالُ مَا اتَّصَلَ الشُّغْلُ»

قَدْ وَاللَّهِ نَسِيتُ صَدَرَ هَذَا الْبَيْتِ، وَمَا بَالُ غَيْرِي يُنَوِّلُهُ وَيُمَوِّلُهُ مَعَ شُغْلِهِ، وَأَحْرَمَ أَنَا؟! أَنَا كَمَا قَالَ:

وَبَرِّقَ أَضَاءُ الْأَرْضِ شَرْقاً وَمَغْرِباً وَمَوْضِعُ رِجْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ مُظْلَمٌ

واللَّهِ إِنَّ الْوَزِيرَ مع أَشْغَالِهِ الْمُتَّصِلَةِ، وَأَثْقَالِهِ الْبَاهِظَةِ، وَفِكْرِهِ الْمَفْضُوضِ وَرَأْيِهِ الْمَشْتَرَكِ، لَكَرِيمٍ مَاجِدٍ، وَمُفْضِلٍ مُخْسِنٍ، يَزَعِي الْقَلِيلَ مِنَ الْحُزْمَةِ، وَيُعْطِي الْجَزِيلَ مِنَ النِّعْمَةِ، وَيُحَافِظُ عَلَى الْيَسِيرِ مِنَ الدُّمَامِ، وَيَتَقَبَّلُ مَذَاهِبَ الْكِرَامِ، وَيَتَلَذَّذُ بِالثَّنَاءِ إِذَا سَمِعَ، وَيَتَعَرَّضُ لِلشُّكْرِ مِنْ كُلِّ مُنْتَجِعٍ، وَيَزَرَعُ الْخَيْرَ، وَيَخْصُدُ الْأَجْرَ، وَيُوَاطِبُ عَلَى كَسْبِ الْمَجْدِ، وَيَثَابِرُ عَلَى اجْتِلَابِ الْحَمْدِ، وَيَنْخَدِعُ لِلْسَائِلِ، وَيَتَهَلَّلُ فِي وَجْهِ الْأَمَلِ، وَلَا يَتَبَوَّأُ مِنَ الْفَضَائِلِ إِلَّا فِي ذُرَاهَا، رَحِيمٌ بِكُلِّ غَايٍ وَرَائِحٍ، وَلِكُلِّ صَالِحٍ وَطَالِحٍ.

وَأَنَا الْجَارُ الْقَدِيمُ، وَالْعَبْدُ الشَّاكِرُ، وَالصَّاحِبُ الْمَخْبُورُ، وَلَكِنَّكَ مُقْبِلٌ كَالْمُعْرِضِ، وَمُقَدَّمٌ كَالْمُؤَخَّرِ، وَمُوقِفٌ كَالْمُخْمَدِ، تُدْنِينِي إِلَى حَظِّي بِشِمَالِكَ، وَتَجْذِبُنِي عَنْ نَيْلِهِ بِيَمِينِكَ، وَتُعْذِبُنِي بِوَعْدِ كَالْعَسَلِ، وَتُعْشِينِي بِبِئَاسٍ كَالْحَنْظَلِ، «وَمَنْ كَانَ عَتَبَهُ عَلَى مِظَنَّةٍ عَيْبِكَ، فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَقْصِيرُهُ عَلَى تَيْقَنِهِ بِنَصْرِكَ».

نعم؛ عَتَبْتُ فَأَوْجَعْتُ، وَعَرَفْتُ الْبَرَاءَةَ فَهَلَّا نَفَعْتُ؟ وَاللَّهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ، إِنَّ شُكْرَتَكَ عَلَى ظَاهِرِكَ الصَّحِيحِ لَدَعْتُكَ لِبَاطِنِكَ السَّقِيمِ، وَإِنْ حَمِدْتُكَ عَلَى أَوَّلِكَ الْجَمِيلِ، أَفْسَدْتُ لَأَخْرُكَ الَّذِي لَيْسَ بِجَمِيلٍ.

قَدْ أَطَلْتُ، وَلَكِنْ مَا شُفِيتُ، وَنَهَلْتُ وَعَلَلْتُ، وَلَكِنْ مَا رَوَيْتُ.

وَأَخِرُ مَا أَقُولُ: أَفْعَلُ مَا تَرَى، وَاصْنَعْ مَا تَسْتَحْسِنُ، وَابْلُغْ مَا تَهْوَى، فَلَيْسَ وَاللَّهِ مِنْكَ بُدٌّ، وَلَا عَنْكَ غِنَى.

وَالصَّبْرُ عَلَيْكَ أَهْوَى مِنَ الصَّبْرِ عَنْكَ، لِأَنَّ الصَّبْرَ عَنْكَ مَقْرُونٌ بِالْيَاسِ، وَالصَّبْرَ عَلَيْكَ رُبَّمَا يُؤَدِّي إِلَى رَفْعِ هَذَا الْوَسْوَاسِ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِ السَّلَامِ.

تم الكتاب

الفهارس العامة

- فهرس الأعلام
- فهرس أسماء الأماكن
- فهرس القبائل والأمم والفرق
- فهرس أسماء الكتب

فهرس الأعلام

الجزء الأول

حرف الألف

إبراهيم بن العباس الصولي: ٦٢.

إبراهيم بن هلال أبو إسحاق الصابي:
٦٤، ٦٨.

ابن أبي بشر: ٩٠.

ابن أبي خالد: ٦٣.

ابن أبي طالب = علي بن أبي طالب.

ابن الأثير: ٥٩، ١٠٤.

ابن الأخشاد: ٩٠.

ابن الباقلاني = أبو بكر محمد بن الطيب
القاضي.

ابن برثن: ٧٠.

ابن برمويه = الحسن بن برمويه.

ابن بقية الوزير = ٥٤.

ابن بكش: ٥٢.

ابن البيطار: ١٢٩.

ابن ثابت: ٦٢.

ابن ثوبة أبو الهيثم: ٦٢، ٦٦، ٨٣، ٨٦.

ابن جبلة الكاتب: ٥٤، ٥٧.

ابن جرير: ٦٣.

ابن جلبات = أبو القاسم علي بن جلبات.

ابن الجمل: ٦٦.

ابن الحجاج = أبو عبد الله الحسين بن
أحمد بن الحجاج.

ابن حسولة = أبو القاسم بن حسولة.

ابن حنزاية: ١٠٢.

ابن حيويه = محمد بن حيويه بن المؤمل.
ابن خلكان: ٦٨.

ابن الخمار: أبو الخير الحسن بن سوار.

ابن خيران = أبو علي الحسين بن
صالح بن خيران.

ابن دارة: ٥٦.

ابن درستويه: ١٠٣.

ابن رباح: ٩٠.

ابن ربن = علي بن ربن.

ابن رشيد: ٩٠.

ابن الرومي = أبو الحسن علي بن
العباس بن جريج.

ابن زرعة = أبو علي عيسى بن إسحاق بن
زرعة.

ابن السراج = أبو بكر محمد بن السري بن
سهل.

ابن سعدان: ٥٤، ٦٧.

ابن سكرة: ١٠٦.

ابن السماك = أبو العباس محمد بن صبح
الكوفي.

ابن المرزبان كاتب فخر الدولة: ٦٤،
١٠٧.

ابن مسكويه: ٥٠.

ابن المعلم = أبو عبد الله محمد بن
محمد بن النعمان.

ابن المقفع: ٦٦، ٦٩، ٧١.

ابن مكيخا = أبو علي بن مكيخا.

ابن الملاح: ١٠٧.

ابن موسى: ٦٠.

ابن الناظر أبو منصور: ٥٤.

ابن نباتة السعدي = عبد العزيز بن محمد
الشاعر.

ابن نوبخت: ٦٣.

ابن هارون: ٥٧.

ابن هندو: ٦٥.

ابن الوراق: ١٠١.

ابن وهب: ٨٦.

ابن يحيى العلوي: ٩٠.

ابن يعقوب: ٥١.

ابن يعيش الرقي: ٨٨، ٨٩، ١٥١، ١٥٢.

ابن يونس القنائي = أبو بشر متى بن
يونس.

أبو إسحاق الصابي = إبراهيم بن هلال
الكاتب.

أبو إسحاق مزبد المدني: ٦٣.

أبو إسحاق النصيبي: ١٠٧.

أبو بشر متى بن يونس القنائي: ٨٩، ٩٠،
٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧.

أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث: ٤٠.

ابن السمع = أبو علي بن السمع.

ابن سيرين: ٦٣.

ابن سيف الكاتب الراوية: ٤٨.

ابن شاذان: ١٠١، ١٠٤.

ابن شاهويه عامل صمصام الدولة: ٥٥،
٥٧، ٦٠.

ابن شاهويه الفقيه = أبو بكر محمد بن
أحمد بن علي.

ابن طنج: ٧٤، ٩٠.

ابن عباد = أبو القاسم إسماعيل
الصاحب بن عباد.

ابن عبدان: ٥٢، ٥٥.

ابن عبد العزيز الهاشمي: ٩٠.

ابن عبد كان = محمد بن عبد كان.

ابن عبيد الكاتب = ٥٧، ٦٤، ٨٣.

ابن العميد = أبو الفضل بن العميد.

ابن الفرات الوزير أبو الفتح الفضل بن
جعفر: ٨٩، ٩٠، ٩٥، ٩٦، ٩٧،
١٠١.

ابن فراس: ٩٠.

ابن القاسم = علي بن القاسم.

ابن القرمسيني: ١٣٤.

ابن قوسين: ٥٢.

ابن كعب: ٩٠.

ابن لالا: ٥٢.

ابن متى = بشر بن متى.

ابن مجاهد: ٦٣.

ابن المحيا: خالد بن سنان العبسي.

ابن المراغي = أبو الفتح محمد بن جعفر.

- أبو بكر القومسي: ٤٩، ٥٠.
- أبو بكر محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفقيه: ٣٥.
- أبو بكر محمد بن السري بن سهل المعروف. بابن السراج النحوي: ٤٧.
- أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني القاضي: ١٠٨.
- أبو جعفر الصيمري: ١٠٣، ١٠٤.
- أبو جعفر ملك سجستان: ١٠٢.
- أبو حاتم الرازي: ١٥٥.
- أبو حامد أحمد بن بشر المروروذي: ٧٩، ٨٨.
- أبو الحسن أحمد بن جعفر جحظة الشاعر: ٤٨.
- أبو الحسن الأنصاري صوابه الأنطاكي وهو أبو القاسم علي بن أحمد: ٨١.
- أبو الحسن العروضي: ٦٣.
- أبو الحسن علي بن العباس بن جريح (ابن الرومي): ٤٧.
- أبو الحسن علي بن عيسى الرمانى: ٩٠، ١٠١، ١٠٤، ١٤٩.
- أبو الحسن الفلكي: ٦٨.
- أبو الحسن محمد بن يوسف العامري: ٥١، ١٥٥.
- أبو حنيفة (الإمام): ٦١، ١٠٣.
- أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار: ٤٩، ٥٠.
- أبو الخير اليهودي: ١٥٢.
- أبو دعلج: ٦٩.
- أبو زكرياء: ٥٠.
- أبو زكرياء: يحيى بن عدي.
- أبو زيد اللغوي: ١٠٢، ١٥٣.
- أبو زيد أحمد بن سهل البلخي: ٤٦، ١٤٨.
- أبو سعيد بهرام بن أزدشير: ٥٥، ٥٧.
- أبو سعيد الذهبي الطيب: ١١٦، ١٤٩.
- أبو سعيد السيرافي الحسن بن عبد الله بن المرزبان: ٤٦، ٤٧، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٥٣، ١٥٤.
- أبو سليمان المنطقي محمد بن طاهر: ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٧٩، ١٠٢، ١١٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٥، ١٤٩، ١٥٦.
- أبو شريح أوس بن حجر التميمي الشاعر: ٦٣.
- أبو شعيب درست بن رباط الفقيمي: ٦٩.
- أبو طالب الجراحي الكاتب: ٦٩.
- أبو العباس: ٩٨.
- أبو العباس البخاري تلميذ أبي سليمان المنطقي: ١٤٥، ١٤٦.
- أبو العباس المبرد: ١٠٣.
- أبو العباس محمد بن صباح الكوفي المعروف بابن السماك: ٤٠، ٤٤.
- أبو عبد الله تلميذ أبي سعيد السيرافي: ١٠٣، ١٠٤.
- أبو عبد الله الجيهاني أحمد بن محمد بن نصر: ٧٤، ٧٧، ٧٨، ٧٩.

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الشاعر.
 أبو عبد الله الحسين بن علي الجعل: ١٠٧.
 أبو عبد الله الحسين بن محمد النجار: ٦٣.
 أبو عبد الله بن طاهر: ٥٥، ٥٧.
 أبو عبد الله العارض الحسين بن أحمد بن سعدان الوزير: ٣٥، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧.
 أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن المعلم: ١٠٧.
 أبو عبد الله النصري: ١٠٣.
 أبو عبيد الله المرزباني محمد بن عمران: ٥٣، ١٠١، ١٠٤.
 أبو عثمان الجاحظ: ٣٥، ٦٣، ٦٦.
 أبو عثمان الدمشقي: ١٤٩.
 أبو علي أحمد بن محمد مسكويه: ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٧، ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن علي الخالغ: ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن صالح بن خيران: ١٠٧، ١٠٨.
 أبو علي بن السمع: ٤٩.
 أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة: ٤٩، ٥٠، ٥٧.
 أبو علي الفسوي النحوي الحسن بن أحمد: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣.
 أبو علي بن مكيفا: ٥٥، ٥٧.
 أبو عمرو بن العلاء: ٦٣.
 أبو عمرو قدامة بن جعفر: ٩٠.
 أبو عيسى بن المنجم: ٦١.
 أبو العيلاء: ٦٣، ٦٩.
 أبو الفتح بن العميد = ذو الكفائتين.
 أبو الفتح علي بن أبي الفضل محمد بن العميد.
 أبو الفتح الفضل بن جعفر = ابن الفرات الوزير.
 أبو الفتح محمد بن جعفر الهمداني بن المراغي: ١٠١، ١٠٤.
 أبو الفضل بن العميد الكاتب: ٤١، ٥٠، ٦٤، ٦٦، ٦٨، ١٠٣.
 أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عباد: ٣٤، ٤٥، ٦٠، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٨٧، ١٠٤، ١٠٨.
 أبو القاسم بن حسولة: ٤٦.
 أبو القاسم الداركي: ١٠٨.
 أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف: ٥٤، ٥٧، ٦٤، ٦٦، ٦٧.
 أبو القاسم عبيد الله بن الحسن غلام زحل: ٥١، ٥٢.
 أبو القاسم علي بن جليات: ١٠٥.
 أبو القاسم عيسى بن علي بن عيسى الجراح: ٤٩، ٥١.
 أبو القاسم الكاتب غلام أبي الحسن العامري: ٥٠، ٦٢، ١٥٥.
 أبو محمد الحجاج بن يوسف: ٥٦.
 أبو مسلم الخراساني صاحب الدولة: ٧٢.
 أبو منصور = ابن الناظر.

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن الحجاج الشاعر.
 أبو عبد الله الحسين بن علي الجعل: ١٠٧.
 أبو عبد الله الحسين بن محمد النجار: ٦٣.
 أبو عبد الله بن طاهر: ٥٥، ٥٧.
 أبو عبد الله العارض الحسين بن أحمد بن سعدان الوزير: ٣٥، ١٠١، ١٠٦، ١٠٧.
 أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بن المعلم: ١٠٧.
 أبو عبد الله النصري: ١٠٣.
 أبو عبيد الله المرزباني محمد بن عمران: ٥٣، ١٠١، ١٠٤.
 أبو عثمان الجاحظ: ٣٥، ٦٣، ٦٦.
 أبو عثمان الدمشقي: ١٤٩.
 أبو علي أحمد بن محمد مسكويه: ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٧، ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن علي الخالغ: ١٠٥.
 أبو علي الحسن بن صالح بن خيران: ١٠٧، ١٠٨.
 أبو علي بن السمع: ٤٩.
 أبو علي عيسى بن إسحاق بن زرعة: ٤٩، ٥٠، ٥٧.
 أبو علي الفسوي النحوي الحسن بن أحمد: ١٠١، ١٠٢، ١٠٣.
 أبو علي بن مكيفا: ٥٥، ٥٧.
 أبو عمرو بن العلاء: ٦٣.

أبو نصر خواشاذة: ٥٩.

أبو نصر سابور: ٥٥.

ابن وهب: ٨٣، ٨٦.

أبو الوفاء علي بن يحيى السامري: ٥١.

أبو الوفاء المهندس محمود بن محمد بن

يحيى: ٣٣، ٤٣، ٥٤، ٥٧، ٥٩،

٦٠.

أبو يوسف الفقيه: ٦٣.

أحمد بن بشر المروزي = أبو حامد

أحمد بن بشر.

أحمد بن جعفر جحظة = أبو الحسن

أحمد بن جعفر.

أحمد بن سهل البلخي = أبو زيد أحمد بن

سهل.

أحمد بن محمد: ٦٥.

أحمد بن محمد مسكويه = أبو علي

أحمد بن محمد.

أحمد بن محمد بن نصر الجيهاني = أبو

عبد الله الجيهاني أحمد بن محمد.

أخشاد: ٧٤.

أديسوس: ١٢٠.

أرسطو طاليس: ٣٦، ١٨، ٦٣، ٩٣،

٩٤.

استاينجاس: ٦١، ٢٠.

إسحاق بن إبراهيم الموصلي: ٧٣.

الأسدي: ٨٢.

الإسكافي: ٦٣.

الإسكندر: ٧٢.

إسماعيل بن عباد = أبو القاسم إسماعيل.

الصاحب بن عباد.

أشجع السلمى: ٦٢.

الأصمعي: ٨٢.

أفتكين: ١٠٦.

الأقرع بن حابس: ٧٧.

أقليدس: ٧٩.

امرؤ القيس: ٩٥، ١٤٣.

الأندلسي: ١٤٧، ١٥٣.

أنو شروان: ٧٢، ٧٤.

الأهوازي: ٥٧.

أوميروس الشاعر: ١٢٠.

حرف الباء

باقل: ٦٤.

البخاري = أبو العباس البخاري تلميذ أبي

سليمان.

البديهي: ٤٩.

بشر بن هارون: ١٠٦.

البلعمي الوزير: ١٠٢.

بلهور: ٧٤.

بندار المغني: ٥٤.

بهرام بن أزدشير = أبو سعيد بهرام بن

أزدشير.

حرف الشاء

ثابت: ٦٢.

حرف الجيم

جابر بن حيان: ٥٠.

الجاحظ = أبو عثمان الجاحظ.

جحظة = أبو الحسن أحمد بن جعفر.

الجراح = أبو القاسم عيسى بن علي.

الجراحي = أبو طالب الجراحي .

جعفر بن يحيى : ٨٥ .

جميل بن معمر صاحب بثينة : ١٠٦ .

الجيّهاني = أبو عبد الله أحمد بن

محمد بن نصر .

الجيّهاني = محمد بن أحمد .

حرف الحاء

الحجاج بن يوسف = أبو محمد

الحجاج بن يوسف .

الحراني : ٥٢ .

الحسن بن أحمد بن عبد الغفار = أبو علي

الفسوي .

الحسن بن برمويه : ٥٤ .

الحسن بن سوار = أبو الخير الحسن بن

سوار .

الحسن بن عبد الله المرزيان = أبو سعيد

السيرافي .

الحسن بن علي الخالغ = أبو علي

الحسن بن علي الخالغ .

الحسن بن وهب : ٨٣ .

الحسين : ١٠٦ .

الحسين بن أحمد بن الحجاج الشاعر =

أبو عبد الله الحسين بن أحمد .

الحسين بن أحمد بن سعدان الوزير = أبو

عبد الله العارض .

الحسين بن صالح بن خيران = أبو علي

الحسين بن صالح .

الحسين بن علي الجعل = أبو عبد الله

الحسين بن علي .

الحسين بن محمد النجار = أبو عبد الله

الحسين بن محمد .

حرف الخاء

خاقان : ٧٤ .

خالد بن سنان العبسي : ٦٣ .

خالد بن صفوان : ٤٥ .

الخالدي : ٩٠ .

خراسان : ١٥٤ .

خراش بن زهير : ١٥٣ .

الخليل بن أحمد : ٦٣ .

خواشاذه = أبو نصر خواشاذه .

حرف الدال

الدار قطني : ١٠٢ .

داود (عليه السلام) : ٨٠ .

دوست بن رباط الفقيمي = أبو شعيب .

دوست بن رباط .

حرف الذال

ذو الرمة الشاعر : ٤٥ .

ذو الرياستين (ابن سينا) : ٦٣ .

ذو الكفائيتين أبو الفتح علي بن أبي

الفضل .

محمد بن العميد : ٣٤ ، ٦٦ ، ١٠٥ ،

١٠٦ ، ١٣٧ ، ٩ .

حرف الراء

الرازي = أبو حاتم الرازي .

الرشيد = هارون الرشيد .

الرماني = أبو الحسن علي بن عيسى .

رؤبة بن الحجاج : ٩٥ .

حرف الزاي

- الزجاج : ١٠٣ .
 زرادشت : ٨٠ ، ٨١ .
 زكرياء (عليه السلام) : ٨٠ .
 الزهري : ٩٠ .
 زهير بن أبي سلمى الشاعر : ٥٦ .
 الزهيري : ٦٥ .

حرف السين

- سابور = أبو نصر سابور
 سحبان : ١٠٦ .
 السري السقطي : ٦٣ .
 سطيح : ٦٣ .
 سقراط : ١٤٩ .
 سكان شاه : ٧٤ .
 السلامي : ١٠٤ .
 سليمان (عليه السلام) : ٨٠ .
 سليمان بن عبد الملك : ٤٧ .
 سهل بن هارون : ٦٣ .
 سيويه : ١٠٢ ، ١٥٤ .
 السيرافي = أبو سعيد السيرافي .
 سيف الدولة بن حمدان : ١٠٥ .

حرف الشين

- شبيب بن شبة : ٧٠ .

حرف الصاد

- الصابي = أبو إسحاق إبراهيم بن هلال .
 الصاحب بن عباد = أبو القاسم إسماعيل
 الصاحب بن عباد
 الصاغانى : ٥٢ .

صبيهذ : ٧٤ .

صريع الغواني : ٦٢ .

حرف العين

- عباد أبو الصاحب : ٦٥ .
 العباس بن مرداس : ٧٣ .
 عبد العزيز بن محمد بن نباتة السعدي :
 ١٠٦ .
 عبد العزيز بن يوسف = أبو القاسم عبد
 العزيز بن يوسف .
 عبد الله بن دارم : ٧٦ .
 عبد الله بن مصعب : ٥٣ .
 عبد الملك بن مروان : ٤٦ .
 عبد الله بن الحسن : أبو القاسم غلام
 زحل
 عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود :
 ٤٧ .
 عروة بن الورد : ٦٤ .
 العسجدي : ٥٧ .
 عضد الدولة بن بويه : ٥٤ .
 علم الجارية : ٥٤ .
 علي بن أبي طالب : ٦٩ .
 علي بن أبي الفضل محمد أبو الفتح بن
 العميد = ذو الكفائتين أبو الفتح علي .
 علي بن أحمد الأنطاكي = أبو الحسن
 الأنصاري .
 علي بن جعفر : ٦٥ .
 علي بن جلبات = أبو القاسم علي بن
 جلبات
 علي بن ربن : ٦٣ .

علي بن العباس بن جريح = أبو الحسن
علي بن العباس .

علي بن عيسى الجراح الوزير : ٦٨ .

علي بن القاسم : ٦٤ .

علي بن يحيى السامري = أبو الوفاء
علي بن يحيى .

عمارة بن عقيل : ١٥٤ .

عمر بن الخطاب : ٤٤ ، ٨٦ .

عمر بن عبد العزيز : ٤٦ .

عمرو بن كلثوم : ١٠٨ .

عمير بن شيم التغلبي الملقب بالقطامي : ٤٥ .

عترة العبيسي : ٣٨ .

عيسى بن إسحاق = أبو علي عيسى بن
إسحاق .

عيسى بن دأب الأخباري : ٦٣ .

عيسى بن علي بن عيسى الجراح = أبو
القاسم عيسى .

عيسى (عليه السلام) : ٦٣ .

حرف الغين

غزال الراقص : ٥٤ .

غلام زحل = أبو القاسم عبيد الله بن
الحسن .

غيلان بن عقبة بن نهيس = ذو الرمة .

حرف الفاء

فضالة بن كلدة : ٦٣ .

الفضل بن جعفر = ابن الفرات .

حرف القاف

قابوس : ٥٩ .

قارون : ١٠٨ .

قدامة بن جعفر : أبو عمر وقدامة بن جعفر .

قس بن ساعدة : ٦٤ .

القس نظيف النفس الرومي : ٤٩ ، ٥١ .

القطامي = عمير بن شيم التغلبي .

القنائي = أبو بشر متى .

القوهي : ٥١ .

قيصر : ٧٤ .

حرف الكاف

الكتبي : ٩٠ .

كريد أبو سيار المسمعي : ٦٩ .

كسرى : ٧٤ .

كسرى أنو شروان = أنو شروان .

الكندي : ٦٣ - ١٠٠ .

حرف الميم

متى = أبو بشر متى بن يونس القنائي .

محمد بن إبراهيم : ٦٨ .

محمد بن أحمد الجيهاني : ٧٤ .

محمد بن أحمد بن علي بن شاهويه الفقيه

= أبو بكر محمد بن أحمد بن علي .

محمد بن جعفر الهمداني = أبو الفتح

محمد بن جعفر .

محمد بن الحسين الحاتمي : ١٠٥ .

محمد بن حيويه بن المؤمل : ١٠١ ،

١٠٤ .

محمد بن السري بن سهل = أبو بكر

محمد بن السري .

محمد بن صبح الكوفي = أبو العباس

محمد بن صبح .

محمد بن طاهر = أبو سليمان المنطقي
محمد بن طاهر .

محمد بن طنج = ابن طنج .

محمد بن الطيب الباقلاني القاضي = أبو بكر محمد بن الطيب .

محمد بن عبد كان : ٦٢ ، ٦٨ .

محمد بن عمران = أبو عبيد الله المرزباني الأديب .

محمد بن محمد بن النعمان = أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان .

محمد بن يوسف العامري = أبو الحسن محمد بن يوسف .

محمود بن محمد بن يحيى = أبو الوفاء المهندس .

المرزبان بن محمد ملك الديلم : ٦٨ ، ١٠٢ .

المرزباني صاحب آل سامان : ٩٠ .
مزدك : ٨٠ .

مسكويه = أبو علي أحمد بن محمد .
المسيح (عليه السلام) : ٤٠ .

معاوية بن أبي سفيان : ٤٠ ، ٦٩ .
المعري صوابه الصيمري : ٥١ .

المقتدر الخليفة العباسي : ٨٩ .
المنذر بن ساوى : ٧٦ .

المهدي الخليفة : ٦٩ .
المهلبى الوزير : ١٠٣ .

موسى (عليه السلام) : ٨٠ .

حرف النون

النجار = أبو عبد الله الحسين بن محمد .

نصر غلام خواشاده : ٥٩ .

النصري = أبو عبد الله النصري .

النصيبي = أبو إسحاق النصيبي .

نظيف = القس نظيف النفس الرومي .

حرف الهاء

هارون الرشيد : ٤٤ .

الهروي : ٦٩ .

حرف الواو

الواسطي : ١٠٧ .

الواقدي : ٦٣ .

وهب بن يعيش الرقي = ابن يعيش .

حرف الياء

يحيى (عليه السلام) : ٨١ .

يحيى بن عدي أبو زكريا : ٤٩ ، ٥١ .

يعقوب بن السكيت : ١٥٧ .

بغفور : ٧٤ .

يوحنا : ٦٣ .

الجزء الثاني

حرف الألف

آدم عليه السلام : ٢٤٦ .

الآمدي الحلاوي : ٢٧٣ .

آمنة بنت وهب : ٢١٠ .

إبراهيم بن أدهم : ٢٤٧ .

إبراهيم بن الجنيد : ٢٠٢ ، ٢٤٦ .

إبراهيم الخليل عليه السلام : ١٧١ ، ٢٠٣ .

إبراهيم السندي : ٢٠١ .

- إبراهيم بن العباس الصولي: ١٩٣، ٢٥٦.
 ابن أبي طاهر: ١٩٤.
 ابن أبي العوجاء: ١٧٢.
 ابن أسيد القاضي: ٢٠٠.
 ابن الأعرابي: ٢٣٢، ٢٥٧.
 ابن الأنباري: ٢٢٩.
 ابن ثوبة الكاتب: ٢٥٢، ٢٥٣.
 ابن الجلاء الزاهد: ٢٠٨.
 ابن الحسحاس: ٢٠١.
 ابنة الخس: ١٧٨.
 ابن الخلال البصري: ١٩٦.
 ابن الخمار وهو الحسن بن سوار: ١٦٩، ١٨٣، ٢٠٠.
 ابن دأب: ٢٥٦.
 ابن ذكوان: ٢٥٧.
 ابن الراوندي: ١٧٢.
 ابن زرعة: ١٦٩، ١٨٣.
 ابن السماك الواعظ: ٢٠٠، ١٤١، ٢٤٦.
 ابن سيرين: ١٩٤.
 ابن صالح: ٢٢٢.
 ابن صبر القاضي: ٢٧٤.
 ابن طرارة: ٢٥١.
 ابن عباس رضي الله عنهما: ١٩٧، ٢٢٢.
 ابن عبيد الكاتب: ١٦٢، ٢٥٧، ٢٨٥، ٢٩٠.
 ابن عتبة: ٢٢٥.
 ابن عرس: ٢٧٨.
 ابن العصبي: ٢٧٦.
 ابن عقيل: ٢٦٨.
 ابن علوية: ٢٧١.
 ابن عمر: ٢٢٥.
 ابن العميد = أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد.
 ابن العميد = أبو الفضل الكاتب.
 ابن العوزي: ٢٧٤.
 ابن الغازي (الطبيب): ٢٧٤.
 ابن غسان البصري: ٢٧٣.
 ابن غيلان البزاز: ٢٧١.
 ابن الفرات: ١٩٣.
 ابن فهم الصوفي: ٢٧١.
 ابن الكرخي: ٢٧٦.
 ابن كعب الأنصاري: ٢٥١.
 ابن الكلبي: ٢٠٧.
 ابن المبارك: ٢٠١، ٢٤٣.
 ابن المراغي: ٢٥٧.
 ابن مسعود: ٢٣١، ٢٤١.
 ابن معروف: ٢٧٥.
 ابن المغني: ٢٧١.
 ابن المقفع: ١٧٤.
 ابن مكدم: ٢٤٧.
 ابن مكرم: ١٩٣.
 ابن موسى: ٢٥٦.
 ابن ميادة: ٢٨٦.
 ابن مياس: ٢٧٩.
 ابن نباتة: ٢٥٢، ٢٧٣، ٢٨٨.
 ابن نصر العامل: ٢٧٣.
 ابن هندو الكاتب: ٢٥١.

- ابن الوراق : ٢٧٦ .
 ابن اليزيدي : ٢٧٢ .
 ابن اليعقوبي : ١٩٦ .
 ابن يوسف : ١٧٦ .
 ابن يوسف صاحب ديوان السواد : ٢٧٥ .
 أبو أحمد المهرجاني : ١٦٣ .
 أبو الأسود : ٢٣٨ .
 أبو إسحاق الصابي : ٢٥٦ .
 أبو أمانة : ٢٢٤ .
 أبو أيوب الأنصاري : ٢٦٧ .
 أبو أيوب القطان : ٢٧٧ .
 أبو بشر : ١٨٢ .
 أبو بكر : ٢٩١ .
 أبو بكر الجراحي : ٢٧٤ .
 أبو بكر بن حزم : ٢٠٥ .
 أبو بكر الصديق : ٢٢٩ .
 أبو تمام : ٢٧٩ .
 أبو تمام النيسابوري : ١٦٩ .
 أبو الجارود = زياد بن أبي زياد .
 أبو جعفر المنصور : ١٨١ .
 أبو الحارث = شيبة .
 أبو الحسن البصري : ١٩٤ .
 أبو الحسن الجراحي : ٢٧٢ .
 أبو الحسن العامري : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .
 أبو الحسن : علي بن هارون الزنجاني القاضي .
 أبو الحسن الفرضي : ٢٦٣ .
 أبو الحسين : أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي .
 أبو حنيفة الإمام : ٢٤٤ .
 أبو حنيفة اللغوي : ٢٨٥ .
 أبو الخير بن يعيش : ١٦٩ .
 أبو الدرداء : ٢٢٤ .
 أبو ذر الغفاري : ٢٢٣ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ .
 أبو زكرياء الصيمري : ١٧٢ ، ٢١٢ .
 أبو زنبور : ٢٧٨ .
 أبو زيد البلخي : ١٦٩ ، ١٨٤ .
 أبو السائب القاضي = عتبة بن عبيد .
 أبو سعيد : ٢٨٥ ، ٢٨٨ .
 أبو سعيد : الحسن بن بهرام الجنابي القرمطي : ٢٠٨ .
 أبو سعيد الرقي : ٢٧٩ .
 أبو سعيد السكري : ٢٨٦ .
 أبو سعيد السيرافي : ١٦٢ ، ٢٨٥ .
 أبو سعيد الصائغ : ٢٧٧ .
 أبو سفيان صخر بن حرب : ٢٠٦ ، ٢٠٧ .
 أبو سليمان المقدسي = محمد بن معشر البيهقي .
 أبو سليمان المنطقي = محمد بن بهرام السجستاني : ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ٢١١ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٦ ، ٢٧٦ .
 أبو صالح الهاشمي : ٢٧٧ .
 أبو طاهر : ١٩٢ .
 أبو طاهر = سليمان بن أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي .

- أبو طاهر بن المقنعي المعدل: ٢٧٨.
- أبو طلحة الشاهد: ٢٨٠.
- أبو الطيب: ١٨٤.
- أبو عائذ الكرخي = صالح بن علي.
- أبو العالية: ٢٤٧.
- أبو العباس (غلام الأمراء المغني): ٢٧٦.
- أبو العباس البخاري (تلميذ أبي سليمان المنطقي): ١٦٦، ١٦٧، ١٧٢، ١٧٣، ٢٦٦.
- أبو عبد الله البصري: ٢٧٦.
- أبو عبد الله المرزباني: ٢٧٧.
- أبو عبيدة: ٢٣١.
- أبو العلاء الصيرفي: ٢٧٨.
- أبو علي البصير: ٢٥٢.
- أبو علي الجبائي: ٢٠٨.
- أبو عمار = حمزة بن عبد المطلب.
- أبو عمار (قاضي الكوفة): ١٩٥.
- أبو عمرو بن حفص بن المغيرة: ٢٢٩.
- أبو عمرو الشيباني: ٢٣٣.
- أبو عمرة صاحب شرطة المختار بن عبيد: ١٩٣.
- أبو العيلاء: ١٩٣، ٢٥٢، ٢٥٦.
- أبو غانم الطبيب: ١٧٤.
- أبو الفتح بن أبي الفضل بن العميد الكاتب: ١٨٤.
- أبو فرعون الشاشي: ١٩٢.
- أبو الفضل بن العميد: ١٦٩، ١٨٤.
- أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة: ١٩٥، ٢٧٩.
- أبو مسلم الخولاني: ٢٢٤.
- أبو موسى الأشعري: ٢٢٥.
- أبو نصر = مالك بن عمارة اللخمي.
- أبو النضر نفيس: ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦.
- أبو نواس: ١٩٧.
- أبو هاشم بن أبي علي الجبائي: ٢٠٨.
- أبو الهذيل العلاف: ٢١٦.
- أبو هريرة: ١٩٤، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٤٧.
- أبو الوزير الصوفي: ٢٧٢.
- أبو يوسف: ١٩٥.
- أبان بن سعيد بن العاص: ٢٠٧.
- أبقراط: ١٩٠.
- إبيقس: ٢٦٢.
- إبليس: ٢٤١، ٢٤٤.
- أبي بن كعب: ١٧٨.
- أحمد بن حرب: ٢٤٤.
- أحمد بن عاصم الأنطاكي: ٢٤٦.
- أحمد بن محمد كاتب ركن الدولة: ٢٥١.
- أحمد بن يحيى: ٢٨٨، ٢٩٠.
- أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي: ٢٠٨.
- الأخفش: ٢٥٣، ٢٩٠.
- أرسطوطاليس: ١٧٠، ١٨٥، ١٨٧، ٢١٥.
- أريوس: ١٨٢.
- أسامة بن زيد: ١٧٨، ١٧٩.
- الأسدي: ٢٣٣.
- أسطفانس: ١٨٢.

أستقليبوس : ١٨٨.

الإسكندر : ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٨.

أصحمة بن أبجر النجاشي : ٢٢٦.

الأصمعي : ١٩٤ ، ٢٠٠.

أعشى باهلة : ٢٨٩.

الأعمش : ٢٠٣.

أفلاطون : ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠.

أم حبيبة بنت أبي سفيان : ٢٠٦.

أم كلثوم زوجة عمر بن الخطاب : ٢١٠.

الأمين (الخليفة) : ٢٩٠.

أنس بن مالك : ٢٠٣ ، ٢١٠ ، ٢٤٦.

الأنصاري : ٢٥٢.

الأنطاكي = أحمد بن عاصم.

انكساغورس : ١٨١.

الأوزاعي : ٢٠٢ ، ٢٤٢.

أوميروس : ١٨١.

حرف الباء

بثينة : ٢٧٧.

البرداني : ٢٧١.

بروع بنت واشق الأشجعية : ٢٣١.

بشار بن برد الشاعر : ٢٧٩.

بشر بن هارون : ١٩٣ ، ١٩٥.

بلور (جاري ابن اليزيدي) : ٢٧١.

حرف التاء

ترف الصابئة المغنية : ٢٧٤.

حرف الثاء

ثعلب اللغوي : ١٩٥.

الثوري : ٢٤٤.

ثيودسيوس : ٢٦٢.

ثيودوروس : ١٨٨.

حرف الجيم

جامع الصيدناني : ١٩٥.

جحظة : ١٩٥.

جحي : ١٩٥.

الجراح بن عبد الله رواد : ١٧٧.

جريح الراهب : ٢٢٤.

جرير الشاعر : ١٧٧.

جعفر بن أبي طالب : ٢١٠.

جعفر بن محمد الصادق : ١٩٩ ، ٢٤٨ ، ٢٨٢.

الجماز : ٢٩٦.

جندب بن مكيث : ٢٣٢.

جندل بن صخر : ١٧٧.

حرف الحاء

حاتم الزاهد : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧.

حافظ : ١٩٥.

حابة جارية أبي تمام : ٢٧٩.

حبان الأنصاري : ٢٣١.

حبش (البقال) : ٢٧٨.

حجاج بن هارون : ٢٠١.

الحجاج بن يوسف : ٢٠٠.

حذيفة : ١٧٩.

الحريري الشاهد : ٢٧٦.

الحريري غلام بن طرارة : ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠.

حسان بن ثابت : ٢٣٢.

الحسن بن بهرام الجنابي = أبو سعيد .

الحسن بن علي : ١٩٩ ، ٢٦٨ .

حسنون المجنون : ١٩١ .

الحصري : ١٧٢ .

حفص بن المغيرة : ٢٢٩ .

الحكم بن أبي العاص : ٢٠٦ .

الحكم بن هشام الثقفي : ٢٠٦ .

حلية جارية أبي عائذ الكرخي : ٢٧٧ .

حمزة بن عبد المطلب : ٢٠٧ .

حمزة الوراق : ١٦٧ .

حميد بن الصيمري : ١٩٩ .

حية بن نكاز : ٢٦٨ .

حرف الخاء

الخاطف (الجارية المغنية) : ٢٧٣ .

خالد بن أسيد : ١٩٢ .

خالد بن جعفر بن كلاب : ١٧٧ .

خالد بن سعيد بن العاص : ٢٠٦ .

خالد بن صفوان : ١٧٥ ، ٢٤١ .

خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد : ١٩٢ .

خالد بن عدي الجهني : ٢٣٢ .

خالد الكاتب : ١٩٦ .

خالد بن الوليد : ٢١٨ ، ٢٢٩ .

الخالع : ٢٥٢ .

خباب بن الأرت : ٢٣٣ .

خلوب (جارية أبي أيوب القطان) : ٢٧٧ .

الخليل بن أحمد : ٢٥٧ .

حرف الدال

دارا : ١٧٤ .

الدارقطني : ٢٧٢ .

داود (عليه السلام) : ١٧١ ، ٢٤٦ .

دجاجة المخنث : ١٩٦ .

درة البصرية (جارية أبي بكر الجراحي) :

٢٧٤ ، ٢٧٥ .

ديوجانس : ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

حرف الراء

رافع بن مكيث : ٢٣٢ .

الراوندي = أحمد بن يحيى بن إسحاق .

رؤبة بن العجاج : ١٩٥ .

الربيع (حاجب المنصور) : ٢٠٧ .

الربيع بن خيثم : ٢٠٣ .

ربيعة بن عامر بن مالك : ١٧٧ .

الرشيد : ١٩٦ ، ٢٤٨ .

الرقاشي : ٢٤٣ .

رقية بنت عمر بن الخطاب (رضي الله

عنه) : ٢١٠ .

رواد = الجراح بن عبيد الله .

روعة جارية ابن الرضى : ٢٧٦ .

حرف الزين

زريق (صانع فقاع ببغداد) : ٢٧٨ .

زكرياء (عليه السلام) : ١٧١ .

زنجويه الحمال : ٢١٦ .

الزهري : ٢٧٧ .

زهير بن أبي سلمى : ٢٥٦ .

زهير بن حذيمة : ١٧٧ .

زهير بن عمرو : ٢٣٠ .

زياد الأعجم الشاعر : ٢٥٦ ..

زياد بن عبد الله الحارثي: ٢٠٠.

زيد بن رفاعه: ١٦٢.

زيد بن عمر بن الخطاب: ٢١٠.

زيموس: ١٨٣.

حرف السين

سالم: ٢٠٧.

السروبي: ٢٧١.

السري: ١٩٥.

سعيد بن جبير: ١٩٦.

سعيد بن عامر: ٢٢٩.

سعيد بن عمرو الجرشي: ٢٦٨.

سعيد بن القشب: ٢٠٦.

السفاح (أبو العباس الخليفة): ١٩٩.

سقراط: ١٧٠، ١٧١، ١٨١، ١٨٢.

١٨٧، ١٨٨، ١٨٩.

السكري = أبو سعيد.

السلامي: ٢٥١.

سلمة: ٢٨٨.

سلمة بن المحبق: ٢٠٠.

سلمي: ٢٨٨.

سليمي: ٢٧٩.

سليمان (عليه السلام): ١٧١.

سندس (جارية ابن يوسف صاحب ديوان

السواد): ٢٧٥.

السندواني: ٢٧٧.

سولون: ١٨٩.

السيرافي = أبو سعيد.

حرف الشين

شداد بن حكيم: ٢٤١.

شريك بن عبد الله القاضي: ٢٢٩.

الشعبي: ١٦٩، ١٩٦، ٢٤٥.

شعلة (مغنية): ٢٧٢.

شعيب النبي عليه السلام: ٢٠٩.

شقيق: ٢٤٢، ٢٤٣.

الشياني = أبو عمرو.

شيبة أبو الحارث وهو عبد المطلب جد

رسول الله ﷺ: ٢١٠.

حرف الصاد

الصابي = أبو إسحق الكاتب.

صالح بن عبد القدوس: ١٧٢.

صالح بن علي أبو عائذ الكرخي: ٢٥٠،

٢٧٧.

صالح بن مسمار: ٢٤١.

صبابة النائحة ببغداد: ٢٧٩.

صخر بن حرب = أبو سفيان.

الصولي = إبراهيم بن العباس.

الصيمري = أبو زكرياء.

حرف الطاء

طالوت: ١٨٠.

طاهر بن الحسين: ٢٩٠.

الطبري: ٢٠٨.

طيما ثاوس: ١٨٢.

حرف الظاء

ظلوم: ٢٥٦.

ظلوم جارية أبي سعيد الصائغ: ٢٧٧.

حرف العين

العاص بن وائل: ٢٢٣.

عامر بن مالك: ١٧٧.
 العامري: ٢٨٦.
 العامري = أبو الحسن.
 عائشة رضي الله عنها: ٢٠١.
 العباس بن الأحنف: ٢٥٦، ٢٧٧.
 العباس بن الحسن العلوي: ٢٥٦.
 العباس الصولي: ١٩٣، ٢٥٦.
 العباس بن عبد المطلب: ٢٠٧.
 عبد الحميد بن عبد العزيز: ٢٤٧.
 عبد الحميد الكاتب: ١٩٩.
 عبد الرحمن بن عوف: ٢١٨.
 عبد الرحمن بن مدين: ٢٠٠.
 عبد الرزاق المجنون صاحب الكيل بباب الطاق: ٢٧١.
 عبد الله بن الجوشن الغطفاني: ١٧٧.
 عبد الله بن خالد بن أسيد: ١٩٢.
 عبد الله بن مسعود: ٢٣٢.
 عبد المطلب جد النبي = شيبه.
 عبد الملك بن مروان: ١٩٢، ٢٠٤، ٢٥٦.
 عبيدة: ٢٧٩.
 عبيد الله بن جحش: ٢٠٦.
 عتاب بن أسيد: ٢٠٦.
 عتبة بن عبيد أبو السائب القاضي: ٢٢٩.
 عتبة بن المنذر السلمي: ٢٠٩.
 عثمان بن أبي العاص: ١٨٧.
 عروة بن الزبير: ٢٠٤.
 عزيز: ٢٤٢.
 عطاء السندي: ٢٠٢.
 عقال بن عقيل: ٢٦٨.

حرف الغين

غالوس: ١٨٣.

عقبة السلمي: ٢٣١.
 عقبة بن عامر الجهني: ٢٢٩.
 علوان المغني (غلام بن عرس): ٢٧٨، ٢٧٩.
 علوة (جارية ابن علوية): ٢٧١، ٢٧٨.
 علي (جارية مغنية): ٢٧٥.
 علي بن أبي طالب: ١٧٩، ١٩٩، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٨٢.
 علي بن الحسن: ١٧٨.
 علي بن عيسى بن ماهان العائذ: ٢٤٢.
 علي بن عيسى الوزير: ١٩٣، ٢٥٧، ٢٨٨.
 علي بن المهدي الطبري: ١٨٢.
 علي بن هارون الزنجاني القاضي: ١٦٣، ٢٦٤.
 عمر بن أبي ربيعة: ٢٧٥.
 عمر بن الخطاب: ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٥.
 ٢١٠، ٢٢٣، ٢٢٩، ٢٦٨.
 عمرو بن الإطناية: ١٧٧.
 عمرو بن العاص: ١٧٧، ٢٠٦، ٢٢٣، ٢٨١.
 عمر بن عبد العزيز: ٢٩١.
 العمى: ٢٧٤.
 عنان جارية الناطفي: ١٩٧.
 عيسى المسيح عليه السلام: ١٦٦، ١٧١، ١٨٧، ٢٠٣، ٢٢٦، ٢٤٤، ٢٤٦.
 عيسى الوزير: ٢٥١.

حرف الميم

- مالك بن دينار: ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤.
مالك بن عباد الغافقي: ٢٣٢.
مالك بن عمارة اللخمي: ٢٠٤.
مانع: ١٩٥.

المأمون (الخليفة): ٢٩٠.

المبرد = محمد بن يزيد.

المتوكل (الخليفة): ١٩٢.

مجاهد: ٢٠٢.

محرز: ١٩٥.

محمد بن أسلم: ٢٤٤.

محمد بن بهرام = أبو سليمان المنطقي.

محمد بن الحسن الجرجاني: ١٩٢.

محمد بن زكرياء: ١٧٤.

محمد بن سلام: ٢٨٦.

محمد بن العباس المنقري: ٢٢٩.

محمد بن عيسى الملقب ببرغوث رأس

الفرقة البرغوثية: ٢٨٢.

محمد بن القاسم: ٢٤٥.

محمد بن المرزيان: ٢٢٩.

محمد بن مسلمة: ٢٢٣.

محمد بن معشر البيستي أبو سليمان

المقدس: ١٦٣، ١٦٧، ١٧٠.

محمد بن المنكدر: ٢٤٨.

محمد بن موسى: ٢٨٢.

محمد بن نحرير: ٢٠٠.

محمد بن واسع: ٢٤٢.

محمد بن يحيى البرمكي: ١٩٦.

محمد بن يزيد المبرد: ٢٨٨.

غانم: ٢٦٧.

الغريب المخنث: ١٩٥.

الغراب (ماجن): ١٩٦.

غلام الأمراء = أبو العباس.

غلام بابا: ٢٨٠.

حرف الفاء

فاطمة بنت الحسين: ٢٠٥.

فاطمة بنت النبي ﷺ: ٢١٠، ٢٢٣.

فائق الغلام: ١٦١، ٢٨٢.

فتح: ٢٦٨.

الفتح بن خاقان: ١٩٢.

الفرضي = أبو الحسن.

فضيل بن عياض: ٢٤٢، ٢٤٧.

فيثاغورس: ١٧٩، ١٨٧.

حرف القاف

قابوس صاحب جرجان: ٢٤٠.

قاسم بن محمد: ٢٤٦.

قيصة بن ذؤيب: ٢٠٤.

قيصة بن المخارق: ٢٣٠.

قدامة بن جعفر: ٢٥٦، ٢٥٧.

القعقاع بن عمرو: ٢٠٧.

قلم القضيبية المغنية: ٢٧٢.

قنوة البصرية: ٢٧٤.

حرف الكاف

كبل البقال: ٢٧٨.

كسرى أنوشروان: ١٧٥.

الكلبي: ١٧٧.

الكناني المقرئ: ٢٧٩.

المختار بن عبيد: ١٩٣.

المدائني: ٢٠٢.

مذكورة جارية مغنية: ٢٧٩.

مرة: ١٩٤.

مرداويج الجيلي: ١٦٩.

المرزباني = أبو عبد الله.

مروان بن الحكم: ٢٠٦.

مزيد: ١٩٤.

مسكويه: ١٦٢، ١٨٤.

المسيح عليه السلام = عيسى.

مشمشة المخنث: ١٩٣.

مصعب بن الزبير: ١٩٢.

مطر بن أبي الغيث: ١٧٢.

مطرف بن محمد وزير مرداويج: ١٦٩.

معاوية بن أبي سفيان: ١٩٩، ٢٠٦.

معز الدولة البويهى: ٢٧٩.

المعلم غلام الحصري: ٢٧٤.

معمر: ٢٤١.

المغيرة: ٢٢٩.

المغيرة بن شعبة: ٢٨١.

المفضل الصيرفي: ٢٨٢.

المفضل بن عمرو: ٢٨٢.

المقداد بن الأسود: ٢٢٢.

المقدسي = محمد بن معشر البيهقي أبو

سليمان.

المتشر بن وهب: ٢٨٩.

المنصور = أبو جعفر الخليفة.

منصور بن مهران: ٢٤٧.

منقاريوس: ١٨٣.

المهاجر بن أبي أمية المخزومي: ٢٠٦.

المهدي الخليفة: ١٨١، ٢٠٠.

موسى النبي عليه السلام: ١٧١، ٢٠٩،

٢٤١.

ميمون بن مهران: ١٩٣.

ميمون بن ميمون: ٢٠٣.

حرف النون

النابعة: ٢٩١، ٢٣٨.

ناشرة بن سمي: ٢٢٩.

الناطفي: ١٩٧، ٢١٠.

نافع: ٢٢٥.

نجاح الكاتب: ٢٠١.

النجاشي أصحابه بن أبجر: ٢٠٦، ٢٢٤،

٢٢٦.

نصر: ٢٦٨.

نضلة: ١٩٣، ١٩٦.

النظام: ٢١٦.

النعمان بن بشير: ٢٣٠، ٢٣٨.

النعمان بن المنذر: ٢٩١.

نهاية (جارية): ٢٧١.

النوشجاني: ١٦٩.

النيسابوري = أبو تمام.

حرف الهاء

هشام: ١٩٤.

هشام بن سالم: ٢٣٣.

هشام بن عبد الملك: ٢٠٠، ٢٦٨.

هند بن أسماء بن زنباع: ٢٨٩.

هوميروس: ١٨٨.

حرف الواو

الواسطي: ٢٧٦.

واشق الأشجعي: ٢٣١.

وهب (هو ابن منبه): ٢٤٨.

وهيب بن الورد: ٢٤٤.

حرف الياء

يحيى بن أبي يعلى: ٢٠٥.

يحيى بن زكريا عليه السلام: ١٧١.

يحيى بن عدي النصراني: ١٧١، ١٨٣.

يحيى بن علي: ٢٩٠.

يحيى بن معاذ: ٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٦.

يعقوب بن الليثي: ٢٠١.

يوسف بن يعقوب: ١٩٩.

الجزء الثالث

حرف الألف

الآمدي: ٣٠٥.

إبراهيم بن الجنيد: ٢٩٣.

إبراهيم (الخليل): ٢٩٣، ٣٣٨.

الأبرش الكلبي: ٣٨٥.

ابن أبي البغل: ٤١٦.

ابن أبي بكرة: ٢٩٤.

ابن أحمد: ٤٠٣.

ابن الأخشاد: ٣٩٨.

ابن آدم: ٣٠٥.

ابن آدم التاجر: ٣٧٥.

ابن أسادة: ٣٠٥.

ابن الأعرابي: ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨.

٢٩٠، ٢٩٨، ٣٠٥، ٣٠٦، ٤١٦.

٣١٩، ٣٢٩، ٣٣٤.

ابن أيوب القطان: ٣٧٥.

ابن بدر: ٣١٢.

ابن برمويه: ٣٩٩.

ابن البقال: ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٧.

ابن الثلاث: ٣٩٨.

ابن جبلة: ٣٩٩.

ابن الجصاص الصوفي: ٣٣١.

ابن حبيب: ٣٠٥، ٣٠٩، ٣١٢.

ابن الأزرق الجرجاني: ٢٧٦.

ابن إسحاق الطبري: ٢٧٥.

ابن بهلول: ٢٧٤، ٢٧٥.

ابن حجاج الشاعر: ٢٧٤.

ابن حرنبار = أبو محمد.

ابن حيويه: ٢٧٦.

ابن حسان القاضي: ٣٧٥، ٣٧٧.

ابن حفص (صاحب الديوان): ٤٠٧.

ابن درستويه: ٤٠٧.

ابن الدقاق: ٣٧٩.

ابن دينار: ٣١٥.

ابن رباط الكوفي شيخ الكرخ ونائب

الشيعة: ٣٧٥، ٣٩٨.

ابن الرضى: ٢٧٦.

ابن الرفاء: ٢٧٣.

ابن الزبير: ٣٩٠.

ابن زرعة النصراني أبو علي.

ابن زياد: عبيد الله.

ابن السراج: ٢٨٨، ٤٠٨.

ابن سكرة: ٣٣١.

- ابن السكيت: يعقوب .
 ابن سلام: ٣٠٦ .
 ابن السماك: ٣٧٧ .
 ابن سمعون: ٢٧٥ ، ٣٧٢ .
 ابن سورين: ٢٧٨ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ .
 ابن سيارة القاضي = أبو بكر .
 ابن سيرين: ٢٩٣ .
 ابن شاهويه = أبو بكر .
 ابن ضبعون الصوفي: ٣٣٠ .
 ابن الضحاك بن قيس الفهري: ٣٨١ .
 ابن طاهر: ٤٠٣ .
 ابن الطحان الضرير البصري: ٣٩٨ .
 ابن ظبيان التيمي: عبيد الله زياد بن ظبيان .
 ابن عامر: ٣٣٥ .
 ابن عباد (الصاحب): ٣٩١ ، ٢٩٢ .
 ابن عباس: ٣٢٨ ، ٣٣١ .
 ابن عبد المنصور: ٣٤٥ .
 ابنا عبيد: ٣١٧ .
 ابن عبيد الكاتب: ٣٢٩ .
 ابن عمر: ٢٩٤ ، ٣٢١ .
 ابن عياش (المتوف): ٣٨٥ ، ٣٨٧ .
 ابن غسان البصري: ٣٣٢ .
 ابن غسان القاضي: ٣٧٥ .
 ابن فارس = أبو الفتح .
 ابن قريعة: ٤٠٧ .
 ابن قرارة العطار: ٣٣٠ .
 ابن القرية: ٣١٦ .
 ابن كبروه: ٣٧٨ .
- ابن كيسان: ٢٩٥ .
 ابن المبارك: ٢٩٣ .
 ابن معروف القاضي: ٣٤٥ ، ٣٧٥ ، ٣٩٣ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ .
 ابن مقلة = أبو علي .
 ابن مكرم: ٣٢٧ ، ٣٧٥ .
 ابن نويرة: ٣٢٩ .
 ابن هيرة = عمر .
 ابن الهيثم: ٣٩٧ .
 ابن وصيف: ٤٠٣ .
 ابن اليزيدي: ٤١١ .
 ابن يوسف = عبد العزيز .
 أبو أحمد الجرجاني: ٣٧٥ .
 أبو أحمد الموسوي: ٣٧٩ .
 أبو أحمد بن الهيثم: ٤٠٧ .
 أبو الأرضة: ٣٧٨ .
 أبو إسحاق الصائبي: ٣٧٨ ، ٤٠٧ .
 أبو الأسود الدؤلي: ٣٠٨ ، ٣٨٧ .
 أبو أمية بن المغيرة: ٣١٨ .
 أبو أيوب الأنصاري: ٢٩٦ .
 أبو بردة بن أبي موسى الأشعري: ٣٨٧ .
 أبو بكر بن شاهويه: ٣٧٢ .
 أبو بكر أحمد بن إبراهيم: ٢٩٥ .
 أبو بكر الرازي: ٣٧٥ ، ٣٧٧ .
 أبو بكر الزهري: ٤٠٧ .
 أبو بكر بن سيار القاضي: ٣٧٥ .
 أبو بكر الصديق: ٢٩٦ ، ٣٤٧ ، ٣٧٢ ، ٣٩٩ .
 أبو بكر = عبد الله بن الزبير .

- أبو تمام الزينبي: ٣٤٥، ٣٧٥، ٤٠٧.
 أبو تمام (الشاعر): ٣٩٢..
 أبو الجراح (ابن عياش): ٣١٨، ٣١٩، ٣٨٧.
 أبو جعفر المنصور (الخليفة): ٣٨٩.
 أبو الجوزاء: ٣٠٧.
 أبو حاتم: ٣٣٣.
 أبو الحارث حميد: ٣١١.
 أبو الحارث = الليث بن سعد.
 أبو حازم المدني: ٢٩٤.
 أبو حامد المرورودي القاضي: ٣٤٥، ٣٩٣، ٤٠٧.
 أبو حزة = جرير الشاعر.
 أبو الحسن: ٣٧٥.
 أبو الحسن الضرير: ٢٤١.
 أبو الحسن الطوسي: ٢٩٧: ٢٩٨.
 أبو الحسن العامري: ٢٤٢.
 أبو الحسن = علي بن عيسى الرماني.
 أبو الحسن الهيثم: ٣٠٠.
 أبو الحسين البني: ٣٤٥.
 أبو حنيفة (الإمام): ٣٨٩.
 أبو خالد الكاتب = أحمد.
 أبو خالد مروان بن الحكم: (كذا) ٣٨١، ٣٨٩.
 أبو الخطاب الصابي: ٤٠٧.
 أبو خليفة المفضل بن الحباب: ٢٩٥.
 أبو الخندف: ٣٩٠.
 أبو الخير: ٣٤٨.
 أبو دلامة الأسدي: ٣٠٤.
 أبو الدود: ٣٧٨.
 أبو الذباب: ٣٧٨.
 أبو زكرياء الزاهد: ٣٤١.
 أبو زيد (النحوي)، ٣١٠، ٣٩١.
 أبو زين = بكر بن نطاح.
 أبو سعيد الحضرمي: ٣٩٦.
 أبو سعيد الخدري: ٢٩٤.
 أبو سعيد الخراز: ٣٤٣.
 أبو سعيد السيرافي: ٣٣٤، ٣٦٢، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٩٩، ٣٨٨، ٤٠٢، ٤٠٧.
 أبو سعيد بن العاص: ٣٨٢.
 أبو السفر: ٣٨٢.
 أبو سفيان (والد معاوية): ٣٨٧.
 أبو سليمان المنطقي: ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٥٩، ٣٥٨، ٣٤٩، ٣٤٨، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٩٣، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٩.
 أبو السؤل الكردي: ٤١٤.
 أبو شاكر بن هشام بن عبد الملك: ٣٨٥.
 أبو صالح: ٣٣١.
 أبو الصلت: ٣٢٢.
 أبو طفيلة الحرمازي: ٣٣٣.
 أبو الطمحن القيني: ٣٢٩.
 أبو العباس (صاحب جيش آل سامان): ٣٤٠.
 أبو العباس المبرد: ٣١٩، ٣٩٢.
 أبو عبد الله البصري: ٤٠٧.
 أبو عبد الله (هشام): ٢٩٧.

- أبو عبد الله اليزيدي : ٣٢٥ .
أبو عبد الله اليفرنّي : ٤٠٧ .
أبو عبيدة : ٢٩٧ ، ٣١١ ، ٣١٦ .
أبو عثمان الآدمي : ٣٩٨ .
أبو العلاء ساعد : ٤٠٧ .
أبو علقمة : ٣٩١ .
أبو علي : ٣٦٢ ، ٢٩١ .
أبو علي الحسن بن علي القاضي
التنوخي : ٣٧٢ .
أبو علي = عيسى بن زرعة .
أبو علي = عامر بن الطفيل .
أبو علي بن مقلة : ٣٣٠ .
أبو عمر الشاري : ٣٣٠ .
أبو عمرو : ٣٠٨ ، ٣٢١ .
أبو عمرو بن أمية : ٣١٨ .
أبو عيسى الوراق : ٣٩٥ .
أبو العيناء : ٣٢٧ .
أبو الفتح بن فارس : ٤٠٣ .
أبو فراس (الفرزدق) : ٣٨٣ ، ٣٩١ ،
٣٩٢ .
أبو فرعون الشاشي : ٣٠٩ ، ٣٢٧ .
أبو فرعون العدوي : ٢٩٥ .
أبو الفضل العباس بن الحسين الوزير =
العباس بن الحسين الوزير .
أبو القاسم الحارني : ٣٩٣ .
أبو القاسم أخو محمد القاضي : ٤٠٨ .
أبو القاسم = عبد العزيز بن يوسف .
أبو قحافة : ٣٨٢ .
أبو القمقام : ٣٢٧ .
أبو الكرشاء : ٣٠٨ .
أبو كعب الأنصاري : ٣٧٥ ، ٣٧٦ ،
٣٩٨ .
أبو لهب : ٣٨٩ .
أبو محمد = الحجاج بن يوسف الثقفي .
أبو محمد بن حرنبار (كذا) : ٣٧٢ .
أبو محمد الشالوسي : ٣٧٥ .
أبو محمد العروزي : ٣٩٢ .
أبو محمد الفارسي : ٤٠٧ .
أبو محمد القاضي : ٤٠٨ .
أبو محمد = مسعر بن مكرم .
أبو محمد المهلي : ٤٠٦ .
أبو مرزوق : ٣٠٥ .
أبو مزيد : ٤١٢ .
أبو مطر = عبيد الله بن زياد بن ظبيان
التمي : ٣٩٠ .
أبو منصور القطان : ٣١٤ .
أبو موسى الأشعري : ٣٨٧ .
أبو النجم : ٣٠٤ .
أبو النفيس : ٣٦٧ .
أبو النوايح : ٣٧٨ .
أبو هريرة : ٣١٥ .
أبو همام : ٣٩٩ .
أبو الوفاء المهندس : ٣٧٨ - ٣٧٧ .
أبو يزيد البسطامي : ٣٤٣ .
أبو يوسف (حاجب عبد الملك بن
مروان) : ٣٨٣ .
أحمد بن إبراهيم = أبو بكر .
أحمد بن أبي خالد الكاتب : ٣٣٣ .

أحمد بن روح الأهوازي : ٣٣١.

أحمد الطويل : ٤٠٧.

أحمد بن يوسف الكاتب : ٣٣٣.

الأحنف بن قيس : ٣٢١ ، ٣٨٥.

الأحوص الشاعر : ٣٩١.

الأخطل الشاعر : ٣٩٠.

أردشير : ٣١٢.

أرسطوطاليس : ٣٤٥.

إسحاق (النبي) : ٣٣٢.

إسحاق الموصلي : ٣٣٢ ، ٣٣٣.

أسد بن عبد العزى : ٣١٨.

أسد المحاسبي : ٣٤٣.

أسعد بن زرارة : ٢٩٦.

الإسكندر : ٣٤٤.

أسماء بن خارجة : ٢٩٢.

أسماء بنت عميس : ٣٢٨ ، ٣٩٠.

أسود الزبد : ٣٧٨.

الأسود بن المطلب بن أسد بن

عبد العزى : ٣١٨.

أسيد = أبو خالد.

الأصمعي : ٢٩٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ ، ٣١١ ،

٣١٣ ، ٣٢١ ، ٣٣٣.

الأعشى : ٢٩٧ ، ٣١٦ ، ٣٨٦.

الأعمش : ٢٩٣.

أم أيوب : ٢٩٦.

أم البنين : ٢٩٤.

أم الجلال : ٣٨٦.

أم الخندف : ٣٩٠.

أم عبّاد : ٣١٧.

أم هشام السلولية : ٣٠٠.

أمية أخو خالد : ٣٨٥.

أمية بن عبد الله بن خالد : ٣٨٤.

الأندلسي (أبو العباس) : ٣٠٠ ، ٣٦٠.

الأنصاري بن كعب : ٣٩٨.

حرف الباء

بثينة جميل : ٣٨٣.

البحثري : ٣٩٢.

بختيار (عز الدولة) : ٣٣٢ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ،

٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٤١٠.

بشار (ابن برد) : ٣٠٧.

بكر بن عبد الله المزني : ٢٩٣.

بكر بن نطاح : ٣١٧.

بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري :

٣٨٧ ، ٣٩١.

بهرام : ٤٠٥.

بهرام جور : ٣٨٦.

حرف الشاء

ثابت (ابن عبد الله بن الزبير) : ٣٨١ ،

٣٨٢.

ثمامة (ابن حوشب) : ٣٨٤.

الثوري : ٢٩٧ ، ٣٠٧.

حرف الجيم

جابر (ابن عبد الله) : ٣١٢ ، ٣٢١.

جابر بن قبيصة : ٣١٤.

الجاحظ : ٢٩٢ ، ٢٩٣.

جالينوس : ٣٦٢.

الجرجاني : ٤٠٨.

الحسن بن علي القاضي التنوخي = أبو
علي الحكم بن أبي سليمان: ٣٨١.
حماد بن أبي سليمان: ٢٩٤.
حماد بن أبي حنيفة: ٣٨٩.
حماد الراوية: ٣٢٦.
حمالة الخطب: ٣٨٩.
حمدان: ٣٣١.
حمران: ٣٩١.
حمزة بن بيض الحنفي: ٣٩١.
حمزة المصنف: ٣٣٤.
حملة ابن عاد (كذا): ٤١٦.
حميد: ٣٣٥.
الحنبلوني (كذا): ٣٠٥.
حوشب: ٣٠١، ٣٨٤.

حرف الخاء

خالد بن أسيد: ٣٨٢، ٣٨٤.
خالد الخصي: ٤٠١.
خالد بن صفوان بن الأهتم: ٣٢٢، ٣٨٣.
خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد: ٣٨٤.
خالد بن عبد الله (القصري): ٣٨٧.
خالد القرشي: ٣٨٤.
خالد بن الوليد: ٣٨١.
خالد بن يزيد بن معاوية: ٣٨٨.
الخطاب (والد عمر): ٣٤٦.
خديجة (أم المؤمنين): ٣٩٠.
الخليل: ٤٠٩.
خيثة: ٢٩٣.

حرف الدال

دفيف (كذا): ٣١٥، ٣١٧.

الجرجائي: ٤٠٨.
جرير (الشاعر): ٢٩٦، ٣٩١، ٣٩٢.
جعل: ٣٧٥.
جعفران الموسوس: ٣٢٤.
جميز: ٣٤٦.
جميل: ٣٨٣.
الجنيد بن عبد الرحمن: ٣٨٨.
الجنيد بن محمد الصوفي البغدادي
العالم: ٣٤٣.
جهم: ٣٩٨.
الجواليقي: ٣٩٤.

حرف الحاء

حاتم الأصم: ٢٩٣، ٣٣٥.
حاتم الطائي: ٣١٣.
الحاتمي: ٣٦٠.
الحارث بن أسد المحاسبي: ٣٤٣.
حاطب بن أبي بلتعة: ٣٨٨.
حامد اللفاف المتزهده (كذا): ٢٩٣.
الحجاج (ابن يوسف الثقفي): ٣٣٣،
٣٧٧، ٣٨٣، ٣٨٨، ٣٩٠.
الحاجي: ٣٢٨.
حذيفة: ٣٤٦.
حسان (ابن ثابت): ٣١١، ٣٨١، ٣٨٨.
الحسن: ٢٩٤.
الحسن البصري: ٣٠٩، ٣١٠، ٣٧٧،
٣٧٨، ٤٠٧.
الحسن بن سهل: ٣٣٥.
الحسن بن علي بن أبي طالب: ٢٩٢،
٣٨٩.

دوس : ٢٩٦.

ديك الجن : ٣٠٨.

حرف الذال

ذؤيب بن عمرو : ٢٩٩.

حرف الراء

الربضي : ٣٧٣.

رجاء بن سلمة : ٢٩٩.

رستم (صاحب الأعاجم) : ٣٤٦، ٣٤٧.

رقية بن مصقلة : ٣٠٩.

رويم : ٣٤٣.

حرف الزين

زامل بن عمر : ٣٨٨.

الزبرقان بن قدر : ٣٨٠.

الزبير : ٣٨٤.

الزبيرى : ٢٩٨، ٣٧٥.

زفر بن الحارث الكلابي : ٣٨٤.

الزهري : ٣٤٥.

زهير (ابن أبي سلمى) : ٣١٢، ٣٩٢.

الزهيري : ٣٩٨.

زياد : ٣١٣، ٣١٤، ٣٢٦، ٣٢٧.

٣٣٤، ٣٨٥.

حرف السين

سابق الزبيرى : ٣٢٩.

ساسنكر التركي (كذا) : ٤٠٨.

سالم : ٢٩٩.

سالم بن دارة : ٣٨٢.

السري : ٤٠٦.

سعد بن أبي وقاص : ٣٤٦.

سعد بن عبادة : ٢٩٦، ٣٨٣.

سعد المعالمي : ٤١٤.

سعيد بن سلمة : ٣٣٥.

سعيد بن العاص : ٣٨٢.

سعيد بن عبد الرحمن بن حسان : ٣٨٣.

سعيد بن عثمان بن عفان : ٣٨١.

سعيد بن أبي عروة : ٣٣٣.

سعيد بن المسيب : ٣٠٧.

السفاح بن بكر : ٣٣٤.

سمويه القاص : ٣٠٢.

سفيان الثوري : ٣١٠.

سفيان بن معاوية المهلبى : ٣٨٩.

سلمان (أي سليمان) : ٢٩٥.

سلمان الفارسي : ٣٣٤.

سلمة : ٣٢٧.

سليمى : ٣١٠.

سليمان بن ثوبة : ٢٩٥.

سليمان (ابن داود عليه السلام) : ٣٠٦،

٣٤٧.

سليمان بن عبد الملك : ٣٨٣، ٣٨٤،

٣١١.

سماعة بن أشول : ٣١٨.

سنان بن أبي حارثة : ٣٣٤.

السيرافي = أبو سعيد.

حرف الشين

الشالوسي = أبو محمد.

شرف بن ميرة : ٤١٥.

الشعبي : ٣٠٨، ٣٩٠.

شقيق البلخي : ٣٣٥.

شمر (ابن عاد) (كذا): ٣١٦.
الشنبوزي: ٢٩٨.

حرف الصاد

الصائب = أبو إسحاق.
صعصعة: ٣٨٧.
صفية (أم المؤمنين): ٣٩٠.
صهيب: ٢٩٦.

حرف الضاد

الضحاك بن قيس الفهري: ٣٨١، ٣٨٤.

حرف الطاء

طاهر بن محمد بن إبراهيم: ٤٠٣.
طفيل (ابن عاد) (كذا): ٣١٦.
طفيل العرائس: ٣١٩.
طلحة بن عبد الله: ٣٨٨.
طلحة بن عبيد الله: ٣١٤.
الطوسي: ٢٩٨.

حرف العين

عادية بنت فرعة الزبيرية (كذا): ٢٩٦.
عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن
كلاب العامري: ٣٢٧.
عامر بن عبد القيس: ٣٣٥، ٣٩٠.
عائشة (أم المؤمنين): ٢٩٥، ٣٢٧،
٣٩٠، ٣٩٩.
عباد بن زياد: ٣٨٣.
العباس بن الحسين الوزير: ٤٠٦، ٤٠٧.
العبداني: ٣٨٩.
عبد الأعلى القاص: ٢٩٩.
عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: ٣٨٩.

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت: ٣٨١،
٣٨٣.

عبد الرحمن بن حوشب: ٣٨٠.
عبد الرحمن بن خالد بن الوليد: ٣٨١.
عبد الرحمن بن سعيد القرشي: ٤٠١.
عبد العزيز بن يسار: ٣٠٠.
عبد العزيز بن يوسف: ٣٧٢، ٣٧٣،
٤١١.

عبد الله بن الزبير: ٣٨١، ٣٩٠.
عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي:
٣٨٩.

عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس:
٣٣٠.

عبد الملك بن مروان: ٣٣٥، ٣٨١،
٣٨٣، ٣٨٤، ٤٠١.

عبيد الله بن زياد: ٣٨٧.
عبيد الله بن زياد بن ظبيان: ٣١٦، ٣٨٥.

عبيد الله بن سليمان: ٣٣٩.

عبيد الله بن عباس: ٣١٢.

عتبة بن أبي سفيان: ٣٨٧.

عثمان بن خالد: ٣٩٧.

عثمان بن رواح: ٣١١.

عثمان بن عفان: ٣٨١، ٣٨٣، ٣٩٠،
٤٠٠.

عدة الدولة: ٣٧٦.

عرام بن شتير: ٣٨١.

عروة بن الزبير: ٣٩٠.

الغريان بن الهيثم الهجيمي: ٣٨٧.

عز الدولة = بختيار: ٣٣٢، ٣٧٤،

٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٤١٠.

عيسى بن زرعة: ٣٢٣، ٣٢٥، ٣٦١،
٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٩٩.
عيسى بن عمر: ٢٩٩.
عيسى بن مريم (عليه السلام): ٢٩٣،
٣٨٨.

حرف الغين

الغلابي: ٣٨٦.
غيلان الواعظ: ٣٩٠.

حرف الفاء

الفتح الموصلي: ٣٤٣.
فخر الدولة: ٤١٠.
الفراء: ٢٩٧.
فرح الرخجي: ٢٩٧.
الفرزدق: ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢١، ٣٨٣،
٣٩١.
فريعة: ٣٨٢.
فضل (رئيس الفرقة التي تنسب إليه):
١٨٨.

الفضل بن العباس: ٣٣٢.

حرف القاف

قتادة: ٢٣٦.
قتيبة (ابن مسلم): ٣٠٧، ٣٨٥.
قرزعة بن عاد (كذا): ٣١٧.
القومسي: ٤٠٨، ٤١٠.
قيس بن سعد بن عبادة: ٣٨٣، ٣٨٤.
قيصر: ٤٠٢.

حرف الكاف

الكروسي الشاعر: ٣٠٦.

عضد الدولة: ٣٧٢.
عطاء بن أبي صيفي: ٣٨١.
عقبة: ٣١٨.
عقيل (ابن أبي طالب): ٣٨٩، ٣٩٠.
عقيل بن علفة: ٣٢١.
عكرمة بن ربعي الشيباني: ٣٠١.
عليم بن خالد الهجيمي: ٣٨٥.
علي بن أبي طالب: ٣٩٠، ٣٩٨، ٤٠٠.
علي بن عبد الله: ٣٨٨.
علي بن عبد الله بن العباس: ٣٢٠.
علي بن عيسى: ٢٩٩.
علي بن عيسى الرماني (أبو الحسن):
٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨.
علي بن محمد (رسول سجستان): ٣٩٩.
علي بن محمد ذو الكفائتين: ٤٠٩.
عمار: ٣٠١.
عمّار (ابن عاد) (كذا): ٣١٦.
العماني الشاعر: ٣٢٠.
عمر (ابن الخطاب): ٢٩٦، ٢٩٧،
٣١٤، ٣٢١، ٣٢٩، ٣٣١، ٣٣٢،
٣٤٦، ٣٣٦.
عمر بن عبد العزيز: ٣٩٠، ٢٩٤.
عمر بن عمران: ٢٩٥.
عمر بن هبيرة الفزاري: ٣١١، ٣٨٢،
٣٨٧.
عمرو بن الأهم التميمي: ٣٨٠.
عمرو بن العاص: ٣١٤، ٣٨٩، ٣٩٠.
عمرو بن عثمان المكي: ٣٤٣.
العوامي: ٣٠٥، ٣٧٥، ٣٧٦.

المدائني: ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤.
 ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠.
 مرثد (ابن حوشب): ٣٨٤.
 مرعوش (رئيس الطائفة المرعوشية):
 ٣٩٣.
 المرقش الأكبر: ٣١٣.
 مروان بن الحكم = أبو خالد.
 مزبد: ٣٢٨، ٣٣٢.
 مسافر بن أبي عمرو بن أمية: ٣١٨.
 مسعر بن مكرم: ٣٠٩.
 مسكويه: ٤١٤.
 مسكين الدارمي: ٣٨٧.
 مسلم بن قتيبة: ٣٠٨، ٤٠٠.
 مسلمة بن عبد الملك: ٣٨٠، ٤٠١.
 المسيح (عليه السلام): ٣٩٩.
 مصعب بن الزبير: ٣٨٤.
 مطرف بن عبد الله بن الشخير: ٣١٥.
 المطلب بن أسد بن عبد العزى: ٣١٨.
 مطهر بن أحمد الكاتب: ٣٣٠.
 المطيع لله (أمير المؤمنين): ٣٧٦.
 معاوية (ابن أبي سفيان): ٣١٤، ٣٢٢،
 ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٨، ٣٨٩،
 ٣٩٠.
 معاوية بن صعصعة: ٢٩٩.
 معاوية المهلبى: ٣٨٩.
 المعتصم الخليفة: ٣٤٧.
 المعتضد (الخليفة): ٣٣٨، ٣٣٩،
 ٣٤٧.
 المعلّى بن أيوب: ٤٠٠.

كسج البقال (كذا): ٤١٤.
 كسرى: ٣٨٦، ٤٠٢.
 الكلابي: ٢٩٨.
 كلثوم بن الهدم: ٢٩٦.
 الكميت: ٢٩٧.
 الكندي: ٣٦٤.
 كهمس (كذا): ٢٩٥.

حرف اللام

لقمان (الحكيم): ٣٣٥.
 لقمان بن عاد: ٣١٦.
 لقيط بن زرارعة: ٣٢٩، ٣٤٥.
 الليث بن سعد: ٢٩٣.

حرف الميم

مالك بن دينار: ٢٩٣.
 مالك (ابن عاد): ٣١٦.
 مالك بن مسمع: ٢٨٨.
 المأمون (الخليفة): ٣٤٧، ٤٠٠.
 المبرد = (أبو العباس).
 مجاهد: ٣١٢.
 المحسن الضبي: ٣٣٤.
 محمد بن إبراهيم: ٣٤٠، ٤٠٣، ٤١٠.
 محمد بن بشير: ٣٠٥.
 محمد بن بقية: ٣٠٨.
 محمد بن خالد القرشي: ٣٨٤.
 محمد بن صالح بن شيان: ٣٧٥.
 محمد الصوفي البغدادي العالم: ٣٤٣.
 محمد بن عمارة: ٣٨٢.
 محمد بن عمر (الشريف): ٣٤٥.

معن بن أوس : ٣٠٠.

معن بن زائدة : ٣٨٩.

المغيرة بن شعبة : ٣١٤.

المفجع : ٣٠٩.

المفضل الضبي : ٣٩٠.

المقوقس (ملك الإسكندرية) : ٣٨٨.

المنصور (أبو جعفر الخليفة) : ٣٣٠،

٣٨٩، ٣٧٨، ٣٤٧.

منظور بن أبان : ٣٨٨.

المهلب (ابن أبي صفرة) : ٣٣٦.

مهلهل (ابن ربيعة الشاعر) : ٣٠٠.

موريس : ٣٦٢.

الموصللي (أبو إسحاق) : ٣٧٩.

ميسرة الرءاس : ٣٣٢.

ميمون بن مهران : ٢٩٣.

حرف النون

النابعة الشاعر : ٣٢٩، ٣٩٢.

نصر بن سيار : ٣٤٥.

نئض (ابن عباد كذا) : ٤٤٧، ٤١٦،

٤١٧، ٣٨٨، ٣٤٧.

حرف الهاء

هدية العذرى : ٤٠٢.

هرمز : ٢٤٧.

هشام : ٢٩٧.

هشام بن عبد الملك : ٢٩٩، ٣٨١،

٣٨٤، ٣٨٥، ٣٩٠، ٤٠١.

هشام المتكلم : ٣٩٤.

هشيم : ٣٠٦.

هلال بن مكمل النميري : ٣٨٢.

الهلاللي : ٣١٥.

هميان بن قحافة : ٣٠٧.

الهيثم بن جراد : ٣٢١.

حرف الواو

واصل بن عطاء : ٣٧٧.

الواقدي : ٢٩٦.

وكيع بن الجراح : ٣٣٠، ٣٨٧.

الوليد العنبري : ٣٨٢.

حرف الياء

يحيى بن أكنم : ٣٣١.

يحيى بن زكريا : ٣٨٨.

يحيى بن معاذ : ٣٣٦.

يزيد بن ربيع : ٣٣٠.

يزيد بن مسلم : ٣٨٣.

يزيد بن معاوية : ٣٨٨.

اليزيدي = أبو عبد الله.

يعقوب بن السكيت : ٣١١، ٣٣٥، ٣٤٦.

يونس : ٣١٢، ٣٢٩.

فهرس أسماء الأماكن

حرف الحاء

حضر موت: ٧٧

حرف الخاء

خرسان: ٥٤، ٧٤، ١٠٩، ١٥٤.

خوارزم: ٧٣.

حرف الدال

دارك: ١٠٨.

دبا: ٧٦.

دومة الجندل: ٧٦، ٧٧.

حرف الذال

ذو المجاز: ٧٧.

حرف الراء

راغة = الري

الراية: ٧٧

الري: ٣٤، ٥٠، ٥١، ٥٩، ١٠٥،

١٠٨.

حرف السين

سجستان: ٥٤، ١٠٢.

سُرْمَنْ رَأَى: ٦٩.

سَنَجَان: ٥٤.

حرف الشين

الشام: ٣٨، ٧٦، ١٣٧.

الجزء الأول

حرف الألف

أرجان: ٣٥.

إرم: ٧٦.

أردوال = أردوان: ٧٤.

أسكنان: ٧٤.

أصبهان: ٦٥.

أندلس: ٧٣.

الأهواز: ٣٥، ١٠٣.

حرف الباء

باب الجسر: ٥٩.

بابهان = أرجان.

بغداد: ٣٤، ٣٥، ٤٨، ٥٤، ١٠٣،

١٠٨.

البيت العتيق: ٤٥.

البيمارستان: ٥٠.

حرف التاء

تفليس: ٦١.

حرف الجيم

جرجان: ٥٩.

جيهان: ٧٤.

الشجر: ٧٦.

حرف الصاد

صحار: ٧٦.

صفين: ٦٩.

صنعاء: ٧٧.

الصين: ٧٠.

حرف الطاء

طيبة: ٧٤.

حرف العين

عدن: ٧٦.

العراق: ٣٨، ٤٥، ٧٦.

عرفة: ٧٧.

عكاظ: ٧٧، ١٥٣، ١٥٤.

عمان: ٧٦.

حرف الفاء

فرغانة: ٦١، ٧٤.

حرف الميم

مدينة السلام = بغداد.

المشقر: ٧٦.

مصر: ٦١، ٩٠.

حرف النون

نجد: ١٣٨.

النوبة: ١٢١.

نيسابور: ١٠٨.

حرف الهاء

هجر: ٧٦.

همدان: ٦٠، ١٠٧.

الهيبر: ٧٤.

الهند: ٧٤، ١٢١، ١٢٦.

حرف الواو

وبار: ٧٥.

حرف الياء

يبرين: ٧٤.

يونان: ١٢٤، ١٢٦.

الجزء الثاني

حرف الألف

الأبلة: ٢٠٠.

الأبواء: ٢١٠.

أحد: ٢١٨.

أدمى: ١٧٧.

أرمينية: ٢٢٤.

الإسكندرية: ١٩٥.

أصبهان: ٢٦٤، ٢٧٣.

حرف الباء

باب الطاق: ١٧٦، ٢٧١.

البحرين: ٢٠٦.

بدر: ٢٢٢.

البصرة: ١٦٣، ١٩١، ٢٠٠، ٢٧٣.

بغداد: ١٨٢، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٩٠.

بيستي: ١٦٣.

بين السورين: ٢٧٤.

حرف التاء

تبراك: ١٦٢.

تثليث: ٢٨٩.

ترباع: ١٦٢.

تعشار: ١٦٢.

حرف الجيم

جرجان: ٢٤٠.

جرش: ٢٠٦.

الجفرة: ١٩١.

جي: ٢٦٤.

حرف الحاء

الحجاز: ٢٠٤.

الحديبية: ٢٣٢.

حنين: ٢٣١، ٢١٩.

حرف الخاء

خراسان: ١٦٩، ٢٠٠، ٢٧٨.

حرف الدال

دار القطن: ٢٧٢.

دبيق: ٢٧٨.

دجلة: ٢٩١.

درب الزعفراني: ٢٧٤.

درب السلق: ٢٧١.

حرف الراء

الرصافة: ٢٧٦.

الري: ١٧٤، ١٨٤، ٢٦٤، ٢٩٠.

حرف الزين

زباله: ٢٦٣.

حرف السين

سجستان: ١٩٠.

السندية: ٢٧٧.

سوق العطش: ٢٨٠.

حرف الشين

شاش خراسان: ٢٧٩.

الشام: ٢٠٥، ٢٠٩.

شطا: ٢٧٨.

حرف الصاد

الصراة: ١٩٧.

صريفين: ٢٧٨.

صفين: ١٩٩.

صنعاء: ٢٠٦.

الصين: ٢٣٥.

حرف الطاء

الطائف: ٢٠٦.

حرف العين

العراق: ١٨١، ١٩٠، ١٩٦، ٢٠٤،

٢٥١، ٢٠٥.

عقبة همذان: ٢٩٠.

عمان: ٢٠٦.

حرف الفاء

فدك: ١٧٨، ٢١٨.

حرف القاف

القادسية: ٢٦٤.

قروين: ١٧٠.

قف النخلتين: ١٧٨.

حرف الكاف

الكرخ: ١٩٦، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٨، ٢٨٠.

الجزء الثالث

حرف الألف

أجباد: ٣٨١.

أحد: ٣٨٣.

أذربيجان: ٣٧٦.

أردبيل: ٣١٤.

الإسكندرية: ٣٦٢.

أصبهان: ٣٠٥، ٣٢٧.

الأهواز: ٣٢٧.

حرف الباء

باب الطاق: ٣٣٨، ٣٩٣.

باجميري: ٣٠٠.

البصرة: ٣٠٩، ٣٧٢، ٣٨٤، ٣٩٣،

٤١٤.

البطائح: ٤١٤.

بغداد (دار السلام): ٣٢٧، ٣٩٣، ٣٩٨.

البقيع: ٢٩٨.

البيت (بيت الله الحرام): ٣٠٦.

البيضاء: ٣٧٣.

بين السورين: ٣٧٩.

حرف التاء

تبالة: ٣٨٥.

تستر: ٣٢٦.

تهامة: ٣٠٦.

حرف الجيم

الجامع: ٣٧١.

جامع البصرة: ٣٤٥.

جبال شمام: ٣٧١.

الكعبة اليمانية = ذو الخليفة.

كلواذي: ٢٧٣.

الكوفة: ١٩١، ١٩٥، ٢٢٩.

حرف الميم

المدينة: ٢٠٥، ٢١٠، ٢٢٢، ٢٤٧،

٢٦٧، ٢٧٢.

المربد: ١٩٦.

المشرق: ١٧٤.

مصر: ١٩٩.

مطرق: ١٧٧، ١٧٨.

المغرب: ١٧٤.

مكة: ٢٠٦، ٢٠٨، ٢١٠.

منى: ٢٨١.

الموصل: ٢٩١.

حرف النون

نجران: ٢٠٦.

نيسابور: ١٦٩.

حرف الهاء

الهند: ١٦٣، ٢٣٥.

حرف الواو

الوراقين: ١٦٧.

حرف الياء

يبرين: ٢٨٦.

اليمن: ١٩٩.

اليهودية: ٢٦٤.

الجبيل: ٣٧٦، ٤١١.

جرجان: ٣٩٥.

حرف الحاء

الحجاز: ٣٧٦.

الحرم: ٣٠٦.

حرف الخاء

خراسان: ٣٤٦، ٣٧٧، ٣٨٤، ٣٨٨، ٤٠٠.

حرف الدال

درب الحاجب: ٤١٣، ٤١٤.

درب الرؤاسين: ٤١٣.

حرف الراء

رحى البطريق: ٣٧٨.

الرصافة: ٤٠١، ٤٠٤.

الري: ٢٩٢.

حرف السين

سجستان: ٣٧٥، ٣٩٦، ٣٩٩.

سلمى: ٤٠٢.

سوق يحيى: ٣٧٥.

حرف الشين

الشام: ٣٢١، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٧٥.

حرف الصاد

الصراة: ٣٧٨.

صفين: ٣٩٠.

صنعاء: ٤٠٤.

الصين: ٣٥٨.

حرف الطاء

الطائف: ٣٩٠.

حرف العين

العراق: ٣٨٧، ٣٨٨، ٤٠٤، ٤١٠.

العقيق: ٣٢٧.

عمان: ٣٨٥.

حرف الغين

الغضا: ٣١١.

حرف الفاء

فارس: ٣٢٦، ٣٤٤، ٣٤٧.

حرف القاف

قباء: ٢٩٦.

قرميسين: ٤٠٣، ٤١٣.

قزوين: ٣١٤.

قنطرة الزبد: ٣٧٨.

حرف الكاف

الكرخ: ٣٧٥، ٣٧٨.

الكعبة: ٣٩٥.

الكوفة: ٣٢١، ٣٣٢، ٣٤٦، ٣٧٤.

٣٧٥.

حرف الميم

المدينة: ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٣، ٣١١.

٣٨١، ٣٨٢، ٣٨٤.

مدينة السلام (بغداد): ٣٧٤، ٣٧٥.

٤١٠.

مسجد بن رغبان: ٣٧٩.

مشرة الروايا: ٤١١.

نصيبين : ٣٧٤.	مصر : ٣٧٥ ، ٣٨٩.
النقيع : ٢٩٨.	مكتب الربضي : ٣٧٣.
نهر الصراة : ٣٧٨.	مكة : ٣٠٦ ، ٣٢٧ ، ٣٣٣ ، ٣٤٧ ،
نيسابور : ٣٤٠ ، ٣٨٨ ، ٤١٠.	٣٨١ ، ٣٨٢.
حرف الهاء	مهرجان قذق : ٣٢٦.
همذان : ٣٧٢ ، ٤١٠.	الموصل : ٣٤٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٦.
حرف الياء	حرف النون
اليمن : ٣٧٦ ، ٤٠٤.	النباج : ٣١٩.
	نجران : ٣٧١.

فهرس القبائل والأمم والفرق

حرف الخاء

الخرمية: ١٠٨.

حرف الراء

الروم: ٧٠، ٧٢، ١٢٦، ١٤٧.

حرف الزاي

الزيدية: ٦١.

الزنج: ٧٠، ٧٢، ٧٣، ١٤٧.

حرف السين

السودان: ١٤٧.

حرف الصاد

الصابئون: ٨٠، ١٠٠.

الصحابة: ٤٦.

صقلاب: ٧٤.

الصوفية: ٣٦.

حرف الطاء

الطبيعيون: ٨٩.

حرف العين

العجم: ٥٦، ٧٠، ٧٣، ٧٧.

العرب: ٤٥، ٤٦، ٥٦، ٧٠، ٧١.

٧٢، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٩، ٨٠.

٨١، ٨٢، ٨٩، ٩١، ٩٣، ٩٤، ٩٨.

الجزء الأول

حرف الألف

آل ابن ثوبة: ٨٣، ٨٦.

آل ابن وهب: ٨٦.

آل سامان: ٩٠، ١٠٢.

الأتراك = الترك.

أهل الذمة: ٨٤.

حرف الباء

البصريون: ٤٦.

البغداديون: ٤٣.

بنو أسد: ٧٤.

بنو تميم: ٧٧.

بنو عبد الله بن دارم: ٧٦.

بنو عبد المطلب: ٧٣.

حرف التاء

التابعون: ٤٦.

الترك: ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨٥، ٩٤.

١٠٦، ١٠٩، ١٤٧.

حرف الجيم

الجبرية: ٦٢.

حرف الحاء

الحكماء: ١١٠، ١١٢.

الجزء الثاني

حرف الألف

- آل أبي طالب: ٢٠٥.
 آل النبي محمد ﷺ: ٢٠٥، ٢٠٧.
 الإباضية: ٢٠٨.
 الاثنا عشرية: ٢٠٨.
 إسحاقية: ٢٠٨.
 أشجع: ٢٣١.
 الأشجعية: ٢٠٨.
 الأشعرية: ٢٠٨.
 الإماميون: ٢٨٢.
 الأنصار: ١٧٨، ١٧٩، ٢٢٥.
 أهل الذمة: ٢٩١.

حرف الباء

- البرغوثيون: ٢٨٢.
 بنو إسرائيل: ٢٤٤.
 بنو أمية: ٢٠٥، ٢٠٦.
 بنو تغلب: ١٩٩.
 بنو عامر: ٢٢٢.
 بنو عبد مناف: ٢٣٠.
 بنو عدي بن النجار: ٢١٠.
 بنو عقيل: ٢٦٨.
 بنو العنبر: ١٦٢.
 بنو فهر: ٢٣٠.
 بنو كلاب: ٢٦٣.
 بنو لهب: ٢٦٨.
 بنو مروان: ٢٠٦.
 بنو نفيل بن عمرو بن كلاب: ٢٨٩.

١٠١، ١٠٢، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٣.

العراقيون: ٦٥.

حرف الفاء

- الفرس: ٧٠، ٧٢، ٧٩، ٨١، ٩١.
 الفلاسفة: ١٣٩.

حرف القاف

القرامطة: ٥٥، ٥٧.

حرف الكاف

- كلب: ٧٦.
 الكوفيون: ١٠٢.

حرف الميم

- المعتزلة: ٦١، ١٠٨.
 الملحدة: ٦٢، ١٠٨.
 المنطقيون: ٨٩، ٩٧.
 المهندسون: ٨٩.
 النحويون: ٨٩، ٩٥، ٩٧.
 النصاري: ٨٠.

حرف الهاء

- الهنود: ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٨١، ٩١، ٩٤.
 ١٢٦، ١٤٧.

حرف الياء

- اليهود: ٨٠.
 يونان: ٧٢، ٧٩، ٩٤، ١٢٤، ١٢٦، ١٤٧.

بنو هاشم : ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

حرف الجيم

الجارودية : ٢٠٨ .

الجبائية : ٢٠٨ .

الجبرية : ٢٠٨ .

جشم : ١٨٥ .

جهينة : ١٧٧ .

حرف الحاء

الحارثية : ٢٠٨ .

الحكماء : ١٧٧ ، ٢٠٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ .

الحنبليون : ٢٨٢ .

حرف الخاء

الخوارج : ١٦٦ ، ٢٠٨ .

حرف الراء

الرافضية : ٢٠٨ .

الراوندية : ٢٠٨ .

الروم : ٢٥٤ .

حرف الزين

الزعفرانية : ٢٠٨ .

الزنج : ٢٥٤ .

الزيدية : ١٦٩ ، ٢٨٢ .

حرف السين

السنية : ١٦٦ .

حرف الشين

الشيعية : ٢٠٨ .

الشيعة : ١٦٦ ، ١٦٩ ، ٢٨٢ .

حرف الصاد

الصابئون : ١٦٩ .

صحابه رسول الله ﷺ : ٢٠٨ .

الصدف : ٢٠٦ .

الصوفية : ٢٦٣ ، ٢٧٤ .

حرف الطاء

الطبريون : ٢٨٢ .

طيء : ١٧٧ ، ١٧٨ .

حرف العين

العجم : ٢٠٧ .

العرب : ١٧٧ ، ٢٢٢ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٧ .

حرف الفاء

الفلاسفة : ١٦٦ ، ١٦٧ .

الفقهاء : ٢٥٢ .

حرف القاف

القدرية : ٢٠٨ .

القرامطة : ٢٠٨ .

قريش : ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ .

القطعية : ٢٠٨ .

حرف الكاف

كندة : ٢٠٦ .

حرف اللام

اللغويون : ٢٥٢ .

لهب = بنو لهب

حرف الميم

المجوس: ١٦٦، ١٨٠، ٢٠٨.

المرجئة: ١٦٦.

المستدركة: ٢٠٨.

المسلمون: ٢٠٨.

مضر: ٢٨٩.

المعتزلة: ١٦٦.

المفضلون: ٢٨٢.

حرف النون

الناجمون: ١٧٠.

النجارية: ٢٠٨.

النحويون: ٢٥٢.

النصارى: ١٦٦، ١٩٦، ٢٠٨.

النصيرية: ٢٠٨.

نفيل بن عمرو بن كلاب = بنو نفيل.

حرف الهاء

الهجريون: ١٧٠.

هوازن: ١٧٧.

حرف الياء

اليهود: ٢٠٨.

يونان: ١٦٥، ١٧١، ١٧٤، ٢٦٢.

الجزء الثالث

حرف الألف

آل أبي طالب: ٣٤٧.

آل أبي معيط: ٣٨٧.

آل سامان: ٣٤٠، ٣٤١.

الأعاجم: ٣٨٦.

الأنصار: ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤.

حرف الباء

باهلة بن يعفر: ٣٨٥.

بكر بن وائل: ٣٨٥.

بنو بدر: ٣١٤.

بنو تيم الله: ٣٠١.

بنو الجلاح: ٢٩٩.

بنو دبير: ٣١٧.

بنو عبادة: ٢٩٨.

بنو العباس: ٣٤٧.

بنو غاضرة: ٣١٧.

بنو النجار: ٣٨٢.

بنو نصر: ٤٠٢.

بنو نمير: ٣٨٢.

حرف التاء

الترك: ٣٠٠، ٣٦٢، ٣٨٦.

تميم: ٣٨٥.

حرف الخاء

الخزرج: ٣٨٧.

خوزان: ٢٩٥.

حرف الدال

الديلم: ٤٠٧.

حرف الذال

ذوو مليحا (كذا): ٤١١.

حرف الراء

الروم: ٣٦٢، ٣٧٤.

حرف السين

سخينة (لقب لقريش): ٣٨٥.

حرف الشين

شيبان: ٣١٥.

حرف الصاد

الصوفية: ٣٤٠، ٣٤٣، ٣٧١.

حرف العين

عاد: ٣١٦، ٣٤٧.

العجم: ٣٨٦، ٣٩٤.

عدنان: ٢٩٥.

العرب: ٢٩٧، ٢٩٨، ٣٠٦، ٣١١،

٣١٦، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢٢، ٣٢٦،

٣٢٧، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤٤، ٣٤٦،

٣٤٧، ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٨٦.

حرف الفاء

فزارة: ٣٠٤.

حرف القاف

القحاطنة: ٢٩٥، ٣٨٦.

قريش: ٣١٨، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤،

٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠.

قيس: ٣٨٤.

حرف الكاف

الکرد: ٣٦٢.

كعب: ٣٨٢، ٣٨٣.

كلاب: ٣٨٢، ٣٨٣.

كلب: ٣٨٥.

كليب بن وائل: ٣٠٩.

حرف الميم

مجاشع: ٣٢٠.

مزينة: ٣٨٨.

حرف النون

النبط: ٢٩٥.

النصارى: ٣٩٥.

نمير = بنو نمير.

حرف الهاء

همدان: ٣٨٦.

حرف الياء

اليهود: ٣٨٨.

يونان: ٣٤٥.

فهرس أسماء الكتب

الجزء الأول

حرف الألف

إصلاح المنطق: ١٥٧.

إنقاذ البشر من الجبر والقدر: ١٥٥.

إيساغوجي: ٥٠.

حرف الباء

البدل: ٦٣.

حرف الحاء

الحيوان للجاحظ: ٣٥، ٦٣.

حرف الفاء

فردوس الحكمة: ٦٣.

الفلاحة: ٧٩.

حرف القاف

قاطيغورياس: ٥٠.

حرف الكاف

كتاب إقليدس: ٧٩.

كتاب للجهاني في الطعن على العرب:

٧٤.

كتاب سيويه: ١٠٢، ١٠٣، ١٥٤.

حرف الميم

المجسطى: ٧٩.

الموسيقى: ٧٩.

حرف الهاء

هزار أفسان: ٤٥.

الجزء الثاني

حرف الراء

رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء:

١٦٣، ١٦٨.

السماء والعالم: ٢١٥.

حرف النون

النواميس لأفلاطون ١٧٣.

الجزء الثالث

حرف التاء

التاجي لأبي إسحاق الصابئ: ٣٧٨.

التصنيف: ٣٩١.

فهرس المحتويات

الجزء الأول

٥	تقديم
٦	ترجمة المؤلف
٢٤	نبذة عن كتاب الإمتاع والمؤانسة
٤٣	الليلة الأولى
٤٨	الليلة الثانية
٥٤	الليلة الثالثة
٥٩	الليلة الرابعة
٦٨	الليلة الخامسة
٧٠	الليلة السادسة
٨٣	الليلة السابعة
٨٨	الليلة الثامنة
١٠٩	الليلة التاسعة
١١٨	الليلة العاشرة
١٣٩	الليلة الثالثة عشرة
١٤٤	الليلة الرابعة عشرة
١٥١	الليلة الخامسة عشرة
١٥٥	الليلة السادسة عشرة

الجزء الثاني

١٦٢	الليلة السابعة عشرة
١٩١	الليلة الثامنة عشرة
١٩٨	الليلة التاسعة عشرة
٢٠٤	الليلة العشرون

٢١١ الليلة الحادية والعشرون
٢١٣ الليلة الثانية والعشرون
٢١٨ الليلة الثالثة والعشرون
٢٣٣ الليلة الرابعة والعشرون
٢٤٩ الليلة الخامسة والعشرون
٢٥٨ الليلة السادسة والعشرون
٢٦٢ الليلة السابعة والعشرون
٢٦٨ الليلة الثامنة والعشرون

الجزء الثالث

٢٨٤ الليلة التاسعة والعشرون
٢٨٨ الليلة الثلاثون
٢٩٠ الليلة الواحدة والثلاثون
٣٠٤ الليلة الثانية والثلاثون
٣٢٦ الليلة الثالثة والثلاثون
٣٣٧ الليلة الرابعة والثلاثون
٣٤٨ الليلة الخامسة والثلاثون
٣٦٠ الليلة السادسة والثلاثون
٣٦١ الليلة السابعة والثلاثون
٣٧٢ الليلة الثامنة والثلاثون
٣٨٠ الليلة التاسعة والثلاثون
٣٩٢ الليلة الأربعون
٤٠٤ رسالتان كتب بهما المؤلف إلى الوزير

الفهارس العامة

٤١٩ فهرس الأعلام
٤٤٩ فهرس أسماء الأماكن
٤٥٥ فهرس القبائل والأمم والفرق
٤٦١ فهرس أسماء الكتب
٤٦٣ فهرس المحتويات